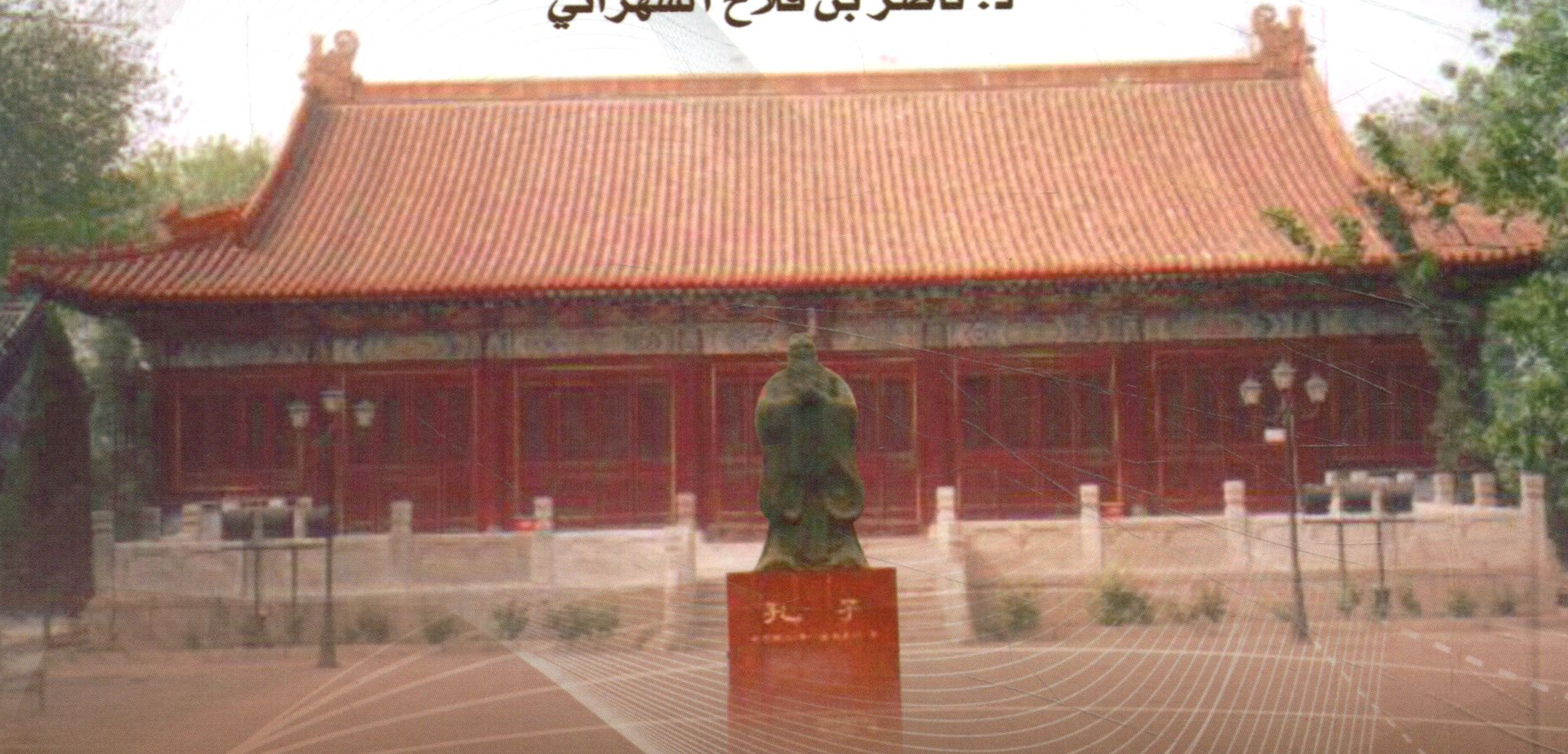


مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

الكونفوشيوسية

ماضيها، حاضرها، موقف الإسلام منها

د. ناصر بن فلاح الشهراني



الكونفوشيوسية

ماضيها، حاضرها، موقف الإسلام منها

د. ناصر بن فلاح الشهراني

ح مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الشهراني، ناصر بن فلاح

الكونفوشيوسية.. ماضيها، وحاضرها، وموقف الإسلام منها. /

ناصر بن فلاح الشهراني .ـ الرياض، ١٤٣٢هـ.

٥٥٨ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٤-٢٤-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨

١ ـ الكونفوشيوسية ٢ـ الديانات القديمة أ ـ العنوان

ديوي ٢٢٩,٥١٢ ١٤٣٢/٤١٣٨

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٤١٣٨

ردمك: ٤-٢٤-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

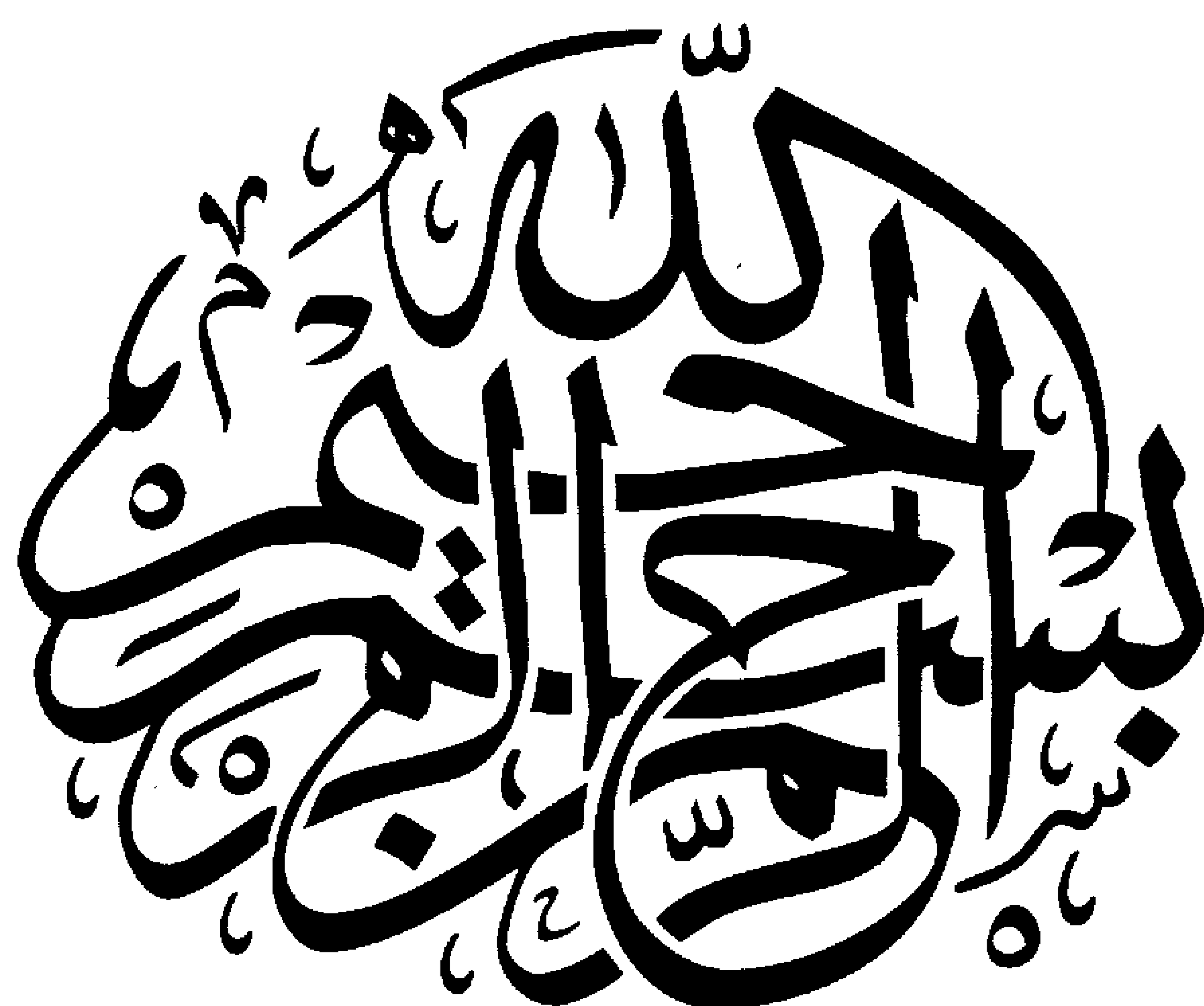
أصل هذا الكتاب رسالة مقدمة لنيل الدكتوراه، تقدم بها الباحث

لقسم العقيدة بكلية أصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣

المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد، فإن الله بعث نبيه محمداً ﷺ أفضل رسله، وأنزل عليه أكمل كتبه، على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب، وطموس من السبل، وأهل الأرض في جاهلية جهلاء، لا يعرفون من الحق رسماً، ولا يقيمون له حكماً، فهم ما بين عابد للأوثان، أو عابد للنيران، أو عابد للصُّلبان، قد استهواه الشيطان، وسدَّ عليه طريق الهدى والإيمان. قد «نظر الله إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربَهم وعجَمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليَك وأبتليَ بك»(١).

فجاء رسول الله ﷺ والناس أحوج إلى رسالته من الأرض الميتة إلى غيث السماء، ليغيث الله به القلوب، ويخرجها من الظُّلمات إلى النور.

فقام فيهم ﷺ مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، حتى ترك أمته على المحجة البيضاء والطريق الواضحة الغرَّاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فجزاه الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته.

---

(١) جزء من حديث يرويه عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ح (٢٨٦٥) (٤/٢١٩٧).

ثم إن من الديانات الوضعية المعاصرة (الكونفوشيوسية) التي سادت كل الديانات السابقة والمعاصرة في الصين، وأصبحت مرادفةً لكلمة [صيني] على حد قول د. فؤاد محمد شبل "ليست الكونفوشيوسية مجرد معتقد يقر به المرء أو يلفظه، فهي قد غدت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع، وقسماً ملتصقاً بفكر الأمة كمجموعة، بل لقد أضحت المعنى المقصود من كلمة [صيني] وليست المصنفات الكونفوشيوسية مجرد شريعة طائفة معينة وسننها، لكنها التراث الفكري للشعب بأسره"(١). إذ الكونفوشيوسية تعدُّ أم الديانات الصينية وأكثرها انتشاراً حيث تمثل العمق الديني داخل كيان الفرد الصيني، بل والأمة الصينية.

فالمزج بين الفلسفة الخلقية والتعاليم الدينية واضح في التعاليم الكونفوشيوسية، التي صاغ مشروعها كونفوشيوس في القرن السادس قبل الميلاد، ولكنها ليست من ابتكاره بقدر ما هي صياغة لما كان يسود الصين من فلسفات وأفكار، لهذا التزمَها أهل الصين، ولا يزالون، على مدى خمسة وعشرين قرناً، وبات يصعب الحديث عن الصين دون الكونفوشيوسية.

وقد سيطرت الكونفوشيوسية سيطرة شاملة على ما يسود في بلاد الصين من سياسة وفكر وثقافة وقِيَم وطقوس بشكل لم يتحقق مثيلُه لأي مذهب آخر من المذاهب المماثلة. وكانت مبادئ الكونفوشيوسية أساس التعليم والتشريع ومادة امتحان لدخول الوظائف العامة إلى حين قيام الشيوعية في الصين، حيث حاول ماوتسي تونغ ومَنْ معه وقف سلطان الكونفوشيوسية، ولكن ذلك لم يعطل كلياً فكراً ترسَّخ في مجتمع الصين وحضارة هذا البلد مئات السنين، وهي دين مئات الملايين في الصين الذين يقاربون خمس سكان المعمورة.

ثم ما لبثت الكونفوشيوسية أن تغلبت على النزعة الشيوعية وانتصرت عليها، كما استطاعت أن تصهر البوذية في القالب الكونفوشيوسي الصيني. ويرى دعاة

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١- ص ٦٣.

العولمة هذه الأيام أنه إذا اتحدت الكونفوشيوسية مع الإسلام شكَّلا سداً منيعاً ضد هيمنة سياسة العولمة بقيادة منفردة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.

لما رأيت هذا ورأيت أن من واجبي، بوصفي واحداً من أبناء الأمة الإسلامية التي ناط الله بهم نشر دين الإسلام وبيان زيف وخطأ الديانات الوضعية ـ التي زيَّنها الشيطان لكثير من الأمم التي انحرفت عن المنهج الحق، وانساقت وراء شهواتها، سائرةً على غير هدى الله، فضلت الطريق وأضلت عن سواء السبيل ـ اخترت [الكونفوشيوسية] موضوعاً لرسالة الدكتوراه، حتى أبين ملامحها ومعتقداتها وأفكارها وأظهر ما فيها من انحرافات مخالفة للعقيدة الصحيحة والفطرة السليمة، وأعرِّف بأثرها على الإسلام والمسلمين، وما ينبغي لهم أن يقوموا به تجاه ذلك، خاصةً في مثل هذه الظروف التي يعيشها العالم في الوقت الحاضر؛ من خواء روحي وانهيار أخلاقي، مما يدفعه للبحث عن بعض ما يوجد لدى الكونفوشيوسية من تعاليمَ وأخلاق يظن أنها قد تحل بعض ما لديه من إشكاليات.

ولقد بدا من الملحوظ ظهور بعض ملامح عودة الكونفوشيوسية والاهتمام بها، ليس في الصين فحسب، بل في أماكنَ متفرقة من العالم، كما يلحظ اهتمام كثير من دول العالم بالثقافة الصينية، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي وقعت في أمريكا، وسارعت كثير من الدول لعقد المعاهدات والصفقات معها. كما يلحظ الاهتمام الإعلامي البارز بمستقبل الصين، وأنها القوة الكبرى التي ستسود العالم...

ولاشك أن الموضوع من الصعوبة بمكان، وخوض غماره ليس بالسهل، ولكن لما رأيت أهميته ـ خاصة فيما يتعلق بعقيدة المسلمين، وحاجة الأمة لدراسة مثل هذه الديانة وبيان خطرها ـ عقدت العزم، بعد توفيق الله، على المضيِّ فيه، وبذل قصارى الجهد، راجياً العون والتسديد من الله تعالى.

ثم لا أنسى دعم من شجعوني على الإقدام ومؤازرتهم، لما رأوا حيرتي وترددي،

لا لشيء، ولكن لما لحظت من عدم وجود مراجع كافية للموضوع باللغة العربية، ولصعوبة نطق الصينية، فضلاً عن تعلمها أو ترجمتها إلى العربية، وللقصور الواضح من علماء العرب والمسلمين في دراسة كتب التراث الصيني وترجمتها، ولبعد المسافة بيننا وبين الصين. كل هذا وغيره جعلني أفكر طويلاً: هل سأستطيع خوض غمار هذا الموضوع وإخراجه على الوجه المطلوب. ولا أذيع سراً إذا قلت: إنني ترددت كثيراً؛ لأنني لم أجد من المراجع ما يطمئنني، فألححت في دعائي لربي، بين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات، وفي الملتزَم، وعند شرب ماء زمزم، وفي الثلث الأخير، فأذن الله بالفرج، وهيَّأ الله لي من السبل ما أعانني على الإقدام، فارتاحت نفسي، واطمأن فؤادي، فانطلقت أجمع من هنا وهناك شتات هذا الموضوع، من المكتبات في الجامعات والمراكز ودور النشر، ثم سافرت إلى مصر عدة مرات أبحث في مكتباتها وفي المعرض الدولي للكتاب، وراسلت بعض الجامعات والمكتبات ودور النشر في سوريا وباكستان، ومع ذلك كله لم أجد كلَّ ما أبحث عنه، فعزمت على الذهاب إلى الصين، وقمت ـ بعد توفيق الله ـ برحلة علمية إلى بلاد الصين، أتجول في وسط الصين وشرقها وغربها وشمالها، أبحث عن كل ما يفيد في مجال موضوعي، فزرت الجامعات والمراكز والمعابد، والأماكن التي يجتمع فيها الكونفوشيوسيون، وكذا أماكن المسلمين. والله وحده يعلم ما مر بي من صعوبات في هذه الرحلة، لا يتسع المجال لذكرها، لكني ـ ولله الحمد ـ استفدت فائدة عظيمة، وانفتحت لي آفاق جديدة، ونظرت إلى واقع حال إخواننا المسلمين في الصين، فتألمت كثيراً لتقصيرنا في حقهم، ونظرت إلى حال بقية أهل الصين وما يعانونه هذه الأيام من خواء روحي واضطراب نفسي، فأحسست بالتقصير الكبير من قبل المسلمين في نشر ما حباهم الله من هذه النعمة العظيمة، نعمة الإسلام، وإخراج هؤلاء وأمثالهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق وبؤس ما يعانونه هذه الأيام في هذه الدنيا إلى سعة

الآخـرة. فكانـت رحلة مـوفَّـقـة، وعـدت منهـا بفـوائدَ جـمَّـة، في مـوضـوع الكونفوشيوسية وغيره، فأحمد الله جل وعلا، وله الفضل أولاً وآخراً.

منهج الكتاب:

لم يكن منهجي في الكتاب قاصراً على منهج واحد بعينه؛ حيث اقتضت طبيعته أن أتبع عدة مناهج. من أهمها المنهج التاريخي، والمنهج التحليلي، والمنهج النقدي، وأحياناً المنهج المقارن. ففيما يتعلق بتاريخ الكونفوشيوسية والكلام عن أبرز شخصياتها اتبعت غالباً المنهج التاريخي، وعندما تكلمت عن العقائد اتبعت المنهج التحليلي والنقدي والمقارن أحياناً، وعندما عرضت لموقف الإسلام من الكونفوشيوسية كان المنهج النقدي هو المتبع غالباً، والمنهج التاريخي أحياناً، كما أنني قد التزمت منهج البحث العلمي أثناء الكتابة، وكنت أنقل المعلومات من مصادرها الأصلية، وأحيل إلى ذلك في الهامش، وإن كان هناك تصرُّف مني في النص أشرت إلى ذلك. وعند كتابة المصدر اتبعت طريقةً رجحتها؛ وهي أني أكتب اسم الكتاب أولاً، ثم اسم المؤلف، ورقم الجزء إن وجد، ثم رقم الصفحة، كما عزوت الآيات إلى موضعها في الكتاب العزيز، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية، وعزوت الأحاديث والآثار الواردة في البحث إلى مصادرها الأصلية؛ فإن كان الخبر في الصحيحين أو أحدهما، فإنني أكتفي بعزوه إلى موضعه فيهما، فإن لم يكن الخبر في الصحيحين أو في أحدهما، فإنني أكتفي بعزوه إلى موضعه في بقية الكتب الستة. كما ذكرت ترجمة موجزة للأعلام غير المشهورين الذين ورد ذكرهم في البحث، كما عرَّفت ببعض الأديان والمذاهب والمصطلحات حسب ما توفر لي من مراجع. وقد وضعت فهرساً موضوعياً في أول الكتاب يساعد القارئ على الوصول إلى محتوياته.

خطة الكتاب التفصيلية: جاء الكتاب في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة:

المقدمة: وفيها الكلام عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة الكتاب.

الباب الأول: الحالة الدينية والاجتماعية والسياسية في الصين إلى ظهور الكونفوشيوسية. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحالة الدينية.

الفصل الثاني: الحالة الاجتماعية.

الفصل الثالث: الحالة السياسية.

الباب الثاني: نشأة الكونفوشيوسية. وفيه ثلاثة فصول أيضاً:

الفصل الأول: ظهور كونفوشيوس.

الفصل الثاني: أبرز الشخصيات بعد كونفوشيوس.

الفصل الثالث: تطورالكونفوشيوسية وافتراقها وتأثيرها في الحياة الدينية في الصين.

الباب الثالث: معتقدات الكونفوشيوسية وأفكارها. وجعلته في خمسة فصول:

الفصل الأول: كتب الكونفوشيوسية.

الفصل الثاني: المعتقدات: ومنها عقيدتهم في:

أ- الإله ب- النبوة ج- القضاء والقدر

د- بعض الأمور الغيبية الأخرى

الفصل الثالث: الأفكار الكونفوشيوسية: ومنها:

أ-الأخلاق ب- فكرة العناصر الخمسة ج- المدينة الفاضلة

الفصل الرابع: الجذور العقدية والفكرية لمعتقدات الكونفوشيوسية وأفكارها.

الفصل الخامس: حاضر الكونفوشيوسية.

الباب الرابع: الكونفوشيوسية والإسلام. وقسمته ثلاثةَ فصول:

الفصل الأول: أفكار الكونفوشيوسية ومعتقداتها في ميزان الإسلام.

الفصل الثاني: موقف الكونفوشيوسية من الإسلام والمسلمين.

الفصل الثالث: موقف المسلمين الصينيين من الديانة الكونفوشيوسية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وقد ذيلت الكتاب بملاحق توثيقية.

شكر وتقدير:

أحمد ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وجمال صفاته، وأشكره تعالى على جزيل نعمه، وتواتر فضله، الذي منَّ عليَّ بإتمام هذا الكتاب وإكماله على هذا النحو.

أحمده والتوفيق للحمد من نِعَمِه، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من فضله وكرمه، وأستغفره وأتوب إليه من الذنوب التي توجب زوال نِعَمِه وحلول نقمه. ثم أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي مساعدة أثناء إعداد هذا الكتاب بكتاب أو معلومة أو مشورة أو دعاء.

وأخص بالشكر الجزيل والامتنان الصادق فضيلة الشيخ الدكتور: عبد الله بن عمر الدميجي (عميد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى)، وفضيلة الشيخ: أ.د. محمد عمر محمد حسن (الأستاذ بقسم العقيدة في جامعة أم القرى) والأستاذ الفاضل محمد بن ناصر الواهبي (المتخصص في اللغة الصينية والملحق بسفارة خادم الحرمين في بكين)، والدكتور عبد العزيز حمدي عبدالعزيز (رئيس قسم اللغة الصينية في كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر)، والشيخ بهاء الدين بن سليمان (مؤسس وشيخ معهد الدراسات الإسلامية في لنشيا) والأخت عائشة وجوان.

كما أخص والدي بشكر خاص؛ فقد كان له الفضل بعد الله فيما وصلت إليه؛ فكم أعطى ودعم وبذل وضحَّى، فأسأل الله أن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يطيل عمره على طاعته، كما لا أنسى والدتي الحنون، التي أشعر بآثار دعائها في حياتي كلها، ولا أنسى موقفها عندما جمعت لي مبلغاً من المال لتعطيني إياه قبيل سفري إلى الصين، كما لا أنسى إخوتي وأخواتي وزوجتي وأبنائي، الذين دعموني وتحملوا طول غيابي وتقصيري عندهم، فللجميع شكري وتقديري بعد دعائي.

وأخيراً، فإن هذا جهد المقل، فما كان فيه من صواب وتوفيق، فمردُّه إلى الله وحده، وما كان فيه من خطأ وزلل، فمني ومن الشيطان، وعذري فيما أخطأت؛ أني لم أتعمدْه، وفيما قصرت أني بذلت الوسع والمستطاع، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، إنه حسبي ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. ناصر بن فلاح الشهراني

بيشة ٢٠ / ٨ / ١٤٣١هـ

الباب الأول

الحالة الدينية والاجتماعية والسياسية في الصين إلى ظهور الكونفوشيوسية

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحالة الدينية

الفصل الثاني: الحالة الاجتماعية

الفصل الثالث: الحالة السياسية

الفصل الأول
الحالة الدينية

تمهيد:

من الحقائق الثابتة أن بني آدم انتشروا في الأرض، وتفرقوا إلى أمم وقبائلَ. ومنهم من ترقى إلى مستوى رفيع من الحضارة والثقافة، ومنهم من دون ذلك. ولكن التاريخ البشري يشهد أن ظاهرة واحدة كانت تعم جميع البشر من غير تقيد بمدارج الرقي ودركات الهمجية؛ وهي أن نزعة التدين من صميم الفطرة الإنسانية، حيث تعتضد بها أرواح الناس، وتعتمد عليها نفوسهم.

وقد أثبتت الدراسة الحديثة أنه ما من أمة من الأمم في مشارق الأرض ومغاربها قديماً وحديثاً إلا وقد وُجدت فيها العقائد الدينية... وإننا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإنسان لم يخل يوماً من التدين منذ أن خلقه الله على وجه الأرض، بصرف النظر عن صحة عقيدته أو بطلانها، وفي هذا يقول العلماء إن فكرة التدين في جوهرها لم تتأخر عن نشأة الإنسان(١). فظاهرة التدين ظاهرة مشتركة بين جميع الأمم والأجناس. ولاشك أن الأمة الصينية كانت من أقدم الأمم، ومن أرقاها حضارة وثقافة، وكانت من الأمم التي صاحبَتْها العقائد الدينية منذ أقدم العصور(٢).

بدأ التاريخ الصيني تسجيله المتصل من سنة ٨٤١ قبل الميلاد(٣). وهذا لا يعني أننا جاهلون لما قبل ذلك، بل نستطيع - من خلال دراسة الوثائق التاريخية المنقوشة على الأحجار والعظام - أن نعرف أحوال القدامى قبل أربعة آلاف سنة؛ حيث إن التسجيلات المتقطعة والمتفرقة تعطينا صورة واضحة لحياة القدماء، مع

---

(١) انظر: الدين: البحوث الممهدة لتاريخ الأديان - د. محمد عبد الله دراز (دار القلم- الكويت ١٩٧٠) - ص ٨٢.

(٢) عقيدة الألوهية في الديانة الداوية - أيوب نور الحق - ص ٥٠ بتصرف.

(٣) القاموس المحيط: ألفه جماعة من العلماء (مطبعة القواميس بشانغ هاي، ١٩٧٩م) ص ١٢٣٩.
عن: عقيدة الألوهية في الديانة الداوية - أيوب نور الحق - ص٥.

دلالة ساطعة على أن الحياة الدينية كانت جزءاً مهماً من حياتهم اليومية.

فمن المعلومات التي نقلت إلينا من الكتب التاريخية والآثار القديمة ـ وإن كانت غير موثقة ـ أخذنا صورة الأحوال الدينية والعقائد عند القدماء قبل الديانة الكونفوشيوسية، وكذلك عما حدث من التطورات في العقائد الصينية منذ العصور القديمة إلى ما قبل ظهور الديانة الكونفوشيوسية، وتلك المعتقدات هي التي تمثل الجذور الأولى التي أدت إلى نشأة الكونفوشيوسية.

وسنعرض لهذه المعتقدات بشيء من التفصيل.

أولاً: بدء الخليقة:

انشغل الفكر الصيني منذ القدم، مثل باقي الشعوب الأخرى، بالتساؤل عن الطبيعة وتنظيمها. وآمن الصينيون بأن الظواهر الطبيعية المختلفة تتحرك وفق إرادة السماء، وأضافوا بأن ذلك يتم حسب قوانين الـ "التاو". ولكنهم لم يهتموا كثيراً بالبحث عن أصل الكون والإنسان، والغاية من وجودهما. غير أن الأساطير الصينية اهتمت كلٌّ واحدة منها بقصة الخليقة بنسب مختلفة، فروت أسطورة الخليقة كيف أن الإله "بان قو" ظل يعمل على فصل السماء عن الأرض بصبر وأناة، مدة ثمانية عشر ألف سنة. ووصفت كيف أنه بعد انتهائه من هذه العمل الجبار، بدأ يستسلم للموت. وتتابع الأسطورة بأنه حين لفظ أنفاسه الأخيرة، توزعت أعضاؤه لتكون كل ما في الوجود من شمس وقمر ونجوم وجبال وسهول وأنهار وأشجار ونبات(١).

وبعبارة أوضح؛ يعتقد الصينيون أنه قبل خلق العالم، لم يكن هناك شيء.. لا شيء على الإطلاق.. واستمر ذلك وقتاً طويلاً.. ثم ظهر شيء.. ومن هذا الشيء خلق "بان كو" أو "بان قو". حيث تذكر الروايات الصينية القديمة أن الدنيا كانت عبارة عن بيضة دجاج كبيرة داخلها مظلم، ونام فيها (بان قو) قبل انفصال

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ٥٧ بتصرف.

السماء عن الأرض. وبعد ١٨ ألف عام استيقظ (بان قو) من نومه، وشعر بضيق التنفس، فأخذ فأساً وشق به البيضة، فصعدت منها أشياء خفيفة صافية إلى الأعلى تحولت إلى السماء، أما الأشياء العكرة الباردة، فهبطت إلى الأسفل وتحولت إلى الأرض.. هكذا انفصلت السماء عن الأرض[١].

ولم يذكر تاريخ الصين كم عاش "بان كو". ولكن قيل: إنه كان غاية في القوة، له رأس تنين وجسد أفعى، وإنه استطاع أن يشكل العالم حوالي عام (٢,٢٢٩,٠٠٠ قبل الميلاد) بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام. وعندما مات تجمعت أنفاسه، فصارت ريحاً وسُحُباً، وأضحت أنَّاته الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه الأنهار، وعروقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الغابات والأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال.. وأصبحت عينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر، أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين"[٢].

"ثم تعاقب على الأرض ملوك سماويون، حكم كل منهم أكثر من مائة عام.. جاهدوا أشد الجهاد ليجعلوا من "قمل" "بان كو" - أي البشر - خلائق متحضرين، بعد أن كانوا كالوحوش الضارية، يلبسون الجلود، ويقتاتون باللحم النيء، ويعرفون أمهاتهم، ولكن لا يعرفون آباءهم[٣].

ومن بين هؤلاء الملوك السماويين "فوش"، الذي عاش حوالي عام ٢٨٣٨ قبل الميلاد. وكانت لفوش أخت سماوية هي "نوكواشي" لها جسم ثعبان ورأس آدمي، يعدُّها الصينيون منقذة هذا العالم.

---

(١) القصص الصيني القديم - وي تانغ - ص ٧ بتصرف.

(٢) قصة الديانات د. سليمان مظهر - ص ١٨٦. للمزيد: انظر القصص الصيني القديم - وي تانغ - ص ٧-٩.

(٣) قصة الديانات - د. سليمان مظهر - ص ١٨٧. وانظر موسوعة الأديان في العالم-الديانات القديمة- دار كريبس- المشرف العام: جميل مدبك - ص٣٤-٣٥.

فقد حدث أنَّ ربَّ العقاب (في اعتقادهم وتصورهم) المسمى هونج كنج قد بالغ في القسوة والطمع، حتى دخل في صراع دموي مع رب الغابات؛ حيث تغلب عليه.. ثم استمر في عدوانه حتى اصطدم بشوشنج، أحد مساعدي هوانج تي، الذي أصبح فيما بعد إله النار. وفي هذه المعركة الجديدة هُزم رب العقاب، فثار غضبه، وضرب الجبل برأسه فانشق.. ولم يكد ينهار حتى تساقطت أعمدة السماء، وانهدمت أركان العالم!! وهنا نهضت نوكواشي فأذابت أحجاراً خمسة من ألوان قوس قزح، وأعادت إصلاح أعمدة السماء، وقطعت أقدام السلاحف لتلصق بصمغها أركان الأرض.. وجمعت رماد الهدم وكدسته لتوقف به فيض الماء.. وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض بفضل نوكواشي منقذة العالم"(١).

وكذلك تحدثت الأساطير الصينية عن قصة خلق الإنسان ضمن أسطورة "نيووا"؛ حيث ذكرت كيفية صنعه البشر من تراب، وهي تشبه بذلك أساطير الكثير من الشعوب القديمة (كشعوب بلاد ما بين النهرين) التي آمنت بصنع الآلهة للبشر من تراب. غير أن ما يميز الفكر الأسطوري الصيني عن غيره من كثير من أساطير الشعوب، هو تركيزه الكبير على الآلهة ـ السماء والأرواح، ودورها في تنظيم أعمال البشر وترتيبها ـ إذ آمن الصينيون بأن الأرواح تسكن السماء، وبأن هناك دائماً علاقات مستمرة بين هذه الأرواح والعالم المادي الطبيعي الذي يعيش فيه البشر. كما آمنوا بأن هناك علاقات لا تنقطع بين أرواح الأسلاف والأحياء من بني البشر.

وآمن الصينيون بأن البشر يستطيعون معرفة ما تريده الآلهة والأرواح عن طريق السَّحَرة والعرافين، وهم الوسطاء بينهم وبينها. إذ اعتقدوا بأن مصائر البشر والمجتمعات خاضعة لما تخطط له الأرواح وتعمل على تنفيذه؛ أي إنهم ربطوا ما بين إرادة الأرواح وفعل الإنسان. ومن هذا الاعتقاد تكونت عادات وتقاليد وشعائر

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ٥٧ بتصرف.

وطقوس تؤمّن ـ بنظرهم ـ أفضل وسائل الاتصال بالأرواح لمعرفة رغباتها، من أجل تحقيق غاياتها بالخير والهناء والسعادة للإنسان وللمجتمع، من أجل الوصول إلى تأمين المقدرة للحاكم على الاستمرار في الحكم، بغية نشر هذا الخير وتحقيق هذه السعادة(١).

ثانياً: عقيدة اتحاد المخلوقات:

يعتقد الصينيون بالاتصال المباشر بين جميع الكائنات والمخلوقات بعضها ببعض في حركة واحدة متناسقة، وحدة مطلقة تربط بين الإنسان والأرض بما فيها من عوالم وظواهر، والسماء وما فيها من إرادة علوية للإله الأعلى؛ فيقولون: "إن كل كائن من الكائنات الموجودة ـ حية كانت أو جامدة ـ إنما هو نتيجة لإحدى حركات الوحدة المطلقة، وأن جميع الحوادث الكونية ليست ناشئة إلا عن تغير المظاهر الطبيعية، وأن هذه الوحدة هي المنشأ والمراد لجميع الموجودات من غير استثناء"(٢).

وكان الصينيون يعتقدون أن السماء نفسها كائن حي متحرك بالإرادة، وأن الأرض وجميع ما عليها من: خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزاً تمثيلياً من رموز السماء، ومظهراً لها، بحيث يستحيل تصور فصلها عنها، كما تستحيل تثنيتهما في الحقيقة، لأن كل واحدة منهما هي الأخرى، وهي أصل جميع الموجودات في الوقت نفسه، وهذا كله يؤكد اعتقاد الصينيين بالوحدة المطلقة، أو مذهب وحدة الوجود. ومذهب الصينيين هذا في الوحدة يخالف ما كانت عليه بعض الشعوب الأخرى من حيث الاعتقاد بأن الكائنات ظهرت في الوجود الخارجي، وتناسلت من زواج السماء مع الأرض(٣).

ويصرح الصينيون بأن جميع الموجودات نشأت نتيجة حركات الوحدة المطلقة.

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ٥٨ بتصرف.

(٢) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب ص ٢٢١

(٣) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د.صلاح بسيوني – ص ١٤– ١٨ بتصرف.

وبهذا سبق الصينيون في رؤيتهم الفلسفية هذه الفلاسفةَ اليونان، وعلى رأسهم (هيراقليطس) من حيث اعتبار الحركة والتغير المستمريْن هما الجوهر الأقوى للوجود. ولم يكن الكون الأوحد المؤلف ـ عند الصينيين ـ من السماء والأرض مادياً محضاً، وإنما كان طبيعياً؛ أي مادة مشتملة على روح، وأن الجانب الروحي له الدور الأكبر في احتفاظ الجانب المادي في الطبيعة بنظامه كاملاً متناسقاً. ويحتل الإنسان في هذا الكون الأوحد أو الوحدة الكونية مكاناً متميزاً، بالنظر إلى اشتماله على الروح، من بين جميع الكائنات. وقد ورد في أحد كتبهم القديمة:

"إن السماء والأرض هما أبوا الكائنات جميعها، وإن الإنسان من بين جميع الكائنات هو وحده الموهوب حقاً"(١).

وإذا كان الإنسان يؤلف مع السماء والأرض ثالوثاً متلازماً، فالإمبراطور ـ والحالة هذه ـ مسؤول عن استبقاء البشرية في حالة تناسق وانسجام مع عضوي الثالوث الأخيرين ـ السماء والأرض ـ والتسامي بالناس جميعاً بفضل سلطة حكمه لتحقيق عزة البشرية الحقيقية. هذا الاعتقاد هو الذي أعطى للحاكم ـ عندهم ـ صفة التفويض الإلهي أو السماوي، وسنتكلم عنه فيما بعد، ولا يقصد الصينيون من وحدة الوجود اتحاد الخلق مع الخالق، أو حلول الإله في الإنسان أو الطبيعة، وإنما يقصدون تأثُّر السماء والأرض بأفعال المخلوقات، وتأثر الإنسان بمظاهر الطبيعة. ولهذا كان الواحد منهم يحرص أن يكون فاضلاً حتى لا يكون سبب الوباء والبلاء على الخلق..(٢).

ثالثاً: عبادة قوى الطبيعة:

لم يكن دين سكان الصين "البدائيين" يختلف بوجه عام عن دين عَبَدَة الطبيعة، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة، وعبادة الأرواح الكامنة في جميع نواحيها(٣).

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ١٨ – ١٩ بتصرف.

(٢) انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص٣١ بتصرف.

(٣) قصة الحضارة – ول ديورانت – ت: محمد بدران – ج٤ – ص ٢٥٦.

وحسب التسجيلات القديمة كانت عبادة الطبيعة من أقدم صور التدين عند الصينيين في حدود ما لدينا من العلم[١]، حيث شاهدوا القوى الغامضة في الطبيعة دون أن يدركوا كنهها، فبدؤوا يعبدون السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها من قوى الطبيعة، وعدُّوها آلهةً؛ لما رأوا فيها من المنافع وما يقع منها على الإنسان من أضرار.

ثم تقدموا خطوةً نحو ما وراء الطبيعة بمعرفة الأرواح، فاعتقدوا أن لكل الظواهر الطبيعية أرواحاً خفيةً. ولها سلطة جبارة على العالم والإنسان، فانطلقوا يعبدون هذه الأرواح التي تسمى عندهم (شين) بمعنى الآلهة، ولذلك تعددت عندهم الآلهة والمعبودات[٢]. وتختلف عبادة الملوك لها عن عبادة عامة الناس؛ فالملوك يعبدون القوى الخاصة بكواكب السماء، وكل ما فيها، بينما يعبد الصينيون كل قوى الأرض وما يختص بها...[٣].

وأهم عناصر تلك العبادة للطبيعة:

- الخوف من خوارق الطبيعة (كالخسوف والكسوف والزلازل)..
- عبادة الأرواح الكامنة في جميع الأنحاء.
- تقديس ما على الأرض من صور رهيبة، وما لديها من قدرة على الإنتاج والتوالد.
- خشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة.
- بل لقد كانوا يرون أن الشمس والمطر من عناصر الوئام والارتباط بين ما فوق الأرض من حياة، وما في السماء من قوى خفية قادرة. ومن هنا عبدوا الريح والرعد والأشجار والجبال والأفاعي. وآمنوا بأن لكل من هذه المقدسات روحاً يجب أن تعبد"[٤].

---

(١) "العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين" - وان شاو دون - مطبعة الكتب القديمة بشانغهاي - ص ١٠٢.

(٢) عقيدة الألوهية في الديانة الداوية - أيوب نور الحق - ص ٦.

(٣) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة - فوزي محمد حميد - ص ٢٢٢.

(٤) قصة الديانات - د. سليمان مظهر - مرجع سابق ص١٨٧.

وقد مارست الصين العقيدة المزدوجة: عقيدة الأسلاف، وعقيدة تربة الأرض الإقطاعية، يتوارثها الابن عن الأب. ثم ظهرت فيما بعد الأسر العامة بتقليد النمط السلفي، واتجهت كذلك إلى توقير أسلافهم واحترامهم كما كانوا يوقرون ويبجلون أربابهم مع الأسلاف، ثم يجيء على مستوى مختلف قليلاً وضع أرباب الإقطاعيات المحلية من أرباب كل منزل، وأرباب التلال، وأرباب ينابيع المياه، وأرباب كافة القوى الطبيعية، ورب الأرض. وكان طبيعياً أن يكون هناك ربٌّ للأموات حيث يحتفظ بهم في سجونه المظلمة [كما يظنون]، كما كان هناك رب السماء الذي فوق، وأرباب الجبال وأرباب البحار الأربعة وأرباب نهر (هوانج هو) الرهيب. وهكذا نجد بقدر أعداد الأرباب الكثيرة آلاف الطبائع والأمزجة والسمات التي يتحلى بها الصيني[1].

ومما يلفت النظر في أمر الآلهة الصينية على كثرتها: أنها لا تظهر بالفعل بوصفها شخصيات إلهية ذات كيان محدد ووظيفة دائمة، بل كائنات شبحية غير محددة الملامح، تكتسب قوتها من قوة المنصب الذي تشغله: ذلك أن الوظيفة الإلهية هي الثابتة. أما شاغلوها، فمتحولون ومنتقلون؛ ففي كل إقليم من الأقاليم الصينية الكثيرة يجري توزيع الوظائف والاختصاصات (تصريف الرياح، أو إنزال المطر، أو قدح البرق، إلخ...) بين الآلهة الصينية نفسها بشكل مختلف عن الآخر تماماً، وقد يتم ترفيع إله إلى مقام أعلى، أو تخفيض مرتبته، أو حتى صرفه عن الخدمة نهائياً. أما المصدر الحقيقي لقدرة الآلهة الصينية، فهو مفهوم غير شخصي للألوهية يتمثل في قوة السماء التي يدعونها (تي - يين) والتي عبدت في الصين منذ القدم[2].

(١) تاريخ وقواعد الحضارات - فرناند بروديل - ص ٢١٨- ٢١٩ بتصرف.
وانظر: المذاهب الكبرى في التاريخ - آلبان. ج. ويد جيري - ص ١١.
والتاريخ وكيف يفسرونه - آلبان ج. ويد جيري- ج١ - ص ٢٧.
(٢) دين الإنسان - فراس السواح - ص ٢٣٦-٢٣٧.
وانظر: كتاب التاو - لاو تسو - ت: فراس السواح - ص ١٢-١٣.

رابعاً: عبادة السماء:

عبد الصينيون القدماء السماء بوصفها الإله الأعظم، وحاكم الحكّام ورب الأرباب.. ولا يقصدون بها القبة الزرقاء المعروفة لنا، بل يقصدون بها الأفلاك ومداراتها، والقوى المسيطرة عليها، والتي تسيِّرها في مداراتها، وهم يعبدونها لاعتقادهم أنها عالم حي متحرك حسب نظام محكَم ودقيق، وإن كل القوى المسيّرة في العالم، إنما هي خاضعة لسلطان السماء التي لها السيطرة العليا على كل القوى والمادة والأشياء جميعها(١).

والسماء أو (شانج – تي) سيد كل الآلهة، رأى الصينيون فيها وحدها السلطان الأعلى اللامحدود القوة؛ إذ تُمسك بيدها الكون بأسره، وتقضي بتعاقب الفصول في مواقيتها، وتأمر بدورة الموت والتجدد، وتكفل خصوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل(٢)، فهي مصدر الخير الذي ينالهم، فالسماء (الإله الأعظم) مدبر الأكوان، مصرِّف الأمور، وواهب الحياة، ومقدِّر الأرزاق، والسماء جوهر حي عليم قادر، فعَّال لما يريد، ولا رادَّ لإرادته(٣).

وقد نشأت فكرة الوجود المتعالي الأوحد باسم (السماء)، أو "الإله المتعالي" (شانج تي) تقريباً منذ (القرن العشرين ق.م)(٤). وتشير كلمة (السماء) في التراث الصيني إلى معاني مختلفة؛ منها المادي، أي ما يقابل الأرض؛ والمعنوي المتضمن معنى السمو والرفعة وتسامي الشأن، كقولنا (الإمبراطور العلوي)، والديني الذي يشير إلى معنى القضاء والقدر، والوجود الطبيعي، والأخلاقي، الذي يدل على مبدأ راقٍ سامٍ في علوه وارتفاعه إلى عنان السماء(٥).

---

(١) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٢١ بتصرف.

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ص ٢٧٢.

(٣) الديانات والعقائد في مختلف العصور – أحمد عبد الغفور عطار – ص ١٤٦.

وانظر: أصلح الأديان للإنسانية عقيدة وشريعة – أحمد عبد الغفور عطار– ص ٤٨.

(٤) الفكر الشرقي – د. يونغ شوون كيم – ج٢ – ص ٩٢.

(٥) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ١.

يقول مرسيا إلياد: وفيما يتعلق بالحياة الدينية؛ فإن القبور الملكية ترشد إلى بعض التطبيقات الدينية، ولكن ما يشكِّل مصدراً ثميناً للغاية إنما هو، بصورة خاصة، النقوش الكهنوتية المحفورة على عظام حيوانات وأصداف السلحفاة، التي تكشف لنا سيادة إله سماوي "تي" (سيد)، أو "شانج تي" (السيد في الأعلى). إن (تي) يأمر بالإقاعات الكونية والمظاهر الطبيعية (المطر، الريح، الجدب... إلخ). إنه يمنح النصر للملك، ويضمن وفرة المحاصيل، أو ـ على العكس ـ يثير الكوارث، ويبعث الأمراض والموت، ويقدَّم إليه نوعان من الأضاحي: في معبد الأجداد وفي البرية، ولكنه، كما يحصل لآلهة سماوية أخرى قديمة، فإن عبادته تدل على تحدرها من الأولية الدينية[1].

وعلى الرغم من أن أهل الصين القدامى آمنوا بأن لكل من المقدسات الأرضية والسماوية روحاً يجب أن تُعبد، فتعددت آلهتهم، وتنوعت عباداتهم، وتشتَّتت عقولهم بين هذه الآلهة العديدة والأرواح الكثيرة، إلا أنهم ـ مع ذلك ـ قد آمنوا بوجود حاكم أعلى واحد فوق كل الأرواح وفوق كل الناس.. اسمه (شانج تي) هو القوة العليا المسيطرة على العالم.. وقالوا: إنه عادل، لدرجة أنه مهما صلَّى له الأشقياء، فلن يقبل العفو عنهم أبداً. ولكن (شانج تي) ـ مع كل ذلك ـ لم يكن الإلهَ الأعلى والأعظم في اعتقاد الصينيين.. فالإله الأعلى.. سيد كل الآلهة إله اسمه: نيان.. هو: السماء"[2].

ومع اعتقاد الصينيين بوجود إله فوق كل الآلهة هو "شانج تي"، ووجود إله أعلى منه، هو الإله الأعظم، الذي كانوا يطلقون عليه أحياناً: "شنغتاي"، إلا أن عبادته والدعاء له، وتقديم القرابين إليه كان خاصاً بالإمبراطور نائباً عن الشعب، فهو إله عظيم في نظرهم، لا يتوجه إليه ولا يناجيه إلا العظماء، بل أعظم العظماء في

(١) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية / ميرسيا إلياد – ج٢ – ص ١٠، ١١ بتصرف.
وانظر: تاريخ الأديان – د. محمد الزحيلي، ود. يوسف العش – ص ٢٠٩.
(٢) قصة الديانات – د. سليمان مظهر – ص ١٨٨ بتصرف.

الدولة، وهو الإمبراطور.

"ومن العبادات التي كانوا يرفعونها إلى "شنغتاي" ربهم في فصل الصيف وفصل الشتاء، كان يتقدم إليه الإمبراطور بوصفه رئيساً للكهنة نيابة عن الشعب قائلاً: "إليك أيها الصانع العظيم يتجه فكري.. وأنا عبدك.. لست إلا قصبة مرضوضة ونبتة هزيلة.. قلبي قلب نملة حقيرة.. ومع ذلك فقد نلت لديك شرفاً وحَظوة إذ جعلتني حاكماً لهذه الإمبراطورية.. وها أنا ذا أعترف بجهلي وعمى قلبي.. وأخشى أن أكون غير أهل لهذه النعم الوافرة، فهبني أن أراعي في وقار الشرائع والأحكام، باذلاً جهدي ـ على الرغم من صغر شأني ـ لأن أقوم بواجبي بولاء وإخلاص، وعن بعد أتطلع إلى مقامك السماوي، فتعال في مركبتك الفاخرة إلى هذا المذبح.. وهاأنا خادمك أُعفِّر وجهي في التراب، متوقعاً جزيل نعمتك.. لترضى بأن تقبل تقْدماتِنا، وترمقنا بعينيك حين نعبدك يا ذا الصلاح غير المتناهي"(١).

وهذه العبادة (عبادة الإله الأعظم) كانت موجودة منذ فجر التاريخ الصيني، ولكنها كانت ـ كما قلنا من قبل ـ "قاصرة على الإمبراطور نيابة عن شعبه. فأدى هذا إلى إبعاد فكرة الإلهية السامية عن محيط العبادة العملية"(٢) كما كانت عبادة السماء أو (شانج ـ تي) وقفاً على الحكماء والملوك، وخاصة الأمراء والعلماء وكبار رجال الدولة، ولا يجوز بأي حال كشف أسرارها أمام العامة من البسطاء، التي تنحصر عقيدتهم الساذجة في عبادة الأجداد وغيرهم من الموتى. لقد اشتملت عبادة السماء أو هذه العقيدة الخاصة، إلى جانب القيام بالطقوس الدينية، على التفكير العميق حول الكائن الحي وموقعة من الكون، وعلى تحليلات للقوى الطبيعية التي كانوا يشاهدون آثارها؛ سواء في السماء أو في الأرض، ومن هنا كان

---

(١) أديان العالم – حبيب سعيد – ص ١١٨ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص١١٨.

من الواجب تحريم هذه العقيدة على العامة تحريماً قاسياً حتى لا يساء فهمها، وهذا هو مضمون فكرة (المضنون به على غير أهله). وفي هذا يقول أحد حكماء الصين وهو (لاو-تسو): كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال"(١).

خامساً: عبادة الأسلاف:

لم يكتف الصينيون القدماء بكل هذه العبادات، فعبدوا أرواح أسلافهم الذين مضوا قبلهم، وقدَّسوها وعظَّموها، وقدموا لها القرابين طلباً لرضاها عنهم، واستمداداً لعونها لهم وتأييدها؛ فكان كل من يسبقهم إلى الموت يعبده خلفُه من عائلته، وقد كانت هذه هي العبادة السهلة الميسورة لكل أفراد الشعب الصيني، بل "يقال بأن هذا هو الدين الحقيقي لشعب الصين، ويرجع تاريخه إلى العصور الخوالي، ومازال شائعاً معروفاً إلى هذا العصر.. ولا يحرص الصيني على شيء حرصه على هذه العبادة، فأنت قد يباح لك أن توجه الملام إلى أي شيء في الصين، أما أن تمس عبادة الأسلاف بسوء فهذا ما لا يرضاه الصيني ويصدك عنه في جفاء.

والأرجح أن هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة، ثم استحالت إلى عبادة الأبطال الحكماء من رجال الشعب. وأخذت هذه العبادة تنتشر بين القبائل والأسر، تغذوها روابط الأسرة في بلاد الصين، وهي قوية بطبيعتها في تلك البلاد، حتى أصبح كل الأسلاف موضعَ التقدير والتوقير والعبادة من الجميع على السواء"(٢).

وكان لعبادة الأسلاف نظام خاص، وشعائر معينة، تؤدَّى تقرباً إلى أرواحهم

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ١٩بتصرف.

(٢) أديان العالم - حبيب سعيد - ص ١١٩ -١٢٠ بتصرف.

وانظر: الثورة الثقافية في تاريخ الصين- عبد الرحيم أحمد حسين- مجلة عالم الفكر- الكويت - أبريل، يونيو ١٩٨٨م- ص١٠١.

بواسطة لوحة من الخشب، هذه اللوحة "يبلغ علوها ثماني بوصات، وعرضها بضع بوصات، ينقش على وجهها اسم الشخص الذي تمثله"، وتحفظ هذه اللوحة في الأسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفى، ثم تنقل بعد ذلك إلى مدافن أسلاف القبيلة أو الأسرة، ومن حين لآخر تقدم إلى هذه اللوحة الخدمات، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفى، أو يوم ذكرى موته، من كل سنة"(١).

عبادة أرواح الأجداد:

من معتقدات الصينيين القدماء: أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد موتهم وتبقى في الدنيا مع أسرتهم؛ لذلك فهم يعبدون أرواح الآباء والأجداد تقديساً لهم، ووفاءً لعهودهم، وشكراً لهم على ما أسدوْا من نِعَمٍ لأبنائهم، ويقدمون لهم القرابين(٢). وعبادة أرواح الأجداد هي أول ديانة صينية قديمة. وذكرى هؤلاء هي التي تستعاد في اللوائح التي توضع على هيكل الأجداد، وبهؤلاء كانوا يستعينون في مختلف الظروف المرهقة، وهم الذين يذكرون في كل الاجتماعات الفرحة، وإليهم يتجه أكبر أفراد الأسرة عمراً في تقديم القرابين - ولا تشتمل هذه الديانة على كَهَنَة، ولا على مراسم خارجة عن نطاق الأسرة - فالأجداد هم الذين يديرون، ويجب أن يوجهوا حياة الأحياء كلها. وعندما يقوم أحد الناس بإنجاز ما، فإن المجتمع يرفع قدر أجداده، لا أحفاده(٣).

وقد مارس الصينيون عبادة جدودهم على مدى تاريخهم كله، وعلى نحو شبه عام، فكان كل شيء يجري كما لو كانت أرواح الموتى ما تزال تعيش بين الأحياء، وتستشعر مثل حاجاتهم. وهذا الاعتقاد وحده يستطيع في الواقع تفسير الأشكال المتَّخذة في القرابين، وزيارة القبور والطقوس المنزلية. ولقد تبدو فكرة الخلود

---

(١) أديان العالم – حبيب سعيد – ص١٢٠.

(٢) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٢٢ – ٢٢٣ بتصرف.

(٣) موجز تاريخ الأديان – فيليسيان شالي – ص ١٠٦ بتصرف.

الشخصي، لأول وهلة، محتواةً في هذه العقيدة. ومع ذلك فلا يبدو أنه كان لهذه الفكرة نتائج محسوسة بحيث تمارس تأثيراً على مجرى الوجود اليومي، أو على معنى التاريخ(١).

وكانت الأسرة تنشئ معبدها الخاص بها؛ لأن تبجيل الأجداد كان عقيدة أقوى من أي كائن يسمو فوق الطبيعة. وكانت أجساد الأجداد تدفن في قطعة الأرض الخاصة بالأسرة، وعادة ما تكون تلك البقعة صغيرة، ولكن كان يخصص للأجداد أخصب جزء منها باعتبار ذلك أمراً مفروغاً منه(٢). "وكان الصينيون يقربون في كل يوم قرباناً متواضعاً للموتى، ويكون في العادة شيئاً من الطعام، ويرسلون الدعوات الصالحات على أرواحهم، ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم في مملكة غير محددة، أو واضحة له، وأن في مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه".

"وما من شك أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب أو المضايقات؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التي لا يمكن انتهاك حرمتها، فعاقت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية، وفلح الأرض الزراعية".

"وكانوا يحسُّون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة أو الخبيثة ترفرف من حولهم في الهواء المحيط بهم، وفي الأرض التي تحت أقدامهم، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية، أو يستعينوا عليها بالأدعية وبالرقى السحرية، وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم، من سطور أصداف السلاحف، أو حركات النجوم"(٣).

---

(١) المذاهب الكبرى في التاريخ – آلبان. ج. ويد جيري – ص ١١– ١٢بتصرف.
وانظر: التاريخ وكيف يفسرونه – آلبان. ج. ويد جيري – ج١ – ص ٢٨.

(٢) فلاسفة الشرق – و. ف. توملين – ص ٢٨٠ بتصرف.

(٣) قصة الحضارة – ول ديورانت – ج٤ – ص ٢٥٨– ٢٦٠ بتصرف. وانظر موسوعة الأديان في العالم–الديانات القديمة– دار كريبس– المشرف العام: جميل مدبك – ص ٣٥.

معبد الأجداد:

كما حرصت الحكومة على المحافظة على العلاقات الطيبة مع تلك القوى الروحية التي تسيطر على زمام الحكم في الكون، وفي كل شؤون الحياة على الأرض. ونتيجة لهذا الارتباط كان معبد الأجداد الملحق بالقصر الملكي هو أهمَّ مبنى في الصين، حيث كانت أسلحة الحروب تخزن فيه، وعندما كان الملك يشرع في القيام بحملة تأديبية للمتمردين والغزاة، فإنه كان يبدأ أولاً بتقديم القرابين إلى أجداده في هذا المعبد، ويعلن لهم أخطاءه.

ويبدو لنا من خلال ما سبق أن صعود الملك إلى العرش وتسلُّمه مبدأ الحكم، كان يستمد من عطف أجداده عليه، وكان لابد للصعود إلى العرش من سند شرعي، ويستمد هذا السند من أن لهذا النبيل أجداداً في السماء يساندونه طبقاً لمراكزهم في السماء. لذلك كانت الاحتفالات الدينية للأجداد جوهرية وذات انتشار واسع، بوصفها أساساً عقائدياً في ديانة تلك الفترة من تاريخ الصين. بل إن الاستخفاف بها أو إنجازها بطريقة غير لائقة من شأنه أن يجلب الكوارث[1].

وكان كل مظهر تقريباً، من مظاهر الحياة تسيطر عليه الأرستقراطية الوراثية كما في عهود (تشو) وربما في عهود (تشانغ) أيضاً، وكان المؤسسون المشهورون من الأسرات الأرستقراطية في كثير من الحالات أبطالاً أسطوريين، إن لم يكونوا آلهة. وكان من المعتقد أن أسرة ملوك تشو قد انحدرت من جد يدعى (هو تشي) والمعنى الحرفي لهذا الاسم هو (ملك الذُرة) ويبدو واضحاً أنه كان أصلاً إلهاً زراعياً، وعندما شب هذا الجد صار يعلم الناس كيف يزرعون الحبوب. ولم يكن مؤسس الأسرة الأرستقراطية البعيد هو وحده الذي أمدها بقوته، بل أمدها بالقوة كلُّ أسلافها. وكان المعتقد هو أن الأرستقراطيين بعد مماتهم يحيون في السماوات حيث يشرفون على مصير ذرياتهم، وكان من الطبيعي ـ ما لم يكونوا ساخطين

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة ـ د. هالة أبو الفتوح ـ ص ٣٠-٣١ بتصرف.

تماماً على حَفَدَتهم ـ أن يمنحوهم النصر في الحرب والرخاء في السلم. وفي مقابل هذه كان من المتوقع أن يقوم الأحفاد بتقديم القرابين المعتادة لهم، ويحققوا رغباتهم إلى أقصى حد، وهذه الرغبات قد يتعلمونها بالكهانة أو بالوسائل الأخرى. وكان يتضح اعتماد الحكام في كثير أو قليل على أجدادهم، في عدد كبير من الوثائق.

ويقول مؤلف كتاب "الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ": إننا نجد في نقش على وعاء برونزي أن أحد النبلاء يفاخر بأجداده الأعلين البارعين؛ "يفسحون طريقاً لحَفَدَتهم الذين هم على الأرض". وقد ذكرت إحدى القصائد الواردة في "كتاب الشعر"(١) أن قوة بيت تشو في فترة معينة، كان مردّها إلى حقيقة أنه كان لها (ثلاثة حكام (سابقين) قد صعدوا إلى السماء)، بالإضافة إلى الحاكم الذي يحكم على ظهر الأرض(٢).

ولهذا النظام أثره البارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد، بحيث يصعب عليه جداً الخروج على العادات والتقاليد المرعيَّة، ويصعب على الفرد أن يدرك المدى الذي يذهب إليه الصيني في عبادة الأرواح والأسلاف، وما تنطوي عليه تلك العبادة من عطف وولاء، وفي أغلب الأحيان تمتزج هذه العبادة بكثير من العواطف والحب الخالص للمتوفين، أو في أحيان أخرى يخالطها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدها اللاحقون، وهي في أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات وضعيَّة جرى عليها العُرف والعادة(٣). وانبثق عن هذه العبادات بعض المظاهر والاعتقادات التي كان لها أثرها البارز في حياة الصينيين؛ ومن هذه المظاهر: الشعوذة والخرافات والكَهانة، واعتقاد أن الحاكم يستمد سلطته من إرادة السماء، واعتقاد أن ما يرضي الأسلاف هو خير وما يسخطهم فهو شر.

---

(١) من كتب الكونفوشيوسية. وسيأتي تفصيل أكثر عنه في الباب الثالث، الفصل الأول من هذا الكتاب بإذن الله.

(٢) الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ - هـ.ج.كريل- ص٢٥-٢٦.

(٣) أديان العالم - حبيب سعيد- ص ١٢٠.

استمداد الحكام سلطتهم من السماء:

آمن العامة من الصينيين بأن الحكام الأباطرة لا يستمدون سلطانهم من قوتهم المادية أو العسكرية، وإنما يستمدونها من تأييد أسلافهم الذين يعيشون في السماء، حيث يراقبون مصائر أخلافهم، فيمنحونهم النصر في الحروب، والرفاهية ورغد العيش إبان السلام. ومن هنا كان على الحكام وعامة الشعب تقديم القرابين إلى أرواح هؤلاء الأسلاف، وإطاعة رغباتهم التي يُسِرُّون بها إلى العرَّافين والكهان. وكان الحاكم أو الإمبراطور يلقب "ابن السماء"(١) وفي عهد أسرتي "هسيا"(٢) و"شانج"(٣) تبلور واجب الحاكم البشري في السعي "لتهدئة الأرواح، والجهد لإصلاح ذات البين بينها وبين أفراد الشعب، وإيجاد التناسق بين أفراده بعضهم بعضاً"(٤).

"ويتفرع عن الاعتقاد بهيمنة الأرواح على مصاير الناس: الاعتقاد بالعرافة والسحر، إذ قد آمن قدماء الصينيين إيماناً راسخاً بوجود تأثير مكين، متبادل بين الأشياء في الكون والشؤون البشرية، الأمر الذي أوجب عليهم الاستعانة بكافة ضروب الكهانة، وبملاحظة الظواهر الطبيعية، ادَّعوا القدرة على التنبؤ بالكوارث المقبلة أو الرخاء الآتي"(٥).

أثر قبور الأسلاف في تحديد الطالع:

كما اعتقد قدماء الصينيين أن للقبور دوراً في تحديد طالع الشخص. وهي عقيدة خرافية مؤداها "أن موقع قبور الأسلاف يؤثر على طالع الشخص. ويدَّعي المنجمون أنهم يعرفون أي مكان يصلح للدفن، وما إذا كان موقع القبر يجلب الحظ أم لا"(٦).

---

(١) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص ٢٣–٢٤ بتصرف.

(٢) حَكَمَت الصين بين عامي (٢٢٠٥ – ١٧٦٦ قبل الميلاد).

(٣) حَكَمَت الصين بين عامي (١٧٦٥ – ١١٢٣ قبل الميلاد).

(٤) حكمة الصين– د. فؤاد شبل – ج١– ص ٣١ بتصرف.

(٥) المرجع السابق – ص ٣٢ بتصرف.

(٦) تيارات الفلسفة الشرقية– محمد سليمان حسن – ص ٥٣ بتصرف.

سادساً: تأليه الملوك والعظماء:

إن الدور المزعوم للآلهة في حياة الإنسان الصيني وطريقة تفكيره، والمكانة الكبيرة التي كان يحظى بها في حياته، دفعت الأرستقراطية العسكرية، في فترة نشاطها، إلى تمثيل هذا الدور الكبير للآلهة، من خلال إحلال صفات الآلهة على نفسها، فأصبحنا نقرأ عن آلهة في التاريخ الصيني هم من البشر، قادة وساسة. فقد أوردت النصوص الصينية أن "المارشال تشاد"، هو إله المال، والقَيِّم على السياسة المالية للأمة. حتى إن التقديس نال القادة العظام بعد موتهم. لِمَا لهم من مزايا كبيرة حقَّقوها في حياتهم. تقول النصوص: إن الإله "قوان"، من قادة عصر الممالك الثلاث، قدسه الشعب بعد موته واتخذه إلهاً(١). وقد ظهر في الصين قبل كونفوشيوس عدة ملوك وكَهَنَة، من أقدمهم (فو في، سنة ٣٤٦٨ ق. م) الذي وضع للصين كتاباً وفلسفة تدور في معناها حول ثالوث هو نفسه الثالوث الهندي: (برهما، فيشنو، سيفا) وإن كان في شكل آخر.

وهذا الثالوث يتركب من:

١- (تي ين) أو الإله المجهول- غير المنظور، ثم:

٢- أرواح الآباء والحكماء والملوك (تشانج)، ثم:

٣- الشمس وسياراتها- مظاهر الإله من الأرواح وكائنات الطبيعة.

وبعد أن مات (فوفي) الذي كان حكيمَ الصين ومشرِّعَها وإمبراطورها في وقت واحد، عبده الصينيون، وعدوه إلهاً، وعدوا كتابه مقدَّساً، ويعدُّونه من أقدم كتب العالم. وأضافوا لهيكل مولى السماء هيكلين آخرين، واحد لأرواح الأجداد والحكماء، والآخر للشمس والقمر وباقي السيارات والنجوم، بموجب الثالوث المتقدم ذِكْرُه، ومن عهد (فو في) ابتدأت عبادة الأباطرة أبناء السماء في الصين واليابان(٢).

---

(١) تيارات الفلسفة الشرقية- محمد سليمان حسن - ص ٥٢.

(٢) الدين والفلسفة والعلم - محمود أبو الفيض المنوفي - ص٩٦ بتصرف.

وكانت بلاد الصين تعيش ما بين الاضطرابات الاجتماعية والخرافات الاعتقادية، وكان أهلها يعانون من المشكلات في كل ناحية، والوضع السيئ يحمل الناس على الملجأ الديني ليجدوا فيه الراحة للقلوب والخلاص للأرواح، فظهر عدد من الكَهَنة في كل المجتمعات، يبثُّون نوعاً من العقائد الدينية والأفكار الفلسفية، ويشتغلون بالعَرافة والتنجيم والعلاج والسحر والشعوذة وغيرها.

ومن هؤلاء الكهنة من كان يفسر كل شيء على غرار فلسفة كتابين مشهورين؛ هما: "خوان دي" و"داو ـ ده ـ جين" لِمَا وجدوا فيهما من عمق الفكر ودقة النظر، ولِمَا فيهما من الغموض والألغاز تعمَّقوا في دراستهما، وربطوا الأحوال الواقعة بمضمونهما، وقاموا بنشر أفكارهما بين الناس. وليس هذا فحسب، وإنما أخذوا ـ بمرور الزمان ـ يقدسون صاحبي الكتابين؛ وهما: خوان دي (الملك الأصفر)، ولوتس (لاو تس).

وخوان دي شخصية أسطورية؛ حُكي أنه كان ملكاً عادلاً يحكم بلاده بالعدل والإحسان. ويطبق أوامر الإله في حكمه. وقد وحَّد بلاد الصين بعد أن كانت في أيدي القبائل المتخاصمة والشعوب المتقاتلة، وتغلب على كل من يغزو بلاده. ودمر كل الطغاة والعصاة امتثالاً لأمر الإله، وكان كثير العبادة ووثيق الاتصال بالإله. وبفضله ازدهرت الفنون والصناعات في البلاد، وسارت الدولة إلى القوة والعزة والمجد. وقضى الملك الأصفر حياته على الأرض مائة عام، ثم صعد إلى السماء مع وزرائه السبعين، راكبين التنين الأصفر. وحُكي أنه قبل صعوده إلى السماء كتب كتاباً يسمى "خوان دي"، الذي ذكر فيه قوانين الصحة البدنية، وأسباب الأمراض، وأساليب العلاج. كما عالج فيه بعض القضايا الميتافيزيقية، وبيَّن أن العالم مكوَّن من العناصر الخمسة(١)، وأن الكون نشأ من انفعال القوتين المتضادتين: ين (القوة الأنثوية)، ويان (القوة الذكورية). وهما قوتان متلازمتان لكل ذرة من المواد، وبانفعالهما وُجدت الحركات والتغييرات حتى تشكلت

---

(١) التراب والنار والماء والخشب والمعدن. (كما يظنون).

الكائنات من العناصر الخمسة. وقد عبّر "خوان دي" عن هذه النواميس الحيوية بكلمة "داو". وأراد بذلك قوانين الوجود، ثم يطبق هذه القوانين على المجتمع الإنساني. وأشار إلى أسباب أمراض المجتمع وإلى علاجها. ولا يزال هذا الكتاب أصلَ المصادر في الطب الصيني والفلسفة الصينية إلى اليوم.

"وكانت فكرته في غاية العمق والدقة، ومحاطة بالغموض والإبهام. ولا يفهم الكتاب دون تفكر وتعمُّق فيه. وبمرور الزمان رأى الناس ـ من شدة إعجابهم به ـ أن صاحب الكتاب لا يمكن أن يكون إلا إلهاً، فقدَّسوه وألَّهوه"(١).

أما لوتس (لاو تس) فهو شخصية تاريخية عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وكان حكيماً ناسكاً، وكان معاصراً لكونفوشيوس، وأكبر منه بعشرين سنة... ومع مرور الزمن ارتفع مكان لوتس شيئاً فشيئاً، حتى رُفع إلى مقام الإله الأعلى، باعتقاد أن صاحب هذا الكتاب الغامض لا يكون إلا إلهاً أعلى. وقد تجسَّد من "داو"، فصار "لوتس" إلهاً بعد أن كان فيلسوفاً، وأطلق عليه الاسم "تشي شان لوجون" (السيد الشيخ الأعلى)(٢).

لقب (ابن السماء)(٣):

روح النظام الإقطاعي في الصين هو أن تدخل في شخصية الزعيم ـ الذي هو الصانع والمحافظ على النظام ـ قوةٌ تسيِّر مختلف الانسجامات. ولأنه لا يوجد أي مبدأ مذكر ذي قوة توازي قوة السماء وعظمتها، فلابد من وجود عاهل يتولى التنظيم العالمي، على أن يكون المؤازر المباشر المستمر للسماء، ومن هنا جاء لقب

---

(١) عقيدة الألوهية في الديانة الداوية – أيوب نور الحق – ص ١٠–١١ بتصرف.

(٢) المرجع السابق – ص ١٢.

(٣) انظر: حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص٢٤.

والمذاهب الكبرى في التاريخ – آلبان. ج. ويد جيري – ص ١١.

والتاريخ وكيف يفسرونه – آلبان. ج. ويد جيري – ج١ – ص٢٧.

ومعتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص٢٤٧.

ابن السماء - الذي يزعمه هذا العاهل - للمطالبة بسلطة الإمرة الإلهية. وحسب النظام الذي ساد من قديم الأزمنة، كانت وظيفة الملك تشمل - قبل كل شيء - صنع الفصول وإدخالها في عالم فراغي؛ فلم يكن بد من إنشاء اعتدال الربيع في الشرق، وميل الصيف في الجنوب، واعتدال الخريف في الغرب، وميل الشتاء في الشمال.

وقد سهّلت هذه المهمة بعدئذ عن طريق تشييد قصر ذي هندسة دقيقة. ولما كانت السماء مستديرة والأرض مربعة - كما يزعمون - فقد شُيِّد السقف على شكل دائري والبناء على شكل مربع، وجعلت الواجهات متجهةً اتجاهاتٍ مناسبةً، فما على الإنسان السماوي (العاهل)، صانع الوقت وآمر الفراغ، إلا أن يحدد محل إقامته في هذه أو تلك من الغرف الاثنتي عشرة المتساوية لكي يجري تنظيم تعاقب الشهور.

والإنسان السماوي الذي جمع في شخصه المقدرة على مساحة الأرض ووضع التقويم، هذا الإنسان الأوحد، كان - مع هذا - قابلاً للموت. كذلك أي شخص يتمتع بجزء من السلطة، ولو كان ربَّ الأسرة الموكَّل بتنفيذ الطقوس، يجب عليه أن يترك قوته إذا ما ترك الحياة. وذلك تناقض غريب(١)... ومهما يكن من الأمر، فإنا نجد أنه لما وافت سنة ١٧٥٠ ق. م كانت الصين مكونة فعلاً من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن، وكلها تعترف بولاء مفكك العرى، وتدفع رسوماً إقطاعية لإمبراطور كاهن واحد هو: (ابن السماء الكاهن الأعظم)(٢).

ويعتقد قدماء الصينيين أن كل الحوادث في السماء مقدَّرة ومعروفة، وقد اختص بعبادة السماء وتقديم القرابين لها ملكهم الأكبر.. (ابن السماء) حتى صار لكل ملك أو أمير الحق في عبادة السماء كالملك الأكبر، بينما لا يحق لعامة الصينيين ذلك.. ويعتقدون أنه يجب على الملك أن يحكم بين الناس بالعدل بأمر السماء، فإن خالف ذلك وقسا، أو ظلم الرعية، سلّطت عليه السماء من رعيته من

---

(١) الفلسفة في الشرق- بول ماسون - أورسيل - ص ١٦١-١٦٢ بتصرف.

(٢) الإنسان في ظل الأديان - د. عمارة نجيب - ص٢٣٠.

يخلعه أو يقتله، ومكّنت السماء لغيره من العادلين من يستولي على عرشه ويطرده. وقد قيل على لسان أحد ملوكهم الذي انتصر على ملك من بيت (هشيا) كان قبله وقتله: (أعطى الإله لكل إنسان ضميراً، إذا تبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوي، والإله دائماً يبارك الطيب ويعاقب السيئ، ولذلك أنزل الإله المصائب على بيت (هشيا) كي يضع حداً لآلامه)[1].

مبدأ التفويض السماوي:

وضع مؤسسو "تشو" مبدأ التفويض السماوي لإثبات شرعيتهم في الحكم؛ وذلك من أجل اكتساب تأييد الشعب لهم. وقد كان لمفهوم التفويض السماوي - الذي دعم العقيدة السياسية لشعب "تشو" - وادعائهم الثورة المؤيدة من جانب السماء دور كبير في التطور الذي حدث للعقيدة الصينية.

لقد أصبح الحاكم - بناءً على مبدأ التفويض - هو النائبَ البديل للإله على سطح الأرض، والمسؤول مسؤولية كاملة عن أعماله. وبذلك أصبح الإله مهتماً بأعمال الإنسان نفسه، وليس بما يقدّم إليه من كثرة القرابين والأضحيات؛ فأعمال الإنسان هي مصدر التفويض الذي يمنح للأسرة أو يُحجب عنها. وبما أن الإله هو الذي أمر بتعيين الأسرة الحاكمة لخدمة الشعب وتحقيق العدالة، فإن الواجب الأول والأساس للحاكم هو العمل على سعادة شعبه، والابتعاد عن الظلم حتى يضمن بقاء التفويض في يده. وإن إهمال الحاكم في أداء ما هو مفروض عليه أمر يغضب الإله. ويتمثل هذا الغضب في إنزال الكوارث الطبيعية، وفوق كل هذا: في تمرد الشعب على الحاكم. وفي النهاية يسحب التفويض من هذا الحاكم ومن أسرته، ويمنح لملك جديد تكون مهمته الأولى الإطاحة بالحاكم الحالي، والعمل على سعادة الشعب[2].

---

(١) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٢١ – ٢٢٢ بتصرف.

(٢) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص٢١٧. وانظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبدالرحيم شعبان – ص ٣٢ بتصرف.

سابعاً: عقيدة العامة وعقيدة الخاصة:

يتكون الفكر العقدي للصينيين ـ منذ أقدم العصور ـ من عقيدتين أساسيتين:

الأولى: عقيدة الخاصة.

الثانية: عقيدة العامة.

وسنتحدث عنهما بشيء من الإيجاز:

أولاً: عقيدة العامة:

تتكون عقيدة العامة ـ كما أمحت ـ من عبادة الأرواح الخفية والقوى الغامضة التي كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا كنهها. وهذه المعبودات تنقسم قسمين:

القسم الأول: أرواح الموتى من آباء وأجداد وغيرهم، وتسمى "كوى".

القسم الثاني: القوى الطبيعية، مثل الشمس والقمر والنجوم والكواكب وغير ذلك، وتسمى عندهم "شين"(١).

والسبب الذي جعلهم يعبدون هذه الأرواح: أنهم كانوا يعتقدون بقاء هذه الأرواح بعد الموت، ويشتاقون إلى عودتها بعد الموت إلى أسرتها، ويعتقدون أن الأرواح تبقى في الدنيا، وتعيش مع أفراد أسرتها في الغيب، بل يذهبون إلى أكثر من ذلك؛ فقد كانوا يعتقدون: أن القرابين موائد يشترك فيها الأحياء والأموات معاً، وكان في اعتقادهم وأفكارهم الفلسفية والأخلاقية بأن هناك أرواحاً موكّلة بالمطر، وأخرى بالجفاف، وأخرى بالإنبات، وأن هناك أرواحاً خاصة لحماية ورعاية أفراد الأسر ورعاية المنازل(٢).

ثانياً: عقيدة الخاصة:

كان الخاصة لهم عبادتهم وفكرهم الخاص؛ فهم يعبدون "السماء"، لما يرونه

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٣١–٣٢ بتصرف.

(٢) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية – علي معبد فرغلي – ص ٣٦.

كامناً فيها من قوة معنوية لها كل السلطان على الأرض وما فيها. وهكذا ظهر الفرق منذ أقدم العصور واضحاً بين عقيدة العامة التي تأمر بعبادة الأجداد وغيرهم من الموتى، وعقيدة الخاصة التي تحصر العبادة في السماء، أو في (شانج - تي)؛ أي: السلطان الأعظم. ولم تكن عقيدة الخاصة هذه مستحدثةً في العصور المتأخرة، وإنما كانت موجودة منذ القدم(١).

ومن العجيب أنك ترى أن هذه الفلسفة أو هذه النظريات محرَّمة تحريماً قاسياً على العامة! وظلت هذه التفرقة في الصين حتى العصور الحديثة. ولهذا قال الحكيم "لا و تس" في هذا الشأن، مبيناً أن للعامة أخلاقاً وللخاصة أخلاقاً، ولا ينبغي أن تعرف العامة بعقيدة الخاصة، مُشدداً على ذلك: "كما أن من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت، كذلك من المستحيل أن تُكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال"(٢). من هنا نعرف مقدار حرص الخاصة على عدم تسرب أسرار عقيدتهم إلى العامة.

العبادة الملكية:

تقام العبادة الملكية في معبد الأسلاف ـ وهو المبنى المركزي في مجموعة مباني القصر ـ أمام تُخوم القصر التي تواجهها الشمس صوب الجنوب. ويتم الاقتراب من البوابة الجنوبية، فتفتح على فناء عظيم يقع في الجانب الشمالي منه ضريح أسلاف أسرة (تشو)، وفي المؤخرة، عبر بوابتين أُخريين، يوجد الفناء الرئيس، حيث يقوم في جانبه الشمالي القصر الذي يقيم فيه الملك.

ويصف قائد مظفر المراسم النموذجية التي شارك فيها، وكانت في جانب منها عبادة، وفي الجانب الآخر حفلاً ملكياً، فيقول: في اليوم الأول، وقبل الشروق يقوم

---

(١) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص ٢١٩ بتصرف. وانظر: المدخل في تاريخ الأديان – د.سعيد مراد – ص ١٧٤–١٧٥.

(٢) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية – علي معبد فرغلي – ص ٣٨. وانظر ص ٣٤ من هذا الكتاب.

الكهنة الكبار بتجهيز الملك في قصره، ثم يتقدم الملك إلى معبد الأسلاف، ويقف أمراء الإقطاع العائدون من حملات عسكرية أمام البوابة الجنوبية، ثم يُدعونْ إلى الفناء الكبير حيث يعرضون أسراهم، عندئذ يُضحى بالأسرى كقرابين في معبد الأسلاف[1]، ويتقدم المشاركون نحو الفناء الرئيس، حيث يتلى تقرير عن الحملة، ثم يسير الملك من الفناء الرئيس إلى المعبد لتقديم القرابين للأسلاف الملكيين. وفي اليوم التالي تقام للرعايا المجتمعين وليمة من اللحوم والخمور التي سبق تقديمها مكافأة لهم من الملك.

وقد حفظت الطقوس التي كانت تؤدَّى في مثل هذه الخدمات الدينية في أقدم قسم من (كتاب الأغاني)، وهو مختارات من الشعر الصيني المبكر، وهي ترنيمات لملوك أسرة (تشو)، وتتألف الترنيمات من تضرعات، واعترافات موجهة إلى الأسلاف من الملوك وتراتيل تتلى للآلهة عن أعمال البسالة. وقصائد أخرى تحتفي أمام الآلهة بحضور الإقطاعيين وأتباعهم أثناء الاحتفال وتأدية الطقوس. وهناك أغان ترحب بالأتباع، وأغانٍ أخرى تعبر عن الإخلاص والولاء ينشدها هؤلاء الأتباع للملك. ومن ذلك كله تتألف طقوس العبادة الملكية[2]. ويمكن أن نكوِّن فكرة عن المشاعر الدينية التي تنطوي عليها طقوس المعبد من المقتطفات الآتية:

(بهدوء جليل، وانسجام مهيب
يسجل الوزراء والفرسان الحاضرون

---

(١) كان الملك يقوم بسلسلة من الأضحيات: للأجداد ولـ (تي) وللآلهة الأخرى أحياناً، والخدمة الطقوسية تمتد من ٣٠٠ إلى ٣٦٠ يوماً. وفي المقابر الملكية الكبرى بالقرب من (آنيان) وجد، إلى جانب الهياكل العظمية للحيوانات، العديد من الضحايا البشرية، المضحَّى بها على الأرجح كي ترافق الملك في العالم الآخر.

تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية – ميرسيا إلياد – ج٢ – ص١٠،١٢.

وانظر: الأديان في تاريخ شعوب العالم –سيرغي أ. توكاريف – ص ٢٦٦

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ص ٣١٠-٣١١ بتصرف.

وانظر: فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٢٩.

فضائل سيدهم المنشئ
المتكفل بنا من قبل السماء
الملك العظيم "ون"
آه يا مولاي لعلك تجد وأنت في جلالك العظيم
في العمل المتزن، والكلمة المهذبة
مديحاً لا يغضبك من بشر فانين
جليل ولا حد لجلاله
هو تكليف السماء
فضيلتك أيها الملك الشهير "ون"
تهبط لتغمر بالبركة
خدماً على الأرض
ليس علينا إلا أن نتلقى عطفك وإحسانك
فليحفظها من يأتون بعدنا
إننا نأتي، بتواضع، بما لدينا من قرابين
من ثيران وخراف
فلتتبع منها
عناية السماء
ورضا الملك
ليكن علينا على الدوام أن نخشى غضب السماء
حتى نصون عطف الملك
ونحافظ على طريقنا المستقيم
ينبغي علينا، لكي نجلب السلام على الأرض
أن نطيع أوامر الملك "ون"

وأن نثق في تشريعاته
وسوف يراقبنا من بعيد، ويشملنا بالتشجيع والتأييد
ثيابه من الحرير البراق
وقبعته مرصعة بالأحجار الكريمة
خمره معتقة للغاية لكنها لا تسكر
في تواضع جليل يمشي هوناً وبلا صوت !
وسط الركائز المقدسة.
والقرون الخاصة بالشراب. !
يمشي من القاعة إلى العتبة
بخطوات محسوبة
ويمنح عفوه في النهاية للمسيئين)[1].

ولقد أمدت توجيهات ملوك أسرة (تشو)، وترنيمات كهنتهم الدينية أثناء تأدية الطقوس - أمدت كونفوشيوس (بوثائق الماضي العتيق) كما أيدت أفكاره السياسية والدينية بسلطات قديمة. فأصبحت أفكارٌ معينة من الديانة الملكية لأسرة (تشو) معتقداتٍ دينيةً أساسية عند كونفوشيوس، وفي الدولة الكونفوشيوسية التي جاءت بعد ذلك. ومن هذه الأفكار الأساسية: فكرة (الموجود الأسمى) (تشانج - تي)، أو (الله في الأعالي)، وفكرة الملك الذي تقلده السماء نائباً أو مفوضاً عنها (تكليف السماء)، وفكرة أن السماء تسحب تفويضها من الأشرار، وتوافق على خلع الأسرة الحاكمة عندما تنضب فضائلها، وتبرر إحلال أسرة أخرى محلها بأنها (مقبولة من السماء)[2]. وسأتناول هذه الأفكار أو المعتقدات بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) المرجع السابق – المعتقدات الدينية لدى الشعوب – ص ٣١٢–٣١٣.

(٢) المرجع السابق – ص ٣١٣.

ثامناً: الأحداث الكونية تتبع الأخلاق:

من معتقدات الصينيين القدماء: أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التي تسود بين الناس وملوكهم، فكلما كان العدل والانسجام والتفاهم والفضيلة تسود بين الناس، وتربط العلاقات بينهم برباط من المودة والمحبة والرحمة، فالكون يسير في فلكه من غير اضطراب يعيش الناس بسعادة وهناء، أما إذا حاد الإنسان عن جادة الحق، وابتعد عن السلوك القويم، اضطرب الكون لمخالفة القانون الأخلاقي[1]، ويعدُّون حدوث القحط والزلازل والدمار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، دلالات على فساد خُلقي موجود بين الناس، أما السلوك الطيب فيجلب الخير والبركات ويجعل كل ما في الكون يجيء وفق رغبة الإنسان، وهم يعتقدون أن المؤثرات في الكون أمور ثلاثة هي:

السماء: ولها السلطان الأعلى. ثم الأرض؛ لأنها تقبل أحكام السماء، ثم الإنسان بما يؤثره بإرادته. فإذا أراد الفضيلة وسلك سبيلها يجعل مظاهر الكون لخير الإنسان...[2].

السماء والأرض والإنسان:

يعتقد الصينيون القدماء أن بين السماء والأرض والإنسان رباطاً محكماً، وأن لكل واحد من هذه القوى في الظاهر طريقاً خاصاً، أو غايةً مقصود تحقيقها. وتوضيح ذلك:

أن غاية السماء تسمى "تيان تو".

وغاية الأرض تسمى "تو تاو".

وغاية الإنسان تسمى "جين تاو".

إلا أن هذه الغايات ليست في الحقيقة إلا غاية واحدة، هي غاية العالم، أو

---

(١) الديانات القديمة – الشيخ محمد أبو زهرة – ص ٧٤ بتصرف.

(٢) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٢٣ بتصرف.

"قانون الطبيعة" أو "واجب الموجودات" . وعن مدى ارتباطهم ببعض: إذا حدث اضطراب في أحدهم يرتد صداه في جميع جزئيات الآخرين.

وبناءً على ذلك إذا حاد الإنسان عن الطريق السويّ، فاقترف جريمة من الجرائم، حدث في الحال اضطراب في السماء والأرض. وليس الكسوف والخسوف والزلازل والجدب والأوبئة إلا نتائج جرائم الإنسان وحَيْدته عن الطريق السوي(١).

ولهذا تقول: "أونج فان" ـ وهي القاعدة العظمى في فلسفة الصينيين، وهي أقدم مستند فلسفي صيني ـ (إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث في الوقت المراد، والتبصر يجلب الحرارة في الوقت المراد، والتمرن على التأمل يجلب البرودة في الوقت المراد، وحكمة الملك تجلب الهواء في الوقت المراد، ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع، واحتقار ما يستحق الاحترام يجلب الجدب، والحماقة تجلب العاصفة)(٢).

العلاقة بين السماء والأرض:

السماء والأرض مادتان متوازيتان، ولهما وجود أزلي. وعندما نذكر السماء أو الأرض، فليس المقصود هو الجِرم الذي يُتخذ مادةً صالحةً للإقامة، ولكنهما سكن لكل العالمين. سكان السماء ـ وهم أرواح الأجداد القدامى ـ هم الذين يطلق عليهم لفظ (تي)، وهؤلاء يؤمرون من الأرواح السابقين الأولين الذين يطلق عليهم (سانج تي)، أولئكم الذين غادروا الأرض، وجلسوا على عرض في السماء، ولكنهم مازالوا يتصلون بعالم الأرض. إن السماء والأرض يشكلان وحدة لا يمكن فصلهما والموت مرحلة تالية للحصول على أعلى الدرجات، فالناس في الدنيا تتغير أحوالهم، حتى الأبوة العالية مرحلة الأجداد، فهي سلطة أعلى. السماء لها سلطة وهيمنة على الأرض، والسماء كذلك تعطي البهجة والسعادة للأرض، بل إن

(١) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية – علي معبد فرغلي – ص ٤٢.

(٢) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

السماء بمقدورها تحديد أسلوب الحياة للأرض. ولهذا يجب على الأرض أن تقدم تضحيات نحو السماء. والأسلوب الأفضل لحديث الأرض مع السماء هو القرابين والهدايا التي تقدمها الأرض إلى السماء عن طريق الدخان الذي يتصاعد من حريق هذه القرابين والهدايا فوق جبل معروف... وإرسال مثل هذه القرابين يشكل واجباً من واجبات القرى، وبخاصة عندما ينصبون رئيساً أو ملكاً، لا بد من ممارسة هذه العادة، على أن توجه كل الطاعة إلى أرواح الأجداد القدامى، وفساد شيء من هذه العبادة نحو أرواح الأجداد يعني ضياع كل الحقوق، فلا يمكن لأحد أن يحصل على شيء ما.

تتحدث السماء مع الأرض عن طريق الحدس والتخمين، وذلك بتحديد أسلوب العطاء للأرض في الزمن الفائت.

فالسماء تستطيع أن تقدر ما سيحدث في المستقبل للأرض، وعندما تتعرف الأرض إلى ما تحدِّث السماء به نفسها، فإنها تعلم كم يكون نصيبها في المستقبل، فإذا حصلت السماء على هدايا وقرابينَ طيبة، فإن أرواح الأجداد سوف تقدم المعلومات للأرض نحو مستقبلها، وذلك عن طريق أحفادها في الأرض.

أما أسلوب الحديث من السماء إلى الأرض، فإنه لا يكون بواسطة اللغة التي يتحدث بها الناس، ولكنه يقع بأسلوب لغة الإشارات، وهذه أحياناً تقع في شكل جسد بشري مثل حركة العينين، أو صفير الأذن إلخ... وقد تقع خارج الجسد البشري؛ مثل: البرق أو الرعد أو النجوم أو الزلازل أو حركة الحيوانات، أو صوت طائر... إلخ. وقد تقع هذه الإشارات بواسطة تجارب الإنسان من نفسه، وذلك عن طريق قذف حجر إلى أعلى، ثم مراقبة جهة سقوطه على الأرض، بل في كثير من تصرفات الإنسان يستطيع أن يحصل على الإشارات المعنية؛ مثال ذلك: إذا أراد أن يخرج أو يسير، أو إذا هَمَّ بالركوب أو بالصعود... إلخ، فإنه يستطيع أن يحصل على علامات خاصة(١).

---

(١) التفكير الديني في العالم قبل الإسلام – د. رؤوف شلبي– ص ١٠٤–١٠٦ بتصرف.

عبادة الأرض:

من ناحية أخرى، فإنهم قد أغرقوا في عبادة الأرض وتقديسها، حتى كانوا يطلقون عليها اسم "القوة المحسنة التي تتسلم البذور لتردها ثماراً مضاعفة"، وذلك بالنظر إلى كون الشعب الصيني شعباً زراعياً في المرتبة الأولى، وكانت الحاصلات الصينية وطرق الزراعة، على الأرجح، الأفضل من نوعها في العالم، فضلاً عن أن الصينيين قد وضعوا الاستغلال والاستنبات في المنزلة الأولى في الحياة(١).

تاسعاً: عقيدة الخلود:

حب الدنيا وكراهية الموت من طبيعة الإنسان، ولكن لا نجد بين الأمم من كان أشد حباً للحياة، وأكثر حرصاً على الخلود مثل الصينيين. فكان أعظم أمانيهم في الحياة هو طول العمر ودوام الحياة، وبالتالي ظهرت فيهم فكرة الخلود منذ العصور القديمة، وكان الكَهَنة قد سبحوا بعقولهم في أقصى ميادين الخيال، وصوَّروا للناس أن هنالك في الدنيا عالماً آخر "يدوم فيه الشباب، وتخلد فيه السعادة، وتنعدم فيه الأمراض، وتكثر فيه الأفراح، وأهلُه أناس خالدون لا يطْعَمون فيه إلا النسيم والندى، ويسوقون السحاب، ويقودون التنانين الطيارة، فيسيحون بين السماء والأرض، ولا تنفك الشمس مضيئةً والقمر منيراً، وفيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا أنف شمَّ في العالم البشري. وتنبت فيه عقاقير الخلود، ومن تناول عقاقير الخلود، فلن يموت، وسيخلد في الدنيا.

صدّق الناس ما تخيل لهم الكهنة واعتقدوه، وخاصة الطبقة العليا، الذين يعيشون في الرفاهية والنعمة، فكانوا أشدَّ الناس إعجاباً بفكرة الخلود، وأحرصهم للوصول إلى الإنسان الخالد. وافتتنت عقول الملايين بهذه الفكرة، عقلاءَ كانوا أو سُذَّجاً على السواء. وكان الكهنة يبُثُّون هذه العقيدة بين العوام، ويبشرون بوجود

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ص ٢٧٢ بتصرف.

وانظر: الفلسفة في الشرق – بول ماسون – أورسيل – ص ١٦١.

العالم الخالد وإمكان الخلود روحاً وجسداً بتناول دواء الخلود، فانطلق الناس يبحثون عن هذا الدواء بجنون، وكان الملوك أشدَّهم حرصاً عليه؛ فإنهم لا يبالون بدفع أي ثمن كان في هذا السبيل. وقد أرسل الملك جين شي خانغ (حكم ٢٢١ ق. م- ٢٠٧ ق.م) الكهنة إلى كل صوب وحدب للعثور على دواء الخلد، حتى عندما أُخبر بأن الدواء في البحار بعث الصبيان إلى جزر البحار لتحقيق ذلك الأمل البعيد، باعتبار الصبيان أنقياءَ وأصفياءَ ويجدون الدواء بصفائهم وإخلاصهم، ولكن انتهت كل المحاولات بالإخفاق وصارت جهودهم وجهود الناس جميعاً هباءً منثوراً، وخاب أمل الجميع أمام دعاية الكهنة (١).

خلود الروح:

يقول ميرسيا إلياد: إن الاعتقاد باستمرار حياة الروح موضحة بالأدوات والأطعمة الموضوعة في المقابر. وإن الأطفال كانوا يدفنون بالقرب من المساكن، في جرار كبيرة مزودة بفتحة في قمتها، لكي تسمح للروح بالخروج والعودة. وبعبارة أخرى: إن الجرَّة الجنائزية كانت (البيت) للميت، وهي فكرة جرى التعبير عنها كثيراً في عبادة الأجداد في العصر البرونزي و(عصر شانج)(٢). وقد ظل الشعب الصيني بأسره تقريباً على مدى تاريخه كله، يمارس عبادة الأجداد. وعبادة الأجداد تومئ إلى الإيمان بأن أرواح من ماتوا لا تزال تواصل العيش، محتفظة بحاجاتها البشرية. ولن تتضح للأذهان أشكال القرابين، وزيارات المقابر، وشعائر الأسلاف المنزلية، إلا مقترنةً بذلك المعتقد، ويبدو أن فكرة الخلود الشخصي ضمنية هنا(٣).

ويضيف أبو الفيض المنوفي "إن المطلع على كتبهم قد يعثر على جمل تفيد أنهم كانوا يعتقدون في خلود الروح وبقائها بعد الموت؛ كقولهم: (لما يموت المرء

(١) عقيدة الألوهية في الديانة الداوية – أيوب نور الحق – ص ٨-٩ بتصرف.

(٢) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية – ميرسيا إلياد – ج٢ – ص ٨.

(٣) التاريخ وكيف يفسرونه – آلبان. ج. ويد جيري- ج١ – ص ٢٨ بتصرف.

وانظر: المذاهب الكبرى في التاريخ – آلبان. ج. ويد جيري – ص ١٢ بتصرف.

يعود جسده إلى التراب، إنما روحه الحية تتحرك متلألئة خارج القبر، وتلقي فينا الهيبة والخوف). ومن التعاليم الدارجة عندهم قولهم: (كن قنوعاً في اللذات، وديعاً مع الناس، فيوافيك روح علوي يملؤك من الخيرات). (إن للملوك الأموات وللآباء والأجداد في السماء مكاناً يشرفون منه على أعمالنا وأقوالنا)"(١).

عاشراً: عالم العرافة والتنبؤ بالغيب (التنجيم والكهانة):

آمن الصينيون، ولا يزالون حتى اليوم يؤمنون، بأن هناك أرواحاً خَيِّرة تسهر على فصول السنة، وعلى النشاط الزراعي، وعلى حماية المنازل ورعاية أفراد الأسر. ولما كانت هذه الأرواح بنوعيها، السماوي والأرضي، هي التي تحكم الكون، وتُسيِّر كل حركاته، وتسبغ على البشرية السعادة، كما أن في استطاعتها أن تتلقى القرابين، وأن تندمج في الكائنات البشرية، فقد حرص الصينيون على أن يردوا عداوة هذه القوى والأرواح الخفية، وأن يستعينوا عليها بالأدعية والرُّقَى السحرية، فراحوا يستأجرون السحرة والعرّافين والمتنبئين من ذوي المواهب، ليكشفوا لهم عن المستقبل باستخدام أصداف السلاحف، وملاحظة الظواهر الطبيعية كحركات النجوم مثلاً، وهؤلاء هم الكهان.

إننا إذا ألقينا نظرة على القسم المسمى "الفكرة العظمى" في "كتاب التاريخ" يظهر لنا أن حكام أسرة شانج (١٧٦٥ – ١١٢٣ ق. م) – وهي السيرة التي يبتدئ بها التاريخ المسجل للصين، كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بالتنجيم، وهو أهم أقسام الكهانة، وأنهم مارسوه بطرق متعددة. ومن بين تلك الطرق: أنهم كانوا يُعرّضون قطعة من ذيل غطاء السلحفاة للحرارة، ويجيبون على سؤال السائل من دراسة التشققات التي تظهر فيها.

وفي طريقة أخرى كانوا يحفرون عدداً من الحفرات البيضاوية الصغيرة في أحد جوانب قطعة من العظم، وكانت في العادة من عظم كتف شاة، ثم يُحمون قضيباً

---

(١) الدين والفلسفة والعلم – محمود أبو الفيض المنوفي – ص ٩٥ بتصرف.

معدنياً في النار حتى يحمرَّ، ويضعونه في تلك الحفرة، ثم يجيبون على سؤال السائل من تفسيرهم للتشققات التي تظهر على الجانب الآخر لقطعة العظام.

وكان حكام شانغ يستوردون ويربون السلاحف التي يأتون بها من الجنوب حتى تكون عظام غطائاتها من النوع المطلوب. وفي طريقة التنجيم بواسطة عظام الكتف كان المنجمون يحفرون على العظمة نصوص الأسئلة المطلوب الإجابة عليها قبل تعريضها للنار بسبب الاعتقاد بأن الآلهة صماءُ، وأنها لا تفهم المطالب التي ترفع إليها إلا إذا كانت مدونةً كتابةً.

وكانت الأسئلة تتعلق ـ قبل أي أمر آخر ـ بشؤون القصر الملكي، يسألون عن الأوقات المناسبة لتأدية الشعائر، والنتائج المحتملة للحروب التي يقومون بها، وعما ينتظر المحاصيل..(١) وعلى إحدى العظام نقرأ شيئاً يدعو إلى التسلية، ويدلنا على تصرف المنجمين؛ فقد كان السؤال كما يأتي: إذا خرج الملك للصيد في التلال الشرقية (في يوم كذا) فهل ستسقط الأمطار؟ وإلى جانب التشققات التي دلت على الجواب بأنها ستمطر، نجدهم أضافوا كتابة الجملة الآتية: (وقد أمطرت حقاً).

إن طبيعة الأسئلة المطروحة، في هذا الأمر، تعطينا صورة لمجتمع ينظمه، في كل جانب من جوانب الحياة اليومية، التنبؤ بالغيب، وتحكمه اعتبارات الحظ الحسن أو الفأل السيئ، كما تؤكد إيمان قدماء الصينيين بوجود رباط وثيق بين أفعال الأرواح وتصرفات البشر، وتأثير متبادل بين الأشياء في الكون والشؤون البشرية، مما أوجب عليهم الاستعانة بكافة ضروب الكهانة(٢).

وتقسم المراجع الصينية فنون الكهانة ستةَ أقسام:

الأول: التنجيم. ويعدُّ أهمَّها.

---

(١) انظر: الأديان في تاريخ شعوب العالم – سيرغي أ. توكاريف – ص ٢٦٥.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ١٦بتصرف.

وانظر: الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة– د. عمر عبد الحي ص ٥٨.

الثاني : التقويم. والغاية منه تعيين الفصول الأربعة بغية ضبط أوقات الاعتدالين والانقلابين، وملاحظة موافقة فترات الشمس والقمر والكواكب الخمسة لتتيسر دراسة أحوال البرد والحر، والحياة والموت.

الثالث : يتصل بالعناصر الخمسة : التراب، الخشب، المعدن، النار، الماء.

الرابع : يتعلق بأوراق نبات العرافة وصدفة السلحفاة. ويقصد بنبات العرافة "زهرة القنديل"، وتمتاز بكثرة أوراقها. فكان من يطلب معرفة حظه يقطع أوراق الزهرة ورقةً ورقةً، وفي الورقة الأخيرة يتمثل الرد على رغبته. أما بالنسبة إلى صدفة السلحفاة، فكان العَرَّاف يثقب حفرة فيها، وبتعريضها للحرارة، تظهر عدة شروخ يفسرها العراف على أنها إجابة عن سؤاله.

الخامس : يتضمن الأحلام.

السادس : يتألف من طريقة الأشكال. ومدارها قياس وإحصاء عظام الناس والحيوانات المستأنسة الستة : الحصان، الثور، الخنزير، الغنم، الكلب، الدجاج. وكانت هذه الطريقة تستخدم عند بناء سور المدينة، أو منزل، أو كوخ(١).

بهذه الطرق السالفة الذكر كان السحر والفأل الحسن والفأل السيئ من الأفكار السائدة في الصين قديماً، ولكن ما هي القوى التي كان يستمدون منها هذه الإجابات؟

والإجابة : هي أرواح الآباء والأجداد والأسلاف، كذلك أرواح القوى الطبيعية التي كانوا يؤمنون بها(٢) والتي كانت تعبد هي أيضاً كما بيَّنا سابقاً. وقد خلع الصينيون على السحرة والعرافين صفة القدسية والتبجيل، بوصفهم الواسطة بين عامة الناس والأرباب والأرواح، فكانوا يقومون للناس بأعمال كثيرة؛ منها : "أنهم يعيِّنون أماكن بناء المساكن، وينسقون حجراتها، ويحددون مواضع تقديم القرابين،

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١ - ص ٣٢.

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر - ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

ويرتبون أسبقية الأرواح وفقاً لمكانتها. وساد الاعتقاد بأن في وسع الأرواح أن تسبغ على البشرية السعادة، وأن تتلقى القرابين، وأن تندمج في الكائنات البشرية. وادّعوا قدرتَها على التجسد[1]. وقد تطور التفكير الصيني، بمرور الأيام، وأخذ يتحرر تدريجياً من إسار العرافة والكهانة، وقيود السحر والأرواح، وهذا ما نطالعه في الأحداث الصينية:

١- ذكرت السجلات - في أحداث عام ٦٦٢ قبل الميلاد - أن أمور الدولة تزدهر وقتما ينصت الحكام إلى صوت الشعب، فإذا استمعوا إلى الأرواح فسدت الأمور.

٢- وفي أحداث عام ٥٥٤ قبل الميلاد، قالت: (طريق السماء طويل، في حين أن طريق الإنسان قريب المنال، لكن لن يمكننا بلوغ السماء؛ إذ لا سبيل إليها).

٣- وفي أحداث عام ٥٠٩ قبل الميلاد، ذكرت أن مملكة "هسيه" تلجأ إلى الشعب، في حين تستعين مملكة "سونج" بالأرواح. وعلقت على ذلك بقولها: (إن إساءة مملكة سونج بالغة)[2].

الحادي عشر: تقديم الأضاحي للآلهة:

مما تقدم يتبين لنا أن عبادة أهل الصين كانت تتلخص في إقامة الشعائر، وتقديم القرابين للإله الأعظم، وأرواح أسلافهم، وقوى الطبيعة المختلفة، وهذا كان له أثره في إقامة المعابد والهياكل، فقد كانت المعابد في الصين تبنى على هيئة هيكل عظيم، بداخله هياكل ثلاثة، ترمز إلى مذابح ثلاثة، لكل معبود هيكل، وهذه الهياكل هي:

١- مذبح الكواكب والأفلاك السماوية والأرضية: وهذا تقدم فيه القرابين للشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض والتلال والجبال والأنهار، وما إلى ذلك من قُوى الطبيعة.

٢- مذبح الأرواح، حيث كانوا يعتقدون أن أرواح آبائهم وأجدادهم وملوكهم

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١ - ص ٣١ بتصرف.

(٢) المرجع السابق - ج١ - ص ٣٣.

تهديهم في تلك الحياة، وتقف معهم وقت الشدة والرخاء، فكانوا يقدمون القرابين لها في هذا المذبح زيادة في إرضائها، وليستهدوها في أمورهم الحاضرة والمقبلة، ويطلبوا منها السعادة في حياتهم.

٣- مذبح الإله الأعظم: وهو خاص بعظيم السماء، وهذا المذبح أقدم المذابح وأعظمها وأكبرها، لا تجد حوله أصناماً أو تماثيلَ أو دمًى؛ لأنه مذبح الإله غير المنظور(١). كما كانت عباداتهم تقوم على تقديم الذبائح الخمس التي ترمز إلى العناصر الخمسة التي يرجع إليها أصل كل الموجودات؛ وهي: المعدن والخشب والماء والنار والتراب(٢).

الثاني عشر: هل كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر ؟

وإذا كانت الأخلاق الصينية هي محورَ الدائرة في الفكر الصيني القديم السابق لكونفوشيوس، فما هو مقياس الخير والشر عندهم؟ الخير والشر عندهم هو ما يرضي الأرواح، أو يسخطها من أعمال أبنائهم، فما أرضى السلف فهو خير، وما أسخطهم فهو شر(٣). ويقودنا ذلك إلى الحديث عن "القضاء والقدر عند الصينيين". فهل كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر؟ وهل يغير القضاء والقدر عندهم أم لا؟ والناظر في فكرهم يجد أن القضاء والقدر عندهم على نوعين:

الأول: الأقدار الناشئة عن الأفعال الصادرة عن الإنسان نفسه. وهذا النوع لا يمكن تعديله أو التغيير فيه.

والثاني: هو الحظ الذي تبدأ السماء بتوزيعه على الإنسان، وهذا يمكن تلطيفه، أو تحويل شره إلى خير.

وكان الصينيون القدماء يؤمنون بالقضاء والقدر، ويذعنون لأحكام السماء، ولكنهم كانوا يجعلون للإرادة الإنسانية الشأن الأول؛ لأن الإرادة الإنسانية للخير

(١) الأديان في كفة الميزان – محمد فؤاد الهاشمي – ص ٢٩ بتصرف.

(٢) عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٢٤.

(٣) الأديان القديمة – حسن الهواري – دار الطباعة المحمدية – القاهرة – ١٩٩٢م – ط٢ ص١١٤.

أو للشر لها أثرها في الكون على حسب عمل الإنسان؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والسماء تعطي الإنسان جزاء ما قدم. وأما أفعال السماء التي تكون حظاً من غير تقدم الإنسان بسبب لها، فهي تقبل التخفيف بالإرادة الإنسانية الخيِّرة أو الشرِّيرة. في هذه الحدود الضيقة كان إيمان الصينيين القدماء بالقضاء والقدر(١).

مصير الإنسان بعد موته:

يعتقد الصينيون أن للإنسان مصيرين بعد موته؛ فالروح الصالحة تصعد إلى السماء، وتصير شين (الإله) وتُضَم في جملة الآلهة، والأرواح الطالحة تدخل تحت الأرض، وتصير "قوى" (الشيطان)، وتقيم في منطقة تسمى "خانغ جوان" : (الينبوع الأصفر) للعذاب(٢). وكان الناس يعتقدون بأن شين (الأرواح الصالحة أو الآلهة) تحفظ الناس وتنفعهم، بينما أن "قوى" (الأرواح الطالحة أو الشياطين) تضر الناس وتعاديهم، فكانت العبادة لهما تهدف إلى جلب النفع من الأُولى، ودفع المضرة من الثانية(٣).

الثالث عشر: هل حظيت الصين برسالة سماوية؟

اتفق علماء مقارنة الأديان على أن الصين ـ على اتساع رقعتها، وكثرة شعوبها ـ قد مارست جميع أنواع العبادات، ولكنها ـ على الرغم من ذلك ـ لم تحظ برسالة دينية سماوية واحدة تنشأ فيها (٤)، فلم تُخرج للعالم قيماً دينية تصدر منها، ولكنها حاولت أن ترضي العقل الفطري الباحث عن الألوهية بمعتقدات وردت إليها من الخارج قديماً وحديثاً(٥).

(١) الديانات القديمة – الشيخ محمد أبو زهرة – ص ٧٥.
وانظر: عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٢٢.
(٢) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص ٢١٤.
(٣) عقيدة الألوهية في الديانة الداوية – أيوب نور الحق – ص ٦–٧.
(٤) قد تكون الصين حظيت برسالة سماوية لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ الآية.
(٥) الإنسان في ظل الأديان – د. عمارة نجيب – ص٢٣٠ بتصرف.

تعدد الآلهة والنزعة التوحيدية:

كانت المعبودات ـ على الرغم من كثرتها ـ تنقسم ثلاثةَ أصناف: آلهة السماء، وأرباب الأرض، وشياطين الإنس. أما آلهة السماء هم الذين يدبرون أمور السماء والفضاء؛ مثل إله البرق، وإله المطر، وإله الرياح، وآلهة الكواكب والشمس والقمر وغيرها[١]. وأما أرباب الأرض، فهم الذين يستوطنون الأرض، ويدبرون الأمور عليها؛ مثل رب الربْوات، ورب الغابات، ورب المياه، ورب الأنهار، ورب المملكة، ورب المدينة، ورب المطبخ وغيرها[٢]. وأما شياطين الإنس فالمقصود بهم أرواح الموتى (الأرواح الطالحة).

وظلت عبادة القدماء على هذا النحو في التعدد عملياً واعتقادياً، حتى طرأ عليها التغير في العقيدة؛ ففي القرن الثالث عشر قبل الميلاد تطورت العقيدة تطوراً عظيماً نحو النزعة التوحيدية، حيث توصل الناس إلى معرفة الإله الواحد الأعلى، وأطلق عليه الاسم "شان دي"، بمعنى: السلطان الأعلى، كما دلت عليه الوثائق التاريخية القديمة. وفي ضوء ما اكتُشف من الآثار القديمة نلحظ أن القدماء كانوا يعبدون هذا الإله الأعلى كرب السماوات والأرض وخالقهما، وهو الملك الأعلى في الكون يسيطر على الآلهة الطبيعية الكثيرة، وما الآلهة الأخرى إلا وزراء ورُسُلٌ له تدبر الأمور في السماء والأرض نيابة عنه وفقاً لإرادته، بحيث إن الملكوت السماوي مثل المملكة الإمبراطورية على الأرض، ويكون الإله الأعلى ملكاً يقوم الوزراء والموظفون والخدام على خدمته[٣]. ولكن بما أن الإله الأعلى لم يحكم العالم مباشرة، فإنه لم يتمتع بالعبادات والقرابين من قبل الناس، فكانت العبادات كلها تبدو موجهةً إلى الآلهة الصغرى. أما الدعاء والمدح، فيوجه إلى الإله الأعلى[٤].

---

(١) الديانة الصينية والمسيحية – جين جايي وهنس كن – ص: ٢٢. (عقيدة الألوهية في الديانة الداوية – أيوب نور الحق – ص ٦).

(٢) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص: ٢١٤.

(٣) الديانة الصينية والمسيحية – ص ٢٢.

(٤) العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين –ص ١٤٩.

ويمكننا أن نتصور أن عبادتهم لـ "شان دي" حقَّ العبادة تختلف عن عبادة آلهة قوى الطبيعة؛ إذ إن عبادة "شان دي" كانت عبادة روحانية وباطنية كالدعاء والمدح، بينما مظاهر عبادة الآلهة الأخرى كانت جسمانية ظاهرية؛ كالسجود وتقديم القرابين، والانتقال إلى نزعة التوحيد أمر عظيم، ولا نعرف كيف تم ذلك الانتقال، اللهم إلا أن يكون قد أُرسل إليهم رسل من عند الله تعالى، ودعوا بدعوة التوحيد.

وبعد القرن الحادي عشر قبل الميلاد حل الاسم "تيان" (بمعنى السماء) محل الاسم "شان دي"، وجعله الناس أحدَ معبوداتهم، حيث بدؤوا يقدمون إليه القرابين بوصفه الإله الأعلى الذي يراقب الدنيا من فوق(١) ويجازي المحسنين، ويعذب العصاة، ويختار من الناس أحسنهم ليكون ابناً له وملكاً للناس(٢) فصارت عبادته أعلى صور العبادة، ولا تزال عبادته مغايرةً لعبادة سائر الآلهة؛ إذ إن الملك يخرج من المدينة إلى ضاحيتها في وقت معين كل سنة ومعه الأشراف والمواطنون، ثم يقيمون مراسيم العبادة تحت رئاسة الملك في مكان خال.

وكانت الرياسة في هذه العبادات محصورة على الملك فقط، ثم تطورت في العصور المتأخرة، فتجاوزت الملك إلى حكام المقاطعات والأقاليم (٣) وكانت عبادة "تيان" عبارة عن مراسيم رسمية للدولة، وصار "تيان" إلهاً للحكام والأشراف والخواص. وأما عامة الناس، فلا يزالون بجانب عبادة "تيان" يعبدون الآلهة الطبيعية والأسلاف. ويبدو من هذا أن الخواص منهم كانوا على عبادة الإله الواحد "تيان" بينما العوام كانوا يعبدون آلهةً عِدَّةً.

وبعد القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت نزعة الشك بين العوام(٤) في الإله الأعلى، وبدأ الناس يشكون في وجود هذا الإله الغيبي إلا قليلاً منهم. وبهذا اشتد ميل

---

(١) الديانة الصينية والمسيحية ص ٢٢، و الديانة الداوية ص ٣٢.

(٢) قصة الحضارة – ول ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤ ص ٣١.

(٣) الفلسفة الشرقية– محمد غلاب – ص ٢١٦.

(٤) تاريخ لوتس – (باللغة الصينية) المطبعة الشعبية – بان خو ١٩٩٢م – ص ١٤٧.

العوام إلى عبادة الآلهة المتعددة وأرواح الأسلاف، حتى إذا اقترب عصر ظهور كونفوشيوس كان الشرك والوثنية سمةً سائدة في المجتمعات الصينية(١).

الرابع عشر: دين أهل الصين قبيل كونفوشيوس:

في نهاية هذا الفصل، وبعد دراسة الحالة الدينية في الصين قبل مجيء كونفوشيوس، نقول: إن قدماء الصينيين كانوا يعتقدون أن السماء جوهر حيٌّ، عليم قادر، مدبر الكون، نافذ الإرادة في النفوس وسائر الكائنات، واعتقدوا بالقضاء والقدر، وقالوا إن العاصفة والطوفان والقحط والزلزال والمجاعة كلها آيات السماء تنذر بها الملوك إذا جاروا على الرعية، أو قصروا في حقوقهم، وعبادة السماء خاصة للملوك، ولا تتعدى غيرهم.

كما يعتقد قدماء الصينيين أن للكائنات السماوية والأرضية آلهةً أو ملائكةً أو أرواحاً تدبرها وتصرفها كيفما تشاء؛ فالشمس والقمر والسحاب والمطر والجبال والأنهار، وما شاكلها من الكائنات، يكون لكل واحد منها إلهٌ أو ملك أو روح يعبده الناس، ولكن عبادة آلهة الأرض والجبال والأنهار مخصوصة للأمراء وحدهم.

وكذلك يعتقدون أن في المنزل آلهة للغرف وأرواحاً للأموات، ويزعمون أن روح الإنسان تبقى في الدنيا بعد موته، وتشتاق للعودة إلى أسرته والعيش مع أفرادها في الغيب، فهم يعبدونها ويقدسونها، ويقدمون إليها القرابين ـ وهي أنواع الأكل والشرب المشتهيين على مائدة منسقة ـ وهذه العبادة يشترك فيها الشعب والملك والأمراء، لا فرق بينهم إلا بالكثرة والقلة.

والصينيون القدماء لا يعتقدون بوجود الجنة والنار، وإنما يعتقدون بالجزاء في الدنيا؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقد يتعدى جزاء شخص على أبنائه أو أحفاده، والكل يرجع إلى السعادة والشقاوة في الحياة الدنيا(٢).

---

(١) عقيدة الألوهية في الديانة الداوية – أيوب نور الحق – ص ٦-٨ بتصرف.

(٢) نظرية كونفوشيوس الدينية– أ. أبو بكر غانجين الصيني– م. الرسالة ص ١٠٣١ بتصرف.

الشرائع الصينية القديمة قبل كونفوشيوس

لابد لنا في البداية أن نعرف ماهيَّة تلك الشريعة والثقافة القديمة التي أحياها كونفشيوس، وجدَّد روحها، وجمع أسفارها وحرَّرها. وذلك يتطلب منا أن نمر مروراً سريعاً بتلك المرحلة التاريخية الصينية، التي وضعت فيها هذه الشريعة قبل عصر كونفوشيوس، والتي جاء بعدها كونفوشيوس ليحييها بعد انحطاطها في عصره، فأقول: إن المرحلة الأولى من التقسيم المفصل للمراحل التاريخية التي مرت بها الكونفوشيوسية، هي: ما تسمى عندهم بمرحلة السلسلة الأصيلة للطريقة، وتشمل هذه المرحلة - ما يسمونه - عصر الأنبياء[1] الملوك الخمسة، والعهود الملكية الثلاثة من التاريخ الصيني القديم: عهد "أسرة شيا" الذي بدأ من القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد، وانتهى عند القرن السادس عشر قبل الميلاد، وعهد "أسرة شانغ" الذي بدأ من القرن السادس عشر قبل الميلاد، وانتهى عند القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وعهد "أسرة تشو" الذي بدأ من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وانتهى عند القرن الثالث قبل الميلاد. وقد كان - بلا شك - لكل عهد من هذه العهود الملكية الثلاثة شعائرها وطقوسها وأحكامها، ونظمها الدينية والاجتماعية والسياسية، وكانت تسمى "لي" في اللغة الصينية، ومعناها الشريعة أو الآداب. وقد أجاب كونفشيوس - عندما سأله تلميذه عن إمكانية معرفة شرائع العهود العشرة المقبلة - قائلاً: "لقد اتبع عهد (شانغ) شريعة عهد (شيا)، وعرفنا ما طرأ عليها من الزيادة والنقصان؛ وقد اتبع عهد (تشو) شريعة عهد (شانغ)، وعرفنا ما طرأ عليها من الزيادة والنقصان؛ والذي سيأتي بعد عهد (تشو) يمكننا أن نعرفها، ولو كانت بعد مائة عهد"[2]. وقد قال أيضاً: لقد اتبع عهد (تشو) شرائع العهدين السابقين مع النقصان والزيادة، فما أزهر ثقافته، وأنا تابع لشريعة (تشو)[3].

---

(١) وإن كنا لا نفضل إطلاق هذا الاسم، إلا أننا نتكلم عنهم، فنستخدم اصطلاحاتهم وتعبيراتهم.

(٢) كتاب الحوار – الفصل الثاني – الحوار رقم ٢٣.

(٣) كتاب الحوارات – الفصل الثالث – الحوار رقم ١٤.

لقد أثبت كونفوشيوس بهذين الحوارين أنه كانت هناك شريعة يتبعها كل عهد من هذه العهود الثلاثة، وأن أصل شريعة كل عهد واحد لم يتغير، ولكن كانت هناك زيادة ونقصان على الشريعة في كل عهد، وأن شريعة عهد (تشو) هي أزهر الشرائع، وأنه يعدُّ نفسه تابعاً لشريعة (تشو). وقد أخبرنا التاريخ أن (تشو قونغ)[1] كان واضعاً ومنظماً لشريعة (تشو) التي كان يعظمها كونفوشيوس كل تعظيم، ويعمل بها بكل إخلاص ويدعو إلى التمسك بها. فما هي الملامح العامة لهذه الشريعة؟ كانت تشتمل هذه الشريعة في عهد أسرة (تشو) على خمسة أقسام من الأحكام والآداب والنظم، وفق ما سُجل في سِفْر الشريعة:

القسم الأول: يسمى: قسم التبركات، وهي الشعائر والطقوس والعبادات الدينية في تقديم القرابين للإله السماوي والملائكة وأرواح السلف.

والقسم الثاني: يسمى: قسم المصيبات، وهي المراسم المتعلقة بتشييع الجنازة والرثاء عند نزول المصائب؛ مثل القحط والحرب والفساد.

والقسم الثالث: يسمى: قسم الجنديات، وهي المراسم والآداب المتعلقة بالجيش والحرب، مثل عرض القوات المسلحة، وطلب المعونة من "تيان" للنصر، ومعاملة الأسرى، والصيد.

---

(١) (تشو قونغ): كان يعيش في بداية عهد (تشو)، يعد من الأنبياء الملوك القدامى كما تزعم الكونفوشيوسية. وقد كان أخاً شقيقاً للعاهل الثاني من أسرة (تشو) الملكية (تشو وو وانغ)، وقد مات هذا العاهل وابنه ما زال صغيراً لا يصلح للحكم على البلد، فتسلم (تشو قونغ) السلطة من ابن أخيه، وحكم البلد بالنيابة عنه حتى أصبح كبيراً فرد إليه السلطة. ويحكى أنه كان واضعاً لشريعة (تشو) وناظماً للموسيقى. وقد سُجلت أقواله وأعماله في سفر التاريخ وسفر الشريعة. (ملخصاً من المعجم المحيط الصيني، ص٢٠٠). وقد كان كونفوشيوس يعظمه تعظيماً شديداً، ويرى أنه وارث له، حتى قال يوماً: "اشتدت المصيبة! ولقد عجزت! لقد مضى من الزمن طويلاً لم أكن أرى (تشو قونغ) في منامي" (كتاب الحوار–الفصل السابع–الحوار رقم ٥).

والقسم الرابع: يسمى: قسم الضيافات، وهي المراسم والآداب المتعلقة باللقاء الرسمي بين الأمراء والوزراء للميثاق، وتعيين الموظفين في مناصبهم.

والقسم الخامس: يسمى: قسم المرغوبات، وهي المراسم والآداب اليومية المتعلقة بكل فرد عند الفرح والسعادة؛ مثل الزواج ولبس الطاقية عند بلوغ الرجل، والجلوس على المائدة، وتبادل التهاني.

قال الأستاذ ما جشونغ بعدما شرح الملامح العامة لشريعة (تشو) معلقاً عليها: "نعرف من هنا أن ما يسمى بالشريعة في الزمن القديم هو: قواعد الحياة الاجتماعية العامة المتمركزة حول المراسم والطقوس المتعلقة بتقديم القرابين، وهذه الشريعة تشتمل في مفهومها الواسع كل ما يتعلق بالإنسان من أصول تنظيم الدولة حتى قوانين السلوك، والمعاملة اليومية، والمبادئ الأخلاقية، وروح الأخلاق الفاضلة تتخللها بداية ونهاية"(١).

بعدما شرحنا الملامح العامة لشريعة (تشو)، لا بد أن نشير إلى نقطة مهمة؛ وهي: منبع هذه الشريعة: إنها من وضع الأنبياء الملوك القدامى، وبالأخص (تشو قونغ)، هذا على الرغم من وجود بعض النصوص في سِفْر القصائد التي تدل على أن الحاكم السماوي الأعلى (شانغ دي) هو اسم آخر للإله السماوي كان يكلم الأنبياء الملوك القدامى مثل (تشو وون وانغ). "قال "دي" (أي شانغ دي) للملك (وون وانغ): عليك أن تحضن الأخلاق المشرقة، ولا تتكلم بصوت كبير لتظهر هيبتك"(٢). على هذا، فإن الشريعة (تشو) ليست شريعة منزَّلة من عند الله تعالى، بل هي ـ كما تقول الكونفوشيوسية ـ من وضع الأنبياء الملوك(٣).

وقد مر على التاريخ الصيني المسجل أكثر من عشرين قرناً من الزمن إلى العصر

---

(١) الخطوط الفكرية العريضة لحكماء الصين – أ. (ما جشونغ) ٤٦٥.

(٢) سفر القصائد، القسم الثاني (دايا) الفصل (هوانغ أي).

(٣) كتاب المعرفة الكبرى – د. زهرة الدين طيب – ص ١٧ بتصرف.

الذي ولد فيه كونفوشيوس، كما يزعم علماء تاريخ الصين، والوثائق التاريخية القديمة تؤكد أن العصور الأولى من التاريخ الصيني كانت تزدهر بالأنبياء الملوك، وفضائل الأخلاق، وسياسة الرحمة، وهي تبالغ في ذكرها للملوك الأنبياء الخمسة بالمدح والتعظيم والتمجيد مبالغة شديدة، كما تخص بالذكر منهم النبي الملك (ياو) لكونه مثلاً أعلى للأخلاق المشرقة، الذي أقام السلسلة الأصلية للطريقة الكونفوشيوسية، وقد استمر الأمر في تعظيمه حتى جاء كونفوشيوس بعد ألف وخمسمائة سنة تقريباً، وقال عنه في إحدى حواراته المشهورة: "ما أعظم حكم (ياو) كملك حاكم! وما أجَلَّه! إنما العظمة للإله السماوي وحده، ولا يماثله في عظمته إلا (ياو). وما أوسع (أخلاقه) حتى لم يكن للقوم قدرة على وصفه. وما أجل الأعمال التي أكملها، وما أزهر الشرائع والموسيقى والنُّظُم التي وضعها!"(١).

وبانقراض عصر الملوك الأنبياء الخمسة جاءت العهود الملكية الأسرية الثلاثة، وهي عهد أسرة (شيا)، وعهد أسرة (شانغ)، وعهد أسرة (تشو). وتمتد هذه العهود الثلاثة أقل من عشرين قرناً من الزمن تقريباً، وهي تبدأ من القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، وتنتهي في (سنة ٢٥٦ ق. م)، عندما قضى الإمبراطور (تشين شي هوانغ) على الإمارة الأخيرة بعد حروب متتالية، ووحدت الصين في السنة نفسها تحت حكومة مركزية قوية(٢).

---

(١) كتاب الحوار، الفصل الثامن، الحوار رقم ١٩.

(٢) كتاب المعرفة الكبرى – د. زهرة الدين طيب – ص ٥٠–٥١ بتصرف.

الفصل الثاني
الحالة الاجتماعية

١- المجتمع البدائي العشائري

تشير بعض مصادر التاريخ الصيني إلى أنه قد عاش قبل (٧٠٠٠ عام) جمع من القبائل المتناثرة في الصين، وسادت بينهم ثقافة "يانغشاو"،ثم ثقافة "لونغشان" قبل (٥٠٠٠ عام)، وهي ثقافة تتناسب مع الأسلوب العشائري السائد في تلك المرحلة، وكان أهم العشائر السائدة في تلك الحقبة عشيرة "بانبوه"، وهي تلك التي كانت تعتمد على المرأة في العمل واتخاذ القرار، كما ينسب إليها الأبناء، وقد استخدمت هذه العشيرة الفأس لقطع الأشجار، والسهام في الصيد، والمخرز في الحياكة، كما عرف أبناؤها الزراعة، واستخدموا البذور، وقاموا بتنظيف التربة من الحشائش، وتربية الحيوانات مثل الأغنام والأبقار والدجاج، إضافة إلى الكلاب والخنازير، وقاموا بصناعة الفخار وحاولوا الكتابة عليها.

وانتقل الإنسان من حياة الكهوف إلى حياة البيوت، المبنية من أكواخ ليس لها نوافذ، ويعدُّ ذلك حدثاً كبيراً في النمط المعيشي للإنسان. وبعد أن أخذت الزراعة في الانتشار انتقلت القيادة العشائرية والأسرية في الصين إلى الرجل، والتي امتدت إلى يومنا هذا، كما أنها أدت إلى حق التملك الفردي بعد أن كان المأكل البري، والمشرب النهري، والمسكن في الكهوف مشاعاً للجميع، وهذا الأمر أدى إلى حب الاقتناء، ومن ثم التنازع، مستخدمين ما هو متاح من وسائل القوة في ذلك العصر، وهكذا كثُر الغزو، والسلب، والنهب، طبقاً للقدرات الفردية، واستمرت الحال كذلك (٢٠٠٠ سنة).

وتطورت الأمور بعد ذلك في الصين، وتكاثرت القبائل حول النهر الأصفر، وظهرت قبيلة قوية قادها رجل شجاع، يعتقد أنه أبو الأمة الصينية، نُسجت حوله الكثير من الأساطير والخرافات، يقال له "هوانغ دي"، ويوصف بأنه كان ذكياً، يجيد الحساب والفلك، حيث وضع أول تقويم، كما قام ببناء السفن، وصنع

العربات، إضافة إلى معرفته بالطب. وكلف زوجته بتعليم الناس صناعة الحرير، محاكية بذلك دودة القز، فكان له ما أراد. واستمرت مراحل التطور المختلفة خلال السنين المتعاقبة، وابتكر الإنسان الصيني الأواني الفخارية، والأدوات الحجرية، كما تعلم قنص الحيوانات، وصيد السمك، وعرف الزراعة، وتربية المواشي، لكنه لم يصل إلى تكوين دولة أو نظام ذي خصائص محددة(١).

٢- التطور الاجتماعي:

إن دراسة التطور الاجتماعي للصين القديمة فيه بعض الصعوبة، إذ إن كثيراً من نصوص الكتابات التي وصلت إلى أيدي المؤرخين ضاع نهائياً، أو تعرض لكثير من التحوير والتحريف، بل التفسير، أو غير ذلك، انسجاماً مع مصالح الشرائح الحاكمة(٢). بدأت أولى بوادر الاستقرار ومعرفة الزراعة في الهضاب الغربية من الأودية النهرية في شمال غرب الصين، وذلك بعد نزوح الكثير من الجماعات والشعوب من جهات منغوليا، إثر بدء مرحلة الجفاف فيها، وهو ما دفع مناطق شمالي الصين لأن تكون الأسبقَ في مجال التطور الحضاري.

ويظهر، من خلال دراسة التطور الاجتماعي والاقتصادي الصيني، أنه منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، كانت الجماعات في الشمال تنزع دائماً، تحت ضغط الأقوام البدائية، إلى النزوح نحو مناطق الجنوب ذات التربة الخصبة. وظل هذا الزحف نحو الجنوب مستمراً، إلى أن كان الانتشار الكامل في مناطق الصين في أواخر الألف الأول ميلادي. ويظهر من متابعة التاريخ الصيني أن المجتمعات الزراعية الكبيرة ذات المناطق الواسعة والمأهولة بأعداد كبيرة من السكان، هي التي

(١) حضارة الصين – د. محمد البشر – ص٢٠٦ بتصرف؛ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية – ميرسيا إلياد – ت: عبد الهادي عباس – ج٢ – ص٧-٨؛ الشرق الأقصى " الصين واليابان" – د. فوزي درويش – ص ١٣-١٤.

(٢) الحضارات القديمة – إشراف: ف. دياكوف، س. كوفالين – ت: نسيم واكيم اليازجي– ج١– ص٢٢٥ بتصرف.

تسيطر على المناطق الأخرى. كما يظهر أن مختلف المجتمعات عرفت نوعاً متماسكاً من سيادة العادات والتقاليد التي تتميز بها عموماً المجتمعات الزراعية المستقرة المتقوقعة على ذاتها، والمؤسسة على المفاهيم القائمة على تماسك الأواصر العائلية والعشائرية، وسيطرة أساليب الزراعة التقليدية البدائية البسيطة(١).

ويبدو جلياً أن كل النمو الحضاري الصيني قد تأثر بسيطرة العناصر الفعالة عادة في نمو المجتمعات الزراعية المنغلقة على الذات، كما تأثر أيضاً بالضغط الدائم للأقوام البدوية البدائية، القاطنة في شمالي الصين وغربه، والتي استطاعت في أكثر الأحيان أن تتغلغل في المناطق الصينية وتسيطر على الحكم، بحيث كان يوجد سلطات تستند دائماً إلى المفاهيم العشائرية والقبلية. وبالتالي ظهرت المجتمعات الصينية المختلفة على أنها مجتمعات قائمة على أساس الاقتصاد الزراعي التقليدي المتوارث والذي أثَّر بشدة، مع مجمل الظروف الاجتماعية والسياسية، في تكوين المفاهيم الأسرية التي قامت عليها المجتمعات الصينية.

ضغط الأقوام البدائية:

كانت الجماعات الزراعية المستقرة في مناطق الشمال والغرب، على مدى تاريخ الصين القديم والمتوسط، تخشى دوماً من غزوات وهجرات الأقوام البدائية الهمجية القادمة من مناطق منغوليا في الشمال، ومن مناطق السهول في الغرب، وهي أقوام لم تعرف الزراعة والاستقرار؛ بل كانت ترى في أماكن الاستقرار الزراعي مراكزَ جذب شديدة الإغراء، وخاصة مراحل الجدب والجفاف. لذلك كانت الجماعات الزراعية تتجه دوماً نحو التوسع في الزراعة على ضفاف الأنهار الصغرى؛ ثم كانت في مراحل لاحقة ـ نتيجة زيادة عدد الأفراد في المستقرات الزراعية، وتلافياً لغزوات الأقوام الهمجية ـ تتجه نحو الاستقرار على ضفاف الأنهار الرسوبية الكبرى، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً(٢).

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة ـ د. عمر عبد الحي ـ ص٣٠ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣. وانظر: الشرق الأقصى – الصين واليابان– د. فوزي درويش – ص ١٤.

والجدير بالذكر أن الخشية من هجمات الأقوام البدائية هي التي كانت وراء بناء الصين لسورها العظيم في القرن الثالث قبل الميلاد، وذلك من أجل صد غارات وغزوات الشعوب البدوية القادمة من الغرب ومن السهول الآسيوية.

التقسيم الطبقي:

أما عن التنظيم الداخلي للمجتمع الصيني، فمن الواضح أن هذا المجتمع كان مجتمعاً طبقياً، وأنه كان يوجد فرق كبير بين النبلاء (الطبقة الأرستقراطية) والعامة. وكان حكم النبلاء هو طابع الحكم الغالب في الصين القديمة. وكانوا يحصلون على إقطاعياتهم من الإمبراطور أو (الملك) مباشرة، لا من النبلاء الآخرين الأسمى منهم. لقد كان النبلاء في حقيقة الأمر أصحاب السيطرة السياسية كما كانوا يحتكرون التعليم، بحكم ما كان في حوزتهم من ثروة مادية.

ويلي النبلاء جماعة من موظفي البلاط والإداريين الذين يعتمدون اعتماداً مباشراً على الملك؛ لأنهم كانوا يحصلون على دخلهم من المرتبات، أو من الضياع التي كان يمنحها لهم. ويلي أولئك الموظفين بورجوازية قليلة العدد من التجار والصُّنَّاع المهرة، وأخيراً يأتي الفلاحون.

وكان هناك فاصل واضح المعالم بين النبلاء والعامة. فكان النبلاء وحدهم هم الذين يلتحقون بالمدارس العليا، ويتلقَّون تعليماً كاملاً في الفنون العقلية الستة الراقية؛ وهي: الشعائر الدينية، والموسيقى، والرماية، وقيادة العربات، والرياضيات، والكتابة. أما العامة، فقد التحقوا بالمدارس العامة لتلقي التعليم الضروري اللازم لحياتهم اليومية. وقد تميز النبلاء عن العامة بميزة الحصانة من قانون العقوبات، وفي ذلك يقول أحد أمثالهم التي تعود لذلك العهد: "إن الشعائر الدينية لا تنزل إلى مستوى الشعب، كما أن قانون العقوبات لا يرتفع إلى مستوى النبلاء". فالنبيل لا يمكن أن يُقتل إذا اقترف أي جريمة، ولكن إذا ثبتت إدانته في جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل. أما عامة الشعب،

فكانوا معرضين لأن يطبَّق عليهم قانونُ عقوبات صارم، سواء في أشخاصهم أو ممتلكاتهم.

وفي مقابل ما يقدمه عامة الشعب لسادتهم من أعمال السُّخرة ودفع الضرائب أوقات السلام، وحمل السلاح وقت الحروب، والتضحية بالحياة في سبيل مصالح سادتهم، كان النبلاء يتعهدون بالدفاع عن رعاياهم، وتقديم القرابين نيابة عنهم إلى أرواح الأسلاف والأجداد. لقد كان في هذه الشرائع محاباة للنبلاء؛ إذ أعفتهم من كثير من الواجبات المفروضة على العامة(١).

مجتمع السادة والعبيد:

بدأ مجتمع العبودية في بلاد الصين بأسرة (شيا). والطبقتان الأساسيتان في هذا المجتمع هما ملاك العبيد والعبيد، وإلى جانبهما طبقة العامة المنحدرة من أعضاء المشترك العشائري، وهي تزاول الإنتاج الزراعي والحرف اليدوية. ومن المعروف أن التناقض بين ملاك العبيد والعبيد هو التناقض الرئيس في هذا المجتمع العبودي.

كان القائد الأعلى لملاك العبيد الأرستقراطيين ملك (شيا). ومن أجل حماية مصالح هذه الطبقة وقمع معارضة العبيد والعامة ظهرت الدولة، ونظم ملك (شيا) مع الأرستقراطيين أجهزتها القمعية، ومن ذلك: الجيش، والسجون، وشرَّعوا القوانين الجنائية، وبنو الأسوار حول المدن. وقد أمسك ملك (شيا) بسلطة الدولة العليا، وفرض مع الأرستقراطيين الديكتاتورية على العبيد والعامة.

ولم يتوقف الصراع الطبقي قط خلال أربعمائة سنة استغرقها حكم (شيا)، فكان العبيد يهربون أو يتمردون كلما سنحت لهم الفرصة. وكان آخر ملوك هذه الأسرة (شيا جيه) الذي اعتلى العرش في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ٣٣، ٣٤.

وانظر: حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١– ص ٢٣.

أسرف هذا الملك في اضطهاد الشعب ونهبه، وعاش مع الأرستقراطيين البذخ والترف مما سبب تدهور الإنتاج وضعف الدولة. وقد جابه العبيدُ اضطهاد هذا الملك بالتسيب في العمل الزراعي. وكانت عشيرة (شانغ) في المجرى الأسفل للنهر الأصفر تتحين الفرص بهذه الدولة، فانقضَّت عليها بقيادة (شانغ تانغ) الذي قاد تجمُّعاً من العشائر للهجوم على (شيا جيه)، وانتصر عليه، وانتهى بذلك حكم أسرة (شيا)[1].

وفي أسرة (شانغ) حقق العبيد الثروات الوافرة بأعمالهم الشاقة، فدفعوا التطور الاقتصادي والثقافي في مجتمع العبودية. وكانت الزراعة هي القطاع الإنتاجي الرئيس، وكان العبيد يعملون جماعاتٍ في أشق الأعمال، مستخدمين أبسط الأدوات، فيحفرون الخنادق والقنوات، ويسقون الحقول، ويصرِّفون مياه الفيضانات، وغير ذلك من الأعمال المرهقة. وتذهب ثمار كدِّهم إلى بيوت سادتهم، الذين يبتزون كل ما تنتجه هذه الأدوات البشرية المسلوبة الإرادة.

وفي هذا المجتمع لم يستول ملاك العبيد على وسائل الإنتاج فحسب، بل استحوذوا على العبيد، الذين كانوا بمثابة (أداة ناطقة) وكانوا يسِمُونهم بالنار في جباههم لمنعهم من الإباق، ويربطونهم من أعناقهم عند العمل.

وكان يحق للسيد قتل عبده كما يقتل حيوانه، أو يقدمه قرباناً للموتى بدلاً من الماشية. وقد جاء في سجلات (لغة العظام الكهنوتية) أن أحد السادة قتل ٢٦٥٦ عبداً في إحدى المناسبات الطقوسية. ويدفن العبيد مع سيدهم بعد أن يقتلوا لهذا الغرض. وقد كشف في قبر أحد ملوك (شانغ) عن أربعمائة عبد قُدموا قرباناً له. وكان العبيد يجابهون هذا الاضطهاد البشع بالإهمال المقصود في العمل، وتخريب أدوات الإنتاج، والهرب، كما قاموا بالعديد من الانتفاضات، التي ضعضعت حكم هذه الأسرة، وحرمته طعم الاستقرار[2]. وفي أسرة (تشو) الغربية تقدمت الحرف

(١) تاريخ الصين – ج١ – مجلة بناء الصين – سلسلة سور الصين العظيم– ص ١٠ –١١ بتصرف.

(٢) المرجع السابق – ص ١٣ بتصرف.

اليدوية عما كانت عليه في أسرة (شانغ)، وصارت أكثر تعقيداً. وكانت المشاغل تقوم على أكتاف العبيد الذين وقع عليهم عبء الإنتاج في الريف والمدينة.

ونجد في كتاب (الأغاني)، وهو من أقدم دواوين الشعر الصيني، وصفاً مفصلاً لأحوال العبيد في تلك الدولة؛ ومن ذلك قصيدة بعنوان (في سبعة شهور) تحدثت عن عبيد منطقة جبل تشيشان بمقاطعة شنشي، وقد ورد في القصيدة: إنهم يخرجون للصيد في الشتاء وسط الرياح الثلجية، فإذا صادوا الثعلب قدموا جلده إلى الأرستقراطيين، وإذا صادوا الخنازير أعطوهم أكبرها، ويجمعون الثلج ويدحرونه كي يتمتع به الأرستقراطيون في الصيف. وفي الربيع يُصلح الرجال الأدوات الزراعية، ويحرثون الحقول تحت إشراف الوكلاء. أما النساء، فينهمكن في جمع أوراق التوت وتربية دودة القز للسادة، علاوة على طبخ الأطعمة وإرسالها مع أولادهن إلى الذين يعملون في الحقول.

وفي الخريف يمهد الرجال مكان البيادر، ثم يحصدون المحاصيل، وفي آخر المطاف يأتي الأرستقراطيون فيأخذون الحبوب. أما العبيد، فيدخرون النباتات البرية ليقتاتوا بها في الشتاء. وعندما تنتهي الأشغال الزراعية يأخذون في بناء القصور وترميمها لأسيادهم.

تكشف هذه القصيدة عن سوء حال العبيد في أسرة (تشو). والواقع أن هؤلاء المنتجين لم يكن لهم ما يستر أجسادهم لقاء الثروات الهائلة التي كانوا ينتجونها. وكانت منزلتهم الاجتماعية أدنى من المواشي، فكان كل خمسة عبيد يقايَضون بحصان ورزمة من الحرير[١].

---

(١) المرجع السابق – ص ١٥-١٦ بتصرف.

وانظر: حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ٢٣-٢٤.

وكونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ٣١ بتصرف.

انحلال المجتمع العبودي:

في نهاية سلسلة طويلة من الأحداث والأحداث المضادة، استمرت طوال عصر الربيع والخريف، جاء هذا التحول وقد انهمك الأمراء في حروبهم الابتزازية، وتفاقم شغفهم بالقصور ووسائل البذخ، ولجؤوا في سبيل ذلك إلى مضاعفة استغلال العبيد، واستغلال المزيد من جهودهم. ففي إمارة (ليانغ) مثلاً أرغم العبيد على تشييد مجموعات من القصور والمباني على مدى سنوات متتالية، حتى أخذ الإعياء منهم كلَّ مأخذ وكلَّت قُواهم، ثم أُجبروا (سنة ٦٤١ق.م) على حفر الخنادق حول القصور لحمايتها من غزو مزعوم. فلم يكن أمام العبيد إلا التمرد والهرب، مسببين بذلك خللاً في وضع الإمارة تحيَّنته إمارة (تشين)، فانقضت عليها وابتلعتها.

وفي إمارة (تشنغ) أخذ العبيد يهربون تباعاً. ثم تجمعوا (عام ٥٢٢ ق.م) في مستنقعات (هوان فو) التي سيطروا عليها، وأخذوا باستصلاحها لأنفسهم، ونظموا في أثناء ذلك قوة مسلحة لمقاومة المُلاك السابقين. لكن الأمراء لم يمهلوهم، فقد جهزوا لهم حملة عسكرية أطاحت بهم. وفي أواخر هذا العصر تصاعدت مقاومة العبيد في شتى الإمارات، وأخذوا في تنظيم حملات مسلحة ضد قصور الأمراء وقلاعهم مستخدمين في سبيل ذلك مختلف الوسائل؛ كالتسميم والإغراق والإحراق، حتى تزعزع حكم طبقة ملاك العبيد، وأصبحت حقولهم قاعاً صفصفاً لا تنبت غير الأعشاب البرية.

وكان من نتائج ذلك زوالُ نظام المربعات التسعة التي كان زراعها من العبيد المسخَّرين، وحلت محلها الإقطاعيات التي يعمل فيها الفلاحون. ومن هنا تفكك مجتمع العبودية وآذن بالزوال ليحل محله مجتمع جديد يقوم على الإقطاع(١).

---

(١) تاريخ الصين – ج١ – مجلة بناء الصين – سلسلة سور الصين العظيم – ص١٨–١٩ بتصرف.
وانظر: التجربة الصينية – د. عبد العزيز حمدي – ص١٩–٢٠.

٣- نظام الأسرة:

قام المجتمع الصيني لعدة قرون قبل كونفوشيوس على أساس الأسرة، بل إنها كانت محل قداسة واحترام شديدين؛ ففي الفترات الأولى لأسرة "تشو" كان يتم توزيع الإقطاعيات على الزعماء الإقطاعيين وفقاً لنظام المستعمرات المحدد. ويبدو أن هؤلاء الزعماء قد ارتبطوا مع بعضهم البعض ومع البيت الملكي بروابط الزواج، فأخذوا أسرهم وأتباعهم وجنودهم ليشكلوا مستعمراتٍ مكتفيةً بذاتها، ومؤسسةً على الاقتصاد الزراعي. وقد استمرت هذه المجموعات الكبيرة من الأسر النبيلة مستقرةً طالما أن لعلاقات الآباء والأبناء والأخوة، وعلاقة السيد بأتباعه، فعاليتها وسيطرتها. وبذلك أصبحت فضيلة طاعة الأبناء والأخوة شيئاً لابد منه لاستمرارية الوجود الأسري من حيث هو نواة المجتمع(١).

والاهتمام البالغ بالأسرة من الأفكار التي لها أهميتها في الفكر الصيني، نقرأ في كتاب الشعر:

من بين جميع الرجال في العالم
لا يوجد ما يعادل الأخوة
إن الإخوة يتعاركون بين الجدران
لكنهم يقفون متَّحدين ضد إهانة تصدر من الخارج
في حين أن أفضل الأصدقاء
مهما يكن من كثرتهم، لن يقاتلوا من أجلك.

وقد نظر الصينيون إلى الأسرة بوصفها صورة مصغرة للدولة، الأب فيها هو الحاكم، وسلطته مطلقة، وقد كانت تشكل كذلك وحدة اقتصادية، كل فرد يعمل على إسعاد الجميع، وله مهمته الخاصة التي يجب أن يحققها. وإذا كان مبدأ تعدد الزوجات غير شائع من الناحية النظرية، إلا أننا نلحظ أن المرأة من النبلاء

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د.هالة أبو الفتوح – ص ٣٣.

عندما كانت تذهب إلى بيت زوجها، كانت تصحبها أخت أصغر منها، وبعض الخادمات، ويصبحن كلهن وفي نهاية الأمر وبصورة آلية محظيات للزوج. وقد تبوأت المرأة في ذلك الوقت مركزاً عالياً، وكان من حقها تعلم القراءة والكتابة، حتى إن الأزواج كثيراً ما كانوا يستشيرون زوجاتهم حتى في شؤون الدولة(١).

الرابط الأبوي:

تقوم الأسرة في الصين، منذ القدم، على الروابط الأبوية، بمعنى أنها تخضع لسلطة الأب وعدالته، وترتكز على مبدأ البِر الأبوي؛ أي بِر الأبناء بالآباء، ويعدُّ هذا المبدأ من أهم خصائص التقاليد الأسرية الأخلاقية في الصين. وكان لرب الأسرة في الصين حق الحياة والموت على جميع أفرادها دون استثناء، ودون أي تذمر أو اعتراض، وكان رؤساء الأسرة في الصين تفيض قلوبهم رحمة، وينبع الحنان من بين جوانبهم، ولا يسلكون مع جميع أفراد أسرهم إلا سبل العدالة والاستقامة، ولا يتخذون في معاملاتهم إياهم رائداً غير الفضيلة، وإن كانوا لا يتوانون لحظة واحدة في اتخاذ أقسى أنواع الحزم إذا تطلبت الحالة الأخلاقية أو الاجتماعية ذلك(٢).

كما تقوم الأسرة الصينية على أساس محبة الأم، التي يتوجب عليها الخضوع التام لسلطة زوجها، وعلى محبة الصغار للأخوة الكبار وطاعتهم، وبخاصة الأخ الأكبر. ويدخل ضمن عادات الأسرة الصينية وتقاليدها الرغبة الدائمة في زيادة عدد الأبناء، بالإضافة إلى حق الرجل الدائم في تعدد الزوجات، وإن كان غير شائع كما ذكرت آنفاً، وحقه في الحصول على المحظيَّات، وحقه المطلق في الطلاق. ومع زيادة مفاهيم الأسرة الأبوية الصينية حيث يسيطر الأب، ويتميز الذكور بحقوق خاصة بهم، ظهر الكره الشديد للبنات، حيث سادت في الماضي، ولفترة طويلة من الزمن، عادة وأد البنات وهن أحياء.

---

(١) شجرة الحضارة – رالف لنتون– ٣/ ٣٢٥.

انظر: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني– د. صلاح بسيوني – ص ٣٢–٣٣.

(٢) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٢٢٨ بتصرف.

إن المفاهيم الأسرية في الصين ظهرت بوصفها نقطة ارتكاز أساسية في تحديد معنى القيم الخلقية والسلوك الفردي السليم، حتى باتت المفاهيم الأخلاقية المرتكزة على المفاهيم الأسرية، وهي أساس الثقافة الصينية، إما من حيث النشاط العام والخاص، أو من حيث تشكيل البنية الثقافية عامة. وهكذا نشأت القناعة بتمجيد الأسلاف بل تقديسهم، وسادت عادات احترام الكبار، وتبجيل العشيرة، وتقدير الرجال، والتهوين من شأن النساء، وسيطرت تقاليد الخضوع الكامل لرب الأسرة والأخوة الكبار، وعمت مشاعر البر بالوالدين.

وانتقلت هذه المفاهيم الأخلاقية المتعلقة بالأسرة لتتجسد في الدولة، بشكل رأى فيه الصينيون الأسرة النموذج الأصلي للدولة التي باتت تمثل، في نظرهم، صورة مجسمة للأسرة. لذلك فقد وجدوا بأن التنظيم في الدولة يماثل ما يجري لهذه الناحية داخل الأسرة والعشيرة، بحيث تكون سلطة الحاكم مطلقة تماماً كسلطة رب العائلة؛ ويكون واجب عامة الناس في الدولة أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً للحاكم، تماماً كما يخضع الأبناء للآباء في الأسرة. وعلى هذا النحو أخذ الصينيون المفاهيم الأخلاقية السائدة في الأسرة، وعملوا بها في تنظيم مسائل السلطة والحكم في الدولة(١).

الالتزام الأسري:

ومما يتميز به الفكر الاجتماعي الصيني القديم: (الالتزام الأسري)؛ فهو يتحدد بقوانين أخلاقية لا يمكن لأحد أن يتجاوزها. ومن هذه القوانين: أنه ليس للابن أن يبدأ بالكلام في وجود أبيه، وإذا دخل أبوه الغرفة ينبغي أن يتنحى ويتوارى بطريقة ما، وليس له أن يترك الغرفة دون إذن من الأب. ومنها أيضاً: أنه على الابن إذا مات الأب أن يعلن الحداد لمدة ثلاث سنوات، وأن يمتنع عن أكل اللحم وشرب الخمر، وتتعطل أعماله كلها حتى ولو كان وزيراً، أو حتى لو كان إمبراطوراً، كما لا يجوز أن

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي– ص ٣٥–٣٦ بتصرف.

يُعقد قران في الأسرة طوال مدة الحداد، باستثناء بعض الشيوخ. ومنها أيضاً: أنه يجب على الابن أن يقوم بزيارة أبيه المتوفى سيراً على قدميه تعبيراً عن احترامه له.

والعجيب أن الإمبراطور نفسه لا يمكن أن يتلقى الطاعة والولاء من نبلاء القصر إلا إذا قدمها هو بنفسه للأم، كما تظل الأم هي المستشار الدائم لابنها، وتعلن جميع المراسم الخاصة بالأسرة باسمها(١).

ومن أخلاقهم أيضاً: أنه لا تنسب فضائل الابن إليه، بل تنسب إلى أبيه، فينسب إلى الآباء الأعمال البطولية والشرف الذي قام به الأبناء... ولكن المؤسف حقاً هو: أنه في مقابل ما سبق إذا أخطأ الابن يتحمل الأب خطأ أبنائه، والواجبات تقدم من أسفل إلى أعلى، وليس من أعلى إلى أسفل. وهناك مطلب أساسي كان موجوداً في الصين القديمة؛ وهو: زيارة قبر الوالدين بعد فترة الحداد كل عام، ويقيمون عند القبر أحياناً شهراً وأحياناً شهرين، وقد يحتفظ بجثة الأب المتوفى في المنزل لمدة ثلاثة أشهر، وعلى مثال ما سبق من علاقة الابن بالأب والأم، تكون أيضاً علاقة الأخ الأكبر بالأخوة الصغار، فعلى الأخوة الصغار احترام الأخ الأكبر، وإن كان بدرجة أقل من احترام الوالدين(٢).

بهذا الفكر الأخلاقي ظلت الصين القديمة فترة طويلة يسودها الأمن والأمان، وظلت هذه القوانين هي التي تحكم الصين والصينيين لمدة طويلة موغلة في القدم. وإذا أخل أحد بهذه القوانين، فإنه يعاقب. ومن أمثلة ذلك: أنه إذا اشتكى أخ أصغر من ظلم وقع عليه من أخيه أو من أبيه، كان جزاؤه مائة ضربة بعصا من الخيزران، ويُنفى ثلاث سنوات، هذا إذا كان معه الحق في شكواه. أما إذا لم يكن معه الحق في شكواه فيتم شنقه إذا ما تقدم بشكوى!! أما إذا رفع ابنٌ يده على والده، فإنه يُحكم عليه بأن يمزق لحم جسده بكماشة من حديد محماة في النار!.

(١) محاضرات في فلسفة التاريخ - هيغل - ج٢- ت وتقديم: د. إمام عبد الفتاح إمام - ص٧٠.
وانظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس - عبد الرحيم شعبان - ص ٤١.

(٢) محاضرات في فلسفة التاريخ - ج٢- مرجع سابق - ص ٧١-٧٣.

فبقدر ما كانت هذه القوانين قاسية، كان لها الفضل في تماسك أفراد المجتمع بالفضيلة.

ومن فكرهم الأخلاقي: حثُّهم على التضامن الأسري، فالتعاون والتضامن الأسري في الصين له وجود منذ زمن موغل في القدم، لا يعرف العالم الغربي عنه شيئاً، لقد كانت الأسر في الصين القديمة تشكل صوراً مصغرةً للدول، فيها الأب هو الحاكم، وبالمثل كانت الأسرة تشكل وحدة اقتصادية كل فرد يسهم في إسعاد الجميع، وله مهمته الخاصة التي يجب أن يحققها، حتى المسنين منهم(١).

الأسرة والاقتصاد الزراعي:

شكل الاقتصاد الزراعي الطبيعي، القائم على الإنتاج العائلي والعشائري وعلى الحرف المنزلية، القاعدة الأساس لإنتاج الصين على مدى تاريخ الصين، وبداية حركة التصنيع الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر. وقد ابتدأت هذه القاعدة الإنتاجية مع بداية نمو المستوطنات الزراعية البدائية البسيطة القائمة على الإنتاج الزراعي والمؤمنة للاكتفاء الذاتي الأسري. ثم استمر مع تأسيس الأسرة الحاكمة، منذ أسرة "شانغ" وبعدها أسرة "تشو" وغيرها من الأسر، ولكن الطبقات النبيلة للأسر الحاكمة كانت، في المراحل الأولى، تستولي على فائض الإنتاج؛ ثم راحت في المراحل اللاحقة تسيطر على كامل الإنتاج، وتترك للمزارعين المنتجين ما يكفيهم للبقاء على قيد الحياة.

كما ساعدت الظروف التي مرت بها المناطق الزراعية الصينية على استمرار الإنتاج الزراعي الأسري، وعلى تمتين الأواصر الأسرية، مما جعل من الأسرة العنصر الأساس في وجود المجتمعات الصينية المختلفة؛ فقد شكَّل الغزو الخارجي عاملاً مهماً في تماسك الأسرة الصينية، إضافة إلى العامل المهم الآخر الذي أفرزته أجواء

---

(١) فلاسفة الشرق – أوف توملين – ت: عبد الحميد سليم، مراجعة: عادل أدهم – ص ٢٨٠.

وانظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص ٤٢.

المشاحنات التنافسية ما بين النبلاء. فالمستوطنات الزراعية كانت دوماً معرضة للهجمات من الجماعات الهمجية، مما أوجب على جميع الأفراد التعاون من أجل صد تلك الهجمات؛ لذا تشاركوا في العمل على إقامة أنواع من الأسوار حول مستوطنات سكنهم، تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم. وهكذا، فإن ما قاموا به من أعمال مشتركة، ومن تعاون في سبيل تحقيق غاية واحدة، قربتهم من بعضهم البعض، ووثَّقت الأواصر الأسرية فيما بينهم، كذلك فإن أجواء التنافس والصراعات ما بين الطبقات النبيلة ساهمت أيضاً في تقوية التعاضد الأسري؛ إذ ما إن سيطرت أسرة "تشو"، وأقامت نوعاً من الأرستقراطية العشائرية، حتى دخلت الطبقات النبيلة في صراعات عنيفة فيما بينها، لكنها لم تُدخل الفلاحين في دائرة صراعاتها هذه؛ فانكفأ الفلاحون في مزارعهم منطوين على أنفسهم بعيداً عن صراعات النبلاء. وهكذا فإن هذه الظروف قد ساعدت أفراد الأسرة والعشيرة الواحدة على زيادة التماسك إلى حد التلاحم فيما بينهم[1].

٤- العادات والتقاليد العشائرية:

كونت العادات والتقاليد العشائرية، التي سادت في عهد أسرة "تشو"، الأساس في تكوين المفاهيم الأسرية والعشائرية الصينية عامة؛ إذ قامت سلطة "تشو" على أساس مبدأ سيادة الأسرة والعشيرة الأبوية، الذي يقضي بتوريث السلطة للابن الأكبر من الزوجة الأولى، بينما يتولى باقي أفراد الأسرة من الذكور الألقاب النبيلة والمناصب. بذلك تميزت أسرة "تشو" الحاكمة بتمثيلها السلطة الأبوية، وكانت طبيعة العلاقات القائمة بينها وبين العائلات النبيلة الإقطاعية الأخرى لا تختلف عن تلك القائمة ما بين الأسر الفلاحيّة العادية.

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة- د. عمر عبد الحي- ص ٣٣ -٣٤ بتصرف.
وانظر: المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى تونبي- آلبان ج. ويد جيري- ت: ذوقان قرقوط- ص ١٣-١٤.

أي إن نظام علاقات الأفراد والجماعات ومجمل الحياة الاجتماعية، كان يقوم على مبدأ رابطة الدم الذي، على أساسه، اهتم الصينيون بتسجيل روابط القرابة الأسرية في أشجار نسب عائلية وعشائرية تعود إلى أبعد الجدود من الأجيال الأقدم عهوداً. وهذا الاهتمام بالأنساب لم يقتصر على الأسر الحاكمة فقط، بل تعداه أيضاً إلى أسر الفلاحين العاديين.

بمرور عدة قرون على سيادة المفاهيم الداعية إلى التضامن الأسري الضيق، باتت العادات والتقاليد المبينة لأهمية الوحدة والتماسك داخل الأسرة، المرتكز الأساس في تأمين حياة الأفراد ورفعتهم. وعُدَّ مفهوم قرابة الدم، إن على صعيد العائلة أو العشيرة أو القبيلة، هو الأساس في كل العلاقات الاجتماعية الضيقة والواسعة. وأصبح الصيني ينظر إلى الأسرة نظرة القداسة، بحيث إن وجوده بوصفه فرداً إنما يكون من أجل العمل بعيداً عن المصلحة الخاصة الفردية؛ أي في سبيل الأسرة أو العشيرة بوصفها الممثلة للمصلحة العامة المتضمنة للمصلحة الخاصة. ومن خلال هذا المفهوم الأسري، طغى الشعور الصيني العام القائم على أساس العادات والتقاليد التي ترفع من شأن الأسرة وتشيد بدورها، حتى باتت كل القيم والمعايير والمعاني تؤكد واجبَ التفاني في سبيلها(١).

خصائص العشيرة الصينية:

يرى عالم الاجتماع (سون بين وين) أن خصائص العشيرة الصينية تظهر في:

١- النظام الأبوي، وسلطة الأسرة، والتركيز على رب الأسرة، ووجوب الطاعة العمياء لرب الأسرة من الأبناء، واحترامه.

٢- توارث النظام الأبوي، واحترام الرجال، وعدم المساواة بين الرجل والمرأة.

٣- تطبيق نظام إعلاء شأن الزوجة الأولى، وعدم المساواة بين الأشقاء، وقصر الإرث على الابن الأكبر من الزوجة الأولى.

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة - د. عمر عبد الحي - ص ٣٥.

٤- الاهتمام بالعلاقة التي تربط بين أقارب العشيرة.

٥- بر الوالدين، وحب الأخوة، وعبادة الأجداد.

وأكثر الأدبيات الصينية تؤكد هذه القيم، بوصفها وسيلة الأمان النفسي وترابط الكيان الصيني[١].

٥- التربية والتعليم في الصين القديمة:

اهتم الصينيون القدماء بالتربية والتعليم اهتماماً كبيراً، كما يؤكد بعض المؤرخين، من أمثال ديديرو، بأن الصينيين القدماء كانوا أكثر الشعوب مدنيةً في التاريخ. والدليل على هذا: أنهم عدُّوا العلماء منهم أبطالهم المفضلين[٢]. لقد كان التعليم هو أفضل طريق للوصول إلى الثروة الاقتصادية، والمكانة الاجتماعية، والسلطة السياسية، ومن هنا كانت دعوة ملوك الصين، في العصر السحيق، الناسَ إلى شغل أوقاتهم بالتفكير والدراسة، بوصف التعليم أهم عامل في سبيل نجاحهم في وضع اجتماعي صالح وسليم.

وقد رأى الصينيون أن فائدة التعليم تشمل المتعلمين والمعلمين معاً، إذ يحاول المعلمون، عند قيامهم بتعليم الآخرين، تدارك أوجه النقص في معلوماتهم، وما يشوبها من أخطاء، فيعملون على تدارك هذا بتنمية معلوماتهم والاستزادة من المعرفة الصحيحة والعلم السليم. وفي ذلك يقول المثلان الصينيان القديمان: "إن التدريس نصف التعليم"، و"إن عمليتي التعليم والتعلم تذكي كلٌّ منهما الأخرى". ويتفق النظام التعليمي، سواء في ذلك السابق على كنفوشيوس، أو في عصر كنفوشيوس نفسه، مع أحدث نظم التعليم السائدة في عصرنا الحالي[٣].

---

(١) معتقدات آسيوية - د. كامل سعفان - ص ٢٥٨.

(٢) انظر: أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم - د. هنري توماس - ت: متري أمين - ص ٤٧.
ومحاضرات في تاريخ الفلسفة القديمة - د. محمد جلال شرف - ص ٢٧.

(٣) انظر: كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص٩٨ وما بعدها.
وكونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ٥٧.

الفلسفة بين الشرق والغرب

كشفت الدراسات الحديثة أن للصين فلسفةً عميقة مبتدعة، جديرة بالاحترام، يرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل الميلاد، وأنها استطاعت أن تلون الحياة العملية العامة للأمة جمعاء بلونها، كما استطاعت أن تحافظ على الكيان الخُلُقي لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة، بل إن بعض العلماء يعتقد أن الفضل في هذا التماسك الاجتماعي، والمقاومة السياسية، واحتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسكها بالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها(١).

يقول صامويل هنتنجتون في كتابه (صدام الحضارات): "يقر جميع الباحثين بوجود حضارة صينية واحدة متميزة ترجع ـ على الأقل ـ إلى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، وربما قبل ذلك بألف عام، أو بوجود حضارتين صينيتين تلت إحداهما الأخرى..."(٢). وكثيراً ما ينسب المشتغلون في حقل الفلسفة والأخلاق أصل الفلسفة والفكر الأخلاقي إلى العالم الغربي، معتقدين أن الدول الشرقية القديمة ـ بما فيها الصين ـ ليست من الأمم التي لها نتاج فكري أخلاقي، ولكن الدراسات العصرية الحديثة أثبتت عكس ذلك، وأن الرأي الأول قائم على التحيز، وإن الباحث ليدهش؛ إذ يجد أن الفلاسفة الشرقيين على وجه العموم والفلاسفة الصينيين على وجه الخصوص قد تعرضوا لنقاط فلسفية أخلاقية مهمة، ودراسات اجتماعية وسياسية لازالت حتى اليوم تشغل بال العلماء والفلاسفة، فكان يعتقد لوقت قريب أن الفلاسفة اليونانيين هم أول من صاغ نظريات فلسفية يُعتدُّ بها، وهذا الرأي جعل من اليونانيين القدامى "عمداء الفلسفة" بلا منازع، ولا يخلو هذا الرأي من التعصب لأصول الحضارة الغربية. على أن كثيراً من علماء الغرب لم

(١) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٢٠٩ بتصرف.

وانظر: من قراءاتي في الأدب العالمي– محمد بن أحمد العقيلي – مجلة المنهل – العدد ٥١٣– المجلد ٥٥. رمضان ١٤١٤هـ/ فبراير – مارس ١٩٩٤م.

(٢) صدام الحضارات – صامويل هنتنجتون – ت: طلعت شايب – ص ٧٥.

يترددوا في اعترافهم صراحة بما للفكر الشرقي القديم من أهمية بالغة، بل يحاول بعضهم رد كثير من مبادئ الفلسفة اليونانية القديمة إلى أصول شرقية.

يقول (ديدرو) : "أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الآسيويين في قِدَم عهدهم، وفي فنونهم، وعقليتهم، وحكمتهم، وحسن سياستهم، وفي تذوقهم للفلسفة، بل إنهم - في رأي بعض المؤلفين - ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة" . وقال فولتير: "لقد دامت هذه الإمبراطورية (الصين) أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين، أو العادات، أو اللغة، أو في أزياء الأهلين... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم" .

وقال الكونت كيسر لنج: "لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية، وكانت فيها صورة مألوفة عادية... وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت في العالم كله... وإن عظمة الصين لتتملكني وتؤثر فيَّ كل يوم أكثر من الذي قبله... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافةً من عظماء بلادنا؛... وإن أولئك السادة لهم طراز سام من البشر... وسمُوُّهم هذا هو الذي يأخذ بلبي... إن تحية الصيني المثقف لتبلغ حد الكمال!... وليس ثمة من يجادل في تفوق الصين في كل شأن من شؤون الحياة... ولعل الرجل الصيني أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم"(١).

ويقول جفري بارندر: "تقف الصين وحدها وسط حضارات العالم العظيمة، قد تطورت في عزلة تامة، تقريباً، عن بقية الحضارات، ولهذا كانت إنجازاتها فريدة، وهذه الخاصية الفريدة جعلتها في آن معاً ممتعة لمن يشاهدها، محيرة لمن يحاول فهمها. أجل، فقد تطورت الصين بنفسها، وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (في الطرف الشرقي الأقصى) من العالم الأوربي الآسيوي القديم، تحيط بها جبال وصحراء، ولا تمر بها أية طرق تجارية"(٢).

---

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤ - ص ٩- ١٠.

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر - ص ٢٦٧.

وقال جون كولر: "تقوم الحضارة والثقافة الصينيتان على أساس فلسفي تشكله، في المقام الأول، مبادئ الكونفوشية والتاوية والكونفوشية الجديدة، وقد قامت هذه الفلسفات الثلاث بتشكيل حياة الشعب ومؤسساته، وكانت مصدر إلهام لها عبر ما يزيد على خمسة وعشرين قرناً من الزمان، وكانت الفلسفة الصينية، التي أكدت على أهمية المحافظة على الحياة الإنسانية العظيمة ورعايتها، مرتبطةً أوثق الارتباط بالسياسة والأخلاق، واضطلعت بمعظم وظائف الدين. ومن هنا فإن دراسة الفلسفة الصينية هي دراسة لها قيمتها، ليس بسبب جدارتها الجوهرية فحسب، وإنما كذلك بسبب الاستبصارات التي تجعلها ممكنة للعقل الصيني"(١).

هذه خمس شهادات لمفكرين غربيين، تُجمِع على قيمة الفكر الصيني القديم، وتصور عظمة النتاج الحضاري ومكانته في التاريخ(٢). كما قرر أحد الباحثين المعاصرين، بعد دراسة للفلسفة اليونانية لمدة بلغت أكثر من عشرين عاماً، وكانت تخصصَه الدقيق، ما يأتي:

أولاً: أن الفلسفة اليونانية ليست معجزة؛ لا في نشأتها ولا في تطورها، وإنما هي مرحلة في سلسلة طويلة من تاريخ الفلسفة، وقد تأثرت بالفلسفة الشرقية؛ سواء حين ظهورها في القرن السادس قبل الميلاد، أو في تطورها منذ "طاليس" وحتى العصور الحديثة.

ثانياً: أن مصادر الفلسفة اليونانية الحقيقية في الفكر الشرقي، وخاصة في الفكر المصري والصيني والبابلي والهندي والفارسي.

ثالثاً: أن الفلسفة اليونانية تأثرت بالفلسفة الشرقية القديمة في الحضارات الخمس الكبرى؛ وهي: الحضارة المصرية، والحضارة الصينية، والحضارة الهندية،

---

(١) الفكر الشرقي القديم - جون كولر - ص٣٢٥.

(٢) المدخل في تاريخ الأديان - د. سعيد مراد - ص ١٧٠ بتصرف.

والحضارة الفارسية، والحضارة البابلية، وحضارة ما بين النهرين. ومن المعلوم أن التفكير الفلسفي لم يكن وقفاً على أمة دون أمة، وإنما كان حقاً من حقوق الإنسان وسيظل كذلك، لا علاقة له بمسائل الجنس واللون والدين. ومما يؤكد أن الفلاسفة اليونانيين قد تأثروا بالفلسفة الشرقية قول أحد الباحثين: "وليس هناك شك في أن اليونانيين قد تعرفوا على ما كان للشعوب الشرقية من حكمة وديانات وأخلاق، وأنهم قد استفادوا من التراث الذي خلَّفته هذه الشعوب، ويؤيد ذلك رحلة كل من "طاليس" و"أفلاطون" إلى مصر، وما يُروى من رحلات "فيثاغورس" إلى البلاد الشرقية، فالفلاسفة الشرقيون هم الذين فجَّروا الينابيع التي هبط منها الوحي (كما يزعم) على الفلاسفة اليونانيين ومن جاؤوا بعدهم"(١).

ولقد أجمعت المراجع التاريخية على أن اليونان قد استمدوا مبادئ فكرهم وحضارتهم من الأمم الشرقية، وهذا أمر لاشك فيه، إذ إن اليونان قد اكتسبت بذور دينها وفكرها وحضارتها عن مصر والهند والصين وفارس، فالأصول شرقية، ولكن جاءت الصياغة في أسلوب يوناني ميثولوجي خاص يمازجه الخيال والشعر اللذان اشتهرت بهما اليونان، ولها من جوها الشاعري ما يساعد على ذلك(٢).

وتأثر اليونانيون بهذا الفكر عن طريق نمو العلاقات التجارية والسياسية والثقافية بين اليونان وكل أمم الشرق، وهذا ما لا يمكن إنكاره(٣).

وقد شهد القرنان السادس والخامس قبل الميلاد في بلاد الصين عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية بالأصالة، والأخلاقية بالتبَع، وقد بدأت هذه العبقرية في الصين كما بدأت في اليونان بعصر من "التنوير" العقلي. ولعل الفرق الأساسي بين الفكر

---

(١) تمهيد للفلسفة – محمود حمدي زقزوق – ص ٣٩.

(٢) الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة –إبراهيم محمد إبراهيم – ص٢١٣، عن الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص٢٣.

(٣) مشكلات فلسفية – إبراهيم عبد المجيد اللبان– وآخرون– ص ١٩٨.
وانظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص ٢٢-٢٣.

الصيني والفكر الغربي أنه بينما الأخير يخطط ويعمل لغزو الشعوب، فإن الأول يخطط ويعمل لجذب العقول والقلوب، بينما يحاول علماء الغرب اكتشاف طرق جديدة لاستغلال الشعوب، وامتصاص دمائها، ونهب خيراتها، فإن فلاسفة الصين يدأبون للكشف عن الجسور التي تصل بين الأمم والشعوب، فشتان ثم شتان بين مُشَرِّق ومُغَرِّب!(١).

٦- تأثير الأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة في الثقافة والفكر:

في الفترة التي سبقت مجيء كونفوشيوس كانت المنافسات بين الأمراء على السلطة عنيفة، وكثيراً ما أدت إلى حروب دامية. وقد برز في هذه الفترة ما يسمى بالسلاطين الخمسة (وو با) في التاريخ الصيني؛ نتيجة للمنافسة بين الأمراء وقد دارت الحروب بينهم، وفي داخل أسرهم، للحصول على السلطة طويلاً، وأدى ذلك إلى ضياع النفوس، وجلب البأساء والضراء على الشعب.

وكانت لهذه الأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة تأثيرها على الثقافة والفكر؛ فالشرائع والآداب والأخلاق القديمة، التي كان يتبعها ويعظمها ويتمسك بها الحاكم والشعب على حد سواء، أهملت وتركت، أو لعب بأشكالها بدون الالتفات إلى روحها ومعناها.

ومن يقرأ الفصل الثالث من كتاب الحوار، سيجده صورة واضحة للانحطاط الثقافي والخلقي، والخروج على الملك، واللعب بالشرائع من جانب الأمراء لهذه الفترة. وقد وصل الأمر إلى حد ظهور التفكك الاجتماعي الواضح، بل إن أناساً يئسوا من الإصلاح فلجؤوا إلى الكهوف للزهد والتقشُّف والرهبنة، والهروب من ميدان الحياة، وهؤلاء هم أوائل الطاويين. واشتغل آخرون بدراسة القوانين، راجين إصلاح الأمر بالقانون، وآخرون اشتغلوا بالحروب يريدون حل المشكلة بالحروب، وهؤلاء هم الحربيون. وفئة يعيشون على التنبؤات للأحداث عن طريقة (ين - يانغ)،

---

(١) المرجع في تاريخ الأخلاق - د. محمد عبد الرحمن مرحبا - ص٢٤٦ بتصرف.

وطبقة "رو" وهم المحافظون على الشرائع والآداب والأخلاق الذين لا يجدون من الناس من يتعلمها منهم. وفئات كثيرة لا تحصى، حتى قيل: إنه كان هناك مائة مذهب تقريباً، كل يدعو إلى مذهبه.

وكانت فترة الربيع والخريف حقاً فترة فوضى سياسية وفكرية، وانحطاط ثقافي واضطراب اجتماعي، وقد استُهزئ بالشرائع والآداب القديمة، وفسدت الأخلاق بعد ازدهارها في عصر الملوك الأنبياء الخمسة، والعهود الملكية الثلاثة. وقد جاء كونفوشيوس في أثناء هذه الفترة المضطربة التي لم يشهدها الشعب الصيني من قبل في تاريخه، والتي سوف تمتد إلى مئات السنين بعده ـ فترة الإمارات المتحاربة ـ وقد جاء ليلعب دوره المؤثر على التاريخ الصيني فيما بعد، وإن لم يكن الرجل ناجحاً إلى حد مرموق في محاولاته السياسية في حياته(١).

٧- الحالة الاجتماعية وقت ظهور كونفوشيوس:

بعد أن وقفنا على الملامح العامة للحالة الاجتماعية في الصين إلى ظهور كونفوشيوس، نحاول هنا أن نذكر بعض المظاهر الاجتماعية في الوقت الذي ظهر فيه كونفوشيوس لنتعرف إلى البيئة الاجتماعية في ذلك الوقت تحديداً.

كانت هناك عدة مظاهر اجتماعية؛ منها:

١- الغالبية العظمى من الصناع والحرفيين والفلاحين يعملون عبيداً لدى الأرستقراطيين، ولم يكن لهؤلاء الصناع والفلاحين حقوق تجاه أسيادهم إلا ما يكفيهم من الطعام والشراب فقط، وبمرور الزمن كان الأغنياء يزدادون غنًى وثروة، ويزداد الفقراء فقراً وحاجة؛ "ففي ظل النظام الإقطاعي للصين القديمة كان الإمبراطور (ابن السماء) والسادة الإقطاعيون والوزراء وكبار موظفي الدولة، كانوا جميعاً سادة الشعب الأعلين، لا سياسياً فحسب، ولكن اقتصادياً كذلك، فلقد

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب– ص٥٢-٥٣ بتصرف. والفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي – د. جمال المرزوقي – ص ٢٤٤.

انقسمت ملكيات الأرض وفقاً لتوزيع الإمبراطور مناصب الدولة على أفراد عائلته وعلى أصدقائه المقربين. وتولى الإقطاعيون توزيع الأراضي على أقربائهم، وهؤلاء بدورهم وزعوها على عامة الناس لزراعتها، وما كان ليأتي لهؤلاء العامة من الناس امتلاك الأرض؛ إذ كانوا مجرد أرقاء زراعيين في حوزة سادتهم الأعلين(١).

وبحكم ذلك، نجد سجلات حكومات ذلك الزمان تصف أوجه نشاط العائلة النبيلة القليلة، أما بالنسبة إلى عامة الناس، فكانوا يطالبون بالعمل لسادتهم أوقات السلام، ويحملون السلاح وقت الحروب، ويضحون بالحياة في سبيل مصالح سادتهم"(٢).

٢- وفي هذا الجو الاستعبادي والاستغلالي نشأت الخرافات والخزعبلات والدجل والشعوذة، فكان الصينيون يجملون الحقائق الواقعية المادية بخوارق الطبيعة، فكانوا يحسون أن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم في الهواء المحيط بهم، وفوق الأرض التي تحت أقدامهم، وكانوا يحرصون على ردِّ عداوة هذه القوى الخفية، والاستعانة عليها بالأدعية والرقى السحرية.

وكان ينتابهم فزع عند رؤيتهم الخسوف والكسوف، وراحوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن المستقبل باستخدام أصداف السلاحف، وتأمُّل النجوم، كما استأجروا السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء، ويحددوا أماكن بنائها، وينسقوا حجراتها، ويحددوا مواضع تقديم القرابين، ويرتبوا أسبقية الأرواح وفقاً لمكانتها. كما تعاملوا مع العرَّافين لينزلوا بهم نور الشمس وماء المطر. بل لقد بلغ بهم الأمر أنهم يعرِّضون للموت من يولدون من الأطفال في أيام النحس.

---

(١) في لقاء أجريته مع الدكتور يانغ لي وانغ - عضو هيئة التدريس في كلية الفلسفة والأديان في جامعة بكين يوم الخميس ١١/٢/١٤٢٥هـ، وكان اللقاء في قاعة الاجتماعات في الكلية، وهو متخصص في الفلسفة الصينية القديمة - ذكر أن من العوامل التي أثرت في منهج كونفوشيوس تردي الأحوال الاجتماعية في العصر الذي ظهر فيه.

(٢) حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١- ص٢٦.

٣- "أما البنات، فكن إذا توقدن حماساً وغَيْرةً يُقتلن ليجلبن الخير لآبائهن"(١). وكانت المرأة في الصين القديمة مهانة، يُفضَّل عليها الرجل، وتختص بالخشن من الفراش والثياب، والحقير من الأعمال..(٢).

٤- "وكانوا يربطون المظاهر الطبيعية بالفضائل والأخلاق، وكان الواجب هو الذي له القيادة العليا في هذا الشعب، وكان كل فرد يحاول بقدر طاقته أن يكون فاضلاً حتى لا يكون مجلبة للوباء أو للجدب، فتشقى بسببه الأمة... وعندهم أن الإنسان خيِّرٌ بفطرته؛ لأنه جزء الطبيعة، والطبيعة هي الإله، ولكن الإنسان ليس مجبراً على طبيعيته الخيرية مثل النبات أو الحيوان، وإنما هو كائن له كسب واختيار قد يُبعدانه عن الطريق السوي، الذي هو صوت السماء أو صوت الطبيعة. أما الخير الموجود في نفسه، فليس كاملَ التكوين، وإنما هو موجود على هيئة استعداد فقط، وعليه هو أن يحققه حتى تصبح الفضيلة طبيعة عملية له. وكانوا يوجبون الرحمة: رحمة الكبير بالصغير، والقوي بالضعيف، والغني بالفقير"(٣).

٥- أما عن علاقة الوالد بأولاده؛ فإنهم كانوا يهتمون بها اهتماماً بالغاً يؤدي في بعض الأحيان إلى الضحك والعجب، وكانوا يعدُّونها أشد القوى الأدبية، لدرجة أن: "الرجل قد يذبح ابنه ولا يعتبر في فعلته إلا متطرفاً في استخدام الحقوق الأبوية. أما إذا قتل الابن أباه، فهذه جريمة فظيعة يعاقب عليها العرف والقانون بأقصى صنوف التعذيب. وكان يقال: إن التشدد في رعاية هذه الرابطة كان لخير البلاد، ويُروى عن أحدهم أنه كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه في الأيام وبلوغه سن السبعين فيرهبا شيخوخته، لذلك كان يرتدي ثياب الأطفال، ويظهر أمام والديه كصبي صغير"(٤).

---

(١) قصة الديانات – سليمان مظهر – ص ١٧٤.

(٢) أديان العالم الكبرى – حبيب سعد– ص٤١.

(٣) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٢٢٤–٢٢٥.

(٤) أديان العالم الكبرى – حبيب سعد – ص ٤٧.

٦- كما عرف العصر الذي ظهر فيه كونفوشيوس بعصر "التدهور الأخلاقي، إلى حد أن جميع الفلاسفة الذين اشتغلوا بالسياسة العامة كانوا يجهدون أنفسهم في البحث عن علاج لهذا الوباء الفتاك، بل إن (لاو تس) قد صرح بأنه بقدر ما تكثر القوانين تتضاعف الآثام والجرائم في البلاد.. والسبب في ذلك هو أن الأرستقراطيين قد فسدوا، وأن النبلاء بالفعل فقدوا نُبل قلوبهم، وأصبح هذا الاسم غير منطبق على مسماه، ومن هنا اندفعوا في تيار الرذائل والآثام. ورآهم الشعب على هذا الحال فحاكاهم، ولهذا تم التدهور، وساءت الحال في تلك الفترة"(١).

كما كان عصر كونفوشيوس مليئاً بالشواهد والأمثلة على كثير من الأسر التي دُمرت لافتقادها الفضائل، فخرج الأبناء يتقاتلون في حروب دامية أدت ـ مع مرور الوقت ـ إلى تفكك الأسر والمجتمع، ثم فساد الإمبراطورية كلها.

"إن ما شهده عصر كونفوشيوس من تمزق وانتشار للفساد والمنافسات غير الشريفة، واختفاء الولاء والاحترام، وظهور قوى العنف البهيمية، كل هذا أدى إلى ضرورة استدعاء القيم الاجتماعية ذات الطابع العملي التي لا تحكم فقط علاقة الفرد بذاته، بل علاقته بالآخرين في المحيط الاجتماعي الذي يحيا فيه"(٢).

---

(١) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية- د. علي معبد - ص١٦٦- ١٦٧ بتصرف.
وانظر: الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٢٤-٢٧.
ولقاء أجريته مع الدكتور يانغ لي وانغ - أستاذ الفلسفة والأديان- جامعة بكين (سبق ذكره).
(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ٣٤.

الفصل الثالث
الحالة السياسية

١- تاريخ الصين:

دُوِّنَ تاريخ الصين في مؤلفات تحمل اسم السجلات التاريخية. والرائد في هذا المضمار المؤرخ الصيني (سيما تشيان) المولود (عام ٩٠ ق. م)، ويعدُّونه أبا التاريخ في الصين. وقد ألف مجلداً ضخماً اختصه بهذا الاسم، أرَّخ فيه للصين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، حيث يرد ذكر الإمبراطور (هوانغ دي)، وهو الأب الخرافي للدولة الصينية [١]، حتى الإمبراطور التاريخي (وو دي) من أسرة الهان. ونسج اللاحقون على منوال المؤرخ الأول. وكان تاريخ كل أسرة منقضية يسجَّل في الأسرة اللاحقة من جانب مؤرخين يستخدمون أرشيفات الأسرة المؤرَّخ لها. ولأهل الصين ـ منذ فجر دولتهم ـ عناية بالأرشفة، وعليها اعتماد سجلاتهم التاريخية. وقد تأثر المؤرخون الإسلاميون بالصينيين في هذا المجال، فاعتمدوا سجلات الخلفاء الأمويين والعباسيين وعدوها واحدة من مصادر التأريخ. ولعل أهل الصين والمسلمين أكثر الأمم القديمة عناية بهذا الجانب من حضارتهم. وقد وصلتنا تواريخ الحضارتين شبه كاملة بسبب هذه العناية.

الأباطرة:

نظراً إلى اتساع مساحة الصين، فقد كان يطلق على حاكمها لقب الإمبراطور. واسمه في اللغة الصينية (هوانغ دي). ويرتبط الاصطلاح بمفهوم الكائن الأعلى. ومن ألقاب الإمبراطور ابن السماء (تيان زه). وتُرجم إلى الفارسية القديمة (بغ بور)، واستعمله العرب للدلالة على ملك الصين، فقالوا: (بغبور) و(فغفور).

ويغلب لقب (هو آن دي) على حكام الأسرات، لاسيما التي شمل حكمها جميع الصين، أو أجزاء كبيرة منها، أما حكام الدويلات فتسمَّوْا بالملك (وانغ).

---

(١) انظر: تيارات الفلسفة الشرقية – محمد سليمان حسن – ص ٤٧.

الإدارة:

يستعين الإمبراطور بعدد من الأعوان التنفيذيين من مرتبة الوزراء. ويتصدر الوزراءَ وزيرٌ أكبرُ يختص بالإمبراطور، ويكون الواسطة بينه وبين الوزراء. وقابل وظيفةَ الوزير الأكبر وظيفةُ الحاجب في نظام الأندلس، الذي تشكل من وزراء اختصاصيين يتقدمهم وزير أكبر هو الحاجب، ويكون الواسطة بينهم وبين الخليفة أو الملك الأندلسي. وفي الخلافة العباسية كان يقابل وظيفة الوزير الاختصاصي وظيفةُ صاحب الديوان.

واعتمد الحكم على جهاز بيروقراطي ضخم، وكان الموظفون يعينون من الفئات الحاكمة والتنفيذية والأرستقراطية، وتنتقل الكثير من المناصب بالوراثة(١).

٢- مواصفات الحاكم في الصين القديمة:

كان الحاكم في الصين القديمة له مكانته السامية، وهناك المواصفات التي يجب توافرها في الحاكم المثالي؛ فيجب أن يكون سلوك الإمبراطور أو الحاكم طيباً، ويتسم بالزهو الصامت، كما ينبغي أن لا يتصف بالكثير من الغطرسة؛ سواء في الكلام أو الفعل أو العادات، فيعيش وهو يشعر بقيمته الخاصة التي تربَّى عليها منذ نعومة أظافره. وعليه كذلك أن يمارس واجباته بكل دقة وإحكام، ولهذا يجب أن يكون فاضلاً مستقيماً حكيماً، بل قديساً منزَّهاً عن النقص، ومن هنا لا يكون هناك أناس متميزون سوى الإمبراطور ووزرائه الذين تربوا بطريقة صارمة حتى يتعودوا على الخشونة وضبط النفس، وأن يكون شغلهم الشاغل هو دراسة العلوم، فيتعلمون وهم صغار أن الإمبراطور هو رأس الدولة. ولهذا ينبغي أن يظهر على أنه الأول والأحسن في كل شيء، فالحاكم ووزراؤه لهم أولوية خاصة، يتمتعون بذلك بحكم منصبهم، لا بحكم مولدهم. وما عدا الحاكم ووزراؤه، فالكل متساوون في جميع الحقوق والواجبات(٢).

---

(١) المستطرف الصيني – هادي العلوي – ص٢٦ و ص٣٥ بتصرف.

(٢) محاضرات في فلسفة التاريخ – هيجل – ج ٢ – العالم الشرقي – ت وتقديم: د. إمام عبدالفتاح إمام – ص٧٤، ٧٥ بتصرف.

ومن الممكن أن يصل إلى الحكم من اتصف بهذه الصفات السابقة، وهو وحده الذي يسمو، ولو كان من أقل الناس.

ورد في أحد كُتُبهم، وهو (شو كينج): "إن من يستضيء بالفضيلة الساطعة هو وحده الذي يمكن أن يسمو، ولو كان ابنَ فلاح". وإذا حاد عن الصراط السوي، فإن السماء تسلب منه السلطة.

وأقنعت هذه النظرية الملوك والحكام بأن الحكم بحد السيف والخنجر مستحيل، وأن السلطة الوحيدة الدائمة هي المنبثقة من الفضيلة؛ ولهذا يقول كتاب "إي كينج": إن القوانين القاسية لا تستطيع أن تحقق الرخاء، وإن نصيب الحزم يساوي نصيب الخيرية، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط، فإذا ما تعدَّتْه، فقدتْ نتيجتها النافعة، ومن يطبق القانون بوداعة مع حزم، وبخيرية مع قسوة معتدلة، يفُزْ بالشهرة..."(١).

٣- النظام السياسي:

قوام النظام الحكومي عند الصينيين يتألف من: الإمبراطور، والنبلاء، ومجلس الوزراء، والكهنة. أما الإمبراطور، فيحكم نيابة عن الإله الأعلى، فهو وصي السماء على الأرض، بل هو ابنها في حقيقة الأمر؛ والنبلاء يعين بعضهم بحكم مولدهم، وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم، ومجلس الوزراء يتكون من ستة وزراء، يختص كل واحد منهم بناحية من النواحي الآتية؛ وهي: حياة الإمبراطور وأعماله، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر، والمراسيم والتنبؤات الدينية، والاستعداد للحرب والسير فيها، وتوزيع العدالة بين السكان، وتنظيم الأشغال العامة(٢). ثم يأتي بعد ذلك الكهنة، الذين يساعدون الملك في أداء واجباته بطريقة سليمة من خلال المراقبات الفلكية التي يقومون بها، وتجعل إعداد التقويم ممكناً.

---

(١) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص ٢٢٨-٢٢٩.

والفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس– شعبان عبد الرحيم – ص ٤٣-٤٤.

(٢) انظر قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤ – ص ٢١ – ٢٢.

كما أن سيادة الإمبراطور أو الملك الحاكم تعتمد على أن السماء هي التي قلدته "مهمات منصبه" ومنحته مسؤوليته تنظيم الكون، ولهذا يجب أن يكون حكيماً، ومستقيماً، وفاضلاً؛ لأنه الابن الحقيقي للسماء، أو للكائن الأعلى، ولكنه في الوقت ذاته يمثل دور الأب بالنسبة إلى شعبه. ومن هنا كان من الواجب عليه أن يعمل على تربية أفراد شعبه وإعالتهم في رحمة ورفق، وإجبارهم على التحلي بالخلق الحسن. فإذا أهمل الحاكم في تأدية واجباته، أو حاد عن الطريق المستقيم، واستبد بالشعب، فإن السماء تسلب منه السلطة، لأنه أضاع حقهم في حكمه، وأصبح أشبه ما يكون بالحاكم اللص، عندئذ تبدي السماء غضبها بأن تقلب الجو في غير أوانه، أو ترسل علامات أخرى خارقة؛ كالصواعق، والأعاصير، والفيضانات المدمرة، والزلازل، وكل ما من شأنه أن يدل على أن الملك قد فقد صلته بالسماء(١).

لقد كانت نظرية: "تفويض السماء" في الواقع، هي رخصة الملك إلى الحكم والسيادة، وهي التي تمنحه النفوذ السياسي القوي على رعاياه، بما يُلزمهم الولاء له، وطاعة أوامره.

وقد تفرعت عن نظرية "تفويض السماء" فكرة تغيير التفويض بما يفيد حق الشعب في الثورة على النظام القائم إذا حاد عن الصراط السوي، وأن الحاكم لا ينبغي أن يبقى في الحكم دوماً؛ فالصين لم تعرف نظرية سلطان الملوك المطلق أو الإلهي الذي انتحله ملوك أوربا وغيرهم لأنفسهم، وسوَّغوا به القهر والتعسف حيال الشعوب، فسلطة الملك الحاكم عند الصينيين ليست مقدسةً، وبالتالي فلسلطانه ليس مطلقاً.

إن سلطة الملك الوحيد الدائمة، إنما هي المنبعثة من الأخلاق الفاضلة التي تتمثل

(١) كونفوشيوس – رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ٣٦ بتصرف.
ومقدمة في الفلسفة السياسية – د. صلاح بسيوني – ص ٤٥.

في العدل والأمانة والاستقامة والاعتدال والوادعة والحزم المعتدل.

ومن الأشياء التي كان لها دور في الحد من سلطان الملك المطلق: نظامُ الرقابة الإمبراطورية[١] الذي يعطي الرقباء الحق في ملاحظة تصرفات الإمبراطور ومعاونيه من موظفي الدولة، ومعارضة أوامر الحاكم التي تنافي الصالح العام[٢].

متى كانت البداية؟

ليس هناك اتفاق بين المؤرخين أو إجماع على تحديد البدايات الأولى للفكر الصيني. وعلى الرغم من ذلك، فقد بُذلت محاولات لتحديد نشأة هذا الفكر تعتمد على الترجيح، لا على القطع واليقين. فالحضارة الصينية ترجع إلى أحقاب سحيقة تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ، ويرمزون إليها بقولهم: (سان خونغ وو تي)، ومعناها: ثلاثة ملوك وخمسة سلاطين. أما أول الملوك الثلاثة؛ فهو (صوى تشين) الذي عاش قبل التاريخ، وينسبون إليه اكتشاف عنصر النار بنظره إلى النجوم، وعاش الثاني (فوهى) من سنة (٢٨٥٢ ق.م) حتى سنة (٢٧٣٨ ق.م)، وقالوا: إنه منظِّم علم التقويم، وأكبر رجال الثقافة الصينية، فقد شرع نظام الزواج، وابتكر لأهل الصين ما يأكلون وما يشربون، وابتكر لهم آلاتهم الموسيقية، وغرس أشجار التوت، وعلمهم صناعة الحرير، واستأنس الحيوانات الضارية، كما أنه أول من عرف عبادة الإله. وعاش بعده الملك (شين فونغ) فيما بين سنة (٢٧٣٧ ق.م)، وسنة (٢٧٠٥ ق.م)، وقالوا: إنه اخترع الآلات الزراعية، واستخرج خواصَّ النباتات الطبية.

وبموت (شين فونغ) انتهى عصر الملوك الأولين، فورث هذا الملكَ خمسةُ سلاطين ضعاف، وصارت البلاد في عهودهم مطمعاً للغزاة الطامعين من القبائل الهمجية، فصدهم أول سلاطينهم، وهو (خوانغ لي)، ومدته من سنة (٢٦٩٧ ق.م) إلى

(١) انظر: حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١- ص٢٩ - ٣٠.

(٢) كونفوشيوس - رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ٣٧ بتصرف.

سنة (٢٥٩٧ ق.م)، ويقال: إنه اخترع الإبرة المغناطيسية وهو في ميدان القتال، وفي عهده تعلم أهل الصين غزل الحرير، واستكثروا من زراعة شجر التوت وتربية دودة القز[١].

ويتوالى بعد ذلك على الترتيب: (جوانغ صو) و(تي كو) و(ياو) و(شون)، وقد حظي الأخيران من (كونفوشيوس) بالتقديس، فجعلهما مثال الفضيلة والحكمة، وعُدَّ عصرهما العصر الذهبي للصين.

لقد خطا الصينيون خطوات مطردة نحو المدنية. وبدؤوا ينشؤون نظاماً سياسياً خاصاً بهم، حتى ظهر في تاريخ الصين عصر الأساطير من سنة (٢٢٠٠-١٧٠٠ ق.م)، ثم عصر الأسرات[٢] القديمة[٣].

يقول الأستاذ فؤاد شبل: "يبدأ تاريخ الصين بظهور خمسة أباطرة أسطوريين[٤]، اعتبرهم الصينيون أنصاف آلهة وعبدوهم، ونسبوا إليهم كشف الزراعة وتنظيم الري، وابتكار الأدوات الزراعية، والمركبات ذات العجلات، والقوارب... وغيرها من المنجزات الحضارية[٥]، واعتبرهم كونفوشيوس ومريدوه أبطال أزهر عصور الماضي المجيد".

ثم تلاهم الإمبراطور (ياو) أول حاكم بشري! حكم الصين (٢٣٥٧- ٢٢٥٦ ق. م).... وخلف هذا الحاكم وزيرُه القدير (شون) (٢٢٥٥-٢٢٠٦ ق.م)، الذي خلفه الإمبراطور (يو) مؤسس أول أسرة مالكة صينية عرفت باسم (هسيا)

---

(١) الصين والعرب عبر التاريخ - محمد محمود زيتون، ص٢١،٢٢.

(٢) وإن كنت أرى أن هذا العصر متداخل مع العصر الذي سبقه (عصر الأساطير)، إلا أني أنقل ما كتب وما وجدت غير هذا. فليلتمس لي القارئ العذر إن بدا له ما بدا لي.

(٣) الشرق الأقصى - تشسترا، بين - ت: حسين الحوت، ص ٢-٣.

عن المدخل في تاريخ الأديان- د. سعيد مراد - ص ٤٠ بتصرف.

(٤) (هوانج دي، وجوان شي، ودي كو، وتانج ياو ويوشون)

انظر: كتاب التجربة الصينية - د. عبد العزيز حمدي - ص١٠.

(٥) للمزيد انظر: قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج ٤ - ص ١٥-١٧.

والتي حكمت حتى (عام ١٧٦٦ ق.م)، وخلفتها أسرة (شانج)، وتعرف كذلك بأسرة (ين) التي بدأ حكمها (عام ١٧٦٦ ق.م)، وانتهى (عام ١١٢٣ ق.م). هذا هو السَّرد المأثور للتاريخ الصيني العتيق كما يورده المؤرخون الصينيون، لكن ما برحت التواريخ السالفة الذكر محلَّ نقاش وجدل[١].

وقد كثرت السجلات التاريخية التي خلَّفها مؤرخو الصين القدماء، وإن كانت هذه السجلات القديمة لا تخضع للنقد التاريخي فيما قبل (عام ٧٧٦ ق.م) أو لا تثبت أرقام هذا النقد، أي فيما قبل عهد الإقطاع، في عهد أسرة (تشو)[٢]. فالتاريخ الذي يُجمع عليه الباحثون في الصين هو (عام ٧٧٦ ق.م)؛ إذ يسجل الصينيون وقت ذاك حدوث كسوف شمسي، كما ظهر في هذا العام أول كتاب من المأثورات الصينية يعرف باسم كتاب (الأغاني)[٣].

البنية السياسية للصين القديمة:

بدأت مراحل الاستقرار في شمال غرب الصين، في أودية الأنهر العديدة، حيث بدأت أُولى القرى الزراعية بالتحول لتصبح نقاط جذب للجماعات البدائية. وظهرت ـ مع كبر المستوطنات الزراعية المتحولة إلى قرى ـ بوادر التمايز بين الأفراد. ولقد أخذ هذا التمايز بالتزايد، حتى تحول إلى نوع من الهيمنة والسيطرة لبعض الأفراد، على نحو ما حدث في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل في بداية تطور مجتمعاتها الزراعية المبكرة. ونشأت بالتالي قيادات أو زعامات عملت على تنظيم المستقرات والقرى، بشكل سمح بنموها عن طريق استصلاح الأراضي وريها، والعمل على تأمين الدفاع عنها. وتحولت هذه القيادات أو الزعامات إلى نوع من الفئة المهيمنة المسيطرة. وكبر حجم وحدات الأراضي المزروعة، نتيجة التوسع في الزراعة والزيادة

---

(١) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١ – ص ٢٠.

(٢) معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ٢٥٢ بتصرف.

(٣) المدخل في تاريخ الأديان – د. سعيد مراد – ص١٧٠ – ١٧١ بتصرف.

في عدد أفراد المستوطنات والقرى الزراعية، ولكن الأمور لم تتطور إلى حد ظهور سلطة محلية قوية تنزع إلى السيطرة الكاملة على المستقرات، وتتحول بذلك إلى سلطة شبيهة بالملكية، إلى أن جاء الغزو البدوي بقيادة أسرة (شانغ)(١).

٤- سيادة العائلات المالكة:

تميّزت الصين، منذ بداية تطورها الحضاري، بسيادة العائلات المالكة المعتمدة على سيطرة العشائر والأسر، كما تميّزت بعدم استقرار حكم هذه العائلات، وبالانتفاضات الفلاحية الناشبة ما بين مرحلة وأخرى. ولذلك أمكن تقسيم تاريخ الصين على محطات رئيسية تُمثّل كل واحدة منها مرحلةً حضارية مرتبطة بحكم عشيرة أو عائلة معينة، نذكرها بإيجاز:

أولاً: مرحلة حضارة يانغ شاو وأسرة هسيا (٢٢٠٥-١٧٦٦ق.م):

استدل بعض المؤرخين من الآثار المكتشفة والعائدة إلى العصر الحجري الحديث، وإلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، على وجود حضارة "يانغ – شاو" (نسبة إلى القرية التي وجدت فيها هذه الآثار) في "هونان" الحالية في حوض النهر "الأصفر". وقد استنتجوا بأنها حضارة متوارثة عن حضارة أسبق منها وهي المسمّاة "ككانسو" أو "كان – سو". وكانت في أقصى ولاية في شمال غرب الصين الأصلية. كما قالوا بأن الجماعات التي انتشرت شرقاً وغرباً نقلت معها الزراعة وتربية المواشي من جنوب غرب آسيا، أي من الشرق الأدنى إلى الصين في العصر الحجري الحديث(٢). وفي مرحلة الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد والربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، حكمت أسرة (هسيا) أو (شيا)، ومؤسسها حسب الروايات الصينية، هو الإمبراطور الأسطوري (يو).

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ٣٨ – ٣٩.

(٢) حول هذا الرأي راجع كتاب "أرنولد توينبي": تاريخ البشرية – الجزء الأول – ص: ٨٩.
انظر: الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ١٢.

وقد استطاعت أن تضم تحت لوائها عدداً من الأسر، واستمر حكم هذه الأسرة نحو ٥٠٠ عام، لكنها لم تبسط سيطرتها على عموم الصين، وتنفرد هذه الأسرة بأنها هي التي أدخلت نظام العبودية في الصين، والذي لم يكن معروفاً أثناء النظام القبلي السائد في معظم مناطق الصين، ولاسيما حول النهر الأصفر، فأصبح المجتمع مكوناً من طبقات ثلاث: ملاك العبيد، والعبيد، وأبناء العشائر.

وتأرجح نفوذ هذه الأسرة خلال هذه المدة من الزمن، إلى أن بدأ عودها بالذبول، وأوراقها بالتساقط، فظهرت أسرة أخرى يقال لها (شانغ) حلّت محل سابقتها(١).

ثانياً: مرحلة أسرة (شانغ)(٢) (١٧٦٥-١١٢٣ق.م):

تبعت مرحلة حضارة (يانغ – شاو) في الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد مرحلةٌ حضارية أخرى، وهي (لونغ – شان). وبعد ذلك ظهرت مرحلة مدنية إقليمية حوالي العام ١٥٥٠ قبل الميلاد سُمّيت باسم الأسرة المؤسسة لها (شانغ)، ثم أُطلق عليها فيما بعد تسمية (وين). اقتبست هذه المرحلة المدنية عناصرها الحضارية من المراحل السابقة، ولم تعرف الحكم المركزي القائم على الرقابة والإشراف الإداري للمناطق الخاضعة لها. والبعض يرى أن الفترة التي سبقت أسرة (شانغ) اختلط فيها التاريخ بالأسطورة، في الوقت الذي غاب فيه التمحيص التاريخي الحق. لذلك فإن المعرفة المؤكدة بالتاريخ الصيني تبدأ بدولة أو أسرة

---

(١) حضارة الصين – د. محمد البشر – ص ٢٠٨ بتصرف.

(٢) بعض المصادر تسميها شانغ، والأخرى شانج، ولعل هذا بسبب صعوبة الترجمة من اللغة الصينية. وقد لحظت هذا في كثير من الأسماء والمصطلحات – عندما قابلت بعض الأساتذة المتخصصين في بعض الجامعات الصينية – حيث إن كثيراً من الأسماء التي نقلت إلينا مترجمة من اللغة الإنجليزية إلى العربية، فوقع فيها كثير من التحريف أو التغيير بسبب الترجمة، وهذا يبين لنا أهمية وجود متخصصين في الترجمة بين اللغتين الصينية والعربية، حتى يستفيد كل من الطرفين مما لدى الآخر من العلوم والمعارف.

(شانغ) في عام (١٧٦٥-١١٢٣ق.م)[١].

وقد اتخذت أسرة (شانغ) عدة عواصم قبل أن تستقر أخيراً في مدينة (هونان). وأصل أسرة (شانغ) غامض، ويبدو أن أجدادهم وصلوا للصين من الشمال الغربي، ولعل هذا الأمر كان شائعاً في الصين القديمة، ولم يكن مقصوراً على تلك الأسرة. فالصين ـ بمساحتها الشاسعة ـ لم تكن تحتوي شعباً واحداً متجانساً، ومن خلال العديد من الوثائق والاكتشافات الأثرية[٢] يتضح أنها كانت تمثل حضارة متقدمة على نحو ملحوظ؛ فقد تكونت من طبقة أرستقراطية حاكمة، وأسر نبيلة، وكان لهم أتباعهم الذي اعترفوا بسيادة مطلقة وسلطة عليا للملك القائم بهذه الأسرة. وكان هذا المجتمع الذي تحكمه هذه الطبقة الأرستقراطية مكوناً من طبقة الخاضعين لهؤلاء السادة والمرتبطين بالأرض كالأرقاء، أو من رعاة الماشية، أو من خدم المنازل... إلخ. وكانت الطبقات العليا في المجتمع هي حاملةَ لواء الثقافة التي كانت متمثلة في العلوم أو الفنون التي تشكل أهم ما أبدعته العقلية الصينية.

واستطاعت أسرة (شانغ) أن توحد القبائل المفككة المستقلة في الحكم آنذاك، والتي كانت تعيش في حوض النهر الأصفر، تحت رئاسة واحدة. وبمرور الوقت، وبواسطة العمل الجماعي، تمت السيطرة على مساحات كبيرة من الأرض، إلا أنهم كانوا دائماً في حرب ضد القبائل غير الصينية المحيطة بهم. لذلك عملوا على تدعيم نفوذهم بكل الوسائل، فلجؤوا إلى توسيع رقعة الأرض الزراعية بإزالة الغابات، وتجفيف المستنقعات، والسيطرة على الأنهار، ووضع نظام للري. وقد عمل ذوو النفوذ على تقوية أساليب الدولة القهرية وتدعيمها لتحقيق مصالحهم

---

(١) انظر: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى – د. عبد العزيز شعبان – ص ٤٢٠.
والفكر الشرقي القديم – جون كولر – ص ٣٣١. والفلسفة الشرقية – ريتشارد – وبورن – ص١٠٤.

(٢) انظر: موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين – جوزيف نيدهام – ت: محمد غريب – ص ٥٩، وموجز تاريخ الصين – جيان بوه وآخرون – ص٧.

الخاصة، وكان لجهود العبيد الشاقة أثر بالغ الأهمية في دفع حركة التطور الاقتصادي والثقافي. وفي ظل هذا المجتمع العبودي لم يستولِ الأرستقراطيون على وسائل الإنتاج فحسب، بل استحوذوا على الأيدي العاملة المستعبَدة، وكان العبيد يجابهون هذا الاضطهاد البشع بالإهمال المقصود في العمل، وتخريب أدوات الإنتاج، والقيام بالعديد من الانتفاضات التي أضعفت في النهاية نفوذ هذه الأسرة(١).

وفي حوالي عام ١١٢٢ قبل الميلاد تعهدت قبيلة قوية تقطن في الغرب تدعى (تشو) بالولاء لأسرة (شانغ) القائمة آنذاك. إلا أن هذه القبيلة المكونة من اندماج رجال القبائل قد استوطنت في وادي (وي)، وازدادت في النمو بالتدريج اقتصادياً وعسكرياً، وقد مكَّنهم هذا من الاستيلاء على أغلبية القبائل الصينية المجاورة لهم، وكان لابد لهم من مواجهة أسيادهم في حروب مريرة. وشب صراع طويل ظل من دون حسم، ولكن في النهاية تمكنت هذه القبائل من الإطاحة بآخر ملوك أسرة (شانغ)، وتأسيس أسرة جديدة، اتجهت للاستيلاء على جميع أجزاء الصين الشمالية بقيادة الملك (وو) وأخيه (دوق تشو)(٢).

ثالثاً: مرحلة أسرة تشو (١١٢٢-٢٥٦ق.م):

تنقسم هذه المرحلة فترتين، وقد حكمت أسرة (تشو) الغربية الفترة الأولى منها (١١٢٢-٧٧١ق. م)، بينما حكمت أسرة (تشو) الشرقية الفترة الثانية (٧٧٠ - ٢٥٦ق. م).

١- تبدأ مرحلة حكم أسرة (تشو) مع تأسيس الملك (وينوانغ) مملكة (تشو)، وعاصمتها (هاو)، ففي (عام ١١٢٢ق. م)، (أو في عام ١٠٢٧ق. م. أو ١٠١١ق. م. وفق حسابات تاريخية أخرى) تمكّنت جماعات (تشو) (القادمة

---

(١) تاريخ الصين - مجلة بناء الصين- سلسلة كتب "سور الصين العظيم" - ج١- ص ١٣.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ١٦ - ١٧ بتصرف.

وانظر: الحضارات القديمة - دياكوف - كوفالين - ج ١ - ٢٣٠.

وموجز تاريخ الصين - جيان بوه وآخرون - ص ٩.

من سهل يقع في شمالي الصين في حوض (الواي) أو (وي) – وهو أحد روافد النهر (الأصفر) من القضاء على أسرة (شانغ) في حوض النهر (الأصفر) . وكانت جماعات الـ (تشو) تابعة أصلاً لأسرة (شانغ)، ولكن مجيئها إلى السلطة لم يؤدِّ إلى أي تبديل في البنية السياسية؛ لأنها لم تحمل معها أي تجديدات حضارية، والسبب هو أنها كانت أقل حضارة من مرحلة أسرة (شانغ) . ولم تدفع أسرة (تشو) الواقع السياسي والإداري إلى التطوّر؛ إذ لم تحصر السلطة في يديها، بل وضعتها بين أيدي أمراء المناطق، مما أدى إلى تخلّف الإدارة ونظام الحكم. وبالرغم من ذلك بقي (آل تشو) حوالي الثلاثة قرون يحكمون أقوى مملكة بين الممالك التي أنشؤوها، ويخوضون المعارك مع الولايات القوية المجاورة التي تتقاسم المناطق الزراعية المتقدمة على البدائيين والهمجيين من المجاورين لها .

وكان إشراف أسرة (تشو) على المناطق التابعة لها فعّالاً في كثير من الأحوال في الربع الأول من الألف الأول قبل الميلاد، بالرغم من عدم تركيز السلطة في قبضتها؛ لأن حوالي ثلثي أمراء الولايات، البالغة سبعين ولاية تقريباً أو تسعين، كانوا من فروع أسرة (تشو) نفسها . وقد اضطروا إلى أن يبقوا على تضامنهم وتحالفهم، لكي يديموا سيطرتهم على العائلات المغلوبة وعلى بقايا أسرة (شانغ) . إذ عندما سيطرت أسرة (تشو)، قامت بتوزيع حكم المناطق المختلفة على القوّاد والزعماء المقربين منها[١]، وهذا ما أدى إلى نشوء شكل من أشكال النظام الإقطاعي الذي هدّد وحدة الحكم في المراحل اللاحقة، حيث تجزأت الولايات قبل حلول نكبة (عام ٧٧١ق.م)، حتى بلغ تعدادها حوالي الثلاثمائة ولاية . وكان الأمراء، بتمتّعهم بكامل السلطة والسيادة على مناطقهم، كثيراً ما يدخلون في حروب مستمرّة ضد بعضهم البعض، مما قلّص عدد الولايات أو الدويلات إلى أقل من عشرين، نتيجة

(١) انظر: الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي – د. جمال المرزوقي – ص ٢٤٣ .
والفكر الشرقي القديم – جون كولر– ص ٣٣٢، والفكر الصيني– هـ. ج. كريل– ص٣٥ .

ضم المناطق المقهورة إلى الولايات المنتصرة.

٢- بدأت الفترة الثانية من حكم أسرة (تشو) إثر النكبة الكبيرة التي أصابتها في العام (٧٧١ ق.م)، عندما قام البدو المغول بالسيطرة على (هاو) عاصمة هذه الأسرة، وقضوا على سلطتها في المنطقة. فقامت الأسرة بنقل مركز حكمها إلى مدينة (لويانغ) الحالية في إقليم (هو- نان)[١]، مما أضعف هيمنتها الاسمية على مختلف الأمراء والولايات. وعُرفت هذه المرحلة، بعد انتقال الحكم إلى (لو يانغ)، بفترة حكم (تشو) الشرقيّين، وذلك تمييزاً عن حكم (تشو) الغربيّين. وساد هذه الفترة شيء من الفوضى بين المناطق والولايات المختلفة، مما حدا بالمؤرخين إلى تقسيم هذه الفترة فترتين:

١- الفترة الأولى، وقد عُرفت في التاريخ الصيني بفترة "الربيع والخريف".

٢- الفترة الثانية، عرفت بفترة "الدول المتحاربة".

الفترة الأولى، أو فترة الربيع والخريف (٧٢٢-٤٨١ق.م):

سادت في هذه المرحلة[٢] الممتدة بين عامي (٧٧١ و ٥٠٦ق. م)، حروب داخلية بين الدويلات المختلفة، تميّزت خلالها دويلة (تشي) أو (تشأن) التي أصبحت دولة ذات نظام إداري فاعل ولها عملة مستقرّة وحياة ثقافيّة مزدهرة؛ وذلك بسبب نظامها الذي وضعه الوزير (جوان جونغ) المقرّب من الملك. وقد أفضت هذه الحروب الداخلية المستمرة (وخاصة أثناء الفترة التي سُميت في التاريخ الصيني بفترة "الربيع والخريف" والممتدة بين عامي ٧٢٢-٤٨١ق.م.) إلى نشوء الحكم الملكي المطلق، القائم على السيطرة الكاملة على الإنسان وعلى الأرستقراطية المتوارثة. إذ كان في الصين، في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، ثماني دول كبيرة متنافسة ومتحاربة، الأمر الذي جعل الحكّام يلجؤون إلى أفضل

(١) انظر: موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين - جوزيف نيدهام - ت: محمد غريب - ص ٦٥، والشرق الأقصى - الصين واليابان - د. فوزي درويش - ص ١٥.

(٢) وهي الفترة التي كان يعدُّها كونفوشيوس المرحلة الذهبية من تاريخ الصين.

الطرق التي تمكّنهم من السيطرة الكاملة والقوية، وذلك باتِّباع وسائل جديدة لا تقيم وزناً للعادات والتقاليد السائدة . فقاموا مثلاً بتعيين أفضل الرجال الذين أثبتوا كفاءتهم في شؤون الإدارة والحكم والحرب، من دون الأخذ بمعيار الأصل، أي بغض النظر عما إذا كانوا من الأرستقراطيين أم من أفراد الشعب العاديين. وهكذا نشأت طبقة جديدة من القادة العسكريين والموظفين، بدأت تتلقى العلم والتدريب من طبقة أخرى قائمة بذاتها من المدرسين التابعين للسلطة. وفي تلك الفترة ابتدأ توسع الصين باتجاه الشمال والجنوب.

الفترة الثانية، أو فترة الدول المتحاربة (٤٥٣-٢٢١ق.م) وحكم أسرة (تشين) (ما بين عامي ٢٥٥-٢٠٦ق.م):

عرف تاريخ الصين في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد مرحلة من الحروب الطاحنة بين مختلف الممالك والولايات، تسبّبت بإنهاك النظام الاقتصادي الزراعي التقليدي، غير أنه كان لها الفضل في تطوّر النظام السياسي والإداري في بعض الممالك، لاسيما في مملكتي (تشين) أو (تشن) و(تشأن)، اللتين تمكنتا من السيطرة على القسم الأكبر من الصين. وانتهت هذه المرحلة عندما استطاع (شيه هوانغ – تي) ملك (تشين) أن ينهي الحروب الداخلية سنة (٢١١ق.م)، بعد حروب خاضها خلال عشر سنوات، قضى خلالها على الدول الست المتنافسة، الواحدة بعد الأخرى، وضمها إلى مملكته، وأقام عاصمته في مدينة (سيان فو) الحالية غرب حوض النهر (الأصفر). وهكذا توحدت الصين لأول مرة (٢٢١– ٢٠٦ق.م) ضمن إمبراطورية واحدة استمرت عموماً حتى القرن العشرين، وذلك بالرغم من العثرات ومن التفكك الذي ظهر في بعض الفترات وأدى أحياناً إلى إنشاء ممالك وإمبراطوريات عديدة متنافسة، لا بل متحاربة في أغلب الأحيان[١].

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ١٤– ١٨ بتصرف.
وانظر: قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤ – ص ١٩.

بعد هذا السرد الموجز لفترات حكم العائلات المالكة في الصين القديمة، لابد لنا من العودة بشيء من التفصيل لفترة حكم أسرة (تشو) لنقف على الحالة السياسية التي سبقت مجيء كونفوشيوس، والتي كان لها أكبر الأثر على حياته وفكره.

أسرة (تشو) وعصر الاستنارة الفكرية:

تجمع قوائم الأسر الملكية عادة على أن زمن أسرة (تشو) يبدأ من (عام ١١٢٢ ق.م إلى ٢٢١ ق.م)، رغم ما تخللها من فترات طويلة عانت فيها من التمزق والضعف وعدم الاستقرار، المتمثل في نقل العاصمة من ولاية إلى أخرى، وعلى الرغم من أن هؤلاء المنتصرين لم تكن لديهم ثقافة خاصة بهم، مما جعلهم يقتبسون أنظمة أسرة (شانغ) الثقافية، إلا أنهم تمكنوا من إدخال العديد من التطويرات التي كان لها أثر ملحوظ في حياة مفكريها، بما فيهم كونفوشيوس. وتُصوِّر الوثائق التاريخية هؤلاء الملوك على أنهم أفضل النماذج التي ينبغي أن يكون عليها الحكام، وبذلك يكون كونفوشيوس قد تربى في ظل تلك المثالية التي اتصف بها كل من الملك (ون) و(وو)، وأيضاً (دوق تشو) الذي لم يَسْعَ للاستيلاء على العرش لنفسه، بعد موت أخيه الكبير، بل تصرف بوصفه وصياً على ابن أخيه الصغير، وحكم البلاد بيد من حديد، وبذلك برهن على أنه رجل ذو أخلاق سامية. ورغم أن (دوق تشو)[١] عاش قبل كونفوشيوس بعدة قرون، إلا أن هذا الأخير كان يُنظر إليه ولفترة (تشو) المبكرة على أنها الفترة المثالية لوحدة الصين، ولإحلال العدل والسلام فيها، وسيادة القيم الأخلاقية في كل مجالات الحياة. ومما لا شك فيه أن تلك اليقظة للوعي الأخلاقي الذي ساد الفترة

(١) يعظِّم الصينيون (دوق تشو) بوصفه مؤسس التراث الكونفوشيوسي، بصرف النظر عن أن هذا الدوق قد عاش قبل كونفوشيوس بعدة قرون، بل عدّه البعض أسمى مرتبة من كونفوشيوس؛ ففي معترك الأحداث التي جرت في عهده، تشكلت آراء معينة كانت لها أهميتها الكبرى في التفكير الصيني منذ ذلك الوقت. (كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني -د. صلاح بسيوني- ص ٢٩- ٣٠، والفكر الصيني- هـ. ج. كريل - ص ٢٥).

الأولى لحكم أسرة (تشو) قد نما نتيجة الحاجة الضرورية التي تسوِّغ غزوها للأسرة السابقة[١].

أسرة (تشو) ومبدأ التفويض الإلهي:

كانت هذه الأسرة في أشد الحاجة إلى استمالة الشعب، وكان من أهم الوسائل التي استخدمتها في الدعاية أنها عملت على تصوير ملوك أسرة (تشو) وأنصارهم على أنهم يعملون لصالح الأمة، ويهدفون لتحرير الشعب من حكامهم الظالمين الفاسقين. ولكي يتقبل الشعب تلك الرواية لجأت أسرة (تشو) إلى ما يمكن أن يسمى برؤية جديدة لتاريخ الصين. فقد ادعوا أن كلاً من أسرة (هسيا) وأسرة (شانغ) اللتين سبقتا (تشو) كان لها في البداية حكام صالحون، ولكن انتهى الأمر بصعود بعض الحكام غير المؤهلين لإدارة شئون البلاد. "ونشرت الإشاعات ضد آخر ملوك (شانغ) أنه كان وغداً ظالماً، يتهكم على الآلهة، ويغش في تقديم القرابين[٢]، مع أنه كان حريصاً على أداء الطقوس الدينية، ولم يكن ضالاً متلافاً، لكنها حجة الذئب الذي تهيأ لابتلاع الحمل"[٣].

ووفقاً لمبدأ "التفويض الإلهي" شرعت السماء تبحث عن نبلاءَ جدد، لتفويضهم بإدارة شؤون الشعب والبلاد، رحمةً بهذا الشعب الذي عانى الكثير تحت قيادة أسرة (شانغ)، وانتقاماً من الإدارة الغاشمة. ويتضمن التفويض سحب السلطة من تلك الإدارة، والقيام بثورة للإطاحة بها لتأسيس أسرة جديدة عادلة. ومن هنا عرف تاريخ الصين لأول مرة نظرية "الثورة الحقة" لإصلاح الأوضاع، ويعتقد الصينيون أنها ليست مجرد نظرية صحيحة، بل إنها واجب مقدس

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ١٩.

(٢) للمزيد انظر: قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤– ص ١٨، والفكر الصيني – هـ. ج. كريل – ص ٣٠ – ٣١. وتاريخ المعتقدات والأفكار الدينية – ميرسيا إلياد – ج ٢ – ص١٣.

(٣) معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ٢٥٦ بتصرف.

مفروض من السماء على عاتق أسرة جديدة.

ولكن كيف تتسلم الأسرة الجديدة التفويض ويحق لها القيام بالثورة؟

تبدأ الثورة بتذمُّر الشعب الواقع تحت الظلم، فتدرك السماء حقيقة الأمر الواقع على الأرض، فتأمر بسلطة جديدة، وملك جديد، وتمنحه الحق للإطاحة بالسلطة القائمة، وإحلال العدل والسلام على الأرض، فصوت الشعب هو صوت السماء، ودائماً تأتي أوامر السماء معبرة عما يعتمل في قلوب الجماهير.

ما الذي تسمعه السماء؟ هو ما يسمعه عامة الشعب.

ما الذي تراه السماء؟ هو الذي يراه عامة الشعب.

ما الذي تكرهه السماء؟ هو ما يكرهه الشعب.

وهَكذا صور ملوكُ أسرة (تشو) أنفسهم على أنهم مجرد أدوات في يد الإله الأعظم، فقد تسلموا منه هذا التفويض السماوي دون أن يكون لديهم القوة التي تتيح لهم أن يرفضوا قرار الإله الأعظم أو يعارضوه(١).

تغير البنية الاجتماعية والإدارية:

ظهر التنافس والصراع، منذ وصول أسرة (تشو) إلى السلطة، ما بين أطراف الأسر النبيلة المنتصرة وبقايا الأسر النبيلة المغلوبة؛ كما بدأ التنافس أيضاً، ضمن الأسر النبيلة المحلية فيما بينها، على احتلال المناصب العامة، وفي الحصول على نتاج الأراضي. غير أنه بعد استمرار الحروب الأرستقراطية بين مختلف الولايات، وضم المنتصرين للدويلات المغلوبة إلى مناطقهم، وخاصة بين (عامي ٧٧١ و ٥٠٦ ق. م) حدث تناقص في عدد الدويلات المحلية حتى بلغ العشرين، ورافقه تغيير عميق داخل المجتمع الصيني القديم؛ إذ لم يعد الأمر يدعو للاستقرار، لا بالنسبة إلى الطبقة الأرستقراطية، ولا إلى الطبقة العامة من الشعب التي كانت محلاً

---

(١) معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ١٩ – ٢٠ بتصرف.

وانظر: حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١ – ص٢٣.

للسيطرة المتغيرة من حين إلى آخر بحسب الأسر الغالبة. فالتبدلات الاجتماعية كانت عميقة جداً، بحيث إنها ولَّدت شعوراً عاماً بعدم الاطمئنان والاستقرار؛ إذ تغيرت الأحوال كثيراً بعد القرن الخامس قبل الميلاد، نتيجة أطماع الملوك في التوسع الكبير باتجاه الشمال والجنوب، وحتى باتجاه الشرق، وفي الاحتكاك بالشعوب البدوية في السهول من الغرب. كما تغيرت الأوضاع بكاملها، نتيجةَ لجوء الحكام إلى استخدام السلطة المطلقة لتأمين قوتهم في الحكم، ولو على حساب الخروج عن العادات والتقاليد المتوارثة، والتي على أساسها كان يتم ـ مثلاً ـ اختيار القادة العسكريين والإداريين من أبناء الطبقة النبيلة؛ لكن الحكام تنكروا لهذا العرف التقليدي، وقاموا باستخدام الرجال الذين أثبتوا الجدارة في توليهم شؤون الحرب والإدارة، حتى ولو كانوا من عامة الشعب، متخطِّين في ذلك العادات والتقاليد المتوارثة منذ القدم.

وكان من نتائج تطوير الإدارة وتحديثها في دولة (تشين) في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد أن زالت البنية الأرستقراطية الموروثة، وفُتح المجال واسعاً أمام العامة للوصول إلى تبوُّؤ أعلى المراكز العسكرية والإدارية، وقد حدث كل ذلك بهدف تعزيز قوة السلطة العسكرية. وكان لا بد لمجمل هذه التبدلات والتغييرات من أن تؤدي إلى تحول جذري في كامل البنية الاجتماعية، وإلى تبدل في العلاقات القائمة ما بين الأفراد والجماعات. وبالنتيجة أحدثت هذه التحولات تغييراً نوعياً وكمّياً في التراكمات المعرفية، كما ألحقت تغييراً مهماً في البنية الذهنية للإنسان الصيني وللمجتمع برمته. وهذا أدى إلى أن تصبح أواخر هذه المرحلة، المعروفة بفترة الربيع والخريف (٧٢٢-٤٨١ ق.م)، بداية مرحلة إبداعات الفلسفة الصينية التي ولد وعاش فيها "كونفوشيوس" (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م)(١).

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة - د. عمر عبد الحي - ص ٤٠- ٤٣ بتصرف.
وانظر: حضارة الصين - د. محمد البشر - ص ٢١٠ - ٢١١.

٥- الحالة السياسية عند ظهور كونفوشيوس:

قامت دولة (تشو) على نظام الإقطاع، ولم تمض غير قرون قليلة حتى أخذ البيت الحاكم يفقد سلطانه بالتدريج، وأخذ الحكام الإقطاعيون يقومون أنفسهم على حساب الإمبراطور، وأخذوا في التنازع فيما بينهم، كل منهم يود أن يوسع رقعة ملكه، ويبسط نفوذه على ما جاوره من المدن والأقاليم، ولم تقف متاعب الإمبراطورية عند ذلك، بل زادت في متاعبها تلك الهجمات التي كانت القبائل، المقيمة على الحدود، تشنها خارج البلاد وداخلها أيضاً، وكان السكان الصينيون مكوَّنين من طبقتين؛ هما: طبقة الأغنياء الأرستقراطيين، وطبقة الفلاحين الذين يزرعون الأرض، وكانت بينهما طبقة أخرى قليلة العدد كان أصحابها من الكَهَنَة وبعض ذوي الحرف، وكان إمبراطور (تشو) يقيم في عاصمته الغربية منذ نشأة الأسرة. وبحلول (عام ٧٧٠ ق. م) كانت الأمور قد تردَّت إلى حد تمكنت معه بعض الدول الإقطاعية شمال الصين من شن هجوم على الإمبراطور في عاصمته وقتله، واغتصاب سلطته(١).

ثم تلت ذلك فتنةٌ كبيرة لعب فيها بعض الأمراء الإقطاعيين الصغار دوراً مهماً في مساعدة البيت المالك، وإعادته ثانية إلى الحكم، فاختاروا أميراً من العائلة في مدينة (لويانج) شرقي العاصمة الجديدة، ونصَّبوه إمبراطوراً. وكان صاحب الفضل الأكبر في ذلك أمير دولة (تشين) الذي أصبح منذ ذلك الوقت أعظم الأمراء الإقطاعيين. كان الإمبراطور الجديد يدين بمركزه للأمراء الإقطاعيين، ولم تكن لديه القوة الكافية لإخضاع أية ثورة عليه. فكان يكلف أقوى الأمراء بذلك، وما هي إلا فترة أخرى حتى أصبح الإمبراطور زعيماً يحوطه شيء من التقديس، ولكن ليست

---

(١) انظر: الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي - د. جمال المرزوقي - ص٢٤٣.
ومعتقدات آسيوية - د. كامل سعفان - ص ٢٥٩.
والفكر الشرقي القديم - جون كولر - ص٣٣٢.

لديه سلطة سياسية قوية. وبعبارة أخرى أصبح الإمبراطور رمزاً أكثر من كونه شخصاً له سلطان ونفوذ.

وكان جميع الأمراء الإقطاعيين يؤمنون بعبادة السماء. ولهذا كان من الضروري وجود حاكم أعظم ليقوم بتقديم القرابين الرئيسية بوصفه "ابن السماء"؛ ليضمنوا الخير لبلادهم، ويجنِّبوا ما يحيق بها من كوارث إذا غضبت عليهم السماء، كانت هذه الصلة الدينية الروحية هي كل ما بقي للإمبراطور، أما فيما عدا ذلك، فقد كان لكل دولة جيشها وبلاطها وحكومتها الخاصة.

ومنذ بداية القرن السابع قبل الميلاد أصبح من عادة الإمبراطور أن يتحالف مع أقوى الحكام الإقطاعيين في زمانه، ويصبح لزاماً على ذلك الحاكم أن ينفِّذ ما يطلبه منه الإمبراطور. وبعبارة أخرى يصبح ذلك الحاكم ديكتاتوراً قوياً، ولكن هذا النظام لم يستمر إلا نحو قرن من الزمان، ثم فقد أهميته؛ لأنه لم يوجد حاكم واحد من الحكام الإقطاعيين يستطيع أن يفرض سلطانه على الحكام الآخرين، فانتهى ذلك العصر، ودخلت الصين في عصر آخر هو ما سماه الصينيون (عصر الدول المتحاربة) الذي كانت فيه البلاد فريسة لأطماع أولئك الإقطاعيين، يحارب كل منهم الآخر، ويبذل كل ما في وسعه ليقوِّي نفسه(١).

تشو الشرقية ومظاهر الترف والحروب

بعدما تمكن بعض الملوك المنتمين للأسرة من نقل العاصمة إلى الشرق، معلنين بذلك بداية مرحلة جديدة للأسرة تُسمَّى (تشو الشرقية)، شهدت هذه الفترة تشييد العديد من القصور، وتنافس الأمراء فيما بينهم في الترف. "واقتضى تكالبُ النبلاء على الاستمتاع بأطايب الطعام، وإغراق أنفسهم في ألوان الترف، ابتزازَ أموال الشعب، وتسخير العاملين في تشييد مشروعات رفاهة عيشهم

(١) انظر: كونفوشيوس حكيم الصين – د. أحمد فخري – مجلة المجلة – العدد ٧ ذو الحجة ١٣٧٦هـ/ يوليو ١٩٥٧م ص ٤٤ – ٤٥.

ورغدهم. وفوق هذا كله كان النبلاء يمارسون رياضتهم المحبَّبة إلى نفوسهم وهي الحرب، فطفق بعضهم يعتدي على البعض الآخر دون أية مصلحة تُجنى من وراء ذلك سوى الطمع وقتل الفراغ، وكانت في الوقت نفسه جمهرة الشعب تقاسي وحدها من حماقات هذا العدوان والهلاك المستمر(١).

وانقسمت الإمبراطورية في ذلك الوقت على عدد كبير من المقاطعات، وصل إلى مائتي مقاطعة، ثم تقلص عددها في عصر كونفوشيوس إلى خمس عشرة مقاطعة في تنافس مستمر، بحيث أصبح دور إمبراطور (تشو) في هذا الوقت يشبه إلى حد ما إمبراطور الرومان في العصور الوسطى الأوروبية. حيث حُددت سلطته السياسية، وقصرت سيطرته على دولة واحدة، وانحصر دخله في الضرائب التي يدفعها له الفلاحون.

وتغيرت الحدود الخاصة بالمقاطعات، وظهرت أقاليم، واختفت أخرى، وكانت أسعد المقاطعات في تلك الفترة هي الصغرى التي كانت بعيدة عن المركز، ولكن بتدهور الأمور تغير الحال، واضطرت في معظم الأحوال لمناصرة مقاطعة ضد أخرى. وكانت جيوش المقاطعات الكبيرة لا تتصارع مع بعضها البعض فقط، بل أيضاً تعاقب المقاطعات الأخرى المرتدة، وتجبرها على الدخول معها في معاهدات تدين لها بالولاء(٢).

المعاهدات المقدسة:

كانت المعاهدات تتم في احتفال ديني مقدس، وتُكتب بدماء الذبائح خلال تقديم القرابين، وعلى كل حاكم مشترك في المعاهدة أن يقرأها جهاراً، ثم يلوث شفتيه بدماء الأضحية، وتدفن نسخة مع الأضحية من أجل أن تعمل الأرواح على

---

(١) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية – د. علي معبد – ص١٣٦ بتصرف.
وانظر: الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١١٨.
والدين والفلسفة والعلم – محمود أبو الفيض المنوفي – ص ٨٨.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٢٣ بتصرف.

تدعيم شروط المعاهدة. وكان لابد لكل معاهدة من خاتمة يتم التعرض فيها للعقوبات التي تقام على من ينقض شروط المعاهدة أو يُخل بها.

ورغم هذا القالب الديني المقدس، الذي يتم من خلاله صياغة المعاهدات، نجد أنه لا يكاد تمر بضعة شهور إلا وتُنقض المعاهدة ليتحول الولاء إلى جهة أخرى، ويتم عقد معاهدة جديدة. وبذلك أصبحت القوة والحرب، والاغتصاب، والمؤامرات العائلية داخل الأقاليم المختلفة أمراً طبيعياً بل كانت معيار الصواب والخطأ.

ولقد قضى كونفوشيوس حياته في الجزء الأخير للفترة المعروفة بـ "الربيع والخريف"، والتي بدأت حوالي ٢٠٠ سنة قبل ميلاده، حيث كانت البلاد في حالة اضطراب دائم، والسلطة في تغيُّر مستمر. وعلى الرغم من ظهور بعض المحاولات لتهدئة الموقف، إلا أنه سرعان ما كان يتم إجهاضها. وبذلك فقد وصلت الصين في عصر كونفوشيوس إلى مفترق الطرق(١).

وأصبح الصراع والحرب يفرضان حضورهما، وشكَّل العنف والتآمر الطابع السائد للساحة السياسية، وتغلبت النفعية على الأخلاق، وشكَّل الغش والخداع أساس المؤامرات التي حلَّت محل الحكم السياسي، وكانت عواقب هذه المؤامرات والحروب التي نجمت عنها مما يتجاوز القدرة على التخيل، وقد تمثل ذلك في الفقر والمعاناة والموت(٢).

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ بتصرف.

ولقاء أجريته مع الدكتور يانغ لي وانغ – أستاذ الفلسفة والأديان– جامعة بكين (سبق ذكره).

(٢) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ص ٣٣٣ بتصرف، وانظر ص ٣٤٨.

والفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي – د. جمال المرزوقي – ص٢٤٣.

وللمزيد انظر: معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ٢٥٩–٢٦٠.

الباب الثاني
نشأة الكونفوشيوسية

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ظهور كونفوشيوس

الفصل الثاني: أبرز الشخصيات بعد كونفوشيوس

الفصل الثالث: تطور الكونفوشيوسية وافتراقها، وتأثيرها في الحياة الدينية في الصين

الفصل الأول
ظهور كونفوشيوس

لإجلاء الحقيقة:

في سعينا لمعرفة كونفوشيوس، تواجهنا صعوبات كبيرة، تتبلور فيما أضفاه الصينيون على شخصيته من أساطير، وحاكوه من أقاصيص، ونسبوه إليه من روايات؛ الأمر الذي يعرقل جهود الباحث لإجلاء حقيقة هذه الشخصية الفذّة، واستكشاف أبعادها الواقعية. خاصة وأن هناك من أثنى عليه، بل ومن رفعه إلى درجة التقديس، وفي المقابل وجدنا من شوّه شخصيته، وحطّ من شأنها.

ومن خلال دراستي لشخصيته، وجدت أن ثمة باعثين لتشويه شخصية كونفوشيوس وتحريف معالمها:

الأول: تطور إعجاب مريديه به إلى التقديس دفعهم إلى افتعال سلسلة نسب محكمة تصل بين أجداده وأباطرة الصين.

الثاني: سعي من هدد مصالحهم هذا المفكر إلى إبطال مفعول هجماته على الامتيازات المتوارثة، عن طريق تحريف أقواله وإساءة عرضها.

فمن ثم، لن نذكر جميع الروايات المأثورة عن حياته وفكره، ونكتفي بإيراد حياته وتراثه؛ بعد انتزاع ما عَلِق بهما من الأساطير والخرافات[1] بقدر المستطاع، مستفيدين مما سجله أكبر مؤرخ صيني في العصر القديم (سي ما تشان) في كتابه "سجل التاريخ"، في الفصل الخاص بسيرة أسرة كونفوشيوس.

تذكر السجلات التاريخية الصينية في فصلها السابع والأربعين أن كونفوشيوس قد ولد عام ٥٥١ قبل الميلاد في إمرة (لو) قرب مدينة (تشي فو) بولاية شانتونج. وتقول إن أجداده ينتسبون إلى البيت الملكي لدولة (سونج) لكن جده الأعلى قد

---

(١) حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ ص ٦٣ بتصرف.

وانظر: تاريخ الأديان – د. محمد الزحيلي ود. يوسف العش – ص ٢١٣.

انتقل إلى (لو) حيث حل الفقر بالعائلة. فكونفوشيوس ـ وفقاً لهذا الرأي ـ قد انحدر من طبقة اجتماعية نبيلة المجد، لكن انحطت بها تصاريف القدر إلى الفقر والمسغبة.

أولاً: اسمه

كونفوشيوس اسم لاتيني مأخوذ من اللفظ (كون فو تزو) ويعني الأستاذ (كون) أو المعلم (كون)، وكنيته (تشونج - ني) ومن ذلك اللفظ الصيني "كون - فو - تزو" اشتق في اللاتينية اسم "كونفوشيوس"(١).

ولم يكن يُدعى من قبل "كونفوشيوس"، بل ولم يكن أحد في حياته يناديه بهذا الاسم. فمن أين أتت هذه التسمية؟

أ- قيل: إنه قد صاغها القساوسة الذين كانوا يعيشون في الصين في القرن السادس عشر، وهم الذين أوصوا البابا في روما بأن يدرج اسم كونفوشيوس في قائمة قديسي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وكان يسمى (كنج فو تسي) ومعناها السيد، أو (كنج) المعلم. ومن ثم كانت الصيغة "كونفوشيوس" هي أقرب الصيغ اللاتينية التي ارتآها القساوسة لهذا الاسم الصيني. وقد أُطلق عليه عند ولادته (كن)؛ أي: التل الصغير، وربما أُطلق عليه بسبب وجود تل صغير إلى جوار البقعة التي ولد فيها، أو يكون بسبب شكل رأسه الذي يشبه التل(٢).

ب- وقيل: إن الاسم المشهور في الصين (كونغ ـ فوتس) ومعنى (فوتس) الحكيم أو الأستاذ، و(كونغ) هو الاسم، ومعنى التركيب هو: الأستاذ أو الحكيم كونغ، وأن الغربيين هم الذين حرَّفوا الاسم إلى كونفوشيوس(٣).

---

(١) راجع: حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص ٦٤.
والفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ١٥٥ بتصرف.
والفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي – د. جمال المرزوقي – ص ٢٤٤.

(٢) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١١٦ – ١١٧ بتصرف.
وموكب الفلاسفة – محمود عزة موسى – ص ٢٧.

(٣) مقارنات الأديان – الديانات القديمة – الإمام محمد أبو زهرة – ص ٦٨.

ج- وقيل: معنى (كونج) اسم القبيلة التي ينتمي إليها، و(فوتس) معناه الرئيس أو الفيلسوف؛ فهو بذلك رئيس (كونج) أو فيلسوفها[١].

د- وقيل: إن الاسم الذي أطلق عليه عند ولادته (تشيمو)، وظل يُطلق عليه إلى أن كبر، وجلس يعلم الناس، ويرد على أسئلتهم واستفساراتهم... وكان الكثير من الناس الذين يأتون إليه يسمونه (كونج - فو - تس)، أي (كونغ) الفيلسوف. ومن هنا بدأ تحريف الاسم ليطلق عليه الناس بعد ذلك كونفوشيوس[٢].

ومن هذه الاختلافات حول اسم كونفوشيوس نستطيع أن ندرك أن الأصل الحقيقي لاسمه هو ما أطلقه عليه تلاميذه ومريدوه من اسم (كونغ فو تس) أو (كون فو تزو)، وصار عَلَماً عليه، ونسي الناس اسمه الحقيقي الذي أطلقه عليه أبواه[٣].

ثانياً: مولده ونشأته

في عام ٥٥٢ قبل الميلاد أخذ القلق يساور جندياً عجوزاً من أهل إقليم (شانتونج) من أعمال الصين؛ إذ شعر بدنوٍّ أجله وليس له ولد. وكانت الطقوس الجنائزية الصينية الصحيحة لا تتم على الوجه الأكمل إلا إذا كان للمتوفى ولد يقوم على هذه الطقوس. وكان لهذا الجندي، البالغ من العمر أكثر من سبعين عاماً، تسع بنات، وكان له إلى جانبهن ولدان من إحدى المحظيات، ولكنه كان يريد له ابناً شرعياً تعترف به الجماعة. لذلك عقد العزم على أن يتخذ له زوجة أخرى غير زوجته الأولى التي لا تلد له إلا البنات.

وكان هذا الرجل سليلَ أسرة صينية قديمة شريفة هي أسرة (كنج)؛ لذلك كانت رغبته أن يصاهر أسرة تعادل أسرته صيتاً وشرفاً. فاتجهت أنظاره إلى أسرة

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة – ص ٧٤٨.

(٢) قصة الديانات – د. سليمان مظهر– ص ١٩٢-١٩٣.

(٣) انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ٣٩ – ٤٠.

(ين)، وسأل أحد أفراد هذه الأسرة أن يزوجه إحدى بناته الثلاث، فجمع هذا الرجل بناته، وأوضح لهن مزايا الزواج من هذا الرجل المسن، وما قد يكون في ذلك من عيب أو نقص، ثم سأل عن أية واحدة منهن ترغب في الزواج منه. فصمتت الابنتان الكبيرتان عن الجواب، أما الابنة الصغرى (شنج ـ تسي) فتقدمت نحو والدها، وانحنت أمامه انحناءة طويلة تنطوي على الاحترام والتبجيل، وقالت:

(لم تسألنا يا أبت؟ لك أن تقرر ما تراه في هذا الشأن).

قال: (حسناً إنك سوف تتزوجين هذا الرجل).

وبعد ذلك بعام واحد أنجبت هذه الزوجة الصغيرة ـ التي لم تكن سنها تزيد في ذلك الوقت على ثمانية عشر عاماً ـ غلاماً جلب معه البهجة والسرور إلى قلب زوجها العجوز[١].

وقد ولد كونفوشيوس سنة (٥٥١ ق. م) في مدينة (تشي – فو) في إمارة (لو) بولاية (شانتونغ) الحالية. حيث تذكر الروايات الصينية الكثير من الحكايات الأسطورية عن ولادته؛ ومنها: أن الأرواح عطَّرت لأمه الكهف الذي ولدته فيه، كما تروي حكايات أخرى بأنه جاء من صلب غير بشري. وتروي إحدى الروايات بأنه يتحدّر من نسل الإمبراطور التاريخي (هوانغ ـ دي). وكانت مختلف تلك الروايات تنطلق لتؤكد تقديرَ الناس لهذا المفكر الكبير إلى درجة القداسة. وهذا أمر شبيه بالذي حصل مع الكثيرين من المفكرين المبدعين في العصور القديمة من أمثال (بوذا) في الهند و(زرادشت) في بلاد فارس؛ إذ تروي الحكايات الشعبية والأسطورية بأنهم لم يتكونوا في بطون أمهاتم نتيجة اتصال بشري، بل نتيجة رغبات الآلهة[٢].

وتذكر بعض المصادر الصينية بأن والد كونفوشيوس كان ضابطاً، مات عن عمر

---

(١) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١١٤–١١٦ بتصرف.

(٢) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة – د. عمر عبد الحي – ص ١٥٥–١٥٦ بتصرف.

يناهز الثالثة والسبعين، فيما كان كونفوشيوس يعمل، بعد الفراغ من المدرسة، في حرف ومزرعة، ليساعد على إعالة والدته.

وهو ينحدر من أسرة نبيلة، وله أحفاد كثيرون، ونسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا. ولا تزال البلدة التي ولد فيها كونفوشيوس، أي مدينة (تشي فو)، بولاية (شانتونج) يعمرها حتى الآن نسل ابنه الوحيد، ومنهم وزير المالية في الحكومة الصينية التي كانت قائمة في منتصف الثلاثينيات(١). وإن كان هذا قد يكون مستبعداً، والعهدة في الرواية على مصادرهم.

ومما يذكر عن كونفوشيوس أيضاً عند مولده: "أنه لما ولد كان كبير الأُذنين جداً، واسعَ الفم، وكانوا يعتقدون أن كِبَر حجم الأذنين يدل على ثبوت الحكمة في رأسه، ففرح به والده فرحاً كبيراً، ولهذا سماه: (كونج ـ فو ـ تسي)"(٢).

لكن هذا الوالد العجوز لم تدم فرحته بولده طويلاً، فما هي إلا سنوات قليلة وفارق العجوز الحياة، وخلّف ولده الصغير يواجه قسوة الحياة وشظف العيش، وألم الكدِّ والتعب؛ فقد توفي الوالد (تشوليانج هيه) لمَّا بلغ ولده (كونج ـ فو ـ تسي) الثالثة من عمره، فغيَّر ذلك مجرى حياته في فجرها، وتغير الحال إلى فقر مدقع وحاجة شديدة، فاضطر إلى العمل بيده ليكسب قوته وقوت والدته، وهذه الظروف التي اجتمعت لكونفوشيوس جعلت منه إنساناً نازعاً إلى معالي الأمور من غير استعلاء أو تكبر"(٣).

وحكي أن كونفوشيوس كان في صغره، وهو يلعب مع الأطفال، يضع الآنية على صورة توحي إلى المحافظة على الآداب والشرائع(٤). كما كان في طفولته

(١) انظر: قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤– ص٤٠ بتصرف.
(٢) عظماء قادة الأديان – د. عبد الجليل شلبي – ص ٧٧
(٣) الديانات القديمة – الإمام أبو زهرة – ص ٦٨.
وانظر: قصة الديانات – سليمان مظهر – ص ١٩١.
(٤) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفوشيوسية – د. زهرة الدين طيب–ص ٥٤ بتصرف.
وفلاسفة إنسانيون – كارل ياسبرس– ت: عادل العوا – ص ١١٦.

يقضي وقت لعبه وفراغه في تقديم القرابين المقدسة وحضور الحفلات الدينية. ولما شب أحاطه منزل (تشي) أحد أمراء المملكة برعايته، فاشتغل عند هذا الأمير في رعي الماشية والأغنام، واهتم كونفوشيوس بحرفته؛ مما أدى إلى زيادة نتاج هذه الثروة الحيوانية فرُقِّي بعد ذلك مشرفاً على الحدائق والأشغال العمومية(١).

وقد ولد كونفوشيوس في ظل أحداث جسام عاشتها مقاطعة (لو). ورغم أن التاريخ يذكر لنا أنه من أسرة نبيلة، إلا أنها فقدت امتيازاتها أثناء الحروب، ومما زاد من قسوة الظروف موتُ والده وهو مازال في مهده، الأمر الذي ترتب عليه أن ينشأ في ظروف متعثرة. وكان عليه ـ منذ نعومة أظافره ـ أن يتولى الأعمال المتواضعة، والتي أكسبته مهارات عديدة. وقد أيقن كونفوشيوس أنه في ظل هذه الظروف السياسية لا مخرج له ولا لأمته من هذه الفوضى إلا بالعلم، فحرص على تهذيب ذاته وتثقيفها بالفنون الكلاسيكية السائدة، والتي كانت تمثل الإرث الخاص بطبقة النبلاء وحدها(٢).

وبنظرة عاجلة إلى التهيئة التي أحاطت بها العناية ذلك الشاب (كما يقولون)؛ دم نبيل يسري في عروقه، وأسرة سامية ذات شهرة ومجد، وفقر شديد، تلك العوامل مجتمعة من شأنها أن تكوِّن في الشخص نزوعاً إلى معالي الأمور من غير استعلاء، وذلك إذا صادفها مواهبُ عالية، ونفس سامية. فإن شعور المرء بمجد أسرته...، من شأنه أن يجعل في المرء اتجاهاً إلى معالي الأمور، وتجافياً عن سفاسفها، وإن الحد من الرزق قد يُوجِد في نفس الشخص العطف والرفق بالضعفاء والتواضع ومحبة الناس(٣).

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ٤ بتصرف.

(٢) فلسفه الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٢٤ – ٢٥ بتصرف.

(٣) مقارنات الأديان– الديانات القديمة – الإمام محمد أبو زهرة – ص ٦٨ بتصرف.

ثالثاً: الصين عند ولادة كونفوشيوس

ولد كونفوشيوس في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وكانت الصين في ذلك العهد تمر بعهدها الإقطاعي؛ إذ كان حكامها الإقطاعيون قد وطَّدوا أقدامهم في مدنهم المسوَّرة الحصينة. وكان كل منهم يحكم مدينة أو أكثر، وينوب عنه في حكم المدن البعيدة أتباع خاضعون له. وكان يعيش هؤلاء الحكام والأمراء والأتباع في قصور فسيحة داخل أسوار مدنهم، يحتقرون عامة الشعب الذين لا يهتمون إلا بمأكلهم ومشربهم، وليس لهم أي نصيب في الثقافة والمعرفة.

وكانت الثقافة السائدة بين أهل هذه القصور ثقافة دينية في مبناها وجوهرها. فبلاط الحاكم الإقطاعي هو المكان المقدس وقِبلة أهل الورع والدين. والضرائب التي تقدم إلى الحاكم الإقطاعي هي بمثابة القرابين التي تقدم على مذابح المعابد والهياكل الدينية. وكلمة الحاكم هي الكلمة المقدسة الواجب على أفراد الشعب جميعاً طاعتها دون اعتراض أو مناقشة.

وكان الأتباع والأمراء ورجال الدولة ـ بحكم اشتراكهم في حياة البلاط الصيني ـ عليهم أن يكونوا على معرفه تامة بالطقوس والشعائر المرعية في البلاط، وأن يدركوا تماماً ما تنطوي عليه جميع الرموز والإيماءات من دلالات ومعان. وللوصول إلى هذه الغاية كان هؤلاء الأمراء والأتباع يحيطون أنفسهم بالمستشارين والمعلمين، يتلقوْن عنهم أصول هذه الطقوس والشعائر ودلالاتها المختلفة، ومن ثم نشأت من بين صغار النبلاء بالمدن طبقة خاصة، أخذت على عاتقها دراسة هذه الطقوس والشعائر دراسة مستفيضة، لكي تقوم بخدمة الأمراء والأتباع في هذه الناحية الخاصة. وأفراد هذه الطبقة هم من المعلمين والفلاسفة ورجال الأدب. ثم نشأت بعد ذلك مدارس خاصة لإعداد صغار الأتباع ونحوهم للخدمة في البلاط، أو لتولي الخدمة العامة في الحكومة. وبدأت هذه المدارس عملها متنقلة ـ أساتذةً وطلاباً ـ من بلاط إلى آخر، ثم اتسعت برامجها مع مضي الزمن، فأصبحت تشمل

الفنون العسكرية والاقتصاد والفلك والقانون وعلم الأخلاق. فغدت بذلك بمثابة جامعات متنقلة. غير أن النزاع والنقاش ما لبث أن دب بين هذه المدارس، وذلك بسبب نفوذها وسلطانها على الأمراء وكبار رجال الحكم، فكانت سبباً في قيام كثير من الفتن والقلاقل في البلاد، بل أصبحت آخر الأمر مصدر قلق وانزعاج في ربوع الصين كلها. ولم يكن غريباً ـ والحال على هذا المنوال ـ أن ضربت الفوضى أطنابها في طول البلاد وعرضها(١).

رابعاً: حياته الأسرية

عندما بلغ كونفوشيوس التاسعة عشرة من عمره، أراد أن يتزوج، فخطب امرأة ثرية وقدم لها هدية مبلغاً كبيراً وأشياء فاخرة(٢)، ولأنه كان يتمتع باحترام كبار معاصريه، فقد قدم له دوق المدينة هدية ثمينة فاخرة هي زوج من السمك نادر الوجود، يقال له "الشبوط"، وبعد عام من الزواج أنجب ولداً، فسماه (بو ــ يو)؛ أي: السمكة الجميلة، تقديراً لهدية الدوق(٣).

وقد تكون هذه التسمية (بو ـ يو) كنية لهذا الولد، أما اسمه الأصلي، فقد أطلق عليه أبوه اسم (لي) بمعنى آداب اللياقة التي كان يهتم بها كونفوشيوس كثيراً، ويدعو إلى وجوب الالتزام بها. وقيل: إن هذه الهدية أرسلت لكونفوشيوس الشاب لتقديمها بين ألوان الطعام في الحفل الذي أقيم بمناسبة ولادة ابنه. وتذهب الروايات إلى أنه قد ولد لكونفوشيوس أيضاً بنتان، وذلك قبل أن تعصف الأحداث بحياته الزوجية السعيدة(٤).

أما كونفوشيوس الذي نجح في تثقيف نفسه، وتعليم غيره، فقد أخفق في

(١) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١١٨– ١٢٠.

(٢) لا يتفق الفقر الشديد [كما سبق] مع تقديمه لزوجته مبلغاً كبيراً وأشياء فاخرة، ولكنها الأساطير الصينية!

(٣) عظماء قادة الأديان – عبد الجليل شلبي – ص ٧٧.

(٤) الحكماء الثلاثة –د. أحمد الشنتناوي– ص ١٢٨.

حياته الزوجية العائلية، ولم يستمر زواجه طويلاً، بل فارق زوجته بعد سنوات قليلة من زواجه. وقد اختلفت الأقوال في وقت الفراق بين كونفوشيوس وزوجته وسبب ذلك:

١- فقيل: "إنه فارقها بعد سنتين من الزواج لعدم استطاعتها تحمل دقته الشديدة في المأكل والمشرب"(١).

٢- وقيل: قد يكون سبب انفصاله عن زوجته هو انشغاله بمهنة التدريس والتعليم. وهذه المهنة التي أخذها على عاتقه تسبب له الغياب كثيراً عن المنزل، وعدم الاهتمام بشؤون الأسرة ومصلحة الأولاد. فلعلَّها "اشتكت طول غيابه عن المنزل، تاركاً جميع الأعباء المنزلية على عاتقها وحدها. ولعل احتجاجها كان مُنصَبَّاً بصفة خاصة على قلة ما يحصل عليه من المال من مهنة التدريس، إذا قيس الحال بما كان يحصل عليه عن طريق عمله في الحكومة، مما جعل الحياة أمامها شاقة وعسيرة، خصوصاً وأنها كانت من أسرة ثرية، وقبلته زوجاً لها على أساس وظيفته الحكومية وعراقة نسبه.

٣- وقيل: إن الطلاق قد وقع بينهما بعد أربع سنوات من زواجهما. وقد يكون ذلك بسبب طول حزن كونفوشيوس على وفاة أمه، ومبالغته في هذا الحزن، إلى درجة أنسته بيته وزوجته وأولاده. "وقد كانت عادة الصينيين وتقاليدهم تقضي باعتزال الشاب الحياة مدة طويلة عند وفاة أحد والديه. ومعلوم أن كونفوشيوس كان شديد التمسك بتلك التقاليد والعادات الصينية القديمة، والواقع أن وفاة أمه قد تركت في نفسه أثراً عميقاً لا يُمحى، مما جعله يتصرف تصرفاً ألحق الضرر بزوجته؛ لأنه انصرف عنها كليةً، وتفرغ لحزنه الطويل على أمه... وقد يكون كونفوشيوس قد أهمل واجبات أمه بعض الشيء وهو في غمرة النشوة بالزواج، ثم بإنجاب الأولاد، ثم لما توفيت أمه أخذ ضميره يؤنبه على ما بدر منه، فسلك هذا

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ــ ص ٤١٧.

المسلك تكفيراً عن خطئه، ولكنه أدى في آخر الأمر إلى انفصاله عن زوجته"(١).

٤- وقيل: إنه عاف الزواج وهو في الثالثة والعشرين، وحقد على النساء من خلال تجربته معهن...(٢).

"وعندما انتهت أيام الحداد التي كتبها كونفوشيوس على نفسه، وحددها بثلاث سنوات، لم يعد إلى وظيفته الحكومية. بل مضى في دراسته، وبدأ يعلم التلاميذ هذه المرة كوسيلة لكسب العيش، وانتشرت شهرة كونفوشيوس كمعلم عظيم... وأخذ تلاميذه يزدادون يوماً بعد يوم، حتى إذا بلغ الرابعة والثلاثين من عمره، أصبح له أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ ومريد"(٣).

ووجد كونفوشيوس في هؤلاء التلاميذ والمريدين عِوَضاً عن زوجته التي لم تواصل معه مشوار الحياة، ولم تشاركه نجاحه وشهرته(٤).

خامساً: من صفاته وأخلاقه

كان كونفوشيوس يوصف بأن له قلباً رقيقاً، وعقلاً يفيض بالعلم والحكمة، كما أن له وجهاً ينم عن الجد والرهبة، ولم يكن يتورع من أن يعلم الكسول بضربه من عكازه، وبطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة. ويروى عنه، إلى جانب ذلك، بأنه كان يسلك سبيل التواضع والمجاملة، كما قيل أيضاً بأنه ما من موضوع إلا سمع به. وكان يتمتع بذاكرة قوية، بحيث لا ينسي ما يسمع، وكان علمه بالأشياء لا ينضب. وكان شديد المراعاة للمراسم، بشكل كان يؤمن معه بضرورة عدم الاختلاط بالتلاميذ؛ لأن في ذلك إعاقةً لنجاح التعليم. وكانت قواعد الآداب والمجاملة محلَّ اهتمامه الأول. وكان يبذل كل الجهد للحد من الغرائز والشهوات،

(١) الحكماء الثلاثة - د. أحمد الشنتناوي - ص ١٢٨-١٢٩ بتصرف.

(٢) كتب غيرت الفكر الإنساني - أحمد محمد الشنواني - سلسلة الألف كتاب (الثاني) ٨٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٠ - ص ٢١.

(٣) قصة الديانات ـ سليمان مظهر ـ ص ١٧٩ بتصرف.

(٤) الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٤٥- ٤٨ بتصرف.

بعقيدته المتزمتة الصارمة. وقال عنه تلاميذه بأن "المعلم كان مبرَّأً من أربعة عيوب: كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرر، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن عنيداً أو أنانياً". كما قيل عنه بأنه كان شديد الرغبة في حسن السمعة والشهرة، والرغبة في الحصول على المناصب الرفيعة. وقد قال كونفوشيوس في هذا الصدد متباهياً: "لو وجد من الأمراء من يوليني عملاً، لقمت في اثني عشر شهراً بأعمال جليلة، ولبلغَت (الحكومة) درجة الكمال في ثلاث سنين"(١).

كما قيل عنه: إنه كان هيِّناً سهلاً في سلوكه، يبدو على سيماه البهجة والمرح. وكان حَسَن المعشر ولكن في حزم، عزيز النفس دون تعال، مترفِّعاً مع العزوف عن استغلال من هم دونه. وهو القائل: "الاكتفاء بتناول الطعام الغليظ، وشرب الماء القراح، والاضطجاع على وسادة عالية يبعث في النفس البهجة والسعادة، إن الثروات ومراتب الشرف التي تُنال بوسائل غير مشروعة هي عندي كالسحب التي تسوقها الرياح"(٢).

كما قيل عنه: إنه دمث، ومرح، ومؤدب، ويحب النكتة، ويتأثر لبكاء الآخرين، وقد كان تأثُّره عجيباً، وإذرافه للدموع سريعاً عندما كانت تمر به جنازة، وقد بكى أحدَ تلاميذه المفضَّلين عندما توفي بكاءً مراً...(٣).

وكان كونفوشيوس: "طويلاً، دقيقاً في المأكل والمشرب والملبس، مولعاً بالقراءة والبحث والتعلم والتعليم والمعرفة والآداب، وكان أكثر ما يقلق باله أن تأتي ظروف تَحوُل بينه وبين الاطلاع، وكان يقول: إنه ليس شخصاً ولد عارفاً للحقيقة، ولكنه شخص لا يملُّ القراءة والتعلم والبحث، والوصول إلى المعرفة ما وجد إلى ذلك

---

(١) قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤ - ص ٤٤.

وانظر: كتب غيرت الفكر الإنساني - أحمد الشنواني - ج ١ - ص ٢١.

(٢) حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١- ص ٨٦.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني- د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٧ بتصرف.

سبيلاً". وكان كونفوشيوس خطيباً بارعاً، لا يميل إلى الثرثرة، وعباراتُه موجزة تجري مجرى الأمثال القصيرة والحِكم البليغة. وكان يجلس إلى تلاميذه ويحادثهم ويستمع إليهم، ولا يوبخ رأياً ولا رغبةً لأحدٍ منهم. وكان كونفوشيوس يميل إلى فن "النكتة"، وكانت موهبته في هذا المجال لا تُبارى، وانتقلت منه إلى تلاميذه(١).

تواضعه:

ومن أخلاقه: التواضع، وعدم الزهو بنفسه، يقول:

"كيف أستطيع أن أشبِّه نفسي بالحكيم، أو بالرجل الذي يعمل الفضيلة؟ إن كل ما أستطيع أن أقوله عن نفسي هو أنني أقهرها على محاولة مساواتهم بدون ملل، وعلى تعليم الآخرين دون انفكاك"(٢).

عطفه ورحمته:

وكان كونفوشيوس شديد العطف على الحيوان، لدرجة ربما تثير الضحك، حتى إنه "كان" لا يتخذ إلا الملابس المصنوعة من الكتان، على الرغم من انتشار الأقمشة الحريرية، وعندما سأله أحد تلاميذه في ذلك قال: "أنا لا أستبيح لنفسي أن أقتل دودة القز لأستولي على نسيجها وأصنع منه ردائي".

وسأله تلاميذه: لماذا لا تشرب اللبن ؟ فأجاب:

"لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والسائمة".

وقال لتلاميذه ذات مرة: "أنا أفخر بأني لم أستعمل قط شبكة لصيد السمك، ولم أرم طائراً بسهم، إلا إذا كان هذا الطائر محلقاً في الفضاء، حتى تكون لديه فرصة الهرب أو النجاة"(٣).

وكان يظهر عطفاً شديداً على معاناة البشر، مقروناً بالتعبير العملي عنه؛ إذ كان

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني- د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٨، ٢٠، ٢٢. بتصرف.

(٢) الفلسفة الشرقية - د. محمد غلاب - ص ٢٥١.

(٣) قصة الديانات - سليمان مظهر - ص ١٨٢.

يمقت العواطف النظرية، ويفضل أن يكون تعاطفه مع الآخرين عملياً. فقد حدث أن عانى واحد من أصدقائه من خسارة شخصية، وكان أن سارع كونفوشيوس إلى نجدته بإهداء أسرته جواداً من جوادَيْ عربته، وقال في ذلك: "إنني أكره فكرة ألا تكون دموعي يعقبها تعاطف عملي"(١).

عنايته بمظهره ومأكله:

وكان شديد العناية بهندامه، والتحلّي بكل ما من شأنه أن يحافظ على كرامته، فلم يكن يجلس على حصير قذر، أو يأكل طعاماً غير طازج، كما كان متأنقاً في ملبسه، حتى إنه كان يعد مجدداً في فن الملبس، يقلد الجميع ذوقه، وانتقل هذا الميل منه إلى أولاده وأحفاده الذين سلكوا مسلكه، وكذلك تلامذته من بعده، الذين نسجوا على منوال أستاذهم(٢).

شدته على المنافقين:

كان كونفوشيوس شديد القسوة على المنافقين، أصحاب الوجهين، الذين وصفهم بأنهم "لصوص الفضيلة"، وكان يسخر من الحكام والموظفين الذين جعلوا همهم الوحيد هو ملءَ بطونهم بالطعام، وكان ينعتهم بأنهم "حقائب أرز". وقال لتلاميذه عنهم ذات يوم: "ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء... لا يتواضع في شبابه التواضعَ الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيرُه، ثم يعيش إلى أرذل العمر، إن هذا الإنسان وباء"(٣).

ومن أقواله، أيضاً:

"لا يقلقني في حياتي إلا الأمور الآتية: أن أنسى تقويم سلوكي وأخلاقي، وأن

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ٥١.

(٢) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٨ بتصرف.
انظر: الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٥٣ -٥٤.

(٣) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ٥١.

أهمل دراساتي، وأن أخفق في اتِّباع الطريق السليم الذي عرفته ورأيته، وأن أعجز عن تصويب أخطائي... إن الذي لا يصلح خطأه وقد عرفه، إنما يرتكب خطأً جديداً"(١).

سادساً: عقيدته وعبادته

عقيدته لم تتجاوز عقيدة الصينيين القدماء، المتمثلة في السماء، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء، وأرواح الآباء (٢). وكانت عبادة الجدود والأضاحي في نظره واقعاً أساسياً...(٣) وبالرغم من تأثير كونفوشيوس الجسيم وأهميته الهائلة، لا نجد في مجرى حياته شيئاً غير عادي، ولا نقع ـ عند بحث سيرته ـ على أحداث غير مألوفة...(٤).

كما عُدَّ كونفوشيوس من القلائل الذين (وهبوا أنفسهم) لهداية الناس وإرشادهم، وهذا هو المعنى الذي يفهمه الصينيون من كلمة نبي أو رسول، وهو بهذا كان نبياً عند الصينيين. وقد أخذ يؤلف الكتب وينشر تعاليمه، منتقلاً من ولاية إلى أخرى، حتى أطلق عليه معاصروه: (معلم الجنس البشرى)، بل أعظم معلم عرفه العالم ـ عند الصينيين ـ الذين عدوا كتابه (المنتخبات) أو (الحوار) كتاباً مقدساً.

فقد كان حكيماً أكثر منه رجل دين، وكان لديه من الشعور الديني ما أدى به إلى المداومة على أداء الشعائر والطقوس الدينية، وكان يعترف دائماً بأنه يعبد الإله الأعظم، أما الآلهة الأخرى، فهو على غير معرفة بهم، ولم يكن يتثبت من حقيقة الآراء الدينية التي يستطيع الإنسان أن يبرهن على صحتها بشكل قاطع، كما كان يؤدي الصلاة وهو صامت لا ينطق بالكلمات، على غير عادة الناس في عصره،

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ٥٢.

(٢) معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ٢٦٨.

(٣) فلاسفة إنسانيون – كارل ياسبرس– ت: عادل العوا – ص ١٥٩.

(٤) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص ٦٥.

وكان يكره أن يصلي أو يرجو الإله أن يشفيه، أو أن ينعم عليه بنعمه، أو أن يغفر له بصوت أو مراءاة؛ إذ إن الصلاة - فيما يرى - غايتها تنظيم سلوك الأفراد والتأليف فيما بينهم، كما يرى في الدين كله هذا الرأي، ويقول في هذا المعنى: إن الفرد الذي يرتكب خطأ ضد السماء لن يجد من يغفر له زلّته، فالصلاة عنده لا تمحو ذنباً... وقد أوجب الاستحمام قبل الصلاة[١].

يقول الأستاذ محمد مكين[٢] عن كونفوشيوس: ويحترمه الصينيون احترام المسلمين لأنبيائهم - عليهم السلام - ويبنون له الهياكل في البلدان، ويقدمون إليه القرابين، ولذلك تعد مبادئه ديناً من أديان الصين. ولم يكن في الحقيقة مليًّا؛ فإنه لم يدّع النبوة، ولم تصدر عنه معجزات كالأنبياء عليهم السلام؛ ومصداق ذلك ما ورد في كتاب "الحوار" نفسه أن بعض تلاميذه سأله عن الأرواح والممات، فقال: "لم نقدر على خدمة الأحياء، فكيف نقدر على خدمة الأموات، ولم نعلم الحياة، فكيف نعلم الممات؟"[٣].

سابعاً: طلبه للعلم

نجد أساطير كثيرة كلها تشهد بطموح هذا الشاب، وسعيه إلى طلب العلم والمعرفة. وتذكر الروايات أن كونفوشيوس كان يسهم، وهو في الرابعة عشرة من عمره، في تعليم أقرانه من الصبيان؛ لأنه كان قد وعى، وهو في هذه السن، كل ما يستطيع المعلم تلقينه للتلاميذ. غير أنه لم ينصرف كلية إلى تحصيل العلم دون شيء آخر من شؤون الحياة، بل إنا نعلم مما وصل إلينا من تاريخ حياته أنه كان صياداً ماهراً، كما أجاد قيادة المركبات على اختلاف أنواعها، وكان موسيقياً...

(١) الإسلام والمعتقدات الدينية القديمة - أحمد إسماعيل - ص ١٢٦ - ١٢٧ بتصرف.

(٢) من علماء المسلمين في الصين، ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية، كما ترجم كتاب الحوار إلى اللغة العربية. له العديد من المؤلفات عن الإسلام والمسلمين في الصين، وسيأتي المزيد عنه بإذن الله.

(٣) نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين - محمد مكين - ص ١٤.

كما كان يعمل في غير أوقات الدرس أعمالاً تدر عليه بعض المال يستعين به على تدبير شؤون أسرته. فقد توفي أبوه بعد مولده بثلاث سنوات، فاضطر هذا الشاب ـ وهو بعد في مرحلة التعلم ـ إلى كسب معاشه عن طريق العمل. بل إن لحوم الطير والأسماك التي كان يصيدها بنفسه كانت تؤلف ركناً مهماً من الأطعمة التي تقدم على مائدة أسرته.

والواقع أن كونفوشيوس لم يدخر وسعاً في سبيل زيادة دخل أسرته، والعمل على إسعادها بمختلف الوسائل(١) ولقد وصف كونفوشيوس نفسه بأنه وقتما كان شاباً يافعاً، كان "لا شأن له ولا مكانة، يعيش في ظل ظروف ذليلة". فكان عليه أن يعمل ليقيم أوده في حِرَف أغلبها حقير وضيع، إلا أنه دأب على تثقيف نفسه ذاتياً(٢).

تعلقه بالمعرفة

انصرف الغلام كونفوشيوس منذ حداثته إلى الدرس والبحث، وخصوصاً دراسة آداب القدماء؛ فدرس كتب السابقين في التاريخ، والتغيرات التي تطرأ على الأرض ومَنْ عليها، كما درس الموسيقى. وقد اهتم كثيراً بالتعلم على أشهر كتب التراث الصيني. وهو المعروف بكتاب "التغيرات". وقد استمر سنين عديدة يدرسه، وبلغ من إعجابه به أن قال: "أعطني سنين قليلة أكثر لأدرس هذا الكتاب، وأنا أستطيع أن أكون عالماً فيلسوفاً، خبيراً بحوادث التغيرات في الطبائع الإنسانية "كما درس كذلك فروع المعرفة الستة التي كانت سائدة في عصره؛ وهي: الطقوس أو الرسم، والموسيقى، والرماية، وقيادة العربات، والقراءة، وأخيراً الرياضة أو الحساب(٣).

وقد تقلب في المناصب الحكومية (وقتما كان يعمل فيها) بكفاءة نادرة، وكان خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً في أحوال بلاده، ويكوِّن فلسفته

(١) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص١٢١.

(٢) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص ٦٥.

(٣) فلاسفة أيقظوا العالم – د. مصطفى النشار – ص ٥٣ بتصرف.

الاجتماعية والسياسية، ويحزنه ما آل إليه الحال في بلاده، فهجر الوظيفة الحكومية في نهاية الأمر، وانقطع إلى وظيفة التعليم، وجلس للناس يعلمهم الحكمة والفلسفة، وعلا شأنه، وكان تلاميذه من العلماء المبرزين، ونظروا إليه نظرة إكبار وإجلال واحترام تكاد تفوق عبادة الأبطال الأفذاذ، وفي هذا دليل على علو كعبه في التعليم والحكمة(١).

ومن أكثر الأعمال التي كان لها تأثير كبير عليه: عمله في مخازن القصور، التي يتم فيها حفظ المخطوطات والوثائق التاريخية. وقد أتاح له ذلك فرصة الاطلاع على الكثير من تراث شعبه. وقد واصل طلب العلم حتى بلغ الثلاثين من عمره، عندئذ شعر وكأنه يقف على أرض ثابتة. وفي هذه المرحلة بدأ يتجول خارج مقاطعته حيث إنه كان شديد الطموح نحو إصلاح الأوضاع القائمة بعد الانتهاء من سنوات الدراسة. وقد رأى أنه في الإمكان الوصول إلى تحقيق نموذج الحكومة الصالحة في الواقع، وذلك باتباع تعاليمه، إلا أنه قد أدرك أن ذلك لن يتحقق من دون توليه منصباً سياسياً يتمكَّن من خلاله من إخراج تعاليمه إلى حيِّز التنفيذ. ولعل هذا كان من أهم الأسباب التي دفعته إلى التجول بين المقاطعات المختلفة بحثاً عن الحاكم الذي يمنحه المنصب لإصلاح المجتمع. وكانت رحلاته دائماً تواجَه بالإخفاق، فقد كانت المناصب المهمة آنذاك وقفاً على أعضاء الطبقات الأرستقراطية(٢).

وأُثِر عنه أنه وصف نفسه بأنه مجرد ناقل وليس مبدعاً، وأنه يتحمس كثيراً لقدماء المفكرين، وكان يؤْثِر الاطلاعَ على الطعام والنوم، وكثيراً ما أمضى أياماً وليالي يستزيد من المعرفة، متغاضياً عن طعامه وراحته. وكان يبدي تصميمه على العمل على إزالة شرور أربعة عدَّها أمهاتِ الكبائر: عقلية مغرضة، وأحكام جائرة،

(١) أديان العالم الكبرى – حبيب سعيد – ص ٤٢.

عظماء قادة الأديان – عبد الجليل شلبي – ص ٧٧.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص٢٥ بتصرف.

والعناد، والأنانية. كما كان يقدس الحقيقة، وفي هذا يقول: "أولئك الذين يدركون الحقيقة لا يصلون إلى مرتبة أولئك الذين يحبونها، لكن من يحب الحقيقة لا يرقى إلى مرتبة من يفرح بها"(١).

اهتمامه بتطبيق ما تعلمه

بدأ بالتعليم وهو في الثانية والعشرين من عمره؛ حيث درس التاريخ، والشعر، وآداب اللياقة. وانتهج في تعليمه أسلوب الشفاهة، مثلما فعل سقراط اليونان. وتحلّق حوله العديد من التلاميذ، حتى إنه فاخَرَ في أواخر حياته، بأن أكثر من ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله، ليشغلوا مراكز مهمة في الصين(٢). كما تمنى كونفوشيوس أن يستعين به أحد الأمراء في حكم دولته، وكان يؤكد لمستمعيه أنه بعد مضيٍّ عام واحد يتم ـ بفضل آرائه ـ إصلاح الكثير من الأخطاء، وبعد انقضاء ثلاثة أعوام يتم إنجاز جميع ما يقتضيه الحكم من إصلاح. وفي مجلس ضم طائفة من مريديه، تنهد، وقال: ليس هناك من يعرفني. فسأله أحدهم عن السبب، فأجاب: إنني لا أجأر بالشكوى ضد الشعائر، ولا ألقي باللوم على الناس. إن مطالعاتي ودراساتي ـ وإن كانت متواضعةً ـ تخترق أعلى مكان، ولعلي ـ قبل كل شيء ـ معروف لدى السماء(٣).

ثامناً: مدرسة كونفوشيوس

كانت المدارس وقتذاك ملحقةً بقصور الأمراء والحكام، ويلتحق بها أبناؤهم لتؤهلهم لشغل الوظائف الكبرى، واقتصر أسلوب الدراسة فيها على تدريب الطلاب على تنفيذ الأعمال التي يرتئيها الأمراء والحكام(٤).

(١) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص ٨٧ بتصرف.

(٢) ولا ندري هل كان هذا أثناء تقلبه في المناصب الحكومية إلى سن الحادية والخمسين، كما سيأتي، أم أنه كان متفرغاً. لكن متى كان هذا التفرغ؟ لا ندري.

(٣) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١– ص ٨٧.

(٤) المرجع السابق – ج١– ص ٦٦ بتصرف.

وكانت أول مدرسة حرة خاصة في التاريخ الصيني مدرسة كونفوشيوس، والتي منها نشأت طبقة جديدة ثالثة بين الشعب والحكام، تعمل على تنبيه الحكومة إذا خرجت عن الحدود المرسومة والقوانين العامة، وتساعد الشعب لتيسّر له الحصول على العلم والحكمة. وكان من مميزات هذه الطبقة الجديدة: أنها لم تنغمس قط في أي نشاط غير هذا النشاط المرسوم لها... وقد نجح كونفوشيوس - فيما بعد - في رفع هذه الطبقة إلى مكانة مرموقة، لها نفوذُها وأثرها في الحياة الصينية(١).

البداية من البيت

في سن الثانية والعشرين من عمره قرر كونفوشيوس الاشتغال بالتعليم، واتخذ من بيته مدرسة، يلقي فيها الدروس على مريديه من مختلف الأعمار، ومن جميع أنحاء إقليم (لو) ومن الأقاليم البعيدة عنه. وقد أخذ على نفسه تعليم تلاميذه ومريديه موضوعات التاريخ والشعر وآداب اللياقة والموسيقى، بصفة خاصة، والتي كان يؤمن بتأثيرها الفعَّال في الصقل الأخير لشخصية الإنسان. وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون دفعه من مصروفات تحدَّد على أساس قدرة التلميذ على الدفع. وكان لا يقبل في مدرسته إلا التلاميذ الذين يجد عندهم ميلاً صادقاً إلى هذه الدراسات، وشغَفاً بالعلم والمعرفة(٢).

مقررات الدراسة

كانت برامج الدروس التي يلقيها كونفوشيوس على تلاميذه تشمل: الموسيقى والشعر، والتاريخ، والآداب والتربية الوطنية والأخلاق، وقليل من العلوم التي كانت معروفةً إلى ذلك العهد. وقد استبعد من برامجه الدراسية: الموضوعات المتصلة بتمجيد البطولات الجسمانية والأعاجيب والثورات وخوارق الطبيعة. كما

---

(١) الحكماء الثلاثة - د. أحمد الشنتناوي - ص ١١٤ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ٤٥.
وقصة الديانات - سليمان مظهر - ص ١٩٢.

كان نادراً ما يتحدث عن الكسب المادي، أو القضاء والقدر. وكان يُعنى عنايةً خاصة بالتربية الوطنية ونظام الحكم، وما يجب أن تكون عليه الحكومة الصالحة والحاكم الصالح. لذلك كان يؤثر بعنايته الخاصة كل تلميذ تظهر عليه علامات النجابة في هذا الفن (أي فن الحكم). وقد ذكر سابقاً أنه كان يدرّس ما يسمَّى في عصره بالفنون الستة؛ وهي: الطقوس أو الرسم، والموسيقى والرماية، وقيادة العربات، والقراءة، وأخيراً الرياضة أو الحساب(١).

طريقته في التدريس

كان يضع أمام تلاميذه أمثلةً حية من أخلاق الحكماء والملوك السابقين، أو من المأثورات الدينية العالية، أو القصائد الشعرية المفعمة بالفضيلة، أو الحوادث التاريخية والمواقف المهمة فيها(٢). كما أنه لم يعتمد على التلقين فقط، بل على طريق البحث الشخصي الذي يتدرج من المحسوسات إلى المعقولات، ويصعد من الماديات إلى المعنويات (٣).

وكان من المعلمين الجوَّالين، يتنقل من بلد إلى آخر، وحوله عدد من التلاميذ والمريدين، يستوحون آراءه وتعاليمه. وكان يحرص على الاتصال الشخصي بهم.. وكانوا يستفيدون من الأحداث التي تمر بهم..(٤).

وكان يعمل على شحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق، ويطلب منهم شدة اليقظة والانتباه.. وكان يقول: "إذا لم يكن من عادة المرء أن يسأل نفسه: ماذا أرى في هذا الشيء ؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً".

وكان كونفوشيوس معلماً من الطراز الأول، يعتقد أن البعد عن تلاميذه وعدم الاختلاط

---

(١) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١٢٩– ١٣٠ بتصرف.

والأديان الحية نشوؤها وتطورها – أديب صعب – ص ٨٤.

(٢) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية – د. علي معبد ص ١٣٢ بتصرف.

(٣) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٢٥٥ بتصرف.

(٤) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١٢٦ بتصرف.

بهم ضروريان لنجاح التعليم. كما رأى ضرورة تعليم الشعب عن طريق وضع فلسفة التعاليم الصينية في صورة قواعد مبسطة يسهُل على العامة استيعابها وإدراكها(١).

تلاميذه

بلغ عدد الذين تلقوا منه الحكمة وتخرَّجوا على يديه ثلاثة آلاف تلميذ ومريد - كما ذكرت سابقاً - من بينهم حوالي اثنان وسبعون كان كونفوشيوس يصفهم "بأن لهم مواهب عظيمة وعقليات جبارة". وقد شغل الكثير من هؤلاء العباقرة مراكزَ قياديةً في الدولة. كما كان لهؤلاء التلاميذ أثر كبير في نشر مذهبه في البلاد، حتى صار مذهباً رسمياً منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن العشرين، يضاف إلى ذلك قيامهم بصياغة فلسفته على الصورة التي نقلت بها إلى العالم الحديث(٢).

تاسعاً: كونفوشيوس والفيلسوف (لاو- تس)

وقد حدث لكونفوشيوس، بعد ذلك، أن التقى في إحدى أسفاره بأشهر فلاسفة الصين القدامى، وهو الفيلسوف (لاو - تس)(٣) صاحب كتاب (الطريق

(١) قصة الديانات - سليمان مظهر - ص ١٩٦ - ١٩٧ بتصرف.
وانظر: كتب غيرت الفكر الإنساني - أحمد الشنواني - ج ١ - ص ٢٠.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني - ص ٤٦.

(٣) هو صاحب النِّحلة الصينية التي تعرف في الصين بـ(الطاوية). ولد في إمارة (جشوو) قبل كونفوشيوس بأكثر من خمسين سنة. وقد عمل مؤرخاً في الديوان الملكي لمدة من الزمان، ثم ترك عمله وخرج من الصين إلى حيث لا يعرف أحد، وذلك لما شعر بأن الصين قد دخلت في فترة خطيرة من التاريخ لا نجاة منها. فاعتزل في آخر حياته، وعكف على حياة الزهد والتأمل الفلسفي، وقبل خروجه من أرض الصين ترك عند محافظ ثغر الحدود الصينية الغربية كتاباً باسم "داو ده جينغ" (الطريق إلى الفضيلة) الذي أصبح الوثيقة العلمية الوحيدة عن الرجل نفسه، ومذهبه وفلسفته. ويشتمل هذا الكتاب، الذي أصبح أهم كتاب مقدس في الديانة الطاوية، على ثمانين فصلاً من الحِكَم والنصوص الفلسفية. ويعد هذا الكتاب من أول الأسرار الثلاثة بين الكتب الصينية القديمة مع كتاب (جشوانغ تس)، وهو ثاني الكتب الطاوية المقدسة، وسفر التغيرات للكونفوشيوسية. (المعجم المحيط الصيني- ص ١٢٣٥).

إلى الفضيلة)، وكان وقتذاك في السابعة والثمانين من عمره، ويقيم منفياً في (تشو) عاصمة الإمبراطورية الصينية. أما عمر كونفوشيوس، فكان أقل بكثير من نصف عمر (لاو - تس)، وقد تأثر كونفوشيوس الشاب كثيراً بمبادئ فلسفة هذا الفيلسوف، الذي ذهب إليه في آخر حياته ليستشيره في أقوم السبل لكي يكون الإنسان رائداً ناجحاً في هذه الحياة. فكانت إجابة (لاو - تس) فظّة غامضة قصيرة:

"إن الذين تسأل عنهم قد أصبحوا عظاماً نخرة، ولم يبق إلا ألفاظهم. وإذا حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره ليرتقي قمّة الريادة. أما قبل أن تحين هذه الساعة، فإن جميع العقبات تعترض طريقه. ولقد سمعت أن التاجر الناجح يحرص على إخفاء ثروته، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، وأن الرجل العظيم بسيط في سلوكه ومظهره، رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال. فتخلَّصْ من كبريائك ومطامعك الكثيرة، وابتعد عن التصنع والأحلام والآمال العريضة التي لا سبيل إليها، فلن تنال شيئاً من هذه الأمور كلها، وهي أمور لا تشرِّفك قط، ولا ترفع من أخلاقك. هذا ما أشير به عليك لكي تظل رجلاً صالحاً، لا لكي تصبح رائداً عظيماً"(١).

ويقول المؤرخ الصيني الذي يروي هذه القصة: إن كونفوشيوس أحسَّ من فوره بسداد هذه النصيحة، ولم ير في هذه الألفاظ ما يسيء إليه، بل لقد أعجب بها إعجاباً شديداً، تعبِّر عنه هذه الكلمات التي قالها لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر:

"إني أعرف كيف تطير الطيور، ويسبح السمك، ويجري الحيوان. كما أعرف أيضاً كيف يمكن أن يقع العدَّاء في الشَّرَك، وكيف يمكن صيد السباح بالشِّصِّ،

---

(١) قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤ - ص ٣٨.

وأعلام الفلاسفة - د. هنري توماس - ت: متري أمين - ص ٤٨-٤٩ بتصرف.

وكيف يمكن إصابة الطائر بالسهام. غير أن هناك شيئاً واحداً لا أعرفه: وهو كيف يركب التنين متن الرياح ويخترق السحاب، ثم يصعد إلى السماء؟ لقد قابلت اليوم (لاو – تس)، ولا أستطيع أن أجد له مثيلاً غير التنين"(١)!!.

ولقد كان الحكيم الصيني (لاو – تس) المعاصر لكونفشيوس هو أولَ من قال: إن الإنسان عليه أن يرد الإساءة بالإحسان. غير أن كونفوشيوس لم يرض عن هذا المبدأ؛ إذ كان من رأيه أن يكون الجزاء من جنس العمل؛ فقد قال: (رد الإساءة بالعدل ورد الإحسان بالإحسان).

وتذكر بعض الروايات من ناحية أخرى أن (لاو – تس) قد انتقد كونفوشيوس أثناء مقابلته له؛ لأن كونفوشيوس كان يهتم ـ كما ذكرنا من قبل ـ بالتقاليد القديمة التي أُثِرت عن حكماء الصين الأقدمين، وكان يعمل جهده على إحياء هذه التقاليد، كما كان يأمل من ناحية أخرى أن يجد عند (لاو – تس) ما يعينه على إدراكها إدراكاً صحيحاً، ولكن هذا الفيلسوف العجوز قال له: "إن الرجال الذين تتحدث عنهم قد ماتوا، واستحالت عظامهم إلى تراب، فاصرف النظر عن مسعاك لإحياء سنن الآباء والأجداد"(٢).

عاشراً: تقلب كونفوشيوس في المناصب الحكومية

عمل كونفوشيوس في عدة مناصب حكومية، ومن ذلك:

١– منصب خازن الحبوب: فعندما بلغ السابعة عشرة من عمره عُيِّن خازناً للحبوب في إقليم "لو" الذي كان يعيش فيه، وكان أولَ منصب حكومي شغله، فأدخل عليه الكثير من التحسينات.

---

(١) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج٤ – ص ٣٨–٣٩.
وأعلام الفلاسفة – د. هنري توماس – ت: متري أمين – ص ٤٩–٥٠ بتصرف.
انظر: المرجع في تاريخ الأخلاق – محمد عبد الرحمن مرحبا – ص ٢٥٦.
وكتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفوشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص٥٤.
(٢) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١٣٢– ١٣٤ بتصرف.

٢- منصب قاضي القضاة: فقد فكر الناس في مدينة "شانجتو" في علاج الشر الذي يحيط بهم، والفساد الذي يتغلغل في ربوعهم، ولم يجدوا إلا أن يكون الحكيم كونفوشيوس قاضياً للقضاة على هذه المدينة، فاستقامت الأمور في المدينة بعد ذلك، واختفت الخيانة واستحت أن تطل برأسها، وأعجب المجاورون بأحوال تلك المدينة السعيدة(١).

٣- منصب وزير الجريمة: بتوليه لهذا المنصب بدأ يدرس أحوال المسجونين، وأسباب سجنهم، فوجد أن الفقر والجهل هما أكبر العوامل التي تؤدي بالناس إلى الجريمة، فخلص إلى وجوب القضاء على الجهل والفقر. "وسأله أحد القضاة: وكيف نقضي على الفقر والجهل؟ أجاب كونفوشيوس: طريق القضاء على الجهل هو التعليم، فإذا علَّمنا جميع الناس قضينا على الجهل، ونستطيع القضاء على الفقر بتعليم الناس الصناعات والحرف، بحيث يمكن أن يكسبوا عيشهم بشرف"(٢).

٤- وبعده تقلد عدة مناصب وزارية ـ كوزارة العدل، ووزارة الأشغال العمومية ـ نتج عنها شيوع العدل، والشرف والأمانة، وزيادة رقعة الأرض الزراعية، وتحسّن إنتاجيتها.

٥- منصب رئيس الوزراء: في سنة ٤٩٦ قبل الميلاد، رُقِّي كونفوشيوس إلى وظيفة رئيس وزراء الدوق "كنج". ولقد سُرَّ كونفوشيوس لهذه الترقية سروراً لم يستطع أن يخفيه عن تلاميذه، وعندما لحظ أحد هؤلاء سروره بالمنصب، قال له: "إنني سمعت أن الرجل المهذب لا يحزن عند نزول المصائب كما لا يفرح بالنجاح، فرد كونفوشيوس قائلاً: هل هذا صحيح؟ أمَا قيل: إن الإنسان يسعد عندما يرتفع إلى درجة فوق درجة عامة الناس"؟

(١) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوى – ص ١٢٥.
وقصة الديانات – د. سليمان مظهر – ص ١٨٣.

(٢) قصة الديانات – د. سليمان مظهر – ص ١٨٤ بتصرف.
والتفكير الديني في العالم قبل الإسلام – د. رؤوف شلبي – ص ١٠١ – ١٠٢ بتصرف.

وما إن تولى هذا المنصب حتى قام بإعدام بعض الوزراء ورجال السياسة السابقين، الذين كان يعتقد أنهم سرُّ الشغب وسبب إثارة الاضطراب في البلاد[1]. وكان وقتذاك في السنة الحادية والخمسين من عمره. وقد مكَّنه هذا المنصب الجديد من أن يترجم مبادئه عملياً، وأن يحقق أفكاره، وكان نجاحه ساحقاً. وفي ذلك تقول السجلات الصينية: "لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يُطِلاً برأسيهما واختفيا، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمةَ الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمةَ النساء. وجاء الأجانب زرافاتٍ ووحداناً من الولايات الأخرى، وأصبح كونفوشيوس معبودَ الشعب"[2].

عندما استقامت الولاية في طريق التقدم والبناء، كانت هذه الحال مما يقلق بال أهل ولاية "تشي إي"... وكانت في نزاع دائم مع ولاية "لو"، فخافوا من تحول ولاية "لو" إليهم واحتلالها لهم. فأرسلوا مكيدة لدوق ولاية "لو" يصرفوا بها وجهه عن تعاليم كونفوشيوس وآرائه، تمثَّلت هذه المكيدة في: ثمانين فتاة من أجمل الفتيات الراقصات، وألبسوهن أجمل الملابس وأكثرها إثارة، ومعهن مائة وعشرون جواداً (حصاناً) تفوق الفتيات جمالاً. ورقصت الفتيات وتسابقت الخيول، وشغل الدوق بهذا اللهو والمرح عن كونفوشيوس وتعاليمه، ولم يستطع كونفوشيوس مقابلة الأمير العابث اللاهي!! وبعد فترة عاد الإقليم إلى الفقر والجريمة مرة أخرى[3].

فأصيب كونفوشيوس بقنوط بالغ، وقرر الرحيل بعد أن قضى سنوات خدمة رائعة، ولكنه قبل رحيله قال كلمات نابعة من الموقف الذي عجَّل برحيله، ومعبِّرة عن تفضيل البعض الجمالَ على الواجب والكمال، فقال:

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ٩ بتصرف.

(٢) انظر: الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي – د. جمال المرزوقي – ص ٢٤٥.

(٣) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١٢٥.

وأديان العالم الكبرى. حبيب سعد – ص ٤٢. وقصة الديانات – سليمان مظهر – ص ٢٠٦.

احذر لسان المرأة، إنك ستلدغ إن عاجلاً وإن آجلاً
واحذر زيارة المرأة، إنها ستصيبك إن عاجلاً وإن آجلاً
هي هو !! هي هو !!
إنني سأرحل إلى مكان آخر(١).
ثم غادر ولاية (لو) علّه أن يجد في الولايات الأخرى من يتبنّى فكره.

الحادي عشر: التنقل والترحال

منذ أن غادر كونفوشيوس ولاية (لو)، أخذ يرتحل من بلد إلى بلد حتى أواخر حياته. حتى قيل: إنه لم يُقِمْ في بلد أكثر من ثلاثة أعوام (٢)، وقضى ما تبقّى من حياته متنقلاً بين الولايات الصينية، داعياً إلى وحدتها، وإصلاح ما فسد من أمورها، فقد رحل إلى ولاية "واي"، فعيَّنه حاكمها، وأعطاه المرتَّب نفسه الذي كان يتقاضاه في "لو"، ولكن خصومه ثاروا ضده، ما جعله يرحل إلى ولاية "تشن" حيث استقر ثلاث سنوات، رحل بعدها عائداً مرة أخرى إلى ولاية "واي"، طامعاً في العودة إلى الحكم مرة أخرى، ولكن واليها لم يمكِّنْه من ذلك رغم سروره بمقدمه، فغادرها إلى الولايات المجاورة، واحدةً بعد الأخرى، دون أن يستقر في إحداها، حيث استشعر أن عليه مهمةً مقدسة في الدعوة إلى وحدة الصين، وإصلاح الأخلاق في ولاياتها كافة(٣).

وذات مرة، التقى كونفوشيوس وأتباعه أثناء تجوالهم في البلاد بناسك طاعن في السن، اعتزل الشؤون العامة، وآثر عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جَلَبَة المدينة، وعندئذ قال الناسك لـ(تسي لو) تلميذ كونفوشيوس: "إن الاضطراب يجتاح

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص٤٨ – ٤٩.
وانظر: موسوعة الأديان في العالم – دار كريبس أنترناشيونال – ص ٤٤.
(٢) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٢٤٩.
(٣) فلاسفة أيقظوا العالم – د. مصطفى النشار ص ٥٥–٥٦.
وانظر: الفلسفة في الشرق – بول ماسون – أورسيل – ت: محمد يوسف موسى – ص ١٦٨.

البلاد اجتياح السيل الجارف، ومَنْ ذا يستطيع أن يبدّل لكم هذه الحال؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية".

وقد فكر كونفوشيوس طويلاً في كلام الناسك "شانج جو"، وقال: "إن شانج جو مخطئ فيما يقول، فإنه ليس بالهرب من الشر يستطيع المرء أن يغيره إلى الأحسن. لو كان الناس جميعاً خيِّرين سعداءَ، لما كانت بي حاجة إلى تقويمهم. إنه من واجب كل إنسان أن لا يحاول الهرب من حيث توجد المتاعب، بل إنه من الجبن أن يرى الإنسان ما هو صواب، ولا يحاول أن يفعله"(١).

وقد ظل على هذا الحال من التنقل والترحال من السادسة والخمسين من عمره إلى الثامنة والستين(٢). عاد كونفوشيوس بعد هذه الرحلة الطويلة إلى مقاطعة "لو"، فأكرم أميرُها وفادته، ولكنه لم يطِعْه كسائر الأمراء، فكرس بقية حياته في التعليم والدراسة، وتعليم أصدقائه ومدارستهم.. وكانت السن قد تقدمت به، حيث تجاوز السبعين خريفاً من عمره، ونزل به، وهو في تلك السن المتقدمة، ما حزَّ في قلبه وقطع نياطه، فقد مات اثنان، كلاهما قطعة منه:

أما أولهما: فابنه الوحيد الذي كان يسمى "لي"، وقد أثر موته في نفسه تأثيراً بالغاً، خاصة أنه في هذه السن. وقد توفي هذا الولد عن خمسين سنة.

وأما ثانيهما: فهو تلميذه الأثير عنده، المحبَّب لديه، وقد كان قطعة من روحه ونفسه، واسمه "هووي" وكان تلميذَه الفذَّ. وقد بكى عليه بكاءً شديداً عند احتضاره(٣).

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ٤٩ بتصرف.

(٢) فلاسفة إنسانيون – كارل ياسبرس – ت: عادل العوا – ص ١١٧.

(٣) مقارنات الأديان – الديانات القديمة – الإمام محمد أبو زهرة – ص ٧١ بتصرف.

وانظر: موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين – جوزيف نيدهام – ت: محمد غريب – ص ١٣٥.

الثاني عشر: مؤلفاته

هناك تسعة كتب صينية قديمة، يرتبط اسم كونفوشيوس بها أشد الارتباط، وقد ظلت هذه الكتب قروناً عدةً لها أكبر الأثر في توجيه حياة أهل الصين، بل كان طالبو الالتحاق بالوظائف الحكومية يؤدُّون اختباراً دقيقاً فيما تتضمَّنه هذه الكتب.

وإذا كان لا ينسب إلى كونفوشيوس إلا كتابٌ واحد من هذه الكتب التسعة، هو كتاب المنتخبات "الحوار"، إلا أنه قد أحاط بتلك المؤلفات، واستطاع أن يستخلص منها تلك الحكم والأقوال المأثورة التي بقيت على مر التاريخ.

هذه الكتب التسعة تنقسم قسمين:

القسم الأول: يتضمن خمسة كتب، تعرف باسم: الكلاسيكيات الخمس "كنج"، وهي الكتب القديمة السابقة على عصر كونفوشيوس، واستمد منها إلهامَه، وأعاد صياغتها بلغة تناسب العصر، وهي:

١- "شو كنج"؛ أي كتاب الوثائق التاريخية.

٢- "شي كنج"؛ أي كتاب الأشعار القديمة.

٣- "يي كنج"؛ أي قانون التغير.

٤- "لي كي كنج"؛ أي كتاب الشعائر والطقوس القديمة.

٥- "شن شو كنج"؛ أي كتاب الربيع والخريف.

أما القسم الثاني: وهو أربعة كتب، وتعرف باسم "شو". ويرجع تاريخها إلى عهد متأخر من عهود الكتب الخمسة الأولى، وقد قام بكتابتها تلاميذ كونفوشيوس ومريدوه، ويكاد يُجمع الباحثون على أن الحكيم كونفوشيوس أملى بعض هذه الكتب على تلاميذه إملاءً، كما حاورهم أو حاضرهم بالبعض الآخر، فأخذوه عنه، وأثبتوه مقترناً باسمه دون تغيير ولا تبديل، وهذه الكتب هي:

١- "تاهسيو"؛ أي المعرفة الكبرى.

٢- "شونج يونج"؛ أي مذهب الوسيلة الوسطى.

٣- "لون يو"؛ أي المنتخبات.

٤- "منج تسي"؛ أي كتاب منشيوس [١].

وسيأتي المزيد من التفصيل حول هذه الكتب في الباب الثالث، الفصل الأول بإذن الله.

الثالث عشر: وفاته

لـمَّا بلغ كونفوشيوس التاسعة والستين من عمره، وبعد أن أنهكته الأسفار المختلفة، حظي في النهاية بكل تقدير وترحاب وإجلال من دوق مدينة "لو" الجديد، ولكنه أوضح له أنه سيقضي ما تبقي له من أيام حياته في تقديم النصح لزعماء "لو" ووزرائها، وجمع ونسخ الكتب القديمة المقدسة[٢] - التي سبق أن أشرنا إليها - بوصفها مصادر الفلسفة الصينية، كما اهتم في سنوات عمره الأخيرة بنشر الروائع الصينية، وكتابة تاريخ البلاد، حتى مماته. وفي تلك الفترة قال واصفاً نفسه بأنه "ليس إلا رجل ينسيه حرصُه على طلب العلم الطعامَ والشراب، وتنسيه لذة طلبه أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه"[٣].

كما قال في الأيام الأخيرة من حياته:

"لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيِّعاً لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكُّب

---

(١) الحكماء الثلاثة - د. أحمد الشنتناوي - ص ١٣٨- ١٤٠ بتصرف.
والفكر الشرقي القديم - جون كولر - ت: كامل يوسف - ص ٣٣٤ - ٣٣٥ بتصرف.
وانظر: المدخل في تاريخ الأديان - د. سعيد مراد - ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) انظر: كتاب الحوار - كونفوشيوس- ترجمة: الأستاذ محمد مكين - ص ٨ - ٩.

(٣) قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤- ص ٤٨.

طريق الصواب والعدل"(١).

اشتكى قبل مماته بأيام، لأحد تلاميذه، من أن الموت سيدركه، ولم يجد ملك ذكي أريب، وليس في الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذه معلماً له، ثم قال: "لقد تصَرَّم أجلي وحان يومي"(٢).

"ولما حضرته الوفاة، ارتدى بعض تلاميذه أردية النبلاء، ووقفوا حول فراشه في هيئة وزراء، وهي الصورة التي طالما تاق إلى تحقيقها أثناء حياته، فلما أفاق أنكر عليهم ذلك، وقال: "لن يخدعني هذا التمثيل المضحك الصامت، ولن يخدعكم، فمن تخادعون؟ السماء؟! أوليس الموت بين أيديكم أيها الأصدقاء أفضل من الموت بين أيدي وزراء"(٣)؟

استشعر ذات صباح دنوَّ أجله، فأنشد يقول:

آه ! إن تايشان (الجبل) ينهار

والعمود يسقط إلى أسفل

والفيلسوف سيذهب (٤).

ثم أوى إلى فراشه، ومات في نهاية ثمانية أيام عام ٤٧٩ قبل الميلاد، وكان قد بلغ وقتها الثالثة والسبعين من عمره، ودُفن بمقاطعة "تشي فو" في دولة "لو"(٥) بعد حياة حافلة بالعطاء في كثير من الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

---

(١) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج٤– ص ٤٨.
وانظر: الفكر الشرقي – د. يونغ شوون – ت: د.طلعت مراد، ود. حميد علي – ص ٩٧.
والمذاهب الكبرى في التاريخ – آلبان ج. ويد جيري – ت: ذوقان قرقوط – ص ٢٩.

(٢) أعلام الفلاسفة – د. هنري توماس – ت: متري أمين – ص ٦٢ بتصرف.

(٣) حكمة الصين– فؤاد شبل – ص ٨٣ – ٨٤. وانظر: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ – هـ. ج. كريل – ت: عبدالحميد سليم – ص ٦٤– ٦٥.

(٤) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن سعفان – ص ١٢.

(٥) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ٥٠.
وفلاسفة إنسانيون – كارل ياسبرس– ت: عادل العوا – ص ١١٩.

الرابع عشر: أثر وفاته على أهل الصين

وعندما ذاع نبأ موته، عمَّ الحزن لوفاته جميعَ أنحاء الصين. حتى الحكام الذين أهملوه حياً احتفلوا بإحياء ذكراه.

فقد أرسل دوق "لو" رجلاً ليصلي عليه، فقال بلسان الدوق:

"واأسفاه!! إن السماء لم ترحمْني، ولم تبق لي الرجل الشيخ العظيم، لقد تركني تعساً وحيداً بلا مساعد، على رأس الولاية، مع أنني رجل مريض الآن. يا للأسف!! أيها الأب ني (وهو من الأسماء التي كان يسمَّى بها كونفوشيوس) إن حزني لجسيم، فلا تنسَني".

وما إن سمع تلاميذه وأتباعه ذلك حتى راحوا ينقدون حاكم الولاية الدوق (أي)؛ لأنه لم يمكن كونفوشيوس كسلفه الدوق "تنج" من الإسهام في حكم "لو"، وتطبيق آرائه ومبادئه[1].

أما تلاميذ كونفوشيوس، فأقاموا حول قبره في أكواخ صغيرة ثلاثة أعوام، كانوا خلالها يؤدون له كل يوم ما يجب أن يؤديه الأبناء نحو والدهم... وبعد الأعوام الثلاثة هذه، وارتحال التلاميذ والمريدين من حول القبر، ظل ثالث تلميذ أحبه كونفوشيوس، وهو "تسي كنج"، ظل ثلاثة أعوام أخرى.. وانتقل أكثر من مائة أسرة من أسر التلاميذ وأهالي "لو" لتسكن بجوار القبر على نهر "استس"، فنشأت من هذه الجماعة قرية تسمى قرية "كونج" أو "كنج" نسبة إلى أسرة كونفوشيوس.

وهذا القبر لا يزال إلى اليوم مزاراً للعبادة والتقديس؛ سواءً من أتباع الكونفوشيوسية، أو من المؤيدين للتعاليم التي جاء بها كونفوشيوس[2]. وقد بنوْا

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢.

(٢) شاهدتهم يتجمعون عنده، ويركعون ويسجدون، ويضعون الورود على القبر، ورأيت شيخاً مسناً سجد باتجاه القبر. ولما سألته قال: إنه من أحفاد كونفوشيوس، وكان يظهر عليه الفقر... الإثنين ١٥/٢/١٤٢٥هـ.

حول القبر بوابة كبيرة، وممراً فخماً، تعلوه أشجار السرو على الجانبين[١]، وعلى القبر لوحة من عهد أسرة "سنج" عليها لقبه الذي خلعته عليه ملوك تلك الأسرة: "هذا قبر أحكم معلمي الصين القديمة، الملك الكامل، العالم بكل شيء". وهذا بالطبع من وجهة نظرهم، والكمال المطلق والعلم الكامل لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

وهناك قريباً من القبر معبدٌ حُفظت فيه الأشياء الشخصية التي كان يمتلكها؛ كأغطية الرأس، والآلات الموسيقية، والعربات والكتب.

وأخذ أتباعه يقدِّسونه، حتى عبدوه في عهد الإمبراطور الأول لأسرة "هان" حوالي سنة ٢٠٦ قبل الميلاد؛ إذ كانوا يعبدون كونفوشيوس، ويقدمون القرابين عند معبده من أبقار ونعاج وخنازير، وأصبح لزاماً على الوزراء وكبار الموظفين ورجال الدولة أن يزوروا قبره ومعبده قبل أن يتسلَّموا مهمات وظائفهم[٢].

لقد كانت شهرة كونفوشيوس بعد موته عاليةً كبيرة، كما كان إهماله في حياته شديداً كبيراً.. ولم يمض على موته زمن طويل حتى ميَّزوه بلقب "الإله الأسمى"[٣].

"ولكن في هذه العبادة الجنونية نسي معظم عُبَّاده كلماته، والتي كان يقول فيها: "كل ما يمكن أن أُدعى به أو أُسَمَّى، هو أنني تلميذ طموح، لا يشبع، ومعلم لا يمل التعليم. هذا فقط ولا شيء أكثر"[٤] ولكنه الشيطان الذي زيَّن لهم عبادتَه من دون الله.

---

(١) أصبحت (مقبرة آل كونفوشيوس) والتي يدفن فيها أحفاده إلى وقتنا الحاضر، معْلَماً بارزاً من معالم مدينة "تشي فو"، ومزاراً للأتباع والسياح، لـمَا فيها من آثار قديمة من البنيات والمجسمات والأشجار... والجمال التنسيق فيها... كما وُضع على كل قبر لوحة باسم صاحبه.

(٢) هداة الإنسانية في الشرق – سهير القلماوي وآخرون – ص ١٢١ – ص ١٢٢.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢ – ١٣.

(٤) عظماء قادة الأديان – عبد الجليل شبلي – ص ٨٢.
والكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ٧٤ – ٧٥.

الخامس عشر: من أقواله

من الأقوال والحكم المأثورة عن كونفوشيوس، والتي جمعها تلاميذه في كتاب "الحوار" وغيره، أنتقي جملة منها لأدلِّل بها على مدى ما كان يتمتع به كونفوشيوس من حكمة متعددة الجوانب؛ أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً... يقول:

١- أتولى اختبار نفسي كل يوم في نقاط ثلاثة: هل قصَّرت في أن أكون حيَّ الضمير في نصح الآخرين؟ وهل قصرت في أن أكون مخلصاً في معاملة الأصدقاء؟ وهل عملت بما علمت به؟

٢- ما لم يكن العظيم جدياً، فلن يكون محترماً، ولا راسخاً في العلم.

٣- اجعل للولاء والإخلاص أرفع منزلة.

٤- الإنسان الرفيع لا يُتخم نفسه إذا أكل.

٥- لا تألم لجهل الناس لك، بل تألم لأنك تجهل الناس.

٦- تفقَّه بالحكمة القديمة، ووطِّن نفسك على الحديثة منها، حينئذ يحق لك أن تصير أستاذاً.

٧- عندما تعلم شيئاً أكِّد علمك به، وإذا جهلته اعترف بذلك، فهذه هي طبيعة المعرفة.

٨- جانب المشكوك فيه فيما تسمع، وتحدَّث بحذر فيما يتعلق بالباقي، وبذلك تقل هفواتك.

٩- تبين الحق وتجنب العمل به جبن.

١٠- إصابة الهدف في الرماية هو المهم، لا ثقب الهدف.

١١- إن الشعور الاجتماعي الطيب يجعل للجوار جمالاً.

١٢- الحكم بالقانون فقط أو حفظ النظام بالعقوبات فقط يسبب مراوغة الناس وتجردهم من الحياء.

١٣- المخطئ في حق السماء ليس له من يتوجه إليه بالصلاة.

١٤- الرفيع يتلمَّس ما هو حق، والوضيع يتلمس ما هو مربح.

١٥- الرفيع بطيء في الوعود سريع في الإنجاز.

١٦- الفضيلة لا تثوي مفردة، وإنما لا بد لها من جيران.

١٧- إغراق الناس بسيل من البلاغة طريق لأنْ يمقتوك.

١٨- الخشب النخرِ لا يمكن حفره.

١٩- هذه هي الصفات الأربع للإنسان الرفيع: متواضع، ومكرم لمن هم أكبر منه، وكثير البر، وعادل دائماً.

٢٠- الإنسان الرفيع من يسعف ذوي الحاجة الملحة، لا من يساعد الأغنياء ليزدادوا غِنًى.

٢١- أفضل ممن يعرف الحق من يحب الحق.

٢٢- الفضيلة أن تكافئ المجهود بأكثر من المكافأة.

٢٣- الرفيع هادئ دائماً، والوضيع (محدود الذهن) مرتبك دائماً.

٢٤- لا تُبْدِ للآخرين ما تعافه نفسك.

٢٥- الرفيع من يقدِّر فضائل الآخرين، لا أن يشهِّر برذائلهم.

٢٦- إذا كان الحاكم محباً للعدل تُذعن له الرعية(١).

٢٧- في التعليم تنتفي الاختلافات الطبقية.

٢٨- إذا ما بلغ امرؤ سنَّ الأربعين أو الخمسين، ولم يسمع الناس عنه شيئاً، فإنني أسلِّم بأنه لن يكون شيئاً جديراً بالاحترام.

٢٩- أولئك الذين يُولدون حكماءَ أسمى أنواع الناس، ويتلوهم من ينالون الحكمة بالدراسة والاطلاع. ويتبعهم من يتغلبون على بلادتهم بالاطلاع، أما من يظلون على بلادتهم فأوطأ الناس.

---

(١) حكمة الأديان الحية- جوزيف كاير - ت المحامي: حسين الكيلاني.

مراجعة: أ. محمود الملاح - ص ٩٨ - ١٠٤.

٣٠- طوبى للمرء الذي لا يؤثِّر الفقر في مرحه وغبطته.

٣١- واجب الشاب أن يكون بارّاً بوالديه داخل داره، محترِماً لمن هم أكبر سناً خارجها، وأن يتَّصف بالحذر والإخلاص، وأن يحب الناس جميعاً، وأجدر به أن يقف بعض وقته على دراسة الفنون الجميلة.

٣٢- عندما أكون في جماعة تتألف من ثلاثة، أسعى إلى محاكاة الصفات الطيبة التي أجدها في أحد صاحبي، وأتجنب الصفات القبيحة التي ألـمَسُها في صاحبي الآخر(١).

٣٣- لا تتخذ أصدقاء غير أكفاء لك.

٣٤- إذا كانت لك أخطاء فلا تخش التخلي عنها.

٣٥- إن الرجل المتفوق هو الذي يعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم بعد ذلك وفقاً لأفعاله.

٣٦- الرجل المتفوق حر التفكير وليس متعصباً، أما الرجل الوضيع، فمتعصب، تفكيره غير حر.

٣٧- قد يكون هناك أناس يعملون دون معرفة السبب الذي من أجله يعملون، إني لا أحب أن أفعل ذلك، استمعْ كثيراً، وانْتقِ ما هو حسن، ثم اتبعه، وانظر كثيراً، واختزن ما تراه في مخيلتك، ذلك هو الأسلوب الثاني في طلب العلم والمعرفة.

٣٨- الرجل الكامل الفضيلة من طبعه الحذر والتمهل في حديثه؛ لأنه إذا شعر بصعوبة العمل، فهل أمامه من شيء آخر غير التمهل في القول؟(٢).

٣٩- من المحال على المرء أن يكون متفوقاً دون التسليم بشرائع السماء(٣).

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١- ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) الحكماء الثلاثة - د. أحمد الشنتناوي - ص١٥٠ - ١٥١ بتصرف.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٤.

٤٠- المتكبِّر والبخيل مهما تكن مزاياهما، لا يستحقان الاهتمام.

٤١- في ظل حكومة فاضلة الفقر عارٌ، وفي ظل حكومة سيئة الغنى هو العار.

٤٢- الحكمة هي أن تميز بين الذي تعرفه والذي تجهله.

٤٣- قلّما يخطئ من كان حذراً.

٤٤- الصمت صديق لا يخون أبداً.

٤٥- العدالة أسمى ما في الحكم.

٤٦- كلمة تفيد خير من ألف كلمة لا تفيد[١].

٤٧- إذا كان الإنسان يستذكر معارفه القديمة، ويضيف إليها معارف جديدة، فإنه يكون عندئذ جديراً بأن يكون معلماً للآخرين.

٤٨- قلما يخطئ من يحكم نفسه ويضبط شهواته.

٤٩- المعلم الفاضل يلتفت إلى ثلاثة أشياء؛ وهي: العبادة والسلام والصحة.

٥٠- وسئل يوماً من هو الرجل الفاضل؟ فأجاب:

ذلك الذي لا يشغل باله هَمٌّ أو خوف، لأنه لا يجد في قلبه شراً.

٥١- ثلاثة أشياء على الرجل أن يجانبها:

"الشهوة مدة الشباب، والتنازع مدة الرجولة، والشَّرَه مدة الشيخوخة".

٥٢- اثنان لا يغيِّران رأيهما: أعقل الناس وأسخف الناس؛ أعقل الناس لثقته بعقله، وأسخف الناس لضعف ذلك العقل[٢].

كلمات ينشدها الصينيون سنوياً في عيد ميلاد كونفوشيوس:

- ما أجمل السماء! لا تترك شيئاً غير مستور
- ما أعمق الأرض! لا تترك شيئاً غير مسنود
- ما أسطع الشمس والقمر! لا يتركان شيئاً غير مستضيء

---

(١) من أروع ما قال حكماء العالم - إميل ناصيف - ص ٣٩- ٢٠٠.

(٢) الدين والفلسفة والعلم - السيد محمود أبو الفيض المنوفي - ص ٩٢- ٩٣ بتصرف.

- ما أعظم البحار والأنهار! لا تفرطان في الأرض من شيء
- ما أسماها وما أرحبها تعجز الكلمات عن وصفها
- هو هو سيدي! في تاوه تتأوّج الحكمة كلها
- الذي ينشر أشعة الفضائل الساطعة تحت السماء
- ويدفع الدنيا نحو الانسجام العظيم
- هو مثال المعلمين لآلاف السنين
- وتبقى إلى الأبد روحه التي لا تموت[١].

(١) المستطرف الصيني - هادي العلوي - ص ٥.

الفصل الثاني

أبرز الشخصيات بعد كونفوشيوس

توطئة

حفلت الفترة اللاحقة لـ "كونفوشيوس" بظهور مفكرين كبار، كوَّنوا المدارس الفكرية المتعددة، التي عرفت بـ"المائة مدرسة" . ومع هذا بقي تأثير كونفوشيوس كبيراً على الفكر الصيني؛ لأن فكره كان قد تشكَّل إلى حد بعيد من الثوابت الفكرية، المستمدة مباشرة من القناعات العامة السائدة، والقائمة على العادات والتقاليد والمفاهيم المتوارثة. لذلك كان الفكر الكونفوشيوسي حاضراً دائماً لإمكانية تجديده بأثواب عديدة.

وقد ظهر مفكرون كثر، ردَّدوا أفكار كونفوشيوس بقوالبَ مختلفة، إلا أن أهم المفكرين الذين أثْرَوا التراث الكونفوشيوسي والصيني القديم، هو المفكر الكونفوشيوسي الكبير ومعلم الكونفوشيوسية الثاني: "منشيوس"(١).

وقد تفرق تلاميذ كونفوشيوس بعد موته، وأسسوا مدارسَ كونفوشيوسية. وكان من أهم الشخصيات التي عرفتها الصين بعد كونفوشيوس: "منشيوس"، و"هسون تزو"، ويشكلان مع كونفوشيوس نوعاً من الثالوث المؤسس للكونفوشيوسية، وقد عُدَّا بمثابة شُرَّاح لمذهب كونفوشيوس.

حيث انقسمت الكونفوشيوسية بعد كونفوشيوس اتجاهين:

١- مذهب حَرْفي متشدد، ويمثله "منشيوس"؛ إذ يدعو إلى الاحتفاظ بحَرْفية آراء كونفوشيوس، وتطبيقها بكل دقة.

٢- مذهب تحليلي، ويمثله "هسون تزو"، ويقوم مذهبه على أساس تحليل آراء المعلم وتفسيرها، واستنباط الأفكار باستلهام روح النص الكونفوشيوسي(٢).

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة - د. عمر عبد الحي- ص ١٩٨ بتصرف.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - ج ٢ - ص٧٥٠ بتصرف.

وإلى جانب هاتين الشخصيتين سنعرض لذكر عدد من أبرز مفكري الكونفوشيوسية، الذين كان لهم أثر في إثراء التراث الكونفوشيوسي .

١- منشيوس (٣٧٢ - ٢٨٩ ق.م)

أ- حياته :

منشيوس : التحريف الأوربي لاسم الفيلسوف الصيني "منج تزو" ، أو "مانغ تزو" ، وتعني كلمة "تزو" المعلم . يعد منشيوس من كبار فلاسفة الفترة المعروفة بعصر الدول المتحاربة (٤٠٣ – ٢٢١ ق . م)، وهي المرحلة الذهبية للفلسفة الصينية . يطلق عليه الصينيون لقب "المعلم الثاني" . ويُعد أكبرَ أساتذة الكونفوشيوسية بعد مؤسسها كونفوشيوس .

ومركز منشيوس ـ بالنسبة إلى كونفوشيوس ـ كمركز أفلاطون بالنسبة إلى سقراط؛ لأن منشيوس طوَّر اتجاهات كونفوشيوس المثالية، وأكملها وجلاَّها . . . ويفصل ميلاد منشيوس عن وفاة كونفوشيوس (عام ٤٧٩ ق . م) مائة وسبع سنوات؛ حيث ولد هذا الفيلسوف حوالي (سنة ٣٧٢ ق . م) في مدينة "لو" التي ولد فيها "كونفيشيوس" ، وكان هو أيضاً من أسرة عريقة في الشرف والنبل والجاه، وتوفي والده وهو في حداثة سنه، فاعتنت والدته بتربيته عنايةً فائقة، وقد خلَّد المؤرخون الصينيون ذكر هذه الأم، وجعلوها نموذجاً للأمهات؛ وذلك بما قصُّوه عنها من القصص الكثيرة الممتعة، فهم يقولون : إنها بدَّلت مسكنها ثلاث مرات من أجله؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة، فبدأ الصبي يسلك مسلك دافني الأموات، وبدلته في المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة، ثم بدلته في المرة الثالثة لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق، فشرع الصبي يسلك مسلك التجار، ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها[١] .

(١) قصة الحضارة – ديورانت – ت : محمد بدران – ج ٤ – ص ٧٨ .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط المكوك - فإذا سألها عن سبب هذا الإتلاف، أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس والتحصيل(١). وبذلك أصبح الصبي طالباً مجداً، ثم تزوج وقاوم في نفسه الميل إلى تطليق زوجته، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة، جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم في الآفاق، وبعث إليه الأمراء من الأنحاء كافة يدعونه ليناقشوه في نظرياته عن الحكم.

ولم يكن يجد غايته المنشودة في تعليم الطلاب، بل إن الهدف الذي كان يرمي إليه هو أن ينال في الدولة منصباً سياسياً عالياً، ليستطيع أن يسدي النصائح إلى الأمير الحاكم بتجديد الدولة، وإعادة إقامة صرح الأخلاق، وتأسيس القواعد السياسية على أسس الفضيلة... وكان يقول: "أصلِحْ ما في عقل الأمير من خطأ، فإنك إن قوَّمت الأمير، استقرَّت شؤون الدولة"(٢).

ولما احتلت هذه الفكرة رأسه، وملكت عليه أمره، خرج من مسقط رأسه، وجعل يطوف المدن، عارضاً تعاليمه ونصائحه على الأمراء وحكام المقاطعات واحداً بعد واحد، حتى انتهى به الأمر إلى مملكة "تشي"، فوجد فيها عملاً حكومياً كبيراً، بعد أن وجد من ملكها استجابة لنصائحه، ولكن هذا لم يدم طويلاً؛ إذ لم يلبث الملك أن حاد عن نصائح الفيلسوف، وحوَّل سياسته عن خط الفضيلة المستقيم، فلم يسع "منشيوس" إلا أن يعلن عن سخطه على سياسة الملك... ثم ترك العمل معه(٣).

وإذا نظرنا إلى الحالة السياسية في الفترة التي عاش خلالها (منشيوس) وجدناها تتسم باضطراب أحوال الصين السياسية والثقافية والاجتماعية.

(١) فلاسفة الشرق - و. ف. توملين - ت: عبد الحميد سليم - ص ٣٠٥.

(٢) المرجع السابق - ص ٧٩. وانظر: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونج - هـ ج كريل - ت: عبدالحميد سليم - ص ٩٩.

(٣) الفلسفة الشرقية - د. محمد غلاب - ص٢٧٧ - ٢٧٨ بتصرف.
وانظر: قصة الديانات - سليمان مظهر - ص ٢١٥.

وكان النظام الإقطاعي قد تداعى على عصره، وقد استطاعت سبع من الدول الصينية الكبرى ابتلاع جيرانها الصغار، والتحمت الولايات السبع في صراع وحشي خطير في سبيل فرض سلطانها، أو ذوداً عن كيانها ذاته. فكان طبيعياً أن يعزف حكام ذلك العصر ـ عن أي وقت مضى ـ عن الاهتمام بالاستماع إلى العظات المتصلة بفاعلية الفضيلة، وأساليب القدماء الحكيمة. فكان إخفاقه في الظفر بالتعضيد السياسي أبعد مدى من إخفاق كونفوشيوس، فكان أن انحصر نجاح "منشيوس" في ميدان التعليم والتثقيف، وركز جانباً عظيماً من جهده لتفنيد أفكار المدارس التي ظهرت تنافس الكونفوشية (مثل مدرستي "موتزو" و"يانج شو")(١).

وأخيراً توفي هذا الحكيم في سنة (٢٨٩ ق. م) عن ثلاثة وثمانين عاماً، قضاها في التأليف والشرح والتعليق، ونشر الفضيلة، ومحاولة إعلاء السياسة واستغلالها في خدمة العدل والسلام(٢).

وقد ظل اسم (منشيوس) خافتاً، وظلت مؤلفاته خاملة حتى القرن الرابع عشر الميلادي، وقبل ذلك حاول بعض أتباع الكونفوشيوسية في القرن التاسع الميلادي إطلاق بعض الأسماء والألقاب عليه، ولكن لم يستطيعوا ذلك؛ بسبب قوة المعارضين. وفي القرن الحادي عشر هبَّ بعضهم، فأطلقوا عليه اسم "الدوق الحكيم"، ولكن هذا لم يدم طويلاً؛ إذ لم يكد كوكبه في هذه المرة أن يسطع حتى هوى، وبقي كذلك حتى القرن الرابع عشر الميلادي، حيث ذاع صيته في هذا الوقت المتأخر، فعرف القوم مكانته، وأطلقوا عليه اسم (الحكيم الثاني، أو الأستاذ الروحي الأعظم للمدرسة الكونفوشيوسية) وقد ظلت هذه الأسماء حتى الآن(٣).

---

(١) حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ٩٤ – ٩٥ بتصرف.

(٢) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص٢٧٧ – ٢٧٨.

(٣) انظر: المرجع السابق – ص ٢٧٩ بتصرف.

والتفكير الديني في العالم قبل الإسلام – د. رؤوف شلبي – ص ١٢٥.

ب- منشيوس وكونفوشيوس

آمن منشيوس بأنه حامل رسالة كونفوشيوس في عصره، وأن معتقداته وآراءه وأفعاله تنسجم تماماً مع ما أُثِر عن المعلم الكبير.

إلا أن هناك اختلافات بين الحكيمين، ترجع إلى اختلاف طبيعة الرجلين، وإلى تباين العصر الذي ظهر فيه كلٌّ منهما.

ففي المختارات الأدبية، يصرِّح كونفوشيوس عدة مرات بأنه أخطأ في بعض الأمور، في حين لا يسلّم منشيوس أبداً بالخطأ.

ولهذا دلالته التي لا تخفَى، من ناحية اتصاله التام بأسس المنحى التفكيري للحكيمين، وارتباطه كذلك باختلاف الظروف التي عاشا في ظلها.

فأولاً: كان كونفوشيوس أهم فلاسفة عصره، إلى درجة مَحت معها شخصية كل فليسوف آخر. في حين انتمى منشيوس إلى مدرسة فلسفية من ضمن مدارسَ فلسفية عديدة قامت على أيامه، ونازع بعضها البعض الآخر.

وثانياً: كان الهدوء طابع مناقشات كونفوشيوس مع مريديه، وكان هدفها السعي للوصول إلى الحقيقة ودراستها. أما مناقشات منشيوس، فمدارها الدفاع عن مذهب معين مسلّم بصحته سلفاً، والعمل على نشره وإذاعته بين الناس والفارق جسيم، كما نرى. ومهما تكن الحال، فإن محاورات منشيوس ومناظراته ـ في مجموعها ـ تتسم بالمزايا الآتية:

الأولى: تتجه إلى الإقناع. وتسيطر عليه هذه النزعة تماماً.

الثانية: لا مكان فيها لإيضاح نقاط الاختلاف، أو بالأحرى بيان وجهة النظر المعارضة.

الثالثة: تركَّز اهتمام منشيوس في الخروج من محاوراته منتصراً، غير مُلْقٍ كثيرَ بالٍ إلى أن تكون محاوراته سبيلاً للعثور على الحقيقة. ولا نعني بذلك عدم اهتمامه بالحقيقة، لكنه آمن بأن الحقيقة لديه بالفعل، وأن ما يعوزه إقناع خصمه

برأيه. كما أن هناك جانباً مهماً في منهج منشيوس يتجلى في إعلائه من شأن رجال العلم، ووضعهم في مرتبة أسمى من مرتبة الأمراء والحكام[١].

ج - مؤلفاته

حفظ التاريخ عن هذا الحكيم سبعة مؤلفات؛ منها ثلاثة كتبها هو بقلمه، لا يختلف في ذلك أحد من الباحثين. أما الأربعة الأخرى، فلم تثبُت نسبتها إليه. والصحيح أنها من عمل تلاميذه، مقتبسين تعاليمه وآرائه. ولما أحرق الإمبراطور "تشين شي هوانغ" الكتب[٢] لم تكن مؤلفات "منشيوس" معروفةً مشهورة، بل كانت لا تزال غامضة خاملة، لا يعرفها إلا الخاصة من أصدقائه. ولهذا نجت من الإحراق، وظلت في حالة جيدة حتى وصلت إلى أيدي الباحثين، ولكن هذه الكتب لم تفُز في ذلك العصر بالنجاح والذيوع الجديرين بها، والسبب في ذلك هو ما اشتملت عليه تلك المؤلفات من الثورة ضد الملوك وطغيانهم، ونبذهم اشتراك الأرستقراطيين معهم في الحكم، ولم تكن هذه الثورة في كتب "منشيوس" وحده، بل جميع مؤلفات الأسرة (الكونفوشيوسية) المكوَّنة من كبار تلاميذ (كونفيشيوس)، وكلهم من الأرستقراطيين والنبلاء[٣].

وقد جُمعت مؤلفات منشيوس في كتاب "مصنفات منشيوس"، ويعد هذا الكتاب من أعظم كتب الفلسفة الصينية القديمة على حد تعبير "ول ديورانت" وإن كان مختلفاً مع د. غلاب في عدم ثقته بنسبة الكتاب إلى منشيوس؛ حيث يقول عن منشيوس وكتابه: "وقضى أيام شيخوخته وضعفه في تعليم الطلاب، وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه. ولسنا واثقين من أن هذا الكتاب من تأليف منشيوس نفسه، أو من تأليف تلاميذه، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا في وضعه، أو أنه مدسوس عليهم، وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين: إن

(١) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١- ص٩٦ -٩٧ بتصرف.

(٢) سيأتي الكلام عن حادثة الإحراق هذه في الفصل الثالث من هذا الباب بإذن الله.

(٣) الفلسفة الشرقية - د. محمد غلاب - ص ٢٧٨ - ٢٧٩ بتصرف.

كتاب منشيوس من أعظم كتب الفلسفة الصينية القديمة وأجلّها قدراً"(١).

كما ركز منشيوس في كتاباته على الرجل النبيل الذي رأى فيه الرجل الحقيقي الفاضل الذي يصل إلى مرتبة السماء، وقد وصفه منشيوس قائلاً: "إن من يطلق عليه الرجل الحقيقي هو الذي يقطن أوسع بيت تحت السماء، ويتبوأ المراكز الوسطية الصحيحة، ويسير على أعظم درب في البلاد. وعندما يحقق طموحاته ورغباته الذاتية يسير مع عامة الشعب على ذلك الدرب، وعندما يخفق في تحقيق طموحاته، فإنه يتمسك بمبادئه الذاتية بصورة منفردة، ولا تجعله الثروة والجاه ماجناً مبذِّراً، ولا يجعله الفقر والبؤس يغيِّر عزيمته وإرادته، ولا يمكن أن تجعله القوة والسلطات يستسلم"(٢).

د - خلاصة منهج منشيوس:

انطلق منشيوس في فكره الاجتماعي والسياسي من صلاح الفطرة البشرية القائلة بأن الإنسان خيِّر بطبعه، إلا أنه دعا الإنسان إلى العمل على تنمية نوازع الخير، بالتثقيف والإرادة والصبر، للوصول إلى سيطرة الكفايات الفكرية العقلية على كفايات الطبيعة العاطفية، وهذه السيطرة العقلية على الطبيعة العاطفية لا تعني على الإطلاق كبْتَها، بل قيادتها وتوجيهها الوجهة الحسنة، لتكون مبعث خير للإنسان. وهذا الخير للإنسان لا يتحقق - برأي منشيوس - إلا بالتقيد بالمبادئ الخُلُقية الصالحة، وبالسلوك القويم، وبالتقاليد القديمة التي اختطَّها الصالحون الأولون. وبذلك يُظهر منشيوس تمسكه الشديد بالمبادئ وبالتقاليد القديمة المأثورة الصالحة، على نحو أشدَّ مما فعله أستاذه كونفوشيوس. لذلك كان تأثيره كبيراً على الفكر الفلسفي الكونفوشيوسي على مدار التاريخ الصيني، لِـمَا أتى به من إضافات رئيسة ومهمة على فكر "كونفوشيوس"؛ إذ إن فهمه لآراء كونفوشيوس وشرحها،

---

(١) قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤ - ص ٨٠.

وانظر: المدخل في تاريخ الأديان - د. سعيد مراد - ص١٩١.

(٢) الصينيون المعاصرون - وو بن - ت: د. عبد العزيز حمدي - ج ١ - ص ١٢٩.

قد سيطر سيطرة كبيرة على كل الفكر الكونفوشيوسي(١).

كما تظهر إضافات منشيوس على الفكر الكونفوشيوسي في المجال السياسي من خلال تطويره فكرة تفويض السماء للملوك، إلى حد القول بحق الشعب في مقاومة الطغيان؛ أي: بحق الثورة. فضلاً عن ذلك، تبدو إضافات منشيوس بوضوح من خلال توسيعه فكرة تقييد الحكام بمبدأ تحقيق الرفاهية للشعب(٢).

وهكذا، فإن الأثر الفكري الكبير الذي قدَّمه منشيوس تجلى في عملية ربط التقاليد الأخلاقية والآداب وسلوك الحكام بتحقيق غايات تتعلق بمصالح العامة من الناس، وليس بطبقة معينة؛ فأمور الخير والصلاح لم تعد عند منشيوس قواعدَ خُلقيةً فاضلة فقط. بل أصبحت أيضاً مرتبطة ومحددة بغايات عامة يتوجب على الحكام اتِّباعها، وإلا حلَّ بهم غضب السماء، التي سرعان ما يتغير عندئذ تفويضها في حق الحكم، من خلال ثورة الشعب(٣).

يقول ديورانت: "وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة، ولا يكاد يوجد فيها شيء عن المنطق، أو فلسفة المعرفة، أو ما وراء الطبيعة. وكان الذي يهم "منشيوس" هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة، وتولي خيار الناس مقاليد الحكم، وكان مبدؤه الأساسي أن الناس أخيار بطبيعتهم"(٤).

ومن أقوال منشيوس: "إن نزوع طبيعة الإنسان إلى الخير هو مثل نزوع الماء للحركة إلى أسفل، وليس هناك أحد تنقصه هذه النزعة"(٥).

ويقول أيضاً: "إذا صار الناس أشراراً، فهذا ليس من خطأ في طبيعتهم الأصلية. والحق أن حِسَّ الرحمة موجود في جميع الناس، وكذلك الحياء والاحترام، وحِسّ

---

(١) انظر: الفكر الشرقي – يونغ شون – ت: د. طلعت مراد، ود: حميد علي – ص ١٠٢.

(٢) انظر: الأخلاق والسياسة – د. إمام عبد الفتاح إمام – ص ١٤٥.

(٣) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة –د. عمر عبد الحي– ص ٢٢٨ بتصرف.

(٤) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤– ص ٨٠ بتصرف.

(٥) انظر: أديب صعب: الأديان الحية، ص ٨٨.

الصواب والخطأ، وإن المحبة والإصلاح والضمير الخلقي لا تأتينا من الخارج، لكنها تأتينا من فطرتنا"(١).

وكان يرى أن الشر الموجود في العالم له ثلاثة مصادر:

١- الظروف الخارجية.

٢- التخلي عن الخير الفطري.

٣- عدم تغذية المشاعر والحواس بالمعرفة.

ومن أقواله: "لو أن شخصاً بذر بذوراً مثالية في أماكنَ متفرقة، فإن البذرة التي تقع على تربة غنية مشبعة برطوبة كبيرة ستغل محصولاً وفيراً، في حين أن التي تنمو في تربة فقيرة، ويصيبها قدر يسير جداً من المطر، يكون محصولها سيئاً، والناس كذلك، يختلفون باختلاف البيئة التي ينشؤون فيها".

وقال: "الحاكم العاقل، الذي يرغب في أن يكون شعبه فاضلاً، عليه أن يهتم بالبيئة التي ترعى الفضيلة؛ لأن الفقر المدقع يترك ندوباً في عقول الناس وقلوبهم، فضلاً على أنه يضني أجسادهم"(٢).

فلا عجب ـ والحالة هذه ـ إذا غضب "هونج وو"، مؤسس أسرة "منج"، حين قرأ الحديث الذي دار بين منشيوس والملك "شوان"، فأمر أن يُمحى اسم منشيوس من مكانه في هيكل كنفوشيوس. وكانت لوحة تذكارية قد وُضعت له في هذا المعبد بأمر ملكي في عام ١٠٨٤، ولكن اللوحة أُعيدت إلى مكانها، ولم يمض عام واحد على إزالتها، وظل منشيوس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١م يعد بطلاً من أبطال الصين، وثاني اثنين ذاع صيتُهما في جميع عهود تاريخها، وكان لهما أعظم الأثر في فلسفتها(٣).

---

(١) أديب صعب: الأديان الحية – ص ٨٩. هذه الفكرة سوف يأخذ بها فيما بعد الفيلسوف الفرنسي "روسو"، ويبني عليها "العقد الاجتماعي". انظر: الديانات الوضعية الحية – د. محمد العريبي–ص٢٤٣.

(٢) معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ٣٠١.

(٣) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤ – ص ٨٣ بتصرف.

٢- هسون تزو (٢٩٨ - ٢٣٨ ق.م)

أ- حياته

تُجمع المصادر الصينية على أن "هسون تزو" قد عاش بين عامي (٢٩٨ و٢٣٨) قبل الميلاد. وكان من مواطني مملكة "تشاو" (ومكانها جنوب ولايتي خوبي وشانسي الحاليتين). ودرس الحكمة في مملكة "تشي". وهناك نَبَه ذكره وطار صيته، فقلَّدته حكومة تلك المملكة منصباً رفيعاً. وكان بلاط هذه المملكة يضم ممثلين لكثير من المدارس الفلسفية، فكان طبيعياً أن يحتدم الجدال بينهم. وقد أثار هسون تزو عداوة المفكرين الآخرين، فاندفعوا للكيد له، فاضطر إلى مغادرة هذه البلاد إلى مملكة "تشيو" جنوب الصين، حيث عُيِّن قاضياً، فما لبث أن عزل من منصبه، ثم أعيد إليه بعد فترة. وفي أخريات أيامه كرَّس معظم وقته للتدريس.

وتتلمذ على هسون تزو كثير من أقطاب الفكر الصيني، في طليعتهم "هان في تزو" زعيم المدرسة التشريعية الفكرية القديمة، و"لي سسو" رئيس الوزراء، الذي عاون أول أباطرة "تشين" في توحيد الإمبراطورية. وقد عاش حتى رأى قيام دولة "تشين" القوية بتدمير الممالك الإقطاعية، وما تلا ذلك من توحيد الصين بأسرها في ظل حكومة قوية(١).

توفي هسون تزو سنة ٢٣٨، وقيل ٢٣٥ ق. م، وهو في سن السبعين.

ب- منهجه الفكري:

يعد هسون تزو من أكثر الفلاسفة الذين شهدهم العالم تألُّقاً. لكن أعوزه الإيمان بالجنس البشري [بمعنى أنه آمن بعجز الناس عن التفكير في قضاياهم الأساسية بمفردهم ومن دون توجيه وتعليم الحكماء لهم]. وانبنى على هذه الثُّلمة

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج ١ - ص ١٢٢ بتصرف.

وانظر: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ - هـ ج كريل - ت: عبدالحميد سليم- ص ١٤٧ و١٦٦.

في منحاه التفكيري إحباطُ أبدع جهوده، وإبطال تأثيره الفكري إلى حد بعيد[١].

وهو لم يتجه إلى إنكار الغيبيات، بل اقتصر على تجاهلها، يقول: "إن طريق السماء، وإن يكن عميقاً، فإن هذا الإنسان يأبى أن يركز عليه عميق التفكير، وهو - وإن يكن شيئاً عظيماً - لن يستخدم قدرته في تفحُّصه وبحثه، وهو - وإن يكن حافلاً بالأسرار - يأبى أن يتقصى أسراره"[٢].

وأدان بعض الممارسات الدينية، وعدها من قبيل الخرافات؛ ومن ذلك: الصلاة استجلاباً للمطر، وطرد المرض بالرقى والتعاويذ، وقراءة بخت المرء من ملامح وجهه، لكنه أباح التنبؤ بالغيب، شريطة أن تقوم التأويلات على العقل البشري، وأنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة.

وأصبحت أرواح الأسلاف وقُوى الطبيعة عنده تجلِّياتٍ للسمو الخُلقي، وبالفهم الكامل للطبيعة يستطيع الناس - في رأيه - أن يسيطروا على الكون وعلى بيئتهم[٣]. كان يهاجم ميول "منشيوس" المثالية، مفضلاً النظرة الواقعية للمشكلات، وقد رفض مبدأين أساسيين في فلسفة منشيوس: المبدأ القائل بالصلاح الفطري للطبيعة البشرية، والمبدأ القائل بأن السماء تراقب الأرض وتهتم بحياة الأفراد، ومن ثم تفوِّض الملوك الصالحين لرعايتهم والاهتمام بهم.

وقد كان من الملامح المميزة للفلسفة الصينية القديمة "تصحيح الأسماء" التي كانت تتعلق أساساً بأسماء الأعلام ومشكلاتها، وكان هسون تزو واحداً من الكبار الذين تصدوْا لقضية تصحيح الأسماء، ودعا إلى جمْع الأشياء معاً حسب درجة تشابهها، وفصلها على حسب درجة اختلافها. وفي ظل هذا المناخ كان الاتجاه نحو التنظيم، والذي قاد إلى أول أعظم نظام تصنيف للكتب في القرن الأول قبل الميلاد[٤].

(١) انظر: حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج ١ - ص ١٢٣.

(٢) معتقدات آسيوية - د. كامل سعفان - ص٣٠٢.

(٣) المرجع السابق - ص ٣٠٣.

(٤) الكتب والمكتبات في العصور الوسطى - د. شعبان عبدالعزيز - ص ٤٦١.

ويعزو المؤرخ "سي ما – تشين" إقبال "هسون تزو" على الكتابة، إلى الحرص على مناهضة الخرافات والسحر والشعوذة، التي سيطرت على أذهان معاصريه، والمطالبة بالاحتكام للعقل وحده، والاستناد إلى الأحكام التي تُمليها طبيعة الكون وفطرة الإنسان. ولقد كره حكومات جيله، وازدرى أمراء بلاده الأشرار، وانتقد تعلُّق العامة بضروب السحر ومعرفة الطالع، وخلَّف تراثاً ضخماً من مؤلفاته، ويعدُّ مجدداً لشباب مدرسة كونفوشيوس الفكرية(١).

الإنسان شرِّير بالطبع:

يرى "أن البشر وُلدوا شرِّيرين، وأن النفس البشرية أمَّارة بالسوء، وأن ما تفعله من خير ليس مصدره الطبع، بل التطبع" فما يُنسب إلى الإنسان من خير هو شيء غير أصيل فيه، شيء فيه تكلُّف وتصنع، أكسبته إياه التربية والنظم التي إنما نشأ في أحضانها"(٢).

لكنه في الوقت نفسه يؤكد أن في استطاعتهم أن يصبحوا أخياراً بالتربية والتهذيب الأخلاقي، وتستمد التربية والتهذيب الأخلاقي من النصوص الكلاسيكية، ومن النظر إلى حكماء الماضي، بوصفهم قدوةً، وهؤلاء الحكماء لا يختلفون عن سائر البشر في طبيعتهم ومواهبهم الأساسية، وإنما هم نماذج لِمَا يمكن بلوغه بالفهم والبصيرة الأخلاقية، إذا تم استخدام العقل استخداماً سليماً.

ومن الملحوظ أن الكونفوشيوسيين الأوائل أمضوْا حياتهم في ظل دول إقطاعية متحاربة، وتأثر منحاهم التفكيري بأوضاع عصرهم، وصاغت المبادئ المثالية فلسفتهم، ويختلف الأمر عند هسون تزو، فقد عاين استقرار أحوال البلاد، ولمس رسوخ الحكم ـ خصوصاً في آخر حياته ـ لكن الظروف الاجتماعية والسياسية التي

(١) حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج ١ – ص ١٢٢ – ١٢٣ بتصرف.

(٢) المرجع في تاريخ الأخلاق – د. محمد مرحبا – ص ٢٨٢.

وانظر: الفكر الشرقي – يونغ شوون – ت: د. طلعت مراد، ود. حميد علي – ص ١٠٧.

عاشها قبل ذلك قد أثَّرت بشكل واضح على المنحى الذي اتخذه في فهمه لأفكار كونفوشيوس، وقد طبعت تفكيره عموماً بطابع التشاؤم؛ فخلال فترة الحروب الداخلية الطويلة ما بين الدويلات الصينية المختلفة، انتهج الحكام سياساتٍ غيرَ أخلاقية، بهدف تأمين مصالحهم الخاصة بأي شكل من الأشكال، ولو أضر ذلك بالناس، وقضى على مصالحهم العامة؛ مما جعل الناس بالمقابل يلجؤون - في سبيل تأمين حاجاتهم والدفاع عن مصالحهم - إلى اتِّباع مختلف الوسائل والأساليب المتاحة، ضاربين بعرض الحائط كلَّ القِيم الأخلاقية.

ومجمل هذه الوقائع هي التي حملت هسون تزو على الاقتناع بأن الإنسان مجبول بفطرته على سوء الطوية وعلى الشر، وهي التي جعلته أيضاً يعتقد بأن القِيَم الأخلاقية الفاضلة، التي يجب أن تسود المجتمع، لا تنبثق تلقائياً من نفس الإنسان الخيرة، كما يقول منشيوس، بل تأتي من خلال التدرب والتعلم والتقيد بالسلوك المهذب القويم وبالآداب الفاضلة، وذلك من أجل اقتلاع جذور الشر الكامنة في نفس الإنسان، وإحلال بذور الخير مكانها[1].

وبذلك يكون هسون تزو قد أعطى للعقل والعلم والتدرب أهميةً كبرى في عملية تطوير الإنسان للذات البشرية.

ج- خلاصة منهج (هسون تزو)

ألف هسون تزو كتاباً أطلق عليه اسمه، يحتوي على اثنين وثلاثين فصلاً، تتسم بالترابط والتناسق، عكس كتاب "المختارات" الذي يضم أحاديثَ كونفوشيوس ومحاوراته، وكتاب "منشيوس".

وقد اعتنى علماء العصر الذي ظهر فيه هسون تزو بتأليف الكتب والمقالات، رغبةً في الحفاظ على المذاهب الفكرية سليمةً للأجيال التالية.

---

(١) انظر: الفكر الشرقي القديم - جون كولر - ت: كامل يوسف - ص ٣٦٧- ٣٧٠.
والتاريخ وكيف يفسرونه - آلبان. ج. ويد جيري - ت: عبد العزيز توفيق - ص ٤٩.

وإن مما يجب تأكيده: هو أن مبدأه القائل بعجز الناس عن التفكير بالقضايا الأساسية بمفردهم، ومن دون توجيه وتعليم الحكماء لهم، يعني الاستسلام لفكرة إعاقة العقل عن الوصول ذاتياً، ومن خلال التجربة، إلى تحقيق فعل التقدم والتطور، كما يعني أيضاً ربط الفكر الإنساني بقيود الفكر السابق، مما يحول دون التطلع إلى حل مشكلات المجتمع المتغيرة، إلا من ضمن القوالب الفكرية السابقة. وهذا ما يحتِّم العجز عن إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات الطارئة، ويضع الفكر الإنساني في حالة تقوقع واجترار، كما يمنع قدرات الإنسان الفكرية من الإبداع المؤسِّس لكل تقدم وتطور، صحيح أن هسون تزو طوَّر الفكر المنطقي الفلسفي الكونفوشيوسي، ولكنه بالمقابل قيَّد هذا الفكر بالقوالب الفكرية الجامدة.

يبقى القول بأن هسون تزو قد أوصل الكونفوشيوسية، من خلال استخدامه أسلوب تفكير عقلي ومنطقي صارم، إلى نوع من الفلسفة العقلية والمادية، بحيث بات العقل البشري، بالنسبة إليه، مركزاً للكون؛ فقد قال بقدرة العقل على الوصول إلى الفهم الكامل للطبيعة، مما يجعل الإنسان قادراً على أن يسيطر على الطبيعة، ويسخرها لخدمته عن طريق التنظيم الاجتماعي. ولذلك يمكن اعتبار هسون تزو من أكبر الفلاسفة العقليين في تاريخ الفلسفة الكونفوشيوسية، بالرغم من نظرته القائلة بقصور العقل عن الوصول إلى معرفة الخير والأخلاق الفاضلة، إلا بوجود أستاذ حكيم يدلّه على ذلك(١).

وبعد أن بيَّنا مركز "منشيوس" و"هسون تزو" بوصفهما شارحين من شُرَّاح منهج كونفشيوس، وممثلَيْن لاتجاهين مختلفين من الاتجاهات الكثيرة التي انقسمت عليها الكونفوشيوسية(٢)، نذكر نخبة من أبرز مفكري الكونفوشيوسية الذين كان لهم أثر في إثراء التراث الكونفوشيوسي، ومنهم:

---

(١) الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة -د. عمر عبد الحي- ص ٢٥١- ٢٥٢ بتصرف.

(٢) ولكونهما أبرز الشخصيات ذكرناهما في البداية.

٣- تس سي (٤٨٣ - ٤٠٢ ق.م)

ولد سنة ٤٨٣ ق. م، وتوفي سنة ٤٠٢ ق. م، اسمه "كون جي" و"تس سي" هذا لقبه، عارف كونفوشيوسي، وهو حفيد كونفوشيوس، وقد تلقى تربيته وتعليمه عند الأستاذ "تسنغ تس" ـ أحد النوابغ الأربعة من تلاميذ كونفوشيوس ـ وذهب أكثر العلماء والمؤرخين إلى أنه مؤلف كتاب "سنة التوسط"، وقد سُمِّي بالنبي المعلق في العصور المتأخرة(١).

٤- جشاو تشي (٢٠١ - ١٠٨ ق.م)

ولد في سنة ٢٠١ ق. م تقريباً، وتوفي سنة ١٠٨ ق. م، كان عالماً متبحراً في الأسفار والكتب الكونفشيوسية، وشارحاً مدققاً لكتاب منشيوس، ومن أشهر مؤلفاته "الجمل والفصول في كتاب منشيوس"(٢).

٥- دونغ جشونغ شو (١٧٩ - ١٠٤ ق.م)

ولد سنة ١٧٩ ق. م، وتوفي سنة ١٠٤ ق. م،كان حكيماً كونفوشيوسياً، وأستاذاً متبحراً في علم الأسفار والكتب الكونفوشيوسية، ووزيراً مؤثراً، وفي عهد أسرة "هان" قبِلَ العاهل الصيني "هان وو وي" اقتراح "دونغ" في أن تكون الكونفوشيوسية وحدها ديناً رسمياً تعتنقه الحكومة، ومنع الأديان الأخرى، فسيطرت الكونفوشيوسية على الحياة الدينية والفكرية والسياسية في الصين أربعة قرون من الزمان.

ومن أهم نظرياته: التفاعل بين "تيان" والإنسان والوحدة بينهما(٣).

---

(١) (المعجم المحيط الصيني- ص ١١١٨).
انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ٧.

(٢) القاموس المحيط الصيني - ص ١٩٤٤.
انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ١٧١.

(٣) المعجم المحيط الصيني - ص ٥٩٩.
انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ١٤.

وقد جاءت فلسفتة رداً على فلسفة "هسون تزو" بكون الفطرة في الإنسان ليست خيرة وهو ينطلق من مادة خام غير محددة يسميها (الشينغ = القلب) فليس كل الأسماء تنطبق على المسميات؛ فالشينغ ليس هو الخير المطلق ولا الشر المطلق، وفوز الخير على الشر يتم بالعقل وفوز الشر على الخير يتم بالغريزة. فالشر يوجد بوجود العقل، ففعل العقل يعني الدفاع عن الخير ضد الشر، ولولا ذلك لما كانت هناك حاجة إلى العقل.

وهناك من يرى أن (دونغ جشونغ شو) في نظريته الأخلاقية هذه يغلّب موقف البطالة والسلبية على الإنسان... (الفطرة الشريرة = الأفعال الشريرة) فما دام المجتمع يتمتع بالفضيلة فلا لزوم لدفع العقل للبحث عن الخير، وبالتالي فإن حركة الحدث الاجتماعي تحدده حركة الحدث الفردي وفعله، وهذا قمة التفكير الذاتي (الأناني)[١].

٦- وانغ تشونغ (٢٧-١٠٠ للميلاد)

من المفكرين اللاحقين الذين عرفتهم الكونفوشيوسية: وانغ تشونغ.

ولد عام ٢٧م، وتوفي عام ١٠٠م. وهو مفكر واقعي عملي، مقَتَ التنظير، ورفض الخوارق التي ينطوي عليها الدين، وكتب بأسلوب بسيط وفصيح، معبِّراً عن نزعة إنسانية قوية، حاول أن يصد نزوع الناس نحو تأليه كونفوشيوس، واعتباره معصوماً عن الخطأ[٢].

٧- تشنج هزيوان (١٢٧ - ٢٠٠ م)

عاش في عصر أسرة "هان". ولد عام ١٢٧، وتوفي عام ٢٠٠ ميلادية، كان له أثر بالغ الأهمية في تفسير تعاليم الكونفوشيوسية ونشرها[٣].

---

(١) تيارات الفلسفة الشرقية - محمد سليمان حسن - ص ٧٢ بتصرف.

(٢) الأديان الحية نشوؤها وتطورها - أديب صعب - ص ٩١ بتصرف.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني - حسن سعفان ص ١٣١ بتصرف.

٨- تسي هسيا (ولد سنة ٥٠٧ م)

ولد سنة ٥٠٧ م، وأصبح فيما بعد من كبار المتفقهين في الدين الكونفوشيوسي[١].

٩- تسي كنج (ولد سنة ٥٢٠ م)

ولد سنة ٥٢٠ م، من كبار ممثلي الكونفوشيوسية في عصره، كما أصبح فيما بعد من أعظم رجال السلك السياسي الصيني[٢].

١٠- هان يو (٧٦٨ - ٨٢٤ م)

ولد سنة ٧٦٨ م، وتوفي سنة ٨٢٤ م. كان أديباً وشاعراً كبيراً، وحكيماً كونفوشيوسياً، من أشهر مؤلفاته كتاب "البحث عن الطريقة"، وكتاب "العودة إلى الفطرة". وكان يدعو إلى التمسك بالسلسلة الأصيلة التي بدأت من "ياو"، وجُدّدت على يد كونفوشيوس، كما كان يدعو للدفاع عن الكونفوشيوسية ضد البوذية والطاوية[٣].

كان كونفوشيوسياً متحمساً، وكان شديد العداء للطاوية والبوذية، اللتين كتب ضدهما خطباً شهيرة، كما أبدع في الجدَليات والأبحاث الفلسفية الدينية. وعرف بدقة عباراته، واستخدام قواعد اللغة ببراعة. كان هان يو مهووساً في تنصيب نفسه فيلسوفاً[٤].

١١- شاو يونج (١٠١١ - ١٠٧٧ م)

فيلسوف صيني، كان له الأثر الكبير في تطوير الجانب المثالي من الكونفوشيوسية، ويقال: إن أبحاثه في الرياضة أثّرت في الفيلسوف الألماني "ليبينتز".

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – حسن سعفان – ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق – ص ١٣١.

(٣) المعجم المحيط الصيني – ص ١٩٩٢.

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص ١٤.

(٤) الأدب الصيني – أوديل كالتنمار – ت: د. هنري زغيب – ص ٩٣ بتصرف.

انتمى شاو يونغ في بداية حياته إلى الطاوية، ورفض جميع المناصب الحكومية، مفضلاً الاعتزال في صومعة متواضعة قرب مدينة "لويانغ" يناقش الأصدقاء، ويعكف على النظر الصوفي، ثم اهتم بالكونفوشيوسية من خلال دراسته للكتابات الكلاسيكية الكونفوشيوسية، فطور نظرياتها على نحو رياضي، عندما ذهب إلى أن الأعداد هي أساس الوجود كله(١).

١٢- شو تون - آي (١٠١٧ - ١٠٧٣ م)

فيلسوف صيني، يعد من المبشرين بالكونفوشيوسية الجديدة، وهو المذهب الذي أصبحت أفكاره الأخلاقية والميتافيزيقية ممثِّلةً للفكر الصيني لِمَا يقرب من ألف عام(٢).

١٣- سي ما قوانغ (١٠١٩ - ١٠٨٦ م)

سي ما قوانغ، ولد سنة ١٠١٩ م، وتوفي سنة ١٠٨٦ م، عارف كونفوشيوسي، ومؤرخ كبير، ووزير مهم في حكومة أسرة "سونغ" الإمبراطورية، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الجامع للعبر في السياسة والحكم"، وقد جمعت مقالاته في كتاب "الجامع لمؤلفات سي ما قوانغ"(٣).

١٤- تشانج تسيه (١٠٢٠ - ١٠٧٦ م)

ولد هذا الحكيم سنة ١٠٢٠م، وبدأ شبابه بالانخراط في سلك الجيش. ولما بلغ العشرين من عمره انكب على العلم في حماس شديد، فدرس الكونفوشيوسية والبوذية دراسةً عميقة، انتهت به إلى تفضيل الأولى واعتناقها. ولَـمَّا كان من المقرَّبين من الإمبراطور، فقد أتيحت له فرصة إلقاء المحاضرات، فبرزت عبقريته بين مواطنيه.

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ت: د. إمام عبد الفتاح – ص ٣٦٠.

(٢) المرجع السابق – ص ٣٦٠. وسياتي المزيد حول الكونفوشيوسية الجديدة عند الحديث عن تطور الكونفوشيوسية.

(٣) القاموس المحيط الصيني – ص ١٠٦.

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص ١٨١.

ولكن هذا المجد لم يدم طويلاً؛ إذ لم تلبث صراحته واحتفاظه بكرامته أن دفعاه إلى الاختصام مع وزير الدولة. وعلى هذا اعتزل مجال السياسة، واعتكف في بيته يدرس ويؤلف، حتى توفي سنة ١٠٧٦م.

وقد كان له كتاب اسمه "تشينج – مونج"، ومعناه: (الطريق الحق). وقد اشتمل هذا الكتاب على مذهبه. ويمكن تلخيصه فيما يأتي:

أن الوجود مكون من الثنائية:

١- "كي" أي المادة المصقولة المزوّدة بالقدرة على الخلق. وتعرف علمياً بأنها ما تقع تحت الحِسّ، وتقبل تعاقُب الصور المختلفة عليها.

٢- "شين" أي الروح، وتعرف بأنها "ما لا تحسّ ولا تقبل الصور".

وينبغي أن يلحظ أن المادة تحتوي على الروح في داخلها، وأن لكل منهما اعتبارين متباينين، أحدهما لكل واحدة على انفراد، والثاني لها وهي مع الأخرى. كما يلحظ أن اجتماعها هو الذي تنشأ عنه الكائنات، وأنه من دون هذا الاجتماع لا ينشأ شيء منها.

وعنده أن المادة نشأت من كائن غير قابل للصور، ولا تدركه حواسُّنا، وهو الذي يسميه بالجوهر في ذاته، وهو مرادف لما تسميه البوذية بالكل العام.

أما الأخلاق: فيرى أن الخير منحصر في الانسجام مع طبيعتنا، والتعاطف مع نزعاتنا الفطرية التي هي خيِّرة بطبيعتها، ولا ينالها الشر إلا عَرَضاً[1].

١٥- الأخوان: تشنغ هاو (١٠٣٢-١٠٨٥م) و تشنغ يي (١٠٣٣-١١٠٧م)

ولد "تشنغ هو" في مدينة ليانج (عام ١٠٣٢م، وتوفي بها عام ١٠٨٥ م)، وولد "تشنغ يي" (عام ١٠٣٣م، وتوفي ١١٠٧م)، وقد عملا معاً على تطوير الكونفوشيوسية الجديدة في صورة مدرسة فلسفية منظمة. وعلى الرغم من أن فلسفتهما تكاد تكون واحدة، فإن الأول أثّر في الجانب المثالي من الكونفوشيوسية

---

(١) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٣٠٦ – ٣٠٧.

الجديدة، في حين كان للثاني أثره في تطوير مدرسة عظيمة تلخصها حكمته الشهيرة "المبدأ واحد لكن تجلياته متعددة"(١).

من أهم مؤلفات (تشينغ هاو): كتاب "تحديد الفطرة" ورسالة "معرفة الرحمة" وشرح كتاب "سنة التوسط". ومن أهم مؤلفات (تشينغ يي): شرح كتاب "التغيرات". وقد جمعت أقوالهما ومؤلفاتهما في (الكتاب الجامع لمؤلفات الأخوين الشقيقين من أسرة تشينغ)(٢).

١٦- جو شي (١١٣٠ - ١٢٠٠ م)

ولد سنة ١١٣٠م، وتوفي سنة ١٢٠٠م، واسمه "جو شي"، واشتهر بالحكيم "جو" كان حكيماً كونفوشيوسياً، ومؤلفاً موسوعياً، وشارحاً للكتب الأربعة المقدسة في الكونفوشيوسية، كان من أكبر مؤسسي مدرسة معرفة الفطرة والحقيقة التي أحيت الكونفوشيوسية، في وقت ضعُفت فيه كثيراً تحت هجوم البوذية والطاوية، وكانت روحاً جديدة، عُدَّت بعده مدرسة رسمية كونفوشيوسية، سيطرت على الصين إلى سقوط المملكة المانشورية في مستهل القرن العشرين(٣). وهو من أعظم الفلاسفة الصينيين أثراً طوال ألف عام، حيث سادت الكونفوشيوسية الجديدة التي طوَّرها، وسيطرت على الحياة العقلية في الصين، ثم امتد أثرها على كوريا واليابان (٤).

وهذا الفيلسوف معدود - مع "كونفيشيوس" و "منشيوس" - من فلاسفة الصف الأول، حيث يقول د. محمد غلاب: "وفي الحق أن نظرة واحدة إلى أثر

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر - ت: د: إمام عبدالفتاح - ص ٣٦٠.

(٢) المعجم المحيط الصيني - ص ١٧٥٢.

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ٢٩.

(٣) المعجم المحيط الصيني - ص ٨١.

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ١٢.

(٤) المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر - ت: د. إمام عبدالفتاح - ص ٣٦٠.

هذا الحكيم، أو إلى عدد أنصاره الذين اعتنقوا مذهبه، تجعلنا نوافق على رفعه إلى مرتبة [منشيوس] . . .[1].

كان والده من ذوي المناصب الكبيرة في الحكومة، فاعتنى بتربيته عناية فائقة، إلى حد أنه كان يتولى بنفسه الإشراف على سير منهجه الدراسي الذي كان كبار الأساتذة يباشرون تطبيقه.

وقد نجم عن هذه العناية أنه لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى نال شهادة العالمية من جمعية الأساتذة. وعلى أثر انتهاء تعليمه المدرسي ألقى بنفسه بين أحضان الثقافة الحرة، فدرس جميع المذاهب والفروع "الكونفوشيوسية" و"البوذية"، و"الطاوية" دراسة عميقة، انتهت به إلى تكييف حياته على النحو الذي صح في نظره بعد النقد الحر النزيه، فرأى أنَّ خير هذه المذاهب كلها هو مذهب "كونفيشيوس"، فاعتنقه بعد اقتناع مَلَكَ عليه مناحي نفسه.

ولم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى عُيِّن مفتشاً للوزارة، ولكن الإمبراطور أراد أن لا يحول بينه وبين مواصلة مجهوده في التأليف، فأسند إليه رعاية أحد المعابد، وهو في ذلك الحين منصب شريف، ضخم المرتَّب، قليل العمل. وبهذا أتيحت للشاب النشط فرصة العكوف على البحوث العلمية، فأنشأ في ذلك العهد من حياته أهم كتبه، وأجدرها بالعناية. وفي (سنة ١١٧٨م) دعاه القصر، وأسند إليه وظيفة المحافظ، ولكنه لم يبقَ في هذا المنصب إلا خمسة أعوام؛ إذ أوحى إليه واجبه في (سنة ١١٨٣م) كتابة تقرير إداري، فكتبه ثم أحسَّ بعد كتابته أنه أسخط الإمبراطور، فاعتزل منصب المحافظ، وعاد إلى رعاية معبده.

وفي (سنة ١١٨٨م) دعاه الإمبراطور، وعرض عليه منصب وكالة وزارة الحربية، فأراد أن يُذعن لأمره، ولكنه اكتشف في الحال مؤامرة تُدبَّر ضده في القصر، فاعتذر عن قبول هذا المنصب.

---

(١) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٣٠٨.

وبعد عام واحد من هذا التاريخ اعتلى العرش إمبراطورٌ جديد، فدعاه وأسند إليه منصب المحافظ من جديد، فقبله شاكراً، وظل فيه إلى (سنة ١١٩٢م) حيث توفي ابنه، فحطَّم هذا الحادث قلبه، واعتزل جميع المناصب، وانسحب إلى مسقط رأسه، وظل بعيداً عن ضجيج الإدارة والسياسة، ولكن إمبراطوراً ثالثاً اعتلى العرش في (سنة ١١٩٤م)، فدعاه إلى العاصمة، وأسند إليه منصباً كان شاغلُه في تلك العصور يدعى: "أول رجال الدولة"، وهو أفخم مناصب الحكومة على الإطلاق، فقبله وأخذ يؤدي واجبه خيرَ تأدية، حتى حقد عليه أحدُ أمراء البلاط في (سنة ١١٩٧م)، فاتهمه بالزندقة والمروق عن المذهب القديم، وتوصل بهذه التهمة إلى إقالته للمرة الأولى من منصبه، فصعب ذلك على نفس الحكيم، وارتحل في الحال إلى مدينة "كيانج – يانج"، وتبعه إليها نحو مائة من أصدقائه وتلاميذه، الذين ظلوا يتلقوْن عنه العلم غير مبالين بذلك الاتهام السخيف الذي وُجِّه إليه.

وفي (سنة ١١٩٩م) صدر قرار رسمي من القصر ببطلان الاتهام، وبراءة الحكيم من كل ما نسب إليه. وبعد عام واحد من صدور هذا القرار توفي هذا الفيلسوف الكبير بعد تلك الحياة الحافلة بالعلم والفلسفة. وقد سار في جنازته عدة آلاف من الخاصة والمثقفين المعجَبين به والعارفين بقدره[١].

وقد كانت له عدة مؤلفات؛ منها الكتب الأساسية، ومنها الشروح والتعليقات على الكتب القديمة، ومنها المحاضرات التي كان يلقيها على الطلاب في ظروف مختلفة والمحاورات التي كانت تدور بينه وبين تلاميذه، أو بينه وبين خصومه. ومنها كتبه في النقد والطعن على المذاهب الأخرى، أو الدفاع عن مذهبه ضد ما يُوجهه إليه خصومه.

ومن حُسن حظ هذا الفيلسوف في العصر الحديث أن الإمبراطور "كانج - هي"، الملقَّب بحامي الأدباء، قد أمر بطبع مجموعة من هذه المؤلفات في (سنة ١٧١٣م).

---

(١) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٣١٠ – ٣١١ بتصرف.

أكمل في (عام ١١٨٩م) شروحه الأربعة للنصوص الكونفوشيوسية، وقد عُرفت هذه الشروح باسم "الكتب الأربعة للكونفوشيوسية الجديدة"[١].

وهو الذي نشر الكتب الأربعة في المدارس الأولية والابتدائية في الصين، وكان يُعدُّ الحجةَ الوحيدة في الآراء الكونفوشيوسية، كما كان يعهد إليه بتصحيح الامتحانات المدنية التي كانت تؤهّل للوظائف[٢].

كما قام بإيضاح المذاهب القديمة وجعلها في متناول أذهان جميع المثقفين على السواء؛ فهو يقرر أن "كي" ـ وهي المادة ـ مشتملة على الروح، ويسميها "سين"، وليس "شين" كما سماها أسلافه، وأن هذين العنصرين لا يخلو منهما أيٌّ كائن، وأن الأول منهما خاضع للتطورات والاستحالات، بينما الثاني ثابت لا يتطور ولا يتحول، ولا تتعاقب عليه الصور، وأنه هو عنصر حياة المادة وسبب قيامها بوظيفتها، إلى غير ذلك مما قرره مؤسسو هذه المدرسة من قبل[٣].

١٧- لو جيو يوان (١١٣٩ - ١١٩٣ م)

ولد سنة (١١٣٩ م، وتوفي سنة ١١٩٣ م)، ولقبه (سيانغ شان)، فيلسوف كونفوشيوسي من عهد أسرة سونغ. ومن أهم آرائه: أن القلب هو الحقيقة، وأن القلب وجود حقيقي وحيد، وأن العالم هو قلبي، وقلبي هو العالم، وقد جُمعت آراؤه في كتاب (الجامع لمؤلفات الحكيم سيانغ شان). وقد كان مخالفاً للحكيم "جو شي"، ومجادلاً له لمدة طويلة، ومن أبرز تلاميذه "وانغ يانغ مينغ"، وهو مؤسس مدرسة (لو – وانغ)[٤].

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ت: د. إمام عبدالفتاح – ص ٣٦٠.

(٢) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٣١.

(٣) الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٣١٢ بتصرف.

وللمزيد انظر: المرجع في تاريخ الأخلاق – د. محمد مرحبا – ص ٢٨٧– ٢٨٨.

(٤) القاموس المحيط الصيني – ص ٤١٥.

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص ١٧٨.

١٨- مو زونغ سان (١٩٠٩ - ١٩٩٠ م)

ولد سنة (١٩٠٩م وتوفي سنة ١٩٩٠م)، كان أعظمَ ممثل للمدرسة الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة، وقد عمل مدرساً وأستاذاً في عدد من الجامعات الكبيرة؛ منها جامعة تايوان، وجامعة هونغ كونغ، وقد كان أولَ من اخترع مصطلح "المرحلة الكونفوشيوسية الثالثة"؛ أي: الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة، وله مؤلفات كثيرة، تبلغ ثلاثين كتاباً، بين تأليف وترجمة، ومن أشهرها: "الذات القلبية"، و"الذات الفطرية"، و"نظرية تكميل الخير". وقد أدخل اسمه في موسوعة بريطانيا المختصرة[١].

هؤلاء ثمانية عشر شخصية من أبرز الشخصيات الكونفوشيوسية التي جاءت بعد كونفوشيوس في أزمنة متفرقة، وهؤلاء الأبرز، وإلا فغيرهم كثير. وقد حاولتُ جهدي أن يحوي هذا الفصل أبرز الشخصيات، وذلك من خلال البحث في عدد من المراجع العربية والصينية ـ المترجمة ـ المتوفرة. وأعترف أنني مهما بذلت من جهد، فلن أحيط بجميع الشخصيات منذ وفاة كونفوشيوس إلى عصرنا الحاضر خلال خمسة وعشرين قرناً.

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص ١١ بتصرف.

الفصل الثالث
تطور الكونفوشيوسية وافتراقها وتأثيرها في الحياة الدينية في الصين

١- المراحل التاريخية التي مرت بها الكونفوشيوسية

هناك تقسيمان للمراحل التاريخية التي مرت بها الكونفوشيوسية إلى اليوم: تقسيم مجمل، وتقسيم مفصل:

أ - التقسيم المجمل:

وقد مرت فيه الكونفشيوسية بثلاث مراحل رئيسية؛ هي:

١- مرحلة الكونفوشيوسية الأصيلة قبل تأسيس مملكة (تشين): وتبدأ هذه المرحلة من بداية عهد الأنبياء الملوك في تاريخ الصين القديم -(٢٣٥٦ ق.م) تقريباً - وتمر بعصر كونفوشيوس وتلاميذه وحفيده (تس سي)[١] حتى منشيوس (٣٧٢- ٢٨٩ ق.م)[٢]، وتتميز هذه المرحلة بخصائص التأسيس، والتجديد، وتحرير الأسفار والكتب المقدسة.

٢- مرحلة الكونفوشيوسية المحدَثة في عهد أسرة (سونغ) وأسرة (مينغ) الملكيتين. وقد ظهرت جماعة منَ الحكماء والعلماء في هذه المرحلة لإحياء الكونفوشيوسية في روح جديدة في هذا العهد، وكان أشهرهم الحكيم جو شي (١١٣٠- ١٢٠٠ م)[٣]، وتتميز هذه المرحلة بخصائص الرد على البوذية والطاوية، والاهتمام بمعرفة الفطرة والحقيقة من مدرسة، ومعرفة القلب والفطرة من مدرسة أخرى، وتعيين الكتب الأربعة كتباً مقدسةً أساسيةً، كما ألزمت الحكومةُ المركزية كل من يرغب في الاشتغال بالوظائف والمناصب الحكومية أن يدرسها

---

(١) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٣) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

ويختبر فيها، حتى أصبحت الكونفوشيوسية ديناً رسمياً للحكومة.

٣- مرحلة الكونفوشيوسية المحدثة المعاصرة: حيث ظهر جماعة من العلماء والمفكرين في بداية القرن العشرين للدفاع عن الثقافة الصينية بصفة عامة، والكونفوشيوسية بصفة خاصة، التي كادت أن تضمحلَّ تحت تزاحم التبشير، وانتشار الأفكار الغربية في أرض الصين - وعلى رأسها المادية الماركسية، ونظرية التطور الداروِيني، والأفكار الإلحادية - ومحاولة إحياء التراث الكونفوشيوسي في هذا العصر، ولعل أشهر العلماء في هذه المرحلة هو الأستاذ "مو زونغ سان" (١٩٠٩ - ١٩٩٠ م). وتتميز هذه المرحلة بخصائص التمسك بالأخلاق المشرقة، والدفاع عن دينية الكونفوشيوسية، وتأكيد عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان، وضرورة الرجوع إلى روح الكونفشيوسية الأصلية، المتمثلة في تعاليم الأنبياء الملوك الأقدمين، وبالأخص كونفوشيوس نفسه ومَنْ بعده؛ مثل "تس سي" و"منشيوس"، لإحياء الحياة العلمية وتجديدها، حتى تتمشى مع روح العصر.

وقد نشأت الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة في خارج الصين، ولكنها نشطت داخل الصين منذ الثمانينات من القرن الماضي، وجذبت أنظار الكثير من الصينيين إليها(١).

ب- التقسيم المفصل:

أما التقسيم المفصل، فيرى أن الكونفوشيوسية قد مرت بست مراحل رئيسة؛ وهي:

١- المرحلة الأولى:

وتسمى عند الكونفوشيوسيين باسم السلسلة الأصيلة للطريقة، وتعني بها

(١) كتاب الكونفشيوسية المحدثة المعاصرة - فونغ زو شينغ - ص ١٨٢-١٨٧، مطبعة (سان ليان)، بكين، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٩م.

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ١٣.

بداية الطريقة الكونفوشيوسية منذ أعظم الأنبياء الملوك "ياو"(١) حتى كونفوشيوس نفسه، وتمتد هذه المرحلة خمسة عشر قرناً من الزمان تقريباً في رأي "منشيوس"؛ حيث قال: "تمتد من (ياو) و (شون) إلى (تانغ) خمسة قرون وبضع سنوات... وتمتد من (تانغ) إلى (وون وانغ) خمسة قرون وبضع سنوات... وتمتد من (وون وانغ) إلى كونفوشيوس خمسة قرون وبضع سنوات... وأما كونفوشيوس فسمعها وعرفها"(٢).

يعرف من هذا النص الذي ورد في رابع الكتب الأربعة المقدسة أن الكونفوشيوسية تؤمن بأن طريقتها طريقة ذات سلسلة أصيلة عريقة، تمتد خمسة عشر قرناً من الزمان من (ياو) إلى كونفشيوس. ويتضح من هذا أنهم يعتقدون أن كونفوشيوس ليس أول من وضع هذه الطريقة التي تسمى بـ "الكونفوشيوسية"، بل لها أصالة تبدأ من تاريخ الصين القديم.

بقي أن نشير هنا إلى أن الذين ورد ذكرهم فيما ذكره "منشيوس" في النص السابق كلهم كانوا من الأنبياء الملوك في رأي الكونفوشيوسية؛ مثل (ياو).

٢- المرحلة الثانية:

وهي ما تسمى عندهم بمرحلة كونفوشيوس - منشيوس، وتعني عندهم تلك المرحلة المهمة التي جدد فيها كونفوشيوس وتلاميذه وحفيده "تس سي"، و"منشيوس" هذه الطريقة القديمة، وهي تمتد من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

٣- المرحلة الثالثة:

وهي ما تسمى عندهم بمرحلة دراسة الأسفار والكتب في عهد أسرة "هان" الملكية، وتعني عندهم المرحلة المهمة التي قامت بدراسة الأسفار والكتب الكونفشيوسية المقدسة وتفسيرها وشرحها، والتي أصبحت فيها الكونفوشيوسية

---

(١) (ياو): (٢٣٥٦ ق.م - ٢٢٥٥ ق. م) تقريباً، وترى الكونفوشيوسية أنه أعظم الأنبياء الملوك في أرض الصين، وأن الطريقة الكونفشيوسية بدأت منه أولاً (القاموس المحيط الصيني، ص ٦٥٥).

(٢) كتاب منشيوس، الفصل الرابع عشر.

ديناً رسمياً تعتنقه الحكومة بفضل جهود العارف الوزير "دونغ جشونغ شو" (١٧٩ -١٠٤ ق . م)[١] الذي دعا إلى "تعظيم الكونفوشيوسية وحدها" فسيطرت على الحياة الدينية والفكرية والسياسية لبلاد الصين كافة أربعة قرون من الزمان.

٤- المرحلة الرابعة:

وهي ما تسمى عندهم بمرحلة الكونفوشيوسية في عهد أسرة "تانغ" الملكية، وتعني عندهم المرحلة التي قاومت فيها الكونفوشيوسية زحف البوذية ـ التي دخلت إلى الصين من الهند ـ وانتشارها في أنحاء البلاد، والطاوية التي نالت مكانة مرموقة في المجتمع الصيني في ذلك العصر، وكان أشهر شخصية كونفوشيوسية في هذه المرحلة هو "هان يو" (٧٦٨-٨٢٤ م)[٢] الذي اشتهر بكتابه المعنون بـ (البحث عن الطريقة) وقد أكد ضرورةَ اتِّباع السلسلة الأصيلة للكونفوشيوسية، وكان له الفضل في إعطاء المكانة الخاصة لفصل المعرفة الكبرى، وفصل سنة التوسط من سفر الشريعة والحفاظ على الكونفوشيوسية، والرد على البوذية والطاوية.

٥- المرحلة الخامسة:

وهي ما تسمى عندهم بمرحلة الكونفوشيوسية المحدثة، أو مرحلة معرفة الحقيقة في عهد أسرة (سونغ)، وأسرة (مينغ) الملكيتين. وقد سبق الكلام عن هذه المرحلة.

٦- المرحلة السادسة:

وهي ما اشتهرت في عصرنا الحاضر بمرحلة الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة؛ فهي المرحلة الراهنة للكونفوشيوسية[٣]. (وقد سبق الكلام عن هذه المرحلة إجمالاً)، وسيأتي مزيد من التفصيل ـ بإذن الله ـ في الفصل الخامس من الباب الثالث.

---

(١) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٣) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية- د. زهرة الدين طيب- ص ١٢- ١٥بتصرف.
وانظر: الفلسفة الشرقية - ريتشارد - وبورن - ت: إمام عبد الفتاح - ص ١٠٥.

٢- التطور التاريخي للفكر الكونفوشيوسي:

يمكن إيجاز التدرج التاريخي للفكر الكونفوشيوسي في النقاط الآتية:

١- قام كونفوشيوس بنقل أفكار الأقدمين وآرائهم ومعتقداتهم، وكتب ذلك بلغة عصره، وعمل على تلقينها لثلاثة آلاف تلميذ.

٢- العبادة في عصره كانت لإله السماء، أو الإله الأعظم، ثم إله الأرض، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الأجداد.

٣- عندما مات كونفوشيوس دفن على مقربة من نهر "استس" في شمال المدينة، حيث تكاثر الناس حول قبره شيئاً فشيئاً مشكِّلين قرية "كونج".

٤- ثم أخذوا يعقدون حول قبره الاجتماعات والندوات العلمية.

٥- بنوا معبداً قرب قبره، ثم أخذوا باستلهام أفكاره، ثم وصلوا إلى تقديسه(١).

٦- ولم يمضِ على موته زمن طويل حتى ميزوه بلقب "الإله الأسمى"(٢).

٧- الفيلسوف "مو تزي" (٤٧٠-٣٨١ ق. م) أضاف فكرة جديدة، وهي تشخيص إله السماء بشخص عظيم يشبه الآدميين.

٨- وضع على قبره لوحة من عهد أسرة "سنج" عليها لقبه الذي خلعته عليه ملوك تلك الأسرة: "هذا قبر أحكم معلمي الصين القديمة، الملك الكامل العالم بكل شيء" (ونحن نقول: إن الكمال المطلق والعلم الكامل لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى).

٩- لاقت الكونفوشيوسية اضطهاداً في عهد الإمبراطور "تشين شي هوانغ" صاحب سور الصين العظيم، وقد استمر الاضطهاد من سنة ٢١٢ ق. م إلى ٢٠٧ ق. م، وقد أقدم على إحراق كتبهم، وإعدام علمائهم أو دفنهم وهم أحياء، وبلغ عدد المدفونين أحياء ٤٦٠ فيلسوفاً(٣).

---

(١) معتقدات آسيوية - د. كامل سعفان - ص ٢٦٩ وص ٢٨٦ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٣.

(٣) قصة الديانات - سليمان مظهر- ص ٢١٨-٢٢٠ بتصرف.

وبعد عدة سنوات قضاها الشعب الصيني في الخوف والرعب والهلع- مات الإمبراطور، فأخرج الناس الكتب التي أخفوْها، وأقاموا عيداً كبيراً احتفالاً بذكرى كونفوشيوس وأتباعه وبالكتب المقدسة التي تم إنقاذها. ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم كونفشيوس الذي أراد له الإمبراطور أن يندثر أصبح أعزَّ على الناس من ذي قبل، وأصبحت ذكرى الإمبراطور نفسه هي الكريهة المحتقرة في كل مكان.

ولم يكد الطاغية يزول حتى اعتلى عرش الصين أباطرة من أسرة "هان" فزاد انتعاش البلاد في عهدهم وازدهرت، وأخذ الأباطرة الجدد يناصرون كل ما من شأنه توطيد الأمن والسلام، وإحياء التقاليد القديمة. ومن جديد عاد مذهب كونفوشيوس إلى الازدهار"(١).

١٠- في سنة (٢٠٧ ق.م) قام الناس بثورة؛ مما أعاد التقدير إلى أتباع الكونفوشيوسية ودفع الأباطرة لإعادة صياغة كتبها.

١١- أخذ أتباعه يقدسونه حتى عبدوه في عهد الإمبراطور الأول لأسرة "هان" حوالي سنة ٢٠٦ قبل الميلاد؛ إذ كانوا يعبدون كونفوشيوس، ويقدمون القرابين عند معبده من أبقار ونعاج وخنازير، وأصبح لزاماً على الوزراء وكبار الموظفين ورجال الدولة أن يزوروا قبره ومعبده قبل أن يتسلَّموا مهمات وظائفهم الجديدة(٢).

وظهرت لدى الكونفوشيوسيين نزعة التدين؛ بأن ألَّهوا الملك القديم "ياو" كالإله الأعلى، وقدسوا كونفوشيوس، اعتقاداً منهم بأنه تلقى الوحي من الإله الأعلى، ورفعوه إلى مقام الإله بوصفه إلهاً بين الناس على الأرض، وانطلقوا يعبدونه. ولكن هذه النزعة لم تستمر طويلاً، واختفت في القرن الأول بعد الميلاد، حيث تغلب

---

(١) قصة الديانات - سليمان مظهر - ص ٢٠١ -٢٠٥ بتصرف

(٢) حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١- ص ٨٥.

وموجز تاريخ العلم والحضارة في الصين - جوزيف نيدهام - ت: محمد غريب -ص ١٤٦.

عليها العقلاء داخل المدرسة، وأعادوا كونفوشيوس إلى مقام المعلم الحكيم مرة أخرى.

ونزعة التأليه هذه كان لها أثر كبير على نشأة الديانة الطاوية؛ إذ إن الكهنة ورجال الدين لما رأوا ما فعله أصحاب كنفوشيوس من تأليهه حذَوْا حذوهم، وبدأوا يؤلِّهون "خانغ دي" ويقدسون "لاو تس" حتى نشأت الديانة الطاوية فيما بعد(١).

١٢- عندما جاء الإمبراطور "وو تي" (١٤٠- ٨٧ ق.م) اتخذ من الكونفوشيوسية ديناً رسمياً للدولة الصينية(٢).

وكان جهد الباحثين الكونفوشيوسيين في هذه الفترة هو وضع هذه الفلسفة موضع التطبيق والممارسة، وليس المزيد من تطويرها.

١٣- وتحت حكم الإمبراطور "هس وان" الذي حكم من (٧٣ إلى ٤٩ ق. م)، دُعي مجلس من ثقات الكونفوشيين ليناقش - على مدى ثلاث سنوات - مشكلات تأويل الآداب الكلاسيكية، وكتبت مداولات المجلس في مذكرة رفعت إلى الإمبراطور.. وفي عام (٥١ ق. م) صدق الإمبراطور على مضمونها، ومنذ ذلك الحين استقرت عقيدةٌ رسمية، وتأويل رسمي للآداب الكلاسيكية الكونفوشيوسية التي أصبحت لها سلطة رسمية في الحكومة(٣).

١٤- دخلت البوذية إلى الصين في تلك الفترة، وقد تكبد الكونفوشيوسيون عناء مجابهتها لتقليص أثرها ونفوذها(٤)، وكانت البوذية قد جذبت إليها نظر

(١) عقيدة الإلوهية في الديانة الداوية. أيوب نور الحق. ص ١٤- ١٥.

(٢) انظر: فلاسفة الشرق - و. ف. توملين - ت: عبد الحميد سليم - ص ٣٠١.
والكتب والمكتبات في العصور الوسطى- د. شعبان عبدالعزيز- ص ٤٥٥.

(٣) معتقدات آسيوية - د. كامل سعفان - ص ٣٠٥.
والمعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر- ت: د. إمام عبد الفتاح - ص ٣٤١.

(٤) انظر: الفكر الشرقي القديم - جون كولر - ت: كامل يوسف - ص ٣٩٨.

كثير من المثقفين الصينيين، وترجمت إلى اللغة الصينية، وأدخلت إليها بعض التعديلات. لكن تميزت الكونفوشيوسية بجذورها الصينية العميقة، وبأنها أصبحت فلسفة الدولة رسمياً.

١٥- ومع الاعتراف الرسمي بالكونفوشيوسية، وسيطرتها على البلاط الإمبراطوري، إلا أنها لم تسيطر عليه سيطرة مطلقة - إذ كان للآراء الطاوية مريدوها، وكانت تجد هوىً في نفوس العامة، وذلك لامتزاجها بالأساطير والخرافات الشعبية. ورغم إيمان الكونفوشيوسيين الوطيد بوجوب تولِّيهم مناصب الحكم الرئيسية، إلا أنهم عزفوا عن الاهتمام بالمشكلات الدنيوية المتصلة بإدارة الإمبراطورية، فهم في شغل شاغل بالمسائل المتصلة بالطقوس والأدب والغيبيات(١).

١٦- وفي عصر أسرة "هان" ظهرت بعض المؤلفات تصف كونفوشيوس بأنه إله، وأنه ابن إمبراطور أسطوري أسود اللون، وتزعم بأن الأرواح تحوم فوق مكان ولادته. "والسبب في تعلق الكونفوشيوسية بالخرافات مردُّه سيطرة هذه الفلسفة على العقول سيطرة عارمة، ورغبة أساتذتها في أن يتبوؤوا مكاناً ممتازاً في المجتمع، مثل كهنة العقائد الدينية"(٢).

١٧- قام الكونفوشيوسيون بثورة عارمة في موطن كونفوشيوس ضد الإمبراطور "وو" لعزوفه عن تعاليم كونفوشيوس، وامتثاله لنصائح مدرسة المشرِّعين، لكن الإمبراطور أخمد هذه الثورة، التي راح ضحيتها عشرة آلاف شخص، حيث أمر بإعدامهم.

١٨- أيضاً في عهد أسرة "هان" لم تبقَ الكونفوشيوسية على نقائها وخلوصها، بل امتزجت بها عناصر الطاوية، ومبادئ من فلسفة المشرِّعين، وآراء مدرسة "موتزو"... ورويداً رويداً أصبح على الكونفوشيوسية، التي ثقفت الأسرة الحاكمة

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١ - ص ٣٠١ بتصرف.

(٢) المرجع السابق - ص ٣٠٤ بتصرف.

في أسرة "هان" وغلب عليها التشدُّد في التشريع والاعتقاد، أن تتنحَّى لتخلي السبيل أمام كونفوشيوسية ذات نزعة تأمُّلية عقلانية أكثر صراحة، تمكنت أن تجعل أتباعها أكثر تعاطفاً مع دقائق الفكر البوذي(١)، وهي الكونفشيوسية الجديدة.

١٩- في عام ٢٦٧م صدر مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة لكونفوشيوس أربع مرات في العام.

٢٠- في سنة ٤٢٢م أقيم معبد لكونفوشيوس في "تشي فو" حيث يوجد قبره.

٢١- في سنة ٥٠٥م أقيم معبد آخر في العاصمة، وأصبحت كتبه تدرس في المدارس على أنها كتب مقدسة.

٢٢ - وفي عام ٥٥٥م صدر مرسوم يقضي بإقامة معبد لكونفوشيوس في المدن الكبرى في كل ولاية.

٢٣- وفي سنة ٦٣٠م أمر أحد الأباطرة ببناء معابد مزودة بتماثيل لكونفوشيوس في جميع أنحاء الإمبراطورية، كما أمر بإنشاء كليات لتعليم آراء كونفوشيوس، الذي أصبح رمزاً للوحدتين السياسية والدينية.

٢٤- وفي عام ٦٦٥م لُقِّب كونفوشيوس بالأستاذ الأعظم، أو أنبل الأساتذة.

٢٥- في سنة ٧٣٥م مُنح كونفوشيوس لقب (ملك).

٢٦- في سنة ١٠١٣م مُنح لقب القديس الأعظم، أو أقدس القديسين(٢).

٢٧- في سنة ١٣٣٠م مُنح الأفراد المنحدرون من سلالته رتبة الشرف، وصاروا يُعدُّون من طبقة النبلاء.

٢٨- في سنة ١٥٣٠م بُدِّلت التماثيل الموجودة في المعابد بصور ولوحات حتى

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر - ت: د. إمام عبد الفتاح - ص ٣٥٠ بتصرف.

(٢) قصة الديانات - سليمان مظهر - ص ٢٢١.

والأديان الحية نشوؤها وتطورها - أديب صعب - ص ٩٣.

لا تختلط الكونفوشيوسية بالوثنية(١).

٢٩- وكان أباطرة بيت "مانشو" ينحنون أمام تمثاله إجلالاً واحتراماً، وقد أطلقوا عليه عام ١٦٧٥م اسم "أحكم الأساتذة الأقدمين"(٢).

٣٠- ولم تزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة - بل إلى الوقت الحاضر - وقد خصوه في سنة ١٩٠٦م بمراسم قربانية، كمراسم الإله الأكبر "شانج تي" إله السماء؛ لأنه في عرفهم "ند السماء".

٣١- "واستمرت التعاليم الكونفوشيوسية عبر القرون والأحقاب موضع تبجيل، ولها تأثيرها الطاغي؛ لا في الصين وحدها، بل في كوريا واليابان والهند، وتجاوز تأثير آرائه الشرق الأقصى، فوصل إلى أوربا الغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر"(٣).

٣٢- في سنة ١٩٠٥م بدأ نجم الكونفوشيوسية بالأفول، حيث أُلغي الامتحان الديني الذي كان يعدُّ ضرورياً للتعيين في الوظائف.

٣٣- في سنة ١٩١٠م ظهر "مذنَّب هالي" في الأجواء الصينية فعُدَّ ذلك استياءً من الآلهة على أسرة "مانتشو" التي بلغ الفساد في عهدها قمته، مما أدى إلى ثورة شعبية انتهت بتنازل الإمبراطور عن العرش سنة ١٩١٢م، وتحول الصين إلى النظام الجمهوري مما أدى إلى اختفاء الكونفوشيوسية من الحياة الدينية والسياسية، لكنها بقيت ماثلةً في الأخلاق والتقاليد الصينية.

٣٤- في سنة ١٩٢٨م صدر قرار بتحريم تقديم القرابين لكونفوشيوس، ومنع إقامة الطقوس الدينية له.

---

(١) كونفوشيوس - النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٢٣- ١٢٤ بتصرف.

(٢) الحكماء الثلاثة - د. أحمد الشنتناوي - ص ١٤٥.

وانظر: الكونفوشيوسية - سليم المسلمي- ص ١٣٦ - ١٤٠.

(٣) حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١ - ص ٨٥.

٣٥- عندما استولى اليابانيون على "منشوريا" عادت الصين إلى استنهاض الهمم بالعودة إلى الكونفوشيوسية، وعاد الناس في عام (١٩٣٠ - ١٩٣٤م) إلى تقديم القرابين مرة ثانية، كما أعيد تدريس الكونفوشيوسية في كل مكان، لاعتقادهم بأن نكبتهم ترجع إلى إهمالهم تعاليم المعلم الأكبر.

٣٦- وفي نفس التيار الذي يستهدف إحياء الكونفوشيوسية سارت "حركة البعث الجديد" التي كان يتزعمها الجنرال "تشانج كاي شك"، والتي كانت تتعصب للدين الكونفوشيوسي، حيث كان يعتقد القائمون بها أنها أمنع سد يمكن أن يقف دون تيار الشيوعية الجارف. واستمرت هذه الحركة البعثية للتعاليم الكونفوشيوسية حتى بعد قيام الحرب العالمية الثانية، وحتى استطاعت الشيوعية أن تكتسح قوات "الكومنتانج" وتسيطر على الصين نهائياً (سنة ١٩٤٩م)[١].

٣٧- بعد أن سيطرت الشيوعية على الصين، بدأت الخلافات بالظهور شيئاً فشيئاً - بين الصين والاتحاد السوفيتي - مما أوجد تبايناً بينهما، كما عملت الروح الكونفوشيوسية على تغيير معالم الشيوعية في الصين، مما جعلها أبعد ما تكون عن الشيوعية الروسية، وبعد موت الزعيم الصيني الشيوعي الشهير (ماو تسي تونج) بدأ التراجع عن الشيوعية في الصين، وبدأت رياح الغرب تهب عليها [٢].

٣٨- نشرت مجلة الحزب "العلم الأحمر" في عددها الصادر في شهر فبراير عام ١٩٧٤م ١٦ مقالاً، منها ١٢ مقالاً ضد كونفوشيوس !.

وفي تلك الفترة قامت دائرة المعارف البريطانية بمهاجمة كونفوشيوس، وقالت: إن فلسفة هذا العالم الحكيم سلبية، وإنه ساد تفكير الصين أكثر مما سادتها الحقيقة! كما صدرت ٤ كتيبات تهاجم نظرية كنفوشيوس وتعاليمه وآراءه، وقد طبعت إحدى المقاطعات مليوناً ونصف مليون نسخة من هذه الكتيبات. وفي

(١) كونفوشيوس- النبي الصيني- د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٢٦.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - م٢ - ص ٧٥٠ - ٧٥١.

مقاطعة "يي آن" مهد الثورة نشر طلاب إحدى المدارس الثانوية ٣٩٠٠ مقالاً ضد كونفوشيوس!(١).

٣٩- تشهد الصين هذه الأيام عودة للكونفوشيوسية، وذلك على المستوى الحكومي والشعبي، إلى جانب أنها تمثل الأساس الرئيس للنظم الاجتماعية في "فرموزا" (الصين الوطنية)(٢)، ولا أدلَّ على ذلك من الاهتمام البالغ بإقامة عيد ميلاد كونفوشيوس كل عام، وقد جعلوا يوم ميلاده - وهو السابع والعشرون من أغسطس - عيداً قومياً، يحجون فيه إلى مسقط رأسه، برعاية الحكومة (وينوب عنها موظف كبير في حفل الصلاة) وحضور أتباع الكونفوشيوسية من أرجاء الصين والدول الأخرى.

٤٠- كما تُقام بين الفينة والأخرى مراكز للدراسات الكونفوشيوسية خارج الصين، إلى جانب المراكز الموجودة في الداخل (٣) ومنها الموجود في هونج كونج، ومعهد كونفوشيوس في سيول عاصمة كوريا الجنوبية، والذي أُسِّس في نوفمبر عام ٢٠٠٤م، ومعهد كونفوشيوس في العاصمة السويدية ستوكهولم في فبراير ٢٠٠٥م، ومعهد كونفوشيوس في فرنسا في يونيو ٢٠٠٥م.

كما يسعى مكتب فرقة القيادة لتعليم اللغة الصينية الموجَّه إلى الخارج الذي أسس في عام ١٩٨٧م؛ لإنشاء مائة معهد مثل معهد كونفوشيوس في أنحاء العالم(٤). وسيأتي المزيد في الفصل الخامس من الباب الثالث بحول الله.

(١) ولا عجب إلا الصين – محسن محمد – ص – ٨٩ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس–النبي الصيني– د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢٦.

(٣) حيث هناك على سبيل المثال مركز متكامل للدراسات الكونفوشيوسية في جامعة المعلمين بمدينة (تشي فو) مسقط رأس كونفوشيوس، وقد قابلت مدير المركز ونائبه، ووضحوا لي نشاط المركز ومشاركاته حتى خارج الصين، كما يوجد في "تشي فو" أيضاً مركز كونفوشيوس الحضاري، ومعبد كونفوشيوس، وقصور أسرة كونفوشيوس، ومقبرة أسرة كونفوشيوس التي بها قبره. كما وضع تمثال كبير لكونفوشيوس وسط الساحة الرئيسية لجامعة المعلمين، وكل هذه المعالم تحظى باهتمام حكومي وشعبي كما لحظنا.

(٤) موقع شنخوا نت على شبكة الإنترنت ١١ مارس ٢٠٠٥م.

٣- أثر فكر كونفوشيوس على المجتمع الصيني

لم يصادف كونفوشيوس في حياته النجاح الذي ينشده، ولكن بعد موته (عام ٤٧٩ق. م) حققت أفكاره نجاحاً فاق كل التوقعات، واستطاعت هذه الأفكار أن تسيطر على الشعب الصيني، وتشكل فكره الأخلاقي والديني والسياسي والتربوي أكثر من خمسة وعشرين قرناً من الزمان.

ذلك لأن العلماء والأدباء الذين أتوا بعده استمسكوا أشد استمساك بمبادئه وأفكاره، واتخذوها سبيلاً إلى السلطان وتسلُّم المناصب، وأوجدوا طبقة من العلماء الكونفوشيوسيين أصبحت أقوى طائفة في الإمبراطورية كلها، وانتشرت المدارس في أنحاء البلاد لتعلِّم الناس فلسفة كونفوشيوس التي تلقاها الأساتذة من تلاميذ المعلم الأكبر، ونمّاها "منشيوس"، وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام. وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية والفكرية في الصين، فأبقت شعلة الحضارة متَّقدةً من خلال القرون الطوال التي تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية[١].

ومن الملحوظ أن كتابات كونفوشيوس ظلت ـ في معظم الفترات التاريخية ـ هي النصوصَ المقررة في المدارس الصينية، جيلاً بعد جيل، ويكاد كل صبي يتخرج من تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها كونفوشيوس في قلوب الصينيين، وسرت في دمائهم، وأكسبت أفراد الأمة الصينية ـ على حد تعبير ول ديورانت ـ كرامةً وعمقاً في التفكير لا نظير لها في غير الصين، واستطاعت الصين ـ بفضل هذا الفكر ـ أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة، أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها، وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها، وأن تشكل

(١) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج٤ – ص ٦٤.

هي الغُزاةَ على صورتها، وتطبعهم بطابعها[١].

ويلحظ أن الفكر الكونفوشيوسي لم يقتصر أثره على الصين وحدها، بل نشأت اتصالات ثقافية واسعة مع اليابان وكوريا والهند وفارس والبلدان العربية، كما تركت أفكار كونفوشيوس وغيره من المفكرين الصينيين أثراً بالغاً في ثقافة الصين وفي الثقافة العالمية أيضاً[٢].

ومن أثره أنه أنشأ مدرسة فكرية أنجبت أساتذة ما برحوا يؤثِّرون في الفكر الصيني حتى اليوم، كما أنه شرح الكتب الصينية القديمة، وهذَّبها وعلق عليها، فكتاب "التغيرات" مثلاً كان موجوداً قبل كونفوشيوس، لكن الحواشي والتعليقات أسبغت عليه أهمية كبرى بعد ذلك، وما قيل عن هذا الكتاب يقال عن باقي الكتب التي هي ينابيع الفكر الصيني[٣].

ويعتقد البعض أن كونفوشيوس لم يكن رئيساً دينياً، فأفكاره قد دُرِّست بصورة عامة في تاريخ الفكر الفلسفي، ولكن بصورة مباشرة أو غير مباشرة، قد أثر كونفوشيوس بعمق على الديانة الصينية. وسبب ذلك التأثير أن فكره السياسي والأخلاقي هو ديني في المقام الأول، ويضاف إلى ذلك أنه مجَّد وقيَّم الوظيفة الدينية للطقوس المعتادة، واعتقد كونفوشيوس بأنه مكلف برسالة من قبل السماء، وحن كونفوشيوس إلى الماضي، فقد كان أميناً للقدماء حيث قال "لقد علمت وأعلموني إياه دون أن أضع فيه من عندي، وقد كنت أميناً للقدماء وقد أحببتهم"؛ ولذلك كان يتمنى أن يعيش في عصر متطور[٤].

---

(١) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج٤ – ص ٦٧ بتصرف.
انظر: المرجع في تاريخ الأخلاق – د. محمد مرحبا – ص ٢٣٧ – ٢٧٤.
وكتب غيرت الفكر الإنساني – أحمد الشنواني – ج ١ – ص ٤٨.

(٢) الصين – تشين – شي – دار النجم الجديد – بكين – الصين – سنة ١٩٩٢م ص ١١.

(٣) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية – علي معبد فرغلي – ص١٧٥.
وانظر: حكمة الصين– د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ٨١.

(٤) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية– ميرسيا إلياد – ت: عبدالهادي عباس –ج ٢– ص٢٣–٢٥.

إن فكر كونفوشيوس الأخلاقي هو مجمل لكافة القيم الدينية والفلسفية والأدبية والسياسية للصين، وما من شيء في الحياة اليومية الصينية لم يتأثر بطريقة أو أخرى بالكونفوشيوسية، وما من عمل مهم، وما من سلوك عائلي، وما من عمل أدبي أو فلسفي، وما من مراسم، وما من مظهر من مظاهر آداب السلوك والمعاشرة، وما من عمل اجتماعي وأخلاقي في الصين خلا من تأثير كونفوشيوس(١).

ومما يوضح مدى هذا التأثير ما كتبه الكاتب الصيني "تشانغ لو" (عام ١٩٠٩م) في صحيفة إنجليزية، حيث قال: "لقد عشنا في الصين على رأس مال جمعه أسلافنا، ولقد حُفظت لنا بصيرة وحكمة فيلسوفنا العظيم كونفوشيوس، وبدونه لكان الشرق الأقصى (الصين - كوريا - سينام) وحتى اليابان القوية للغاية اليوم، قد غرق في أعماق البربرية"(٢).

وبعد أن عرفنا مدى تأثير فكر كونفوشيوس على الفكر الصيني، بل والمجتمع الصيني في كل نواحي الحياة... نتساءل: ما هو السر في نجاح الفكر الكونفوشيوسي في السيطرة على الفكر الصيني منذ القدم حتى الآن؟ لعل السر في ذلك يرجع إلى أسباب عدة؛ نذكر منها:

أولاً: طبيعة الفكر الصيني، فهو فكر عملي لا يقف عند حدود الاستقامة اللفظية والصحة العقلية للصيغ، ويدور معها، بل يعبأ بالواقع وإمكانية التطبيق الحقيقي، وذلك بخلاف الفكر اليوناني النظري اليوتوبي الغارق في توهيماته الخيالية، ولا يلتفت إلى الظروف الواقعية الموضوعية(٣).

ثانياً: أن الأفكار التي أتي بها كونفوشيوس معبِّرة أصدق تعبير عن نفسية المجتمع الصيني، مِمَّا أدى إلى وجود تجاوب ازداد شدة على مر العصور بين آرائه

---

(١) حكمة الصين - هـ. فان براج - ت: موفق المشنوق - ص ٩٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق - ص ٩٨.

(٣) الفكر الأخلاقي دراسة مقارنة - محمد عبدالله الشرقاوي - ص ٥٢.

وبين اتجاهات العقلية الصينية.

ثالثاً: ذلك التراث العلمي الضخم الذي خلّفه كونفوشيوس وتلاميذه عن التاريخ الصيني السحيق للعصور السابقة على عصورهم، وتعليقاتهم على هذا التاريخ، وهو الجانب الذي أهملته المدارس الفلسفية الأخرى.

رابعاً: الأخلاق الشخصية التي تحلّى بها كونفوشيوس نفسه، فهو من الشخصيات التي ترك أصحابها طابعاً قوياً كان له أثره على الأجيال المتعاقبة(١).

٤- تأثير الكونفوشيوسية على الأديان الأخرى في الصين

الأديان المختلفة التي نشأت في الوسط الصيني؛ سواء منها الأديان الصينية الصميمة كالطاوية، أو تلك التي أتت من الخارج لتغزو الصين كالبوذية والنصرانية، قد تأثرت ـ إلى حد بعيد ـ بالروح الكونفوشيوسية التي تعبِّر عن الروح الصينية أبلغ تعبير؛ فلقد استعارت البوذية الصينية من الكونفوشيوسية أفكارها الأخلاقية، ومبدأ عبادة أرواح القدامى وتقديسهم، كما ظهر علماء صينيون حاولوا التوفيق بين البوذية والطاوية والكونفوشيوسية. فمن الطاويين، أعلن "تان تشياو"، في القرن السادس الميلادي: أن "الطاو" هو المبدأ الرئيس في الأديان الثلاثة، ومن البوذيين "لي شيه تشين" في القرن نفسه (٥٩٠ م)، الذي شبَّه البوذية بالشمس، والطاوية بالقمر، والكونفوشيوسية بالكواكب الخمسة.

وبادر راهب بوذي لاحقاً إلى وضع تماثيل كونفوشيوس و"لاو تس" و"بوذا" في المعبد جنباً إلى جنب. وشجعت الدولة تلك المبادرة وقتاً طويلاً. ومن الكونفوشيوسيين، قال "وانغ تنغ" (٥٨٣ – ٦١٦ م): إن المبدأ الوسط هو المبدأ الذي يجمع بين الأديان الثلاثة(٢).

(١) كونفوشيوس النبي الصيني –د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٤.

انظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبدالرحيم شعبان – ص ١٦٨– ١٧٢.

(٢) الأديان الحية نشوؤها وتطورها – أديب صعب – ص ٩١. وانظر: الأديان في تاريخ شعوب العالم – سيرغي أ – تو كاريف – ت: أحمد فاضل – ص٢٧٥ – ٢٧٦.

كما نجد أن الديانتين اليهودية والنصرانية قد اضطرتا إلى تكييف مبادئهما وفقاً لهذه الروح، ولاسيما العادات والتقاليد التي كانت أساس حياة الأسرة الصينية الريفية، وهي التقاليد القائمة على الكونفوشيوسية، ولعل التاريخ الحافل للكونفوشيوسية، وتأصل هذه الروح في نفوس الصينيين من الأسباب الرئيسة التي عزّى بها السياسيون الغربيون أنفسهم، بعد أن تبلشفت الصين بعد الحرب العالمية الثانية؛ لأنهم كانوا يأملون أن الروح الكونفوشيوسية الصينية الكامنة في النفسية الصينية ستؤدي حتماً إلى ابتعاد الشيوعية الصينية عن الشيوعية الروسية، وانتهاجها منهجاً آخر، لاسيما وقد أخفقت الشيوعية في الوسط الصيني عندما أراد بعض المفكرين ورجال السياسة تطبيقها في القرنين السابقين على الميلاد[(١)].

فالكونفوشيوسية ـ التي هي روح الصين ـ تقدس الملكية الفردية ونظام الطبقات، وهذا هو سر تفاؤل بعض المفكرين الغربيين في ذلك الوقت، وقد تحقق لهم ما تفاءلوا به، حيث أبعدت الروحُ الكونفوشيوسية الشيوعية الصينية عن الشيوعية الروسية، ثم ما لبثت الشيوعية أن انهارت، وها نحن نشهد عودة الكونفوشيوسية هذه الأيام.

٥- الكونفوشيوسية في آسيا

لم تقتصر الكونفوشيوسية في انتشارها على الصين، بل لقد انتشرت في كوريا وكثير من جهات اليابان، ولتوضيح ذلك أقول:

أ - الكونفوشيوسية في اليابان:

- لقد دخلت منتخبات كونفوشيوس إلى اليابان في القرن الثالث الميلادي، كما كان يقوم بتدريسها للأمير الياباني الجالس على العرش مدرس كوري يدعى "واني".

- ثم إن الدستور الياباني القديم، الذي أصدره الإمبراطور "شو تو كو"

(١) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٣٨ - ١٣٩ بتصرف.

(٥٧٣- ٦٢١ م) وإن كان قد أعلن أن الديانة الرسمية لليابان حين ذاك هي البوذية، إلا أن الكونفوشية كانت أساساً لجميع ما ورد فيه من مبادئ أخلاقية وأسرية. وفي القرن السابع الميلادي أدخلت جامعة "نارا" اليابانية كلاسيكيات كونفوشيوس في برامج الدراسة.

– ويمكننا ـ على العموم ـ أن نردد ما أتى على لسان أستاذ ياباني، من أن الكونفوشيوسية تُعدُّ من بين الأسس الرئيسة التي شكلت الأخلاق في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقي في عصريها الوسيط والحديث، ولا أدلَّ على ذلك من الأمر الإمبراطوري الياباني الذي صدر عام ١٨٩٠م محدداً أهداف التعليم والتربية بما لا يخرج عن تعاليم كونفوشيوس في نصها وروحها، حيث يخاطب الأمر رعايا الإمبراطورية بقوله: "رعايانا، كونوا بارين بآبائكم، محبين لإخوتكم وأخواتكم، كونوا منسجمين كأزواج وزوجات، ومخلصين كأصدقاء، والتزموا الاعتدال والتواضع، ولتسع نيتكم الخيِّرة كلَّ الناس، وجمِّلوا أنفسكم بالدراسة، وانهضوا بالفنون. وإلى جانب ذلك اعملوا على تنمية مداركم العقلية، وتقويه روحكم الأخلاقية"(١).

وبموازنة هذا الخطاب بأقوال كونفوشيوس، نجد أنه يحمل الأفكار والتوجهات نفسها.

– ويطلق اليابانيون على الكونفوشيوسية اسم "كونشي"، بينما يطلقون على الكلاسيكيات الكونفوشيوسية اسم "شي – جو – كيم": أي: الكتب الأربعة والمبادئ الخمسة، وقد دخلت الكونفوشيوسية اليابان في العصور المبكرة، جنباً إلى جنب مع عناصر الحضارة الصينية المختلفة، ونشطت في بداية القرن السابع عشر الميلادي حين قام "أياسو" الحاكم العسكري الياباني بإصدار أوامره بطبع الكلاسيكيات الكونفوشيوسية في اليابان لأول مرة. ومن المعروف أن كونفوشيوس

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢٨ – ١٢٩ بتصرف.

نفسه كان يدعو إلى تأسيس مملكة مركزية، إلا أن تعاليمه فيما يتعلق بالحكام وأتباعهم، وبالآباء والأبناء، كانت تتناسب تماماً مع الأفكار الإقطاعية لليابان القديمة.

وظهرت أسماء لامعة في الكونفوشيوسية اليابانية، نذكر منها على سبيل المثال: "إيتو جنساي"، وابنه "إيتو توجاي" في مدينة "كيوتو"، و"آراي هاكوسئيكي"، و"أوجئيو سوراي" في مدينة "إيدو". وبرز هؤلاء المفكرون الأربعة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادي، واقتصر عملهم على شرح الكتابات الكونفوشيوسية وتفسيرها، ولم يوجد مفكر ياباني جاء بأصول خاصة، كما لم يحاول المفكرون اليابانيون تطوير الكونفوشيوسية الصينية، فضلاً عن أنه لا توجد ترجمات يابانية أو تفاسير تستحق القراءة[1].

- ومع تحديث المجتمع الياباني، فإن القيم الكونفوشيوسية لا تزال راسخة في أذهان الشعب الياباني المعاصر، تلك القيم التي تدل على أن تأثير الكونفوشيوسية في اليابانيين يفوق تأثير أي ديانات تقليدية أو فلسفات أخرى، والكتابة عن الأديان في اليابان، وعن المعتقدات الدينية لدى اليابانيين، تصبح ناقصة إذا ما تجاهلنا الكونفوشيوسية وتأثيرها في الشعب الياباني[2].

- ويرى "رايشاور" ـ وهو أمريكي عاش طوال حياته تقريباً في اليابان ـ أن الياباني إذا كان لا يعدُّ نفسه اليوم كونفوشيوسياً، إلا أننا نجد أن اليابانيين جميعاً بصورة أو بأخرى كونفوشيوسيون تقريباً. وإذا كان هذا رأي المفكر الأمريكي الياباني المولد والثقافة إن صح التعبير، فمن الضروري أن نثبت هنا رأي المفكر والفيلسوف الياباني الشهير "إنازو نيتوبيه" صاحب كتاب "البوشيدو" روح اليابان، الذي يرى أن مبادئ كونفوشيوس تعد أخصب المصادر، وأغزرها مادة،

---

(١) الإسلام والأديان في اليابان – د. سمير عبدالحميد ص ١٩١ بتصرف.

(٢) انظر: موجز تاريخ الأديان – فيلسيان شالي – ت: حافظ الجمالي – ص ١٢٢.

فيما يتصل بالنظريات والتعاليم الأخلاقية.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم اليابانيين يعدُّون الكونفوشيوسية شيئاً مختلفاً عن الدين، فهم يعدونها شكلاً من أشكال الفكر السياسي، والتعاليم الأخلاقية. إلا أن وجود بعض الأفكار الكونفوشيوسية المتعلقة بالإمبراطور السامي أو الإله "تشانغ - تي"، والحكم المقدسة "شينغ"، وأفكار السماء "تائين"، وبعض الملحوظات الخاصة، يجعل الكونفوشيوسية يُنظر إليها على أساس أنها دين، رغم أنها لم تكن أبداً مثل "الشنتوية" أو "البوذية"، حتى خلال عصر "طوكو جاوا" (١٦٠٣م - ١٨٦٨م) حين كانت في قمة ازدهارها، فالكونفوشيوسية اليابانية كانت مدرسةً فلسفية أكثر من كونها طائفة دينية.

إلا أن هناك بعض المستلزمات التي فرضت نفسها، من خلال الحياة اليومية، لمن اعتنق البوذية أو الشنتوية، كان لها أثر في تشكيل الأفكار اليابانية عن الكونفوشيوسية، كما أن الكونفوشيوسية ـ من ناحية أخرى ـ تغلغلت في الحياة العملية لليابانيين، فكان لها تأثير كبير على سلوكهم(١).

وهناك من يرى أن اليابانيين استطاعوا أن يجمعوا بين: الشنتوية (اليابانية)، البوذية (الهندية)، والكونفوشيوسية (الصينية) في وقت واحد، ويمزجوا بينها لتصبح عقيدةً يابانية واحدة، تطوع الكونفوشيوسية والبوذية لمعتقدات الشنتوية التي ترتبط بالوطن الياباني والأسرة الحاكمة، واستدلوا على ذلك بموقف اليابانيين من نظام الحكم الإمبراطوري "سليل الآلهة"، وفي البوذية عدُّوه "سليلَ بوذا العظيم" وفي الكونفوشية عُدَّ الإمبراطور "منبع الفضائل التي يقوم على أساسها المجتمع الخيِّر"(٢).

(١) الإسلام والأديان في اليابان - د. سمير عبدالحميد ص ١٩٢ - ص١٩٦ - بتصرف.

(٢) الأصول الثقافية للنهضة اليابانية الحديثة - د. رؤوف عباس حامد - المجلة التاريخية المصرية - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - المجلد ٢٣ - ١٩٧٦م- ص ٢٤١.

ب- الكونفوشيوسية في كوريا

من المرجَّح قدوم الكونفوشيوسية إلى كوريا في القرن الرابع الميلادي كالبوذية، وهي في أساسها قامت على الكتابات الكلاسيكية للكونفوشيوسية، وتعاليمها الأساسية مثل كونفوشيوسية الصين، ولم تتح للكونفوشوسية فرصة النمو تحت ظل البوذية التي كانت الدين الوطني لسلالة "سيللا"، "وكوريو" في القرن الخامس والرابع عشر تقريباً. وقريباً من نهاية سلالة "كوريو" في القرن الثالث عشر والرابع عشر، بدأت تكتسب أهميتها في كوريا، حيث ساهم "شونج مونج جي" و"شونج تو شون" وغيرهما في إرساء أساس الكونفوشيوسية في سلالة "يي"، التي أصبحت الكونفوشوسية في عهدها دينَ الدولة.

ولقد تراجعت البوذية في عهد سلالة "كوريو" علاوة على سقوط هذه السلالة، ثم فقدت قيادتها بين الناس بسبب فسادها المرتبط بالنظام السياسي، وفي الوقت نفسه قُدِّر للكونفوشوسية أن تكون الفلسفة الرائدة في عهد سلالة "يي"؛ إذ إن المؤسسين لسلالة (يي) قد تعاطفوا مع الكونفوشوسية وعارضوا بشدة البوذية.

وكان التيار الرئيسي لكنفوشوسية سلالة "يي" "سونجليهاك" (مدرسة مبدأ الطبيعة البشرية) التي أكدت أهميةَ المعرفة الفردية وتنور الشخصية. و"سو نجليهاك" في أساسها فلسفة عقلانية ونظرية، وقد وجد المفكرون في خضم القلاقلَ السياسية في دراسة الكونفوشوسية في الأماكن المنعزلة والهادئة مهرباً وملاذاً(١).

ومن أبرز مفكري الكونفوشيوسية في عهد سلالة "يي": "سوهو أدام"، و"يي توواجي"، و"يي يوو لجوك". وقد كان "يوو لجوك" (١٥٣٦ - ١٥٨٤م) أكثرهم

(١) الفكر الشرقي - د. يونغ شوون كيم- ت: د. طلعت مراد، ود. حميد علي - ص ١٥٦.
وانظر: الأديان في تاريخ شعوب العالم - سيرغي أ - تو كاريف - ت: أحمد فاضل - ص٢٨٩ - ٢٩٠.

تألقاً وشهرة، وكان أعظم مفكر كونفوشيوسي في التاريخ الكوري، وتفخر الكونفوشيوسية الكورية بإنجازاته، وقد بلور بعض الأفكار الأصلية ذات المغزى العميق، ويشهد له التاريخ بأنه كان سيداً أميناً هادئاً موقراً، وغير عنصري، كما اشتهر بتفانيه لصالح الأمة أكثر من مصلحته الشخصية حينما كان يشغل مركزاً مرموقاً في عهد سلالة "يي".

وكان "يو و لجوك" على قناعة بأن الكونفوشيوسية أفضل فلسفة أخلاقية وسياسية تُصلح حال الأمة...(١) وهناك العديد من المفكرين الكونفوشيوسيين في كوريا ـ قبله وبعده ـ لكنه كان الأبرز والأكثر أثراً...(٢).

٦- تأثير الكونفوشيوسية على الفكر الأوربي:

في القرنين السابع عشر والثامن عشر اتجه مفكرو أوروبا إلى الصين، فقد نشر أحد المفكرين مؤلَّفاً باللاتينية والفرنسية سنة ١٦٦٢م عنوانه "حكمة الصينيين"، ضمَّنه المؤلف حياة كونفوشيوس، مع ترجمة كاملة باللاتينية لمذهبه في "الوسيط الذهبي". وقد أثار الأب "لو كونت" فضول العلماء الأوربيين بكتابه "تاريخ الصين". وفي هذا الوقت كثر ظهور ترجمات الآداب الكلاسيكية الصينية في أوربا، وفي عام ١٦٨٣م نشر في أوربا ترجمة لكتاب "تشنج ينج" أحد الكتب الكلاسيكية الصينية الأربعة، مع تذييل يحوي حياة كونفوشيوس باللغتين اللاتينية والفرنسية، وجعلوا عنوانه "علوم الصينيين السياسية والأخلاقية"(٣).

وفي سنة ١٦٨٧م صدر مؤلَّف باللاتينية بعنوان "كونفشيوس حكيم الصينيين"،

---

(١) الفكر الشرقي – د. يونغ شوون – ص ١٥٧ بتصرف.

(٢) اكتفيت بذكر بعض مفكري الكونفوشيوسية في كوريا خشية الإطالة... وموضوع الكتابة عن الكونفوشيوسية في دول شرق آسيا – باستثناء الصين– مثل اليابان وكوريا وغيرهما يحتاج إلى بحث مستقل.

(٣) آسيا والسيطرة الغربية – ك – م – بانيكار – ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد – م: أحمد خاكي – ص ٤٨٨.

يحتوي على حياة الفيلسوف، مع ترجمة لبعض مؤلفاته ومؤلفات تلاميذه، ولاسيما كتاب "المنتخبات"، مع بعض الشروح والتعليقات.

كما بدأ بعض المؤلفين اليسوعيين في إخراج عدد من المؤلفات يتناول نواحي فكر كونفشيوس المختلفة، ولقد نشر "بيترنويل" سنة ١٧١١م كلاسيكيات كونفشيوس، وصدرت عشرات المؤلَّفات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في معظم الدول الأوربية، كان من أثرها تعريف الأوربيين بالفكر الصيني على وجه العموم، وفلسفة كونفوشيوس بوجه خاص[١].

والجدير بالذكر في هذا الشأن هو تقدير الفيلسوف والعالم المشهور "ليبنتز" (١٦٤٦- ١٧١٦م) حيث عرض رأيه في كونفوشيوس في كتاب أصدره (سنة ١٦٩٧م) بعنوان "أحدث الطرائف الصينية". وهو يشتمل على معلومات قيِّمة عن المذهب الكونفوشيوسي، استقاها المؤلف من كتب اليسوعيين، وفي مقدمة هذا الكتاب ينظر "ليبنتز" إلى كونفوشيوس من وجهة النظر البروتستانتية الألمانية، فيقول بأن ثمة مركزين للثقافة في العالم: أحدهما في أوربا، والآخر في الصين، ثم عبَّر عن أمله في أن تكون روسيا بمثابة جسر تمر عليه الثقافة من كلا المركزين للآخر، حتى تمتزج ثقافة كلا المركزين في ثقافة واحدة متكاملة الأجزاء.

فالثقافة الأوروبية - فيما يرى "ليبنتز" - قد بزَّت الصين في الرياضيات والفلك والمنطق وما بعد الطبيعة، على حين تفوقت الثقافة الصينية في الأخلاق، ورسم قواعد التنظيم الاجتماعي والسياسي، ثم يضيف الفيلسوف إلى ذلك: "من كان يعتقد حقيقة أن هذا الشعب (الصيني) يتفوق علينا نحن الذين قد نمت عندهم قواعد الأخلاق، واستقرت على أسس ثابتة؟ إذ على الرغم من أننا قد نكون مساوين لهم في الذكاء والجد، ومتفوقين عليهم في المعرفة التأملية، فإنهم متفوقون علينا بفلسفتهم العملية؛ أي: في تنظيمهم الأخلاقي والسياسي. فهم يجلون

(١) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٢٩ بتصرف.

الطاعة للرؤساء، ويحترمون الشيوخ، ويقدسون الآباء والأجداد، بحيث تعتبر الكلمة السيئة في حق أحدهم كجريمة قتل الوالدين عندنا".

وأخيراً يشير "ليبنتز" على الصين أن ترسل ببعثات ومبشرين لكي يعلِّموا أوروبا تعاليمَ دينهم الطبيعي بنظرياته وتطبيقاته، وينتهي من ذلك إلى أنه لو قُدِّر لشخص عادل أن يكون حكَماً لَمَا تردد في منح الأفضلية للصين على أوروبا...[١].

وتبقى مسألة ذات أهمية: هي أن معرفة الفكر الصيني، والنظم الصينية التي بعث بها المبشرون إلى أوروبا في خطاباتهم، وعن طريق ترجمة كتبهم، قد أثَّرت تأثيراً بالغاً في الأوروبيين أمثال الفيلسوف "لبينتز"، و"فولتير" وغيرهما كثير.

بل إن هناك من يرى أن "حكمة" كونفوشيوس كان لها أثر مهم في القضاء على التعصب الديني والحروب الناجمة عنه التي أجهدت الأوربيين، كما أدت هذه "الحكمة" إلى تطوير مفاهيم المساواة الإنسانية والديمقراطية السياسية في الغرب، الذي كان يبحث دائماً عن الثقافة الإنسانية المتوازنة[٢].

وقد حاول المبشرون الربط بين الكونفوشيوسية والنصرانية، وكانت وسيلتهم في ذلك: أن يقولوا: إن النصرانية تؤكد دعوةَ كونفوشيوس، واعتنق الأباطرة دعوة كونفوشيوس؛ لأنها تدعو الشعب للطاعة[٣].

وحاول المبشرون أن يؤيدوا دعوة كونفوشيوس حتى يُسَوِّغوا وجودهم في الصين، ويحافظوا على مناصبهم التي تقلدوها في الصين.

وأكدوا أن كونفوشيوس وتعاليمه كانا قريباً من درجة الكمال، وقرروا أن المبادئ الكونفوشيوسية قد صدرت عن وحي وتنزيل، وأن الصين قد تلقتها عن

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٣٠.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني – ص ١٣٥ بتصرف.

(٣) ولا عجب إلا الصين – محسن محمد – ص ٨٧.

"أبناء نوح عليه السلام" وذلك بهدف القضاء على الامتيازات التي كانت ممنوحة للطبقات الإقطاعية[١].

ولكن ما هو هدف المبشرين النصارى من دخول الصين؟

كان هدفهم تحول الصين إلى الديانة النصرانية[٢]، ولتحقيق ذلك الغرض درسوا الأدب الصيني والفلسفة الصينية دراسة بالغة الدقة.

---

(١) الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبدالرحيم شعبان – ص ١٧٥ بتصرف.

(٢) جهود المنصرين في الصين ظاهرة، وقد لحظت ذلك في عدد من المدن الصينية التي زرتها، سواءً بجهودهم الفردية أو الجماعية، أو عبر وسائل الإعلام، أو غيرها من الوسائل كالمراكز والشركات... وقد رأيت في بكين كنيسة كبيرة قيل لي إنها تزدحم بالمصلين يوم الأحد، حتى إنهم يصلون في هذه الكنيسة سبع دفعات أو أكثر... كما لحظت إعجاب كثير من الشباب الصيني بكل ما هو غربي، ومحاولة محاكاتهم في كل شيء...

الباب الثالث

معتقدات الكونفوشيوسية وأفكارها

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: كتب الكونفوشيوسية

الفصل الثاني: المعتقدات

الفصل الثالث: الأفكار الكونفوشيوسية

الفصل الرابع: الجذور العقدية والفكرية لمعتقدات الكونفوشيوسية وأفكارها

الفصل الخامس: حاضر الكونفوشيوسية

الفصل الأول

كتب الكونفوشيوسية

تمهيد:

تقدس الكونفوشيوسية مجموعتين من الأسفار والكتب:

المجموعة الأولى: يسمونها الأسفار الخمسة (وو جينغ).

وهي:

١- سفر القصائد

٢- سفر التاريخ

٣- سفر الشريعة

٤- سفر التغيرات

٥- سفر الربيع والخريف

والمجموعة الثانية: يسمونها الكتب الأربعة (سي شو)

وهي:

١- كتاب المعرفة الكبرى

٢- كتاب سنة التوسط

٣- كتاب الحوارات أو (المنتخبات)

٤- كتاب منشيوس

وإذا كانت الكونفوشيوسية قد مرت عليها مراحل تاريخية طويلة جداً، فحقيقة الأمر أن تقديسها للأسفار والكتب يختلف باختلاف المراحل التاريخية المختلفة.

أولاً: الأسفار المقدسة:

أقدم ما ورد عن الأسفار المقدسة في الكونفوشيوسية هو قول كونفوشيوس الذي قاله أمام "لاو تس" صاحب "داو ده جينغ"(١). "أنا أعمل على القصائد، التاريخ، الشريعة، الموسيقى، التغيرات، الربيع والخريف. هذه الأسفار الستة، وأرى أنني قد عملت عليها وقتاً طويلاً!"(٢).

وهذا النص يثير هنا سؤالاً مهماً، وهو: لماذا نقول: إن الكونفوشيوسية تقدس الأسفار الخمسة، بينما يقول كونفوشيوس: إنه قد عمل على الأسفار الستة وقتاً طويلاً؟ وأين كتاب الموسيقى المذكور في النص؟

والجواب عليه: أن هناك قولين عن سفر الموسيقى؛ القول الأول: يقول: إن هذا السفر قد أُحرق بالنار عندما أمر الإمبراطور الظالم "تشين شي هوانغ"(٣) بإحراق الأسفار والكتب القديمة في (سنة ٢١٣ ق. م)، ولم يكشف عنه بعد ذلك(٤)، وأما القول الثاني؛ فيقول: إن سفر الموسيقى ليس بسفر مكتوب أصلاً، بل كان نوعاً من النوتة الموسيقية الملحَقة بسفر القصائد.

فإذا أخرجنا سفر الموسيقى من الأسفار الستة، فتكون المجموعة الأولى من

---

(١) سبق الكلام عنه وعن كتابه في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) كتاب "جشوانغ تس"، الفصل الرابع عشر، فصل "تيان يون"؛ أي: مصير السماء. وهو كتاب مقدس في الطاوية، وقد اشتهر بأنه أحد الأسرار الثلاثة بين الكتب الصينية القديمة مع كتاب "داو ده جينغ"؛ أي: كتاب الطريقة وأخلاقها، وكتاب "يي جينغ"؛ أي: سفر التغيرات للكونفشيوسية.

(٣) "تشين شي هوانغ": ولد في سنة ٢٥٩ق. م، ومات في سنة ٢١٠ ق. م، أول إمبراطور في التاريخ الصيني، وقد وحَّد الصين بعد فترة الإمارات المتحاربة تحت حكومة مركزية في سنة ٢٢١ ق. م، وكان مشهوراً بالظلم والجور، ومن ظلمه للعلم والعلماء: أنه أمر بإحراق الأسفار والكتب القديمة، ودفن أربعمائة وستين عالماً وهم أحياء؛ لأنهم قد نقدوه منطلقين من موقف الأسفار والكتب المقدسة القديمة. (المعجم الصيني، ص ١٦١٣).

(٤) انظر: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى- د. شعبان عبد العزيز – ص ٤٥٤.

الكتب المقدسة في الكونفوشيوسية خمسة أسفار؛ هي: سفر القصائد، وسفر التاريخ، وسفر الشريعة، وسفر التغيرات، وسفر الربيع والخريف[١].

وأما عن ترتيب هذه الأسفار، وسبب الاختلاف فيه؛ فهناك في القديم رأيان مختلفان:

الرأي الأول: يذهب إلى أن الترتيب الصحيح للأسفار هو: سفر التغيرات، ثم سفر التاريخ، ثم سفر القصائد، ثم سفر الشريعة، ثم سفر الموسيقى، ثم سفر الربيع والخريف.

وأما الرأي الثاني: فيذهب إلى أنه يجب أن يكون على الترتيب التالي: سفر القصائد، ثم سفر التاريخ، ثم سفر الشريعة، ثم سفر الموسيقى، ثم سفر التغيرات، ثم سفر الربيع والخريف.

وأصل الاختلاف بين هذين الرأيين كان في نسبة هذه الأسفار إلى "تشو قونغ"[٢]، أو إلى كونفوشيوس؛ فأصحاب الرأي الأول يروْن أن هذه الأسفار من عمل "تشو قونغ"، إلا سفر الربيع والخريف، وما قام به كونفوشيوس من العمل عليها كان في جانب الجمع والتحرير والتصنيف فقط، وهم يرتبونها ترتيباً زمنياً؛ أي: حسب زمن النشأة لكل سفر، أو حسب المحتويات المتعلقة بالزمن. وأما أصحاب الرأي الثاني، فيروْن أن هذه الأسفار من عمل كونفوشيوس، ووظيفتها الأساسية تعليم الناس وتربيتهم، فيرتبونها حسب عمق معاني محتويات الأسفار، وبساطتها بالنسبة إلى الدارسين[٣].

ومما يُذكر في هذا الصدد أيضاً أن هناك فرقاً بين ما يسمى بالنسخة الجديدة،

---

(١) سنتناول الحديث بشيء من التفصيل عن هذه الأسفار الخمسة، وسأغفل الكلام عن سفر الموسيقى، وإن كان كونفوشيوس قد اهتم بالموسيقى اهتماماً بالغاً كما يظهر من مواعظه وأدبياته، إلا أنه لما كان مختلَفاً فيه هذا الاختلاف، رجحتُ أن أتكلم عن المتفق عليه من الأسفار وأترك المختلَف فيه، وقد جاء الحديث عن الموسيقى بصورة تبرز أهميتها عند كونفوشيوس، وضرورتها، وارتباطها بالأخلاق في صفحة ٣١٠ وما بعدها.

(٢) سبق الكلام عنه في الفصل الأول من الباب الأول.

(٣) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ٢٢-٢٣.

وما يسمى بالنسخة القديمة، فيما يتعلق بالأسفار من حيث الزيادة والنقصان في الألفاظ، والفصول في بعض الأسفار، وهذا هو سبب نشأة الخلاف حول عدم وجود سفر الموسيقى، وحول الترتيب الصحيح للأسفار.

وهذه الأسفار هي:

١- سفر القصائد:

ويسمى "شي كنج"، أو "شيه تشنج". ويسميه البعض "الأغاني" أو "الأناشيد" وهو سفر يشتمل على ثلاثمائة وخمس قصائد من الأشعار القديمة، مقسمة ثلاثةَ أقسام: القسم الأول منها يسمى "فونغ"؛ أي: العادات. وهو مجموعة من الأشعار الشعبية التي جُمعت من خمس عشرة إمارة تحت حكومة أسرة "تشو" الملكية(١)، والقسم الثاني منها يسمى "يا"؛ أي: اللياقة، وهو مجموعة من الأشعار التي جُمعت من بين شعراء الديوان الملكي، والقسم الثالث منها يسمى "سونغ"؛ أي: الثناء، وهو مجموعة من الأشعار في الثناء على الملوك القدامى من أسرتي (تشو) و(شانغ) الملكيتين.

وقد صورت هذه القصائد الأحوال الدينية، والاجتماعية، والسياسية في العهود القديمة، وبالأخص عهد(تشو) وعهد(شانغ) الملكيين. وقد قال كونفشيوس وهو يلخص هذه القصائد: "ثلاثمائة قصيدة، يمكن أن تلخص في كلمة واحدة هي: لا تفكر في الضلالة"(٢).

كان كونفوشيوس شديد الاهتمام بهذا الكتاب، بل كان دائم الحديث عنه وعن فائدته للفرد، يقال: إن حريق عام (٢١٣ ق. م) قد أدى إلى ضياع أغلب القصائد، بالإضافة إلى التغيرات الكبيرة التي طرأت على الكتاب في عهد أسرة "هان".

(١) انظر: حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج١ -ص ٣٦.
والأدب الصيني - أوديل كالتنمارك - ت: هنري زغيب - ص٢٥.
والفلسفة والفكر السياسي - د. عمر عبد الحي - ص ١٦٣.

(٢) كتاب الحوارات، الفصل الثاني، الحوار رقم ٢.

وقد صور لنا كتاب القصائد العصر الذي دُوِّن فيه، وقد كانت تلك القصائد ذات خصوبة وغنًى في الألفاظ والتشبيهات، فأحياناً يفترض أن المعنى الضمني للنص فلسفي، وأحياناً أخرى يكون سياسياً، لذلك قال عنه كونفوشيوس: "بدون دراسة الشعر، فإن المرء لا يستطيع الوقوف على معنى الكلمات".

إن القصائد تعرِّفنا بجزء كبير من مادة الحضارة الصينية في ذلك الوقت؛ كالأدوات المادية التي استخدموها، والملابس والأشياء الصناعية، كما يمكننا أيضاً أن نتعرف إلى كبار الملوك والمعارك التي خاضوها. وقد استمد كونفوشيوس بعض أفكاره الأساسية عن الحكم من كتاب القصائد. ومن أهم القضايا التي ارتبطت بالحكم داخل الكتاب هي قضية "التفويض السماوي" التي تُعادل نظرية الثورة المبرَّرة.

كما يناقش الكتاب قضية التربية والتعليم. وكذلك تعرَّض لمناقشة مصطلح "لي" ـ الطقوس ـ محدِّداً معناه وأهميته داخل المجتمع والكون بصفة عامة، ويرى الكتاب أن الإمبراطور صورة للكون، وأن من أهم وظائفه المحافظة على انسجام الحقول الثلاثة العظيمة؛ وهي: السماء والأرض والإنسان، وذلك عن طريق الطقوس "لي" التي تعد الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك. ومن بين القضايا التي يتناولها الكتاب أيضاً قضية الحرب. وقد عانت جماهير الشعب الصيني الكثير من الحروب التي انعكست هي الأخرى على القصائد...(١).

٢- سفر التاريخ:

ويسمى "شو تشينج"، ويسمى أيضاً "شو كنج".

وهو أقدم كتاب تاريخي في الصين، وقد سجل هذا السفر الأحداث التاريخية وفق تسلسلها الزمني منذ العهود الملكية الثلاثة؛ أي: الألف الثالثة قبل الميلاد وحتى سنة ٦٣٠ قبل الميلاد؛ أي: قبل عصر كونفوشيوس بمائة سنة تقريباً. ويشتمل هذا السفر حالياً على ثمانية وخمسين فصلاً من الوثائق التاريخية؛ منها

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح ص ٣٨ – ٣٩ بتصرف.

القوانين، والنصائح، والأوامر، والإعلانات، والمواثيق، والوصايا، والبعض منها مزوَّر في رأي بعض العلماء المتأخرين[١].

ولهذا الكتاب في تاريخ الفكر الصيني عموماً والفكر الكونفوشيوسي خصوصاً أهمية خاصة، وذلك لأمرين:

الأول: أن هذا الكتاب يحتوي على منابع الحكمة التي استمد منها كونفوشيوس آراءه الخلقية، وخصوصاً إذا علمنا أن كونفوشيوس كان ناقلاً أكثر منه مبدعاً.

الثاني: أنه يضم أكثر الوثائق التاريخية للفكر الصيني القديم، ولأنه يصف مآثر الحكماء القدامى ومحاسنهم، ومنهم الإمبراطور "ياو"[٢].

ويتضمن الكتاب ثمانية وخمسين نصاً؛ أربعة وثلاثون منها يعد أصيلاً والباقي إضافات خارجية. وترجع هذه القسمة إلى حادثة إحراق الكتب عام (٢١٣ق. م)، حيث أُحرق معظم التراث الثقافي للصين في ذلك الوقت، وبعد انقضاء هذه الكارثة عكفت طائفة من الفلاسفة على إعادة تدوين التراث المحروق، معتمدين على الذاكرة في أغلب الأحيان، فنشأ ما يسمى في التراث الصيني بـ "المخطوطات الجديدة"، وفي عهد أسرة "هان" قرر أحد أمراء مقاطعة "لو" هدم أحد المباني الحكومية لإقامة معبد مكانه، وعندئذ تم اكتشاف عدد كبير من المخطوطات مدفونة تحت المبنى، فاعتبرت المخطوطات المكتشفة "أصلية" أما المخطوطات الجديدة المستحدثة، فهي بمثابة تفسير لها[٣].

وترجع أهمية كتاب التاريخ إلى أنه يضم بين دفتيه أقدم الوثائق التاريخية، وأقدم أساليب الكتابة الصينية، ويحتوي على منابع الحكمة التي غاص فيها

(١) انظر: الأدب الصيني – أوديل كالتنمارك – ت: هنري زغيب – ص٢٤.

(٢) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – مراجعة د. إمام عبدالفتاح إمام – عالم المعرفة – الكويت– عدد (١٩٩) – ص ٣٣٤.

(٣) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١ –ص ٣٤.

كونفوشيوس ليستمد منها الحِكَم والمواعظ، وأنماط السلوك الحسنة والسيئة، وما يجب أن يكون عليه الحاكم والرعية. ويقال: إن كونفوشيوس قد لحظ الخلط بين وثائق الكتاب، فعمل على إعادة ترتيبه، وترتيب أحداثه وأقواله في نظام ملائم(١).

٣- سفر الشريعة:

ويسمى "لي كي كنج"، و"الطقوس"، أو "التقاليد".

وهو كتاب عن الطقوس، والشعائر، والمراسم، وقواعد السلوك والأخلاق، ويتضمن مجموعة من النصوص التي تتعامل مع الشعائر التي هيمنت على جوانب الحياة المختلفة، وكانت هذه النصوص بأكملها ذات صبغة دينية صارمة، يتم استخدامها فقط في الاحتفالات الدينية والرسمية، وتقديم القرابين، ولكنها ـ فيما بعد ـ أصبحت قوانين سياسية واجتماعية لها أثر كبير في ترسيخ الأنظمة السائدة في المجتمع والمحافظة على استقراره(٢).

كما يضم مجموعة من النصوص التي تهتم بالبحث العميق في مواضيع مختلفة في أنماط التفكير، وأنماط السلوك في الحياة اليومية(٣).

ويضاف إلى ذلك: أنه كتاب يعالج النظام السياسي لأسرة "تشو" القديمة، كما يعالج عدداً كبيراً من العادات والتقاليد الدينية والسياسية المهمة في الصين في العصور التاريخية البعيدة(٤).

ويرى المؤرخون أن كتاب الطقوس يعد من أكثر الكلاسيكيات القديمة التي حُفظت دون تغيير.

ويشتمل هذا السفر حالياً على ثلاثة أقسام من الكتابات المتعلقة بأحكام الشريعة الكونفوشيوسية:

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة د. هالة أبو الفتوح ص ٣٥.

(٢) الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى- د. محمد العريبي - ص ٢٢٨.

(٣) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - صلاح رسلان - ص ٢٣.

(٤) الكتب الخمسة لكونفشيوس - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٦.

القسم الأول: يسمى (يي لي)؛ أي (رسوم الشريعة)، أو (كتاب الشعائر)، وهو عبارة عن مراسم الزواج، والمجالس الرسمية، وتشييع الجنائز، والمسابقات والمعاملات، وهو أقدم كتاب وجد في الاحتفالات الصينية، ويطلق عليه أحياناً "آداب اللياقة والاحتفالات" وهو مكون من سبعة عشر فصلاً، ويتألف من اتجاهات نظامية للأرستقراطيين الإقطاعيين حول كل المناسبات والاحتفالات الرسمية والدينية؛ كالزواج، والحِداد، والتعيين.... إلخ.

وهو لا يحتوى على حوار، وإنما يعطي صوراً ناصعة للأوجه المتعددة للحياة الرسمية في العصور القديمة.

وكان كتاب الشعائر في عهد "تشو" مخصصاً لوصف تفصيلات السلوك المتبع في هذه المناسبات المهرجانية، حيث تعقد مباريات الرماية محاطة بكل أشكال التباهي والمغالاة في إعدادها بالشكل الذي تكاد تشبه فيه مباريات الفرسان في القرون الوسطى.

كما أن الكتاب يهتم بعرض الاحتفالات التي تصور بلوغ الأمراء سن الرشد، وكذلك الموت وإجراءات الزيارات الرسمية والمآدب، وقواعد البروتوكول الخاصة بالسفراء المخصصين للأقطار الأجنبية(١).

والقسم الثاني: يسمى (تشو لي)؛ أي: شريعة أسرة (تشو)، أو (شعائر تشو)، وقد نسب هذا القسم إلى (تشو قونغ). ويحتوى هذا القسم تقريباً على ما احتواه القسم السابق من وصف الاحتفالات الرسمية الخاصة بالطبقة الحاكمة، بالإضافة إلى وصف للنظام البيروقراطي والبناء الحكومي لعصر "تشو"، ويقال: إن هذا الجزء قد فُقد.

والقسم الثالث: يسمى (لي جي)؛ أي: (سجل الشريعة)، أو(سجلات الطقوس).

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة د. هالة أبو الفتوح ص ٤١.

وهو يشتمل على النصوص المتعلقة بالآداب والأخلاق، والتعاليم ومعاني الطقوس، والعبادات الدينية وسلوك العارف، والنظريات الكونفوشيوسية حول فطرة الإنسان، وأصل الكون، والعلاقة بين الإنسان والكون... إلخ. وكثير منها يرد على نسق حكايات أو أحاديث بين كونفوشيوس وتلاميذه، أو مع أناس آخرين.

وهو أكثر الأجزاء شهرة، حيث يرجع تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد، كما أنه يحاول إظهار كيف أن الشعائر ساعدت في أن تحدد بدقة الأدوار الأساسية المهمة في الصين لكل من الحاكم والرعية، والملك والوزير، والأب والابن...

وكتاب المعرفة الكبرى كان فصلاً من هذا القسم، قبل أن يصير كتاباً مستقلاً فيما بعد، وكذلك شأن كتاب سنة التوسط، لم يكن كتاباً مستقلاً، بل كان فصلاً من سجل الشريعة[1].

٤- سفر التغيرات:

ويسمى "يي كنج"، أو "آي - تشينج"، "قانون التغيرات"، أو "كتاب التغيرات" و"كتاب التحولات".

وقد اشتهر هذا السفر بأنه سر من الأسرار الثلاثة بين الكتب الصينية القديمة مع كتاب "الطريقة وأخلاقها، أو الطريق إلى الفضيلة"؛ أي: "دوا ده جينغ" وكتاب (جشوانغ تس)، وتقول الرواية التقليدية: إن الملك النبي "فو شي"[2] هو الذي

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية. د. زهرة الدين طيب- ص٢٤ بتصرف.

(٢) "فو شي": لم يخبرنا التاريخ متى ولد ومتى مات بالضبط، ويحكى أنه جاء إلى الصين في سنة (٢٨٥٦ق. م) تقريباً، والمتفق عليه بين المؤرخين أنه كان أول رجل نزل في أرض الصين، والتاريخ بدأ أول ما بدأ منه في رأي أعظم مؤرخ صيني "سي ما تشيان" (١٤٥ أو ١٣٥ق. م تقريباً) صاحب كتاب "سجل التاريخ" في عهد أسرة "هان" الملكية. (ملخصاً من المعجم المحيط، ص ١٠٦) وهو أول الملوك الأنبياء من أرض الصين في رأي الكونفوشيوسية، وقد ذهب العالم المسلم صالح (يبانغ جين شيو) (١٨٧٠ - ١٩٥٢م) صاحب كتاب "الوجيز في الأديان الأربعة" إلى أنه هو يافث بن نوح النبي عليه السلام، وقد جاء إلى الصين بعد الطوفان. (راجع صالح يبانغ جين شيو، كتاب الوجيز في الأديان الأربعة، شركة الطباعة (بي سن) ببكين، سنة ١٩٠٩م، ص ١٣-١٥).

اخترع أساسه، وهي الرموز الثمانية المستقيمة (با قوا)، ثم جاء "تشو وون وانغ"(١) فأضاف إليها أربعة وستين رمزاً أخرى، ثم جاء بعده "تشو قونغ" فقام بشرح هذه الرموز، ثم جاء بعده كونفوشيوس، فكتب التعليقات عليها، وهي ما تسمى بالأجنحة العشرة "شي يي". والمتأخرون من العلماء يختلفون حول هذه الرواية اختلافاً شديداً. ويرى البعض أن هذا السفر عبارة عن أساليب التنبؤات، بينما يرى البعض الآخر أنه عبارة عن قواعد السلوك والأخلاق الفاضلة، حينما يذهب آخرون إلى أنه يحمل أسرار الكون كله إذا فهم.

ويحتل كتاب "التغيرات" عند المفكرين الصينيين مكانة رفيعة وصلت حد التقديس، وهو تمارين خاصة في الكهانة التي تستخدم في العرافة وقراءة المستقبل، وقد استخدمت هذه التمارين من جانب أسرة "شانج"، وأيضاً "تشو".

ويتسم الكتاب بالغموض الفائق والرمزية، التي كثيراً ما تخفي المعنى الحقيقي المقصود، فهو يحتوى على أفكار عن السماء والأرض والشمس والقمر والرياح.. إلخ، بالإضافة إلى مناقشات سياسية وأخرى فلسفية معقدة(٢).

ولم يقتصر تأثيره على الصين القديمة، وإنما امتد حتى عصور متأخرة؛ فقد كرست الصين قديماً وحديثاً أساتذة يعكُفون على دراسته. ولعل هذه الأهمية التي نالها الكتاب قد دفعت كونفوشيوس قديماً إلى القول: "أعطني مزيداً من السنوات، وسوف أصبح عالماً فيلسوفاً، خبيراً بحوادث التغيرات في الطبائع الإنسانية"(٣) فقد تمنى أن يضاف إلى عمره المزيد حتى يقضيه في دراسة الكتاب،

(١) "تشو وون وانغ": هو المؤسس لمملكة أسرة (تشو) الملكية التي حكمت الصين لمدة ثمانية قرون منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى القرن الثاني قبل الميلاد، ويعد من الملوك الأنبياء القدامى في الكونفوشيوسية، وقد كانت الكونفوشيوسية تبالغ في تعظيمه حتى ورد في وصفه: "ألا إن أخلاق (وون وانغ) قد بلغت من الكمال الناصع حتى لا يمكن أن يمنع من الظهور !" (كتاب سنة التوسط، الفصل السادس والعشرون).

(٢) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج ١ – ص ٤١.

(٣) انظر: فلاسفة أيقظوا العالم – د. مصطفى النشار – ص ٥٣.

وبهذا يضمن تخلُّصه من الوقوع في الأخطاء الكبرى.

ويعد المغزى الحقيقي للكتاب هو طرح مفهوم التغير الذي أصبح ـ وفقاً للمنطق الصيني ـ مبدع جميع الموجودات. فمن ملاحظة الأحداث الطبيعية؛ مثل سير الشمس والنجوم، وتدفق المياه، وتعاقب الليل والنهار، وتتابع الفصول، كل هذا كان أساسَ الفكرة الصينية عن التغير. وهذا التغير لا يتم بغتة، ولا تحدث عملياته عشوائياً، بل تتبع مسالك راسخة، فالتغير يسير في مجراه المقرر الذي تنكشف فيه اتجاهات الأحداث، وهو يتبدى في المظاهر الكونية مثلما يظهر في قلوب الناس على السواء(١).

ولهذا الكتاب أهمية خاصة عند الصينيين؛ فما زالوا يستخدمونه حتى الآن في التنبؤ بالغيب ومعرفة الطوالع، وذلك لمعرفة ما إذا كانت الظروف ملائمة للقيام بأي نشاط أم لا. فعلى سبيل المثال: تستخدمه الجيوش لرسم المعارك، ويعتمد عليه الحكام في رسم سياساتهم، ويستعين به الأفراد في توجيه شؤونهم الخاصة(٢).

وإلى وقت ليس بالبعيد، كان زائر المدن الصينية الكبرى يلتقي عند زوايا بعض الشوارع الرئيسة بقارئ حظ يجلس خلف طاولة، مستعد لاستخارة كتاب "التغيرات" من أجله، كما كان بإمكانه أن يقرأ جُملاً من الكتاب منقوشة على تلك اللافتات الخشبية التي يضعها الصينيون على أبواب منازلهم. ومن اليابان الحديثة (على حد قول الكاتب) لدينا أكثر من شاهد على لجوء رجال سياسة بارزين لاستخارة كتاب "التغيرات" في المواقف العصيبة(٣).

وادَّعى الصينيون بأن كتاب "التغيرات" يتضمن علوم البشرية جمعاء، بما في ذلك العلوم العصرية المجردة. لو استطاع أحد استنباطها.

(١) حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ج١ – ص ٤٣-٤٤.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – صلاح بسيوني – ص ٢٥ بتصرف.

(٣) دين الإنسان – فراس السواح – ٢٣٨ بتصرف.

وكتاب التاو – لاو تسو – ت: فراس السواح – ص ١٤.

وقد وقع بين يدي كتاب باللغة العربية تحت عنوان "كتاب التحولات"، فوجدته شرحاً مفصلاً لكتاب "التغيرات" مترجماً من اللغة الإنجليزية إلى العربية، ومما ذكرتْه المؤلفة في مقدمة الكتاب قولها: "تعتمد منهجية كتاب التحولات على مبدأ أن كل شيء يتغير باستمرار، فهو يعلمنا كيف ومتى وأين علينا أن نقوم بأفعالنا.

وهو منهج تطبيقي إلى أقصى حد، وتعد الحكمة التي يتضمنها سرِّيةً تماماً كما في الإنجيل"(١). إلى أن قالت "ولا يعتبر كتاب التحولات كتاباً للتنجيم، ولا بديلاً عن فطرتك، إنه معنيٌّ بتقديم الإرشاد لك في بعض المواقف عندما تكون غير متأكد من الاتجاه الذي يجب اتِّباعه. استخدِمْه جيداً؛ لأنه سيعزز حياتك وكأنه صديق حكيم ومخلص"(٢).

وبهذا يتضح لنا مدى تأثير هذا الكتاب في الوقت الحاضر حتى في غير أتباع الكونفوشيوسية، وغير أهل الصين واليابان، بل هناك من يهتم بهذا الكتاب ويقتنيه، ويرجع إليه في أنحاء متفرقة من العالم، كما تُرجم لعدة لغات؛ منها العربية ـ كما أسلفنا ـ وذلك لوجود الخواء الروحي الذي تعاني منه كثير من أمم الأرض في العصر الحديث، والتي تعاني أيضاً من فقد نعمة الهداية للصراط المستقيم.

أضف إلى ذلك وجود هذه الثورة العارمة للاتجاه لكل ما هو صيني.

٥- سفر الربيع والخريف:

ويسمى "شن شو كنج"، أو "تشون – شيو"؛ أي: كتاب الربيع والخريف. وهو سفر ألفه كونفوشيوس نفسه، ويتضمن مجموعة من السجلات التاريخية المختلفة، تلك السجلات التي سميت بـ"حوليات الربيع والخريف" وقد استمد هذا الاسم من التصدير الذي يقع في مقدمة كل جزء، حيث يفتتح بذكر السنة والشهر واليوم والفصل الذي وقعت فيه الحادثة التي ستدوَّن، وقد سجل كونفوشيوس في

---

(١) كتاب التحولات – تأليف: سارة ديننغ – ت: رزان حاج علي – ص ٥.

(٢) المرجع السابق – ص ٨.

هذا السفر الأحداث التاريخية لإمارة "لو"(١) التي هي مسقط رأسه من سنة (٧٢٢ ق. م حتى سنة ٤٨١ ق. م)، ويؤكد عدد من الباحثين أن كونفوشيوس قد تولى جمع الحوليات بنفسه من سجلات كانت محفوظة بمملكة "لو"(٢).

وشملت هذه الفترة حكم اثني عشر أميراً. وقد استعمل كونفوشيوس مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الشريعة القديمة، فأثنى على الأمراء والوزراء الصالحين الملتزمين بالشريعة، والمحترمين للعاهل من أسرة "تشو"، وشن حملة على الأمراء والوزراء المفسدين الخارجين على الشريعة، والذين لم يحترموا العاهل من أسرة "تشو". وهذا السفر يمثل المستوى الأعلى والأروع للأدب الصيني على طول التاريخ. وقد قال "منشيوس": "عندما أخرج كونفوشيوس سفر الربيع والخريف، خاف الخارجون على العاهل - من الأمراء وأبناء اللصوص - من الناس خوفاً شديداً"(٣). كما أعلن منشيوس بأن كونفوشيوس قام بتأليف هذا الكتاب - خوفاً على أحداث عصره - إلا أنه بعد ذلك جاء المؤرخ الكبير "سي ما"(٤) وحصر دور كونفوشيوس في ترتيب وتنظيم أبوابه فقط.

وقيل: إن هذا الكتاب قد فقد بشكل كامل، ولكن وجدت له ثلاثة تعليقات عظيمة، ويعتقد أن هذه التعليقات الثلاث قد أُلحقت به في الجزء الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، حتى أصبحت أسرة "هان" فيما بعد تنظر إلى هذه التعليقات نفسها على أنها كلاسيكيات(٥).

ونصوص هذا الكتاب يغلب عليها الغموض والاختصار، ولذلك تعددت

---

(١) انظر: قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤ - ص ٤٩.
والمدخل في تاريخ الأديان - د. سعيد مراد - ص ١٨١.

(٢) انظر: حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج ١- ص ٣٨.

(٣) كتاب منشيوس - الفصل السادس.

(٤) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٥) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح ص ٤٣ بتصرف.

الشروح والتعليقات عليها من جانب الكتاب الصينيين(١).

هذه هي الأسفار الخمسة القديمة التي استقى منها كونفوشيوس فكره وفلسفته الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، بالإضافة إلى العادات والتقاليد التي كانت شائعةً في المجتمع.

ثانياً: الكتب المقدسة بعد كونفوشيوس:

ظهرت بعض الكتب بعد وفاة كونفوشيوس؛ بعضها تسجيل لأقواله وحواراته وإرشاداته، مثل كتاب الحوارات، والبعض الآخر تفسير لبعض الأسفار المقدسة، مثل تفسير "ذوأ"، والبعض الآخر تسجيل لأعمال منشيوس وأقواله، مثل كتاب منشيوس، والكونفوشيوسية تقدس هذه الكتب كلها، ولكنها لا تتمتع بالمكانة نفسها التي تتمتع بها الأسفار الخمسة، وهي لا تسمى عندهم بالأسفار، بل تسمى بالكتب فقط؛ حيث يفرقون بين الأسفار والكتب، فيرون أن الأسفار عمل الأنبياء، وأما الكتب فعمل تلاميذ الأنبياء، أو العارفين المتأخرين الذين جاؤوا من بعدهم.

ولهذا السبب كان عدد الأسفار والكتب التي تقدسها الكونفوشيوسية يتزايد مع تطور تاريخها، ومع أن عدد الأسفار بقي كما هو منذ البداية، إلا أن الأسفار والكتب ـ المقدسة لديهم ـ قد زاد عددها حتى بلغ ثلاثة عشر في عهد أسرة سونغ(٢).

ثالثاً: الأسفار والكتب المقدسة في عهد أسرة (سونغ):

أصبح مجموع الأسفار والكتب في عهد سونغ ثلاثة عشر، وهي:

١- الأسفار الثلاثة: سفر القصائد، سفر التاريخ، سفر التغيرات.

٢- ثلاثة تفاسير كتبت على سفر الربيع والخريف، وهي تفسير (ذوأ)، وتفسير (قونغ يانغ)، وتفسير (قو ليانغ).

٣- وقُسم سفر الشريعة ثلاثةَ أقسام، كما قلنا من قبل، وكل قسم من هذه

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – صلاح رسلان – ص ٢٤ بتصرف.

(٢) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص٢٦ بتصرف.

الأقسام الثلاثة في الشريعة، وهي كتاب (يي لي)؛ أي: رسوم الشريعة، وكتاب (تشو لي)؛ أي: شريعة أسرة (تشو)، وكتاب (لي جي)؛ أي: سجل الشريعة.

٤- كتاب الحوارات.

٥- سفر البر (شياو جينغ). وهو كتاب يشرح فلسفة بر الوالدين، وتوسيع هذه الفلسفة حتى شملت جميع أفراد المجتمع [١]. وقد نُسب هذا الكتاب إلى كونفوشيوس، ولكن العلماء يختلفون في صحة نسبته إليه. ولهذا السبب فقد سُمِّي سفراً، ولكنه لا يتمتع بتلك المكانة التي تتمتع بها الأسفار الخمسة في الكونفوشيوسية، ولوجود الشك في صحة نسبته إلى كونفوشيوس.

٦- كتاب (عي يا) وهو معجم للألفاظ والمصطلحات الموجودة في الأسفار، ويقال: إنه أقدم قاموس صيني [٢].

٧- كتاب منشيوس.

رابعاً: الكتب الأربعة (سي شو)

جاء الحكيم (جو شي) [٣] في مرحلة الكونفوشيوسية المحدَثة ليلعب دوره الكبير، الذي أثَّر في الكونفوشيوسية خصوصاً، وفي تاريخ الصين عموماً، وأهم ما فعل فيما يتعلق بالكتب المقدسة لدى الكونفوشيوسية أنه أخرج فصلين من "لي كنج" ـ أي كتاب سجل الشريعة ـ هما: فصل المعرفة الكبرى، وفصل سنة التوسط، وجعلهما كتابين مستقلين، ووضعهما في مجموعة جديدة مع كتاب "الحوارات"، وكتاب منشيوس، وسمى هذه المجموعة من الكتب (سي شو)؛ أي الكتب الأربعة، ثم قام بشرح هذه الكتب الأربعة، وطبعها باسم الشرح الجامع للكتب الأربعة، وذلك سنة ١١٩٠م.

---

(١) انظر: الأدب الصيني – أوديل كالتنمارك – ت: هنري زغيب – ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق – ص ٣٥.

(٣) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من الباب الثاني.

وقد وضع الحكيم "جو شي" هذه الكتب على الترتيب الآتي:

١- كتاب المعرفة الكبرى.

٢- كتاب سنة التوسط.

٣- كتاب الحوارات.

٤- كتاب منشيوس.

ولا شك أن هذه الكتب كانت تحتل مكانة عظيمة في الكونفوشيوسية قبل هذا، ولكن أهميتها بدأت تتعاظم بسرعة منذ القرون التي سبقت مجيء الحكيم "جو شي". والشيء المهم الذي حدث بعد هذا الرجل أن هذه الكتب الأربعة حلت محل الأسفار الخمسة، وأخذت مكانتها، بوصفها أكبر المصادر للنظر والدراسة والبحث. فأصبحت هذه الكتب الأربعة منهلاً للدارسين والعلماء على حد سواء بدلاً من الأسفار الخمسة القديمة، إلى درجة أن الأسفار الخمسة تكاد تتوارى وراء الكتب الأربعة.

وقد لعبت الحكومة دوراً كبيراً في هذا الأمر، فجعلت هذه الكتب ـ مع شرح الحكيم "جو شي" لها ـ المواد الأساسية اللازمة للتدريس في المدارس، والجامعات الحكومية، كما جعلتها مرجعاً رئيساً للامتحان لتعيين الموظفين في المناصب الحكومية. ومنذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، احتلت هذه الكتب الأربعة المكانة العظمى بين سائر الأسفار والكتب المقدسة في الكونفوشيوسية، وقد سيطرت على ميدان التفكير الصيني طوال التسعة قرون الماضية (١).

وبعد أن تكلمنا عن الكتب الأربعة إجمالاً نتكلم عنها بشيء من التفصيل:

١- كتاب المعرفة الكبرى:

لهذا الكتاب أسماء عدة؛ منها: "تا هسيو"؛ أي المعرفة الكبرى، ويسمى كتاب "الداشوة"، أو "التعلم العظيم"، ويسمى أيضاً "تا ـ هسوه"، أو "العلم العظيم"(٢).

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشوسية – د. زهرة الدين طيب – ص٢٧ بتصرف.

(٢) فلاسفة الشرق – و. ف توملين – ت: عبد الحميد سليم – مراجعة عادل أدهم – ص ٢٩٧.

وكتاب "المعرفة الكبرى" لم يكن في البداية كتاباً مستقلاً، بل كان فصلاً واحداً من فصول سجل الشريعة "لي جي"، وهو القسم الثالث من سفر الشريعة، وقد بقي هذا الفصل على ما هو عليه ضمن سفر الشريعة منذ انقضاء عصر كونفوشيوس وتلاميذه لمدة خمسة عشر قرناً من الزمان تقريباً، حتى جاء الحكيم "جو شي"، فأخرجه من سفر الشريعة ليصبح كتاباً مقدساً مستقلاً، تهتم به الكونفوشيوسية منذ عهده إلى يومنا هذا.

ويرى المؤرخون ـ وعلى رأسهم "جو شي" ـ أن تجميع الكتاب يعزى إلى تلميذ كونفوشيوس "تشينج تزو" (٥٠٥- ٤٣٦ ق. م)[١]، ويرجع ذلك إلى بنية النص. ويتكون النص من جزء صغير، عبارة عن الأقوال الخاصة بكونفوشيوس، والتي دوَّنها تلميذه الفيلسوف "تشينج تزو"، وجزء ثان عبارة عن عشرة فصول يحتوى تعليقات من جانب التلميذ "تشينج" على آراء المعلم في مجالي السياسة والأخلاق، ويعتقد البعض أن هذا الجزء من النص ـ أي التعليقات ـ لم يدونها "تشينج" نفسه، وإنما قام تلاميذه بذلك. وبصرف النظر عن المؤلِّف، فإن "جو شي" هو الذي أضفى على النص أهمية كبرى خلال الثمانمائة عام الأخيرة، حيث قام بجمعه مع المنتخبات "الحوار" وعقيدة الوسط، ودوَّن لها تعليقات مهمة، ولما بذله من جهد احتلت هذه الكتب مكانة كبيرة داخل المجتمع الصيني من (عام ١٣١٣م إلى عام ١٩٠٥م)، وأصبح ينظر إليها بوصفها أساس اختبارات الخدمة المدنية[٢].

أهمية نظرية المعرفة الكبرى في الكونفشيوسية

إن كتاب "المعرفة الكبرى" ـ في الحقيقة ـ هو بيان مختصر لنظرية المعرفة الكبرى الكونفوشيوسية، أو سُنَّة المعرفة الكبرى بالتعبير الكونفوشيوسي المستخدم

---

(١) انظر: قصة الحضارة - ديورانت - ت: محمد بدران - ج٤ - ص ٥١.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة د. هالة أبو الفتوح ص ٥٣ بتصرف.

وانظر: حكمة الصين -د. فؤاد شبل - ج ١- ص ١٤٠.

في كتاب المعرفة الكبرى، أو "طريقة النبي في الباطن والملك في الظاهر".

وسُنَّة المعرفة الكبرى هي السنن الثلاث للمعرفة الكبرى، والمناهج الستة للارتقاء إلى كمال الخير، والخطوات الثمان لتطبيق السنن الثلاث للمعرفة الكبرى؛ فالسنن الثلاث هي:

١- تجلية الأخلاق المشرقة.

٢- تجديد الشعب.

٣- الاستقرار في كمال الخير.

وأما المناهج الستة للارتقاء إلى كمال الخير، فهي:

١- معرفة مستقر كمال الخير.

٢- تعيين الاتجاه.

٣- العزيمة.

٤- الطمأنينة.

٥- إحكام التفكير.

٦- الحصول على كمال الخير.

وأما الخطوات الثمان، فهي:

١- البحث عن حقائق الأشياء.

٢- الارتقاء إلى المعرفة.

٣- إخلاص النية.

٤- تقويم القلب.

٥- تزكية النفس.

٦- رعاية الأسرة.

٧- تحسين سياسة المملكة.

٨- نشر السلام تحت السماء.

وقد تناول كتاب المعرفة الكبرى هذه السنن الثلاث، والمناهج الستة، والخطوات الثمان بالشرح والتحليل. ولا بد أن نوضح هنا أن هيكل الدين الكونفوشيوسي كله قائم على نظريته في المعرفة الكبرى، وهي: "طريقة النبي في الباطن والملك في الظاهر"، التي هي موضوع كتاب "المعرفة الكبرى".

ولهذا السبب وجدنا هذا الاهتمام ـ المبالغ فيه ـ بهذا الكتاب الصغير من جانب العلماء الكونفوشيوسيين على مر العصور، على الرغم من كثرة مذاهبهم وتعدد آرائهم، فكل يأخذ منه ما ترتاح إليه نفسه.

ومكانة نظرية المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية مثل مكانة نظرية الخلاص في البوذية، ونظرية الصلب في النصرانية، فلولا البحث عن الخلاص من الآلام، لما كان وجود الدين البوذي، ولولا وجود الذنب الأصلي للبشر، لما كان وجود عقيدة فداء المسيح، ومن ثم تجسُّد الإله فيه في الدين النصراني، ولولا نظرية المعرفة الكبرى، لما كان وجود نظرية خيرية الفطرة الإنسانية، وعقيدة الأخلاق المشرقة، ومن ثم عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان في الكونفوشيوسية.

فالكونفوشيوسية قائمة على نظرية المعرفة الكبرى[١]، وعقيدتها وأخلاقها ونُظُمها الأسرية والاجتماعية والسياسية؛ كلها مستمدة من هذه "المعرفة" من باب ذكر الجزء الذي يراد منه الكل. وأوضحُ مثال على ذلك تسمية دينهم "رو جاو"؛ أي: تعاليم العارفين، كأنهم يرون أنه من لا معرفة له فلا دين له. ولقد تنبه بعض علماء المسلمين من أهل الصين لأهمية كتاب "المعرفة الكبرى" بين الكتب المقدسة في الكونفوشيوسية، وخطورة نظرية المعرفة الكبرى منذ وقت مبكر، وحاولوا أن يردوا عليها حسب الموقف الإسلامي. ولذلك فلا غرابة أن أول كتاب أُلِّف عن الإسلام باللغة الصينية من جانب العلماء المسلمين في الصين، هو: "كتاب المعرفة الكبرى الإسلامية".

---

(١) انظر: فلاسفة الشرق- و.ف توملين- ت: عبد الحميد سليم- مراجعة عادل أدهم - ص٢٩٧ بتصرف.

وكان مؤلف هذا الكتاب الشيخ "دواد وانغ داي يو"(١) من جملة العلماء المسلمين الذين لهم جهود طيبة في نشر الثقافة الإسلامية في الصين من خلال قالب الثقافية الصينية، ولم تكن أسبقية تأليف هذا الكتاب ـ الذي تناول نظرية المعرفة الكبرى الكونفوشيوسية بالدارسة والبحث والرد عليها ـ إلا لإدراكه أهميةَ كتاب المعرفة الكبرى، والنظرية التي قدمها هذا الكتاب في الكونفوشيوسية(٢).

٢- كتاب سنة التوسط

يرمز لهذا الكتاب بـ "شانج يانج"، أو "شونج يونج"، وله عدة أسماء؛ منها: "عقيدة الوسط"، وهو العنوان الشائع، وغالباً ما يترجم إليه، ويسمى أيضاً "الانسجام المركزي"، و"مذهب الوسيلة الوسطى"، و"سنة الوسط"، إلى غير ذلك من الأسماء.

ويجمع العلماء على أن "تزو سو" (٤٩٢ - ٤٣١ ق. م) حفيد كونفوشيوس هو المسؤول عن تجميع كتاب "سنة التوسط". وهو يتضمن أقوال كونفوشيوس مُصاغةً من جانب تلاميذه. ويعد هذا الكتاب أيضاً فصلاً من كتاب الطقوس، ويعرض الكتاب لآراء كونفوشيوس حول الاعتدال، ممجداً لفضيلة التوازن والتناغم؛ سواء بالنسبة للإنسان وطبيعته الأخلاقية، أو اتساق ظواهر الكون، وكأنه يعرض لتناغم الإنسان الداخلي في مقابل اتساق الكون(٣).

كما يعد هذا الكتاب من أهم مؤلفات كونفوشيوس، ويتألف من مقدمة واثنين

---

(١) دواد (وانغ داي يو): ولد في سنة ١٥٨٤م تقريباً، وتوفي في سنة ١٦٧٠م، أول من قام بتأليف كتاب عن الإسلام باللغة الصينية من جانب علماء الإسلام في أرض الصين، واشتهر بأنه "العارف المسلم المتبحر المحيط بالأديان الأربعة"، ومن أهم مؤلفاته: كتاب المعرفة الكبرى الإسلامية، وكتاب الشرح الحق للدين الحق، وكتاب الإجابة لمن أراد الحق. (ملخصاً من الموسوعة الإسلامية الصينية، لجماعة من الباحثين تحت رئاسة (وان يأو بين) دار الطباعة للمعجم بمقاطعة سي تشوان، ١٩٩٤م، ص ٥٨٠).

(٢) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشوسية - د. زهرة الدين طيب - ص٣٣ بتصرف.

(٣) انظر: حكمة الصين - د. فؤاد شبل - ج ١- ص ١٤٣.

وعشرين فصلاً، وكتب المقدمة حفيده المشار إليه، وفيه مجموعة من الآراء الأساسية في الأخلاق(١).

ومن الأسماء التي أطلقت فيما بعد على هذا الكتاب: "حالة التناغم والانسجام"، والبحث عن الانسجام والتناغم يعد المضمونَ الرئيس للكتاب. والملحوظ أنه بدلاً من أن يضع المؤلف هذا المضمون في عبارات من عنده، نجده يستشهد بأقوال المعلم، وبذلك فإنه لا يختلف كثيراً عن "المنتخبات" الذي هو جمع لأقواله. وهكذا فقد انحصر إسهام "تزو سو" في بعض المقاطع التحليلية التي وضعها ما بين أقوال المعلم(٢). وهذا الكتاب من الكتب التي لها أهمية كبيرة في فهم الفكر الكونفوشيوسي، وبخاصة حول تنظيم الحياة، إذ إنه عبارة عن إرشادات في الاعتدال وعفة النفس والتوسط في الأمور.

٣- كتاب الحوارات (المنتخبات)

هذا الكتاب له أسماء متعددة؛ منها: "لون ـ يو"؛ أي المنتخبات، و"الأحاديث"، و"المحاورات"، ويسمى "شذرات". ومن أشهر أسمائه "الحوار" و"المنتخبات"(٣).

تعزى جميع مادة هذا الكتاب إلى تلاميذ كونفوشيوس الذين انكبُّوا، خلال فترة الحداد الطويلة على وفاته، يجمعون أقواله؛ سواء المدونة على ألواح البامبو، أو المحفوظة في ذاكرتهم، من أجل جمعها في كتب للحفاظ عليها من الضياع. وكان النوابغ من تلاميذه يكتب كل واحد منهم ما يسمعه من أستاذه، وجمعوا بعد وفاته ما كتبوه وألَّفوه، ثم ألفه تلاميذهم مرة أخرى، وزادوا فيه أحاديثَ

---

(١) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص ٢٥٣.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح– ص٥٥ بتصرف.

(٣) ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات تختلف فيما بينها حول المعنى؛ حيث إن الترجمة لم تكن حرفية، كما ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية مباشرة، ولأول مرة الأستاذ محمد مكين، الصيني الأصل – تحت عنوان "الحوار" ونشرته المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٥٤هـ.

أساتذتهم، وسميت هذه المجموعة كتاب "الحوار"، وعباراته موجزة ذات دلالة، وهو في الأدب الصيني قدوة في البلاغة. وكان له ثلاث نسخ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً قليلاً ويقع في عشرين فصلاً على النسخة المتداولة(١).

ولقد ترتب على عدم تدوين كونفوشيوس لتعاليمه أن الكتاب لم يُصغ في شكل نسق فلسفي، وإنما احتوى على أقوال متكررة ومبادئ فلسفية غامضة. ومع ذلك، فقد ظل النص يحتل مكانة الكتاب المقدس، الذي شكل نمط الحياة الاجتماعية للمجتمع الصيني، والمنبع الذي استقى منه غالبية المفكرين ـ بصرف النظر عن انتماءاتهم الأيديولوجية ـ الملامح الرئيسة لفلسفاتهم.

ولا يتضمن النص صيغة الحوار بين المعلم والتلميذ فقط، وإنما يحتوي على عدد كبير من الأقوال المنسوبة إلى مجموعة من صغار التلاميذ؛ مثل: "تسينج تسي أن"، و"يو جو"، و"تزو يو"، و"تزو شانج"، و"تزو هسيا"(٢).

يتألف الكتاب من عشرين فصلاً، تحوي عدداً كبيراً من الحكم والمواعظ والأمثال السائرة، التي أتت على لسان كونفوشيوس في المناسبات المختلفة، وهي موضوعة إحداها بجانب الأخرى بلا ترتيب أو تبويب. كما تحوي فصول الكتاب مجموعةً من آراء المعلم ومحادثاته مع تلاميذه، وملحوظات التلاميذ على آراء أستاذهم. ويعد الكتاب ملخصاً لفلسفة كونفوشيوس حتى ذهب البعض إلى تسميته باسم "إنجيل كونفوشيوس"(٣).

ويمكن تلخيص محتويات كتاب الحوارات على النحو الآتي:

١ـ أقوال المعلم، وتنسب إليه مباشرة، مسبوقة بتقديم "قال المعلم"، أو "قال

---

(١) كتاب الحوار – ترجمة محمد مكين الصيني – ص ١٠ بتصرف.
وانظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ت: د. إمام عبد الفتاح–ص٣٢١.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح– ص ٤٩.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ٢٩.
وكونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – صلاح بسيوني رسلان – ص ٥٤.

كونفوشيوس" . وقد بلغ عددها داخل النص مائتين وخمسة وخمسين قولاً .

٢- أقوال التلاميذ، وينسب إليهم ـ على اختلافهم ـ سبعة وثلاثين قولاً .

٣- حوار بين تلميذين، ويبلغ عددها أربعة عشر حواراً .

٤- حوارات بين المعلم والتلاميذ، ويبلغ عددها مائة وسبعة .

٥- تعليقات من جانب المعلم على أحداث وقعت في الحاضر أو في الماضي، ويبلغ عددها ثمانية وعشرين تعليقاً .

٦- حوارات مع بعض زهاد عصره، ويبلغ عددها أربعة .

٧- أقوال لم تصنف ولم تنسب إلى قائل، وتبلغ أربعة أقوال .

٨- أقوال توضح شخصية المعلم وسلوكه اليومي، ويبلغ عددها ستة وأربعين قولاً .

وقد أدى هذا التنوع في الأشكال الأدبية التي يحتويها النص إلى القول بأن مادة الكتاب ذات طبيعة متفاوتة، فالبعض منه ينسب إلى فترات مبكرة، والبعض الآخر ينسب إلى فترات متأخرة نسبياً . الأمر الذي يفرض احتمال تسلل بعض المواد المتأخرة إلى الكتاب، وكأن النص عمل مركَّب بين الأستاذ وتلاميذه، وهذا بالطبع يلغي إمكانية نسبته إلى تلاميذه المباشرين(١) .

٤- كتاب منشيوس(٢) :

ويسمى "منج تسي" أي منشيوس .

وهو من تأليف منشيوس، الذي يعد من أعظم تلاميذ كونفوشيوس . ويعد هذا الكتاب خاتمة الآداب الصينية القديمة . ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب لم ينسب إلى كونفوشيوس، وإنما عُدَّ من المؤلفات الكونفوشيوسية .

وأما عن وصفه : فهو عبارة عن سبعة مؤلفات نسبت إلى منشيوس، وكان يحاول في هذه المؤلفات أن يعيد أفكار كونفوشيوس، وحمل حملة قوية على

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح- ص ٥٠ بتصرف .

(٢) سبق الكلام عنه وعن مؤلفاته في الفصل الثاني من الباب الثاني .

الملوك وطغيانهم، وهذا طابع مؤلفات المدرسة الكونفوشيوسية بأسرها(١).

وتعد هذه الكتب مجموع الشروح التي قام بها كبار الشُّرَّاح لمصنفات كونفوشيوس(٢). وقد جُمعت مؤلفات منشيوس في كتاب "مصنفات منشيوس".

ويعد هذا الكتاب من أهم كتب الفلسفة الصينية وأعلاها قدراً. يقول ديورانت: "وقضى أيام شيخوخته وضعفه في تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه، ولسنا واثقين من أن هذا الكتاب من تأليف منشيوس نفسه، أو من تأليف تلاميذه، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا في وضعه، أو أنه مدسوس عليهم، وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين: إن كتاب منشيوس من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلِّها قدراً"(٣).

وبعد، فهذه هي مؤلفات كونفوشيوس والمدرسة الكونفوشيوسية بقسميها: الأول (الأسفار)، والثاني (الكتب).

خامساً: منهج كونفوشيوس وتلاميذه في كتبهم

وإذا رجعنا إلى مؤلفات كونفوشيوس والمدرسة الكونفوشيوسية ـ أي إلى الأسفار الخمسة، ثم الكتب الأربعة التي كتبها تلاميذه ـ وجدنا أنها في الجزء الأكبر منها مكتوبة على صورة أمثلة سائرة وحكم ومواعظ منفصلة بعضها عن بعض، ولا تربطها أية رابطة.

وهذا هو الفرق الجوهري في أسلوب الكتابة بين كونفوشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة، فأفلاطون مثلاً يكتب على طريقة المحاورات، وأرسطو يكتب على طريقة المحاضرة.

أما كونفوشيوس، فيذكر أمثلة وقصصاً مسرودة الواحدة بعد الأخرى لا رابط بينها، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التي يحتوى عليها كل كتاب،

---

(١) الفلسفة الشرقية – محمد غلاب – ص ٢٧٨– ٢٧٩.
وانظر: الأديان الحية نشوؤها وتطورها – أديب صعب – ص ٨٥.

(٢) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١٣٩.

(٣) قصة الحضارة – ديورانت – ت: محمد بدران – ج٤ – ص ٨٠.
وانظر: المدخل في تاريخ الأديان – د. سعيد مراد – ص١٩١.

لذلك فقد عرّف كثير من العلماء كونفوشيوس بأنه الرجل الذي لا يتكلم إلا بحكم وأمثال قصيرة منفصلة، كما كان بعضهم يرى استحالة استخلاص مذهب فلسفي أو اجتماعي من تلك الكتب التي هذه حالها.

ولكن العلماء الصينيين على مر العصور، ثم بعض العلماء الأوروبيين بعد ذلك، قد استطاعوا ـ بعد دراسة هذه الكتب ـ استخلاص المذهب الكونفوشيوسي واتجاهاته في السياسة والاقتصاد والدين... وفي غيرها من المجالات الأخرى، تلك هي السمة الأولى من سمات منهج كونفوشيوس في كتبه.

أما السمة الثانية: فهي استخدامه نوعاً من القياس المسمى بالقياس المتتابع؛ إذ اتضح أنه ليس أرسطو هو أولَ مفكر استخدم منهج القياس المنطقي المتتابع، وهو يقوم على عدة قياسات متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التي انتهى إليها القياس السابق عليه.

وهذا المنهج يسيطر على جزء كبر من كتاباته، ومن أمثلة ذلك القياس: قوله: "إذا فهم الإنسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية، فإنه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردي والأخلاقي، وإذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردي، فإنه سيفهم كيف يحكم الناس، وإذا فهم كيف يحكم الناس، فإنه سيفهم كيف يحكم الأمم والإمبراطوريات"(١).

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الكتب التسعة قد ظلت قروناً عدة لها أكبر الأثر في توجيه حياة أهل الصين، بل كان طالبو الالتحاق بالوظائف الحكومية يؤدون اختباراً دقيقاً فيما تتضمنه هذه الكتب. وعلى الرغم من هذا كله، فإن هذه الكتب لم تناقَش مناقشة علمية دقيقة لمعرفة مدى صحتها وتنزُّهها عن الخطأ.

ومما تجدُر الإشارة إليه أن كونفوشيوس قد أحاط بتلك المؤلفات الصينية القديمة الكثيرة العدد، واستطاع أن يستخلص منها تلك الحكم والأقوال المأثورة(٢)، التي تناقلها تلاميذه وأتباعه، بل والمعجبون به جيلاً بعد جيل حتى هذه الأيام.

---

(١) كتب غيرت الفكر الإنساني – أحمد محمد الشنواني – ج ١ – ص ٢٩ – ٣٢ بتصرف.

(٢) الحكماء الثلاثة – د. أحمد الشنتناوي – ص ١٤٠ بتصرف.

الفصل الثاني
المعتقدات

١- عقيدة الكونفوشيوسية في الإله:

إقرارهم بوجود الله:

كثيراً ما يعثر الباحث المدقق في كتابات الصينيين القدماء وفي أقوالهم على جمل تفيد أن قدماءهم يعرفون الله وحده، وذلك في مثل قولهم: "يوجد إله عظيم لا يكره أحداً - والله معنا - وأعمال الله ليس لها رائحة ولا صوت"، أو في مثل خطاب أحد ملوكهم عقب توليه الحكم: "أعطى الله لكل إنسان ضميراً، إذا اتبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوي، والله دائماً يبارك الطيب ويعاقب الرديء".

وكان الصينيون يصفون الرب الواحد بالرب العظيم، ومالك الأكوان الخفي، والعقل غير المتناهي، وأيَّانَ توجهت فهو حاضر، وهو الإله الذي لا يحابي، بل يجود بلطفه ورعايته على الإنسان الفاضل، ويحب استعمال الرحمة، ويعتني بالأرض، وحضوره فيها دائم وإن كان غيرَ منظور"(١).

تشخيص:

وبمرور الزمن لم يبق التوحيد على صفائه، ولم يَعُد الاعتقاد في تنزيه الإله وتعظيمه كما كان سابقاً، بل انتقل من الاعتقاد بأنه غير منظور ولا مرئي إلى الاعتقاد بأنه قد تشخَّص؛ أي أصبح شخصاً عظيماً حكم العالم بأسره بجميع مظاهره الطبيعية والاجتماعية، فبدلاً من اعتقادهم بأنه عظيم القدر غير منظور، أصبحوا يعتقدون أنه شخص يشبه الآدميين، لكنه شخص عظيم، يسيطر على كل ما في الكون(٢).

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢١ بتصرف.

(٢) الدين المقارن – محمد أبو الفيض المنوفي – ص ٨٨ بتصرف.

الإله الأعظم أو إله السماء:

كان كونفوشيوس وأتباعه ـ في ذلك الوقت ـ يعتقدون بالإله الأعظم، أو إله السماء، ويتوجهون إليه بالعبادة، ويرون أن عبادته وتقديم القرابين إليه مخصوصة بالملك، أو بأمراء المقاطعات.

ويطلق على الإله الأعظم، أو (الإله المتعالي) في مصطلحات الآداب القديمة لقب "تيان" أو السماء، وهذا هو اللقب الذي شغف به كونفوشيوس نفسه، وجرى على التحدث به كثيراً(١).

وكان كونفوشيوس يرمز إلى "الله" بالحق، أو "الصدق"؛ فيقول: "إن الحق المطلق غير قابل للتحطيم، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد، ولما كان خالداً فإنه موجود بذاته، ولما كان موجوداً بذاته فهو لا نهائي، ولما كان لا نهائياً فهو واسع عميق، ولما كان واسعاً عميقاً فهو متعالٍ روحي"(٢).

معبودات الكونفوشيوسية:

يمكن تحديد العقيدة الكونفوشيوسية على الوجه الآتي: "إن الديانة التي اعتنقها كونفوشيوس، والتي كانت سائدة في أيامه، على الرغم من الاضطراب الفكري والديني والفلسفي، الذي كان سائداً آنذاك، كانت قائمة أولاً على عبادة السماء باعتبارها الإله الأعظم وحاكم الحكام أو رب الأرباب، ثم عبادة الأرض؛ لأن الأرض هي الأخرى إلهاً، ثم عبادة أرواح الأجداد ثم عبادة الجبال والأنهار..."(٣).

ومن معبودات الدين الكونفوشيوسي: قوى الكون الطبيعية؛ مثل الشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى والسحاب والمطر والجبال والأنهار وما شاكلها من الكائنات، التي عبدها الصينيون، واعتقدوا أنها تعينهم في تيسير أمور حياتهم(٤).

---

(١) أديان العالم – حبيب سعيد – ص ١١٨ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢٢. بتصرف

(٣) المرجع السابق ص ٦٣.

(٤) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ١٠٦ بتصرف.

السماء (تيان):

يتحدث كونفوشيوس، في فقرات عديدة، في كتاب الحوار، عن السماء، معبود الصين الرئيس. والسماء، عند قدماء الصينيين، اسم مشترك بين القبة الزرقاء المحيطة بالأرض وبين الإله، وأسموها في الكتب القديمة بالملك والملك العلي، واعتقدوا أن الملك العلي حي عليم قدير، يصرّف السماوات والأرض وما بينهما، وتنفذ مشيئته في النفوس كما تنفذ في الكائنات(١).

أما عند كونفوشيوس، فيشير مصطلح السماء إلى قوة كونية معنوية غامضة لا تقهر، وهو بهذا يرفض النظر إليها بوصفها كائناً بشرياً، بل يشير إليها، في موضع آخر، بوصفها كياناً عظيماً يتمتع بالإرادة القاهرة وقدرة الإبادة ويتميز بالغائية.

ويخضع كل شيء في الكون لمشيئة السماء، ويجري مجراها كالفصول والكائنات والنفوس، فكل هذا يتبع مشيئة السماء القادرة على كل شيء. وقد استوجب هذا أن يعمل الإنسان وفق مشيئة السماء، أو كما يسميها "بالعناية الربانية الهادية"، كما أشاد بكفاح الأفراد وجهادهم في سبيل الخير، وأبدى رجاءه في أن تعين السماء أولئك الذين يعينون أنفسهم(٢).

وكانت السماء بالنسبة إليه المرفأ الأخير الذي يلجأ إليه عندما يصيبه اليأس والإحباط من البشر، ويتعذر عليهم فهم تعاليمه ومبادئه، وكان يردد دائماً: "ولكن السماء تفهمني"، وقد شكا "تزو كونغ" (أحد أتباع كونفوشيوس ومن أنصاره ومريديه) من أن كونفوشيوس لم يشأ أن يتحدث بكلمة واحدة عن "طرائق السماء". "وكان يرفض كل فكرة عن الله تأخذ بالتشبيه، على أنه مع ذلك ـ تحت مصطلح "السماء" ـ اعترف بوجود قوة تسيطر على خيرات الناس،

---

(١) انظر: كتاب الحوار – مقدمة المترجم: الأستاذ محمد مكين – ص ١١.

(٢) انظر: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ – هـ. ج. كريل– ت: عبد الحليم سليم – م: علي أدهم – ص ٥٥.

ولابد للإنسان من الخضوع لما تقدِّره "السماء" عليه. وفوق هذا، فإن كل من وضع نفسه في سبيل الضلال بالنسبة "إلى السماء" لم يبق لديه أية وسيلة أخرى للتفكير"(١).

ولكن كونفوشيوس أظهر، من ناحية أخرى، تحسره لأن السماء لا يُعتمد عليها، بدليل أن الأشرار كثيراً ما ينجحون ويوفَّقون، ويزدادون غنى وثروة، في حين تبوء جهود الأخيار بالإخفاق أحياناً.

ورغماً عن ذلك، فقد أمدَّته فكرة السماء بالشعور بأن هناك في مكان ما من الكون قوةً تقف إلى جانب الإنسان، الذي يكافح وحيداً من أجل الحق، وبهذا يؤكد كونفوشيوس مشيئةَ السماء، هذا الكيان الفائق، وقدرتها العظيمة التي تقف دائماً إلى جانب الحق، وتنصر الخير؛ إذ هي دائماً في صالحه. وقد تخيل كونفوشيوس نفسه بأنه مبعوث السماء، وأنها عهدت إليه رسالة القضاء على الشر، وفوَّضته لكي يقوم بوظيفة الملك الفيلسوف(٢).

عبادة السماء

أما السماء المعبودة، فلا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء، بل يقصدون تلك الأفلاك ومداراتها، والقوى المسيطرة التي تسيطر عليها، وتسيِّرها في مداراتها، وباتصالها بالأرض، وبالأمطار والرياح وغير ذلك، وكانوا يعبدون السماء؛ لأنهم يعتقدون أنها عالم حي متحرك حسب نظام دقيق محكم، وأن كل ما في العالم من قوى مسيّرة إنما هو خاضع لسلطان السماء(٣).

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي – آلبان. ج. ويد جيرى– ت: عبدالعزيز توفيق – ص ٤٧.

انظر: التجربة الصينية. د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز ص ٣٢.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ١٠٤.

(٣) مقارنات الأديان – الديانات القديمة – محمد أبو زهرة – ص ٧٢.

٢- مفهوم الوحدة بين "تيان" والإنسان لدى الكونفوشيوسية

قبل أن نتكلم عن مفهوم الوحدة، لا بد أن نبين أن كلمة "تيان" في اللغة الصينية تعني الإله الخالق الواحد، كما تعني في الوقت نفسه قبة السماء المادية المخلوقة، وسنلحظ تداخل هذين المعنيين، مما يجعل فهم عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان لدى الكونفوشيوسية في منتهى التعقيد والصعوبة في الفهم.

ومع هذا، فقد اتفق العلماء الكونفشيوسيون قديماً وحديثاً على أن عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان هي العقيدة المركزية التي بني على أساسها الهيكل العام للدين الكونفوشيوسي كله، وكانت النصوص الدالة على هذه العقيدة موجودةً منذ أقدم الأسفار المقدسة، وهي العقيدة التي تمسَّكت بها فرق الكونفوشيوسية ومدارسها كافة منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث، على الرغم من اختلافهم في كثير من المسائل.

ولم نجد أي تغير في هذا الموقف حتى عند أصحاب الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة، وقد أعلن أصحاب الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة عن إيمانهم الصارم بهذه العقيدة، في بيان أصدرته جماعة من دعاتها تمثل كبار العلماء والمفكرين، وعلى رأسهم الأستاذ "مو زونغ سان"(١) في سنة ١٩٥٨م. ومما ورد في البيان: "إنه لا يجوز لنا جميعاً أن نغفل على كل حال أن من الأفكار الصينية التي تتعلق بالحياة الإنسانية الأخلاقية، تلك الفكرة التي قد اهتم بها فلاسفة الصين منذ قديم الزمن حتى يومنا هذا، وهي عقيدة الوحدة الأخلاقية بين "تيان" والإنسان، وعقيدة الوحدة الكونية بين "تيان" والإنسان، وعقيدة اللااثنينية بين "تيان" والإنسان، وعقيدة الذات المشتركة بين "تيان" والإنسان"(٢).

---

(١) سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني مع أبرز الشخصيات الكونفوشيوسية.

(٢) الكونفوشيوسية المحدثة المعاصرة – رئيس التحرير: فونغ تسوو شينغ – المقالة الأولى للأستاذ (مو زونغ سان) – مطبعة سان ليان – بكين – سنة ١٩٨٩م – ص ١٥.

"ونحن نرجو من السادة الباحثين في مجال الثقافة الصينية من جمع أنحاء العالم ألا يعتقدوا أن الصينيين يعلمون فقط الاهتمام بقواعد السلوك الظاهرية الواقعية بين الناس من أجل الحفاظ على النظام الاجتماعي والسياسي، بل يجب عليهم أن يتنبهوا إلى فكرة الوحدة بين "تيان" والإنسان الموجودة فيها، وإلى العقيدة الدينية نحو (طاو) أي الطريقة في أثناء ممارساتهم للأخلاق العملية. هذه هي النقطة الأولى التي نرجو من الجميع أن ينتبهوا إليها"(١).

ولعقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان عدة وجوه متداخلة ومترابطة. وسنوجز بعض ما اشتملت عليه من معانٍ وأفكار حسب ما ورد في بعض الأسفار والكتب الكونفوشيوسية:

١ - الوحدة الأخلاقية بين تيان والإنسان

عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان ـ بوصفها عقيدة مركزية عريقة لهذا الدين ـ مرتبطة ارتباطاً قوياً بقضية الأخلاق المشرقة لدى الكونفوشيوسية، لذلك وجدنا أن الوجه الأول من الوجوه العديدة لهذه العقيدة يظهر في الوحدة الأخلاقية بين "تيان" والإنسان، أو ـ بعبارة أخرى ـ الوحدة بين "تيان" والإنسان في الأخلاق. وقد عبر "سفر التغيرات" عن هذه الفكرة قائلاً: "إنما الرجل الكبير من كان في الوحدة مع السماء والأرض في أخلاقه، ومن كان في الوحدة مع الشمس والقمر في إشراقه، ومن كان في الوحدة مع الفصول الأربعة في ترتيبه، ومن كان في الوحدة مع الأرواح والملائكة في بركته وشؤمه".

يعد هذا النص من سفر التغيرات من أقدم النصوص الكونفوشيوسية التي عبرت عن عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان. وتفيد الجملة الأولى منه أن الصفة الأولى للرجل الكبير المثالي الكونفوشيوسي هي: وحدته مع السماء والأرض في أخلاقه، ونلحظ هنا أن كلمة "تيان" السماء يمكن أن تشير إلى الإله السماوي الخالق، وهي

---

(١) الكونفوشيوسية المحدثة المعاصرة ـ ص ١٦.

كذلك يمكن أن تشير إلى قبة السماء المخلوقة فوق رؤوسنا، فما هي تلك الأخلاق التي تجعل الرجل الكبير في وحدة مع السماء والأرض؟ وأجاب سفر التغيرات أن "تيان" له أربعة أخلاق أو صفات أساسية؛ وهي:

١- (يوان) أي الخالق.

٢- (خينغ) أي الإحاطة.

٣- (لي) أي الإفادة.

٤- (جشينغ) أي التمكين.

ومن هذه الأخلاق السماوية الأربعة نشأت الأخلاق الإنسانية الأربعة؛ أي: الرحمة، والصلاح، والأدب، والحكمة. ومجموعها يسمى الأخلاق المشرقة، أو الفطرة الخيرة المشرقة، فمن صفة الخلق السماوية نشأت الرحمة الإنسانية، ومن الإحاطة السماوية نشأ الصلاح الإنساني، ومن الإفادة السماوية نشأ الأدب الإنساني، ومن التمكين السماوي نشأت الحكمة الإنسانية. وهناك نص آخر من السفر نفسه عبَّر عن هذه العقيدة بقوله: "السماء تسير بالقوة، والرجل الفاضل يقوِّي نفسه من غير رقود، والأرض شأنها التحمل، والرجل الفاضل يتحمل الأشياء بالأخلاق الكريمة"(١).

وهذا يعني أن الرجل الفاضل يحقق الوحدة بينه وبين "تيان" والأرض يسير على سُنة "تيان" في القوة وهي صفة السماء، ويسير على سنة الأرض في التحمُّل، وهي صفة الأرض، فيتحمل كل ما يتعرض له...

هذه بعض الأمثلة مما ورد في سفر التغيرات حول الوحدة الأخلاقية بين "تيان" والإنسان، وغيرها كثير في أسفار الكونفوشيوسية وكتبها.

---

(١) سفر التغيرات (سيانغ).

انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفوشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ١٦١.

٢- الوحدة الكونية بين تيان والإنسان

وأما الوجه الثاني لهذه العقيدة؛ فهو الوحدة الكونية بين "تيان" والإنسان؛ فالكونفوشيوسية ترى أن الكون وحدة متكاملة متناسقة تسير وفق قوانين "يينغ - يانغ"، والعناصر الخمسة من الذهب والخشب والماء والنار والتراب، والإنسان في تكوينه مثل السماء تماماً، فهو عالم صغير، كما أن "تيان" عالم كبير. ومن مظاهر هذه الوحدة الكونية بين "تيان" والإنسان كما زعموا:

- يوجد في السماء شمس وقمر، ويوجد في الإنسان عين وأذن.

- السماء لها أربعة فصول، والإنسان له أربع جوارح.

- السنة لها ستة وستون وثلاثمائة يوماً، الإنسان له أيضاً ستة وستون وثلاثمائة مفصلاً عظمياً صغيراً. السنة فيها اثنا عشر شهراً، والإنسان له اثنا عشر مفصلاً عظمياً كبيراً. الكون متكون من العناصر الخمسة، والإنسان له الأحشاء الخمسة.

- السماء لها قلب هو عين الأخلاق السماوية، والإنسان له قلب هو عين الفطرة الإنسانية الخيِّرة.

- السماء لها برودة وحرارة، والإنسان له سرور وغضب.

- يوجد في الكون سماء وأرض، والإنسان إما ذكر وإما أنثى(١).

ولو أردنا أن نورد كلَّ ما ذكروه من مظاهر الوحدة بين "تيان" والإنسان عندهم فإن الأمر سيطول كثيراً، وهذه العقيدة تشترك فيها الكونفوشيوسية والطاوية وغيرهما من المذاهب الفلسفية الصينية. وأسفارُهم وكتبهم مليئة بها، وخاصة سفر التغيرات.

٣ - الوحدة بين "تيان" والإنسان مقام روحي رفيع

وأما الوجه الثالث لعقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان، فهو أن الكونفوشيوسية ترى أن الوحدة بين "تيان" والإنسان مقام روحي رفيع، يصل إليه الإنسان بعد إخلاص النية، وتقويم القلب، وتزكية النفس. وعلامته أن يتخلص الإنسان من

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفوشيوسية - د. زهرة الدين طيب - ص ١٦٢ بتصرف.

الأهواء والشهوات، والرغبة النفسية، ويصل إلى الأخلاق السماوية عن طريق تجلية الأخلاق المشرقة، ومن علامته أيضاً: ألا يرى الإنسان لنفسه وجوداً مستقلاً عن الكون وما فيه، بل يرى أنه هو والكون في وحدة متماسكة ومتكاملة؛ قال كونفوشيوس في إحدى حواراته: "والهفاه! ما عرفني أحد!" فقال (تس قونغ): "ماذا تعني حضرتك بعدم معرفة أحد بك؟" قال: "لا أتذمر من السماء، ولا أتضجر من الناس، وإنما أطلب المعرفة بالأمور الدنيا، وأتوصل بها إلى الأمور العلوية. أليس الذي يعرفني هو "تيان" السماء فقط؟"(١).

والمشار إليه في النص من الأمور العلوية ليست إلا الأخلاق السماوية، كأنه يقول: إنه في مقامه الذي وصل إليه لم يعرفه أحد غير "تيان"، وهو مقام الوحدة بين "تيان" والإنسان، ويرى ـ من خلال هذا المقام ـ أن جميع الأشياء الموجودة في الكون كلها مكتملة في نفسه، لأنه قد حصل على سعادة روحية عظمى بعد حصوله على الإخلاص الذي هو سنة السماء، ورأى أن الكون ونفسه شيء واحد لا تفرقة بينهما.

٤- وحدة المجاوبة بين تيان والإنسان

أما الوجه الرابع لعقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان ـ على حد ما تقوله الكونفوشيوسية ـ فهو وحدة المجاوبة بين "تيان" والإنسان، ذلك أن الكونفوشيوسية تؤمن بأن الإنسان وما في الكون من الأشياء كلها مخلوقة لـ "تيان"، فهو يدبر كل ما يحدث فيه، وهو يسمع، وينظر، وينصر، ويهلك، ولكن الناس لا يرون ذلك بعيونهم، وما السبب في ذلك؟ قالت الكونفوشيوسية: "إن "تيان" يسمع بواسطة سماع الشعب، وإن "تيان" ينظر بواسطة نظر الشعب"(٢).

على هذا، فإن سماع الشعب هو سماع "تيان" نفسه، ونظر الشعب هو نفس نظر "تيان"، وليس هناك فرق بين سماع الإنسان وسماع "تيان"، وليس هناك فرق بين

(١) كتاب الحوارات - الفصل الرابع عشر - الحوار رقم ٣٧.

(٢) "كتاب منشيوس" - الفصل التاسع.

نظر الإنسان ونظر "تيان"، فالوحدة بين الإنسان و"تيان" ظاهرة ليس عليها خفاء.

وورد نص على أسلوب المحاورة بين منشيوس وتلميذه "وان تشانغ":

سأل (وان تشانغ): "أعطى (ياو) ما تحت السماء لـ(شون)، هل وقع ذلك؟" أجاب منشيوس قائلاً: "لا! لا يستطيع ابن السماء أن يعطي ما تحت السماء لرجل آخر"، "ولكن (شون) ملك ما تحت السماء فعلاً، ومن الذي أعطاه له؟" قال: ""تيان" أعطاه"، "أعطاه "تيان"؟ هل أمره بذلك شفة بشفة؟" قال: "كلا! إن "تيان" لا يتكلم، وإنما يكفي أن يدلّه على ذلك بالأعمال والأحداث"(١).

فالإله السماوي لا يتكلم حينما يظهر أمره حتى في شأن وراثة الملك من ملك نبي إلى ملك نبي آخر، بل يظهر أمره بواسطة الأعمال التي أنجزها، والأحداث التي أتمّها في الشعب والكون، فالعلاقة بين الإنسان و"تيان" علاقة وحدة المجاوبة بين الطرفين، أعمال الشعب هي عين أعمال "تيان"، وأحداث الكون وما فيها من الآيات هي عين أفعال "تيان"، وبينهما وحدة كاملة.

هذا عن أهم الوجوه العديدة لعقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان، وبعض أبعادها التي تكلم عنها علماء الكونفوشيوسية، وهناك وجوه وأبعاد أخرى لم نتطرق إليها هنا، خشية الإطالة، ونلحظ من هذه العقيدة الكونفوشيوسية أن هذه الوحدة التي يتكلمون عنها ليست وحدة بين "تيان" الخالق والإنسان فقط، بل هي الوحدة بين الإنسان والكون المخلوق، وما فيه أيضاً.

٣- موقف الكونفوشيوسية من الوحي:

مصدر المعرفة لدى الكونفوشيوسية إما الفطرة الإنسانية الخيرة، وإما القلب الإنساني العارف، فهم لا يؤمنون بمبدأ الوحي الإلهي، أو لا يعرفون أن الله يُنزل وحيَه وكتبه على من يشاء من عباده المرسَلين لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم، ومن ثم لا يعترفون بأن هناك مصدراً للمعرفة يسمى وحياً إلهياً.

---

(١) "كتاب منشيوس" – الفصل التاسع.

ومذهبهم هذا ـ كما لا يخفى ـ لابد أن يؤدي إلى إشكالية حقيقة المعرفة وصحتها؛ ذلك لأننا بوصفنا مسلمين نؤمن بمبدأ الوحي الإلهي المنزل على أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما يؤمن النصارى واليهود بهذا المبدأ أيضاً، فليست هناك إشكالية في ذلك؛ لأن المعرفة هنا مأخوذة من عند الله عن الوحي عن طريق الأنبياء والرسل الصادقين المبلِّغين عنه بالأمانة والصدق، وما دامت المعرفة مأخوذة من عند الله، وهو سبحانه المتكفل بصحتها وأنها حق، فلا إشكال في صحة المعرفة وحقيقتها أبداً.

ولكن القضية في الكونفوشيوسية ليست قضية الوحي الصادق؛ لأنها لا تقول بالوحي، فلا بد أن تنشأ إشكالية صحة المعرفة وحقيقتها.

وقد أجابت الكونفوشيوسية على هذه المشكلة بأن سُنة التوسط هي الضابط المعياري للمعرفة عندهم، وأن سنة التوسط لها علاقة قوية ومباشرة بعقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان. وما دامت هناك هذه الوحدة بين "تيان" والإنسان، فيمكن للإنسان أن يصل إلى مقام رفيع، حيث لا يكون فيه مثقال حبة من الأهواء والشهوات النفسية، وهو مقام الاستقرار في كمال الخير، وهناك تُؤتَمن معرفته، ويُعتمد عليها؛ لأنه حينئذ لا يأخذ معرفته إلا من مقام الوحدة بين "تيان" والإنسان، الذي تتجلى فيه الفطرة الإنسانية الخيِّرة المشرقة تجلياً واضحاً، وخاصة إذا كان الأنبياء مزوَّدين بالمعرفة منذ الولادة كما ترى الكونفوشيوسية.

وقد جاء تعريف سُنة التوسط في كتاب "سنة التوسط" بقوله:

"إنما تسمى حالة عدم ظهور الحب والغضب والحزن والفرح توسطاً، ويسمى حالة تقييدها بالشريعة بعد ظهورها تناسقاً. وإن التوسط هو الأصل الكبير للكون، وإن التناسق هو الطريقة الموصلة في الكون، تتمكن السماء والأرض في مكانها عند بلوغ التوسط والتناسق وتتربى الموجودات كلها عندهما "(١).

---

(١) سنة التوسط – الفصل الأول.

على هذا، فإن سُنة التوسط مقام روحي يصل الإنسان فيه إلى حالة لا يكون فيه حب ولا غضب، ولا يكون فيه حزن ولا فرح؛ لأن أهواءه وشهواته النفسية قد أميتت كلياً هناك فلا تظهر، وإذا أميتت الأهواء والشهوات النفسية، فستتجلّى الفطرة الإنسانية الخيِّرة المشرقة، وهناك يكون الإنسان في الوحدة الأخلاقية بين "تيان" والإنسان؛ لأن الفطرة الإنسانية الخيِّرة المشرقة ليست إلا تجليات للأخلاق السماوية، قال الحكيم "جو شي"(١) في شرحه لهذا النص:

"إن الحب والغضب والحزن والفرح عواطف، وأما الذي لم يظهر فهو الفطرة، والفطرة ليست لها ميل ولا انحراف، ولذلك سميت بالتوسط"(٢).

يعني هذا أن الحب والغضب والحزن والفرح وغيرها من الميول النفسية كلها عواطف إنسانية، والفطرة الخيِّرة المشرقة تختفي وراءها، فهي لا تتجلى ما دامت هذه العواطف الإنسانية تعمل عملها في الإنسان.

ترى الكونفوشيوسية أن من شأن العواطف الميلَ والانحرافَ، وأما الفطرة الخيِّرة المشرقة، فليس لها ميل ولا انحراف، وهي قائمة دائماً على مقام سنة التوسط، لا تميل إلى محبوب، ولا تميل عن مكروه، ولا تنحرف عند الحزن ولا الفرح. ومن هنا كان التوسط أصلاً كبيراً للإنسان كما هو أصل كبير للكون، مما جعل التوسط يعمل عمل الضابط المعياري للمعرفة في المقام الذي يصل فيه الإنسان إلى الوحدة بين "تيان" والإنسان، فلا يخطئ ما دام متمسكاً بسُنة التوسط كما ترى الكونفوشيوسية. ولقد وصف كونفوشيوس "شون" بأنه ملك نبي عظيم يملك معرفة عظيمة، ولم يكن ذلك التعظيم له إلا لأنه كان متمسكاً بسنة التوسط في جميع أموره(٣).

---

(١) سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني ضمن الحديث عن أبرز الشخصيات الكونفوشيوسية.

(٢) الشرح الجامع للكتب الأربعة – شرح كتاب سنة التوسط – ص ٢.

(٣) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب – ص١٦٥–١٦٧.

٤- مراتب المعرفة لدى الكونفوشيوسية:

ترى الكونفوشوسية أن للمعرفة مراتبَ مختلفة من حيث كيفية الحصول عليها، فمن يولد عارفاً، فهو في المرتبة العليا، ومن صار عارفاً بعد محاولة الطلب والتعلُّم برغبة من عند نفسه، فهو في المرتبة الثانية، ومن طلب المعرفة بعد أن أُكره عليها، وشعر بضرورة طلبها، فهو في المرتبة الثالثة، ومن لا يطلب المعرفة حتى ولو أكره عليها، فهو في المرتبة السفلى. ورد في كتاب "الحوارات" :

قال كونفوشيوس: "من يولد عارفاً فهو في المرتبة العليا، ومن صار عارفاً بعد التعلُّم، فهو في المرتبة الثانية، ومن طلب المعرفة بعد أن أُكره عليها، فهو في المرتبة التي بعدها، ومن لا يطلب المعرفة حتى تحت الإكراه، فليس من الشعب من كان أدنى منه في المرتبة"(١).

وذهبت الكونفوشيوسية إلى أن أنبياءها وُلدوا مزوَّدين بالمعرفة، فهم لا يحتاجون إلى الجهد والمحاولة للحصول على المعرفة، والمعرفة جِبِلَّة فطرية في قلوبهم، ورد في كتاب "سنة التوسيط" :

"إن الصّديق يصيب بدون جهد، ويحصل بدون تفكير، وهو يمشي متمكِّناً على طريقة التوسط، فذلك هو النبي"(٢).

وأما العلماء والعارفون، فيحصلون على المعرفة بالأخذ بأسباب الطلب والتعلم، إلا أن هناك فرقاً بين من طلب المعرفة برغبة من عند نفسه، ومن طلب المعرفة بعد إكراهه وشعوره بضرورة طلبها، فالصنف الأول رجل رحيم؛ لأنه ذو خلق طيب وميل شريف إلى المعرفة، والصنف الثاني رجل شجاع؛ لأنه استطاع أن يقاوم شهوات نفسه التي تميل إلى متاع الحياة الدنيا وسفاسف الأمور، وتغلب عليها واشتغل بطلب المعرفة.

---

(١) كتاب الحوارات – الفصل السادس عشر، الحوار رقم ٩.

(٢) كتاب سنة التوسط، الفصل التاسع عشر.

فما هي هذه المعرفة التي وُلد أنبياؤهم مزودين بها من غير محاولة الطلب، ولا جهد التعلم في رأي الكونفوشيوسية؟ هل هي العلوم كلها صغيرها وكبيرها، عاليها وسافلها، أم هي بعض العلوم؟ قالت الكونفوشيوسية: إن هذه المعرفة ليس المراد منها تفاصيل الأسماء والأمور، والعرض والطول والأعداد، بل هي معرفة الحق من الباطل، والصلاح من الفساد، وحقائق الأمور، والإصابة في القول والعلم والأخلاق. وهذه الأشياء مجبولة ومطبوعة في فطرة النبي، فلا يخطئ أبداً؛ لأنه يأخذها من فطرة نفسه الصافية النقية، التي تنعكس فيها حقائق الأمور من غير أي جهد أو محاولة (١).

٥- موقف الكونفوشيوسية من النبوة

أ- مفهوم النبي لدى الكونفوشيوسية:

هل كان كونفوشيوس نبياً ممن بعثهم الله عز وجل إلى أمة الصين لهدايتهم إلى طريق الحق، كما كانت سنته في بعْث الأنبياء وإرسال الرسل إلى الأمم والشعوب؟

للإجابة على هذا السؤال، الذي قد يثير بعض التساؤلات حوله لعدم ذكره ـ لا إثباتاً ولا إنكاراً في جملة الأنبياء والرسل في القرآن العظيم والحديث النبوي الشريف ـ لابد أن نبحث عن مفهوم النبي في الكونفوشيوسية.

ولمعرفة المعنى الاصطلاحي للنبي في الكونفوشيوسية، لابد أن نستعرض بعض ما ورد عن هذا المصطلح في الكتب المقدسة الكونفوشيوسية من نصوص؛ ومنها:

النص الوارد في الصفحة السابقة في كتاب "سنة التوسط": "إن الصديق يصيب بدون جهد، ويحصل بدون تفكير، وهو يمشي متمكناً على طريقة التوسط، فذلك هو النبي". وورد في كتاب منشيوس: "إنما النبي من تمم الأخلاق والمعاملات الإنسانية"(٢).

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية ـ د. زهرة الدين طيب ـ ص ٧١-٧٢ بتصرف.

(٢) كتاب منشيوس، الفصل السابع.

وورد في سفر الشريعة: "واضعها (أي الشريعة والموسيقى) يسمى نبياً، ومخبرها يسمى عارفاً"(١).

وورد في كتاب منشيوس: سئل منشيوس: "ولكن هل الأستاذ كان نبياً؟ أجاب قائلاً: "لقد سأل "تس قونغ" كونفوشيوس في القديم قائلاً: هل الأستاذ نبي؟ قال كونفوشيوس: النبي، لا أستطيع، إنما أطلب المعرفة من غير ملل، وأُعلّم من غير تعب، قال "تس قونغ": طلب المعرفة من غير ملل حكمة، والتعليم من غير تعب رحمة، لقد جمع بين الحكمة والرحمة، فالأستاذ كان نبياً، ولقد كان نبياً، وإنما لا يقيم نفسه على مرتبة النبي، ما هذا الكلام الذي تقول؟"(٢).

وورد في كتاب الحوارات: قال "تس قونغ": "إذا كان رجل يعطي الناس عطاءً واسع النطاق، ويعينهم على نوائب الحق جميعاً فماذا تقول فيه؟ هل يوصف بأنه رجل رحيم؟ قال الأستاذ: "كيف يوصف بأنه رجل رحيم فقط؟ بل لابد أن يكون نبياً!"(٣).

وورد عن الحكيم "وانغ تشونغ" أنه قال: "إن قلب "ثيان" الأعلى يكون في صدر النبي، ولما أراد أن يرسل بالخبر أظهره من فم النبي".

يفيد النص الأول من هذه النصوص أن النبي من يولد عارفاً، ويفيد النص الثاني أن النبي من تَمَّم الأخلاق والمعاملات. والنص الثالث يفيد أن النبي هو واضع الشريعة والموسيقى وشارعها، والنص الرابع يفيد أن النبي من جمع بين الحكمة القولية والعملية. والنص الخامس يفيد بأن النبي يرشد الناس ويمضي الحق عليهم، والنص الأخير يفيد بأن كلَّ ما يتكلم النبي عنه، فهو مخبر عن "تيان".

على هذا، فإن صفات النبي عندهم قريبة من صفات النبي في الإسلام، إلا أننا لا نجد فيما نُسب إلى كونفوشيوس أنه أعلن إعلاناً واضحاً بأنه نبي مرسَل من عند

(١) سفر الشريعة - قسم سجل الشريعة - فصل وصف الموسيقى.

(٢) كتاب منشيوس - الفصل الثالث.

(٣) كتاب الحوارات - الفصل السادس- الحوار رقم ٢٨.

الإله السماوي، بل نفى ذلك عندما سأله "منشيوس" في القديم قائلاً: هل الأستاذ نبي؟ أجاب: "النبي، لا أستطيع.."، وإن كانت بعض الإشارات من حواراته يفهم منها ذلك، وتصديقات تلاميذه وبعض معاصريه تزعم بأنه نبي مرسل. ونورد فيما يأتي تلك الإشارات والتصديقات: قال كونفوشيوس: "عرفت الأمر الإلهي عندما بلغت الخمسين من عمري"(١). ولما أراد "هوان طوي" أن يقتل كونفوشيوس، قال: "لقد خلق "تيان" هذه الفضائل في نفسي، فأي شر يمكن أن يريده بي؟"(٢).

وقال أيضاً: "والهفاه! ما عرفني أحد! فقال "تس قونغ": "ماذا تعني حضرتك بعدم معرفة أحد بك؟ "قال: "لا أتذمر من "تيان"، ولا أتضجر من الناس، وإنما أطلب المعرفة بالأمور الدنيا، وأتوصل بها إلى الأمور العلوية، أليس الذي يعرفني هو "تيان" فقط"؟(٣).

هذه بعض الإشارات من عند كونفوشيوس نفسه. أما التصديقات لكونه نبياً من كلام بعض تلاميذه ومعاصريه؛ فمنها: سأل موظف كبير "تس قونغ" قائلاً: "هل الأستاذ نبي؟ ما أكثر مواهبه! قال "تس قونغ": "إن الأصل أن "تيان" قد جعله نبياً، ووهب له مواهبَ غير محدودة"(٤).

وورد في كتاب منشيوس: سُئل منشيوس: ولكن هل الأستاذ كان نبياً؟ أجاب قائلاً: "لقد سأل "تس قونغ" كونفوشيوس في القديم قائلاً: "هل الأستاذ نبي؟ "قال كونفوشيوس: "النبي، لا أستطيع، إنما أطلب المعرفة من غير ملل، وأعلم من غير تعب، قال "تس قونغ": "طلب المعرفة من غير ملل حكمة، والتعليم من غير تعب رحمة، لقد جمع بين الحكمة والرحمة، فالأستاذ كان نبياً. – فقد فهم "تس قونغ"

---

(١) كتاب الحوارات – الفصل الثاني – الحوار رقم ٤.

(٢) المصدر السابق – الفصل السابع – الحوار رقم ٢٢.

(٣) المصدر السابق – الفصل الرابع عشر، الحوار رقم ٣٧.

(٤) المصدر السابق – الفصل التاسع، الحوار رقم ٥.

أن من جمع بين الحكمة والرحمة يكون نبياً، فجزم بذلك. وقد كان نبياً، وإنما لا يقيم نفسه على مرتبة النبي، ما هذا الكلام الذي تقول؟" .

ب- نبوة كونفوشيوس:

على كل حال، لا نجد نصاً واحداً ـ فيما نُسب إلى كونفوشيوس ـ يدل بوضوح على أنه ادَّعى النبوة، أو تحدى بها، أو زعم أنه أُوحي إليه، ولا تدَّعي الكونفوشيوسية أن أسفارها وكتبها وشرائعها وحي منزل من عند "تيان"، فالكونفوشيوسية ترى أن المعرفة تؤخذ من قلب النبي وفطرته المجبولة على الخير، ولا تؤخذ من الوحي الواضح.

لكن أصبحت مكانة كونفوشيوس تتعاظم بعد موته يوماً بعد يوم، حتى صار أعظم الأنبياء في تاريخ الصين في نظر الصينيين، وقالوا: إن النبي بما أنه نبي يجب أن يكون كامل الخلق والمعرفة، فلا بد أن يكون متواضعاً للغاية، ولا يعلن أنه نبي؛ لأن من كان كامل الخلق والمعرفة لا يدعي بأنه كامل الخلق والمعرفة، ولابد أن يأتي الاعتراف به من عند غيره لإثبات نبوته، وهذا إيمان جازم لم يتغير حتى عند الكونفوشيوسية المحدثة العاصرة، بل يزعمون أنه أعظم إنسان نزل على الأرض. هذا موقف الكونفوشيوسية منه.

ج- موقف بعض علماء المسلمين في الصين من القول بنبوة كونفوشيوس:

وأما موقف علماء المسلمين الذين لهم جهود في مجال دراسة مقارنة الأديان من أرض الصين من كونفوشيوس، فقد ذهب الجمهور منهم إلى أن كونفوشيوس كان نبياً مبعوثاً إلى أمة الصين، ومن مشاهير هؤلاء: شيخ الإسلام "داود وانغ دأي يو"، صاحب كتاب "المعرفة الكبرى الإسلامية"، وكان أول من كتب عن الإسلام باللغة الصينية من العلماء المسلمين في الصين، والسيد يوسف ماجو صاحب كتاب "الهداية الإسلامية"، والشيخ صالح ليو جشي صاحب كتاب "الشريعة الإسلامية"، وكتاب "معرفة الفطرة والحقيقة الإسلامية".

ولكن اختلف معهم في العصر الحديث الإمام (صالح يانغ جين شيو) صاحب كتاب "الوجيز في الأديان الأربعة" في هذا الموضوع، وأنكر أن يكون كونفوشيوس نبياً، بل ذهب إلى أن أبا الصينيين (فوشي) هو النبي المبعوث إلى أمة الصين[١].

٦- عقيدة الكونفوشيوسية في القضاء والقدر:

مصطلح القدر، عند كونفوشيوس، يرتبط بمصطلح السماء. ويشير إلى معنيين: إما أمر، وإما قدر، وهذا يتوقف على علاقة القدر بالسماء، أو انفصاله عنها.

فعندما يظهر القدر مرتبطاً بالسماء، فإنه يسمى أمر السماء، أو مشيئة السماء، أما حين يظهر القدر منفرداً، منفصلاً عن السماء، فإنه يعني القدر أو المصير. وبشكل عام، فالقدر عنده هو ضرورة غامضة غير واضحة، تتجاوز إدراك البشر، وقدرتهم على فهمه أو التحكم فيه. وقد قال كونفوشيوس عندما اشتد المرض بأحد أتباعه: "إن ذلك سيطيح بحياته. إذن إنه القدر... أن يصاب مثل هذا الرجل بمثل هذا الداء!".

قوله أيضاً عن حتمية القدر: "عندما يجب على الحقيقة أن تذيع، وعندما يجب أن تنحرف، فإنه قدر"[٢]. وهذا يدل على اعتقاده بالقضاء والقدر، والكونفوشيوسيون يعتقدون بالقضاء والقدر، فيرجعون فقر الإنسان وغناه وصحته ومرضه، والسلم والحرب... إلخ، على أنها أمور كتبت في لوحة القدر، ويستحيل على الإنسان تلافي ما يخطه القضاء والقدر أو تعديله؛... إلا في حالات نادرة، ببذل الجهد الذي في وسعه وترقب نصيبه مما تأتي به الأقدار[٣].

كما يُؤْثَر عن كونفوشيوس أنه قال مرة، وهو على ضفة نهر، العبارة الآتية:

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب- ص ٧٢-٧٦ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني رسلان - ص ١٠٥ بتصرف.

(٣) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١ - ص ١٨٥ - ١٨٦ بتصرف.

"كل شيء يجري كما تجري هذه المياه، لا شيء يتوقف، لا النهار ولا الليل، من لا يعرف إرادة السماء لا يصبح حكيماً".

وهذا الانتظام الكوني لا دخل لإرادة الإنسان فيه، فالكونفوشيوسية تقول بجبرية مطلقة، لا يستقر حال الإنسان إلا بالتكيف معها، وهذا هو المطلوب، سعي كل إنسان كي ينسجم مع هذه الحتمية والجبرية في المسيرة الكونية ومسيرة الحياة المنطلقة من إرادة سماوية(١).

ونتساءل: من الذي كتب تلك الأشياء في لوح القدر؟ إنها ـ وحسب فهمنا ـ لا تدخل ضمن أمر السماء أو مشيئة السماء، وإلا لسمَّاها بمسماها (أمر). إذن فهي بعيدة عن السماء غير مرتبطة بها. وحينئذ إذا كان إله السماء ـ وهو الإله الأعظم عندهم ـ لم يكتبها، فهل كتبها الآلهة الآخرون، أو المعبودات الأخرى عندهم، وهم أقل منه. وعندئذ يكون تصرفهم وكتابتهم من دون علم الإله الأعظم؟ فكيف يكون أعظمَ إذن؟ وهل لو علم يستطيع أن يغيِّر ما كتبه هؤلاء الآلهة الذين دونه؟ وحينئذ ماذا يكون موقف الآلهة من تغييره؟ هل يرضون بكل بساطة أم إن ألوهيتهم تجعلهم يستنكفون تغييره ويرفضونه؟ وماذا لو رفضوا تغييره، هل يستطيع أن يغير رغماً عنهم، وحينئذ تضيع شخصيتهم واحترامهم لأنفسهم على الأقل. أم ماذا؟ تساؤلات فقط على الكونفوشيوسيين أن يجيبوا عنها. ومن المؤكد أنهم لا يستطيعون؛ لأنه ـ في حقيقة الأمر وواقع الحال ـ ليس هناك إلا إله واحد هو الله الكبير المتعال، سبحانه جل في عُلاه. وبالطبع ليس هو الإله الأعظم عند الكونفوشيوسية، حيث لا سبيل للخلق لمعرفة الإله الحق معرفة صحيحة، لا لبس فيها ولا تشويش، إلا عن طريق الوحي الذي يوحيه سبحانه إلى رسله، فيبلغونه للبشر، وهم ـ كما ذكرنا ـ لا يقولون بذلك.

ونتساءل أيضاً: هل هذه الإرادة السماوية أو إرادة السماء خاصة بالنظام الكوني

---

(١) من قاموس الأديان – الشنتوية الكونفوشية. د. أسعد السحمراني – ص ٧٧ – ٧٨.

العام بعيداً عن الإنسان؟ والإجابة عندهم لا بد أن تكون بنعم؛ لأنهم سبق أن قالوا: إن المرتبط بالسماء يُسمَّى أمراً، وأطلق على ما هو مرتبط بالإنسان مسمى القدر. وحينئذ تكون هذه الإرادة السماوية ناقصةً وقاصرة، فهل يجيزون أن تكون إرادة السماء أو إله السماء قاصرة وناقصة؟ وحينئذ: هل يصلح أن يكون إلهاً ذلك المنقوص الإرادة، المنقوص القدرة؟

تساؤلات أيضاً تُوجَّه إلى الكونفوشيوسية، الذين لا يؤمنون إلا بالأساطير. ولو أنهم فتحوا قلوبهم، وأعملوا عقولهم بطريقة حيادية وعملية مثلما يُعملونها في أمور الدنيا، وقرؤوا عن الإسلام الصحيح بهذا المنهج ابتغاء الوصول إلى الحق، لوصلوا إليه إن شاء الله سبحانه وتعالى. وصدق الله إذ يقول: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٧- الطقوس الكونفوشيوسية:

الطقوس هي: أشكال العبادة ومظاهرها التي تؤدَّى للإله أو الأرواح ومظاهر الطبيعة.

وقد كانت لهذه العبادات طقوس خاصة تختلف من عبادة لأخرى، كما أنها تختلف باختلاف من يؤديها؛ فقد كان لكل طبقة طقوس خاصة تقوم بها في المناسبات المختلفة؛ فالملك والوزراء والنبلاء والطبقات الشعبية المختلفة، لكل منهم طقوس خاصة، كما اتخذت الطقوس والموسيقى - في نظر الكونفوشيوسية - في أساس ترتيب الشؤون الاجتماعية والكونية والعلاقات السائدة بين الأفراد من جهة، والإله الأعظم والآلهة الصغرى من جهة أخرى.

فالطقوس عند الكونفوشيوسية تعوِّد التقوى وطاعة الأمر الإلهي في المناسبات المختلفة. وهذا بالطبع من وجهة نظرهم. وإلا، فالحقيقة أن رؤساءهم هم الذين اخترعوا هذه الطقوس، وأوهموهم بأن لها هذا التأثير حتى يكونوا دائمي الخضوع

لهم والطاعة لأوامرهم. أما الموسيقى، فتشيع المحبة بين الأفراد من جهة، والله والآلهة المختلفة من جهة أخرى. فالموسيقى تؤدي إلى انسجام العالم الكوني، وتؤدي إلى الانسجام بين الآلهة، أما الطقوس فهي تبين منزلة كل إله منها ومنزلة الآلهة من الإله الأعظم أو السماء(١).

وهذه الطقوس والعبادات كان مفروضاً فيها أن تأتي بالنفع لبني الإنسان:

- فعبادة السماء: تؤدي إلى أن يقوم كل رب من الأرباب المنتشرة في السماء والبحر بمهمته المكلَّف بها؛ من حفظ الكون وإنزال الخيرات.

- وعبادة الأرض: تنمي النبات.

- وعبادة أرواح الموتى والأجداد: تؤكد الصلة بين الآباء والأجداد والأحفاد، وتولِّد الشفقة والمحبة والعطف بين أفراد الأسرة الواحدة.

ونتساءل: ماذا لو لم تؤدَّ هذه الطقوس؟ هل تحدث هذه الأشياء أم تتوقف؟ عليهم أن يجربوا، وسيجدون أن أمور الكون ستسير؛ لأن الإله الحق قد خلق الكون ووضع نظامه وسيَّره عليه، عبد المخلوق أو لم يعبد، أُدِّيت الطقوس كما يسمونها، أو لم تؤدَّ؛ فالإله الحق غني عن خلقه وعن عبادتهم. وإن فرض عليهم نوعاً من العبادة، فهو اختبار لهم في أداء شكرهم على ما أنعم به عليهم من نعَمٍ. وكما قال نبي الله موسى عليه السلام لقومه، وأوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ، وأصبح قرآناً يتلى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وكما قال سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

- أما تقديم القرابين للعناصر الخمسة (المعدن ـ الخشب ـ التراب ـ الماء ـ النار)، فالغرض منه تخليد أصل الحرف الإنسانية.

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن سعفان - ص ٩٤-٩٥ بتصرف.

وكل ما في الكون من ظواهر ليس إلا نتيجة لتفاعل الأرض والسماء، وهو التفاعل الذي تتمخض عنه الفصول من شتاء وصيف وربيع وخريف، كما يؤدي إلى تشكيل الأرواح المختلفة(١).

بعد هذه المقدمة عن الطقوس لدى الكونفوشيوسية، نتكلم عن أهم هذه العبادات في نقاط:

أ - عبادة القوى المسيطرة

أما عبادتهم القوى المسيطرة على الأشياء الموكلة بها، فلأنهم كانوا يعتقدون أن لكل شيء قوةً تسيطر عليه وتسيِّره، وهي كثيرة؛ فللشمس قوة تسيِّرها، وكذلك القمر، والسحاب، والمطر، والجبال والأنهار، وكل الكواكب، والأشياء، وهذه القوى جميعها يعبدها الصينيون، وقوى الأرض لا يعبدها الملوك، ولكن يعبدها غيرهم، أما القوى الخاصة بكواكب السماء وكل ما يكون فيها، فهي من السماء، لا يعبدها إلا الملوك(٢).

ب- عبادة الأرواح

يعتقد الكونفوشيوسيون ـ ككل الصينيين ـ أن الأرواح تتقمص جوهر العناصر الخمسة، حتى تستطيع هذه العناصر أن تتمتع بالغذاء والرؤية والموسيقى. ومن هنا كان على الإنسان أن يتمتع بكل شيء في حدود القانون الأخلاقي.

وقد قدس الصينيون أرواح أجدادهم الأقدمين، وقدموا لها القرابين؛ ليُدخلوا عليها السرور بأنواع الموسيقى، ويوجد في كل بيت معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل(٣).

ولم تغب عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين، ولم تنفصل أبداً عمَّا فيها من

(١) الكتب الخمسة لكونفوشيوس – د. حسن سعفان. ص ٣٣ بتصرف.
انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٨٢ – ١٨٣.

(٢) مقارنات الأديان – الديانات القديمة – محمد أبو زهرة – ص ٧٣.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٠٩.

تعبد، فإلى جانب عبادة الإمبراطور للإله، ترى لوحات تمثل الأباطرة السابقين، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح..، موضوعة إلى جانب لوحة الإله العظيم، وفي مقام منخفض عنها. والواقع أن الكونفوشيوسية مارست ضروباً شتى من الوثنية، ولو أنها في الظاهر فقط تعيب الوثنية. وإلى جانب الأرواح التي ذكرنا، ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وإناثاً، ومجموعة أخرى من مبتكرات عامة الشعب(١).

ج- عبادة الأسلاف:

لقد آمن الكونفوشيوسيون ـ كمن قبلهم من الصينيين ـ بإرادة عامة تخلق المخلوقات وتسيِّرها، أطلقوا عليها اسم السماء، بعد عبادة السماء هذه تحل في مرتبة تالية عبادة الأسلاف، وعبادة الأسلاف هذه جعلت ثمة خصوصية عائلية في طقوس العبادات، وإقامة المعابد، حيث أقامت كل عائلة هياكلها ومعابدها الخاصة، وكثيراً ما كانوا يجعلون هذا المعبد أو الهيكل لتخليد ذكرى مؤسس العائلة، أو من كان في تاريخها الأكثر بروزاً.

"إن عبادة الأسلاف هذه أضحت القسم المكون الرئيسي للمعتقدات والطقوس الصينية، رغم أنها ليست ديناً رسمياً في الصين، فكان لكل عائلة معبدها العائلي الخاص أو مصلاها، حيث تقام فيه طقوس العبادة العائلية في وقت محدد، ولكل سلالة معبدها العشائري للأسلاف.

إن لكل مجموعة عشائرية أكثر كبراً ـ معبداً لأول رئيس عام للعائلة، أما القرابين والصلوات في هذه المعابد، فكان يقيمها إما رأس العائلة، أو الأكبر سناً في العشيرة"(٢).

---

(١) أديان العالم – حبيب سعيد – ص ١١٩ بتصرف.

(٢) الأديان في تاريخ شعوب العالم – سيرغي أ. توكاريف –ت: د. أحمد فاضل – ص ٢٧٠ – ٢٧١.

إن هذه العبادة للأسلاف ـ مع تخصيص هياكل للسلف، وأن يقود المقدم في العشيرة الصلوات كلها ـ تؤكد مقدار ما يجل الكونفوشيوسي عائلته وكبارها بالإضافة إلى أسلافه، وهذا أمر مشترك بين الصين واليابان، حيث الأمر نفسه موجود عند الشنتوية.

إن عبادة الأسلاف لها مواسمها ومناسباتها وطقوسها، وحسب ما هو سائد عند الكونفوشيوسية، فإنه "يحدث التوجه بصلوات مشابهة إلى الأسلاف عند حدوث وقائع عائلية أخرى، وخلال الأعياد وفي أيام محددة من السنة.

ففي أواسط كل شهر من أربعة شهور من السنة مثلاً (أرباع السنة) ينبغي تقديم قربان عائلي، وقبل فترة وجيزة على حلول الموعد يتقدم رب العائلة من معبد الأسلاف، ويجثو على ركبتيه أمام اللوحات المخرجة من الخزائن وهو يتلو: أنا العابد الحفيد فلان الفلاني، اليوم، وبمناسبة حلول أواسط الفصل كذا، أود تقديم قربان لكم، أيها المرحومون، إلى القريب والجد، وجد الجد، وجد جد الجد، وإلى القريبة، الجدة، وجدة الجدة، وجدة جدة الجدة، وأملك الجرأة لنقل لوحكم الخشبي إلى قاعة المنزل لأدعو أرواحكم لتنعم هناك بقبول القرابين التي ستقدم مع فائق التبجيل"(١).

والأرجح أن هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة، ثم استحالت إلى عبادة الأبطال الحكماء من رجال الشعب، وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأسر، تغذِّيها روابط الأسرة في بلاد الصين، وهي قوية بطبيعتها في تلك البلاد، حتى أصبح كل الأسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء.

واللوحة المستعملة في عبادة الأسلاف هي عادة "لوحة صغيرة من الخشب، يبلغ علوها ثماني بوصات، وعرضها بضع بوصات، ينقش على وجهها اسم الشخص

---

(١) الأديان في تاريخ شعوب العالم – ص ٢٧٢.

انظر: من قاموس الأديان – الشنتوية – الكونفوشية – د. أسعد السحمراني – ص ٧٥ – ٧٦.

الذي تمثله" . وتحفظ هذه اللوحة في دار الأسرة مدة حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفى، ثم تنقل بعد ذلك إلى هيكل أسلاف القبيلة أو الأسرة.

ومن حين إلى آخر تقدم القرابين إلى هذه اللوحة، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفى، أو يوم ذكرى موته من كل سنة، ولهذا النظام أثر بارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد، بحيث يصعب عليه جداً الخروج على التقاليد والعادات المرعية، وفي أغلب الأحيان تمتزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين، وفي أحيان يخالطها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدها اللاحقون، وفي أحيان أخرى لا تكون إلا مجرد طقوس وممارسات وضعية جرى عليها العرف والعادة[١].

٨- موقف الكونفوشيوسية من بعض الأمور الغيبية:

١- الروح:

تقول الكونفوشيوسية بخلود الروح وبقائها بعد الموت. وفي ذلك يقولون: "إذا مات المرء يعود جسده إلى التراب، إنما روحه تتحرك متلألئة خارج القبر، تُلقي فينا الهيبة والخوف" .

من التعاليم الدارجة عندهم قولهم: كن قنوعاً في اللذات، ووديعاً مع الناس، فيوافيك روح علوي يملؤك من الخيرات" ؛ أي: إن الجسد يفنى ويتحلل إلى التراب - وهو الأصل الذي خلق منه - لكن الروح تظل حية خالدة تتلألأ خارج القبر - في اعتقادهم - تنظر العبادة والقرابين التي تقدم لها، وتنتظر ماذا يأتي إليها به أهلها، وتنظر ماذا يفعلون، ويقولون: إن الأرواح تُسرُّ بأنواع الموسيقى إلى جانب تقديم القرابين لها، وفي هذا السبيل يصرف الصينيون أموالاً كثيرة[٢].

---

(١) أديان العالم - حبيب سعيد - ص ١٢٠ بتصرف.

(٢) انظر: كتاب الحوار - مقدمة المترجم - ص ١٢.

ومعتقدات آسيوية - د. كامل سعفان - ص ٢٩٢.

ومع هذا الاعتقاد بخلود الروح بعد الموت، إلا أن كونفوشيوس كان يأبى أن يتعرض لهذه الأمور بجواب قاطع أو بكلمة مفيدة؛ فمثلاً: لمَّا سأله أحد تلاميذه: هل لدى الأموات علم بشيء، أو هل هم بغير علم؟ أبى أن يجيب جواباً صريحاً.

وسأله الآخر عن خدمة الأرواح "أرواح الموتى" أجابه: "إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس؟ فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟"(١).

٢- الملائكة:

يعتقد الكونفوشيوسيون وجود الملائكة، ويقدمون إليها القرابين، على أساس أنها آلهة ذات تأثير وقدسية توجب عليهم أن يعبدوها، وقد أغفلها كونفوشيوس مع غيرها من الغيبيات بحجة عدم الخلط والخطأ(٢).

كما أن من أصول الأديان الصينية عبادة الملائكة، وهم عند الصينيين كثيرون جداً، فالشمس والقمر والكواكب والسحاب والمطر والجبال والأنهار وما شاكلها من الكائنات، لكل واحد منها ملَك يعبدونه ويستعينون به، ولكن عبادة ملائكة الأرض والجبال والأنهار مخصوصة بالأمراء وحدهم، كما أن عبادة السماء مخصوصة بالملك وحده(٣).

٣- خلق الإنسان:

حسب العقيدة الصينية القديمة، والتي أحيتها الكونفوشيوسية وأبقت عليها: أن الإنسان يستمد أصله من السماء، وما الإنسان إلا نتيجة لتزاوج القوى السماوية مع القوى الأرضية، أي تقمُّص الأرواح السماوية لجوهر العناصر الخمسة؛ فالإنسان يعد مركز الكون؛ لأنه نقطة تلاقي القوى الأرضية والسماوية، والإنسان مزود

---

(١) الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٧٨.

وانظر: البيان في مقارنة الأديان – د. أسعد السحمراني – ص ١٥٩.

(٢) المرجع السابق – ص ١٨٠ بتصرف.

(٣) نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين – محمد مكين – ص ١٣ بتصرف.

بحب الخير والعدل والإنسانية، وهناك البعض من الناس مُنحوا موهبة تعلم الخير وتعليمه للآخرين، هؤلاء الحكماء كالنجوم اللامعة يهتدي بها الناس من الحيرة والضلالة... وبالطبع فقد عُدَّ كونفوشيوس من هؤلاء الأفراد القلائل الذين وهبوا "تفويض السماء لهدى الناس وإرشادهم"(١).

٤- الجنة والنار

لم يكن الصينيون القدماء يؤمنون بجنة ولا نار، ولا عقاب، ولا ثواب، ولقد أخذ كونفوشيوس بكل هذه العقائد ولم يزد عليها(٢)، فلم يؤمن باليوم الآخر، ولم يفكر في الحياة بعد الموت(٣)، بل كان كلُّ همه إصلاح الحياة الدنيا، ويعتقد أن الجزاء في الدنيا؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يسأل عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد، وإنما يعتقد في أن الأرواح تبقى في الدنيا وتعيش مع أفراد أسرتها في الغيب.

٥- الموت:

يرى كونفوشيوس أن الموت كتب على الأحياء منذ الأزل، وهو يتقبل الموت بلا وجل، وليست له في نظره دلالة معينة أو مغزى رئيس. والموت ـ في نظر كونفوشيوس ـ ليس شراً، وهو لا يخيف أحداً. ويرى أن المرء عندما يشرف على الموت تصبح أقواله حكيمة. وعندما سأله أحد مريديه عن حقيقة شعور الأموات بالهدايا التي تقدم لهم، كانت أجابته غير محددة؛ إذ رأى أنه إذا أجاب بنعم، فإن الأبناء الصالحين الأخيار سيقطعون عروقهم تفجعاً على أمواتهم، وإذا أجاب بلا، فإن الأبناء الطالحين العاقِّين قد يهملون واجباتهم كل الإهمال(٤).

---

(١) الكتب الخمسة لكونفوشيوس – د. حسن شحاتة سعفان – ص ٣٤ بتصرف.

(٢) انظر: صراع الحضارات – د. أحمد شلبي – ص ٨٦.

(٣) انظر: عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٣١.

(٤) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ١٠٦ – ١٠٧.

٩- تقديس كونفوشيوس وعبادته:

قام الكونفوشيوسيون بتقديس كونفوشيوس وعبادته، وتقديم القرابين له، وإقامة المعابد له في كل مدينة من مدن الصين، وذلك منذ عهد أسرة "هان" (في القرن الثاني قبل الميلاد) وحتى وقتنا الحاضر[١].

وكونفوشيوس لم يدَّعِ أنه إله، بل لم يدَّعِ أنه نبي أو رسول، ومن أقواله:

"يوجد مثلي في النبل والكرامة في بلدتي، ولكن لا يوجد مثلي في عشق العلم". فهو عاشق للعلم، وفي كتاب "الحوار" نقلوا عنه قوله: "أما الأنبياء، فلا أجترئ على ادعاء رتبتهم، وغاية ما يجوز القول عني: هو أنني أعمل جاهداً بلا ملل، وأعلِّم غيري دون أن أشكو تعباً". فهو يعترف أنه ليس نبياً، واعترَف بأنه معلم، وتمنى أن يوليه أحد الحكام منصباً رفيعاً ليتخذه وسيلةً للنهضة والإصلاح، فلو كان إلهاً أو رسولاً أو نبياً، ما تمنى هذه الأمنية؛ لأنه هو نفسه يولي ويعزل، بل كان يشعر أنه فرد من الرعية، وكان يؤيد حاكم "لو"، ويوطد سلطانه عندما كان عادلاً[٢].

وكلما ذُكر أمامه الأرباب قال: احترمْ جميع الأرباب، ولكن أبعدْهم عنك ما استطعت[٣]، ولعن الذين صنعوا الأصنام، ولما حضرته الوفاة عاده صديق له، وقال له: ألا تصلي قبل موتك؟ فأجابه كونفوشيوس: أيليق بي أن أصلي؟ قال صاحبه: نعم تصلي لأرباب السماء وآلهة الأرض، فقال كونفوشيوس: لقد صليت منذ زمن طويل[٤].

فالرجل لا يَدَ له في تأليه الصين إياه وعبادته اللذين كانا بعد موته على طريقة أهل الصين في تأليه الأسلاف وعبادتهم، بل بالغوا معه حتى جعلوه إلهاً كالسماء، بل أصبح كونفوشيوس نداً للسماء، إلهاً معبوداً.

(١) وقد شاهدت ذلك عندما ذهبت إلى الصين، يركعون ويسجدون، ويقدمون المشروبات والأطعمة، ويضعون النقود، وتقدم القرابين، وتحرق الهدايا في محرقة المعبد في عيد ميلاد كونفوشيوس، ويدّعون أنها تذهب لروح كونفوشيوس...

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور – أحمد عبدالغفور عطار– ص ١٦٠ بتصرف.

(٣) انظر: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية – ميرسيا إلياد – ت: عبد الهادي عباس – ص ٢٤.

(٤) حياة الشرق – محمد لطفي جمعة – ص ٥٧ بتصرف.
الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس– عبد الرحيم شعبان – ص ١٢٥.

الفصل الثالث
الأفكار الكونفوشيوسية

١- نظرية المعرفة الكبرى[١]

قسمت الكونفوشيوسية المعرفة قسمين؛ هما: المعرفة الصغرى، والمعرفة الكبرى، وجعلت المعرفة الصغرى معرفةَ الصغار، والمعرفة الكبرى معرفةَ الكبار. ومن هنا ظهرت نظرية المعرفة الكبرى لديهم، ولها أهمية كبيرة عندهم، حيث بنواْ عليها كثيراً من أفكارهم ومعتقداتهم، وأحد كتبهم ـ الأربعة المقدسة ـ كتاب المعرفة الكبرى[٢]، وهو تصوير للهيكل العام لهذه النظرية. وهي تنقسم ثلاثةَ أقسام:

أ – السنن الثلاث.

ب – المناهج الستة.

ج – الخطوات الثماني.

وسنحاول الوقوف على كل قسم من هذه الأقسام لنعرف المراد منه، وما يحويه؛ وذلك حسب ما توفر لنا من معلومات عن هذه النظرية من مصدرها الأصلي (كتاب المعرفة الكبرى)[٣] بعد أن تُرجم إلى العربية.

أ- السنن الثلاث:

١– السنة الأولى من سنن المعرفة الكبرى: (تجلية الأخلاق المشرقة):

ورد في مستهل كتاب "المعرفة الكبرى" في رسالة كونفوشيوس المنسوبة إليه في سنة المعرفة الكبرى: "سنة المعرفة الكبرى كائنة في تجلية الأخلاق المشرقة، وفي

---

(١) قدمت الكلام عن نظرية المعرفة على غيرها ـ في هذا الفصل ـ وذلك لأهميتها لدى الكونفوشيوسية، ولتعلق أكثر الأفكار الكونفوشيوسية ـ أو كلّها ـ في هذا الفصل بها.

(٢) سبق الكلام عنه في الفصل الأول من هذا الباب.

(٣) وقد حصلت على نسخة من أول ترجمة لكتاب المعرفة الكبرى من الصينية إلى العربية مباشرةً – من مؤلفه الدكتور الصيني: زهرة الدين طيب إدريس – وهو ما شجعني على الكتابة عن هذه النظرية، مستفيداً مما ذكره في شرحه لها.

تجديد الشعب، وفي الاستقرار في كمال الخير" .

فما هي الأخلاق المشرقة؟ ترى الكونفوشيوسية أن الإنسان مفطور على الأخلاق الفاضلة، ومجبول على حب الخير، والأخلاق المشرقة نور مشرق مفطور في الإنسان، ولذلك سُمِّيت بالأخلاق المشرقة. قال الحكيم (جو شي) في شرح مفهوم الأخلاق المشرقة: "إن الأخلاق المشرقة ما حصَّله الإنسان من "تيان"، وهو ليس بجسم، بل هو لطيف عارف، شامل لجميع الحقائق، ليجاوب كافة الشؤون، ولكن سجنته الأهواء، وغشيته الشهوات الإنسانية، فيغطيه الظلام أحياناً، وأما نور ذاته، فلا يطفأ أبداً؛ لذلك يجب على طالب المعرفة أن يجلِّي نوره من حيث ظهور إشراقه ليعود مشرقاً، كما هو مفطور عليه منذ الولادة"(١) .

على هذا، فإن الأخلاق المشرقة نور حصَّله الإنسان من الإله السماوي، وهو لطيف عارف شامل لجميع الحقائق الميتافيزيقية، وهو يستطيع أن يرشد الإنسان في كافة شؤونه إلى الرشاد والهداية، وذاته مشرقة دائماً أبداً، لا تُطفأ في حال من الأحوال، وإنما تغطيها ظلمات من الأهواء والشهوات الإنسانية، فلا يظهر نورها في الخارج، والمطلوب من الإنسان إن يجاهد في سبيل إماتة الأهواء والشهوات، ليعود هذا النور مشرقاً في الخارج كما حصله من الإله السماوي منذ البداية.

واستدلت الكونفوشيوسية على وجود هذه الأخلاق المشرقة في ذات الإنسان بوجود أربعة ميول في قلبه: الأول: الميل إلى الإشفاق، والثاني: الميل إلى الحياء من الشر، والثالث: الميل إلى الإيثار، والرابع: الميل إلى الفصل بين الحق والباطل.

فالميل إلى الإشفاق نقطة البداية للرحمة، والميل إلى الحياء من الشر نقطة البداية للصلاح، والميل إلى الإيثار نقطة البداية للأدب، والميل إلى الفصل بين الحق والباطل نقطة البداية للحكمة. وهذه تسمى عند الكونفوشيوسية بنقاط البداية الأربع

---

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى – جو شي – دار الكتب (تشي لو)، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٦م.

للقلب، وهي جِماع الأخلاق المشرقة عندهم، وهي مفطورة في كل إنسان.

وقد ترجم بعض علماء المسلمين الذين قاموا بنشر تعليم الدين الإسلامي باللغة الصينية في الصين كلمة الإيمان في اللغة العربية بكلمة الأخلاق المشرقة في اللغة الصينية، بناءً على هذا المفهوم الكونفوشيوسي، ومنهم الشيخ داود (وانغ دأي يو) صاحب كتاب "المعرفة الكبرى الإسلامية"، ومنهم السيد يوسف (ماجو) صاحب كتاب "الهداية الإسلامية"(١)، وهما من أشهر علماء المسلمين في الصين.

٢- السنة الثانية (تجديد الشعب) :

سبق أن أوردنا نص رسالة كونفوشيوس المنسوبة إليه في سُنَّة المعرفة الكبرى، وهو يبين أن السُّنَّة الثانية هي تجديد الشعب.

وقد جاء في كتاب "المعرفة الكبرى" في الفصل الثاني من تفسير نص رسالة كونفوشيوس لتلميذه (تسينغ تس) استدلاله على أصالة مفهوم تجديد الشعب في الفكر الكونفوشيوسي القديم، بما ورد في الأسفار المقدسة القديمة: حيث ورد في الكتابة المنقوشة على طست الغسيل للعاهل (تانغ): إن استطعت أن تجدد نفسك في اليوم، فيجب عليك أن تجدد نفسك يوماً بعد يوم، ألا إن عليك تجديداً بعد تجديد.

فما المراد من تجديد الشعب؟

قبل كل شيء لابد أن أشير إلى نقطة مهمة؛ هي: أن المعرفة الكبرى هي "طريقة النبي في الباطن والملك في الظاهر" كما قلنا من قبل، لذلك يصدر الكلام في كتاب المعرفة الكبرى من مقام الملك النبي دائماً، وفهم هذه النقطة ضروري لفهم لماذا قال كونفوشيوس في رسالته المنسوبة إليه: إن السُّنة الثانية من سُنن المعرفة

---

(١) راجع: الشيخ داود (وانغ دي يو)، كتاب شرح الحق، تحقيق (يو جينغ قوي)، المطبعة الشعبية بنينغ شيا، سنة ١٩٨٨، ص ١٦٦. راجع أيضاً: السيد يوسف (ما جو)، كتاب الهداية الإسلامية، دار الطباعة القومية بيون نان، سنة ١٩٨٨م.

الكبرى تجديد الشعب، ولم يقل تجديد الإنسان نفسه، أو أي عبارة أخرى؛ لأن الملك يتكلم من حيث إنه حاكم الشعب، فلابد أن يرشد الشعب جميعاً بكلامه، ولابد أن يقوم بتجديد الشعب على هذا الأساس.

النقطة الثانية: هي أن العلماء الكونفوشيوسيين قد اختلفوا في تحقيق معنى تجديد الشعب منذ القِدم؛ فالبعض جعلوه "شين مين"، والبعض الآخر جعلوه "تشين مين" فالأول يعني: أن يجدد الشعب، والثاني يعني: أن يرحم الشعب.

والرأي الأول الذي قال به الحكيم (جو شي) هو الصحيح؛ لأنه مذهب أكثر علمائهم من ناحية، ولأن هذا الرأي ألْيَق بالسياق من ناحية أخرى؛ ذلك لأن المعنى من تجديد الشعب أن يهجر الحاكم الأخلاق الرذيلة، وأن يقلع عن عمل الشر إلى عمل الخير، ليكون أسوة حسنة لشعبه، يقتدون به فيهجروا الأخلاق الرذيلة القديمة إلى الأخلاق الفاضلة الجديدة، ويقلعوا عن عمل الشر إلى عمل الخير. قال (جو شي) في شرح المراد من تجديد الشعب: "إنما المراد من التجديد الإقلاع عن رذائل الأخلاق القديمة، يقول: إنه يجب على الحاكم الفاضل بعدما يجلي أخلاقه المشرقة في نفسه أن يضع غيره مكان نفسه، ليساعد الآخرين على الإقلاع أيضاً عن دَنَس رذائلهم القديمة اقتداءً به"(١).

على هذا، فإن المعنى من تجديد الشعب أن يهجر الحاكم الفاضل الرذائل إلى الفضائل، والأعمال السيئة إلى الأعمال الصالحة، ليكون أسوةً حسنة لشعبه، وهذه هي الخطوة الأولى من التجديد. وأما الخطوة الثانية، فهي أن يضع غيره مكان نفسه، ليصلحهم عن طريقة القدوة الحسنة أمامهم، فيقتدوا به.

٣- السنة الثالثة (الاستقرار في كمال الخير):

وقد ذكر في نص رسالة كونفوشيوس المنسوبة إليه في سُنَّة المعرفة الكبرى في مقدمة كتاب "المعرفة الكبرى": أن السُّنة الثالثة من سنن المعرفة الكبرى هي

---

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى، ص ٢.

الاستقرار في كمال الخير، حيث قال: "سنة المعرفة الكبرى كائنة في تجليه الأخلاق المشرقة، وفي تجديد الشعب، وفي الاستقرار في كمال الخير".

لابد أن نشرح معنى الاستقرار والخير وكمال الخير في المفهوم الكونفوشيوسي، لكي نصل إلى فهم المراد من الاستقرار في كمال الخير. قال الحكيم (جو شي): "إنما المراد من الاستقرار أنه لابد للإنسان أن يصل إلى هذا المقام ويستقر فيه، فلا يغادره أبداً"(١).

يتضح من هذا أن الإنسان بعدما يجلّي الأخلاق المشرقة في نفسه، ويجدد نفسه وغيره من الرذائل والسيئات إلى الفضائل والحسنات، سيصل إلى مقام راقٍ من النفس يستقر فيه ولا يغادره أبداً. فما هو ذلك المقام الكونفوشيوسي الراقي؟ لننظر أولاً إلى مفهوم الخير:

قال (تسأي يوان) - أحد الشراح الكونفوشيوسيين الكبار لكتاب "المعرفة الكبرى" في مرحلة الكونفوشيوسية المحدَثة - في شرح المراد من الخير: "ما من أمر من الأمور، ولا حقيقة من الحقائق إلا وله قاعدته التي أوجبت وجوده، فالواجب الذي يجب أن يكون عليه في وجوده هو الخير"(٢). على هذا، فإن الخير هو الواجب الذي يجب أن تكون عليه كل الأمور والحقائق.

قال الحكيم (جو شي) في شرح معنى كمال الخير: "إنما المراد من كمال الخير هو الغاية من الواجب الذي يجب أن تكون عليه جميع الأمور والحقائق، يقول: إنه يجب على الرجل الحاكم الفاضل أن يرتقي إلى مستقر كمال الخير في كلٍّ من تجلية الأخلاق المشرقة وتجديد الشعب، ولا يغادره أبداً، ولابد له أن يستكمل الغاية من الحقائق السماوية كلها، ولا يبقى في نفسه مثقال ذرة من الأهواء الإنسانية"(٣).

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى، ص ٢.

(٢) أورده الحكيم (جو شي) في الفصول والجمل لكتاب المعرفة الكبرى عند شرحه لمفهوم الخير، دار طباعة الكتب القديمة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص ١٥.

(٣) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى.

على هذا، فالكونفوشيوسية ترى أن الخير هو الواجب الذي يجب أن تكون عليه جميع الأمور والحقائق. وأما كمال الخير، فهو الغاية من الواجب الذي يجب أن تكون عليه جميع الأمور والحقائق، وأن مجرد الخير، أو ـ بعبارة أخرى ـ الخير النسبي لا يكفي أن يوصِل الإنسان إلى الغاية المقصودة من المعرفة الكبرى، فلا بد للإنسان لكي يحصل على المعرفة الكبرى أن يستقر في كمال الخير. فالاستقرار في كمال الخير له جانبان اثنان: جانب شخصي، وهو تجلية الأخلاق المشرقة في نفسه، وجانب اجتماعي، وهو تجديد الشعب؛ بمعنى تجلية الأخلاق المشرقة في الشعب من حوله.

وإذا وصل إلى الغاية من كلا الجانبين وصل إلى كمال الخير؛ فكمال الخير من الجانب الشخصي يأخذ الإنسان إلى العودة إلى فطرته الخيِّرة، ويصل به إلى معرفة "تيان" والوحدة بينهما، وكمال الخير من الجانب الاجتماعي يصل بالإنسان إلى تولِّي الحكم الأعلى لنشر الرحمة بين الشعب، والسلام تحت السماء، فيكون "نبياً في الباطن وملكاً في الظاهر".

ب- المناهج الستة للوصول إلى كمال الخير:

ورد في نص رسالة كونفوشيوس المنسوبة إليه في كتاب "المعرفة الكبرى":

"وإذا عرف المستقر تمكَّن بعد ذلك من تعيين الاتجاه، وإذا تمكن من تعيين الاتجاه تمكن بعد ذلك من العزيمة، وإذا تمكن من العزيمة تمكن بعد ذلك من الطمأنينة، وإذا تمكن من الطمأنينة تمكن بعد ذلك من التفكير المحكَم، وإذا تمكن من التفكير المحكم تمكن بعد ذلك من الحصول".

وقد بنت الكونفوشيوسية حديثها عن المناهج الستة للوصول إلى كمال الخير على هذا النص، وهو مبهم جداً ـ كما هو شأن النصوص الصينية القديمة المقدسة ـ فلابد من شرح معناه ليتضح لنا المفهوم من النص، وذلك من خلال ما قاله بعض علمائهم.

١- المنهج الأول (معرفة المستقر):

لابد أن نعرف ما المراد من المستقر الوارد في النص؛ لأنه مفتاح لفهم هذا النص، قال الحكيم (جو شي): "إنما المراد من المستقر: المقام الذي يجب أن يصل إليه، وهو المقام الذي يستقر فيه كمال الخير"[١]. وعلى هذا، فإن المراد من معرفة المستقر في نص كونفوشيوس معرفة المستقر الذي يستقر فيه كمال الخير، وهو المقام الروحي الرفيع الذي يصل إليه الإنسان عن طريقة تجلية الأخلاق المشرقة وتجديد الشعب. فإذا عرفنا هذه النقطة، عرفنا أن هذا النص مرتبط بما قبله من الكلام عن السنن الثلاث للمعرفة الكبرى، وما يأتي بعده من النص يشرح المناهج الباقية والموصلة إلى مقام المستقر في كمال الخير.

فالمنهج الأول هو معرفة المستقر الذي يستقر فيه كمال الخير، وهو ذلك المقام الروحي الرفيع الذي يصل إليه الرجل الكبير عن طريق تجلية الأخلاق المشرقة، وتجديد الشعب، والاستقرار في كمال الخير.

٢- المنهج الثاني (تعيين الاتجاه):

وإذا عرف الإنسان المستقر - معرفة صادقة - فلابد أن ينشأ في قلبه اتجاه معين وهدف محدد، وهو التطلع والشوق للوصول إليه، وهذا هو المراد من تعيين الاتجاه. ولذلك ورد في النص "وإذا عرف المستقر تمكن بعد ذلك من تعيين الاتجاه"؛ لأن الإنسان لا يمكن له أن يتمكن من تعيين اتجاهه إلا إذا عرف هدفه ومقصده.

٣- المنهج الثالث (العزيمة):

وإذا نشأ في قلب الإنسان اتجاه معين، وصار له هدف محدد بعدما عرف المستقر، فلابد أن يعزم قلبه على الحصول على هذه المعرفة، والوصول إلى ذلك الهدف الشريف، والاتجاه العظيم، فلا يميل ولا ينحرف عنه، وهذا هو المراد من العزيمة التي وردت في النص، فهي كما قال الحكيم (جو شي): "إنما المراد من

---

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة – شرح كتاب المعرفة الكبرى.

العزيمة أن لا يميل القلب، ولا ينحرف عن المقصود"(١)، ولذلك جاء في النص "وإذا تمكن من تعيين الاتجاه تمكن بعد ذلك من العزيمة" .

٤- المنهج الرابع (الطمأنينة) :

ورد في النص: "وإذا تمكن من العزيمة تمكن بعد ذلك من الطمأنينة"، فما المراد من الطمأنينة؟ قال الحكيم (جو شي): "إنما المراد من الطمأنينة: أن يطمئن قلب الإنسان لمواجهة أي حال من الأحوال"(٢).

وبناءً عليه، فإن الكونفوشيوسية ترى أن الإنسان إذا عزم قلبه على مقصوده، من غير ميل ولا انحراف، جاءت الطمأنينة، فلا ينفعل لهوى من الأهواء، ولا يميل لشهوة من الشهوات، فيصبر في الفقر والغنى، والسرَّاء والضرَّاء، وعلى كل حال من الأحوال، في سبيل الوصول إلى مقصوده وهدفه، وهو الاستقرار في كمال الخير، كما سبق.

٥- المنهج الخامس (التفكير المحكم) :

ورد في نص كلام كونفوشيوس: "وإذا تمكن من الطمأنينة تمكن بعد ذلك من التفكير المحكم" . وهذا يعني أن التمكُّن من التفكير المحكم لا يتأتَّى إلا بعد التمكُّن من الطمأنينة، فما المراد من التفكير المحكم؟ قال الحكيم (جو شي) في شرحه: "إنما المراد من التفكير المحكم أن يصيب في تدبير الأمور تفصيلاً وإحكاماً"(٣). ومعنى هذا أنهم يعتقدون أنه إذا صار قلب الإنسان مطمئناً في مواجهة أي حال من الأحوال، ولا يؤثر عليه أمر من الأمور الخارجية ولا هوى من الأهواء الداخلية، يصبح متمكناً من التفكير المحكم حيث لا يضل تفكيره، ولا يزل سلوكه، وهو مصيب في كل ذلك.

---

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

٦- المنهج السادس (الحصول):

قال كونفوشيوس: "وإذا تمكن من التفكير المحكم تمكن بعد ذلك من الحصول". على أي شيء يحصل الإنسان بعد التمكُّن من التفكير المحكم؟ قال الحكيم (جو شي): "إنما المراد من الحصول: أن يحصل الإنسان على ما يجب أن يستقر فيه من كمال الخير"(١).

وعلى هذا، فإن الإنسان ـ كما ترى الكونفوشيوسية ـ إذا صار متمكناً من التفكير المحكم حيث لا يضِلُّ تفكيره، ولا يزِلُّ سلوكه، سيصير متمكناً حينئذ من الحصول على كمال الخير، وهو نهاية المطاف، والمنهج الأخير من المناهج الستة للوصول إلى كمال الخير(٢).

ج- الخطوات الثماني للمعرفة الكبرى

ورد الحديث عن الخطوات الثماني للمعرفة الكبرى في كتاب المعرفة الكبرى في نص رسالة كونفوشيوس:

"وفي القديم من أراد أن يجلِّي أخلاقه المشرقة تحت السماء، بدأ أولاً بتحسين سياسة مملكته، ومن أراد أن يحسن سياسة مملكته، بدأ أولاً بتحسين رعاية أسرته، ومن أراد أن يحسن رعاية أسرته، بدأ أولاً بتزكية نفسه، ومن أراد أن يزكي نفسه، بدأ أولاً بتقويم قلبه، ومن أراد أن يقوم قلبه، بدأ أولاً بإخلاص نيته، ومن أراد أن يخلص نيته، بدأ أولاً بالارتقاء إلى المعرفة، والارتقاءُ إلى المعرفة كامن في البحث عن الأشياء. إذا كانت الأشياء قد أُدركت، فإن المعرفة تكتمل بعد ذلك، وإذا كانت المعرفة قد اكتملت، فإن النية تخلُص بعد ذلك، وإذا كانت النية قد أُخلصت، فإن القلب يقوم بعد ذلك، وإذا كان القلب قد قُوِّم، فإن النفس تُزَكَّى

---

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى.

(٢) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ٨٨ – ٩١ بتصرف.

بعد ذلك، وإذا كانت النفس قد زكيت، فإن الأسرة تُرعى بعد ذلك، وإذا كانت الأسرة قد رُعيت، فإن المملكة تحسُن سياستها بعد ذلك، وإذا كانت المملكة قد حَسُنت سياستها، فإن السلام ينشر بعد ذلك تحت السماء".

لقد وضح هذا النص المنسوب إلى كونفوشيوس الخطوات الثماني لتطبيق نظرية المعرفة الكبرى، أو "طريقة النبي في الباطن والملك في الظاهر"، ولَـمَّا كان هذا النص مبهماً وغامضاً احتاج إلى تفسير وشرح، فقام تلميذ كونفوشيوس (تسينغ تس) بتفسيره. وهذا التفسير هو الفصول الستة الأخيرة من كتاب "المعرفة الكبرى"، ثم جاء (جو شي) في مرحلة الكونفوشيوسية المحدَثة، وشرح نص كونفوشيوس وتفسير (تسينغ تس)، وأضاف إلى الفصل الخامس من التفسير بعض الإضافات.

والخطوات الثماني هي:

الخطوتان الأولى والثانية (البحث عن الأشياء والارتقاء إلى المعرفة):

ولا يوجد في نص كلام كونفوشيوس عن هاتين الخطوتين غير الجملتين المذكورتين سابقاً، وهما "ومن أراد أن يخلص نيته، بدأ أولاً بالارتقاء إلى المعرفة، والارتقاء إلى المعرفة كامن في البحث عن الأشياء". و"إذا كانت الأشياء قد أُدركت، فإن المعرفة تكتمل بعد ذلك".

والكونفوشيوسية المحدثة ترى ما قاله (جو شي) من أن قلب الإنسان لطيف جداً، ولا يوجد شيء إلا ويستطيع القلب أن يعرفه، وما من شيء من الأشياء إلا وله حقيقة، والقلب يستطيع أن يعرف كل هذه الحقائق.

والطريقة الصحيحة لمعرفة هذه الحقائق هي البحث عنها، والمراد من البحث: مباشرة الأشياء واستقصاء حقائقها. وهذه هي الخطوة الأولى من تطبيق نظرية المعرفة الكبرى، ولكن معرفة حقائق بعض الأشياء لا تكفي للارتقاء إلى كمال المعرفة، ويجب على طلاب المعرفة أن يباشروا جميع الموجودات تحت السماء على أساس الحقائق التي قد عرفوها من قبل، ليستقصوا الحقائق التي لم يعرفوها رويداً

رويداً، للسعي إلى مزيد من معرفة حقائق الأشياء الأخرى، وإذا واصل طلاب المعرفة في سبيل البحث عن حقائق الأشياء من غير توقف، وإذا جاهدوا في هذه الطريقة زمناً طويلاً، فسيأتي يوم يهتدون فيه فجأة إلى المعرفة المباشرة الشاملة المحيطة، وفي هذه الحال يعرفون حقائق جميع الأشياء. وهذه هي الخطوة الثانية من تطبيق نظرية المعرفة الكبرى، وهي الارتقاء إلى المعرفة.

ولكن الموجودات كثيرة جداً، فكيف يمكن أن يباشر الإنسان جميع الأشياء ويستقصي حقائقها؟ ذهبت الكونفوشيوسية المحدَثة إلى أنه لابد أن يقدم الأولويات على غيرها في البحث. والمراد من الأولويات: البحث عن الحقائق السماوية، والعلم بالأخلاق الفاضلة، والمعرفة بأقوال الأنبياء، والفهم لتغيرات الأحداث.. إلخ. قال الحكيم (جو شي): "إن الغاية القصوى من البحث عن حقائق الأشياء، والارتقاء إلى كمال المعرفة معرفة المستقر". و"إنما المراد من المستقر المقام الذي يجب أن يصل إليه، وهو المقام الذي يستقر فيه كمال الخير"(١).

على هذا، فليس البحث عن حقائق الأشياء والارتقاء إلى المعرفة إلا لمعرفة المستقر الذي يجب أن يرتقي إليه كمال الخير، وهذه هي السُّنة الثالثة من سنن المعرفة الكبرى، وهي معرفة ذلك المقام الروحي الرفيع الذي يعود فيه الإنسان إلى فطرته الخيِّرة، ويصل إلى الوحدة بينه وبين "تيان".

الخطوتان الثالثة والرابعة (إخلاص النية وتقويم القلب):

وقد قام (تسينغ تس) بتفسير إخلاص النية الوارد في نص رسالة كونفوشيوس في الفصل السادس من كتاب "المعرفة الكبرى"، وجاء فيه: "وأما إخلاص النية؛ فهو ألا يخون الإنسان نفسه، مثلما يكره الإنسان الرائحة الكريهة، ومثلما يحب الجمال الحسن، وهذا هو الذي يُسمى رضى القلب، لذلك لابد للرجل الفاضل من الاحتياط في الخلوة..." إلخ.

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى، ص ٢.

ترى نظرية المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية أن الارتقاء إلى المعرفة ـ أي معرفة مستقر كمال الخير، كما سبق ـ مقدَّم على إخلاص النية، فالإنسان لا يمكن أن يخلص نيته إلا إذا تمكن من الارتقاء إلى المعرفة. والمراد من إخلاص النية: عدم خيانة الإنسان نفسه، وأن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه وقلبه وفطرته؛ ذلك لأن الإنسان مفطور على حب الخير وكراهية الشر بالضرورة، فهو من حيث نفسه وقلبه وفطرته يحب الخير مثل حبه للجميل الحسن، وهو يكره الشر مثل كراهيته للرائحة الكريهة.

كما ذهبت الكونفوشيوسية إلى أن تقويم القلب مفتاح لحل مشكلة تزكية النفس؛ ذلك لأن القلب ملك الجسم كله، وما عدا ذلك من الأعضاء في الكيان الإنساني تابع له ومحكوم بحكمه، وإذا قام القلب على فطرته الخيِّرة، فستُزكَّى النفسُ، وبالتالي يصلح كل شيء في الوجود.

وهناك أربعة أمور تفسد تقويم القلب؛ وهي: الغضب والخوف والرغبة والحزن. وإذا كان في القلب غضب على شيء ما، أو خوف من شيء ما، أو رغبة في شيء ما، أو حزن على شيء ما، فلا يمكن للقلب أن يقوم على مقامه من الفطرة، فيجب على طلاب المعرفة الكبرى أن يعملوا جاهدين على تجنب هذه الأمور المفسدة لقيام القلب على مقامه.

الخطوة الخامسة (تزكية النفس):

ذهبت الكونفوشيوسية إلى أن تزكية النفس أهم خطوة من الخطوات الثماني لتطبيق نظرية المعرفة الكبرى، بل يعتمد قيام هيكل المعرفة الكبرى كله على تزكية النفس، ولها المكانة المركزية بين هذه الخطوات. قال كونفوشيوس فيما نُسب إليه من نص الرسالة في كتاب "المعرفة الكبرى":

"فإنه يجب على الناس جميعاً ـ من ابن السماء حتى عامة الشعب ـ أن يجعلوا تزكية النفس أصلاً أساسياً، ومن المستحيل أن يستقيم الفرع مع اضطراب الأصل".

وهذا يعني أن كونفوشيوس كان يرى أن تزكية النفس واجب ضروري وأصل

أساسي لكل واحد من الناس؛ لأنها هي الأصل الذي به يستقيم سائر الفروع، فما المراد من تزكية النفس؟ لم يترك لنا كونفوشيوس شرحاً شافياً لمفهوم تزكية النفس عنده، وقد قام بشرحه تلميذه (تسينغ تس) فقال في الفصل الثامن من تفسيره لنص الرسالة: "وإنما المعنى في قوله: إن رعاية الإنسان لأسرته تعتمد على تزكيته لنفسه أنه: يميل إلى من يقرّبه ويحبه، ويميل عمن يصغّره ويكرهه، ويميل إلى من يوقره ويعظّمه، ويميل إلى من يشفق ويعطف عليه، ويميل عن من يتكبر عليه ويحقره". ويتضح من تفسير (تسينغ تس) أن المقصود الأساسي لتزكية النفس: ترك الميل الإنساني إلى المحبوبين أو عن المكروهين على حد سواء.

قال الحكيم (جو شي): "إن وجود هذه الميول الخمسة في النفس الإنسانية قاعدة طبيعية لا يخلو منها أحد، ولكن العامة من الناس يتركون هذه الميول تتوجه إلى ما تشاء من غير مراقبة، وهذا بالضرورة يؤدي إلى الوقوع في التطرف في ميولها، فلا يستطيعون أن يزكُّوا أنفسهم لهذا السبب"(١).

الخطوة السادسة (رعاية الأسرة):

ذهبت الكونفوشيوسية إلى أنه من لا يستطيع أن يزكي نفسه على نحو ما سبق، لا يستطيع أن يرعى أسرته رعايةً صحيحة، فضلاً عن أن يكون إماماً للناس وحاكماً للدولة، ومن أراد أن يحسن سياسة المملكة لابد له أن يبدأ بأسرته، فيرعى أسرته على خير وجه، ومن دون ذلك لا يتم له شيء من أمر سياسة الناس، فما المراد من رعاية الأسرة في الكونفوشيوسية؟.

ورد في الفصل التاسع من تفسير (تسينغ تس) لنص رسالة كونفوشيوس في تفسير رعاية الأسرة وسياسة المملكة: "وإنما المعنى في قوله: إنَّ تحسين سياسة المملكة يعتمد أولاً على رعاية الإنسان لأسرته أنه: لم يكن هناك من يقدر على تربية الآخرين من غير أن يقدر على تربية أسرته، لذلك استطاع الرجل الحاكم

(١) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى، ص ٨.

الفاضل أن يتم تربية المملكة من غير أن يخرج من أسرته؛ وذلك لأنه يعمل على البر وبه يخدم الحكام، ولأنه يعمل على الطاعة وبها يخدم الكبار، ولأنه يعمل على الرحمة وبها يخدم الناس".

وهذا يوضح أن هناك قاعدةً مشتركة بين رعاية الأسرة وتدبير أمور المملكة؛ ذلك أن الكونفوشيوسية ترى أن هناك ثلاثةَ أصول أخلاقية لرعاية الأسرة؛ وهي: بر الوالدين من جانب الأولاد، وطاعة الإخوة الكبار من جانب الإخوة الصغار، والشفقة على الجميع من جانب راعي الأسرة. وأما تدبير أمور المملكة، فهو ليس إلا دفع هذه الأصول الأخلاقية من داخل الأسرة إلى خارجها، فيجب على من يقوم بتدبير أمور السياسة أن يدفع أصل بر الوالدين من مفهومه الضيِّق داخل الأسرة إلى مفهومه الواسع خارج الأسرة، فيخدم الأمير الحاكم بالبر والإخلاص، ويدفع أصل طاعة الإخوة الكبار أيضاً من مفهومه الضيق داخل الأسرة إلى مفهومه الواسع خارج الأسرة، فيخدم الكبار من الناس بالطاعة والتعظيم، وكذلك يدفع أصل الشفقة للجميع من جانب راعي الأسرة إلى جميع الناس، فيخدمهم بالشفقة والمحبة.

الخطوتان السابعة والثامنة (سياسة المملكة ونشر السلام تحت السماء):

ترى نظرية المعرفة الكبرى أن من لا يستطيع أن يرعى أسرته رعاية صحيحة، لا يستطيع أن يسُوسَ المملكة سياسة عادلة، وأن رعاية الأسرة وفق الأصول الأخلاقية الثلاثة مقدَّمة على سياسة المملكة، وهي خير دليل على قدرة الإنسان على تدبير أمور سياسة المملكة، وقد ورد في الفصل التاسع من تفسير (تسينغ تس) لنص كونفوشيوس:

"إذا كانت هناك أسرة واحدة تعمل على الرحمة، فستصبح المملكة بكاملها تزدهر بالرحمة، وإذا كان هناك أسرة واحدة تعمل على إيثار الآخرين، فستصبح المملكة بكاملها تزدهر بإيثار الآخرين، وإذا كان هناك أمير واحد قائم على الجشع والظلم، فسيخرج الشعب كلهم عن طاعته.. هكذا تكون سُنة التأثير. وهذا هو

عين ما قيل: "إن كلمة واحدة تفسد الأمور كلها، وإن رجلاً واحداً يؤمّن المملكة بأسرها".

تؤكد هذه الفقرة أن دعوة الناس إلى العمل بالأخلاق الفاضلة وترك الأخلاق السيئة، لا تؤتي ثمارها إذا كان الداعي لم يبدأ بها بنفسه قبل الآخرين، بل كثيراً ما تؤدي إلى خلاف ما يدعو إليه؛ لذلك يؤكد كتاب "المعرفة الكبرى" حتميةَ تزكية النفس ورعاية الأسرة، وهو يعتمد على هاتين الخطوتين كل الاعتماد؛ لأنه ـ في النهاية ـ ليس إلا توسيعاً لهذا العمل من داخل الأسرة إلى خارج المملكة، فإن الرجل الحاكم الفاضل يجب عليه أن يطلب الخير ونشر السلام من نفسه قبل كل الناس...(١).

٢- مصادر المعرفة لدى الكونفوشيوسية

١- الفطرة

أ- الفطرة الإنسانية الخيِّرة:

مما اشتُهر عن الكونفوشيوسية: أنها تقول بخيرية الفطرة الإنسانية، أو ـ بعبارة أخرى ـ أن الإنسان مفطور على الخير، ومجبول عليه من حيث طبيعته وأصل جبِلَّته، ولكن الحقيقة أن كونفوشيوس لم يكن أول من قدم نظرية كاملة لها، خلافاً لما ذكره الكثير من الباحثين والكتاب، وعلى الرغم من وجود بعض الأفكار الصينية القديمة التي تدل على خيرية الفطرة الإنسانية؛ مثل: تجلية الأخلاق المشرقة الواردة في نص رسالة كونفوشيوس في كتاب "المعرفة الكبرى" و"سفر التاريخ"، والوحدة بين "تيان" والإنسان الواردة في "سفر التغيرات"، لا نجد فيما نسب إلى كونفوشيوس في كتاب "الحوارات" أنه تكلم عن الفطرة الإنسانية غير مرة واحدة في الحوار الآتي:

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - د. زهرة الدين طيب إدريس - ص ٩٢-١٠١ بتصرف.

"إن الناس يولدون متقاربين في فطرتهم، وهم متباعدون بسبب التخلق"(١).

وهذا يوافق ما قاله تلميذه (تس قونغ) عنه بعد ملازمة طويلة عندما سمع لأول مرة من كونفوشيوس حديثه عن الفطرة الإنسانية وسنة "تيان"(٢).

ومع الأسف الشديد لم يخبرنا كتاب الحوارات ماذا سمع (تس قونغ) من أستاذه بالضبط، وترك الأمر بلا جواب محدد، ولهذا السبب نجد أن الذين يشرحون نظرية الفطرة الخيِّرة الكونفوشيوسية من علمائها لا يستدلون على ذلك بشيء من حوارات كونفوشيوس غير هذه الإشارة الغامضة، بل يبنون شرحهم على أساس ما قاله (منشيوس) في هذا الموضوع، حتى الحكيم (جو شي) في شرحه لنظرية تجلية الأخلاق المشرقة.

ولهذا السبب ـ أيضاً ـ ظهر اتجاهان مختلفان في موضوع الفطرة الإنسانية بعد وفاة كونفوشيوس بزمن غير بعيد: أحدهما يمثله الفيلسوف "هسون تس"(٣)، والآخر "منشيوس". وكان الأول يرى أن الإنسان مفطور على الشر فطرةً أصيلة، فيجب أن يقوِّمها بأحكام الشريعة والقانون من فوق رؤوسهم جبراً وإكراهاً، والثاني يرى أن الإنسان مفطور على الخير فطرةً أصيلة، وما على الإنسان إلا أن يجلِّيها من باطنه إلى خارجه برضاء النفس واختيارها دون الحاجة إلى عنصر الجبر والإكراه.

وقد دارت مباحثات ومجادلات بين الاتجاهين مدة طويلة، والكل يقدم أدلته ليدحض الطرف الآخر، ويدَّعي أنه يمثل الأصالة الكونفوشيوسية. وكُتب النجاح أخيراً للاتجاه الذي ذهب إلى خيرية الفطرة الإنسانية، وهو رأي "منشيوس"، وصار هذا الاتجاه يمثل الرأي الصحيح للدين الكونفوشيوسي في هذه القضية، وحكم على رأي (هسون تس) بأنه رأي منحرف عن الأصالة الكونفوشيوسية(٤).

(١) كتاب الحوارات، الفصل السابع عشر، الحوار رقم ٢.

(١) كتاب الحوارات، الفصل الخامس، الحوار رقم ١٢.

(٣) سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني ضمن أبرز الشخصيات الكونفوشيوسية.

(٤) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية- د. زهرة الدين طيب إدريس - ص ١٤٣ بتصرف.

وانطلاقاً من العقيدة الكونفوشيوسية في الوحدة بين الإنسان و"تيان"، يرى منشيوس أن الفطرة الإنسانية الخيِّرة يمكن الوصول إلى معرفتها، ومعرفتها تؤدي إلى معرفة "تيان؛ لأن هذه الفطرة عطاء سماوي للإنسان، فالإنسان يمكن له أن يصل إلى معرفة "تيان" عن طريق معرفة هذه الفطرة؛ لأن الفطرة هي الرابطة بينه وبين الإنسان، والطريقة الصحيحة لمعرفة الفطرة الخيِّرة هي استقصاء حقائق الأمور بقلبه.

ب- الفطرة بوصفها مصدراً للمعرفة:

الكونفوشيوسية لا تدَّعي أن كتبها المقدسة وحي منزل من السماء، ولا تقول إن شريعتها منزلة من السماء بالوحي بواسطة الأنبياء. وهذا على الرغم من الاعتراف بوقوع تكليم الإله بعض الأنبياء الأقدمين المسجَّل في الأسفار القديمة، بل ذهبت إلى أن الأخلاق والمعرفة، وأحكام الشريعة مأخوذة من الفطرة الإنسانية الخيِّرة؛ ذلك لأن الأنبياء ـ عندهم ـ مزوَّدون بالمعرفة منذ الولادة، فهم لا يحتاجون إلى الجهد والمحاولة للحصول على المعرفة، والمعرفة جِبِلَّة فطرية في قلوبهم، وفطرتهم صافية نقية، لم تؤثر عليها أكدار الأهواء والشهوات حتى تمنعهم من الأخذ من نور الفطرة، كما ورد في كتاب "سنة التوسط":

"إن الصِّدِّيق يصيب بدون جهد، ويحصل بدون تفكير، وهو يمشي متمكناً على طريقة التوسط، فذلك هو النبي".

على هذا، فالأنبياء يعرفون الحق من الباطل، والصلاح من الفساد، وحقائق الأمور، من فطرتهم الصافية، التي تنعكس فيها الحقائق من غير جهد ولا تفكير، ولا يخطؤون أبداً في ذلك.

هذا بالنسبة إلى الأنبياء، وأما غيرهم من عامة الناس، فلا يستطيعون ذلك بأنفسهم؛ لأن فطرتهم قد طرأت عليها أكدار الأهواء والشهوات، فلا يدركون الحقائق كما هي. نعم، يمكن لبعضهم أن يدركوا بعض الحقائق لصفاء فطرتهم نسبياً، ولكنهم ليسوا مثل الأنبياء في إدراكهم لجميع الحقائق كما هي. ومن هنا

يجب عليهم اتِّباع الأنبياء، وأخذ المعرفة عنهم، والعمل بمقتضى شريعتهم التي وضعوها وفق الفطرة الإنسانية الخيِّرة.

ومن الأمثلة التي تبين أن الأنبياء يأخذون معرفتهم من الفطرة: (الزواج)؛ فالكونفوشيوسية لا تستحقر الزواج، خلافاً للطاوية، التي تفضل الرهبانية على الحياة الزوجية، وترى أن الزواج من الموانع التي تَحُول دون الإنسان والطريقة "طاو"، بل هي تمدحه وتقدسه، وترى أنه أصل الشريعة وأهم أحكامها: "إن حكم الزواج أصل الشريعة". ولم يكن هذا الموقف تجاه الزواج إلا لأن الزواج فطرة إنسانية فُطِر الناسُ عليها من قبل "تيان"، (السماء أو إله السماء)، ولا يجوز للإنسان أن يخالف فطرته المجبول عليها، بل يجب أن يعيش وفق فطرته ليحقق منها ما جُبل عليه، وما أريد من المنافع الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، ومنها خدمة "تيان"، وحفظ النسل الإنساني، وحفظ نظام الأسرة والمجتمع، وضبط السلوك(١).

٢- القلب:

أ- مفهوم القلب في الكونفوشيوسية:

القلب من أهم المصطلحات الفلسفية في الكونفوشيوسية، وله ـ عندهم ـ مفاهيمُ عديدة وصفات مميزة:

١- القلب تلك القطعة من اللحم والدم التي بها يحيا الإنسان، فهو أحد الأحشاء الخمسة للإنسان؛ وهي: القلب، والكبد، والطحال، والرئة، والكلية. ومن المعلوم أن عدد الخمسة له معنى فلسفي خاص في الكونفوشيوسية؛ فالعناصر الأساسية للعالم خمسة: المعدن، والخشب، والماء، والنار، والتراب. وأصول المعاملات خمسة: الإخلاص للحاكم على المحكوم، والبر للوالد على الولد، والطاعة للزوج على الزوجة، والاحترام للإخوة الكبار على الصغار، والأمانة للأصدقاء. والأسفار المقدسة أيضاً خمسة ـ كما مر معنا ـ إلى آخر ما في

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ١٤٥.

الكونفوشيوسية من الأخماس، وكل ذلك ليس إلا مظاهر للوحدة بين "تيان" والإنسان كما يزعمون(١).

٢- القلب ملك الإنسان كله، فهو المسيطر على جسمه وروحه وفكره وشعوره وجميع تصرفاته، قال الحكيم (جو شي): "إنما القلب ملك الإنسان كله"(٢).

٣- القلب آلة التفكير، قال منشيوس: "وأما القلب، فوظيفته التفكير"(٣). فإن الصينيين القدامى لا يروْن أن الإنسان يفكر بالذهن، وليس عندهم لفظ العقل، بل يروْن أن الإنسان يفكر ويفهم ويعقل بالقلب فقط.

٤- القلب موضع الفطرة الخيِّرة التي فطر الناس عليها، وهي الأخلاق المشرقة كما سبق، قال منشيوس: "إن فطرة الرجل الفاضل التي فطر عليها هي: الرحمة، والصلاح، والأدب، والحكمة، وهي مغروسة في قلبه"(٤).

٥- القلب مورد المعرفة الذوقية المباشرة كما قال (جو شي) في تكملته التي كتبها وأضافها إلى الفصل الخامس من تفسير (تسينغ تس) لنص رسالة كونفوشيوس حول نظرية المعرفة الكبرى: "وذلك لأن قلب الإنسان لطيف جداً، ولا يوجد شيء إلا ويستطيع القلب أن يعرفه.... إلخ".

٦- القلب يشتمل على جميع الحقائق، وهي موضوعة في قلب الإنسان. قال الحكيم (جوشي): "إن القلب شامل لجميع الحقائق، وجميع الحقائق منعكسة في قلب الإنسان". وقال: "إنما القلب نور ملكي يملكه الإنسان، وهو شامل لجميع الحقائق، قادر على معاكسة جميع الأمور"(٥).

---

(١) سبق الكلام عن هذه العقيدة الكونفوشيوسية، في الفصل السابق، وسيأتي الكلام عن فكرة العناصر الخمسة في هذا الفصل.

(٢) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب المعرفة الكبرى، ص ٢.

(٣) كتاب منشيوس، الفصل الحادي عشر.

(٤) كتاب منشيوس، الفصل الثالث عشر.

(٥) مجموعة حوارات جو شي ا يجو تس يو لوي، الفصل الخامس.

٧- القلب عارف لطيف، هو خزينة الماضي والآتي، قال الحكيم (جو شي): "إن وظيفة القلب لطيفة للغاية، فهو خزينة لما مضى، وهو قادر على معرفة ما سيأتي"(١).

٨- القلب الذات القوَّامة لجميع الموجودات. على هذا، فالقلب هو الفطرة، وهو "تيان"، وهو الحقيقة؛ بمعنى أن القلب والفطرة، و"تيان" والحقيقة وحدة متماسكة لا انفصال بينهما أبداً، وفق العقيدة الكونفوشيوسية في الوحدة بين "تيان" والإنسان. قال منشيوس: "من بذل أقصى جهود قلبه عرف فطرته، ومن عرف فطرته عرف "تيان"، وعلى الإنسان أن يحفظ قلبه ويربِّي فطرته، وبهذا يخدم "تيان"(٢).

على أساس هذا المفهوم الكونفوشيوسي للقلب يمكننا أن نقول: إن للقلب في العرف الكونفوشيوسي أربع وظائف أساسية على الإجمال، فهو أحد الأحشاء الخمسة التي يحيى بها الإنسان أولاً، وهو العقل الذي يفكر به الإنسان ثانياً، وهو كذلك موضع الفطرة الإنسانية الخيرة التي فطر الناس عليها ثالثاً، وهو الحدس، أو منبع المعرفة الذوقية المباشرة أخيراً.

ب - القلب بوصفه مصدراً للمعرفة:

وإذا كان الأنبياء يأخذون المعرفة من فطرتهم الخيِّرة ـ من دون بذل الجهد في الطلب ولا محاولة السعي ـ في الكونفوشيوسية، فمن أين يأخذ الآخرون معرفتهم؟ خاصة وأنهم قالوا: من صار عارفاً بعد التعلُّم، فهو في المرتبة الثانية، ومن طلب المعرفة بعد أن أكره عليها، فهو في المرتبة التي بعدها"؟

أجابت الكونفوشيوسية على هذا السؤال بأن غير الأنبياء يأخذون معرفة الحقائق من مصدر آخر، وهو القلب. قال منشيوس: "من بذل أقصى جهود قلبه عرف فطرته، ومن عرف فطرته عرف "تيان" وعلى الإنسان أن يحفظ قلبه ويربِّي فطرته، وبهذا يخدم "تيان".

---

(١) مجموعة حوارات جو شي ايجو تس يو لوي، الفصل الرابع.

(٢) الشرح الجامع للكتب الأربعة، شرح كتاب منشيوس، الفصل الثالث عشر، ص ١٨٦.

وهذا يعني أن القلب باب يدخل منه إلى الفطرة الإنسانية الخيِّرة، والفطرة باب يدخل منه إلى معرفة "تيان"، ومن بحث عن الحقائق ببذْل أقصى جهود قلبه عرف الفطرة، ومن عرف الفطرة عرف "تيان"؛ لأن "القلب، والفطرة، و"تيان" حقيقة واحدة.

وإذا نظرنا إليها ـ من حيث كونها حقيقة ـ سميناها "تيان"، وإذا نظرنا إليها من حيث كونها جِبِلَّة مفطورة سميناها الفطرة، وإذا نظرنا إليها من حيث كونها محفوظةً في الإنسان سميناها القلب". هذا يعني أن هناك نوعاً من علاقة التجاوب والتفاعل بين القلب والفطرة و"تيان"، والبحث عن الحقائق ببذل أقصى جهود القلب يؤدي إلى معرفة الفطرة الخيِّرة التي فُطِر الناس عليها، ومعرفة الفطرة تؤدي بالضرورة إلى معرفة "تيان"(١).

٣- فكرة العناصر الخمسة:

يعتقد الكونفوشيوسيون ـ ككل الصينيين ـ أن الأرواح تتقمَّص جوهر العناصر الخمسة حتى تستطيع هذه العناصر أن تتمتع بالغذاء والرؤية والموسيقى. ومن هنا كان على الإنسان أن يتمتع بكل شيء في حدود القانون الأخلاقي.

وقد بنوْا تفكيرهم على فكرة "العناصر الخمسة"(٢) ومن ذلك قولهم:

١- تركيب الأشياء من خمسة عناصر: المعدن، الخشب، الماء، النار، التراب.

٢- الأضاحي والقرابين خمسة.

٣- الموسيقى لها خمسة مفاتيح، والألوان الأساسية خمسة.

٤- الجهات خمس: شرق وغرب وشمال وجنوب ووسط.

٥- درجات القرابة خمس: أبوّة ـ أمومة ـ زوجية ـ بنوّة ـ أخوّة.

والكون عندهم مكون من العناصر الخمسة، والإنسان له الأحشاء الخمسة التي

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية- د. زهرة الدين طيب إدريس - ص ١٥٠ - ١٥٤.

(٢) وقد تكلمنا (في الفصل السابق) عن اعتقاد الكونفوشيوسية بالوحدة بين (تيان) و(الإنسان) بناءً على هذه الفكرة. كما سبق الكلام عن كثرة الأخماس لديهم في أول هذا الفصل.

يحيى بها؛ وهي: القلب، والكبد، والطحال، والرئة، والكلية.

ويقال: إن الفيلسوف الصيني (شي يو) – المولود في القرن الثامن قبل الميلاد – هو أول من جاء بفكرة العناصر الخمسة، حيث افترض أن الكون يتكون من عناصر خمسة هي الأساس في وجوده، ونمائه وتطوره؛ وهي: التراب، والنار، والماء، والمعدن، والخشب. ومن هذه العناصر تتكون الأشياء (الموجودات) من الإنسان إلى الحيوان والنبات فالجماد. وللعناصر خواصُّها، ومن تركيب هذه الخواص تنشأ الموجودات في تنوعاتها اللامتناهية. وهذه الخواص هي:

العنصر	الخواص	التكوين	الإحساس
الماء	انسياب، مطر، هبوط	سيولة، فيوضة، ذوبان	ملوحة
النار	تسخين، إحراق، صعود	حرارة، احتراق	حرارة
الخشب	قبول الصورة بقبول القطع والجز	صلابة فيها مطاوعة	حموضة
المعدن	قبول الصورة بالصب سائلاً	قابلية تبديل الصورة بإعادة الصهر والصب	اللذوعة
الأرض	التراب، الإنتاج، الأكل	التغذية	الحلاوة(١)

٤- الفكر الأخلاقي:

الأخلاق هي محور الفلسفة وأساس الدين لدى الكونفوشيوسية، وهي الأمر الأساسي الذي تدعو إليه، وتسعى إليه بتربية الوازع الداخلي لدى الفرد ليشعر بالانسجام الذي يسيطر على حياته النفسية، مما يخضعها للقوانين الاجتماعية والقانونية بشكل تلقائي، وتعد الكونفوشيوسية مذهباً إصلاحياً للأخلاق والمجتمع والسياسة، وقد أثر في كونفوشيوس ما رأى من قومه من تدنٍّ في الأخلاق، وفساد في السياسة، وتفكك في المجتمع. فأراد أن يعود بقومه إلى الأخلاق الفاضلة،

(١) تيارات الفلسفة الشرقية – محمد سليمان حسن – ص ٥٦ – ٥٧ بتصرف.

والمعاملات الحسنة، والسياسة الصالحة، فكان له ـ وللكونفوشيوسيين من بعده ـ مبادئ وأصول إصلاحية في الأخلاق والمجتمع والسياسة، شكلت المنهج الذي سارت عليه الكونفوشيوسية بعد ذلك، وسنحاول ذكر أهم هذه المبادئ والأصول الأخلاقية في نقاط:

أ- مبادئ الأخلاق الكونفوشيوسية:

١- إنسانية الأخلاق:

ولعل أبلغ وصف للأخلاق الكونفوشيوسية أنها إنسانية الطابع؛ "فالإنسان فيها مقياس للإنسان"، وهذا كونفوشيوس نفسه يقول: "إن الفرد الذي يريد أن يعيش في تناقض مع هذه القواعد، يستطيع أن يتخذ من نفسه مقياساً للأخلاق الفاضلة"(١).

فالمثالية عند كونفشيوس مشتقة من طبيعة الإنسان ذاتها، وهي مبنية على تحليل للطبيعة البشرية؛ ولذلك فهي لا تقوم على افتراض عالم آخر يلقى فيه الإنسان الثواب أو العقاب جزاءً على أفعاله، إنما تنظر إلى الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً ينبغي أن يعيش حياة سعيدة هانئة مع غيره من البشر(٢).

وعلى الرغم من قوة المعتقد الديني لكونفوشيوس، إلا أنه لم يتخذه أساساً لفكره، خاصة الفكر الأخلاقي منه، وإنما آثر فصل الأخلاق عن عالم الغيب، وصرف الأنظار عن خوارق الطبيعة والغيبيات، وأعطى ـ في مقابل ذلك ـ اهتماماً أكبر للعالم الدنيوي، ولمشكلات المجتمع البشري الجوهرية، ولرسم العلاقات التي يجب أن تسود بين أفراد هذا المجتمع، ووضع أخلاقياته على أساس طبيعة الإنسان والمجتمع، وعدَّهما مصدر المثل العليا والمعايير الأخلاقية.

ومما يؤكد عمق البعد الإنساني في الأخلاق عند كونفوشيوس، واعتبار طبيعة

(١) كتاب الطقوس، ف ٣٢.

(٢) فلاسفة أيقظوا العالم – د. مصطفى النشار – ص ٥٧ بتصرف.

الإنسان وإمكانيات هذه الطبيعة معاييرَ لهذه الأخلاق قوله في هذا الشأن:

"إن الطريق الصحيح، أو قاعدة السلوك السليم التي على الأفراد اتباعها، ليست ببعيدة عنهم؛ لأن الأفراد إذا استنُّوا قاعدةً للسلوك بعيدة عنهم، فمعنى ذلك أنها لا تتفق وطبيعتهم الإنسانية، وكل قاعدة للسلوك الأخلاقي تتنافى مع الطبيعة الإنسانية يجب استبعادها وعدم الأخذ بها"(١).

ويقول أيضاً: "إن الإنسان هو الذي يجعل الصدق عظيماً، وليس الصدق هو الذي يجعل الإنسان عظيماً". فالإنسان إذن هو مصدر القيم، ومقياس الأخلاق الفاضلة، والذي يجعل الناس مقاييسَ ومعاييرَ بعضهم لبعض هو أن الطبيعة الإنسانية، وما تتميز به من عواطف وأفكار ومشاعر وانفعالات، واحدة في كل فرد من أفراد النوع الإنساني، فيما يرى كونفوشيوس.

فما يصدق على فرد يصدق على الأفراد، وما يشعر به إنسان يشعر به الناس جميعاً. وبناءً على وجود مثل هذه الطبيعة الإنسانية الواحدة في كل فرد من الأفراد، يجب إذن على "الإنسان ألا يعامِل الناس بما لا يرضى أن يعامَل به"(٢).

٢- تطابق الأسماء مع مسمياتها:

الأصل الذي بدأ به كونفوشيوس، والذي يرى أن الفضائل تقوم عليه، وجوب تعيين المعنى واللفظ، أو تطابق الأسماء مع مسمياتها؛ فإن اللعب بالألفاظ يوهن الأخلاق، ويؤدي إلى فساد الاعتقاد، والعبث بكل ما هو فاضل، فنراه يقول: "إذا لم تكن الأسماء صحيحة لا يوافق الكلام حقائق الأشياء، وإذا لم يكن الكلام موافقاً للحقائق وقع الخلط في اللغة، وفسدت الأمور، فلا تزهر الآداب ولا الموسيقى، ويضطرب التفكير، ولا تنزل العقوبات على من يستحقها، وإذا لم تنزل

(١) كتاب الطقوس (الانسجام المركزي) الفصل ١٣.

(٢) كتاب الحوار: ١٢/ ١١٢.

انظر: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني رسلان - ص ٧٣-٧٤.

وكونفوشيوس النبي الصيني - حسن سعفان - ص ٥٣-٥٤.

العقوبات على من يستحقها لا تعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم، والرجل الكامل الخلق لا يستهين بكلامه، ولا يهمل في تعبيره"(١).

فالرجل الكامل يوضِّح كلامه، ويبين المقصود منه والغاية وراءه في غير ما لبس ولا غموض، ولا يموِّه الحقائق تمويهاً يضلل الناس ويوقعهم في الشرور والمفاسد.. فنرى كونفوشيوس يوضح هذه المسألة ويؤكدها، ليقطع على المضلِّين سبيل التضليل، ويفتح الباب ليستقيم طريق المعرفة من غير تمويه.

"فقد جاء كونفوشيوس في وسط اضطراب خلقي، وتلاعب في نظم الحكم، وعبث بمصالح الدولة، واللعب بالألفاظ لتوهين الأخلاق، فكان لابد من العمل على تعيين المعاني الدالَّة على الألفاظ لتثبيت المعنى مستقيماً لكي لا يمكن التلاعب به"(٢). ويعزو كونفوشيوس اضطراب أحوال عصره إلى أن مسمَّيات الأشياء لم تعد تتطابق مع أسمائها، وإذا أردنا زوال هذه الشرور يجب العمل بنظرية (تقويم الأسماء)، فلا سبيل - عنده - إلى تنفيذ الواجب بدقة إلا بوضع الأشياء جميعها في نصابها، ولا يتأتَّى هذا إلا بالتطابق التام بين القوالب ومحتوياتها، أو بين الألفاظ والمعاني(٣).

كما أن الدراسة يجب أن تتناول حقائق الأشياء وأصولها، تناولاً دقيقاً مؤسَّساً على النقد الذي لا يعرف المحاباة، ولا يخضع لعاطفة ولا هوى، فإذا تنزَّهت هذه الدراسة الواعية عن هذه العوائق المفسدة أنتجت أسمى النتائج وأرقاها. ونراه يقول: "حينما تدرس طبيعة الأشياء عن قرب وبانتباه تصل المعرفة إلى أعلى أوجها، وحينما تبلغ المعرفة أقصى أوجها تصبح الإرادة كاملةً، وحينما تصبح الإرادة كاملة تصير حركات القلب منتظمةً متفقة مع القانون، وحينما تصبح

---

(١) الديانات القديمة - الإمام محمد أبو زهرة. - ص ٧٦-٧٨ بتصرف.

(٢) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية - د. علي معبد - ص ١٤٠.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٧ بتصرف.

انظر: الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٨٠.

حركات القلب منتظمة يتخلّص القلب من الآثام، وبعد أن يتخلص الفرد من الآثام يشرع في توطيد دعائم النظام والانسجام في الأسرة، وإذا ساد الانسجام في الأسرة بلغ الحكم في المدينة درجة الكمال، وإذا بلغ الحكم في المدينة حد الكمال استمتعت الإمبراطورية بالسلام التام والانسجام الكامل"(١).

٣- الفضيلة:

فالفضيلة عند الكونفوشيوسية لا تقتصر على المعرفة فقط، بل المعرفة طريق إلى الفضيلة؛ يقول كونفوشيوس: "من يعلم الحق دون من يولع بطلبه، ومن يولع بطلبه دون من يطمئن إليه دائماً"(٢).

هذا الاطمئنان الذي يعقب طلب الحق يؤدي إلى العمل به والسير على هداه، بعد أن يكون قد تعمَّق في مشاعره، وتحرك وفقاً لما تمليه عليه هذه المشاعر التي أُولعت بالحق وتشربته، وهو ما تعبِّر عنه الكونفوشيوسية بـ "لي" أي السلوك الصحيح، أو القانون الأخلاقي، الذي يشمل جميع العادات الحسنة، والسنن الاجتماعية، والشرائع السياسية. هذا القانون الأخلاقي "يفرض على الأفراد أربع فضائل رئيسة: فيجب على الولد أن يطيع والده وأن يخضع له، ويجب على كل فرد أن يطيع الحاكم وأن ينقاد له، وعلى الأخ الأصغر أن يطيع أخاه الأكبر، وعلى الأصدقاء أن يعاملوا بعضهم بعضاً بإخلاص. ويوجب الكونفوشيوسيون على كل فرد أن يتحلى بها باستمرار؛ لأن الاستمرار في التحلي بالفضيلة هو نفسه جزء لا يتجزأ من الفضيلة"(٣).

---

(١) الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية - د. علي معبد - ص ١٥٩.

(٢) الديانات القديمة - الإمام محمد أبو زهرة. - ص ٧٨.

وحكمة الصين - د. فؤاد شبل - ص ٧٢.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني - حسن سعفان - ص ٣٤ بتصرف.

انظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر - ت: د. إمام عبدالفتاح - ص ٣٢٢-٣٢٣.

ويرى كونفوشيوس أن طلب الفضيلة من كمال الإنسانية، وأنْ يطلبَ الإنسان الفضيلة؛ لا رجاء منفعة، ولا دفعاً لمضرة، ولا جلباً للذة، ولا دفعاً لحرمان، ولكن يطلب الفضيلة على أنها كمال إنساني، وإذا تمسك الإنسان بالفضيلة، وابتعد عن الانحراف عن سبيلها، وتجنب الخضوع للملاذ، سهُل عليه كل صعب، وهان عليه كل شاقٍّ، وإن رياضة النفس على الفضيلة تجعل الشخص يحتمل الفقر والغنى، فإن افتقر لم يهن، وإن غنِيَ لم يطْغَ ولم يأشر"(١).

٤- خيرية الفطرة الإنسانية:

سبق أن تكلمنا - في بداية هذا الفصل - عن الفطرة الإنسانية الخيِّرة، وأنها من مصادر المعرفة لدى الكونفوشيوسية. ونزيد على ما ذكرناه: إن الكونفوشيوسية تبني نظريتها في الأخلاق على القول بخيرية الفطرة الإنسانية، وإن الإنسان خيِّرٌ بطبعه، يبحث دائماً عن الخير. ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى: "إن الناس يولدون خيِّرين سواسية بطبيعتهم، ولكنهم كلما شبُّوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكتسب من عادات"(٢).

ويقول أيضاً: "إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة، فإذا افتقد الإنسان هذه الاستقامة أثناء حياته، افتقد معها السعادة"(٣).

ويرى أن السبيل إلى الأفعال الخيِّرة هو التمسك بالقانون الأخلاقي السماوي الذي يحقق صلاح الفرد والمجتمع، كما يقوم نظام كونفوشيوس الأخلاقي على الفهم الكامل للطبيعة الإنسانية من حيث كونها طبيعة عاقلة واجتماعية، مع ملاحظة أنه:

أولاً: لا يعد الفرد كائناً مستقلاً عن المجتمع، أو يعيش بمعزل عنه.

---

(١) الديانات القديمة- الإمام محمد أبو زهرة - ص ٧٩.

(٢) كتاب الطقوس، فصل ٣٢.

(٣) كونفوشيوس: كتاب المنتخبات أو كتاب الحوار.

ثانياً: لا ينظر إلى المجتمع بوصفه نوعاً من الكيان الميتافيزيقي الذي يلغي وجودُه وجودَ الفرد، بحيث لا يصبح للفرد وجود ما لم يكن مندمجاً فيه تمام الاندماج.

وهذه الرؤية نشأت لدى كونفوشيوس لإيمانه بمبدأين:

الأول: أن الفرد مخلوق اجتماعي، للمجتمع أثر كبير في تشكيله.

الثاني: استحالة انسحاب الفرد من المجتمع، نظراً إلى ما يتمتع به من يقظة ضمير تصدُّه عن إتيان هذا الفعل الغريب عن طبيعته.

ويستنتج كونفوشيوس من هذين المبدأين نتيجةً مهمة مفادها: أنه من أكبر الأخطاء أن ينسحب الفرد من المجتمع، ويتحول إلى شخص انعزالي زاهد في الحياة، بل على كل فرد أن يحرص على أن يكون عضواً عاملاً ونافعاً في المجتمع. ويضاف إلى ما سبق أن على الفرد أن يحذر من أن يتحول إلى أسير للمجتمع يتبع أعرافه وتقاليده المجافية لمنحاه الخُلقي دون تفكير أو رَوِيَّة، بل الواجب عليه ـ إذا ما بدا له أنَّ ممارسة هذه الأعراف والتقاليد فيها فساد أو ضرر ـ أن يعمل على هداية المجتمع إلى الصواب، وأن يدفعه إلى السير في الاتجاه السليم. أما إذا كانت هذه الأعراف والتقاليد معقولة أو لا ضرر منها، فعليه مجاراتها والعمل بها(١).

٥- يقظة الضمير:

حتى لا يحيد الإنسان عن الفطرة يجب عليه أن يراقب نفسه، ويلحظ البواعث التي تبعثه على الأعمال، فإن كان الباعث هو المنفعة الشخصية أو اللذة، فقد حاد عن الطريق، وإن كان الدافع الإخلاص والحق في ذاته، فهو الفطرة، وهو الحق والسلوك القويم. ولذلك يقول عن الحكم على الأشخاص: "انظر إلى أعمال الناس، ولاحظ بواعثها، وراقب ما إليه يستريحون، فأين يخفي الناس سرائرهم"؟

وهذه الملاحظة تدفع كونفوشيوس إلى أن يدعو الشخص إلى التأمل النفسي،

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص٧٥ – ٧٦ بتصرف.
انظر: حكمة الصين – د. فؤاد شبل – ص ٧٣.

ومراقبة نفسه اللوامة، ومحاسبتها على ما تُقدمِ عليه من عمل، ويكون من نفسه رقيب عليه شديد المراقبة...[1].

فمراقبة النفس ومحاسبتها على الصغير والكبير، وإلجام نزواتها، وإلزامها جادَّةَ الحق والصواب، واستكشاف كل ما بداخل هذه النفس يوصل الإنسان إلى الحكمة والأخلاق الفاضلة، والبعد عن الأهواء، والحكم على الأشياء حكماً صحيحاً، وهذا لا يأتي إلا عن طريق الضمير اليقِظ الحي[2].

٦- تبادل المعاملة:

ويقضي هذا المبدأ بأن "لا تعامِل الناس بما لا ترضى أن تعامَل به"[3].. وهذا مبدأ عظيم يؤدي إلى استتباب الأخلاق الحسنة والمعاملات الكريمة بين الناس، فالكل يقدِّم الخير ويبدأ به، حتى يقدَّم له الخير ويُبذَل له.

ولكن العدالة، أو تبادل المعاملة، لا تعني عند كونفوشيوس مقابلة الشر بالخير، أو مجازاة الإساءة بالإحسان، بل تقتضي مجازاة الإساءة بالعدل، والإحسان بالإحسان. وحينما سُئل كونفوشيوس: ماذا تقول فيمن يجازي المسيء إليه بالإحسان؟ قال: "فبما يجازي المحسنَ إليه، فليجاز المسيء إليه بالعدل، وليجاز المحسن بالإحسان"[4].

وسأله أحد تلاميذه عما يعنيه بلفظ الإنسانية، فأجابه:

"أن تتصرف وأنت خارج دارك كما لو كنت في حضرة ضيف عظيم الشأن.. وتعامل عامة الناس كما لو كنت تؤدي فريضة دينية، هنا ينتفي السخط في الدولة والمنزل، وعلى المرء الراغب في بناء رفعته أن يساهم في تشييد رفعة الآخرين،

---

(١) الديانات القديمة – الإمام محمد أبو زهرة – ص ٨٠ بتصرف.

(٢) الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ٨٤.

(٣) كتاب الحوار– ١٥/١٥٤ و ١٢ / ١١٢.

وكتاب الطقوس – الفصل ٣٢.

(٤) كتاب الحوار، ص ١٤٤.

وعلى من يتشوّق إلى النجاح أن يساعد غيره على بلوغه"(١).

ويلخص كونفوشيوس مبدأ التعامل مع الناس، فيقول: "لا تفسد الآخرين بفرط حبك، ولا تقْضِ عليهم بفرط كراهيتك، وخير الأمور هو الوسط بين الطرفين؛ ذلك لأننا نتعامل مع بشر وليس مع ملائكة، فنِصْف البشر خيِّر، والنصف الآخر شرير، فلنشجع الخير ونقاوم الشر بتطبيق مبدأ العدالة المتبادلة"(٢).

٧- الوسط والانسجام:

الوسط والانسجام، عند كونفوشيوس، هما نقطة الذروة في الطبيعة الإنسانية؛ إذ إن هذه الطبيعة تتألف من قسمين: النفس أو الذات أو المركز، والأحاسيس أو المشاعر والانفعالات. فعندما لا تتنبه الأحاسيس أو الانفعالات (مثل الغضب أو الحزن أو الفرح) تُدعى الوسط أو الاعتدال، وعندما تتنبه هذه الأحاسيس أو الانفعالات، دون أن تتجاوز الحد المعتدل، يقال عن النفس أو الذات: إنها في حالة الانسجام. إذن الوسط أو الاعتدال هو الأصل، والانسجام هو القانون العام.

وحينما يبلغ الوسط أو الاعتدال والانسجام غايتهما، ويتحققان، يسود الاستقرار الكامل في السماء وعلى الأرض، وتتلقى جميع الأشياء حقها كاملاً، وتتقدم نحو الكمال، بما يفيد أن المجال الأخلاقي والمجال الميتافيزيقي لا ينفصلان، بل النظام الخلقي والنظام الكوني يشكلان وحدة واحدة أو كياناً واحداً.

لقد وقف كونفوشيوس موقفاً وسطاً بين الإفراط والتفريط، ولجأ إلى الحد الأوسط لتحديد الفضائل الخلقية. وبعبارة أخرى، فإن الفضيلة عنده هي اختيار الوسط بين رذيلتين متضادَّتين؛ فالشجاعة وسط بين التهوُّر والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل، والصداقة وسط بين التملُّق والشراسة، والتواضع وسط بين الخجل وانعدام الحياء.

---

(١) حكمة الصين – د. فؤاد شبل ص ٨٩.

(٢) الفلسفة والنصوص – د. محمد جلال شرف – ص ٦١.

انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ٨٥.

ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى: "إنني أعرف الآن لماذا لا يفهم كثير من الناس القانون الأخلاقي. فالأفراد ذوو الطباع السامية يعيشون في مستوى أخلاقي يعلو القانون الأخلاقي؛ أي أعلى من ذاتهم الأخلاقية العادية، والأفراد ذوو الأخلاق المنحطة يعيشون في مستوى يقل عن المستوى العادي للقانون الأخلاقي"(١).

ويقول أيضاً: "لعل الاقتصاد الدائم هو المَثَل الأعلى للفضائل"(٢). وقد سبق في الصفحة السابقة قول كونفوشيوس: "لا تُفسِد الآخرين بفرط حبك، ولا تقض عليهم بفرط كراهيتك، وخير الأمور هو الوسط بين الطرفين".

٨- عدم الإغراق في الملذات:

ترى الكونفوشيوسية أنه لابد من العمل على إحياء الفضيلة بتنمية قوى النفس الخيِّرة، وتصفية ينابيعها من كَدَر اللذة، واحتدام الشهوة، ويرون أن النفس كصفحة الماء الصافية المستوية، واللذات كالأحجار تُقذف فيها، فتحدث فيها اضطراباً، وتعكِّر صفوها(٣).

وقد خشي كونفوشيوس أن تطمس اللذات نور الفطرة وهداها، فحث على الخشونة في العيش كي تكون اللذات أَمَةً للعبد ولا تكون سيداً، ويرى أن تعَوُّدَ ترك اللذات مما يساعد على اتباع الفطرة؛ "إذا عزم المتعلم على طلب الطريقة الموافِقة للفطرة السليمة، وهو يأبى أن يترك الملبس الخَلَق والمطعم الخشن، فهو غير خليق بأن يحاضر"(٤).

فعلى المتعلم ـ وغيره ـ أن يتعالى على ملذاته وشهواته حتى يكون على جادة الفضيلة والخلق القويم.

---

(١) كتاب الطقوس، الفصل الثاني، الانسجام المركزي.

(٢) كتاب الحوار ٦/ ٦١.

كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٨٣-٨٤.

(٣) الديانات القديمة – محمد أبو زهرة – ص ٧٨ بتصرف.

(٤) الحوار – كونفوشيوس – ت: محمد مكين – ص ٣٩.

٩- الحيادية في الحكم وعدم المحاباة:

ترى الكونفوشيوسية أنه كما يلزمنا صفاء النية في الحكم على ما نأتي من أفعال، فإنه كذلك من ألزم اللوازم كي نستطيع الحكم على أفعال الآخرين، بلا تحيز أو ظلم. "فالإنسان عادةً يتعامى عن الحكم الصحيح على أفعال الأفراد الذين يحبهم أو الذين يحتقرهم، ويخشى بأسهم، أو الأشخاص الذين يشفق عليهم أو يُجِلُّهم، ومن ثم لا نجد في هذا العالم إلا قليلاً من الأفراد يستطيعون رؤية مساوئ من يحبون، أو مزايا من يكرهون "فالناس لا يلحظون خطأ أطفالهم كما لا يلحظون النمو البطيء لنبتة الأرز التي تنبت في حقولهم"(١). ولكي يتلافى الإنسان هذه المناقص، عليه أن يحسن نيته وألا يخدع نفسه وأن يعوِّدها على النظر للأشياء والأشخاص بلا أفكار أو أحكام لم يتثبت من صحتها" (٢).

كما توجب الكونفوشيوسية أن يكون الفرد ذا مسلك عادل في جوانب حياته جميعها؛ لأن المحاباة تؤدي إلى البعد عن القانون الأخلاقي، "فينصح كونفوشيوس أتباعه بأن يعملوا دائماً على أن يكونوا موفوري الكرامة، وألا يطلبوا شيئاً من أحد، وأن يعتمد كلٌّ منهم على جهده للوصول إلى ما ينبغي، وإذا ما أخفق الإنسان بعد جد واجتهاد، فليتقبل حظه ونصيبه بارتياح، ولا يُحمِّل الآخرين تَبِعَة إخفاقه، أو يعزو سوء حظه إلى السماء، وبهذا وحده يستطيع العاقل الحكيم أن يعيش مرتاح النفس هادئ البال(٣).

هذه جملة من المبادئ الأخلاقية لدى الكونفوشيوسية، ولا يعني هذا أننا قد أحطنا بها جميعاً، وما ذكرنا على سبيل الإجمال لا الحصر. ولعل فيما يأتي في هذا الفصل مزيد بيان وتوضيح...

---

(١) الانسجام المركزي – الفصل السادس.

(٢) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ٤٩-٥٠ بتصرف.

(٣) المرجع السابق – ص ٤٥.

ب - الفضائل الأخلاقية

يمكن القول: إن فلسفة كونفوشيوس العملية تتمحور حول أربع فضائل رئيسة تتشعب عنها كل القيم الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها الفرد حتى يصل إلى الكمال الإنساني. وتتمثل هذه الفضائل الأربع في فضيلة "جين"؛ أي الإنسانية، وفضيلة الاستقامة، وفضيلة طاعة الأبناء، وفضيلة "لي"؛ أي: الطقوس والشعائر.

١- فضيلة الإنسانية (جين)(١):

تعد الكونفوشيوسية فضيلة "جين" من أهم الفضائل التي لا يمكن للإنسان الفاضل الاستغناء عنها مهما كانت الظروف المحيطة به. وقد بلغت أهمية هذه الفضيلة لدى الكونفوشيوسية أنها تقدمها على سائر الفضائل الأخرى، بل أصبحت تتضمن القيم الأخلاقية الأخرى كلَّها.

وقد اختلف عدد من الباحثين حول ترجمة مفهوم الجين، مما أدى إلى ظهور عدد من الترجمات له، فهو يترجَم على أنه الحب، والصلاح، والخيرية، والإنسانية، والصدق والإخلاص البشري، وبساطة السلوك والفضيلة الكاملة.

ونستطيع أن نستخلص من بين كل هذه الترجمات أنه ضد كل النزعات الأنانية والمزيفة. إن كونفوشيوس نفسه لم يتجه إلى تعريفه من خلال النصوص، ولم يحاول تحديد المعنى الذي وظَّفه داخل عمله ككل، ولكن نستطيع أن نستخلص من خلال مجموعة الحوارات التي تدور حول هذه الفضيلة المعنى الأصلي لها، والذي قصده كونفوشيوس أياً كانت الترجمة(٢).

---

(١) الجين: لها عدد من الترجمات. ومنها على سبيل المثال: أنها تعني الفضيلة الإنسانية، والإحسان، والرجولة، والحب والخير الإنساني، وطيبة القلب الإنسانية، كذلك ترجمت على أنها: أمر متعلق بالشعور والتفكير الإنساني. كما تعني أيضاً الود أو العطف أو الشفقة، وهي صفة أخلاقية أساسية في الفكر الصيني وفي الفكر الكونفوشيوسي خاصة. انظر: الفكر الشرقي القديم - جون كولر - ت: كامل يوسف حسين - ص ٣٥٠، ٣٧٣.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ٧٥ - ٧٦ بتصرف. والتفكير الديني في العالم قبل الإسلام - د. رؤوف شلبي - ص ١٠٩.

تحدث كوفوشيوس مع أتباعه عن فضيلة الـ"جين" مركِّزاً على أنها صفة أخلاقية أساسية في منهجه وفكره الأخلاقي، وذلك حينما سأله أحد أتباعه عما هي "الجين"، فرد عليه كونفوشيوس قائلاً: "إنها حب البشر".

ويشرح هذه العبارة موضحاً المقصود بهذه الصفة الأخلاقية، فيقول: "يرغب كل إنسان في الثروة والشرف، ولكنها إذا تم تحقيقها عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغي الإبقاء عليها، ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنه لا ينبغي تجنبهما، وإذا ما نأى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية "الجين" فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة؛ ذلك لأن الإنسان رفيع المكانة، لا يمكنه قط التخلي عن الإنسانية (الجين)"(١).

ويرى كونفوشيوس أن الطريق السليم للفعل الإنساني ليس طريق تحقيق ما يحبه المرء وتجنب ما يكرهه، وإنما هو طريق العمل وفق مبدأ أعمق، هو مبدأ "الجين". ولها منزلة كبيرة في فكر كونفوشيوس، لدرجة أنه قال: "بأن الحياة ليست لها قيمة بدون "الجين". ويقول أيضاً: "إن المثقف الحازم ورجل الإنسانية "الجين" لا يسعى قط للحياة على حساب الإضرار بالإنسانية، وهو يؤْثِر التضحية بحياته لكي يحقق "الجين".

ويعتقد كونفوشيوس بأن التخلي عن "الجين" هو التخلي عن الحياة الإنسانية بصورة كاملة، وتبلغ "الجين" أهمية عظمى في فكر كونفوشيوس إلى حد أنه يجعل "الجين" أساس كل قيمة..."(٢).

وقد قيل: إن كلمة "جين" كانت في الأصل تدل على عضو من أعضاء العشيرة رفيع المستوى. ولـمَّا كان كونفوشيوس يدعو إلى رفع المستوى الأخلاقي للطبقات

(١) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٣٥١.
(٢) المرجع السابق – ص ٣٥١ – ٣٥٢ بتصرف.

كلها، جعل هذه الكلمة تعني: أن تكون خيِّراً إلى أقصى حد وبأوسع معنى ممكن لهذه الكلمة. ومن ثم كانت صفات مثل "انعدام الأنانية"، واحترام الآخرين، والولاء للأسرة، والإخلاص للأمير، كلها صفات الرجل "الجين".

ومن صفات الرجل المهذَّب "الجين" ألا يتذمر، ولا يشكو وقت المحن، وهذه كلُّها صفات للرجل "الجين". أما "الجين" نفسه عند كونفوشيوس، فهو نموذج رفيع لم يبلغه سوى حكماء الماضي(١).

ومن الملاحظ: أن فضيلة "الجين" في الفكر الكونفوشيوسي تتصف بالأوصاف الإنسانية الأخلاقية كلها؛ مثل الحكمة، والعدالة، والتقوى، والشجاعة، والشهامة، والنقاء، والرحمة والعطف، والكرامة والصدق.

وأوجب كونفوشيوس على أتباعه ضرورة التحلي بهذه الفضائل الأخلاقية، وضرورة التعبير عنها بالممارسة اليومية من أجل أن يسُودَ المجتمعَ السلامُ، ويعم الخير والسعادة الكون بأسره(٢).

وقد أراد كونفوشيوس من نَسَقه الأخلاقي، ومن فضيلة "الجين" على وجه الخصوص، أن يحقق ما يسمى "التماسك الاجتماعي"، ليس فقط داخل الأسرة، ولكن في داخل المجتمع كله، ولعل رغبة كونفوشيوس هذه كانت ردَّ فعل لتفكك المؤسسات الاجتماعية كلها داخل الصين في ذلك الوقت، مما أدى به إلى رفض مبدأ القوة لإصلاح الأمور؛ سواء داخل الأسرة أو المجتمع؛ لأنها غيرُ ملائمة، وعاجزة عن أن تحدث تنظيماً للعلاقات الأخلاقية بين البشر.

فالقانون قد يحرِّم جرائم الاغتصاب وانتهاك حرمات الغير، ولكنه عاجز عن أن يؤلف بين أفراد المجتمع أو الأسرة في نطاق من الانسجام تسودُه مشاعر الألفة والاتساق؛ أي إن كونفوشيوس وصل إلى أن إصلاح ما فسد من أمور يحتاج لما هو

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ت: د. إمام عبد الفتاح – ص ٢٨٦ – ٢٨٧.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٨١.

أكثر من سلطة الدولة أو القانون لكي تصبح صالحة.

لذلك أصبحت الخيرية تعتمد ـ في المقام الأول ـ على ضبط الفرد لذاته كي يدرك الطبيعة الإنسانية الحقة، وثانياً على كون المرء كائناً اجتماعياً يحمل على عاتقه عبء مساعدة الآخرين خلال تمثُّله "التاو" من خلال سلوكه. ومن هنا قيل: "إن ممارسة الخيرية تعتمد على الإنسان نفسه، وليس على الآخرين"(١).

٢- فضيلة الاستقامة [لي](٢):

الاستقامة تشكل قوة أخلاقية مهمة؛ لأنها تقوم بوظيفة المعيار في الحكم على الأشياء، وعلى مدى اقترابها أو بعدها عن الحق. وهذه الفضيلة تفرض على الفرد ألا يُقبل على أداء أي فعل، أو الموافقة على أي عمل دون أن يفكر في الجوانب المحيطة بهذا العمل كلِّها، ويلتزم جانب الحق والاستقامة فيه.

ويرى كونفوشيوس أن الرجل النبيل الذي اجتمعت فيه الفضائل الأخلاقية لو سلك الطريق المثالي داخل المجتمع، لنتج عنه سعادة الشعب وخيره، وهذا يستلزم أن تسير الأمة كلها على طريق الاستقامة الذي سلكه ملوك الماضي. وقد نالت هذه الفضيلة أهمية كبرى، بل أصبح من الضروري إعلاؤها فوق كل شيء(٣).

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٨٤.
وانظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص ١٤٠– ١٤٢.

(٢) الاستقامة في الفكر الكونفوشيوسي: هي الاستعداد للقيام بالسلوك الأخلاقي الصحيح، والقدرة على إدراك ما هو صحيح في آن معاً. وهي قدرة تعمل كنوع من الحدس الأخلاقي، وهذه القدرة تجعل الشخص صاحب شخصية أخلاقية قوية، وهو يفكر إذا أراد أن يفعل شيئاً: هل هو صواب على الصعيد الأخلاقي أم لا..
وسنرى أن هناك فضيلةً يجعلها المترجمون مستقلة، وتحمل المصطلح الصيني (لي) نفسه، وهي فضيلة الطقوس والشعائر، أو قواعد السلوك وآداب اللياقة، كما سنرى في ص ٣٠٥ وكنت قد ظننت أنهما متفقان، وأن الاختلاف بينهما هو في الترجمة فقط، إلا أنني عند قراءة ما تحت العناوين بتمعن وجدت اختلافاً بينهما؛ لذا آثرت أن أذكرها كما ذكر المترجمون.
انظر: الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٨٦.

ويقول كونفوشيوس عن هذه الفضيلة: "ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة باعتبارها جوهرَ كل شيء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع (لي)، ويبرزها في تواضع، ويمضي بها إلى نهايتها في إخلاص، حقاً إنه الرجل الأسمى"(١).

ولقد اهتم "منشيوس" أيضاً بفضيلة الاستقامة، واحتلت مكانة سامية داخل نَسَقه الأخلاقي، حيث عدَّها من البدايات الأربع الكامنة داخل الفرد. فعندما أقر منشيوس بأن الإنسان يولد مزوَّداً بطبيعة إنسانية خيِّرة بالفطرة كان بذلك بمثابة تسويغ لعلَّة التزام الإنسان بالقِيم الأخلاقية في تعامله مع الآخرين، فهو يرى أن الإنسان يولد مزوداً ببدايات أربع تتوافر داخل ذاتيته، وإذا تقاعس عن ممارستها، فسوف يؤدي إلى تدمير ذاته(٢). منها: (الاستقامة)..، يقول منشيوس: "إني حقاً أحب الحياة، وأحب أيضاً الاستقامة. ولكن إذا لم أستطع أن أحتفظ بهما معاً، فإنني سوف أترك الحياة تمضي، وأختار الاستقامة، فأنا أحب الحياة، ولكنني وجدت الشيء الذي أحبه أكثر من الحياة"(٣).

وتظهر أهمية هذه الفضيلة، ليس فقط من خلال سلوك الأفراد، ولكن أيضاً في السياسة وطريقة الحاكم لإدارة شؤون البلاد، فعلى الحاكم أن يرفع المستقيم على المخادع، وعندئذ لن يجرؤ أحد على أن يظل بعيداً عن الطريق المستقيم. فسلوك الرجل النبيل لابد أن يكون على وفاق مع الاستقامة.

والاستقامة ضد الخداع، وضد أن يتظاهر الفرد بما ليس فيه؛ فالاستقامة هي أن يؤدي الإنسان الأشياء الملائمة لعامة الناس، وأن يكون متَّسقاً في سلوكه مع ما يُكنُّه من مشاعرَ تجاه الآخرين، أي أن يتفق ظاهره مع باطنه حتى يستطيع الإعلاء

---

(١) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٣٥٦.

(٢) حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ١١٩

(٣) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٨٦.

من شأن هذه الفضيلة، يقول كونفوشيوس: "ما هو حقيقي في الداخل سوف يظهر في الخارج، فالرجل النبيل لابد أن يراقب ذاته".

ولكن ما السبب الذي جعل كونفوشيوس يشدد على فضيلة الاستقامة إلى هذا الحد؟

مما لاشك فيه أن ذلك ردة فعل لِـمَا كان يعانيه عصره من تفكك وفساد، لذلك نجد الاستقامة وُضعت لتعمل على أنها قيد للسلوك الإنساني وللتأثير على الأفراد بأن لا يلتمسوا إلا ما هو حق.

ومن هنا نجد أن الاستقامة تتعارض مع الشهوات والرغبات. يقول كونفوشيوس: "أن تكون مليئاً بالرغبات، فكيف يمكنك أن تكون مستقيماً؟ فالرغبة تعني أشياء قد يعجز الإنسان عن تحقيقها، وليس معنى هذا أن يكبِت الإنسان رغباته، ولكن لابد من الحد منها عن طريق الاستناد إلى ما يكمُن في القلب من قِيَم تعد أساساً لسلوكه تجاه الآخرين، وهو منهج الاستقامة(١).

٣- فضيلة طاعة الأبناء (الولاء البنوي) (هيساو):

تعني فضيلة ولاء الأبناء: توقير العائلة واحترامها، فأولاً وقبل كل شيء يتم توقير الأبوين، ويظنون أن الحياة نفسها متولدة عنهما. وبلغ اهتمامهم بهذه الفضيلة أن يهتموا بالجسم من أن يلحق به ضرر؛ لأنه من الأبوين. ومن هنا، فإن حماية الجسم هي تكريم للأبوين. وينبغي إظهار التوقير للأبوين من خلال حسن السلوك في الحياة، وجعل إسهامها معروفاً ومبجَّلاً، وعلى الأقل ألا يجلب الولد لهما الخزي، فاحترام الآباء يجلب الثراء العاطفي والروحي(٢).

وطاعة الأبناء للآباء أحد أهم تعاليم كونفوشيوس، وأساس الفضيلة في نظره؛ لأن الفرد لن يمكنه احترام قانون المجتمع، وأداء واجباته حيال الحاكم والمجتمع، إلا

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – ص ٨٧ بتصرف.

(٢) انظر: الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين– ص ٣٥٥.

بعد إدراكه كيفية احترام والديه وخدمتهما طائعاً مبجّلاً.

وقد نبه كونفوشيوس مريديه وأتباعه لمزاولة طاعة الوالدين داخل الأسرة، بما يؤكد أهميتَها بوصفها الخليةَ الأولى، والصورة المصغَّرة للمجتمع، كما دعا كونفوشيوس إلى تنظيم شؤون الأسرة باتِّباع قواعد الفضيلة، وعلى رأسها فضيلة الطاعة البنوية. يقول كونفوشيوس: "عامِلْ أفراد أسرتك معاملة فاضلة، تستطيع بعد ذلك أن تعلم وتقود أمة بأكملها"(١).

كما قال: "من بر والديه، وأحب أخوته، تمكَّن من السياسة"(٢).

وتتمثل طاعة الأبناء لدى الكونفوشيوسية في حب الوالدين وخدمتهما، والعناية بهما في حياتهما، وبتهيئة القبر المناسب لهما، ودفنهما دفناً لائقاً بهما، ثم تقديم القرابين لهما بعد مماتهما.

ومما قاله كونفوشيوس: "إذا كان الوالدان في قيد الحياة خدمهما بالأدب، وإذا تُوفيا دفنهما بالأدب، وقدم القرابين إليهما بالأدب"(٣). ويقول: "يجب على الولد المبرَّة بوالديه إذا كان داخل المنزل، والاحترام للمتقدمين في السن إذا كان خارجه، وأن يكون منتبهاً صادقاً مشفقاً على عامة الناس"(٤). ويقول: "من كان والداه على قيد الحياة، فلا يسافر إلى الآفاق القاصية، فإن سافر مضطراً، فليكن لسفره جهة معينة"(٥).

كما أكد تقديمَ النصح للوالدين بمنتهى الأدب والاحترام؛ حيث قال: "من خدم والديه، فلينصح لهما بالبشاشة والرفق، فإن رأى منهما عزيمةً على الإعراض عن نصحه، فليزدد احتراماً لهما وهو غير متنازل عن تقديم النصح لهما، وغير متذمِّر

(١) كتاب الطقوس – الفصل التاسع.

(٢) كتاب الحوار ٢ / ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٢٢.

(٤) المصدر السابق ١ / ١٧.

(٥) المصدر السابق.

منهما، ولو نالتْه المتاعب في سبيل نصحه لهما"(١).

ويهدف الزواج، عند الكونفوشيوسية، إلى إيجاد ذات جديدة تعمل على تخليد الذات القديمة إلى مدى "عشرة آلاف جيل"، وتتصف الذرية بالتقوى والورع إن استطاعت تحقيق هذا الهدف.

ويمكن تخليد ذكرى الأسلاف عن طريق تقدير الابن لبدنه الذي ورثه عن والديه، ورعايته له، وحمايته من أي أذى، كما يتطلب هذا التخليد أن يعمل الابن جاهداً على إنجاب أحفاد يحفظون شجرة العائلة، إلى جانب الاستجابة لرغبات الآباء أثناء حياتهم، وعلى الابن أن يمتنع عن ارتكاب الأفعال المَشينة، حرصاً منه على عدم تلويث سمعة عائلته(٢).

وقد قال أحد أتباع كونفوشيوس مؤكداً أهميةَ هذه الفضيلة: "إن الولاء البنوي والاحترام الأخوي هما جذر الإنسانية"(٣).

وللعائلة مقامها الأسمى في الفكر الصيني قديماً وحديثاً، والمرسوم المقدس للإمبراطور "كانغ هي" (١٦٦٢ – ١٧٢٥) يصف العائلة قائلاً: "نهر له سواعد، روافده كثيرة، ولكن حيث يجري نفس الماء، مهما كان النبع بعيداً"، والمثل الصيني يؤكد ذلك، حيث يقول "عندما تشرب الماء تذكر النبع".

والصينيون يحترمون أسلافهم منذ القِدم وإلى اليوم، ويُعدُّ عندهم أمراً بديهياً. كما أن كبر السن يمنح صاحبه عزة النفس والسلطة، فالرجل المسن في الصين يُسكت الشاب قائلاً: "اسكت، لقد اجتزتُ جسوراً أكثر مما عبرت أنت من الشوارع"(٤).

---

(١) كتاب الحوار: ٤/ ٤١.

(٢) انظر: حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ١٤٧.

كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٩٤-٩٦.

(٣) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٣٥٥.

(٤) حكمة الصين – هـ – فان براج – ص ١٠٢ – ١٠٣ بتصرف.

ومن الملحوظ أن هذه الفضيلة لا تقتصر ـ كما قلنا ـ على المحيط العائلي، بل تتعدى العائلة وتؤثِّر في الأفعال خارج المحيط العائلي، لكن نقطة البداية هي العائلة، فعندما يتعلم الأطفال احترام أبويهم، فإن بمقدورهم أن يحبوا إخوتهم. وبالتالي، فإن بإمكانهم أن يحبوا حكامهم ورؤساءهم، وبالتالي يحبوا الإنسانية بأسرها. وعندما يوجه حب الإنسانية كل الأفعال، فإنهم يتصرفون وفقاً لإنسانيتهم(١).

وقد بين كونفوشيوس أن هذه الفضيلة لها جوانبُ متعددة، ومن ذلك قوله: "إن قيام الابن بإطعام والديه لا يعني بِرَّه بهما؛ ذلك لأن الخيول والكلاب تجد لها طعاماً. فعلى الأبناء ـ في المقام الأول ـ فريضة توقير الأبوين. فإن ارتأى الابن رأياً فعليه عرضه على الأبوين في لطف وكياسة، فإن ضرباه فلا يشتكي"(٢).

وقد كانت الطاعة من المصطلحات التي يزخر بها التراث الصيني، حيث كانت تتجلى، فيما مضى، في شكل قرابينَ مقدسة تُقدَّم داخل المعابد المختلفة للآباء والأجداد، وقبل ذلك كانت عبادة الإله لفترة طويلة هي العبادةَ الوحيدة داخل إمبراطورية الصين القديمة، وبمرور الوقت ساد الشعور بأن العالم مليء بالأرواح المشرفة والمسيطرة على بعض أجزاء هذا العالم. لذلك نشأ ما يُسمى بعبادة الأرواح، بجانب عبادة الإله، وكانت عبادتها تتم بأن يقدَّم لها الولاء والطاعة كوزراء للإله. ولكن كل هذه العبادات والطقوس كانت تمارس فقط من جانب النبلاء، في الوقت الذي حرم فيه الشعب من تأليه تلك الآلهة وعبادتها.

وبمرور الوقت اضطر الأفراد إلى أن يجعلوا لأنفسهم نوعاً من الأرواح ليعبدوها، وتعوضهم عن هذا الفراغ الديني، وهنا بدأ ما يسمى بـ "تأليه الأجداد" . فإذا

---

(١) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٣٥٦ بتصرف.

(٢) حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ٩٠.

انظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص ١٤٦–١٤٧.

كانت الطقوس التي تقدم للإله خاصة بالملك وحده بوصفه ممثلاً للشعب، فإن تأليه الأجداد وتقديم القرابين لأرواحهم أصبح فعلاً يمارَس من قبل الشعب الصيني كلِّه. ولكن كونفوشيوس جعل لها مدلولاً مختلفاً في تعاليمه، فقد أصبحت واجباً اجتماعياً لضمان صحة العلاقات الأسرية.

فإذا قدم الابن الطاعة لوالديه، والتزم بمبادئهم الصحيحة، وأقام فترة الحداد المطلوبة (الثلاث سنوات) ينقطع خلالها عن كل المتع والملذَّات، واستمسك بطريقهم، وعمل جاهداً على إحياء ذكراهم، استحق أن يُدعى ابناً مثالياً.

فالطاعة تعد شيئاً أساسياً في تدريب الصغار على السلوك المنضبط حينما ينطلقون خارج حدود الأسرة. ومن هنا فإن المجتمع ما هو إلا مجال أكثر اتساعاً وانتشاراً لتلك الفضائل التي تعد جوهر الصلاح والإنسانية، وهذا ما أدى إلى أن يتضمن الولاءُ السياسيُّ في المقام الأول الولاءَ العائلي(١).

ومما لا شك فيه أن هذه أخلاق فاضلة ومعانٍ سامية، لكن الذي أريد أن لا يغيب عن بال القارئ أن الإسلام قد حثَّ عليها وعلى أكثر منها بأن قرن بين عبادته والإحسان إلى الوالدين؛ فقال الله سبحانه: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء: ٢٣]. ولم يُبح مخالفتهما إلا في حالة واحدة، وهي إذا حاولا إرغام الابن على الإشراك بالله أو معصيته؛ ففي الإسلام ما في الكونفوشيوسية وأمثالها وزيادة، وفي الوقت نفسه لم يغالِ في توقيرهما إلى حد القداسة والعبادة كما فعلت الكونفوشيوسية؛ فإنهما وإن كانا السبب المباشر لوجود الإنسان، فالله سبحانه وتعالى هو المُوجِدُ الحقيقيُّ له، وبالتالي فهو المستحقُّ للعبادة دونهما.

فمهما أتت هذه المذاهب وتلك الديانات من فضائلَ، فلن تبلغ مبلغ الإسلام الذي هو من أجلِّ النِّعم على الإنسان، وكفى به نعمة.

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٩٣ بتصرف.

٤- فضيلة الـ (لي) أو الطقوس والشعائر أو قواعد السلوك وآداب اللياقة

كلمة الـ (لي) تعني حرفياً قواعد السلوك وآداب اللياقة الاجتماعية المثالية، والطقوس والشعائر التي تخلو من التزمُّت والجمود، وتراعي الظروف والمناسبات الاجتماعية، وتتضمن التوقير والاحترام لمن تجرى لهم.

وذكر جون كولر أن كلمة "اللي" تعني ذلك الحشد الهائل من القيم والأعراف الاجتماعية التي هي بمثابة ملاذ يمسك المجتمع ويحقق مظهره الحضاري والـ "لي" في الفكر الصيني خلق فاضل يمنع الفوضى كما تمنع السدود الفيضان(١).

يقول كونفوشيوس: "إن الطقوس تمنع ظهور الفوضى الاجتماعية والأخلاقية كما تمنع السدود الفيضان"(٢). فانتشار الفضائل الأخلاقية وتطبيقها من جانب كل فرد داخل المجتمع يستلزم بالضرورة وجود قواعد للسلوك تقوم بوظيفة المنظم له. وهذه القواعد يطلق عليها "لي".

ويرى كونفوشيوس أن مبدأ الـ"لي"، والـ"جين" يغرسان في النفوس الأخلاق الحميدة، وروح المجاملة بوصفهما مبادئ راسخة، يعمل بها العامة كما يعمل بها الخاصة. كما تتضح الأهمية التي علقها كونفوشيوس على مبدأ الـ"لي" من خلال ملاحظته على أن "الملوك القدامى اعتبروا "لي" هي المبدأ في شرائع السماء. ومن هنا: من يحرز "لي" يعيش ومن يفقدها يموت"(٣).

وتأتي أهمية الـ "لي"، في فكر كونفوشيوس، من خلال شعور الفرد بأن سلوكه الخارجي في حاجة إلى ضبط حتى لا يتخطى ما هو صحيح، وبذلك يكون الـ "لي" واحداً من أكثر المفاهيم الأخلاقية أهمية داخل الفكر الكونفوشيوسي. يقول كونفوشيوس: "ما لم يملك الإنسان روح الشعائر، فإنه سوف يدمر نفسه وهو

---

(١) انظر: الفكر الشرقي القديم - جون كولر - ت: كامل يوسف حسين - ص ٣٥٢-٣٥٥.

(٢) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ٩٣.

(٣) انظر: الفكر الشرقي القديم - جون كولر - ت: كامل يوسف حسين - ص ٣٥٣.

انظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس - عبدالرحيم شعبان - ص ١٤٣.

يمارس فضيلة الاحترام، وفي ممارسة الحذر سيصبح جباناً، وفي ممارسة الشجاعة صعب المراس، وفي ممارسة الصراحة سيصبح غير محتمل"(١).

وهذه العادات والأعراف والطقوس والشعائر، تتمثل في أنواع معينة من الطعام ينبغي أن يتناولها الناس في المناسبات المختلفة، والمراحل المتباينة من الحياة، كما يعبر عنها أنواع الملابس التي ينبغي أن يرتديها الناس في الأيام المقدسة، وعدد الانحناءات التي ينبغي أن يؤدوها عندما يحيُّون بعضهم بعضاً، والطريقة التي يجب أن يسيروا بها في الشوارع، "فالرجال على الجانب الأيمن، والنساء على الجانب الأيسر"(٢).

كما تتمثل الـ "لي" أيضاً، في شعائر الزواج والولادة والوفاة والجنازة، وشتى أنواع الأضاحي والأعياد، وتنظيم العمل، وقوانين الضيافة، والقواعد التي تسير الحياة بمقتضاها في البلاط، وحياة المستخدمين.

ومن المعلوم أن الصينيين قد قدسوا آداب اللياقة وقواعد السلوك قبل كونفوشيوس بزمن بعيد؛ لأن الشعب الصيني كان ينقسم منذ قديم الزمان طبقتين: طبقة النبلاء، وطبقة العامة، وفي الوقت الذي كان فيه العامة يخضعون للقانون المدني، كان النبلاء غير مقيَّدين بهذا القانون، بل يخضعون لقانون آداب اللياقة المتميز بالتقاليد العالية الموروثة عن المنازل النبيلة، وعن الأساتذة المبجَّلين العظام. ومن هنا كان احترام كونفوشيوس لهذه الآداب والطقوس والشعائر، التي كانت تعد بمثابة قانون مدني مستمد من القانون الأخلاقي العام الخالد غير المكتوب، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: "وتحت سطح التأكيدات الكونفوشية لدقائق الحياة اليومية، يكمُن الاعتقاد القديم القائل بأن للطقوس نفسها قوتها السحرية"(٣).

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٩٧.

(٢) انظر: أعلام الفلاسفة – دكتور هنري توماس – ترجمة: مترى أمين – ص ٥٨ – ٥٩.

(٣) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ت: د. إمام عبد الفتاح – ص ٢٨٧.

انظر: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٧٧ – ٧٨.

ويبدو من خلال التراث أن مصطلح الـ "لي" كان يقصد به ـ على وجه التحديد ـ الطقوس الدينية التي تؤديها الطبقة الأرستقراطية فقط، وعلى رأسها الحاكم المُلقى على عاتقه طائفة من الشعائر، لابد له أن يؤديها الأداء الصحيح حتى يضمن سعادةً ورفاهية مقاطعته. أما الأداء غير الصحيح للطقوس من جانب الحاكم ابن السماء، فمن شأنه أن يقود إلى العديد من الكوارث الطبيعية التي تؤدي إلى فساد الدولة. أما كونفوشيوس، فقد حوَّل قضية القرابين إلى قضية أخلاقية من حيث إنها وسائل لتحقيق الانضباط في حياة الفرد، وفي علاقاته بالآخرين؛ سواء داخل الأسرة أو خارجها. وجعل كونفوشيوس "لي" ليس مجرد التمسك بالرسميات الروتينية الخالية من أي مغزى، وإنما جعل له أهمية كبرى في الفكر الصيني، حيث أصبح الجوهر الحقيقي لكل الأخلاقيات والعادات؛ لأنه يوفر الحماية من الانحراف والسقوط في الشكليات(١).

وهكذا نقل كونفوشيوس مبدأ الـ "لي" بمضمونه القديم إلى مجال الأخلاق، حيث أصبح أحد الفضائل الأساسية في الفكر الأخلاقي الكونفوشيوسي، وذا أهمية كبيرة في الثقافة الصينية على مر العصور.

٥- فضيلة الرحمة (رين):

للرحمة عند الكونفوشيوسية معانٍ متعددة حسب ما ورد في بعض الكتب المقدسة لديهم، حيث قالوا:

١- الرحمة هي المعاني الروحية المقصودة من الشريعة، قال كونفوشيوس: "إذا كان الإنسان ليس عنده رحمة، فما تفعل به الشريعة؟ وإذا كان الإنسان ليس عنده رحمة، فما تفعل به الموسيقى؟"(٢).

٢- الرحمة هي محبة الإنسان. سأل (فان تشي) عن الرحمة، فأجابه

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ٩٧ – بتصرف.

(٢) كتاب الحوار، الفصل الثالث، الحوار رقم ٣.

كونفوشيوس: "محبة الإنسان"(١). وقال كونفوشيوس: "إنما الرجل الرحيم من كان يرغب أن يقيم نفسه على الشريعة، فهو يرغب أيضاً أن يقيم غيره عليها، ومن كان يرغب أن يوصل نفسه إلى الأخلاق السماوية، فهو أيضاً يرغب أن يوصل غيره إليها"(٢).

٣- الرحمة هي بر الوالدين وصلة الأقارب، والاقتراب من الأفاضل. قال كونفوشيوس: "يجب على التلميذ أن يكون باراً لوالديه إذا كان داخل المنزل، ويكون معظِّماً للكبار في السن إذا كان خارج المنزل، ويكون منتبهاً في أعماله، صادقاً في أقواله، محباً لجميع الناس، متقرباً إلى ذوي الرحمة"(٣). وورد في كتاب "سنة التوسط": "إنما الرحمة ما يكون به الإنسان إنساناً، وأعظم حدها بر الوالدين"(٤).

٤- الرحمة هي: القلب، بمعنى أنها فطرة فُطر الناس عليها، وهي موجودة في قلوب الناس جميعهم. قال كونفوشيوس: "هل الرحمة بعيدة عنا؟ وإذا أردت أنا الرحمة من قلبي، فهذه الرحمة هاهنا وهي تأتي!"(٥). وقال أيضاً: "إن العمل بالرحمة يعتمد على الإنسان نفسه، وإذا عزمت على العمل بها، فماذا يستطيع الناس أن يفعلوا بك؟"(٦). وقال منشيوس: "إنما الرحمة القلب"(٧).

٥- الرحمة مجاهدة النفس من أجل العودة إلى الشريعة. قال كونفوشيوس، عندما سأله تلميذه عن الرحمة: "إنما الرحمة مجاهدة النفس من أجل العودة إلى

---

(١) كتاب الحوار، الفصل الثاني عشر، الحوار رقم ٢٢.

(٢) كتاب الحوار، الفصل السادس، الحوار رقم ٢٨.

(٣) كتاب الحوار، الفصل الأول، الحوار رقم ٦.

(٤) كتاب سنة التوسط، الفصل العشرون.

(٥) كتاب الحوار، الفصل السابع، الحوار رقم ٢٩.

(٦) كتاب الحوار، الفصل الثاني عشر، الحوار رقم ١

(٧) كتاب منشيوس، الفصل الثالث عشر.

الشريعة، وإذا جاهدت نفسك يوماً واحداً من أجل العودة إلى الشريعة، فسيعود جميع من تحت السماء إلى الرحمة"(١).

٦- الرحمة اسم جامع للأخلاق الفاضلة سأل (تس جشانغ) عن الرحمة، فأجاب الأستاذ قائلاً: "من قام بأمور خمسة أينما كان، فقد صار رجلاً رحيماً". قال: "وما هي هذه الأمور الخمسة؟ قال: "الوقار، والسماحة، والصدق، والجد والسخاء، فإنه إذا كان وقوراً لا يحتقر، وإذا كان متسامحاً مالت إليه قلوب الناس، وإذا كان صادقاً اعتمد عليه الناس، وإذا كان جاداً نجح في جميع أعماله، وإذا كان سخياً أحب الناس أن يخدموه"(٢).

٧- الرحمة حال روحية من الترقي الخُلقي، يصل بها الإنسان إلى مقام الوحدة بينه وبين السماء (تيان). قال كونفوشيوس: "الحكيم يحب الماء، والرحيم يحب الجبل، الحكيم متحرك دائماً، والرحيم هادئ دائماً، الحكيم يطول فرحه، والرحيم يطول عمره"(٣). وقال أيضاً في وصف الرجل الرحيم: "العارف ليس عنده شك، والرحيم ليس عنده حزن، والشجاع ليس عنده خوف"(٤).

وقد احتل مفهوم الرحمة محلَّ الصدارة في الدين الكونفوشيوسي، حتى اشتهرت الكونفوشيوسية بين بعض علماء الصين بأنها "رين جيأو"؛ أي: تعاليم الرحمة، وقد وردت كلمة الرحمة مائة وخمس مرات في كتاب "الحوار"، والرحمة تدخل في كل ما يتعلق بالكونفوشيوسية من عقيدة، وفلسفة أخلاقية، ونظريات سياسية، ومناهج التربية.. إلخ.

---

(١) كتاب الحوار، الفصل الثاني عشر، الحوار رقم ١.

(٢) كتاب الحوار، الفصل السابع عشر، الحوار رقم ٧.

(٣) كتاب الحوار، الفصل السادس، الحوار رقم ٢١.

(٤) كتاب الحوار، الفصل التاسع، الحوار رقم ٢٨.

ج - ارتباط الموسيقى بالأخلاق

ترتبط الموسيقى، عند كونفوشيوس، بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً، ويرى أن لها أهميتها في الإلمام بالأخلاق السامية، ويراها خير وسيلة لعلاج فساد الأخلاق والعادات، وفي ذلك يقول: "إذا أتقن الإنسان الموسيقى، وقوَّم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها، تطهر قلبه، وصار قلباً طبيعياً سليماً رقيقاً، عامراً بالإخلاص والوفاء، ويغمره السرور والبهجة... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات: أن تُوجَّه العناية إلى الموسيقى التي تُعزف في البلاد"(١).

ومعنى هذا أن إدراك أسرار الأخلاق، لدى كونفوشيوس، يتوقف على فهم الإنسان للموسيقى حق الفهم، يقول: "فالخير شديد الصلة بالموسيقى، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام". ولما كان الجمال مرتبطاً عنده بالخير، فإن الموسيقى بمساعدتها الأفراد على حب الجمال وتذوقه، تساعدهم، في الوقت نفسه، على حب الخير وإتيانه، وعلى التفرقة بين الخير والشر. وبما أن الموسيقى الرفيعة هي دائماً موسيقى سهلة، فكذلك الأخلاق السامية الرفيعة هي بسيطة على الدوام، والموسيقى الأرفع تبدد الثورة، والأخلاق الأسمى تبدد الخصام"(٢).

وبالنظر إلى أهمية الموسيقى وأثرها المهم في المجتمع (لدى الكونفوشيوسية)، فقد أوجب كونفوشيوس تعليم الموسيقى للناس أجمعين؛ سواء في ذلك أصحاب المواهب العليا أو أصحاب المواهب المتوسطة(٣).

- الغرض من الطقوس والموسيقى

ويقول كونفوشيوس: إن الغرض من الطقوس، بل ومن الموسيقى أيضاً، تنظيم سلوك الفرد، وتعويده النظام والطاعة، وتمكين الروابط الاجتماعية بينه وبين

(١) كتاب الطقوس. انظر كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية- د. زهرة الدين طيب إدريس- ص ٦١-٦٣.

(٢) انظر: فلاسفة إنسانيون - كارل ياسبرز - ترجمة د. عادل العوا - ص ١٣٢.

(٣) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني رسلان - ص ٩٧ - ٩٨ بتصرف.

الآخرين. والموسيقى عنده هي السبيل الوحيد لصد الأفراد عن التعلق بالمادة، وإرجاعهم إلى فطرتهم الروحية الخيِّرة؛ لأنها توجه الأفراد إلى المعاني السامية والمُثُل الأخلاقية العليا(١). وهي التي تعوِّد الأفراد تذوق الجمال، ومن ثم يستطيعون التفرقة بين ما يُحَب وما لا يُحَب، أي بين الخير والشر، كما أنها تنشر المحبة والوئام بين أفراد الجماعة(٢).

وهذا النظام الكونفوشيوسي، لآداب الطقوس والموسيقى، جعل الشعب الصيني من أكثر الشعوب المتشددة في التمسك بالشكليات على مر التاريخ.

د - علاقة الأخلاق بالدين لدى الكونفوشيوسية

يقوم القانون في الصين، ومنذ بداية تاريخها المكتوب في استقلال عن الدين. وقد أكد كونفوشيوس الطابعَ الدنيويَّ للأخلاق، وكان يرى أن البحث في المسائل الدينية والأمور الغيبية مضيعة للوقت؛ لأن الإنسان يجب أن يُولِي اهتمامه لكيفية سلوكه في هذا العالم. ومن هنا فقد حض على اتِّباع العبادات الصينية التقليدية؛ مثل عبادة الأسلاف، "وعبادة السماء" وعلى إقامة الطقوس المتوارثة، ووقف نفسه على إصلاح المجتمع من خلال نظامه الأخلاقي، وكان يحلم بصنع "الإنسان الأعلى" الذي تجتمع فيه الفضائل الأخلاقية الرفيعة(٣).

وهو حين يجلس إلى تلاميذه لا يحدثهم عن الغيب وغيره من أمور الدين، بل يدرس معهم الشعر والأدب والتاريخ والموسيقى ويدعوهم إلى قراءتها. وكانت كتبه وكتب أتباعه نصائح وإرشادات وتوجيهات لتهذيب السلوك والمعرفة، دون أي إشارة إلى السماء، أو وعود بنعيم الجنان في الآخرة. فهو مُصلح ملتصق بأديم

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق ص ٩٤.

انظر: المرجع في تاريخ الأخلاق - د. محمد مرحبا - ص ٢٦٧.

(٣) فراس السواح - دين الإنسان - دار علاء الدين للنشر والترجمة - دمشق سورية ط ٢، ١٩٩٥م - ص ٨٣.

الأرض، متصل بقوانين الحياة، يدعو إلى تهذيب الأخلاق وتمكين الفضائل واتخاذ الضمير فيصلاً، وسلوك الإنسان المهذب قسطاساً للحياة ومنهاجاً ويعمل على تحقيق كل ذلك. ولا يعترف بالمُثُل العليا التي تقوم على الفكر المجرد والأماني.

فمن كانت نفسه أمْيَلَ من نفس غيره إلى الخير وأطوع، وعملُه في هذا السبيل أغزر وأسرع، فهو عند كونفوشيوس "الرجل الصالح" الخيِّر المقدَّم في مذهبه وشريعته وبين قومه وعشيرته. حتى نظامه السياسي وقوام دولته أساسُه الأخلاق والمبادئ العقلية والعلم، فهذه الأشياء وحدها هي التي تمنح المؤمن الانسجام وسكينة النفس. وهذا الانسجام هو نواة المجتمع الصالح والحياة القومية المستقيمة، دون أي اهتمام بالعالم الآخر والروح والحياة بعد الموت. سأله بعض تلاميذه عن الموت، فقال: "إننا لم ندرس الحياة بعد، فكيف ندرس الموت؟"(١).

فليس هناك غير الإنسان ما ينبغي أن يُشغل به العقل، وإن واجبات الإنسان نحو أخيه الإنسان أوْلى من واجباته نحو الله. فلا ترهيب ولا ترغيب في كتب كونفوشيوس، ولا محل في دينه لثواب أو عقاب أخرويين، وإنما هي كتب تتحدث عن التاريخ والشعر، وعن الفصول وتغيّرها، ومظاهر الطبيعة وتعليلها، تكلم فيها عن العلاقة بين الملك والرعية، وبين الوالدين والأولاد، وبين الرجل والمرأة. وبين الأخ وأخيه، وبين الأصدقاء والأصدقاء. ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن العلاقة بين الإنسان وخالقه، كما لم يُبد في هذه الكتب أيضاً رأياً واحداً بخصوص صلة العبد بالمعبود والرب بالمربوب، وما يترتب على هذه الصلة من حقوق وواجبات(٢).

أقول: ومع ذلك يسمى مذهبُه ديناً، وتدعى الكونفوشيوسية ديانةً. إن هذا لشيء عجاب! حيث إن الدين كما ينظم العلاقة بين الناس بعضهم البعض، فإنه ينظم العلاقة بين الإنسان وخالقه لكن إذا أهمل أحدهما فلا يسمى ديناً البتة.

---

(١) المرجع في تاريخ الأخلاق – د. محمد مرحبا – ص ٢٧٠ – ٢٧١.
وحكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج ١ – ص ٧٦.

(٢) انظر: الدين والضمير – محمود الشرقاوي – ص ٤٤ – ٤٨ بتصرف.

٥- الرجل النبيل أو الإنسان الماجد أو الأعلى (تشن - تزو)

أ- من هو الرجل النبيل:

تعدَّدت الأقوال حول تعريف الرجل النبيل لدى الكونفوشيوسية، وكل قول يختلف عن الآخر، ولعل ذلك يرجع إلى أسلوب كونفوشيوس نفسه في الحوار، والشخص الذي يحاوره.

وبمعنى عام الرجل النبيل أو "الماجد" أو "الأعلى"، وكلها بمعنى واحد: الرجل الذي بلغ الدرجة القصوى من الكمال الأخلاقي، أو ما نسميه الإنسان المثالي، الذي اجتمعت فيه خصال الخير كلُّها، فأصبح إنساناً يعد مثلاً أعلى، ويكون صالحاً لأن يتخذه غيرُه قدوةً له. وقد ميز الصينيون قديماً بين نوعين من الرجال: النوع الأول: الحاكم، أو الأمير النبيل، أو كل من ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية النبيلة. والنوع الآخر: الضعفاء، غير النبلاء؛ أي الذين لا يتمتعون بما يتمتع به النبيل من مكانة وثروة وسلطة. وهكذا أصبح يُنظر إلى النوع الأول على أنه أسمى أنواع البشر، حتى إن اهتماماته تتجاوز اهتمامات الأفراد العاديين.

ولقد تبنى كونفوشيوس هذا المصطلح من التراث القديم، إلا أنه جعله يشير إلى مضمون جديد، فإذا كان "الرجل النبيل" يشير في التراث إلى من ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، وبالتالي فإنه قد اكتسب هذا اللقب بالوراثة أو بصلات الدم، إلا أنه في مدرسة كونفوشيوس أصبح يشير إلى الرجل الذي قد تلقَّى التعاليم على نطاق واسع، تلك التعاليم التي جعلته "رجلاً نبيلاً". فالرجل النبيل هو الفرد الذي يمكن أن يُلقَّب بالرجل النبيل بناءً على ما يحمله من قيم ومبادئ وعلوم، وبصرف النظر عن مكانته وطبقته داخل المجتمع. وبهذا تتأسس الفروق داخل المجتمع، وبين الأفراد، بناءً على المجهود الذاتي الذي يبذله الفرد من أجل تحصيل العلوم التي ستساعده على الارتقاء، وبالتالي لم يَعُد النُّبل أمراً موروثاً، بل شيئاً مكتسباً. وقد سُئل كونفوشيوس: من الرجل النبيل؟ فأجاب: "إنه الرجل

الذي يهذب نفسه، وبذلك يصبح جديراً بالاحترام. إنه يثقف نفسه ليجلب السلام والأمن لرفاقه، إنه يثقف نفسه ليجلب السلام والأمن للشعب كله"(١).

ب- صفات الرجل النبيل:

أما عن الصفات التي يجب توافرها في الرجل النبيل، فهي كثيرة. وقبل الحديث عنها نبين أن هذا النبيل أو الماجد في فكر كونفوشيوس هو الذي يحرص دائماً على قواعد اللياقة، ويضع رفاهية البشر نُصب عينيه، وتعلو مصلحة الآخرين على مصلحته الشخصية، وتتطابق مع نبالة السلوك لديه نبالةُ الحسب. ويكون عضواً نافعاً في مجتمعه، ويأخذ على عاتقه عِبْءَ هداية الآخرين إلى الطريق المستقيم. فالرجل النبيل، في نظر كونفوشيوس، ذكي، وشجاع، ومحب للخير، وطالب علم ومعرفة، وواسع الفكر، وهادئ، وصافٍ، ومحب للناس جميعاً، ومعاون لهم على فعل الخير، وموضوعي في حكمه على أفعال الآخرين بلا تحيز أو ظلم، ودائم المحاسبة لنفسه على كل ما يأتيه من أفعال؛ كبيرةً كانت أم صغيرة، وثابت على الحق، وعادل وغير حقود، وفعّال لأقواله، ومعتدل في هذه الأقوال والأفعال، ويحترم مشيئة السماء دون ضجر أو تبرُّم، وحكيم، وخِلْوٌ من القلق والحيرة والتشوش، وهو مجامل لطيف بشوش لجميع الناس، وحازم وقوي العزيمة(٢).

ويرى كونفوشيوس أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الإنسان الأعلى هي العطف الفياض على الناس جمعياً، وهو لا يبالي أن يفتري عليه الناس الكذب، أو أن يسلقوه بألسنةٍ حدادٍ. إنه يجامل الناس جميعاً، ويبَشُّ في وجوههم، ولكنه لا يكيل المدح جُزافاً، وهو لا يحقِّر من هم أقلُّ منه، ولا يسعى لكسب رضا من هم أعلى منه، وهو جاد في سلوكه وتصرفاته؛ لأن الناس لا يوقِّرون من لا يلتزم الوقار.

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص٩٨ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٨٥.

كما أن أعماله مرآة صادقة لقلبه، وهو غير متعجل بلسانه، ولا مولع بالإجابات البارعة التي لا يرى الخصم إزاءها إلا أن يتوقف عن الكلام، فليس من المروءة في شيء أن تتغلب على الآخرين بالحيل والألفاظ الفارغة. وهو رصين؛ لأن لديه عملاً يريد إنجازه ويحرص على أدائه قبل أي شيء آخر. وهذا هو سر مهابته التي لا تَصنُّع فيها ولا صناعة، وهو شديد الاحترام لذاته، يصون نفسه عن التبذُّل، ويعَفُّ عن النقائص والدنايا(١).

ويرى كونفوشيوس "أن الكونفوشيوسي كشخص يمتلك جواهرَ في يده لكي يوزعها على الناس، فهو يجمِّل نفسه بالعلم ليلاً ونهاراً ليكون قادراً على نصح من يطلب النصيحة، وهو يحاول دائماً إكمال نفسه، ويقدِّس الأمانة، ويفضل الموت على الذلة أو المسكنة، وحياته بسيطة، ويمقت الجشع والترف، والكونفوشيوسي يعيش مع المحدَثين، ولكنه يدرس التراث القديم، وقد يعيش في خطر واضطراب، ولكن روحه تظل في أمن واطمئنان، على أنه ـ برغم ما يحيط به من أخطار ـ لا ينسى إخوته في الإنسانية الذين يقاسون الآلام. وذلك هو شعوره بالمسؤولية الاجتماعية، وهو في سلوكه يضع المعيشة في سلام، والانسجام مع الآخرين فوق أي اعتبار، وهو يعجب بمن هم أذكى منه بدون أن يحقد عليهم"(٢).

كما يرى كونفوشيوس "أن الرامي يمكن أن يقارَن بالحكيم في بعض المواضع، فإذا أخطأ الهدف الذي كان يريد إصابته، فليفكر في نفسه، وليبحث فيها عن أسباب الإخفاق"(٣).

"والرجل الفاضل يكيِّف نفسه وفق الظروف التي تكتنف حياته، فلا يستهدف تحقيق أية غاية خارجة عن وضعه، وهو ينظم سلوكه ولا يطلب شيئاً من الآخرين،

---

(١) قصة الحضارة – ول ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤ – ص ٥٩.
المرجع في تاريخ الأخلاق – د. محمد مرحبا – ص ٢٦١.
(٢) كتاب الطقوس، ف ٤١.
(٣) الانسجام المركزي، ف ١٤.

ومن ثم لا يشكو من الناس ولا من حظه، على حين أن الرجل الساذج الأحمق يرسم لنفسه أهدافاً لا تتفق وإمكانياته، معتمداً في تحقيقها على الصدفة والحظ"(١).

وقد ذكر صاحب كتاب "قصة الحضارة" بعض صفات الرجل النبيل(٢) مستخلصاً إياها من كتابي "الحوار"، و"الطقوس"، مقابلاً بينها وبين صفات اللئيم لدى الكونفوشيوسية، ننقلها عنه لتكتمل صورة الرجل النبيل.

مقابلة بين صفات الرجل النبيل واللئيم

صفات الرجل النبيل	صفات الرجل اللئيم
النبيل هادئ، صاف قلبه، خال من الخوف والقلق.	اللئيم دائماً قلق وفي هم وكرب.
يدرك ما هو حق وصواب.	لا يفهم إلا ما هو مربح ونافع.
يحترم آراء الآخرين ويقدرها، ولا يعتنق منها إلا ما يتفق مع مذهبه.	يظاهر كل الناس، ويتآخى معهم دون أن يتفق مع أي إنسان.
يراعي الفضيلة ويعشق الروحانيات.	يراعي الحيازة والاقتناء ويعشق الماديات.
يفكر في الصداقة النزيهة ويسعى إليها.	يهدف من وراء اتصالاته بالآخرين إلى الحصول على المنفعة والربح.
لا يبحث إلا عما هو موجود في نفسه.	يبحث عما في الآخرين مستجدياً إياهم.
يحترم ذاته، وهو في منتهى الكرامة دون خيلاء.	متكبر مغرور، وهو وضيع محتقر، وتعوزه الكرامة.
واسع الأفق، رحب التفكير، لا يعرف التعصب، ليس بالمتشيع، بل يكتفي بالموافقة على الخير.	متعصب مغرور، ضيق الأفق، يتحزب في سبيل منفعته، ويسعى إلى التفرد بالكلمة الأخيرة.

(١) الانسجام المركزي، ف ٦. انظر: فلاسفة أيقظوا العالم. د. مصطفى النشار – ص ٦١ – ٦٣.

(٢) قصة الحضارة – ول ديورانت – ت: محمد بدران – ج ٤ – ص ٥٦.

يجتهد في معاونة الآخرين على الأعمال الخيِّرة.	يسعى إلى معاونة الآخرين على ارتكاب الشر.
لا يحقد على أحد، ولا يغضبه أن يسمو غيره من الناس، فإذا رأى أفاضل الناس فكَّر في أن يكون مثلهم، وإذا رأى سفلة الناس ابتعد عنهم ورجع إلى نفسه ليتعمق في حقيقة أمره.	عكس ذلك تماماً، فهو يحقد على الآخرين، ويغضبه أن يسمو غيره، يميل إلى السفلة ويكره الأفاضل، مشغول بعيوب الناس عن عيوبه.
يطلب العُلا.	ينجذب إلى الأسفل.
حازم، صريح في إعلان خصومته للآخرين.	تخنقه الخصومة، ولا يقدر عليها، خاصة إذا كانت في الحق.
متواضع دائماً، ويفرض على نفسه أن يكون عادلاً، ولا يحقد على أحد، ويرضى بما قُدِّر له دون تذمر من السماء ولا من الناس.	متكبر دائماً، لا يلزم نفسه بالعدل، يحقد على الآخرين، ويتذمر إذا تعرض لمحنة أو بلاء، ولا يرضى بما قدر له.
يتريث في أقواله ويسرع في أعماله، ويهمه أن تكون أعماله مطابقة لأقواله، يتجنب المناقشة والجدال فيما لا يفيد، وحتى في المناقشة يعرف كيف يبقى نبيلاً، ولا يحزن ولا يخاف.	يندفع في أقواله، فلا يدري ماذا يقول، قليل العمل فيما يفيد، أعماله غير مطابقة لأقواله، كثيراً ما يناقش ويجادل بغير حق وفي أمور لا فائدة تُرجى من ورائها.
يداوم على محاسبة نفسه، وإخضاع أعماله وأفكاره للنقد والاختبار لمعرفة مدى صدقها.	لا يحاسب نفسه، ولا يلزمها بأي إلزام، ويتظاهر بالفضيلة أمام الناس، وسرعان ما يكتشف خداعه[1].

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان –ص ٨٦ – ٨٧ بتصرف.

وانظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص ١٥٢ – ١٥٣.

هذه بعض صفات الرجل النبيل، ومقابلتها ببعض صفات الرجل اللئيم، ذكرتها على سبيل التمثيل لا الحصر، وهناك غيرها كثير.

كما ترى الكونفوشيوسية أن طابع الرجل النبيل هو شعوره بالمحبة والأخوَّة تجاه الآخرين، ويرى أن انعدام المحبة يباعد بين الإنسان وبين الاستمتاع بالحياة الرغدة الهنية، ويشيع في أقوال النبيل وأفعاله مبدأ "الولاء وتبادل المعاملة"، ويعد ذلك المبدأ قاعدةً أساسية يسير عليها طوال حياته. ويقضي هذا المبدأ بأن "لا تُعامِل الناس بما لا ترضى أن تعامَل به(١). والعدالة، أو تبادل المعاملة عند كونفوشيوس، لا يعني مقابلة الشر بالخير، أو مجازاة الإساءة بالإحسان، بل تقتضي مجازاة الإساءة بالعدل، والإحسان بالإحسان، كما مر معنا قبل ذلك.

والعدالة التي يدعو إليها كونفوشيوس، ويعدُّها صفة أساسية من صفات الرجل النبيل " تشتمل على أربعة مبادئ أساسية، وهي:

١- الطبيعة السمحة "النية الطيبة".

٢- الفعل الحسن.

٣- العلم الغزير.

٤- العزيمة القوية.

وهذه الصفات الأربع يجب أن تتوافر في العادل(٢).

كما يرى كونفوشيوس أن المحبة والكراهية ليست على إطلاقها، ويجب أن تقدر تقديراً عادلاً يلتزم به الإنسان في سلوكه نحو الآخرين مع مراعاة الكرامة وحقوق الأعداء. وفي ذلك يقول: "إنما ذو المروءة من يقدر على حب الناس بالحق، وعلى كراهة الناس بالحق"(٣).

ويقول أيضاً: "أحبوا أصدقاءكم، ولكن أدِّبوا أعداءكم، ولا تكرهوا أولئك

(١) كونفوشيوس – الحوار – ت: محمد مكين ص ١٥٤.

(٢) انظر: موكب الفلاسفة – محمود عزت موسى – ص ٢٩.

(٣) كتاب الحوار– كونفوشيوس – ت: محمد مكين – ص ٣٧.

الأعداء؛ فالكراهية لا تولِّد إلا كراهية. ومن الناحية الأخرى لا تردوا الكراهية بالمحبة؛ لأن محبتكم هذه سوف تفسر خطأً، وتعتبر ضعفاً من جانبكم، بل وتشجع أعداءكم على زيادة درجة كراهيتهم لكم. وإنه لمن الوحشية أن تثأروا إذا ما أصابكم أذًى، ولكن من الحماقة أيضاً أن تُغفلوا الأذى وتصفحوا. فلتقدِّروا المسألة تقديراً عادلاً، ثم يكون سلوككم طبقاً لهذا التقدير، على أن تراعوا كرامتكم الشخصية وحقوق أعدائكم"(١).

لقد تميزت الأخلاق عنده بالواقعية. ومن هنا، فإنه لا يوافق على هذا النوع من المحبة السامية، وعلى مبدأ تحويل الخد الآخر، بل رأى أن العدالة، وتبادل المثل بالمثل، ما هما في الحقيقة إلا شيء واحد، وأن علينا أن ننظر إلى الآخرين، ليس كما نريدهم أن يكونوا، وإنما كما هم فعلاً. وهذا هو المعنى الحقيقي للعدالة(٢).

والرجل النبيل هو الذي تتساوى فيه الصفات الطبيعية الأصيلة، والصفات المكتسبة، وتمتزج بعضها بالبعض الآخر. وإذا امتزجت هذه بتلك، كان لنا منه الرجل كامل الخلق(٣).

ويمكننا ـ من خلال ما سبق ـ أن نوجز طريق الرجل النبيل وخصائصه، وذلك من خلال هذا النص الذي يشير فيه كونفوشيوس إلى ضرورة أن يلتزم الرجل النبيل بتسعة أشياء لا يتغافل عنها على الإطلاق؛ حيث يقول:

"يضع الإنسان الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها في عقله:

١– فأما من حيث عيناه، فهو يحرص على أن يرى بوضوح.

٢– وأما من حيث أذناه، فهو يحرص أن يستمع بإمعان.

---

(١) أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم – هنري توماس – ت: متري أمين – ص ٦٠ – ٦١.
وانظر: كتاب الحوار – ١٤/ ١٤٤.

(٢) أعلام الفلاسفة – هنري توماس – ص ٦١ بتصرف.

(٣) انظر: كتاب الحوار ٦ / ٥٨ – ٥٩.
انظر: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٨٨ – ٨٩.

٣- وأما من حيث وجهه، فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً.
٤- وأما من حيث سلوكه، فهو يحرص على أن يكون وقوراً.
٥- وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصاً.
٦- وفي تصريف شؤون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته، وأن يبعث الاحترام فيمن معه.
٧- وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس.
٨- وإذا غضب فكَّر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب.
٩- وإذا لاحت له المكاسب، فكر في العدالة والاستقامة"(١).

هذا هو الرجل النبيل الذي يُعِدُّ الغايةَ القصوى من منهج كونفوشيوس الأخلاقي، وهو الأمل في إصلاح أحوال المجتمع. وقد أكد كونفوشيوس أنه لا يمكن إصلاح الرجال بالكلمات فقط، وأعطى أهمية كبيرة للمهمة التي يقوم بها "الرجل النبيل" بوصفه مثالاً يحتذي به كل فرد في المجتمع.

٦- موقف كونفوشيوس من المرأة:

في العصر الذي سبق وجود كونفوشيوس كانت للمرأة في الصين مكانتها، فكانت الأم محور الأسرة؛ لأنها مصدر وجودها وسلطانها. وكان الناس في أول عهودهم يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة الرجل مكوناً من الأصل الذي اشتُقَّ منه لفظ "امرأة"، واللفظ الصيني المقابل لكلمة الزوجة معناه "المساوي"، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها. ولما قام نظام الإقطاع في الصين قلَّل من منزلة المرأة، وجاء بنمط صارم من الأسرة الأبوية.. فلما حل عهد كونفوشيوس كان سلطان الأب يكاد أن يكون سلطاناً مطلقاً في جميع الأمور، فكان في وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً، وإن لم يفعل ذلك إلا

(١) كتاب الحوار - ١٦/١٦٣ - ١٦٤.
وانظر: قصة الحضارة - ول ديورانت - ت: محمد بدران - ج ٤ - ص ٥٩.

إذا ألجأته إليه الضرورة القصوى.. وكان يتناول الطعام بمفرده، ولا يدعو زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلا في أوقات قليلة نادرة، وإذا مات كان ينتظر من أرملته ألا تتزوج بعده، وكان يطلب إليها في بداية الأمر أن تحرق نفسها تكريماً له، وظلت حوادث من هذا النوع تقع في الصين إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد... وكانت النساء يعشن في أقسام خاصة من المنزل، وقلّما كنَّ يختلطن فيه بالرجال[1].

وذُكر عن كونفوشيوس أنه كان يحتقر المرأة. ومن أقواله: "نوعان من الناس لا يستحقان معاملة طيبة: "اللئام والنساء". وفي تاريخ أسرة كونفوشيوس، ذُكر أنه هو وابنه وحفيده طردوا زوجاتهم من بيوتهم. ومما يُؤخذ عليه أيضاً: أنه تكلم بإسهاب عن كثير من العلاقات بين الحاكم والرعية، والأب والابن.. إلخ، ولم يذكر شيئاً عن المرأة..[2]. ومما أُثر عن كونفوشيوس قوله: "احذر لسان المرأة، إنك ستُلدغ منه إن عاجلاً وإن آجلاً، واحذر زيارة المرأة، إنها ستصيبك إن عاجلاً وإن آجلاً"[3]. فكيف يدعو كونفوشيوس إلى الترابط الأسري، والعلاقات السليمة واحترام الآخرين، بل إنه حرَص في مدينته الفاضلة - كما سيأتي - على صيانة شخصية المرأة وعدم الاعتداء عليها، في الوقت الذي يعطل فيه دور المرأة، ويقلل من شأنها. أليس هذا تناقضاً؟!

---

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ت: محمد بدران - ج ٤ - ص ٢٧٢.

(٢) بعض ما ورد في لقاء أجريته مع الدكتور ليو جينغ - أستاذ الفلسفة الصينية القديمة بجامعة الشعب - الصين - بكين - وكان اللقاء في مكتبه بالجامعة يوم الثلاثاء ٩ / ٢ / ١٤٢٥ هـ.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٠.

وقد حمل على كونفوشيوس (بعض من كتب عن حياته) بسبب هذه المقولة، مع أنه قالها إثر استيائه من دوق ولاية (لو) حينما شغله حسن النساء ورقصهن عن تصريف الأمور في ولايته، وكان ذلك إثر مكيدة دبرها له وزراء ولاية (تشي إي) المجاورة لولاية (لو) حيث أهدوه (ثمانين فتاة ومائتين واثنين وعشرين حصاناً) لإشغاله...، فكان لهم ما أرادوا... وقد سبق الكلام عن هذه الحادثة في الفصل الأول من هذا الباب. (انظر: من قاموس الأديان - الشنتوية - الكونفوشيوسية - د. أسعد السحمراني - ص ٨٩ - ٩٠).

٧- التربية والتعليم

أ- كونفوشيوس المربي

لكونفوشيوس أهمية كبيرة في المجال التربوي، وذلك لأنه صاحب أول مدرسة في تاريخ الصين القديم، ليس لها أي ارتباط بالسلطة السياسية، تلك المدرسة التي أخذت على عاتقها محاولة وقف تيار التدهور الذي كانت تعاني منه البلاد في تلك الفترة.

فقد كان المجتمع الصيني يعاني من الانحلال الداخلي في ظل سلطة سياسية مستبدة، لا تعمل إلا من أجل مصلحتها دون مصلحة الشعب، بل كانت تعمل على غرس قيم معينة في عقول أفراد الشعب لتجعله راضخاً لكل ما تمليه عليه. ولاشك أن أكبر عامل يساعد على رضوخ شعب من الشعوب هو عدم الوعي، الذي لا يتأتَّى إلا بالحرمان من التعليم، فقد كان التعليم مقصوراً على طبقة النبلاء وأبنائهم: طبقة عالمة تحكم وتستبد، وطبقة جاهلة تُساق كالعير، ووضع اقتصادي متدهور، وانحلال أسري متفشٍّ، وقِيَم أخلاقية ضائعة، وصراع سياسي يبلغ أوجه؛ إذ كانت الصين منقسمة على عدد من الممالك الصغيرة يتحكم الإقطاع في مصيرها، وتموج بالمشاحنات الداخلية. والحالُ هذه، عكف كونفوشيوس فترةً على التفكير في إيجاد وسيلة فعّالة للإصلاح، وبدت أمامه وسيلتان للتغيير في بداية الأمر: الأولى: الثورة والصدام المباشران مع السلطة، والثانية: اللجوء إلى أسلوب يتم من خلاله إعداد الشعب بالتدريج، وتهيئته للقيام بدوره التاريخي.

وبعد تفكير عميق وجد كونفوشيوس أن الأسلوب الأول ـ الثورة ـ من الصعوبة بمكان، إن لم يكن مستحيلاً؛ لقوة الطبقة الحاكمة وسيطرتها، ولذا وجد أنه لا مفر من اللجوء إلى أسلوب التربية، وأيقن أنه إذا ما استطاع أن يغرس في أبناء الشعب قِيَم الحرية والعدالة، سيصبح التغيير أمراً ميسوراً.. حيث قال: "إن الطريق الوحيد الذي يمكن للفرد من خلاله أن يهذِّب ويحفِّز الشعب، ويؤسس عادات المجتمع

الصالح يكون من خلال التربية، فقطعة الحجر لا يمكن أن تصبح موضوعاً فنياً إلا إذا نُقش عليها، والإنسان لا يمكن أن يعرف القِيَم والأخلاق بدون تربية"(١).

وقد أدرك كونفوشيوس أن ما هو مكلَّف به لا يجعله معلماً صاحب مدرسة خاصة، يلقِّن التلاميذ أنواع العلوم المختلفة فقط، بل هو ـ في المقام الأول ـ مربٍّ ومصلح للشعب بأكمله.

وبذلك اتجه ببصيرته نحو فئة الشباب كي يعمل على تطويرها وتحويلها إلى فئة فعالة، لها أثرها في كل جوانب الحياة، ولذلك حدد غاية مغايرة لتلك الغايات التقليدية التي اعتادتها النُظم الأخرى، فهو لن يسعى إلى أن يضيف للمجتمع فئة أخرى حافظة للتراث، تحافظ على الوضع القائم، بل تتركز غايته في تكوين الفئة القادرة على أن يكون لها أثر فعَّال داخل الحكومة التي يعملون بها، ومن ثم تكون لديهم القدرة على إصلاح المجتمع. وهو يأمل في إخراج هذه الفئة، التي ربما تكون أفضل حظاً منه، فتصل إلى السلطة، ويصبح بإمكانها أن تطبق تعاليمه، وتعمل على تحقيق حياة مثالية ومجتمع مثالي تتحقق فيه كل القيم التي تضمن له بقاءه(٢).

وقد كان لآرائه في التربية والتعليم أثر كبير في شيوع عقيدة التفاؤل، القائلة بقابلية الطبيعة البشرية لبلوغ الكمال عن طريق مداومة التعلم واكتساب الفضائل: "فكما أن قطعة من الخشب لا يُستطاع تشكيلها لكي تصير قطعة فنية بدون أن تُقطع أو تُنشر، كذلك الإنسان لا يستطيع الوصول إلى القانون الأخلاقي بدون التعليم، ولذلك كان الملوك القدامى يتجهون نحو التعليم باعتباره أول العوامل الرئيسية لإقامة النظام في دولهم"(٣).

ويقول كونفوشوس في ذلك:

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ١٠٧.

(٢) المرجع السابق – ص ١٠٧ بتصرف.

(٣) كتاب الطقوس: الفصل ١٨.

"اطلب العلم بالتوسُّع، ولتكن همتك صادقة، واستفسر عما يعنيك، وفكر فيما يقربك" ، "من يعلم كل يوم ما لم يعلمه من قبل، ولا ينسى كل شهر ما قد علمه، فهو جدير بأن يعتبر مولعاً بالعلم"(١).

ولاشك في أن تعاليم كونفوشيوس قد تركت أثرها الكبير في نفوس الشعب الصيني من حيث إجلاله للعلماء والمفكرين وتوقيرهم، واتخاذهم أبطالاً مفضَّلين(٢).

ب- شروط مدرسة كونفوشيوس

كانت غاية كونفوشيوس جَعْل العملية التعليمية نقطة البدء لتحقيق الفرد المثالي، الذي سيعمل على تهذيب الشعب كله، ومن أجل تحقيق الحياة المثالية على كل المستويات، وللوصول إلى ذلك، كانت هناك شروط للمدرسة الكونفوشيوسية؛ منها:

١- المساواة:

يؤمن كونفوشيوس بأن للجميع الحق في تطوير ذواتهم عبر التربية؛ حيث قال: "داخل عملية التعلم لا توجد فوارقُ بين الطبقات" . وقد عمل على أن يمثل تلاميذه مختلف الظروف الاقتصادية والاجتماعية ليقوم بتعليمهم دون أدنى تفرقة بينهم. واستطاع أن يجعل التعلم حقاً مشاعاً بين سائر طبقات المجتمع الصيني، فحطَّم التسلسل الهرمي المقدس الذي اعتاده المجتمع، وأصبح من حق كل فرد أن يصل إلى أعلى درجات السلم الوظيفي.

٢- عدم تأثير الظروف الاجتماعية على التعليم

يرى كونفوشيوس أنه من العبث أن تحول الظروف الاجتماعية للفرد دون حصوله على حقه في التهذيب والتثقيف كغيره من الطبقات العليا، ولم يرفض

---

(١) كتاب الحوار ١٩ / ١٨٦.

(٢) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ٩٠ – ٩١ بتصرف.

قبول أي تلميذ عجَز عن دفع نفقات المدرسة، يقول: "أنا لم أرفض أن أعلم فرداً جاءني طوعاً، حتى ولو لم يعطني سوى قطعة من اللحم الجاف". وقد كان لظروف نشأة كونفوشيوس تأثير كبير في تبنِّيه لهذا المبدأ، فقد عانى الكثير من الأزمات في طفولته؛ يقول عن نفسه: "لقد كنت في موقع حقير عندما كنت صغيراً، وهذا يفسر لماذا أمتلك تلك المهارات في العديد من الأشياء".

لقد أصبح أمام كل فرد داخل المجتمع الصيني فرصة التعلم، حتى الذين لا تساعدهم إمكاناتهم على دفع تكاليف التعليم، وكان لنظريته صدى كبير بين كافة أبناء أمته، حيث احتشد حوله العديد من الطلاب ذوي الفئات والإمكانيات المختلفة(١).

٣- وجود الرغبة الداخلية للتعلم

من أهم الشروط التي وضعها كونفوشيوس لمن يريد الالتحاق بمدرسته: أن يكون طلب التلميذ للعلم نابعاً من رغبة داخلية هي التي دفعته نحو هذا السلوك، وقد سبق معنا قوله: "أنا لم أرفض أن أعلم أي فرد جاءني طوعاً...".

فمن الضروري أن يكون الدافع الأساسي للتعلم نابعاً من داخل الفرد نفسه، لا أن يكون عنصر التشويق مفروضاً عليه من الخارج. وهو لا يقبل في مدرسته من لا تتوفر لديهم القدرة على التفكير والرغبة في المشاركة؛ يقول: "ليس هناك شيء أستطيع أن أفعله مع الرجل الذي لا يقول لنفسه دائماً: ماذا عليَّ أن أفعل؟". وبذلك يصبح من أهم شروط الالتحاق مبدأ الاستعداد والذكاء أو القدرة على الإدراك.

٤- الاستمرار في التعلم

أدرك كونفوشيوس أن للمنصب إغراءه وبريقه الخاص به، ومن شأنه أن يؤدي إلى زعزعة القِيَم التي تربى عليها الفرد، وسيترتب على ذلك أن يتخلَّى الفرد عن

---

(١) انظر: فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ١٠٨ - ١١٢.
والتجربة الصينية - د. عبد العزيز حمدي - ص ٣٧.

الرسالة الأساسية التي لقَّنها له المعلم. لذا تنبه إلى أهمية إعداد الفرد تربوياً بشكل يجعله يتمسك بقِيَمه، رغم كل إغراءات المنصب التي قد تدفع الفرد إلى تقديم الكثير من التنازلات في سبيل البقاء في المنصب، أو في سبيل الصعود إلى منصب أعلى منه. ولم تكن التربية لديه أمراً موقوتاً تنتهي بمرحلة سِنِّية معينة، أو بوصول الفرد إلى السلطة، إنما هي عملية مستمرة تلتصق به طوال حياته، ويسعى للالتزام بها بشكل مستمر ودائم، يقول: "إن استطعت يوماً أن تصلح نفسك، افعل ذلك من يوم ليوم، اجعله إصلاحاً يومياً". فالعلم لا يمكن أن يتوقف الاهتمام به عند مرحلة معينة، أو أن ينال قدراً ضئيلاً من العناية والاهتمام، لذلك فبدءاً من ابن السماء حتى عامة الشعب لابد أن ينظر إلى العلم على أنه الجذر لكل شيء، يقول كونفوشيوس: "عندما يؤدي الرجل الذي في المنصب مهامه وواجباته إلى أقصى حد يجب أن يدرس، وعندما يتم الطالب دراسته يأخذ الوظيفة"(١).

ج- قواعد وأساليب التعليم المثالي

وضع كونفوشيوس أربع قواعد للمعلم والتعليم لتحقيق التعليم المثالي، نوجزها في نقاط:

١- يجب على المعلم أن يمنع العادات القبيحة قبل أن يكتسبها الطالب، وتصبح سلوكاً عادياً.

٢- يجب أن تُعطى المعلومات في السن الملائمة لها.

٣- يجب التدرج في إعطاء المعلومات، بحيث يبدأ المعلم بالسهل، وينتهي بالصعب.

٤- يجب أن تُعطى المعلومات للتلاميذ مجتمعين لا فرادى؛ بهدف إثارة التنافس بينهم وتشجيع المجتهدين.

ويضاف إلى هذه القواعد الأربع قاعدتان تكميليتان، ويمكن تلخيصهما في:

---

(١) المرجع السابق – ص ١١٣- ١١٤.

١- إلزام المعلم بمراقبة صحبة الطالب لمنعه من مخالطة الأشرار.

٢- التأكد من أن الطالب يقضي وقت فراغه فيما يعود عليه بالفائدة جسمياً وعقلياً(١).

كما يرى أن المعلم المثالي من يعمل على توجيه طلابه توجيهاً رقيقاً دون أن يجحف عليهم، كما أن عليه أن يراعي الفروق الفردية بين طلابه؛ فمن طلابه من يحاول أن يجهد نفسه بحفظ كثير من الموضوعات، ومنهم من لا يستطيع أن يستوعب إلا أجزاء صغيرة، ومنهم من هو سريع الحفظ للمعلومات، ومنهم من هو بطيء سريع الملل، بما يؤكد التفاوت بينهم في العقليات ومستوى الذكاء. ومن هنا، فإن من واجبه مراعاة ظروف كل منهم، وتشجيع الجيد وتنمية قدراته، ومساعدة الضعيف في علاج ضعفه...(٢).

ومن الأمثلة الكثيرة على استخدام كونفوشيوس للأساليب المختلفة باختلاف التلاميذ:

١- كان (تسي لو) شجاعاً، لكنه قليل التفكير والتدقيق. فنصحه بالتحلي بالصبر والتعقل، سأله (تسي لو): "أيها المعلم، إذا قدمت القوات في المعركة، فأي نوع تفضل"؟ فأجابه: "لا أفضل الذي تفرغ يداه من الأسلحة، ويتخيل قتل النمر، ولا أفضل الشجاع الذي لا يعرف الاستعداد اللازم قبل عبور النهر، بل أرغب في أن يرافقني الصبور العاقل أمام أي أمر من الأمور العاجلة".

٢- كان (يان هوي) تلميذاً متفوقاً، لكنه كان مطيعاً لمعلمه أكثر من اللازم، حتى إنه عجَز عن تكوين رأي مستقل. فانتقده كونفوشيوس قائلاً: "(يان هوي) يتقبل كل كلامي بدون تدقيق، وهذا ليس جيداً، هذا لا يضره فحسب، بل يسيء إلى معلمه أيضاً".

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني - حسن سعفان - ص ١٠١ بتصرف.

(٢) انظر: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني رسلان - ص ٦٦ - ٦٧.

٣- أما (تساي وه) فكان كسولاً كثيرَ النوم، فانتقده كونفوشيوس: "عليك أن تعرف أن الرسوم الرائعة لا تكون على الخشب الفاسد، والصور الجميلة لا تكون على الجدران الترابية المتداعية أبداً، إذا استمررت في ذلك، فكيف تصبح موهوباً وماجداً شريفاً؟".

٤- وربما أعطى كونفوشيوس إجابات مختلفة لسؤال واحد حسب طبيعة السائلين؛ مثلاً: ذات يوم سأله (تسي لو): إذا وجدت اقتراحاً جيداً، فهل أقبله فوراً أم لا؟" فأجابه: "هناك الكبار الأكثر منك تجربة، وعليك أن تستمع إليهم".

- أما (ران يو) فسأله السؤال نفسه، وأجابه: "طبعاً، عليك أن تقبله فورا".

- وعندما سمع تلميذ آخر هاتين الإجابتين دهش من ذلك، وسأله عن السبب، فقال كونفوشيوس: "إن (ران يو) دائماً ما يتردد في تقبل الأمور، فعليَّ أن أشجعه على أن يكون شجاعاً وقاطعاً في معالجة الأمور، أما (تسي لو)، فإنه قليل التفكير، فينبغي أن أنبهه إلى تدقيق الأمور".

وقد نتج عن أساليب كونفوشيوس في التربية أن ترعرع تلاميذه وكل واحد منهم له ميزة خاصة؛ فمثلاً: (يان هوي) معروف بأخلاقه الحميدة، و(تسي لو) بارع في السياسة، و(تسي قونغ) مشهور بطلاقة اللسان، و(تسي شيا) موسوعة في الأدب(١).

كما أحب كونفوشيوس تلاميذه حباً جماً، وعرفهم حق المعرفة، وكثيراً ما يساعدهم في الشدائد، وعلى سبيل المثال:

١- سجن تلميذه (قونغ يه تشانغ) وكان يعتقد كونفوشيوس أنه بريء مما وُجِّه إليه، فلم يقلل من شأنه، بل امتدحه، وقال للجميع: إنه سيزوجه ابنته، فكان لذلك الأثر الكبير في تشجيعه ورفع معنوياته.

---

(١) القصص الصيني القديم - وي تانغ - سلسلة كتب سور الصين العظيم - مجلة بناء الصين - ص ٥٦ بتصرف.

٢- كان تلميذه (تسي لو) قائداً في دويلة (وي)، فانفجرت في أيامه الاضطرابات الداخلية، وعندما سمع كونفوشيوس هذه الأخبار قال: "لاشك سيستشهد تسي لو"؛ لأنه يعرف تماماً أن تلميذه هذا مستقيم وداع للعدالة، ولا يسمح بمرور الأمور القبيحة بلا مقاومة.. هذا ولم يمض وقت حتى جاءه خبر استشهاده(١)، فبكى كونفوشيوس بكاءً شديداً.

٣- وعندما توفي (يان هوى) حزن كونفوشيوس حزناً شديداً، فنصحه الناس ألا يحزن كثيراً خوفاً على صحته المتدهورة. فقال: "لقد نسيت نفسي، فلماذا لا أبكي وأحزن على وفاة رجل شريف؟"(٢).

د - تمسكه بالتراث الصيني القديم

كان كونفوشيوس شديد التعلق بحب التراث الصيني القديم، وكان التراث المدون في الكلاسيكيات الخمس يمثل الموضوعات التي تُدرَّس داخل المدارس الحكومية آنذاك، والذي كان يمثل أيضاً مادة خصبة لكونفوشيوس، يستخدمها بعد إعادة بنائها كموضوعات تعليمية. وقد ظهر تمسكه بالتراث في عديد من أقواله؛ منها: "إنما أنا ناقل وليس مبدعاً، أنا شديد الإخلاص والولع بما هو قديم، من أجل هذا فأنا أغامر حينما أضع نفسي موضع مقارنة مع أجدادنا".

وقد طلب من تلاميذه تعلُّم الفنون الستة التي يحويها التراث القديم، والتي ستؤهِّلهم للحصول على مرتبة أسمى داخل المجتمع، وهي: الطقوس، والموسيقى، والرماية، وسباق العربات، والتاريخ، والرياضة. وهي جميعاً من الموضوعات التي تُعدُّ ذاتَ قيمة عملية عظيمة في تربية النشء وتهذيبه، ويحاول من خلال أقواله تأكيدَ الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها الفرد خلال دراسته لهذه الموضوعات

---

(١) التعبير بالاستشهاد عندنا لا يطلق إلا على من يقاتل في سبيل الله سبحانه وتعالى ويقتل، لكن أورده مؤلف كتاب القصص الصيني هكذا، فما أردت أن أتدخل فيه.

(٢) القصص الصيني القديم - وي تانغ - ص ٥٧ بتصرف.

المختلفة، وقد أصبحت فيما بعد هذه المواد الدراسية بمثابة اختبارات رسمية من جانب الدولة، يمتحن فيها كل من يريد الالتحاق بمنصب إداري في الدولة ـ كما مر معنا سابقاً ـ، وبهذا استطاع أن يضمن لتعاليمه البقاء طيلة هذه القرون الطويلة دون منازع(١).

هـ - هل كان كونفوشيوس ناقلاً أم مبدعاً؟

للإجابة على هذا السؤال باختصار شديد نقول: لقد جسَّد كونفوشيوس ـ بشكل واضح ـ موقفه تجاه التراث، ولكن على الرغم من وضوح قوله، ووضوح الغرض منه إلا أنه كان مثار جدل طويل من جانب المحلِّلين لشخصيته، فذهب فريق إلى أنه تأكيدُ فقره العلمي، وأنه ليس مبدعاً، ووصفوه بالرجعية وأن عمله داخل الحضارة الصينية اقتصر على مجرد إعادة الطرق القديمة، وتدعيم السلطة الوراثية الأرستقراطية.

في حين ذهب فريق آخر إلى أن مثل هذا القول يجسِّد إحدى القيم الأخلاقية التي طالما نادى المعلم بضرورة اقتنائها، وهي فضيلة التواضع. ويرون أنه حتى وإن كان عَمَل كونفوشيوس قد اقتصر على مجرد إعادة صياغة التراث بلغة حديثة، وترتيبه بشكل منسَّق، فإن مثل هذا العمل يؤكد أنه مبدع، وصانع لعهد جديد؛ حيث إن إبداعه لم يتوقف على ترتيب التراث فقط، ولكن أيضاً هو مبدع في أسلوبه وكلماته وهدفه، الذي جعله يستخدم الماضي مرآة لرؤية الحاضر والمستقبل.

ومع هذا كله، فإن النظرة المتعمقة تدلنا على أن كونفوشيوس لم يكن مقلداً أبداً، وإنما كان مبدعاً بالدرجة الأولى، ولكنه خشي أن يقابل إبداعه بالرفض، فحاول أن يلتمس في التراث شرعية وسنداً لما جاء به(٢).

---

(١) انظر: فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) المرجع السابق - ص ١٣٠ بتصرف.

٨- الفكر السياسي

من أصعب المسائل التي تواجه الباحث الحديثُ عن السياسة عند كونفوشيوس؛ لأنها وثيقة الاتصال بالأخلاق والتربية بشكل يصعب معه التمييز بينها، حتى إن معظم المراجع لم تميز بينها، فالحديث فيها عن السياسة إنما هو حديث عن الأخلاق وعن التربية، والحديث عن الأخلاق والتربية هو حديث عن السياسة.

لكنا وجدنا لكونفوشيوس وبعض تلاميذه كلاماً خاصاً عن الحكومة الصالحة، واختيار الحاكم وواجباته، واختيار الوزراء وصفاتهم. وهو كلام في صميم السياسة سنعرض له دون بقية المسائل السياسية التي يصعب فصلها عن التربية والأخلاق كما ألمحت آنفاً.

أ- أهمية الحكومة الصالحة

تعدُّ الحكومة الصالحة أمراً مهماً عند كونفوشيوس، وتستمد هذه الأهمية من إيمانه بضرورة الاجتماع الإنساني الذي لا يمكن أن يتحقق بشكل مثالي إلا إذا كانت هناك سلطة عُليا تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع. والذات الإنسانية تعتمل فيها كثير من الرغبات التي تعيق إقامة الدولة المثالية، وإذا تُرك للإنسان الحرية التامة في حياته دون سلطة عليا تحكمه، وتوجه هذه المؤثرات والرغبات، أدى ذلك إلى تحويل المجتمع إلى مجتمع غابي فوضوي، فالمجتمع يقوم على طاعة الأبناء آباءهم، والزوجة زوجَها، فإذا ذهبت هذه الطاعة حلَّت محلها الفوضى(١).

فمفهوم الطاعة الذي أقره كونفوشيوس في تعاليمه لم يتم التعامل معه فقط على أنه فضيلة أخلاقية يتجسد مضمونها داخل حدود الأسرة فقط، بل سعى إلى جعله ماثلاً داخل كافة العلاقات الإنسانية التي تربط بين الأفراد في الحياة، فإذا كانت فضيلة الطاعة أساس العلاقة المُثلى بين الزوج وزوجته، والأخ الأكبر

---

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ت: محمد بدران - ج ٤ - ص ٦٠.

والأصغر، والأب والابن، فإن كونفوشيوس عمل على توسيع مجالها لتصبح ضماناً للاستقرار الاجتماعي للأسرة والمجتمع الذي يعتمد عليه في تحقيق النظام وتماسك أنظمة الحكم، ومن أقواله: "لا تكف عن الطاعة والامتثال".

وإذا كان كونفوشيوس قد أكد ضرورةَ وجود الحكومة الصالحة، فقد ترتب على ذلك تأكيده الشديد أهميةَ نظام الحكم الصالح، ووجودُ الحكم الصالح يتوقف على وجود الرجال الصالحين. يقول: "عندما يتواجد الرجال الصالحون تزدهر الحكومة الصالحة، وعندما يختفي الرجال الصالحون، تختفي وتنحرف الحكومة الصالحة"(١). ومعنى هذا: أن وجود الحكومة شرط مهم وضروري لكفالة السعادة وتحقيق النظام، واستقرار الأمور في المجتمع. يقول في ذلك: "إن ذات الأمير كالهواء، وذات الجمهور كالعشب. وعندما يمس الهواء العشب، ينحني العشب، ولا يتحقق النظام إلا بالسلطة"(٢).

ب - الحاكم المثالي أو (الحاكم القدوة):

منهج كونفوشيوس السياسي هو منهجه الأخلاقي ـ كما ذكرنا سابقاً ـ فحين سُئل عن الحكومة الصالحة قال: "توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً، والوزير وزيراً، والأب أباً، والابن ابناً"(٣)؛ أي: حيث يشعر كلٌّ بواجبه، ويقوم كلٌّ بواجبه، ويكون قدوةً لغيره. ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون هو المَثَلَ الأعلى في السلوك الفاضل، حتى يحذو الناس حذوه، فيعم السلوك الطيب جميع رعاياه.

يقول: "لتكن نيتك الصريحة البيِّنة فعل الخير، فيكون الناس أخياراً... وما أشبه الذي ينهج في حُكمه منهج الفضيلة بالنجم القطبي الذي لا يتحرك عن مكانه، والذي تدور من حوله الأفلاك.... وسأله أحدهم: كيف يحمل الناس

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ١٤٠.

(٢) كتاب الحوار ١٢ / ١١٧.

انظر: تاريخ وقواعد الحضارات - فرناند بروديل - ت: د. حسين شريف - ص ٢٢٥.

(٣) قصة الحضارة - ول ديورانت - ت: محمد بدران - ج ٤ - ص ٤٥.

على إجلال حاكمهم، والإخلاص له، والتزام جانب الفضيلة؟ فأجاب المعلم: "فليرأسهم يوماً يحترموه، وليكن عطوفاً عليهم رحيماً بهم يخلصوا له، وليقدم الصالحين، وليعلم العاجزين، يحرصوا على أن يكونوا فاضلين"(١).

لقد آمن كونفوشيوس أنه لن تتحقق رفاهية الشعب إلا إذ تولى شؤون الحكم أعظم الرجال كفاءةً، وهذه الكفاءة لا علاقة لها بالمولد أو الثروة أو المكانة، وإنما هي خاصة بالمعرفة وحسن السلوك، وهما ثمرة التربية الحقيقية.

وقد قال لدوق (لو): "إذا كانت سياسة الحاكم طالحة، ولم يعارضه أحد، فإن هذا التراخي كفيل بالقضاء على الدولة". ولما سأله (تشي كانج تزو) رئيس أقوى عائلة في ولاية (لو): "كيف يمكن معاملة اللصوص بطريقة فعَّالة؟" أجابه: "إنك يا سيدي، إذا لم تطمع في أشياء لا تخصُّك، فإنهم لن يسرقوا، حتى لو أنك استأجرتهم لذلك"(٢).

وسئل عن صفات الحكم المثالي، فأجاب: "إنه الحكم الذي يجد الناسُ تحت ظله غذاءً كافياً، وجيشاً يحميهم، وثقة عظيمة في حكامهم". فسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة إذا دعت ضرورة إلى ذلك؟ فقال: "أفضِّل أولاً الاستغناء عن الجيش". فسُئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك. فقال: "أفضل الاستغناء عن الطعام، فما أكثر من ماتوا جوعاً منذ وجد الإنسان، ولكن لم يحدث أن عاشت أمة بدون ثقة في حكامها".

كما أوصى الحاكمَ بأن يستمع إلى نصيحة الشعب؛ "لأن ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئاً آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه، وما يعدُّه الشعب جديراً بالثواب والعقاب هو ما تعده السماء جديراً بالثواب والعقاب، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب، وعلى من يدبرون شؤون الشعب أن يراعوا ذلك ويتدبروه".

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ص ٦١.
وانظر: المرجع في تاريخ الأخلاق - د. محمد مرحبا - ص ٢٦٥.

(٢) كتاب الحوار - ١٢ / ١١٧.

وقد جاء في كتاب التاريخ: "إن توكيل السماء للحاكم ليس أبدياً، وهذا يعني أن الحاكم يظل متمتعاً بهذا التوكيل الإلهي طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم"(١).

وقوله: "إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة الله أو إرادته، وإرادة الله هي إرادة الشعب، فإذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه، فإن الله العلي السامي ينظر إليه بعين الرضا، ويوطِّد عرشه، أما إذا فقد حب الشعب وعطفه، فإن الله العلي السامي يصب غضبه عليه، ومن ثم يفقد دولته"(٢).

كما أكد كونفوشيوس أن يكون الحاكم المَثَلَ الأعلى في الحِكمة، والقدوة في العدل، حتى ينتهج الناس نهجَه، ويحذون حذوه، فيعم السلوك الطيب، وتصلح أحوال الجميع، ويمضي كل شيء على أحسن حال، دون حاجة إلى إصدار الأوامر أو اللجوء إلى العقوبات. ومثل هذه الحكومة، هي قطعاً حكومة صالحة عظيمة، فيما يرى ذلك، تفرض الاحترام دونما حاجة إلى العنف أو العقاب الذي ينزل بالمخالفين. وقد استفسر أحد مريديه، في إحدى المرات، عن جدوى قتل الفاسدين ممن لا مبدأ لهم ولا ضمير، وأثر ذلك في إجبار الناس طاعة القوانين لصالح أصحاب المبادئ والضمائر، فأجاب: وما حاجتك يا سيدي إلى القتل في قيامك بأعباء الحكم ؟ إن الناس يقتدون بالحاكم، فلو صلح حاله صلحت أحوالهم ولو ساءت أموره ساءت أمورهم، وإذا كانت نيته الصريحة فعل الخير، يصبح الناس أخياراً. إن العلاقة بين الحاكم والمحكومين لشبيهة بالعلاقة بين الريح والأعشاب البرية، فالأعشاب تنحني إذا هبت عليها الريح القوية(٣).

(١) كتاب التاريخ – فصل السياسة.

(٢) المصدر السابق.

وانظر: معتقدات آسيوية – د. كامل سعفان – ص ٢٧٣ – ٢٧٤.

وكتب غيرت الفكر الإنساني – أحمد محمد الشنواني – ج١ – ص ٤١.

(٣) كتاب الحوار ١٢ / ١١٧.

ج - واجبات الحاكم عند كونفوشيوس:

مما ورد في كتاب "الطقوس" قول كونفوشيوس: "إن فن القيام بحكم سليم يقتضي أن يكون الحاكم قادراً أولاً على إقامة نظام سليم في أسرته، ومن الضروري إذن بالنسبة للشخص الذي ينتمي للطبقة الحاكمة أن ينظم سلوكه الشخصي، وتنظيم سلوكه الشخصي يقتضي أن يقوم بواجباته إزاء أقاربه والمتصلين به، ومن ثم إزاء الأفراد الذين وُلِّي أمرهم. ولكي يستطيع أن يقوم بهذه الالتزامات عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنساني، والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي. وهو إذ يعمل على تفقيه نفسه في طبيعة المجتمع الإنساني وأسس التنظيم الاجتماعي إنما يدرس القواعد الإلهية والقوانين الربانية(١) التي تسود المجتمع الإنساني"(٢).

وقد ألزم كونفوشيوس الحاكم، لكي يقوم بأعباء الحكم على الوجه الصحيح، أن يقوم بعدة واجبات؛ من أهمها:

١- أن يتعلم قواعد الأخلاق الشخصية.

٢- أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه.

٣- أن يتودد إلى من تربطه بهم صلة القربى، وأن يقوم بالتزاماته إزاءهم كاملة

٤- أن يجل وزراء ولايته وإمبراطوريته.

٥- أن يعامل موظفي دولته بالحسنى.

٦- أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصي، وأن يجعل من نفسه أباً للشعب.

٧- أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون النافعة والنهوض بها.

٨- أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين في دولته.

٩- أن يهتم برفاهية أمراء الإمبراطورية(٣).

---

(١) من وجهة نظرهم.

(٢) كتاب الطقوس: فصل الانسجام المركزي.

(٣) كتاب الحوار - ١٢ / ١١٣، ١١٤.

وقد ورد تفصيل أكثر عن هذه الواجبات في كتاب "الطقوس" في قوله:

"ذلك أنه لو تعلَّم قواعد الأخلاق، فإنه ـ لا شك ـ يعرف الوصول إلى الطريق السليم، ولو احترم الأفراد الجديرين بالاحترام فلن يغتر بالأفراد المخادعين، وبتودده إلى ذوي القربى يجعل الوئام سائداً بين أفراد أسرته، وباحترامه للوزراء سيجنب نفسه الخطأ، وإذا استطاع أن يوحِّد بين مصلحته والصالح العام، فإن الإخلاص وروح التضحية سيسودان أفراد دولته، وبإظهاره روح الأبوة بالنسبة لشعبه يجد الأفراد وقد وهبوا حياتهم لفعل الخير، وعندما يشجع الحاكم الفنونَ النافعة تزيد الثروة والدخل القوميين، ويعمُّ الرخاء، وإذا عطف على الأجانب، فإن الأفراد من جميع دول العالم سيأتون زُمَراً وجماعاتٍ، وباحترام الحاكم للأمراء من كل ولاية إنما ينشر روح الاحترام والإجلال لشخصه"(١).

وكما ذكرنا سابقاً أنه كان على الحكام والولاة والموظفين أن يجتازوا امتحاناً معيناً على أساس ما ورد في الكتب الكونفوشيوسية، فإذا اجتازوا ذلك الامتحان بنجاح، أُسندت إليهم الوظائف وألقابها.

د – ولاية العهد

يرى الكونفوشيوسيون أن من الواجب على الحاكم، إذا بلغ سن الشيخوخة، أن يختار قبل موته للمنصب الرفيع حكيماً أقلَّ منه سناً، ويتخذ منه – في بداية الأمر– مساعداً. فإن أثبتت التجربة جدارته قدَّمه إلى الشعب، فإن قبله حاكماً عليه كان هذا ـ وفقاً لرأي منشيوس(٢) ـ علامة رضا السماء عن هذا الاختيار، ومباركتها إياه.

فإن لم يقدمه الإمبراطور إلى الشعب، فستعوزه فرصة معاونة الإمبراطور،

(١) كتاب الطقوس – الانسجام المركزي – الفصل الثامن.

انظر: كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاته سعفان – ص ٧٤.

وكتب غيرت الفكر الإنساني – أحمد محمد الشنواني – ج١ – ص ٤٠ – ٤١.

(٢) سبق الكلام عنه في الباب الثاني الفصل الثاني.

واكتساب الخبرة من وراء ذلك ؛ فيغدو عاجزاً عن إضفاء المنافع على الشعب، فلا يولي أفرادهُ وجوهَهم شطره[١]. وهذه وجهة نظر في ولاية العهد، أو تدريب كوادر صالحة لتحمل المسؤولية في المستقبل، لكن على المذهب الكونفوشيوسي، لا يتحتَّم أن تكون ولاية العهد لابن الحاكم أو الإمبراطور السابق، وإنما لمن تؤهِّله كفاءته العلمية والأخلاقية لقيادة الشعب[٢].

هـ- اختيار الوزراء الجديرين بالثقة

أكد كونفوشيوس أهمية وظيفة الوزير في النظام الحاكم، وكان يرى أنه الحل البديل لأزمة النظام القائم في عصره، فعمل على إعداد الرجل الثاني (الوزير) الذي يلقى على عاتقه مهمة السير بشؤون الدولة إلى ما ينبغي لها أن تكون. ليضمن له بقاء آرائه، ومحاولة إخراجها إلى حيِّز التطبيق، ويتم اختيار الوزير وفقاً لجدارته، وبذلك تتحول الحكومة من تبجيل القِلَّة إلى إسعاد الشعب.

وقد شاركه تلاميذه في هذا الاتجاه؛ فنجد أن "هسون تزو"[٣] ـ على الرغم من رفضه لوراثة العرش، وتأكيده أهمية وجود الوزير الصالح قبل الحاكم الصالح ـ رأى ضرورة أن يعلن ذلك، ولكن من دون صدام مباشر مع السلطة القائمة كما سلك منشيوس الاتجاه نفسه...[٤].

وبذلك يكون كونفوشيوس قد أعلن بشكل ضمني فكرة الحاكم الذي يملك ولا يحكم، مؤكداً فاعليةَ الوزير، وقد تصوَّر إمكانية أن يكون على رأس الدولة حاكم فاسد، وفي الوقت نفسه تسير الدولة في طريقها الصحيح. "سأله أحد

---

(١) حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١ -ص ١١٣ بتصرف.

(٢) الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ١٠٩.

(٣) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٤) انظر: حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل - ج١ - ص ١١٠.

والفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ - هـ - ج - كريل - ت: عبدا الحليم سليم - ص ٥٩.

التلاميذ عن السبب في أن الدوق "لينج" لم يفقد دولته رغم ما هو فيه من فساد؟ فقال كونفوشيوس: لقد كان "تشونج شي" مسؤولاً عن الشؤون الخارجية، و"ونج" مسؤولاً عن الشؤون العسكرية. والكاهن "تو" مسؤولاً عن هيكل الأسلاف، لماذا إذن يفقد دولته"(١).

والأمر الذي دفع كونفوشيوس إلى أن ينسب إلى الوزير كلَّ هذه المهمات، وأن يصبح هو المسؤول الأول عن إدارة الأمور، هو إخفاقه في العثور على الحاكم المثالي الذي يتّبع تعاليمه، هذا في الوقت الذي كان يلقى فيه تأييداً أثناء جولاته من جانب الوزراء الصالحين. وقد أدى به هذا الواقع إلى القول بأن من الأمور المهمة والملحَّة وجودَ الوزراء الصالحين، يقول: "دعني أمتلك فقط وزيراً واحداً، صادقاً ومخلصاً، ولا يتظاهر بخصائص أخرى، بسيطاً وذا عقل مستقيم، وذا نفس سمحة، ويحترم مواهب الآخرين، على الرغم من أنه هو نفسه يملكها... مثل هذا الوزير سيصبح قادراً على حماية الشعب، وسيحقق الخير للمملكة، ولكن إذا كان الوزير على عكس ذلك، فإنه يكون خطراً على الدولة"(٢).

وقد أشار في هذا النص إلى أهم الخصائص التي يجب أن تتوفر في شخصية الوزير المكلف بأعمال الدولة.

٩- الفكر الاجتماعي

طرق الإصلاح الاجتماعي

كان كونفوشيوس يسعى لإصلاح المجتمع الصيني بعد أن استشرى فيه الفساد، وطغت عليه المشاحنات الداخلية بين الممالك الصغيرة، وسادته القسوة والعنف والفوضى. فهبَّ لإعادة المجتمع إلى جادَّة الصواب، وذلك من خلال بعض الطرق التي سلكها، ومن أهمها:

---

(١) فلسفة الأخلاق والسياسة – د. هالة أبو الفتوح – ص ١٤٦.

(٢) المرجع السابق – ص ١٤٧. انظر: حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ٨٠.

١- إحياء النظام الطبقي القديم:

تميز النظام الطبقي بوجود تقاليدَ وعاداتٍ محددة لكل طبقة من الطبقات والفئات المكونة له، كما كان لكل طبقة حقوق وعليها واجبات، كما تميز هذا النظام أيضاً بوجود طقوسٍ وشعائرَ وقرابينَ تختلف قليلاً أو كثيراً من طبقة إلى أخرى، بل وصل الأمر إلى وجود زيٍّ خاص لكل منها. وقد كان هدف كونفوشيوس من دعوته إلى إحياء النظام الطبقي القديم هو أن يحدد لكل فرد في المجتمع العمل الذي ينبغي عليه القيام به، ووضعه الاجتماعي، ومركزه الأدبي، تحديداً دقيقاً، إنقاذاً لبلاده من حالة الفوضى، ووصولاً بها إلى النظام والاستقرار والتقدم والرخاء. والنظام الكونفوشيوسي إذ يعترف بالطبقات، بل ويعدُّها من الأسس التي يقوم عليها النظام الاجتماعي، لم يجعل هذه الطبقات مقفلة، فأتاح الفرصة أمام كل فرد أن يرقى إلى أية طبقة تؤهِّله كفاءته ومقدرته وأعماله الانتساب إليها.. فالنظام الطبقي في المجتمع الكونفوشيوسي يسمح لكل فرد بالانتماء إلى أية طبقة، ويتخذ أساس الانتساب إلى الطبقات من المواهب العقلية والطبيعية والأخلاقية(١). وهذا ما يميزها عن نظام الطبقات في الهندوسية الذي لا يسمح لأحد أن يتجاوز طبقته، ويجعل الانتساب إلى الطبقات وراثياً.

٢- الاختلاط بأفراد المجتمع:

يوجب كونفوشيوس على الفرد مخالطة المجتمع، والعمل على إصلاحه بكل الوسائل المتاحة، وعدم الاعتزال، حتى يعمر الكون وتستمر الحياة، حيث يقول: "إذا كان واجب كل شخص من آحاد الأمة أن يعتزل في كهف من الكهوف، فمن الذي يبقى في المدن يعمُرها؟ وفي الأرض يفلحها ويزرعها؟ وفي الصنايع يمهر فيها؟ ومن الذي ينسل ويعمل ليبقى الكون عامراً ببني الإنسان؟ وإذا كان الاعتزال

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني، د. حسن سعفان، ص ٨٠ – ٨٣ بتصرف.
وانظر: الفلسفة الشرقية – د. محمد غلاب – ص ٢٧٣.

مقصوراً على الحكماء الفضلاء، فمن الذي يربي الإنسان ويؤدبه؟ أم يُترك الناس حائرين بائرين لا هاديَ لهم ولا مرشد؟"(١) على خلاف البوذية التي تحبذ العزلة والبعد عن الناس، وقدوتهم في ذلك بوذا نفسه حتى يصلوا ـ بزعمهم ـ إلى الخلاص.

٣- الالتزام بآداب اللياقة الـ "لي"

وقد سبق الكلام عنها مع الفضائل الأخلاقية في هذا الفصل(٢).

٤- مراعاة الروابط الخمس:

يقول كونفوشيوس: إن جوهر الحياة الصالحة للفرد وللأمة يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للروابط الخمس التي تربط الناس بعضهم ببعض، هذه العلاقات الخمس الرئيسية هي: علاقة الأمير بالرعية، وعلاقة الأب بالابن، وعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجته، وعلاقة الصديق بصديقه. فإن روعيت كل هذه العلاقات حسُن حال الدولة.

٥- تعليم جميع أبناء الشعب:

يقول عن التعليم: "يجب أن تزول الاختلافات الطبقية من التعليم.. وإني لم أرفض قط تعليم أي فرد حتى إنْ وَفَد إليَّ على الأقدام، وليس لديه ما يقدمه لقاء تعليمه سوى قطعة من اللحم الجاف".

وقد حرَص على تعليم تلاميذه دقائق السلوك وأساليب الرسميات، لكنه لم يتردد في نبذ تلك القواعد إن جافت العقل، وخرجت عن المنطق العام، ونبت عن الذوق السليم(٣).

٦- احترام الملكية الفردية:

فحق الملكية عنده هو المعنى الأول للعدل، وكانت أبشع الجرائم عنده أن يعتدي شخص على ملكية آخر. وقد حاربت الكونفوشيوسية ضد أصحاب

---

(١) الديانات القديمة – الإمام محمد أبو زهرة – ص ٨٢.

(٢) انظر: ص ٣٠٥.

(٣) حكمة الصين – د. فؤاد محمد شبل – ج١ – ص ٦٧ بتصرف.

النزعات الشيوعية والاشتراكية في القرنين السابقين على الميلاد، وانتصرت عليهم انتصاراً ساحقاً. ويرى كونفوشيوس ـ مع هذا ـ أن الملكية الخاصة هي سبب رئيس في البلاء الذي حل بالولايات الصينية، ولكن ليس معنى ذلك ـ فيما يرى كونفوشيوس ـ أنه يجب القضاء عليها، بل من الواجب الإبقاء عليها مع رسم برامج إصلاحية من شأنها أن تؤدي إلى تنمية روح العطف والشفقة بين الأفراد، بحيث يعطف غنيهم على فقيرهم، ويساعد كبيرهم صغيرهم[1].

هذه بعض أبرز الطرق التي سلكها كونفوشيوس للإصلاح الاجتماعي حتى يتضح لنا المنهج الذي سار عليه، ولعل فيما يأتي في مدينته الفاضلة مزيد بيان وتوضيح.

١٠- المدينة الفاضلة

تحدث كونفوشيوس ـ كثيراً ـ عن المدينة الفاضلة القائمة على المساواة بين الأفراد، وكان مغرماً بالسعي لتحقيقها، وكانت له أحلامه التي أطلق فيها لخياله العنان؛ حيث يقول: "فإذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ المساواة) أصبح العالم كله جمهوريةً واحدة، واختار الناس لحكمهم ذوي المواهب والكفاءات، وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة، ويعملون على نشر لواء السلم الشامل. وحينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم، أو أن أبناءهم هم الذين خرجوا من أصلابهم، بل تراهم يهيؤون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم، ويوفرون العمل للكهول، ووسائل النمو للصغار، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء واليتامى، والذين لم يُرزقوا نعمة الأولاد، ولمن أقعدهم المرض عن العمل. هنالك ينال كل إنسان حقه، وهنالك أيضاً تُصان شخصية المرأة فلا يُعتدى عليها".

---

(١) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ٨٧ –٨٨ بتصرف.
انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ٩٨ – ١٠٢.

"وينتج الناس الثروة؛ لأنهم يكرهون أن تُبَدَّد وتضيع في الأرض. ولكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس وهم يعلمون؛ لأنهم يكرهون البطالة، ولكنهم لا يهدفون في عملهم إلى منفعتهم الشخصية". "وبهذه الطريقة يُقضى على الأنانية والمآرب الذاتية. فلا تجد سبيلاً إلى الظهور، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة والمارقين. فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة. هذا هو الوضع الذي أسميه التماثل الأعظم"(١).

ويرى كونفوشيوس أن الصين قد عاشت هذا العصر الذهبي في أيام الأسرات الثلاث الأولى التي سبقت عصره، فعمَّ الوفاق والخير والطمأنينة والسلام جميعَ الأفراد الذين نظروا إلى بعضهم على أنهم أفراد أسرة واحدة، ونتج عن ذلك اختفاء اللصوص وقُطَّاع الطرق. يقول كونفوشيوس:

"وفي مثل هذا المجتمع، كان الشيوخ يقضون مدة شيخوختهم في سعادة ومتعة، وكانت الفرصة مهيأة أمام الشبان لإظهار مواهبهم، كما كان الشبان اليافعون الأصحَّاء يقومون بواجب العناية بالشيوخ والأرامل والأيتام والعَجَزة، وهي الفئات الاجتماعية التي لا حول لها ولا قوة. ولقد ساد في هذا العصر تقسيم عادل للعمل، فلكل رجل حرفته المخصصة له، بحيث لا يتعدى على اختصاص الآخرين، وللمرأة المنزل وما يتعلق به من شؤون.

وإذا كان الأفراد في تلك العصور قد قاموا بجمع الثروات، فإن هذا الجمع لم يكن يتم لحسابهم الخاص، كما أن نتيجة عملهم وجِدِّهم لم تكن لهم كأفراد، بل كانت للمجموع. وعلى ذلك لم يكن ثمة مكان للنصب والاحتيال، ولا مكان للعصابات واللصوص، بل لم يكن صاحب المنزل بحاجة إلى إحكام غلق منزله ليلاً.

كان ذلك عصر الثروة المشتركة العظيمة؛ أي: عصر القانون الأسمى. أما الآن

---

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ت: محمد بدران - ج ٤ - ص ٦٣ - ٦٤.

- (أي في الأسرة الرابعة، وهي أسرة "تشو" التي كان كونفوشيوس يعيش تحت حكمها) - فإن هذا القانون الأسمى لم يعد له وجود؛ فالعالم - ويقصد به هنا الصين - الآن قد انقسم إلى أسر خاصة، وأصبح الناس لا يعترفون بصلة القربى إلا بالنسبة لوالديهم وأولادهم. وكل فرد يعمل ليجمع الثروة لحسابه الخاص ولمتعته الشخصية. ونتج عن ذلك تكوين أرستقراطية وراثية، كما بدأت الولايات المختلفة في إنشاء مدن وقرى على حدودها لكي تخصصها للدفاع عن نفسها"(١).

وقد غلب على فكر كونفوشيوس، في مرحلته الأولى، التصورات المثالية، حيث عمد في هذه المرحلة، التي امتلأ فيها عصره بالفوضى والظلم، إلى تخيُّل وجود مجتمع نموذجي تسُوده المساواة المطلقة بين الأفراد، ويعمه الخير والسعادة.

وبتخيل هذا المجتمع المثالي انضمَّ كونفوشيوس إلى مجموعة المفكرين الخياليين الذين رسموا صوراً للمجتمع المثالي الذي يسُوده الخير والفضيلة، بعيداً عن الواقع الإنساني الملموس، وأشهرهم:

١- أفلاطون (المتوفى عام ٣٤٧ ق. م) في جمهوريته قديماً.

٢- والفارابي (المتوفى عام ٩٥٠ م) في مدينته الفاضلة.

٣- وكامبا نيللا في مدينة الشمس، في العصر الوسيط.

٤- وتوماس مور (المتوفى عام ١٥٣٥ م) في يوتوبياه.

٥- وفرنسيسن بيكون (المتوفى عام ١٦٢٦م) في أطلنطس الجديدة.

٦- وكانط (المتوفى في عام ١٨٥٤ م) في السلام الدائم، في العصر الحديث.

٧- وهـ. ج. ولز (المتوفى عام ١٩٤٦م) في يوتوبياه الحديثة، في الزمن المعاصر.

إلا أن كونفوشيوس سرعان ما تخلى عن هذه النظرة المثالية، بعد أن تبين أن

---

(١) كتاب التغيرات، وكتاب الحوار.

مدينته المثالية تجافي الطبيعة الإنسانية، وتفترض وجودَ صفات وسمات لا تتوافر في هذه الطبيعة بالفعل، وبدأ في اعتناق النظرة الواقعية التي جعل أساسها الطبيعة الإنسانية وقدراتها الفعلية والمجتمع الإنساني ومشكلاته الجوهرية (١).

ولا شك أن السبب الذي دفع كونفوشيوس إلى تصور المدينة الفاضلة، هو ضيقه بالواقع الذي عاش فيه، حين رأى المصائب والشرور في ازدياد، فحاول أن يتجاوز هذا الواقع الأليم إلى تصوير ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإنساني، عسى أن تحاكيه النظم والأفكار، أو تقترب منه، فتتغير الأحوال، ويعم الخير والصلاح.

---

(١) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني – د. صلاح بسيوني رسلان – ص ١٢٨– ١٢٩.
وانظر: عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – فوزي محمد حميد – ص ٢٣٠.

الفصل الرابع
الجذور العقدية والفكرية
لمعتقدات الكونفوشيوسية وأفكارها

١- المعتقدات القديمة

ترجع الكونفوشيوسية إلى معتقدات الصينيين القدماء، التي قَبِلها كونفوشيوس والكونفوشيوسيون من بعده، وقد ذكرتُ في فصل سابق المراحل التاريخية التي مرت بها الكونفوشيوسية[١]، كما ذكرت الحالة الدينية في الصين قبل ظهور كونفوشيوس، ولا أريد أن أكرر ذلك هنا[٢]. والذي نريد أن نعرفه هنا: ما هي الشريعة والثقافة القديمة التي قَبِلها كونفوشيوس، وأحياها وجدَّد روحها، وجمع أسفارها وحرَّرها كما تقول الكونفوشيوسية؟

للإجابة على هذا السؤال لابد أن نمر مروراً سريعاً بتلك المرحلة التاريخية الصينية التي وُضعت فيها تلك الشريعة قبل عصر كونفوشيوس، والتي جاء بعدها كونفوشيوس ليحييها بعد انحطاطها في عصره (كما يقولون)، فنقول:

إن المرحلة الأولى من التقسيم المفصَّل للمراحل التاريخية التي مرت بها الكونفوشيوسية، هي: ما تسمى عندهم بمرحلة السلسلة الأصيلة للطريقة، وتشمل هذه المرحلة عصر الأنبياء الملوك الخمسة، والعهود الملكية الثلاثة من التاريخ الصيني القديم: (عهد أسرة شيا) الذي بدأ من القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد، وانتهى عند القرن السادس عشر قبل الميلاد، و(عهد أسرة شانغ) الذي بدأ من القرن السادس عشر قبل الميلاد، وانتهى عند القرن الحادي عشر قبل الميلاد، و(عهد أسرة تشو) الذي بدأ من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وانتهى عند القرن الثالث قبل الميلاد.

وقد كان لكل عهد من هذه العهود الملكية الثلاثة شعائرها وطقوسها

---

(١) انظر: الباب الثاني، الفصل الثالث.

(٢) انظر: الباب الأول، الفصل الأول.

وأحكامها، ونُظُمها الدينية والاجتماعية والسياسية، وقد أجاب كونفوشيوس، عندما سأله تلميذه عن إمكانية معرفة شرائع العهود العشرة المقبلة، قائلاً:

"لقد اتبع عهد (شانغ) شريعة عهد (شيا)، وعرفنا ما طرأ عليها من الزيادة والنقصان، وقد اتبع عهد (تشو) شريعة عهد (شانغ)، وعرفنا ما طرأ عليها من الزيادة والنقصان، والذي سيأتي بعد عهد (تشو)، يمكننا أن نعرفها ولو كانت بعد مائة عهد"(١).

وقال أيضاً: "لقد اتبع عهد (تشو) شرائع العهدين السابقين مع الزيادة والنقصان، فما أزهر ثقافته! وأنا تابع لشريعة (تشو)"(٢).

لقد أثبت كونفوشيوس بهذين الحوارين أنه كانت هناك شريعة يتبعها كل عهد من هذه العهود الثلاثة، وأن أصل شريعة كل عهد واحد لم يتغير، ولكن كانت هناك زيادة ونقصان على الشريعة في كل عهد، وأن شريعة عهد (تشو) هي أزهر الشرائع، وأنه يعدُّ نفسه تابعاً لشريعة (تشو).

٢- شريعة تشو

حفظت السجلات التاريخية الصينية القديمة معلومات تفيد بأن (تشو قونغ)(٣) هو الذي وضع ونظّم شريعة (تشو) التي كان يعظمها كونفوشيوس، ويعمل بها بكل إخلاص، ويدعو إلى التمسك بها، وبرغم أن (تشو قونغ) عاش قبل كونفوشيوس بعدة قرون، فقد كانت الصين تبجله على أنه مؤسس التقاليد "الكونفوشيوسية"، بل كان بعض الصينيين يعدُّونه أسمى مرتبة من كونفوشيوس، ولم يكن مردُّ هذا لشخصيته فحسب، بل أيضاً؛ لأنه في حرارة الأحداث المضطربة التي اشترك فيها، تشكَّلت آراء معينة كانت لها أهميتها الكبرى في التفكير

---

(١) كتاب الحوار، الفصل الثاني، الحوار رقم ٢٣.

(٢) كتاب الحوار، الفصل الثالث، الحوار رقم ١٤.

(٣) انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية – د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ١٦.

الصيني من ذلك الوقت[١].

أما الشريعة التي جاء بها في عهد أسرة (تشو) فكانت تشتمل على خمسة أقسام، وفق ما سجل في "سفر الشريعة" :

القسم الأول: قسم التبركات، وهي الشعائر والطقوس والعبادات الدينية التي تكون عند تقديم القرابين للإله السماوي والملائكة وأرواح السلف.

والقسم الثاني: قسم المصيبات، وهي المراسم المتعلقة بتشييع الجنائز والرثاء عند نزول المصائب.

والقسم الثالث: قسم الجنديات، وهي المراسم والآداب المتعلقة بالجيش والحرب؛ مثل عرض القوات المسلحة، وطلب المعونة من "تيان" للنصر، ومعاملة الأسرى.

القسم الرابع: قسم الضيافات، وهي المراسم والآداب المتعلقة باللقاءات الرسمية بين الأمراء والوزراء، للميثاق، وتعيين الموظفين، وغير ذلك.

القسم الخامس: قسم المرغوبات، وهي المراسم والآداب اليومية المتعلقة بكل فرد عند الفرح والسعادة، مثل الزواج ولبس الطاقية عند بلوغ الرجل والجلوس على المائدة، وتبادل التهاني.

قال الأستاذ ما جشونغ بعدما شرح الملامح العامة لشريعة (تشو) معلقاً عليها: "نعرف من هنا أن ما يُسمى بالشريعة في الزمن القديم هي: قواعد الحياة الاجتماعية العامة حول المراسم والطقوس المتعلقة بتقديم القرابين، وهذه الشريعة تشتمل في مفهومها الواسع كل ما يتعلق بالإنسان من أصول تنظيم الدولة حتى قوانين السلوك، والمعاملة اليومية، والمبادئ الأخلاقية، وروح الأخلاق الفاضلة تتخللها بداية ونهاية"[٢].

---

(١) الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي تونغ – هـ – ج – كريل – ت: عبدا لحليم سليم – ص ٢٥ . وانظر: فلاسفة إنسانيون – كارل ياسبرز – ترجمة د. عادل العوا – ص ١٢٢ .

(٢) الخطوط الفكرية العريضة لحكماء الصين – الأستاذ : ما جشونغ – ص ٤٦٥ .

عن : كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية – د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ١٧ .

وعلى هذا، فشريعة (تشو) ليست منزَّلة من السماء، بل وضعها (تشو قونغ) على أساس الفطرة الإنسانية كما يزعمون. ولهذا السبب امتدحها كونفوشيوس؛ حيث قال: "فما أزهر ثقافته! وأنا تابع لشريعة (تشو)"[١].

مصدر شريعة (تشو)

بعد أن ذكرنا الملامح العامة لشريعة (تشو)، لابد أن نشير إلى نقطة مهمة، وهي: من أين جاءت هذه الشريعة؟ تقول الكونفوشيوسية: إن هذه الشريعة ليست منزَّلة من عند الإله السماوي، بل هي من وضع الأنبياء الملوك القدامى، وبالأخص (تشو قونغ)، على الرغم من وجود بعض النصوص في سفر القصائد التي تدل على أن الحاكم السماوي الأعلى "شانغ دي" ـ وهو اسم آخر للإله السماوي ـ كان يكلم الأنبياء الملوك القدامى، مثل (تشو)، و(وون وانغ). قال "دي" (أي: شانغ دي) للملك (وون وانغ): عليك أن تحتضن الأخلاق المشرفة، ولا تتكلم بصوت مرتفع لتظهر هيبتك"[٢].

على هذا، فإن شريعة (تشو) ليست شريعةً منزَّلة من عند الله تعالى، مثل الشرائع السماوية المنزلة بالوحي، بل هي ـ كما تقول الكونفوشيوسية ـ من وضع الأنبياء الملوك.

٣- انحطاط شريعة (تشو) وقيام الكونفوشيوسية:

كانت فترة الربيع والخريف أكثر الفترات ازدهاراً في الفلسفة والفكر في التاريخ الصيني، مع أنها فترة فوضى سياسية، وانحطاط ثقافي، وتفكك اجتماعي، لا مثيل له في التاريخ، وقد برز في هذه الفترة عدد كبير من المذاهب، واشتهرت هذه الفترة بين الصينيين بما يسمونه بفترة "باي جا جشينغ مين"؛ أي: التنافس بين مائة مذهب، وكان أهمها أربعة مذاهب رئيسة تتسم بالأهمية التاريخية، والاستقلالية

---

(١) كتاب الحوار، الفصل الثالث، الحوار رقم ١٤.

(٢) سفر القصائد، القسم الثاني (دايا)، الفصل (هوانغ أي).

الفلسفية، وهي: الكونفوشيوسية، والطاوية، والقانونية، ومذهب (مه تس)[1].

وقد نشأت هذه المذاهب أو المدارس المتعددة في هذه الفترة بالذات؛ بسبب انحطاط شريعة (تشو) ـ بعد ازدهارها لمدة خمسة قرون تقريباً، منذ وضعها (تشو قونغ) إلى هذه الفترة ـ فلما طرأ عليها الانحطاط، وفقدت حيويتها الأولى في فترة الربيع والخريف، أصبحت المشكلة المطروحة أمام الحكماء والمفكرين هي: تحديد الموقف الحكيم الذي يجب أن يُتخذ تجاه هذه الشريعة القديمة. ومن هنا ظهرت المذاهب، فكلٌ له وجهة نظره الخاصة تجاهها؛ فمن قائل بالإثبات والتجديد، وهذا هو موقف الكونفوشيوسية، حيث بنت نظرية المعرفة الكبرى على أساس هذا الموقف، ومن قائل بالنفي والترك، وأنه يجب على ذوي الحكمة ترك المعرفة، والأخلاق والنظم، والاشتغال بالزهد، وعدم المبالاة بما يحدث في الخارج، وهذا هو موقف الطاوية، ومن قائل بالتبديل والتغيير، وهذا هو موقف القانونية، ومن داع إلى إلغائها والرجوع إلى ما قبلَها من الشرائع، وهذا هو موقف مذهب (مه تس)[2].

وبهذا نصل إلى معرفة الجذور التي بدأت منها الكونفوشيوسية في تأسيس ديانتها التي كان لها أثرها الكبير، ليس على الصين فحسب، بل وغيرها من دول الجوار، على مر العصور.

٤- تأثر كونفوشيوس بالديانة الملكية لأسرة (تشو)

في عام ٢٠٢٧ ق. م خلفت أسرةُ (تشو) أسرةَ (شانج)، وحكم القصر الملكي لأسرة (تشو) حتى عام ٧٧١ ق. م بوصفهم "الملوك ـ الكهنة"، وظلوا يسيطرون سيطرة تامة على الصين طوال هذه الفترة. وكان للديانة الملكية لأسرة (تشو)، أهمية خاصة لدى كونفوشيوس، حث نظر إلى هذه الحقبة على أنها العصر

---

(١) (مه تس): ولد سنة ٤٦٨ ق. م تقريباً، وتوفي سنة ٣٧٦ ق. م تقريباً، مؤسس مذهب (مه تس)، فيلسوف وسياسي مخالف للكونفوشيوسية (المعجم المحيط الصيني ص ٢٠٦٩).

(٢) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية – د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ٥٧ – ٥٨ بتصرف.

الذهبي، وقد استشهد ببعض وثائقها بوصفها شواهد قديمة، وبذلك ضمت إلى الشريعة الكونفوشيوسية، وأدخلت كثير من عناصر ديانة "أسرة تشو" الملكية إلى العقيدة الكونفوشيوسية.

فقد أمدت توجيهات ملوك أسرة تشو، وترنيمات كهنتهم الدينية أثناء تأدية الطقوس ـ أمدت كونفوشيوس "بوثائق الماضي العتيق" كما أيَّدت أفكاره السياسية والدينية بسلطات قديمة، فأصبحت أفكار معينة من الديانة الملكية لأسرة (تشو) معتقدات دينية أساسية عند كونفوشيوس، وفي الدولة الكونفوشيوسية التي جاءت بعد ذلك.

ومن هذه الأفكار الأساسية فكرة "الموجود الأسمى" (تشانج ـ تي)، أو "الله في الأعالي"، وفكرة الملك الذي تقلِّده السماء نائباً أو مفوضاً عنها (تكليف السماء)، وفكرة أن السماء تسحب تفويضها من الأشرار، وتوافق على خلع الأسرة الحاكمة عندما تنضب فضائلها، وتبرر إحلال أسرة أخرى محلها بأنها "مقبولة من السماء". ولقد أدت مركزية الأسلاف من الملوك في مجتمع الآلهة الملكي، كما أدت عبادتهم وتقديم القرابين إليهم في الديانة الملكية إلى مركزية الأسلاف في الممارسات الدينية التالية، كذلك أصبح إجلال الأموات الأقوياء، والتضرع "للمانا" عندهم من أجل الإبقاء على حياة العشيرة جزءاً من العادات الاجتماعية للصينيين، كما أصبح ولاء الأبناء للأسرة أحدَ تعاليم كونفوشيوس المركزية، وقد أضفى كونفوشيوس الوازع الأخلاقي على الكثير من الممارسات الدينية المبكرة[1].

٥- تمسك كونفوشيوس بالتراث:

كان كونفوشيوس شديدَ التعلق بحب التراث الصيني القديم (كما مر معنا سابقاً)، وكان هذا التراث، المدون في الأسفار الخمسة القديمة، يمثل الموضوعات التي تدرّس داخل المدارس الحكومية آنذاك، والذي كان يمثل أيضاً مادة خصبة

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب – جفري بارندر – ت: د. إمام عبد الفتاح – ٣٠٨ و ٣١٣.

لكونفوشيوس يستخدمها بعد إعادة بنائها بوصفها موضوعات تعليمية.

وقد ذكر تمسكه بالتراث في كثير من أقواله؛ منها: (إنما أنا ناقل ولست مبدعاً، أنا شديد الإخلاص والولع بما هو قديم، من أجل هذا فأنا أغامر حينما أضع نفسي موضع مقارنة مع أجدادنا)، لقد جسَّد كونفوشيوس بشكل واضح موقفه تجاه التراث، كما سعى لجعل هذا التراث مادة مرنة يكيفها طبقاً لمتطلبات المجتمع، وبذلك جعل منه الإطار العام الذي يسترشد به[١].

كما وجَّه كونفوشيوس تلاميذه إلى ضرورة تعلُّم الفنون الستة التي يحويها التراث القديم، والتي ستؤهلهم للحصول على مرتبة أسمى داخل المجتمع؛ وهي: الطقوس، والموسيقى، والرماية، وسباق العربات، والتاريخ، والرياضة. وهو يرى أنها ـ جميعاً ـ من الموضوعات التي تُعدُّ ذاتَ قيمة عملية عظيمة في التربية.

وهذا يبين لنا مدى تمسك كونفوشيوس بالتراث الصيني القديم، وأثر هذا التراث في البدايات الأولى للكونفوشيوسية.

٦- ارتباط الفلسفة بالدين

الفلسفة في الصين لم تنفصل عن الدين، ولم تَنْأَ عنه، مع أن الدين كان قائماً على الإشراك، والفلسفة قائمة على الأخلاق القويمة، ومع ذلك تلاقيا، وسار التديُّن مع الفلسفة، وذلك أن الفلسفة الصينية قامت على تنظيم السلوك الإنساني، وإصلاح الأخلاق العملية، وهنا التقت بدينهم من ناحية ما يدعون إليه من حسن المعاملة بين الناس، فاتخذوا الأخلاق الفاضلة مذهباً في السلوك القويم، وديناً تدعو إليه الآلهة في زعمهم، فكان للأخلاق دعامتان:

١- الفلسفة والعقل والمنطق.

٢- أنها قامت على دينهم.

وبهذا تقاربت فلسفتهم ودينهم على إقامة بنيان قوي من الأخلاق، وسلوك

(١) فلسفة السياسة - د. هالة أبو الفتوح - ص ١٢٩.

الناس، وإن كان دينهم في عقائده وأسسه ليس شيئاً مذكوراً، ولا يمت إلى الحق والمنطق بنسب، ولا يتصل به بسبب. وقد كان المزج المحكم بين فلسفة خلقية قديمة ودين ليس له أصل قويم ومنطق مستقيم على أتم وضوح في الكونفوشيوسية وصاحبها كونفوشيوس(١).

٧- هل الكونفوشيوسية دين

بعد أن عرفنا كيف نشأت الكونفوشيوسية، وعرفنا أفكارها ومعتقداتها، هل نستطيع أن نقول: إنها دين، أم إنها منهج أخلاقي، أو أسلوب من أساليب الحياة كما يقول البعض؟

تعددت الآراء حول هذا الموضوع، ولعل أهمها ثلاثة؛ نذكرها إجمالاً لتتضح لنا نقطة الخلاف، ثم نخرج برأي محدد واضح حول هذه القضية. وهذه الآراء هي:

١- الرأي الأول: قالوا: إن الكونفوشيوسية مجرد فلسفة أخلاقية تدعو إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة، والتخلي عن رذائل الأخلاق، ولا توجد فيها العناصر الدينية الرئيسة الكافية التي تجعلها ديناً مستقلاً قائماً بنفسه، وذهب بعض أصحاب هذا الرأي إلى القول بأن كونفوشيوس لم يكن يؤمن بالإله السماوي، والملائكة، والأرواح إيماناً صادقاً جازماً، وأنه كان متناقضاً في نفسه حول العقيدة في "تيان"، فضلاً عن أن يقيم ديناً من الأديان. وأكثر القائلين بهذه النظرية هم العلماء الصينيون الملحدون، الذين اعتنقوا النظرية الماركسية المادية، والذين نشؤوا في جو فكري يشوبه الضغط والتشدد بعد الثورة الشيوعية في سنة ١٩٤٩م. ويبدو أن هذا النوع من الجو الفكري الخاص قد أثر على تفكيرهم، وبالأخص في فترة الثورة الثقافية، التي سعت للقضاء على ثقافة الصين القديمة، وأشهر القائلين بهذه النظرية في العالم هو الأستاذ (فون يو لان) الذي نال شهرته بمؤلفاته الكثيرة، وخصوصاً كتاب (التاريخ المختصر لفلسفة الصين) الذي طبع عام ١٩٤٨م.

---

(١) الديانات القديمة - محمد أبو زهرة - ص ٦٧- ٦٨ بتصرف.

٢- الرأي الثاني: قالوا: إن الكونفشيوسية تنقصها بعض العناصر الدينية المهمة؛ مثل: وجود الكتب الدينية المقدَّسة الخالصة، وطبقة من رجال الدين المختصين بإقامة الشعائر الدينية والطقوس والعبادات المنظمة، وطبقة العامة من الأتباع المتحمسين... إلخ. على الرغم من وجود بعض العناصر الدينية المهمة الأخرى؛ مثل: العقيدة في الإله السماوي الخالق "تيان"، والوحدة بين "تيان" والإنسان، وعبادة "تيان" عن طريق تقديم القرابين.. إلخ، ويقولون: إنها دين، لكنه ناقص وغير منظَّم، فكأنهم بذلك يذهبون إلى أن الكونفوشيوسية شبه دين، وليست ديناً كاملاً مستقلاً قائماً بنفسه.

وأكثر القائلين بهذا الرأي هم: العلماء الغربيون الباحثون في علم مقارنة الأديان، وقد قال أحدهم: "لا يمكن أن تُعرَّف الكونفوشيوسية المحدَثة بتعريفات تدل على أنها دين منظم ذو بنايات عضوية، فهي لا تملك رجال الدين الرسميين، والعامة من الأتباع، والنصوص الدينية المقدسة، أو الطقوس الدينية(١).

٣- الرأي الثالث: قالوا: إن الكونفوشيوسية دين مستقل قائم بنفسه، وهي دين أصيل للشعب الصيني منذ القدم، وهي تملك أهم العناصر الدينية؛ مثل العقيدة في الإله السماوي الخالق، والإيمان بالوحدة بين الإنسان و"تيان"، وتقديس النصوص الدينية المعينة، وهي كذلك تملك بعض الطقوس والشعائر الدينية؛ مثل: تقديم العاهل الصيني القرابين للإله السماوي سنوياً نيابة عن جميع الشعب الصيني، كشعيرة تعبدية، كما أنها تعظِّم الأنبياء الملوك الأقدمين، وكونفوشيوس نفسه، وغيره ممن جاء بعده، كانوا يقومون بزيارة قبورهم، وبناء المعابد عندها،.. وما إلى ذلك من الأدلة التي يستدلون بها على أن الكونفوشيوسية دين مستقل قائم بنفسه.

وأصحاب هذه الرأي يقولون: إن لكل دين خصائصَه التي يتميز بها عن غيره من الأديان، ولا يصح أن ننظر إلى كل دين بمعيار التعريف الغربي للدين،

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية - د. زهرة الدين طيب إدريس - ص ٩-١٠ بتصرف.

والكونفوشيوسية قد لا تملك بعض العناصر الدينية الموجودة في الأديان الأخرى، ولكن هذا لا يقدح في كون الكونفوشيوسية ديناً. وأكثر القائلين بهذا الرأي هم: العلماء الكونفوشيوسيون الذين يعيشون خارج الصين الشيوعية، في تايوان، وهونغ كونغ، وسنغافورة، وغيرها، وهم الذين اشتهروا بأصحاب الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة في القرن الماضي، وهم يروْن أنهم يحافظون على التراث الكونفوشيوسي، وأنهم الوارثون للأصالة الكونفوشيوسية والثقافة الصينية.

وأشهر العلماء المتمسكين بهذه الرأي هو: الأستاذ "مو زونغ سان"(١) الذي ذاع صيته بسبب مؤلفاته الكثيرة، وبالأخص كتابه الذي أسماه (الذات القلبية والذات الفطرية)، وقد طبع في ثلاثة مجلدات عام ١٩٦٨م. وقد دافع عن دينية الكونفوشيوسية في محاضرة مشهورة ألقاها تحت عنوان الكونفوشيوسية كدين(٢)، وقد طبعت هذه المحاضرة في كتاب "خصائص الفلسفة الصينية"، ومما قال: "إن المكانة التي تتمتع بها الكونفوشيوسية في الثقافة الصينية مثل المكانة التي تتمتع بها المسيحية في الثقافة الغربية، فالمسيحية هي عروق المبادئ العليا التي تحافظ على الثقافة الغربية، وعلى هذا المعنى نقول: إن دينية الكونفوشيوسية تحمل معاني بعيدة المدى"(٣).

ويمكن تلخيص رأي الأستاذ (مو زونغ سان) في دينية الكونفوشيوسية، والرد على الآراء المخالفة في نقاط، قال:

النقطة الأولى: كل ثقافة من ثقافات العالم لا تخلو من دين، كقوة باطنية محركة لتلك الثقافة، كما أننا لا نستطيع أن نفهم الثقافة الغربية من غير أن نفهم المسيحية؛ لأنها تلعب دور القوة الباطنية المحركة للثقافة الغربية، وكذلك

(١) سبق الكلام عنه في الفصل الثاني، الباب الثاني، من ضمن أبرز الشخصيات الكونفوشيوسية.

(٢) ألقاها في المعهد اللاهوتي بمدينة تاي نان في جزيرة تايوان.

(٣) تسع عشرة محاضرة حول الفلسفة الصينية – مو زونغ سان – المحاضرة الثامنة – مطبعة الكتب القديمة بشانغهاي – عام ١٩٩٧م – ص ١٤٨-١٤٩ – انظر كتاب المعرفة الكبرى ص ١١.

لا نستطيع أن نفهم الثقافة الصينية من غير الكونفوشيوسية، فهي كالقوة الباطنية المحركة للثقافة الصينية تلعب الدور نفسه الذي تلعبه المسيحية في الثقافة الغربية، فلا شك أنها دين مستقل كاستقلال المسيحية.

النقطة الثانية: إن الدين له وظيفتان أساسيتان في حياة الإنسان: وظيفة الشريعة، ووظيفة الطريقة، فالشريعة تقدم المراسم والطقوس، والعبادات الدينية، وقوانين السلوك والأخلاق، والمعاملات بين الناس. وأما الطريقة، فهي تقدم للإنسان هدفاً روحياً أسمى، وتأخذ بيده إلى الارتقاء الروحي، وتفتح أمام الإنسان سبيل الحياة الروحية. والكونفوشيوسية تملك هاتين الوظيفتين معاً.

النقطة الثالثة: إن الكونفوشيوسية تهتم بالأخلاق والمعاملات، والآداب والموسيقى، والثقافة والحياة الاجتماعية، وقد اشتملت الشريعة الكونفوشيوسية على هذه الأشياء كلها، وجعلت الحياة الروحية في داخل هيكل الشريعة، بخلاف المسيحية والبوذية، فهما قد جعلتا الحياة الروحية منفصلة عن الحياة الاجتماعية، فوضعتا نظاماً خاصاً من الطقوس والعبادات الدينية الفردية الملزمة لكل الأتباع.

النقطة الرابعة: تتمثل في طريقة الحياة الروحية الكونفوشيوسية في مفهوم الرحمة (رين) ومفهوم العلاقة بين الفطرة الإنسانية والطريقة السماوية؛ أي: الوحدة بين "تيان" والإنسان.

النقطة الخامسة: إن كثيراً من الناس يقولون: إن المسيحية قائمة على الإله، والكونفوشيوسية قائمة على الإنسان. وهذا ليس بصحيح؛ الحق أن الكونفوشيوسية قائمة على نظرية الوحدة بين "تيان" والإنسان، وهذه هي نقطة التركيز التي تؤكدها الكونفوشيوسية تأكيداً شديداً؛ فهي ترى أن مَنْ أخلص قلبه فسيعرف فطرته، ومن عرف فطرته عرف "تيان"، فهي لا تجعل الإله مركزاً كلياً لدينها مثل المسيحية، بل تجعل تركيزها على كيفية الوصول إلى الأخلاق السماوية بواسطة تكميل الأخلاق الفاضلة، وهذه الميزة الخاصة جعلت كثيراً من الناس يظنون أن الكونفوشيوسية لا تبالي بالإله، والحقيقة خلاف ذلك.

النقطة السادسة: إن فكرة الوحي موجودة في الكونفوشيوسية من قديم الزمان، ولكنها لم تركز عليها في كيانها الديني، بل تهتم بالفطرة الإنسانية الخيِّرة، والعمل بمقتضاها للوصول إلى الأخلاق السماوية، والدخول في الوحدة بينهما(١).

هذه أبرز النقاط التي أكَّدها الأستاذ (مو زونغ سان) في محاضرته، وليس بالضرورة أن نوافقه على كل ما قاله، ولكن الذي نريد أن نصل إليه هو أن الكونفوشيوسية ليست مجرد فلسفة أخلاقية كما يزعم البعض، بل هي دين مستقل قائم بنفسه له خصائصه التي تميزه عن غيره من الأديان.

كما أن أكثر علماء المسلمين في الصين، والذين لهم اهتمام بعلم مقارنة الأديان، يعدون الكونفوشيوسية ديناً من الأديان، وقد قام بعضهم بالمقارنة بينها وبين الأديان الأخرى، وقام البعض الآخر بدراسة بعض أفكارها ومناقشتها على ضوء عقيدتهم الإسلامية(٢).

والواقع أن الكونفوشيوسية هي الآن وفي السابق، دين من الأديان، فقد كان كونفوشيوس ذاته رجل دين، وقد تمثَّلت فيه جميع العقائد الصينية القديمة. وقد كان أتباعه ومريدوه رجال دين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، بل إن الكونفوشيوسية كلما تقدم بها الزمن أمعنت في التدين، ومهما يكن من الأمر، فإن الكونفوشيوسية ـ سواء أكانت فلسفة أم مذهباً خلقياً أم ديناً ـ فإنها قد أدّت جميع الوظائف التي يمكن أن يؤديها أي دين من الأديان الوضعية(٣).

وأحسب أن ما اشتملت عليه أبواب هذا الكتاب وفصوله، يدل دلالة واضحة على دينية الكونفوشيوسية.

(١) خصائص الفلسفة الصينية ـ الأستاذ مو زونغ سان ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الكتب القديمة بشانغهاي ـ عام ١٩٩٨م، ص ٩٣ ـ ١٠٦. انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية ـ د. زهرة الدين طيب إدريس ـ ص ١٧ ـ ١٩.

(٢) كما مر معنا سابقاً في الكلام عن نظرية المعرفة الكبرى لدى الكونفوشيوسية. وإن كانت هذه المحاولات قليلة جداً.

(٣) الحكماء الثلاثة ـ أحمد الشنتناوي ـ ص ١٠٩ بتصرف.

الفصل الخامس

حاضر الكونفوشيوسية

١- الكونفوشيوسية في العصر الحديث

بداية العودة

كان الصينيون يعتزون بأنفسهم، ويرون أنهم أهل العلم والتقدم والمدنيَّة، وأن غيرهم من الأمم "همج" أو "رعاع"، وأنهم هم وحدهم الذين لهم الأهمية على وجه الأرض، ولهذا كان اتصالهم بالعالم الخارجي اتصالاً بسيطاً في حدود الاعتراف باستعلاء الصين وسيادتها.

ولما ألحق بهم الإنجليز هزيمة ساحقة في حرب الأفيون (١٨٤٠ – ١٨٤٢م)، وانتشرت الامتيازات الأجنبية، وظهرت في الصين القوى الأجنبية، وأحسُّوا بالذلة والصَّغار أمام هؤلاء الأجانب عنهم، هذا الوضع، جعل المفكرين الصينيين يعيدون حساباتهم، ويفكرون في الأساس الذي قامت عليه حضارتهم، وأسباب هزيمتهم، وما هو المخرج مما وقع بهم؟

فظن البعض أن الأمر يرجع إلى أن التراث القديم قد غدا فاسداً، وأنه بحاجة إلى الإصلاح، وذهب آخرون إلى القول بأن التطلع إلى الماضي بحثاً عن حلول لمشكلات معاصرة هو في حد ذاته جذر المشكلة(١).

إذن أين يكمُن المخرَج من هذه الأزمة؟

حاول الصينيون أن يجيبوا على هذا التساؤل بثلاثة أساليب:

أ – فقد أصر البعض على أن الأنماط التقليدية الصينية للحياة والفكر أسمى من كل ما سواها، وأن الصينيين وجدوا أنفسهم في مشكلة، لا لأنهم كانوا محافظين تماماً، بل لأنهم لم يحافظوا على المُثُل العليا التقليدية؛ إذ لو أنهم حافظوا عليها لكانت الصين بالغة القوة، ولتخلصت من مشكلاتها.

---

(١) الفكر الشرقي القديم، جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٤٢٥.

ب – فريق آخر، مع إيمانهم بأن الثقافة الصينية تُعَدُّ أهم أساس لتطوير الصين، لكن كانوا يودون تعديلها كي تتمشى مع ظروف العالم الحديث، وأن يأخذوا بتلك الفنون الغربية التي ظهرت فائدتها.

ج – وفريق ثالث أصر على أن النمط التقليدي الكامل في الصين، للتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، لا يتمشى مع عالم اليوم، وأن كل أسلوب الحياة والفكر يجب أن يتبدل"(١).

ومع استمرار الحوار والجدال، بقي الحال هو الحال، وتكررت الهزيمة مرة أخرى أمام اليابان عام ١٨٩٥م، ووقَّعت الصين معاهدة سلام مع اليابان، وتكرر الاحتجاج، والتمرد والاعتراض، فقام "كانج - يو - وي" (١٨٥٨–١٩٢٧م) بتنظيم الشباب المثقفين من اثنتي عشرة مقاطعة للاحتجاج على معاهدة السلام مع اليابان، وأقنع الإمبراطور بالانهماك في الإصلاح بدلاً من التسليم بالمطالب اليابانية، ونجح في ذلك، وقام الإمبراطور بإصدار سلسلة من المراسيم التي تقضي بإجراء إصلاحات واسعة النطاق في العام ١٨٩٨م. إلا أن الإمبراطورة "دواجر" عارضت هذه الإصلاحات، ودفعت الإمبراطور إلى التخلي عنها بعد ثلاثة أشهر، وهرب "كانج" من الصين، ولما عاد في عام ١٩١٢م دعا إلى تبني الكونفوشيوسية ديانةً للدولة، وبعد ثلاث سنوات شارك في المحاولة الفاشلة لإعادة الإمبراطور المخلوع "هسوان– تونج"، وقد قضى حياته بأسرها في محاولة وضع المبادئ الكونفوشيوسية موضع التطبيق(٢).

(١) الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماو تسي – تونج – هـ. ج. كريل – ت: عبدالحليم سليم – ص ٣٤٣.

(٢) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٤٢٦.
انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٦٩ – ١٧٠.
والصين بعيون مصرية – د. محمد نعمان جلال – ص ٩٥.

٢- الكونفوشيوسية والثورة الصينية (١٩١١م)

عندما اندلعت الثورة الصينية عام ١٩١١م، جرت عدة محاولات لتحويل الكونفوشيوسية إلى دين رسمي للدولة. وفي هذا الإطار حاول بعض المفكرين الترويج لنظرية مؤداها أن الكونفوشيوسية لا تتعارض مع الحداثة والتقدم، ولكن مع تأسيس الجمهورية بعد هذه الثورة، منحت الدولة الحرية الدينية للجميع، وهكذا أخفقت محاولة جعل الكونفوشيوسية دين الدولة الرسمي.

ومن الحركات السياسية القوية آنذاك "الحزب الوطني" الذي كان ذا نظرة علمانية، لكن مبادئه عكست المُثُل الكونفوشيوسية؛ مثل إكرام الوالدين والطاعة والمحبة والسلام. وفي العام ١٩٣٤م أعلن الزعيم (تشيانغ كاي شيك) عن ولادة "حركة الحياة الجديدة". وحتى بعد تحول تشيانغ إلى النصرانية، ظلت العناصر الكونفوشيوسية قوية جداً في فكره، وأعلنت حركته أنها قائمة على أربعة مبادئ أساسية؛ هي: اللياقة، والعدالة، وسلامة الشخصية وتماسكها، والتواضع واحترام الذات.

وفي العام ١٩٣٧م أقامت الحكومة الصينية هيكلاً في (بكين) ليس مكرَّساً لدين معين، لكنه مكرَّس للفكرة القومية، ورفعت في أعلى مكان منه لوحة تحوي حكماً لكونفوشيوس، وتحتها تمثال رخام نصفي لمؤسس الصين الحديثة (صن يات سين)، كما وضعت لوحات تمثل "آباء الحضارة الحديثة"؛ مثل نيوتن، وباستور، وغاليليو، وجيمس واط، وبنجامين فرانكلين، ومعنى هذا أن نهضة الصين تقوم على المزاوجة بين العلوم الكلاسيكية القديمة والعلوم الغربية الحديثة[١].

كما عمل بعض المفكرين على سلب سلطان الكونفوشيوسية، ووجهوا لها الانتقادات. ومن أبرز هؤلاء الفيلسوف الليبرالي (هوشي) الذي أدخل المذهب البراجماتي في الصين، والفيلسوف (لي داجاو) (١٨٨٩ -١٩٢٧م)، الذي قاد

---

(١) انظر: الأديان الحية نشوؤها وتطورها - أديب صعب - ص ٩٣.

حملة مناهضة الكونفوشيوسية أثناء الحركة الثقافية الجديدة، والكاتب الكبير (لوشون) (١٨٨٠ - ١٩٣٦م) الذي حمل لواء التنوير والديمقراطية في الصين الجديدة[١].

وبشكل رسمي أصدرت الحكومة الوطنية سنة ١٩٢٨م قراراً يقضي بتحريم تقديم القرابين إلى كونفوشيوس، أو إقامة الطقوس له.

ومرة أخرى تأتي النكبة على بلاد الصين، فتستولي اليابان على منشوريا، ومرة أخرى تراجع الصين حساباتها، فتبحث عن رمز تستلهم منه وحدتها السياسية والثقافية، فاتجهت إلى كونفوشيوس، وذهب أعضاء الحزب السياسي الديمقراطي الوطني (الكومنتانج) وكبار الموظفين إلى قبر كونفوشيوس ومعبده لإقامة الطقوس الدينية، وأصلحت معابد كونفوشيوس في جهات الصين المختلفة، واستمرت هذه الحركة البعثية للتعاليم الكونفوشيوسية حتى بعد قيام الحرب العالمية الثانية، وحتى استطاعت الشيوعية أن تكتسح قوات الكومنتانج، وتسيطر على الصين نهائياً سنة ١٩٤٩م[٢].

٣- الكونفوشيوسية والشيوعية

كان اندحار القوات الوطنية أمام القوات الشيوعية اندحاراً للكونفوشيوسية؛ حيث تلقت نكسة عظيمة على أيدي الشيوعيين الذين لم يرق لهم دفاع كونفوشيوس عن الأنظمة الملكية والإقطاعية، وعن القيَم القديمة، وكان الزعيم الصيني (ماو تسي تونج)[٣] يكنُّ للكونفوشيوسية عداءً مستحكماً، وأخذ على

---

(١) التجربة الصينية - د. عبد العزيز حمدي - ص ٤٣ بتصرف.

(٢) كونفوشيوس، النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - ص ١٢٥ - ١٢٦ بتصرف.

(٣) ماو تسي تونج (١٨٩٣ - ١٩٧٦م): من رجال الدولة في الصين - ترأس الحزب الشيوعي، وقاد الثورة على النظام السابق حتى عام ١٩٤٩م، فأعلن جمهورية الصين الشعبية، وكان رئيسها ١٩٥٤ - ١٩٥٩، خالف السوفيت في نهجه الشيوعي، نادى بالثورة الثقافية. (المنجد في اللغة والإعلام، ص ٦٣١).

نفسه أن يحرر الصينيين من تأثيرها[١]. كما ظهر تيار معادٍ للكونفوشيوسية ومناهض لها، ومناصر للفكر الغربي. ومن أبرز أعضائه (فون يو لان) الأستاذ في جامعة بكين، والذي شارك، بعد إنشاء جمهورية الصين الشعبية، في الجهود الماوية للإصلاح السياسي والأيديولوجي، وأصبح مؤيداً متوهج الحماس لفكر "ماو تسي تونغ"، والناقد الصيني الرئيسي لكونفوشيوس خلال الحملة المناهضة لكونفوشيوس في أوائل السبعينات، وفي الوقت ذاته كان مستشاراً ثقافياً لزوجة ماو المعروفة باسم "شيانج شينج" وأصدقائها، وهي المجموعة التي عرفت فيما بعد باسم "عصابة الأربعة" وبعد موت "ماو" بوقت قصير عام ١٩٧٦م سقطت "شيانج" ومجموعتها من السلطة[٢].

وكان يعتقد البعض أن الكونفوشيوسية ستختفي عن المسرح السياسي والاجتماعي في الصين إلى الأبد، إلا أن الشيوعية في الواقع لم تقضِ بحال ما على الكونفوشيوسية، بل على العكس، فقد عملت الكونفوشيوسية على تغيير معالم الشيوعية، مما جعلها أبعد ما تكون عن الشيوعية الروسية، وذلك لما للكونفوشيوسية من سيطرة روحية على الشعب الصيني.

فالكونفوشيوسية - كما يقولون - هي بمثابة قوة روحية هاضمة؛ "أي تستطيع أن تهضم أية فلسفة وتحولها رويداً رويداً إلى صفها، بدلاً من الوقوف في وجهها"[٣]. فبالرغم من كل التغيير والتطور في المجتمعات الصينية بعد الثورة الشيوعية سنة ١٩٤٩م، وانتشار الفكر الماركسي، وإضافات "ماو تسي تونغ" عليه، ظل تأثير المعتقدات الكونفوشيوسية سائداً في الصين بأشكال ونسب مختلفة، رغم الثورة الثقافية التي قادها "ماو تسي تونغ" والحزب الشيوعي الصيني

(١) التجربة الصينية – د. عبد العزيز حمدي – ص ٤٣ – ٤٤ بتصرف.

(٢) الفكر الشرقي القديم – جون كولر – ت: كامل يوسف حسين – ص ٤٣٧ بتصرف.

انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٧٢.

(٣) كونفوشيوس النبي الصيني – د. حسن شحاتة سعفان – ص ١٢٨ بتصرف.

في الستينات من القرن العشرين، ضد الفكر الكونفوشيوسي والتقاليد القديمة السائدة.

ومع ذلك ظلت الصين تتمسك بالأيديولوجية الكونفوشوسية للحفاظ على التراث القومي الصيني، والطابع الفكري والسياسي للأمة الصينية، وحماية العادات الصينية من الاندثار والانهيار. وفي ظل التحولات والإصلاحات الأخيرة في الصين عادت الروح إلى تعاليم كونفوشيوس، حيث اتخذت الحكومة الصينية من تلك التعاليم درعاً واقياً لمكافحة الرذائل السبع، أو الرذائل الرأسمالية كما يعرِّفها الحزب الشيوعي الصيني؛ وهي: الرذيلة، والصور الإباحية، والقمار، والمخدرات، وخطف الأطفال والنساء، والاعتقاد بالخرافات الإقطاعية، والعصابات المعروفة باسم الثالوث.

كما عاد الفيلسوف الصيني القديم كونفوشيوس يحلِّق في سماء الصين بعد حوالي ألفي عام، ووصفه الرئيس الصيني "جيانغ تسي من" بأنه: "أعظم مفكر قديم في الصين، وأنه لابد وأن يستفيد الشعب الصيني من تعاليمه وعمق فلسفته، وهو بمثابة المصدر الذي من الممكن أن يستمد منه أشياء كثيرة"(١).

ولا تزال الكونفوشيوسية تمثل الأساس الرئيس للنظم الاجتماعية في فرموزا (الصين الوطنية)، وكما ذكرت سابقاً، فقد انتشرت في كوريا واليابان، حيث درّست في الجامعات اليابانية، وهي من الأسس الرئيسة التي تشكل الأخلاق في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقي في العصر الحديث.

كما أن المعتقدات الكونفوشيوسية موجودة في عقيدة أكثر الصينيين المعاصرين، وهي تشكل مرتكزات الحضارة الصينية، وهي دين مئات الملايين في الصين الذين يقاربون خُمس سكان المعمورة(٢).

---

(١) جريدة الأهرام المصرية الصادرة في ١٣/٧/١٩٩١م.
انظر: التجربة الصينية – د. عبد العزيز حمدي – ص ٤٤.

(٢) من قاموس الأديان (الشنتوية –الكونفوشية) – د. أسعد السحمراني – ص ٩٢ بتصرف.

٤- الكونفوشيوسية المحدثة المعاصرة

قام عدد من العلماء والمفكرين في بداية القرن العشرين بالدفاع عن الثقافة الصينية بصفة عامة، والكونفوشيوسية بصفة خاصة، والتي كادت أن تضمحل تحت وطأة التبشير، وانتشار الأفكار الغربية في الصين، كما حاولوا إحياء التراث الكونفوشيوسي في هذا العصر، ولعل أشهر هؤلاء العلماء هو الأستاذ (مو زونغ سان)[١].

وأهم مميزات هذه المرحلة:

١- التمسك بالأخلاق المشرقة.

٢- الدفاع عن دينية الكونفوشيوسية.

٣- تأكيد عقيدة الوحدة بين "تيان" والإنسان.

٤- ضرورة الرجوع إلى روح الكونفوشيوسية الأصلية المتمثلة في تعاليم الأنبياء الملوك الأقدمين، وبالأخص كونفوشيوس نفسه ومن بعده؛ مثل (تس سي) و(منشيوس) لإحياء الحياة العلمية، وتجديدها حتى تتمشى مع روح العصر. وقد نشأت الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة في خارج الصين، ولكنها نشطت داخل الصين منذ الثمانينات من القرن الماضي، وجذبت أنظار الكثير من الصينيين إليها.

وكان ظهور الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة ردةَ فعل لمعاناة الصينيين مدة قرنين، أو أكثر، من الاستعمار الغربي سياسياً وعسكرياً وفكرياً ودينياً، وقد شعر جماعة من علمائهم بخطر عظيم على ثقافة الصين وفلسفتها، فعزموا على إحيائها وتجديدها بما يقتضيه نظام العصر الحديث، الذي وجدوا أنفسهم يعيشون فيه، وحاولوا أن يبرهنوا على أن الحياة العلمية والفكرية والدينية لم تفقد حيويتها في الصين، خلافاً لما زعمه المستشرقون وتلاميذهم من أهل الصين الذين تبنوا آراءهم، وذهبت هذه الجماعة إلى أن ثقافة الصين وفلسفتها مازالت في التاريخ الصيني

---

(١) سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني.

الطويل، وهناك في الكونفوشيوسية من الروافد الثقافية والفلسفية والدينية الغنية ما يجعل الغرب يتعلم منها في عصرنا هذا والعصور المقبلة.

واشتهرت هذه الجماعة مع مرور الزمن بالكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة، تمييزاً لها عن الكونفوشيوسية المحدَثة في عهد أسرتي "سونغ" و"مينغ" الإمبراطوريتين، والكونفوشيوسية الأصلية في عهد كونفوشيوس ومنشيوس.

وقد برز من بينهم بعض الشخصيات المؤثرة، ومن أشهرهم الأستاذ (مو زونغ سان)، والأستاذ (تانغ جيونغ يي) وقد درس هذا الأخير رأي مدرسة الحقيقة ومدرسة القلب، ونقد موقفهما من كتاب المعرفة الكبرى ومن نظرية المعرفة الكبرى، وقدَّم رأيه الجديد وموقفه المجدد لنظرية المعرفة الكبرى، وقد تبنَّى الكثير من مفكري الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة رأي الأستاذ (تانغ جيونغ يي).

موقف الكونفوشيوسية المعاصرة من الأسفار والكتب القديمة

غيَّرت الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة موقفها تجاه الأسفار والكتب المقدسة لديهم، ويتمثل التغيير في نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى: أنها غيرت موقف الكونفوشيوسية المحدَثة التي تهتم بالكتب الأربعة، وجعلت اهتمامها الشديد للكتب الخمسة؛ وهي: كتاب الحوار، وكتاب منشيوس، وكتاب سنة التوسط، وكتاب التعليقات على سفر التغيرات؛ أي "يي جشوان"، وكتاب المعرفة الكبرى.

ونلحظ هنا أنها أضافت "سفر التغيرات"، الذي لم يكن موجوداً في قائمة الكتب الأربعة عند الكونفوشيوسية المحدَثة، إلى مجموعة الكتب التي تعظمها وتهتم بها في محاولتها لتجديد الكونفوشيوسية، قال الأستاذ (مو زونغ سان)، وهو يبين موقف الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة من الكتب الكونفوشيوسية القديمة:

"لذلك لابد لنا أن ننظر ما هي الأفكار الموجودة في كتاب الحوارات؛ لأن مذهب الكونفوشيوسية بدأ من كونفوشيوس، ثم جاء منشيوس بعد ذلك، وما

هي الأفكار الموجودة في كتاب منشيوس؟ وما هي المسائل؟ ثم ننظر ما هي الأفكار الموجودة في كتاب سنة التوسط، وكتاب التعليقات على سفر التغيرات، وكتاب المعرفة الكبرى........ فالكونفوشيوسية، وإن كنا ننظر إليها من حيث أصولها الأساسية وتعاليمها المحورية، فهي هذه الكتب الخمسة"(١).

النقطة الثانية: أنها قدمت كتاب الحوار، وكتاب منشيوس، وكتاب سنة التوسط، وكتاب التعليقات على سفر التغيرات - هذه الكتب الأربعة - على كتاب المعرفة الكبرى، هذا يعني أنها رفضت موقف الكونفوشيوسية المحدَثة التي أعطت الصدارة والرئاسة لكتاب المعرفة الكبرى، بل ذهبت إلى أن كتاب الحوار يجب أن يكون أولَ الكتب المقدسة وأهمها؛ لكونه أصحَّ كتاب نُسب إلى كونفوشيوس نفسه(٢).

وبهذا يتضح لنا موقف الكونفوشيوسية المعاصرة من الأسفار والكتب الكونفوشيوسية القديمة.

٥- التحديث الصيني انطلاقاً من الكونفوشيوسية

ويلحظ الآن أن الصينيين يعملون على إفساح الطريق أمام تفكير التحديث الصيني انطلاقاً من المبادئ الكونفوشيوسية، ورأوا أن الفكر الكونفوشيوسي لم يكن عقبة فكرية تعرقل سبيل التحديث، بل تعد القوة الدافعة لها أيضاً. ويسعى المجتمع الصيني الحديث، والمفكرون الصينيون في العصر الحاضر، إلى العودة إلى أصل الكونفوشيوسية ويرون أن طريق "الأخلاق والحكمة في داخل الإنسان والمنجزات في الخارج" الروح الحقيقية للفكر الكونفوشيوسي في العصر الحاضر، ويستمسكون دائماً بوجهة النظر القائلة "بالعودة إلى الأصل" في الثقافية الصينية.

---

(١) تسعة عشر محاضرة حول الفلسفة الصينية - مو زونغ سان - المحاضرة الرابعة - ص ٦٧.
عن: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية - د. زهرة الدين طيب إدريس - ص ١٩٠.

(٢) انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية - د. زهرة الدين طيب إدريس - ص ١٨٨- ١٩٠.

والتحديث هو تحديث الثقافة الصينية، وليس استخدام الثقافة الغربية لتحل محل الثقافة الصينية، ولا يرفضون الثقافة الغربية رفضاً كاملاً، ولكنهم ملتزمون بالثقافة الصينية التقليدية، ويستخدمون معيار قيم الثقافة الصينية التقليدية لمعرفة الثقافة الغربية والحكم عليها واختيارها، إنهم يدرسون "الغرب" من خلال "الصين"(١).

ومع صراع الفكر الكونفوشيوسي مع الفكر الغربي، أصرَّ الصينيون على بعث المذهب الكونفوشيوسي، وعدُّوه أنسب الفلسفات للصين في عالم حديث محب للحرية بوصفها فلسفةً ديناميكية للحياة، واستندوا إلى قول كونفوشيوس: "أولو الحزم والقوة وشدة المراس هم الأقرب إلى جين"، واستعادت الكونفوشيوسية مكانتها في العصر الحديث في الصين وخارجها(٢).

٦- الكونفوشيوسية والثقافة الغربية

ويرى الكونفوشيوسيون المعاصرون أنه يجب على المجتمع الغربي أن يتعلم من المجتمع الشرقي، وأن يستوعب التنوير المفيد في الثقافة الكونفوشيوسية للتغلب على التناقضات والأزمات المتعددة التي ظهرت في عملية تحديث المجتمع الغربي، وذكر الكونفوشيوسيون الجدد أن الأشياء التي يجب على الغربيين تعلمها من الثقافة الشرقية هي:

١- روح "الحاضر"، و"سعة الصدر والصبر".

٢- الحكمة الدقيقة والخارقة للطبيعة.

٣- المشاعر الرقيقة العاطفية، أو مشاعر الشفقة والآلام.

٤- استيعاب الحكمة التي تخلد الثقافة.

٥- مشاعر أن العالم هو أسرة واحدة.

---

(١) الصينيون المعاصرون – وو بن – ت: د. عبد العزيز حمدي – الجزء الأول – ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) فلسفة القرن العشرين – داجوبرت ود. رونز – ت: عثمان نوية – ص ٣٥٢ بتصرف.
انظر: الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس – عبد الرحيم شعبان – ص ١٨٦.

وهذه - حسب رأيهم - أبرز جوانب تفوق الثقافة الصينية على الثقافة الغربية. والحضارة الغربية في العصر الحديث "تتجه نحو التهدم يوماً بعد يوم"، ولا يوجد سوى دراسة حكمة الثقافة الصينية حتى تستطيع التغلب على المساوئ المتعددة أملاً في مستقبل الثقافة.

٧- الكونفوشيوسية والثقافة العالمية

ويقولون: إن الثقافة الكونفوشيوسية لا تتحمل مسؤولية الثقافة الصينية الحديثة فحسب، بل تتحمل مسؤولية الثقافة العالمية أيضاً. وكما أشار (وي جينغ تونغ) بصورة جادة إلى أنه حسب الاستنتاج النهائي للكونفوشيوسيين الجدد: "أن مستقبل الثقافة العالمية سيكون في (تعميم تيار العلم الكونفوشيوسي الثالث)، وفي عبارة أخرى أن ثقافة البشرية المستقبلية ستكون الفكر الكونفوشيوسي + الديمقراطية + العلوم"(١).

وفيما يبدو أن الكونفوشيوسيين الجدد يريدون تأسيس "المملكة السماوية الثقافية"، ويؤمنون إيماناً راسخاً بأن "الفكر الإنساني الذي على نمط المذهب الكونفوشيوسي إذا استطاع نقل الديمقراطية والعلوم الغربية أو التوافق معها واستيعابها، فإنه لا يستطيع إنقاذ التهدم الذاتي الغربي فحسب، بل يكفي ليصبح أسمى المبادئ لتقدم الحياة الثقافية أيضاً. بالإضافة إلى أنه يحدد اتجاهاً جديداً للبشرية"(٢).

ويعد "الكونفوشيوسيون الجدد" ظاهرة ثقافية خاصة، ولهم أسلوبهم الخاص في الاستجابة للتحديث في القرن العشرين، فذكروا أنهم يواجهون معارضة "٤ مايو"

(١) انتكاسة الكونفوشيوسية الحديثة وأحياؤها -وي جنغ تونغ- انظر: "الكونفوشيوسية الجديدة في العصر الحديث" مكتبة سان ليانغ، طبعة عام ١٩٨٩م، ص ١٣٣.

انظر: الصينيون المعاصرون - وو بن - ت: د. عبد العزيز حمدي - الجزء الأول - ص ٢٥٥.

(٢) وي جنيغ تونغ: "سيكولوجية الكونفوشيوسيين الجدد في العصر الحديث" انظر: "دراسة الكونفوشيوسية الحديثة" تحرير ليو إي ون، دار الشعب للنشر، شنغهاي، طبعة عام ١٩٨٩، ص ١٧١.

الكاملة للتقاليد، ويتقدمون باقتراح تقييم الثقافة الصينية التقليدية من جديد، وتذكير الناس بعدم نسيان تقاليدهم، إنهم يصرون على معارضة التغريب معارضةً شاملة، وربما يقيِّدون بقوة منظِّري "التغريب" في طريق التحديث الصيني، ويشجعون السير على درب دمج الثقافتين الصينية والغربية. وظل ذلك بمنزلة التفكير والاهتمام اللذيْن يتسمان بالقيم التنويرية للمهمة التاريخية في إعادة بناء الثقافة الصينية الحديثة والنهوض بها(١).

وعلى كل حال فالكونفوشيوسية الجديدة أو الحديثة تدعو إلى البعث الجديد للفكر الكونفوشيوسي، وتوارث الفكر الثقافي للكونفوشيوسية بوصفه الهدف الرئيس، وهذا يعني التوافق مع البيئة الجديدة، ويريد الكونفوشيوسيون الجدد جعل المنجزات الخارجية للعلوم وغيرها تتميز بالنبع الروحي الديني أو الأخلاقي، وهذا ما جعل المفكرين الصينيين يرون أن ما عانتْه الصين، أو ما تعانيه، إنما يرجع إلى تخلف المنهج الصيني، ولهذا يرى أصحاب الكونفوشيوسية الجديدة أنه يجب أولاً بعث العلم الكونفوشيوسي لحل المشكلات الجديدة(٢).

٨- الكونفوشيوسية المعاصرة (من وجهة نظر غربية)

يقول صامويل هنتجتون (مدير معهد "جون أولن للدراسات الاستراتيجية" بجامعة هارفارد الأمريكية): في بداية القرن العشرين كان المثقفون الصينيون بالتوازي مع "ويبر" يعتبرون الكونفوشيوسية مصدر التخلف الصيني. وفي أواخر القرن العشرين، القادة السياسيون، بالتوازي مع علماء الاجتماع الغربيين يحتفون بالكونفوشيوسية كمصدر للنهضة الصينية.

في الثمانينيات بدأت الحكومة الصينية تنمي الاهتمام بالكونفوشيوسية، وكان قادة الأحزاب يعلنون أنها "الاتجاه الرئيسي" للثقافة الصينية. كما تصبح

(١) الصينيون المعاصرون – وو بن – ت: د. عبد العزيز حمدي – الجزء الأول – ص ٢٥٨.

(٢) الإسلام والأديان في اليابان – د. سمير عبد الحميد – ص ٢٠١.

الكونفوشيوسية بالطبع مركز حماس "لي كوان يو" الذي اعتبرها مصدراً لنجاح سنغافورة، وأصبح مبشراً بقيمها في كل العالم.

في التسعينيات أعلنت الحكومة التايوانية نفسها "وريثة للفكر الكونفوشيوسي"، ويتحدث الرئيس "لي تنج هيو" عن تحول تايوان الديمقراطي "وموروثها الثقافي الصيني" الممتد بجذوره إلى "كاو ياو" (القرن الواحد والعشرون قبل الميلاد) والكونفوشيوسية (القرن الخامس بعد الميلاد)، و"منكيوس"[(١)] (القرن الثالث قبل الميلاد) وسواء كانوا يريدون تبرير السلطوية أو الديمقراطية، فإن القادة الصينيين يبحثون عن شرعية في ثقافتهم الصينية المشتركة، وليس في المفاهيم الغربية المستوردة"[(٢)].

ويواصل هنتجتون قوله: "في بداية التسعينيات ظهر الانتصار الآسيوي من جديد على نحو واضح فيما يمكن أن يوصف فقط بـ "الهجوم الثقافي السنغافوري". وابتداءً من "لي كوان يو" كان قادة سنغافورة يتكلمون بملء الفم عن صعود آسيا بالنسبة للغرب، ويقارنون بين قيم الثقافة الآسيوية التي هي كونفوشيوسية في الأساس، (النظام، الانضباط، مسؤولية الأسرة، العمل الجاد، الجماعية، الاعتدال) وقيم الغرب المتمثلة في الانغماس الذاتي، والكسل، والفردانية، والجريمة، والتعليم الهابط، وعدم احترام السلطة، و"التحجر العقلي"، وكلها مسؤولة عن انهياره. وكانت المحاجة هي: إذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تنافس الشرق "فعليها أن تعيد النظر، وبكل شك، في نُظُمها الاجتماعية والسياسية، وأثناء ذلك تحاول أن تتعلم شيئاً أو أكثر من المجتمعات الشرق آسيوية"[(٣)].

---

(١) منشيوس – سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني.

(٢) صدام الحضارات – صامويل هنتجتون – ترجمة: طلعت الشايب –ط٢ سطور–١٩٩٨م –ص ١٧٤– ١٧٥بتصرف.

(٣) المرجع السابق – ص ١٧٧ – ١٧٨ بتصرف.

نظرة هنتجتون إلى الإسلام والكونفوشيوسية

ومن المفارقات العجيبة أن صامويل هنتجتون ينظر إلى الكونفوشيوسية والإسلام، بوصفهما مصدرين يهددان الغرب والمصالح الغربية، وذكر أن هناك رابطة عسكرية (كونفوشيوسية - إسلامية) قد تشكلت، أو تتشكل، في الوقت الحاضر، تهدف إلى دعم حصولها على الأسلحة وتكنولوجيات الأسلحة المطلوبة لمواجهة القوة العسكرية للغرب، من جراء أن الدول الكونفوشيوسية والإسلامية ترفض الانضمام إلى الغرب، وتسعى لتنمية نفسها والتعاون مع البلدان غير الغربية لتتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية. ويرى هنتجتون أن النزاع بين الغرب وتلك الدول يتركز على الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية والصواريخ البالستية من أجل تحقيق هذا الهدف(١).

٩- من أبرز مظاهر العودة إلى الكونفوشيوسية:

١ - عقد مؤتمر دولي عن الدراسات الكونفوشيوسية

عقد في أكتوبر عام ١٩٨٩م في "تشي فو" بمقاطعة "شاندونج" موطن كونفوشيوس ومحل ميلاده مؤتمرٌ دوليٌّ عن الدراسات الكونفوشيوسية. وذلك في الذكرى [٢٥٤٠ لميلاده] حيث اجتمع أكثر من ٣٠٠ عالم ودارس من أكثر من ٢٥ دولة وإقليم وخمس قارات، لكي تحتفل وتناقش أفكار كونفوشيوس وكتاباته(٢).

٢ - نصب تماثيل لكونفوشيوس في أنحاء متفرقة من الصين

ومنها على سبيل المثال:

في التاسع عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م نصب تمثال برونزي لكونفوشيوس، ارتفاعه ٣٫٣م، ووزنه طن، في حديقة جامعة رنمين الصينية ببكين. وهذه أول مرة

---

(١) التجربة الصينية - د. عبد العزيز حمدي - ص ٤٤ - ٤٥ بتصرف.

وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر كتاب: "صدام الحضارات"، مرجع سابق.

(٢) الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس - عبد الرحيم شعبان - ص ١٦٧.

يقام تمثال لكونفوشيوس في حديقة جامعية في بكين. وقال "جي باو تشنغ" (رئيس الجامعة) في مراسم إزاحة الستار عن التمثال: "إن كونفوشيوس ليس مؤسس المذهب الكونفوشيوسي فقط، بل رمز للثقافة الصينية التقليدية. هذا العالم العظيم ينتمي للصين والعالم، ولأفكاره مغزى عميق قديماً وحديثاً". وكان هذا التمثال هدية من "تانغ ين جيا"، رئيس معهد هونغ كونغ للكونفوشيوسية، الذي ينهض بمهمة تعليم الفكر الكونفوشيوسي، وقد أهدى لبكين تمثالين برونزيين، الآخر ينتصب في "قوه تس جيان"(١).

كما نصب تمثال ضخم (لكونفوشيوس) في جامعة المعلمين في "تشي فو"، في ميدان كبير في مدخل الجامعة، وقد رأيت هذا التمثال أثناء زيارتي العلمية للصين، ووجدت مكتوباً في أسفله أنه إهداء من رئيس معهد هونغ كونغ (تانغ ين جيا) الذي أهدى التمثالين السابقين لبكين.

٣- إقامة منتدى بعنوان: دور وتأثير كونفوشيوس ومذهبه في تطوير الحضارة العالمية في القرن الحادي والعشرين

التقى حوالي مائة من الخبراء والعلماء والصناعيين من داخل الصين وخارجها في مدينة "شنتشن" للمشاركة في "منتدى دور وتأثير كونفوشيوس ومذهبه في تطوير الحضارة العالمية في القرن الحادي والعشرين، ومعرض الرسوم الصينية حول كونفوشيوس ومذهبه في عام ٢٠٠٠م، ومناقشة بناء جامعة كونفوشيوس الصينية.

وفي المنتدى اتفق الخبراء والعلماء والضيوف الأجانب على "أن مذهب كونفوشيوس وضع حجر الأساس لثقافة الأمة الصينية التقليدية، ولعب دوراً لا بديل له لرسم صورة الأمة الصينية في العالم، وتنمية روح الأمة الصينية المتوارثة جيلاً بعد جيل، فكان له أثر عميق بعيد المدى تجاوز العصر وحدود الدولة. وفي القرن الجديد مذهب كونفوشيوس له دور في تطوير المجتمع البشري".

---

(١) شبكة الصين/ ٢١ سبتمبر ٢٠٠١/ الموقع:

htm.33/arabic/16948.245.130.http://202

٤- التخطيط لبناء جامعة كونفوشيوس الصينية

في السنوات الأخيرة اقترح كثير من المهاجرين الصينيين بناء جامعة كونفوشيوس الصينية؛ بهدف إبراز الثقافة الصينية الرائعة، ودفع التبادلات الثقافية بين الصين والدول المختلفة. واستجابةً لأمنية المواطنين في الصين وخارجها قرر المشرفون على "منتدى دور وتأثير كونفوشيوس ومذهبه في تطوير الحضارة العالمية في القرن الحادي والعشرين، ومعرض الرسوم الصينية حول كونفوشيوس ومذهبه في عام ٢٠٠٠م ومناقشة بناء جامعة كونفوشيوس الصينية " . وهم:

- اتحاد المشروع الوطني الصيني.
- جمعية البحوث العالمية لمذهب كونفوشيوس.
- معهد البحوث المركزي للتربية والتعليم.
- معهد العلوم الاجتماعية التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية.

وقد قرروا جميعاً التعاون في بناء جامعة كونفوشيوس الصينية.

وهذه الجامعة ستكون خاضعةً للإدارة المحلية، وستقوم بإعداد الكفاءات والبحوث العليمة والخدمات الاجتماعية. والجامعة ستدعو مجموعة من الخبراء والعلماء المشهورين في الصين، وتنظم البحوث في الثقافة التقليدية الصينية التي يمثلها كونفوشيوس، وتدفع نشر هذه الثقافة داخل الصين وخارجها. وتتكون الجامعة من ١٦ معهداً؛ منها:

- معهد مذهب كونفوشيوس
- معهد التاريخ والثقافة
- معهد القانون
- معهد علم الحياة
- معهد الشؤون المالية.

وسيتولى نائب رئيس اللجنة الدائمة للمجلس الوطني لنواب الشعب، "شيوي

جيا لو" رئاسة الجامعة، وسيكون العالم المشهور "جي شيان لين" مستشاراً للجامعة(١).

٥- رفع القيود عن الكونفوشيوسية في إندونيسيا

في (يناير) عام ٢٠٠٠م أصدر الرئيس عبد الرحمن واحد مرسوماً يقضي برفع القيود المفروضة منذ عام ١٩٦٧م على ممارسة الكونفوشيوسية. ولأول مرة منذ ٣٠ عاماً، سُمح لأعضاء الطائفة الكونفوشيوسية، ومعظمهم من الإندونيسيين المرتبطين بالأقلية الصينية، بالاحتفال برأس السنة الصينية علناً، وبممارسة عاداتهم الدينية بشكل مفتوح(٢).

وقد أكد الرئيس الإندونيسي (سوسيلو بامبانغ) في عام ٢٠٠٥م أن حكومته تضمن حرية المواطنين الذين يؤمنون بالكونفوشيوسية، وقالت صحيفة "كومباس": إن سوسيلو أشار إلى أن أتباع الكونفوشيوسية، في أكبر البلدان الإسلامية سكاناً، يتوجب عليهم عدم التردد في الحفاظ على معتقداتهم؛ لأن دستور عام ١٩٤٥م يضمن حريتهم. وذكر (سوسيلو) خلال الاحتفال الوطني برأس السنة الصينية الجديدة أنه "لا تستطيع الدولة، ولا ينبغي لها التدخل في فلسفة دين ما، وتتمثل المهمة الرئيسية للدولة في ضمان حماية الجماعات الدينية وتوفير البنى الأساسية لها". كما أضاف الرئيس أن "الكونفوشيوسية تشجع أتباعها أيضاً على التمسك بالقيم الأخلاقية"(٣).

---

(١) صحيفة الشعب اليومية- الصين/٢٨ نوفمبر ٢٠٠٠م
htm.cn/arabic/3432.com.china.http://www

(٢) إشادات أمريكية بحريات المسيحيين الدينية في الدول الإسلامية - شبكة إسلام أون لاين.نت
http://www.islam-online.net/iol-arabic/dowalia/alhadath2000-sept-15/alhadath12.asp

(٣) شينخوا نت - ١٤ / ٢ / ٢٠٠٥م
http://www.arabic.xinhuanet.com/arabic/2005-02/14/content_79357.htm

٦- إقامة يوم كونفوشيوس في الولايات المتحدة

وافق مجلس النواب لولاية كاليفورنيا الأمريكية في عام ٢٠٠١م على اختيار يوم ٢٨ سبتمبر، وهو يوم ميلاد كونفوشيوس، يوماً لكونفوشيوس، إحياءً لذكرى هذا المعلم والمفكر الصيني الكبير في فترة الربيع والخريف (٧٧٠ ق م - ٧٤٦ ق م) ومساهماته العظيمة في قضية التعليم البشرية.

وذكر عضو مجلس النواب [صاحب الاقتراح] أن الثقافة الصينية العريقة المشرقة تثري تنوع مضمون الثقافة الأمريكية إلى حد كبير، وأن أفكار كونفوشيوس التعليمية من الكنوز النفيسة للثقافة العالمية وأن هذا النشاط لإحياء الذكرى يدل على دعم الولاية للتعليم واحترامها للثقافة الصينية التقليدية، علماً بأنها مركز تجمع لكثير من المواطنين من أصول آسيوية متأثرين بالكونفوشيوسية(١).

٧- إقامة المراكز والمعاهد والكليات الكونفوشيوسية في الصين وأنحاء متفرقة من العالم

وقد بدا من الملحوظ التوسع في إقامة مراكز ومعاهد وكليات للدراسات الكونفوشيوسية في أنحاء متفرقة... ومنها على سبيل المثال:

١- مركز الدراسات الكونفوشيوسية في جامعة المعلمين في (تشي فو) مسقط رأس كونفوشيوس، أول مركز تم تأسيسه، ثم انتشرت بعد ذلك مراكز متعددة في عدد كبير من الجامعات، وفي هذا المركز قسمان: أحدهما يُعنى بدراسة تاريخ الكونفوشيوسية (الكتب الأصلية، والعصر القديم). والآخر يُعنى بدراسة الأفكار الكونفوشيوسية وأهميتها في الوقت الحاضر. وبه عدد كبير من الأعضاء، وهم من الأساتذة المتخصصين في هذا المجال، ويتم اختيارهم من قبل لجنة متخصصة في الجامعة.

---

(١) شبكة الصين/ ١٣ سبتمبر ٢٠٠١

http://202.130.245.33/arabic/16513.htm

وفي لقاء جمعني بمدير المركز ونائبه أخبراني أن المركز ـ ومنذ عشر سنوات ـ يخرِّج كل سنة مائة وخمسين مؤلفاً حول الكونفوشيوسية، كما أن له جهوداً ومشاركاتٍ داخل الصين وخارجها، ومع المراكز الأخرى في الجامعات وغيرها، في بكين، وشنخوا، وشاندونغ... وغيرها، وفي كوريا الجنوبية، واليابان، وماليزيا، ودول أخرى...[١].

٢- معهد هونغ كونغ للكونفوشيوسية الذي ينهض بمهمة تعليم الفكر الكونفوشيوسي منذ زمن طويل، ورئيس هذا المعهد هو (تانغ ين جيا)، الذي أهدى لبكين تمثالين برونزيين لكونفوشيوس، كما أهدى تمثالاً ضخماً لجامعة المعلمين في تشي فو، كما مر معنا سابقاً.

٣- معهد كونفوشيوس في سيول عاصمة كوريا الجنوبية، والذي أسس في نوفمبر عام ٢٠٠٤ م.

٤- معهد كونفوشيوس في العاصمة السويدية ستوكهولم، أسس في فبراير ٢٠٠٥م.

٥- معهد كونفوشيوس في مدينة بوتييه في فرنسا، وقد أسس في يونيو ٢٠٠٥م.

٦- معهد كونفوشيوس في ألمانيا، فقد أسس في ٢٧ أبريل ٢٠٠٦ م في جامعة برلين الحرة أول معهد كونفوشيوسي برعاية جامعتي بكين وبرلين الحرة، وأعرب السيد(ما تسان رونغ)، السفير الصيني لدى ألمانيا، عن أمله في أن يلعب المعهد دوراً فعالاً في إثراء وتبادل اللغتين والثقافتين الصينية والألمانية، وإشباع رغبة الشعب الألماني في معرفة اللغة والثقافة الصينية، وتعزيز التفاهم والثقة المتبادلة بين شعبي البلدين، والإسهام في التبادل الثقافي وتطوير العلاقات الودية بينهما.

(١) كما يوجد في "تشي فو" أيضاً مركز كونفوشيوس الحضاري، ومعبد كونفوشيوس، وقصور أبناء كونفوشيوس، ومقبرة أسرة كونفوشيوس التي بها قبره، كما وضع تمثال كبير لكونفوشيوس وسط الساحة الرئيسة لجامعة المعلمين. وكل هذه المعالم تحظى باهتمام حكومي وشعبي كما لحظنا.

وقال رئيس جامعة برلين الحرة (ديتير لينزين) : إن تأسيس المعهد له مغزى مهم للتبادل والتعاون الثقافي بين ألمانيا والصين، معرباً عن أمله في زيادة معارف الشعب الألماني بالثقافة الصينية.

من جانبه، قال رئيس جامعة بكين (شيو تشي هونغ) : إن الثقافة الكونفوشيوسية لا تنتمي إلى الصين فحسب، بل إنها تراث عالمي مشترك، معرباً عن أمله في أن يلعب هذا المعهد دوراً في تعزيز الدراسة الكونفوشيوسية في العالم(١).

كما يسعى مكتب فرقة القيادة لتعليم اللغة الصينية الموجَّه إلى الخارج، والذي أُسِّس في عام ١٩٨٧م، لإنشاء مائة معهد مثل معهد كونفوشيوس في أنحاء العالم(٢).

٧- مؤتمر المعاهد الكونفوشيوسية

قد انعقد مؤتمر المعاهد الكونفوشيوسية يوم الخميس (٦ يوليو ٢٠٠٦م) ببكين، حيث تعهدت الحكومة الصينية ببذل كل ما في وسعها من أجل دعم أعمال هذه المعاهد، وتقديم تسهيلات للأجانب الذين يدرسون اللغة الصينية خارج الصين.

وجدير بالذكر أن الصين قامت بإنشاء مراكز لنشر اللغة الصينية في الخارج في عام ٢٠٠٢م، وتحولت هذه المراكز فيما بعد إلى المعاهد الكونفوشيوسية المختلفة، والتي بلغ عددها حالياً ٨٠ معهداً، موزعة في ٣٦ دولة ومنطقة.

وقالت تشين تشي لي "عضو مجلس الدولة الصيني" خلال المؤتمر: "إن المعاهد الكونفوشيوسية ظلت تدعو إلى التعاون في التعليم، وتحترم التقاليد المحلية، وأنها قد أصبحت أماكنَ مهمة لدراسة اللغة الصينية بالنسبة للدارسين الأجانب خارج الصين"(٣).

---

(١) http://ar.chinabroadcast.cn/189/2006/04/28/82@55054.htm.

(٢) موقع شنخوا نت على شبكة الإنترنت ١١ مارس ٢٠٠٥م.

(٣) الحكومة الصينية تتعهد بمواصلة دعم تطور المعاهد الكونفوشية - ٦ / ٧ / ٢٠٠٦ م
http://ar.chinabroadcast.cn/189/2006/07/06/84@58642.htm

٨- كليات كونفوشيوس

كما قامت الصين بتأسيس كليات كونفوشيوس التي تهدف إلى نشر اللغة الصينية والثقافة الصينية، حيث أسست عشرات الكليات في أمريكا وأوروبا وأفريقيا، وقد جاء ذلك بعد تأسيس أول كلية كونفوشيوسية في كوريا الجنوبية عام ٢٠٠٤م. كما أسست كلية كونفوشيوس بجامعة نيروبي في كينيا، وهي الكلية الأولى والوحيدة التي أقامتها الصين في أفريقيا، وتم تأسيسها بالتعاون بين جامعتي تيانجين للمعلمين (الصينية) ونيروبي (الكينية)، وقد بدأت الدراسة في ١٩ ديسمبر ٢٠٠٥م، تقول (سونغ لي شيان) نائبة عميد كلية كونفوشيوس: "بالإضافة إلى دروس اللغة الصينية، فتحنا أيضاً دروساً للثقافة الصينية؛ لأننا نعلم أن اللغة لا تنفصل عن الثقافة، لذلك أقمنا نشاطات كثيرة للتعريف بالثقافة الصينية منذ بدء الفصل الدراسي" . ومن أجل تعزيز التبادل الثقافي فإن جامعة تيانجين للمعلمين تقدم سنوياً منحة دراسية لعشرة طلاب من كلية كونفوشيوس في نيروبي للحضور إلى الصين لمواصلة الدراسة. كما قام الرئيس الصيني (هو جين تاو) باستقبال مجموعة من طلاب كلية كونفوشيوس التابعة لجامعة نيروبي، وذلك عندما زار كينيا في (٢٧ - ٢٩) إبريل عام ٢٠٠٦م[١].

الاحتفال بعيد ميلاد كونفوشيوس كل عام

تشهد الصين هذه الأيام عودة للكونفوشيوسية، وذلك على المستوى الحكومي والشعبي، ولا أدَلَّ على ذلك من الاهتمام البالغ بإقامة عيد ميلاد كونفوشيوس كل عام، وقد جعلوا يوم ميلاده ـ وهو السابع والعشرون من أغسطس ـ عيداً قومياً، يحجون فيه إلى مسقط رأسه، برعاية الحكومة (وينوب عنها موظف كبير في حفل الصلاة)، وحضور أتباع الكونفوشيوسية من أرجاء الصين والدول الأخرى، حيث

---

(١) زيارة لكلية كونفوشيوس التابعة لجامعة نيروبي

htm.cn/189/2006/04/27/83@54977.chinabroadcast.http://ar

يقام احتفال كبير في معبد كونفوشيوس في (تشي فو) مسقط رأس كونفوشيوس، وتقدم القرابين من الأبقار والأغنام والخنازير، وتذبح في مكان مخصص في المعبد، كما يقومون بزيارة قبر كونفوشيوس، والتعبد عنده، ووضع الورود... إلى غير ذلك من الطقوس، كما تتم الاحتفالات بهذه المناسبة في المعابد والمراكز والمعاهد الكونفوشيوسية في أنحاء متفرقة من العالم.

٩- العودة إلى الاهتمام بالمعابد الكونفوشيوسية داخل الصين

وقد لحظت ذلك في معابد متعددة في الصين؛ ومنها: معبد كونفوشيوس في "تشي فو"، ومعبد بكين، حيث يتعبد الكونفوشيوسيون في هذه المعابد، وتقدم الهدايا والقرابين، وتقام الاحتفالات، خلاف ما كان عليه الوضع في السابق، بل يلحظ الاهتمام والعناية بهذه المعابد من قبل الجهات المعنية، بالمباني والتجهيزات والموظفين، وفتح أبوابها للزوار والسياح من كل أنحاء العالم.

١٠- كثرة المعابد الكونفوشيوسية وانتشارها خارج الصين

يلحظ انتشار المعابد الكونفوشيوسية خارج الصين في أغلب دول شرق آسيا، بل وبعض دول أوربا، وأمريكا. ومن هذه المعابد:

١- معابد الكونفوشيوسية في اليابان.

٢- معابد الكونفوشيوسية في كوريا.

٣- معبد كونفوشيوس في تايوان.

٤- معبد كونفوشيوس في فيتنام.

٥- معبد كونفوشيوس في ألمانيا.

٦- معبد كونفوشيوس في أمريكا.

هذه بعض أشهر معابد الكونفوشيوسية في بعض الدول، وهناك غيرها الكثير، وخصوصاً في الدول التي فيها عدد كبير من الجالية الصينية من أتباع الكونفوشيوسية.

١١- الاهتمام بالآثار الكونفوشيوسية في (تشي فو) مسقط رأس كونفوشيوس ومنها:

١- معبد كونفوشيوس

يقع معبد كونفوشيوس في قلب مدينة "تشي فو"، وهو مجموعة كبيرة من المباني ذات الطراز الشرقي، ويعدُّ هو والقصر الإمبراطوري ببكين والمصيف الإمبراطوري بتشنغده في مقاطعة "خبي" "أكبر البنايات الصينية القديمة".

بُدئ ببناء هذا المعبد في السنة التالية من وفاة كونفوشيوس؛ أي: عام ٤٧٨ قبل الميلاد. وكان الأباطرة في مختلف العصور يقدمون الولاء والطاعة لكونفوشيوس فيه، وكان في أيامه الأولى صغيرَ الحجم، مكوناً من ثلاث غرف فقط. وحتى عهد الإمبراطور (وو دي) من أسرة "هان" (٢٠٦ ق م - ٢٢٠ م)، والذي كان يدعو إلى إلغاء جميع المذاهب الفكرية، وتكريم المذهب الكونفوشي وحده، وجدير بالذكر أن الإمبراطور "تشيان لونغ" من أسرة تشينغ (١٦٤٤-١٩١١)، ذهب إلى موطن كونفوشيوس ثماني مرات "للحج".

وقد اتسع حجم المعبد على مر الأيام؛ فخلال عهد أسرتي "مينغ" و"تشينغ" (١٣٦٨-١٦٤٤) أُجريت عمليات إعادة بناء وتوسيع للمعبد؛ لتصبح معالمه كما هي اليوم، على هيئة القصور الإمبراطورية، قائمة في تسعة أفنية، في كل فناء دار، وعلى خط محوري من الجنوب إلى الشمال. وفي المعبد ٤٦٦ غرفة، منها القاعة الكبيرة والقاعة الصغيرة والمقصورة ومذبح القرابين والصالون، و٥٤ قوس نصر، وتغطي كلها مساحة ٢١٨ ألف متر مربع. يحاط المعبد بجدران حمراء اللون، تتوسطها أقواس النصر وأبراج الزاوية. ويشتهر المعبد بكثرة التحف الأثرية المحفوظة فيه؛ ففيه ٢١٠٠ قطعة من الألواح الحجرية المنحوت عليها الكثير من العبارات، تاريخها قديم، تبدو وكأنها لوحة رُسم عليها تاريخ الصين، وهي معرض لفن الخطوط وفن النقش على الحجر.

ويلحظ الاهتمام الحكومي والشعبي بهذا المعبد، ويتردد عليه الأعداد الكثيرة من الناس؛ ما بين متعبِّد وسائح ومعجَب بفكر كونفوشيوس وشخصيته.

٢- غابات آل كونفوشيوس

تبعد غابات آل كونفوشيوس كيلومتراً واحداً إلى شمال مدينة "تشي فو".

وهي مقابر خاصة لكونفوشيوس وموتى أسرته من بعده، وهي أطول المقابر العائلية في الصين عمراً، وأوسعها مساحة، وأكملها تشكيلة.

وقد تكرر إعادة بناء هذه المقابر في عصور مختلفة. كما اتسعت مساحتها، حتى غطت كيلومترين مربعين في عهد أسرة "تشينغ". يحيط بالغابات جدران يبلغ ارتفاعها ٣,٤ م وطولها ٧,٥ كلم، وفيها العديد من الحدائق الكبيرة والبنايات القديمة.

يمكن القول: إن غابات آل كونفوشيوس حديقة اصطناعية واسعة. وفيها تنمو ١٠٠ ألف شجرة كبيرة، ٢٠ ألفاً منها تجاوز عمرها ألف سنة. تتناثر بين أشجار الغابات القديمة أنصاب حجرية شُيِّدت في الفترة من عهد أسرة "سونغ" الشمالية (٩٦٠-١١٢٧م) إلى عهد أسرة "تشينغ" (١٦٤٤-١٩١١م)، منها الكبير والصغير.

وتحظى هذه الغابات بالعناية اللازمة هذه الأيام وتعد من المعالم البارزة في مدينة "تشي فو"[١]، وقد رأيت الأعداد الكثيرة من الناس يترددون عليها؛ ومنهم من يركع ويجثو على ركبتيه عند قبر كونفوشيوس وقبور بعض أحفاده، ويضعون الورود عندها.

٣- قصور آل كونفوشيوس

قصور آل كونفوشيوس هي بيوت سكنها أحفاد كونفوشيوس جيلاً بعد جيل. ومنذ عهد أسرة "هان" (٢٠٦ ق م - ٢٢٠ م)، نال أحفاده ألقاباً تشريفية شتى

---

(١) في عام ١٩٩٤م ادرجت اليونسكو معبد كونفوشيوس ومقر أسرة كنفوشيوس ومقابر أسرة كونفوشيوس ضمن التراث التاريخي والثقافي العالمي.

من قِبَل الأباطرة؛ منها لقب "يان شنغ قونغ" (أبناء الأستاذ الأعظم الحكيم)، وتحتل بيوتهم اليوم مساحة ١٦٠ ألف متر مربع، وطولها من الشمال إلى الجنوب ٢ كم، وتحتوي على ٤٦٣ غرفة من البنايات بأنواعها المختلفة.

وتقع قصور آل كونفوشيوس شرق معبد كونفوشيوس، وهي مجموعة من البنايات الضخمة، تجمع الديوان الإداري الإقطاعي والمساكن العائلية في كيان واحد. وتتكون من ثلاثة أقسام: في القسم الشرقي معامل شتى تخدم أفراد آل كونفوشيوس، والقسم الغربي خاص لتعليم الطقوس، واستقبال كبار الضيوف. أما القسم الأوسط؛ فهو رئيس يضم قطاعين: أمامي لمعالجة الشؤون السياسية، وخلفي للسكن. والأثاث والزخارف والتراث فيها فاخر، والنفائس من التراث الموجودة في القصور بعضها إهداء من الأباطرة وكبار الموظفين، وبعضها الآخر شُري بالأثمان الباهظة، وكلها ذات أهمية بالغة في دراسة تاريخ الصين وثقافته القديمة(١).

ولا تزال هذه القصور من المعالم البارزة في "تشي فو" وتحظى بالاهتمام والعناية.

٤- معبد كونفوشيوس في المكان الذي ولد فيه

يبعد عن "تشي فو" ٣٠ كم تقريباً، في سفح جبل تحيط به الأشجار من كل جهة. وقد أقيم في مكان البيت الذي ولدته أمه قريباً منه، ويأتي أعداد من الزوار لهذا المعبد، ويعدُّ من الأماكن المقدسة لدى الكونفوشيوسية، وفي أسفل الجبل الذي يقع في سفحه المعبد لوحة من الرخام تشير إلى كهف قريب منها بأنه المكان الذي ولد فيه كونفوشيوس، وهناك بحيرة من المياه أسموها (البحيرة المقدسة)؛ وذلك لوجودها بجوار المكان الذي ولد فيه كونفوشيوس.

ويحظى هذا الموقع بكل ما فيه باهتمام بالغ، ويعدُّونه من المواقع المهمة دينياً وسياحياً.

---

(١) شبكة الصين http://www.china.org.cn/arabic/136.htm

١١- إقامة دورات علمية في فكر كونفوشيوس للأجانب.

في لقاء أجريته مع السيد (جو)، وهو متخصص في إقامة دورات علمية في فكر كونفوشيوس(١)، أخبرني أن لديهم مركزاً متخصصاً في إقامة دورات لغير الصينيين حول " فكر وحياة كونفوشيوس، وكيف يمكن الاستفادة منها"؛ وذلك لمدة أسبوعين على الأقل، وقد استفاد من هذه الدورات أعداد كثيرة من غير الصينيين، والذين يسجلون في هذه الدورات كل عام.

١٢- كثرة المواقع على شبكة الإنترنت.

ومما هو ملفت للنظر ما أخبرني به السيد (جو) أن هناك أكثر من ألف موقع على شبكة الإنترنت عن كونفوشيوس والكونفوشيوسية، والقائمون على هذه المواقع من داخل الصين وخارجها، كما أن لهم جهوداً في المراسلة عبر الشبكة لمن يريد التعرف إلى حياة وفكر كونفوشيوس.

ومما سبق وغيره يتضح لنا العودة لهذه الديانة والعناية بها من قبل كثير من أهل الصين، كما يلحظ إفساح المجال أمامها والحرص على نشرها في الصين وأنحاء متفرقة من العالم.

١٠- موقف أهل الصين من الكونفوشيوسية في الوقت الحاضر

من خلال زيارتي للصين للاطلاع على واقع الكونفوشيوسية في الوقت الحاضر، رأيت بعض الأمور في هذا الجانب؛ ومنها:

١- الكونفوشيوسيون المتمسكون بديانتهم، ورأيتهم يسجدون ويركعون

---

(١) كان اللقاء في معبد كونفوشيوس في مكان ولادته، وكان على رأس وفد جاؤوا لزيارة المعبد ورؤية المكان الذي ولد فيه كونفوشيوس، يوم الأحد ١٤/ ٢ / ١٤٢٥ هـ.
وقد لمست من كلامه تعصُّبه للكونفوشيوسية، حتى إنه سألني عن عدد المهتمين بالكونفوشيوسية في السعودية، وهل يمكن بناء معبد للكونفوشيوسية، فأخبرته أن الله قد أنعم علينا بنعمة الإسلام، كما أنعم علينا بحكام صالحين، اتخذوا من الإسلام دستوراً ومنهج حياة، فلا مجال للكونفوشيوسية ولا لغيرها في بلاد الحرمين.

لكونفوشيوس في المعبد وأمام تمثاله في أي مكان، ويقدمون القرابين، ويذهبون للزيارة والتعبُّد عند قبره، ويطبقون التعاليم الكونفوشيوسية في جميع أمور حياتهم[١].

٢- من يذهب للمعابد الكونفوشيوسية ويمارس الطقوس في المناسبات؛ مثل: عيد ميلاد كونفوشيوس، وقت اختبارات الطلاب[٢] أيام الأعياد المختلفة، أو أي مناسبات أخرى.

٣- من يحترم كونفوشيوس ويقدّره، على أنه حكيم ومعلم ومربٍّ على الأخلاق الفاضلة، دون عبادة أو ذهاب للمعابد، وقد قابلت عدداً من الأكاديميين، والمعلمين، والشخصيات، كلهم على هذا الحال حتى من كان من أتباع الديانات الأخرى؛ مثل: الطاوية والبوذية، ويمكن القول: إن جميع أهل الصين ـ على اختلاف مللهم ونِحَلِهم ـ يقدِّرون كونفوشيوس ويحترمونه، حتى المسلمين منهم، عدا من تعلق منهم بالأفكار الغربية، فأثرت على فكره، فتعلق بها دون تمحيص أو تدقيق، ليس لشيء ولكن لما تملكه من مقومات مادية[٣].

٤- وهناك لا دينيين، وهم كُثْر، ويعيشون خواءً روحياً عجيباً، حياتهم مادية دنيوية فحسب، لا يتطلعون لما عند الله، ولا يعرفون الطريق إلى الله... لذلك هم بحاجة ماسة لمن يدعوهم للإسلام بجميع وسائل الدعوة، وقد أحسست بتقصيرنا نحن المسلمين في دعوة أهل الصين للإسلام؛ لأني وجدتهم يميلون كثيراً إلى أهل الإسلام، بل ويحترمون آراءهم وتصرفاتهم في أغلب الأحيان.

(١) وقد رأيت عدداً منهم وتحدثت إلى بعضهم، في معابد الكونفوشيوسية في بكين، وتشي فو، وتيانجين.

(٢) (يقدمون بعض ما يستطيعون من نقود وفواكه وخمور... إلخ، حتى يتمكنوا من اجتياز الاختبار). وقد سألت أحد الأساتذة في جامعة الشعب في بكين عن سبب ذهاب الطلاب لمعابد كونفوشيوس قبل الاختبارات، فقال: (حتى يوفقهم في اختباراتهم)، وما علموا أنه بشر لا يقدم ولا يؤخر، وأن الموفق هو الله جل في علاه. وفي معبد كونفوشيوس في تيانجين أخبروني أن أكبر عدد يزور المعبد هم الطلاب قبل موسم الاختبارات.

(٣) ولا ننسى الهجمة الغربية على حضارة الصين، والتقليل من شأنها، والجهود الكبيرة لنشر النصرانية في الصين.

٥- وهناك المتعطشون للتديُّن والتعبد، ولم يعرفوا الدين الصحيح، فراحوا يجمعون الأصنام في بيوتهم، ويتعبدون عندها في الصباح والمساء بإلقاء التحية ووضع البخور... إلى غير ذلك، كما يذهبون لمعابد الديانات المختلفة، فيتعبدون فيها لإشباع رغبتهم في التعبد على غير هدى. وقد قابلت أحدهم في معبد كونفوشيوس في بكين، ومعه عدد من الرجال والنساء (يركعون ويسجدون في المعبد) فأخبرني أنهم يذهبون للمعابد الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية... وغيرها للتعبد، كما أخبرني أن لديه في منزله سبعةَ أصنام يتعبَّد عندها، ويضع عندها البخور كل يوم، ومن هذه الأصنام: صنم لكونفوشيوس، وصنم لبوذا، وصنم للمسيح، وصنم لـ "لاو تس" مؤسس الطاوية، إلى غير ذلك من الأصنام، ومع ذلك كله لم يجد ضالَّته، ولم تطمئن نفسه، ولن تطمئن بتعبُّده عند هذه الأصنام. وما علم أن الحل له ولأمثاله، هو الدخول في الإسلام وعبادة الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

ومثل هؤلاء لو وجدوا من أبناء المسلمين من يطبق الإسلام ويدعوهم إليه، لدخلوا في دين الله أفواجاً بعد هداية الله لهم.

الباب الرابع

الكونفوشيوسية والإسلام

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أفكار الكونفوشيوسية ومعتقداتها في ميزان الإسلام

الفصل الثاني: موقف الكونفوشيوسية من الإسلام والمسلمين

الفصل الثالث: موقف المسلمين الصينيين من الديانة الكونفوشيوسية

الفصل الأول

أفكار الكونفوشيوسية ومعتقداتها في ميزان الإسلام

١- الكونفوشيوسية ليست ديناً سماوياً منزلاً من عند الله

بعد ما بيَّنَّا سابقاً أن الكونفوشيوسية تتبع شريعة (تشو)، لابد أن نذكر أن هذه الشريعة ليست مُنزَّلةً من عند الله تعالى. ولا تدعي الكونفوشيوسية أبداً بأن هذه الشريعة منزَّلة من عند الإله السماوي، بل تقول: إنها من وضع الأنبياء الملوك القدامى، وبالأخص (تشو قونغ) منهم، وهذا على الرغم من وجود بعض النصوص في "سفر القصائد" التي تدل على أن الحاكم السماوي الأعلى "شانغ دي" ـ وهو اسم آخر للإله السماوي ـ كان يكلم الأنبياء الملوك القدامى مثل "تشو وون وانغ".

على هذا، فإن شريعة (تشو) ليست شريعةً منزلة من عند الله تعالى، بل هي ـ كما تقول الكونفوشيوسية ـ من وضع الأنبياء الملوك. وعلى هذا الأساس، فالكونفوشيوسية ليست ديناً من الأديان السماوية المنزلة من عند الله تعالى، بل هي دين وضعي.

٢- الكونفوشيوسية ليست فلسفة أخلاقية فقط، بل هي دين وضعي

والكونفشيوسية ليست مجرد فلسفة أخلاقية، كما يزعم بعض العلماء المحدثين، بل هي دين مستقل قائم بنفسه، له خصائصه التي تميزه عن غيره من الأديان، وفيها نظام فلسفي متكامل يشمل الجانب اللاهوتي، والجانب التعبُّدي، والجانب الأخلاقي، والجانب الاجتماعي، وكذلك الجانب السياسي... إلخ.

وإذا أنكرنا كون الكونفوشيوسية ديناً، بغضِّ النظر عن خصائصه، وصحة نسبته إلى نبي من الأنبياء، فسنضطر أن نعترف أن الصينيين قد عاشوا أكثر من ثلاثين قرناً من الزمان من دون دين، وهو موقف مخالف للعقل والنقل كما لا يخفى، وكما مر معنا سابقاً، فقد ذهب أكثر علماء المسلمين في الصين إلى القول بأن الكونفوشيوسية دين من الأديان[١].

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية– د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ١٧–٢٠.

وعلى هذا، فالكونفوشيوسية دين من الأديان الوضعية، وليست مجرد فلسفة أخلاقية كما يزعم البعض.

٣- من المآخذ على الكونفوشيوسية

ومما يؤخذ على الكونفوشيوسية بشكل عام:

أ- عدم الوضوح والتحديد في كثير من القضايا

وهذه من الأمور الملحوظة على الديانة الكونفوشيوسية في كثير من قضاياها، وعلى سبيل المثال ما اعترف به الأستاذ (مو زونغ سان)، وهو من أكبر الشخصيات الممثلة للكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة، في العصر الحاضر، حين تكلم عن كتاب "المعرفة الكبرى"، وهو من الكتب المقدسة لدى الكونفوشيوسية، وله أهميته لديهم، حيث قال: "إن كتاب المعرفة الكبرى يتكلم عن السنن الثلاث والخطوات الثماني، وهو عبارة عن رحلة من التطبيق الموضوعي أيضاً، وقد حدد لك نطاق التطبيق العلمي الكونفوشيوسي، ولكن هدفه غير محدد في نفسه، فهو عدد في مغزاه الرئيسي هذه السنن والخطوات التطبيقية، ولكنه لم يوضح ما هي هذه السنن والخطوات. فعلى سبيل المثال: ورد في كتاب المعرفة الكبرى "تجلية الأخلاق المشرقة"، ولكن ما هي "الأخلاق المشرقة"؟ وورد فيه "الاستقرار في كمال الخير". أين يقع كمال الخير في النهاية؟ وهذه الأشياء غير موضَّحة في كتاب المعرفة الكبرى"(١).

ب- فقدان صلاحية التطبيق.

قال (مو زونغ سان) في هذا: "فما هو الموقف المناسب الذي نتخذه من كتاب المعرفة الكبرى؟ وكتاب المعرفة الكبرى عدَّد لك الأصول العامة للتطبيق فقط، وأما مسألة كيفية التطبيق، ومسألة الاتجاه الذي يقوده إليه ذلك التطبيق، فهي غير واضحة في داخل المعرفة الكبرى........"(٢).

---

(١) تسعة عشر محاضرة حول الفلسفة الصينية – مو زونغ سان – المحاضرة الرابعة، ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق.

وإذا كان هذا في كتاب يُعدُّ من أهم كتبهم المقدسة، فكيف بكثير من الأمور التي قامت عليها الكونفوشيوسية؟!

وهذا الأمر غير مستغرب على ديانة وضعية لم يكن لها مستند من الوحي الإلهي. وأكثر ما تستند إليه أقوال متعددة من عصور مختلفة، حُرِّفت وبُدِّلت حتى توافق أهواء معتنقيها ورغباتهم.

ج- اقتصارها على الفطرة أساساً للتخلق بالفضائل.

الكونفوشيوسية ترى أن الإنسان مفطور على الأخلاق الفاضلة فطرة أصيلة. وعلى هذا الأساس ترى أن الإنسان يتطلع إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة لأنها فطرته، فهو يتخلق بالأخلاق الفاضلة حباً للرجوع إلى فطرته الأصلية، ونزوعاً إلى العودة إلى طبعه الخيِّر. وهذا هو عين الفطرة الإنسانية، وبالتالي لا يحتاج إلى مصدر خارجي يلزمه على الأخلاق الفاضلة؛ لأنه حينئذ لم يطلب شيئاً غير موجود في فطرته، بل توجه إلى شيء باطن مفطور عليه الإنسان، حيث جِبلَّتُه الأولى وبدايته الأصلية.

على هذا، فإن الكونفوشيوسية لا تؤمن بالوحي المنزل من خارج الإنسان مبدأ تستمد منه فلسفتها الأخلاقية، كما لا تجعل الإيمان بالإله مصدراً للإلزام الأخلاقي، على الرغم من إيمانها بأن "تيان" هو الخالق والمدبر لشؤون الكون كلها. وهذا موقف متناقض في نفسه، لا يمكن أن يقبله العقل السليم ولا المنطق الصحيح، فكيف بإله سماوي يخلق الإنسان على الفطرة الخَيِّرة، فيتركه لتلك الفطرة من غير هداية إلى الصراط المستقيم... ؟ وما الفائدة من عقيدتهم في "تيان" (الإله السماوي)؟ وهل الفطرة الإنسانية الخَيِّرة تكفي وحدها أن تُجَلِّي الأخلاق المشرقة من الإنسان تلقائياً؟ فالإيمان الجازم بالله هو المنبع القوي والسليم لجميع الفضائل والمصدر الفعَّال للأخلاق الفاضلة كما يراه الإسلام.

والإنسان، وإن كان مفطوراً على الخير، فإن فطرته النَّزاعة إلى الخير لا تكفي

وحدها أن تأخذ بيده إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، وقد اعترف (ليانغ شو مين)، أحد كبار علماء الكونفوشيوسية المحدَثَة المعاصرة، بهذه الحقيقة قائلاً:

"يعايش المسلمون الصينيين الكونفوشيوسيين في مناطق شمال غرب الصين جنباً إلى جنب، لا يشرب المسلمون المؤمنون بالله الأفيون، ولهم كثير من العادات الجميلة في المعيشة. وأما الصينيون، فسمحوا لأنفسهم بالانحطاط الأخلاقي عفواً، وذلك مع زعمهم تعظيمَ نبيهم كونفوشيوس"(١).

د- الافتقار إلى عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء

نتجت هذه المشكلة من المشكلة السابقة؛ فالكونفوشيوسية على الرغم من إيمانها بـ "تيان" بوصفه خالق الكون ومدبره، لم تجعله مركزاً لبنائها الديني والفلسفي، بل هي تركِّز على الجانب الإنساني كلَّ التركيز بوصفه محوراً يدور عليه نظامها الديني والفلسفي كله، فهي لم تجعل الإيمان بالإله السماوي مصدراً للإلزام الأخلاقي، بل ترى أن فطرة الإنسان هي مصدر الأخلاق المشرقة، كما أنها تؤكد الجانبَ الدنيوي تأكيداً شديداً، وتهمل الجانب الأخروي وتطرحه جانباً. وانطلاقاً من هذا الموقف، رفضت الكونفوشيوسية أن تتكلم عن الآخرة والحياة بعد الموت والجزاء الأخروي.

ولكن هل هذا يعني أن الكونفوشيوسية لا تؤمن بأي نوع من الجزاء؟ هل يذهب عمل الإنسان هباءً؟ كلا! فإن الكونفوشيوسية تقول: إن الإنسان يُجزى على أعماله؛ إن كانت خيراً فخيراً، وإن كانت شراً فشراً، ولكن الجزاء يكون في الدنيا، وذلك أن جزاء الخير السُّمعة الطيبة التي تبقى في الأجيال اللاحقة، فيحمدونه ويثنون عليه إلى الأبد، وجزاء الشر سمعة خبيثة، تبقى أيضاً في الأجيال اللاحقة، يذمونه إلى الأبد.

---

(١) (ها قوانغ لو)، رئيس تحرير، الحوار بين النصرانية والكونفشيوسية والبوذية والطاوية، دار النشر للوثائق في العلوم الاجتماعية، بكين، سنة ١٩٩٨م، ص ٢٣٢.

ويتمشى ما ورد في كتب الكونفوشيوسية مع هذا الموقف السلبي من الآخرة والحياة بعد الموت والجزاء الأخروي، فلم تجعل للجزاء الأخروي أية مكانة تُذكر. هكذا نجد أن الكونفوشيوسية رضيت لنفسها أن تبقى ديانةً دنيوية، لا تسمح لأتباعها أن يرتقوا إلى أخلاق سامية وعالية ترتبط بالإيمان بالآخرة، يعملون من أجل الآخرة ويسعوْن وراءها، بل حدَّدت الجزاء بنوع من الجزاء الدنيوي، وهو السمعة الطيبة والذكرى الخالدة بين الناس. نعم لا نستطيع أن ننكر أنها نوع من الجزاء الطيب المحمود، لكن ماذا يقولون فيمن عمل خيراً وكان لهذا الخير تأثير عّمَّ مجتمعاً مثلاً، ومات من تَوِّه، كيف يأخذ جزاءه؟ ومن عمل شراً، واستطاع الهروب من الجزاء الدنيوي، أو من عمل شراً تأذَّى به عدد كبير من الناس، ومات من توِّه، هل يكون ومن عمل الخير سواء؟! العقل السليم ينفي ذلك، فما بالك بالكونفوشيوسية التي يدَّعي أتباعها أنها ديانة تقرُّ ذلك. وما ذلك إلا لأنها بعيدة عن هدى الإله الحق الذي لم يغفل ذلك، وجعل الآخرة دارَ جزاء للخير والشر على السواء، بل وأعد للخَيِّرين جنةً" فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"(١). بل إذا ما قورنت سعادةُ الدنيا للخيِّرين بسعادة الآخرة، تبيَّن أنها ضئيلة وحقيرة وليست جديرةً بالذكر والثناء والطلب أمام تلك السعادة الأخروية الأبدية العظيمة.

هـ- إهمال النفس الأمارة بالسوء.

ومما يؤخذ على الكونفوشيوسية: أنها أكدت جانبَ الفطرة الإنسانية الخيِّرة تأكيداً شديداً مبالغاً فيه، وأهملت في سبيل تأكيد هذه النقطة جانب النفس الإنسانية الشِّرِّيرة، وفتنة الشيطان المضلة عن سواء السبيل، وذلك تمشياً مع موقف الكونفوشيوسية في عدم اتخاذ موقف إيجابي من الملائكة والآخرة والحياة بعد الموت والشيطان.

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه الإمام البخاري ٣ / ١١٨٥، ورواه الإمام مسلم ٤ / ٢١٧٤.

لهذا السبب بعينه، نشأ الجدال حول مشكلة طبيعة الفطرة الإنسانية، خيّرة أم شريرة، وذلك في عصور مبكرة من التاريخ الكونفوشيوسي، بين الفيلسوف (هسون تس)[١] الذي يمثل الاتجاه القائل بنظرية الفطرة الإنسانية الشريرة وبين (منشيوس)[٢] الذي تمسك بنظرية الإنسانية الخيِّرة[٣].

ولو أن الكونفوشيوسية كان لديها ما يبيِّن منبع الشر من النفس الأمّارة بالسوء ووساوس الشيطان، لَمَا نشأت تلك المجادلات والمناقشات حول طبيعة الفطرة الإنسانية، ولَمَا احتاج علماء الكونفوشيوسية إلى منشيوس ليبين نظرية الفطرة الإنسانية الخيرة ويشرحها فيما بعد. والجدير بالذكر هنا أن الفيلسوف (هسون تس) قد هاجم نظرية منشيوس في الفطرة الإنسانية الخيِّرة بعدما قدمها هو، وهذا يدل على أن نظرية "منشيوس" لم تستطع أن تقنع هذا الفيلسوف الكونفوشيوسي، ولم يجد إجابة مقنعة لمشكلة وجود الشر بمظاهره المتعددة في الواقع الإنساني[٤].

٤- مناقشة موقف الكونفوشيوسية من الأمور الغيبية

١- الإيمان باليوم الآخر وما فيه:

يقوم الفكر الكونفوشيوسي على أساس الحياة الدنيا فقط، ولا يؤمنون بحياة بعد الموت، ولا جزاء ولا ثواب ولا عقاب إلا في هذه الدنيا.

وهذا تصور قاصر وفهم محدود؛ إذ ما الفائدة في حياة فيها الكثير من الصعاب والعقبات والكَبَد والمشقات التي يقضي الإنسان فيها عمره؟

وقد نرى في هذه الحياة الدنيا من يتمسك بالعدالة، ويتحلى بالفضيلة، ويراعي حُسْن السلوك، لكنه يعيش مسلوبَ الحقوق، كسير الجناح، ونرى من يتصف بالجور والظلم والفساد، دون أن ينال عقابه أو يلقى جزاءه!!.

(١) سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني.

(٢) سبق الكلام عنه في الباب الثاني، الفصل الثاني.

(٣) سبق الكلام عن هذه النظرية في الباب الثالث، الفصل الثالث.

(٤) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكنفوشيوسية – د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ٢١١ – ٢١٨.

فمن العدالة أن يكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة التي نعيشها؛ ليلقَى فيها المحسن جزاء الإحسان، والمسيء الظالم عقابَ إساءته وظُلمه، وكلَّما تذكر الإنسان حقيقة هذا الأمر وما فيه، سارع إلى الخير، وازداد منه، وتحرر من الشر ونفر منه.

وإذا كان توحيد الله في ربوبته وأسمائه وصفاته وألوهيته يحرر القلب البشري من قبضة الأرباب المرهوبة، فينطلق بكل حيويته وفاعليته في واقع الأرض، معْرِضاً عن الطواغيت، متبرِّأً منهم، فإن الإيمان باليوم الآخر يحرر ذلك القلب من الأرباب المرغوبة من عبودية الهوى والشهوات، فينطلق بكل حيويته وفاعليته ليقوم بدور الخلافة الراشدة في الأرض، على المستوى الأعلى اللائق بالإنسان، لا على المستوى الحيواني الذي كل همه الشهوات(١).

وقد ربط الله عز وجل سلوك المسلم في مجتمعه وأخلاقه نحو الآخرين وتعامله بالإيمان بالله واليوم الآخر مباشرة، فنرى في القرآن سورة كاملة تبين أن الذين يهملون في حقوق الآخرين قوم لا يؤمنون بيوم الدين، ولهم الويل والهلاك والعذاب الأليم، ولو كانوا مؤمنين حقاً لصلح حالهم، واستقام سلوكهم ظاهراً وباطناً؛ قال تعالى في سورة الماعون: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: ١ – ٧].

كذلك اشتملت السنة المطهرة على ربط السلوك وحسن التعامل مع الآخرين بالإيمان باليوم الآخر، والثواب أو العقاب فيه على الخير أو الشر؛ ومن ذلك: ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٢). وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من

(١) الإسلام وحاجة البشرية إليه – د. رفعت فوزي عبدالمطلب – دار السلام – القاهرة، ط أولى– سنة ١٩٨٦، ص ٥٧ – ٥٨. عن: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٨٦.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (ح ١٢ / الإيمان)، ورواه مسلم (ح / ٦٤ / الإيمان)، ورواه الترمذي (ح / ٢٤٣٩ / صفة القيامة)، النسائي (٤٩٣٠ / الإيمان).

نَفَّس عن مؤمن كُربةً من كُرَب الدنيا نفس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّر على معسر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه... الحديث"(١).

وما هذه الحياة الدنيا مع ما فيها من الكدح والرزق والسعي والكَبَد إلا تمهيد وتهيئة لملاقاة الخالق في ذلك اليوم، الذي تتم فيه رحلة الإنسان، وتختم إما بالجنة أو بالنار.

والموت ليس نهاية المطاف، ولكنه حلقة في سلسلة، ونقطة فاصلة بين مرحلتين من الوجود، جعلت الديانات السماوية: إحداهما للغرس والأخرى للحصاد؛ فمن زرع خيراً لا يجني إلا الخير والسعادة، ومن زرع شراً لا يجني إلا الحسرة والشقاوة: ﴿ **وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٢٣].

كما أن الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من جزاء، متمِّم للإيمان بوجود الله وإلهيته وربوبيته. فما دمت سلَّمت بوجود إله خالق رحيم عدل يحب الخير ويكره الظلم، فلابد أن تسلم بقدرته على جمع الناس مرة أخرى، وحسابهم في دار غير هذه الدار ومعاقبة المسيء بالنار، ومجازاة المحسن بالجنة.

ولا يليق أن يُنسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هَمَلاً، وتركها سدى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. قال الله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

وبهذا تبين لنا خطأ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، ولا يؤمنون بالآخرة وما فيها من جزاء وثواب وعقاب، يقولون كما قال قدماء الكفرة: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر. ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فهؤلاء الذين استنكروا البعث ردَّ الله عليهم بأنَّ استبعادهم لا معنى له ! وأن دعواهم لا تتعدى مرحلة الظن، وفرْقٌ بين الظن واليقين، أو الظن والعلم، فرق بين

---

(١) الترمذي (٤ / ١٤٢٥)، وأحمد في مسنده (٢ / ٢٥٢).

أن تبني حكماً على ظن، وأن تبنيه على علم يقين؛ فالأول لا يكون مؤكداً، ولا يسلِّم به الخصم، والثاني مسلم به لا يرفضه إلا مكابر أو جاهل. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** ﴾ [النجم: ٢٨ - ٣٠].

والإيمان بالله واليوم الآخر عاملان مهمان جداً في استقامة الأخلاق وصلاح المجتمعات، ومن دونهما ينهار كل شيء: تنهار الأخلاق، وتنهار المجتمعات، ويزول الأمن، وتعمُّ الفوضى، ويسود قانون الغاب، فإن معتقَد الإيمان بالله واليوم الآخر "هو رأس كل عقيدة، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خلقه وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه؛ لا لنفسه ولا لغيره، وهو شر كلُّه، لا يؤمَن جانبه ولا يُطمَأَنُّ إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير، وينابيع الفضيلة والكمال البشري"(١).

والخلاصة: أن لكل شيء في الدنيا أجلاً ينتهي إليه، وكذلك العالم الذي نعيش فيه له أجل ينتهي إليه، ويحل محله نظام آخر تكون قوانينه الطبيعية مختلفة عن قوانين هذه الحياة التي نعيشها، وبعد انتهاء العالم وقيام الحياة الآخرة ورجوع الناس وجميع الخلائق إلى الله، سيحكم بينهم بالعدل، ويُجازَى كلُّ إنسان على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والدين الحق الذي يؤمن بالله واليوم الآخر، ويبني تصوراته وقِيَمَه ونظمه وسلوكياته على أساسها هو الدين الإسلامي فقط دون سواه، وبهذا تبين لنا خطأ الذين يسقطون من تصوراتهم وحساباتهم الإيمان باليوم الآخر والاعتقاد بالبعث والحساب والجنة والنار(٢).

---

(١) عقيدة المؤمن – أبو بكر الجزائري، دار الكتب السلفية، القاهرة، مصر، ١٩٨٥، ص ٣٤٣.

(٢) الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٨٧– ١٩١ بتصرف.

٢-الإيمان بالقضاء والقدر:

يعتقد الكونفوشيوسيون بأن حالات السلم والحرب والصحة والمرض والفقر والغنى حالات مقدَّرة، لا يمكن الخروج عنها، أو تغييرها، أو الفكاك من رِبقتها إلا في حالات نادرة، ببذل الجهد الذي في وسعه، وترقُّب نصيبه من الأقدار، ولكن ذلك منفصل عن السماء أو إله السماء، كما ذكرت ذلك بشيء من التفصيل سابقاً(١).

تعريف القضاء والقدر لدى أهل الإسلام:

وردت بعض التعاريف للقضاء والقدر عن علماء المسلمين، اختلفت في مبناها، واتفقت في معناها؛ نذكر منها:

أن القضاء والقدر: "علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم والخلائق والأحداث والأشياء، وتقدير ذلك الخلق، وكتابته في اللوح المحفوظ كما هو حين يقضي بوجوده في كميته وكيفيته، وصفته وزمانه، ومكانه وأسبابه، ومقدماته ونتائجه، بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبَّانه، ولا يتقدم عمَّا حُدِّد له من الزمن، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان"(٢).

ومنهم من عرَّف القضاء تعريفاً مغايراً للقدر، فقال:

القدر: علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل.

والقضاء: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته.

ومنهم من عرفهما تعريفاً واحداً، فقال: "هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود، والقوانين العامة والسنن التي يربط بها الأسباب بمسبباتها"(٣).

يقول الإمام الطحاوي(٤) رحمه الله: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم

---

(١) راجع ص ٢٣٦-٢٣٨ من الكتاب.

(٢) عقيدة المؤمن – أبو بكر الجزائري – ص ٤٣٣.

(٣) الإيمان – أركانه – حقيقته – د. محمد نعيم ياسين – ص ٧٢ – ٧٣ بتصرف.

(٤) الإمام الطحاوي: هو أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدي الطحاوي. ولد سنة ٢٣٩ بمصر، وتوفي بها سنة ٣٢١، إمام ثقة ثبت فقيه محدث حافظ، أحد الأعلام والحفاظ الجهابذة.

يطلع على ذلك مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلَّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذرَ كلَّ الحذرِ من ذلك نظراً ووسوسةً وفكراً، فإن الله تعالى طَوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فمن سأل لِمَ فعل؟ فقد ردَّ حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين"(١).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

و﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

فالقضاء والقدر المتعلقَيْن بالنظام الكوني بصفة عامة أو بالإنسان خاصة، مردها إلى الله سبحانه خالق الكون عامة والإنسان خاصة، ليس لغيره سبيل إليها؛ لأنه ليس غيره خالقاً أو مالكاً بإطلاق.

أثر الإيمان بالقضاء والقدر على الفرد والمجتمع:

أ - وإذا كان القضاء والقدر سراً أخفاه الله عن خلقه، فلا ينبغي لأحد أن يتواكل، أو يتكاسل، أو يقعد عن السعي لتحسين أحواله الدينية أو الدنيوية احتجاجاً بالقدر المسبق، والقضاء المبرم. بل ينبغي أن يجاهد ويكد ويسعى، ويسأل الله أن يهديَه للخير ويوفقه للرشاد. فيبعثه الإيمان بالقدر على النشاط والعمل الإيجابي والسعي الدؤوب لتحصيل خيري الدنيا والآخرة.

ب - والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يعيش آمناً مطمئناً في هذه الحياة، فإذا مسَّه مكروه لا ييأس، وإذا حاز توفيقاً ونجاحاً فلا يبطَر ولا يطغى، يعيش إنساناً سوياً متَّزناً، لا همٌّ يُحزنه، ولا أمل يقلقه، ولا حرص يجزعه؛ لأنه ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية - الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م - ص ٢٤٩.

ت – كما أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يكون ذريعةً للتكاسل عن الطاعات، أو التواني في أداء الواجبات، أو التقصير في تنفيذ المهمات، أو سُلَّماً لاقتراف القبيح من المنكرات، بل يجب أن يدفع إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال.

ث – كما أن إيمان المؤمنين بالقضاء لا يدفعهم إلى ترك الأسباب أو تعطيلها، وقد بين رسول الله ﷺ أن الأخذ بالأسباب المشروعة من القدر، فأمر بالسعي طلباً للرزق، وأمر بالتعليم دفعاً للجهل، وأمر بالتداوي طلباً للشفاء، وأمر بالجهاد إعلاءً لكلمة الله، وإعزازاً لعباد الله، وتخليصاً للمستضعفين. هذا هو الأثر الفعَّال للاعتقاد الصحيح بالقضاء والقدر، أما أن يقعد الإنسان ويستكين للظلم، أو يرضى بالضيم، ويكتفي بالجهل، ويخنع للذل، ويستكين للقهر احتجاجاً بالقدر، أو يعتقد أنه مجبور في كل الأمور، لا فَكاكَ له من ترس الحياة، ولا خَلاصَ له من يد الجبر التي سُلِّطت عليه، تُوجِّهُه حيث شاءت، ولا إرادةَ له في ذلك، فهذا هو الجهل بعينه، وهذا هو سر تخلف الأمم وتأخرها(١).

٣- الإيمان بالملائكة:

يُغفل الكونفوشيوسيون الإيمان بالملائكة؛ بحجة عدم الخلط والخطأ، وكذلك لأنهم لا يؤمنون إلا بما تراه عيونهم وتَحُسُّه جوارحهم، أما ما وراء الطبيعة فلا يؤمنون به.

والملائكة موجودون، خلقهم الله عز وجل من نور، وقد رأى الأنبياءُ بعضهم. والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان، جاء بذلك الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ [النساء: ١٣٦].

(١) انظر: الإيمان – محمد نعيم ياسين – ص ٨٠. والعقائد الإسلامية – السيد سابق – ص ٨٦. الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٩٣– ١٩٦.

ومن الأدلة الواردة في السنة: حديث جبريل المشهور، الذي أخرجه الإمامان البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما سأل جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ عن الإيمان، قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"(١).

هؤلاء الملائكة ليسوا آلهةً، وليسوا أرباباً، وليسوا بناتِ الله كما ادَّعت ذلك بعض الأمم الضالة في العصور القديمة والحديثة، بل هم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم جنود طائعون لله عز وجل، يصدرون عن أوامره، ويتحركون بأمره: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم: ٦٤].

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكَّلةٌ بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكَّل بالجبال ملائكةً، ووكل بالحساب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكةً، تدبر أمر النُّطفة حتى يتم خلقها، ثم وكَّل بالعبد ملائكةً لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار ملائكة، ووكل بالجنة ملائكة، فملائكة قد وُكِّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعَمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس... إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله" .

أثر الإيمان بالملائكة:

- الإيمان الصحيح بالملائكة يُخرج الفرد والمجتمع من شبهة الشرك إلى نور الإيمان والتوحيد وصفاء العقيدة.

- والإيمان بالملائكة يوسع آفاق الإنسان ومداركه في الإحساس بعالم الغيب الذي جعله الله لازمةً من لوازم المتقين.

---

١) أخرجه مسلم (١ / إيمان / ٣٦ / ج١)، والترمذي (١٥ ج ٢٦١٠)، وأبو داود (٤ / ج ٤٦٩٥).

– ينظر المؤمن إلى الملائكة على أنهم أبرار مطَهَّرون كرام، لهم القربى والمنزلة الكريمة عند الله، فيحاول أن يتطهر من الرذائل، ويجتنب الموبقات حتى يحظى بمثل درجتهم عند الله.

– عندما يعلم الفرد أن هؤلاء الأبرار معه في كل مكان، لا يفارقونه، يحصون عليه أعماله ويكتبونها، يستحي منهم، فلا يخالف أمر الله في جميع أموره(١).

وبهذا نعلم أن الإيمان بالملائكة عامل مهم في طمأنينة الفرد وسلامة المجتمع. فالحمد لله على نعمة الإسلام.

٤- الجن والشياطين:

ومن فروع الإيمان بالغيب الإيمان بوجود خلق خَفِيٍّ يسمَّى الجنَّ والشياطين.

ولم يكن الصينيون ولا الكونفوشيوسيون منهم يعتقدون بوجود الشياطين؛ لأن الشر عندهم عَرَضي، كما يقولون، وليس عندهم إله للخير وإله للشر.

* فأما مسألة عدم وجود إلهين أحدهما للخير والآخر للشر، فهذه هي الحقيقة؛ لأنه ليس هناك إلا الله الأحد الفرد الصمد الفاعل القادر المختار؛ قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

* وأما وجود الجن والشياطين، فهو ثابت بالنقل والعقل. والجن لهم إرادة عاقلة مميزة مختارة كالإنسان، وهم مستترون عن الحواسِّ، لا يُرَوْن على حقيقتهم المجردة، ولهم القدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، وهم مخلوقون من لهب النار، وهم مكلَّفون كالإنس. فمن سمع منهم وأطاع، فله جزاء الحسنى، ومن أعرض منهم عن هدى مولاه كانت له نار جهنم، وساءت مصيراً.

قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ [الجن: ١٣ - ١٥].

---

(١) الإيمان – محمد نعيم ياسين – ص ٢٨ بتصرف.

* ومع الإيمان بوجود الجن والشياطين، إلا أنه ينبغي أن نتذكر أنهم ليسوا آلهةً، ولا مساعدين للإله سبحانه، ولا يعلمون الغيب؛ فهم:

أ – في حاجة إلى الطعام والشراب لأجل التغذية اللازمة لهم حسب طبيعتهم.

ب – يتوالدون ويتناسلون حسب طبيعتهم لأجل التكاثر.

ت – لا يعلمون الغيب؛ فإن علم الغيب مما استأثر الله به، والله لا يُطْلِع على غيبه أحداً إلا إذا أراد أن يبلِّغَ شيئاً من ذلك العلم إلى رسله الكرام فقط. إلا أن الله تعالى أعطى الجن والشياطين القدرة على الصعود إلى السماء الدنيا، واستراق السمع من الملائكة، فيعودون به إلى الأرض، ويُفْضون به إلى أوليائهم من الإنس، فيحدِّثون به الناس، ويضلُّونهم ويفتنونهم ويوهمونهم أن أولياءهم من الجن يساعدونهم على معرفة الغيب واستشراف المستقبل، واستقراء القدر المكنون، وقد كذبوا في ذلك.

ث – الإنسان هو السبب في سيطرة الشيطان عليه والوقوع في حبائله.

ج – الإيمان بوجود الجن والشياطين يؤدي إلى الحذر من حبائلهم ومعرفة عداوتهم للإنسان، فيستعين بالله أن يخلصه منهم، ويعيذه من وساوسهم وكيدهم(١).

٥- موقف الكونفوشيوسية من العبادة

١ – العبادة

الكونفوشيوسيون ـ كغيرهم من الصينيين ـ يعبدون أرواح الأجداد، ويعبدون كونفوشيوس والعظماء لديهم. ولهذه العبادات طقوس وأشكال مختلفة، وذلك حسب من يقوم بها، ولا يستوي الجميع لديهم في القيام بهذه العبادة فلكل صنف أو فئة عبادة... وهذه العبادات مفروض فيها أن تأتي بالنفع لبني الإنسان كما يدفع أداؤها ـ في نظر كونفوشيوس ـ إلى صلاح النظام الاجتماعي والأخلاقي.

---

(١) الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ١٩٩ – ٢٠٠ بتصرف.

أما العبادة في الإسلام، فهي لله وحده وهي الغاية من خلق الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

كما أنها أشرف مقامات الإنسان وأعلاها؛ فقد وصف الله بها نبيه محمداً ﷺ في رحلة الإسراء فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

والعبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، والتي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، ووظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً، وحقيقة العبادة تتمثل في أمرين أساسيين:

الأول: استقرار معنى العبودية لله في النفس؛ أي استقرار الشعور أن هناك عبداً ورباً: عَبْدٌ يَعْبُدُ، ورب يُعْبَد، وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود، وإلا رب واحد، والكل له عبيد.

الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبُّد لله. بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله... كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها"(١).

٢- العبادة لا تكون إلا لله وحده:

فطر الله الإنسان على الاتجاه إليه وحده بالعبادة... تتجه هذه الفطرة إلى الخالق الأعلى من أعماق نفسها، وهي عهد الله الذي أخذه على بني آدم وهم بعدُ في عالم الذر في صلب أبيهم آدم عليه السلام:

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد السادس – ص ٣٢٨٧.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعبادة الله وحده فطرة الإنسان، وسعادة الإنسان في تجاوبه مع هذه الفطرة؛ فالإنسان كائن متدين ومخلوق عابد، وأصل عبادته أن تتجه إلى الله وحده الذي خلقه فسواه وعدله، ونفخ فيه من روحه، وأسْجَدَ له ملائكتَه، وسخَّر له ما في السماوات والأرض رحمةً منه وفضلاً.

لكن قد تنحرف هذه الفطرة، فتتجه إلى غير الله بالعبادة نتيجة عوامل مختلفة؛ لذلك كان من سنة الله في خلقه تصحيحُ هذا الاتجاه كلَّما انحرف بإرسال رسل من عنده جل وعز، ليوجهوا الناس إلى الطريق الصحيح في العبادة، وهو الاتجاه إلى الله سبحانه وحده. ومع ذلك قد يؤمن ويصدق بالرسل أقوام، ويكفر بهم آخرون، وقد تغيب دعوة الرسل هذه عن البعض، فتكون النتيجة أن يبتعد كل من الكفار ومن غاب عنهم خبر الرسالة عن المنهج الصحيح، فجاء رسول الإسلام ﷺ لكل البشر، وكلَّف كلَّ من آمن به أن يبلغوا المنهج الصحيح في العبادة إلى كل فرد في أنحاء المعمورة، حتى لا يحتجَّ أحد بأنه لم تبْلُغْه الرسالة. فيبقى من كفر بالرسالة وجحد بها أولئك الذين حق عليهم عذاب الله، وأولئك الذين لم يشرح الله صدورهم للإسلام، حيث جاء الإسلام العظيم يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة كل ما سواه ومن سواه من الآلهة المزعومين، والأرباب المزيفين، وسواء كانوا من البشر، أم من الجن، أم أي عالم من عوالم المخلوقات العلوية والسفلية وروح الإسلام هو التوحيد.. توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة، وأول ما دعا إليه رسولُ الإسلام ﷺ ملوكَ الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى: أن يُعبَد الله وحده لا شريك له، وأن تُطرحَ الآلهة والأرباب التي اتخذها الناس من دون الله، فأذلُّوا أنفسهم لمن لا يستحق الذل والخضوع(١).

---

(١) العبادة في الإسلام - د. يوسف القرضاوي - ص ١٣٥ -١٣٦ بتصرف.

فالعبودية لغير لله تُورث الذل والقهر والاستعباد لمن لا يستحق. أما العبودية لله وحده، فإنها تورث العز والعَظَمة والشرف والكرامة، فلا عبادة لشمس ولا لقمر ولا لأرض ولا لسماء، ولا لآباء ولا لأجداد.

يقول الله عز وجل: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٧].

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، تركته وشِرْكَه"(١).

ولما سأل رستم قائد الفرس ربعي بن عامر: ما جاء بكم؟ قال ربعي: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وكما أن العبادة لا تكون إلا لله وحده لا شريك له؛ لأنه المستحقُّ للعبادة، فلم يترك الله سبحانه مجال العبادة لكل واحد من الناس، أو جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم، تعبده على وفق هواها، أو تبعاً لأغراضها الشخصية تزيد وتنقص، وتقدِّم وتؤخر، وتُحِلُّ وتحرِّم حسب ما يروق لها.. كلا بل يُعبَدُ الله وفق شرعه وأمره، فلا يصح منهم أن يزيدوا أو ينقصوا، فلا إفراط ولا تفريط. فمن زاد أو نقص، فقد أساء أو ظلم، لا تصح عبادته ولا تُقبل طاعتُه.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في "رسالة العبودية": "جماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله. ولا نعبده إلا بما شرع.

لا نعبده بالبدَع كما قال تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠]، وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله. ففي الأولى: ألا نعبد إلا الله، وفي الثانية:

---

(١) رواه مسلم (٥٣٠٠ / الزهد والرقائق)، وابن ماجه (٤١٩٢ / الزهد) عن أبي هريرة.

أن محمداً هو رسوله المبلِّغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره... وكما أننا مأمورون ألا نخاف إلا الله، ولا نتوكل إلا على الله... فكذلك نحن مأمورون أن نتَّبع الرسولَ ونطيعه، ونتأسَّى به، فالحلال ما حلَّله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه"(١).

٣- الغاية من العبادة:

نظرت الكونفوشيوسية إلى العبادة على أنها تجلب النفع المادي الدنيوي لبني الإنسان، وتؤدي إلى صلاح الهيئة الاجتماعية في الدنيا فقط. والعبادة في الإسلام تتسع لتشمل كلَّ حركة وكل عمل ترتقي به الحياة، ويسعد به الناس... كما بينا سابقاً.

والمسلم يعبد الله أولاً وقبل كل شيء؛ لأنه الخالق الجدير بهذه العبادة. والإنسان عبدٌ لله.. يطيعه ويعبده بصرف النظر عن الثواب والعقاب، أو الصلاح الاجتماعي والأمان الدنيوي الذي يتحصَّل عليه بالعبادة، ولهذا فقد رأى العلماء أن أعلى مقامات العبودية أن يعبد الإنسان ربه لكونه الإلهَ الخالق.

مع هذا، فإن المسلم يعبد الله خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، هروباً من ناره ورغبةً في جنته، فالأنبياء والصالحون يسألون الله الجنة، ويتعوذون به من النار، ويسألونه صلاح الدنيا والآخرة، وها هو يوسف عليه السلام يقول: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف: ١٠١].

ومن بعده قال سليمان عليه السلام: ﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل: ١٩].

وكذلك سائر الأنبياء والصالحين والمتَّقين، يسألون الله الجنة ويعوذون به من النار.

---

(١) العبودية - لابن تيمية - ص ١٧٠ - ١٧١.

وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهروب من هذه، فترت عزائمه، وضعُفت همَّته ووهي باعثه، وكلَّما كان أشدَّ طلباً للجنة وعملاً لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشدَّ والسعيُ أتمَّ(١).

فالعبادة في الإسلام ليست وسيلةً للتهذيب الأخلاقي والنفع الدنيوي فقط، بل هي حقُّ الله على عباده أولاً، والمقصود الأول منها: "أن يعرف العبدُ نفسه فقيراً لا حول ولا قوة له إلا بربه، ولا اعتماد له إلا عليه، ولا قيام له بذاته، ويعرف ربه علياً كبيراً غنياً عن العالمين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

أما صلاح النفس، وزكاة الضمير، واستقامة الأخلاق؛ فهي ثمرة لازمة للعبادة الحقَّة، وليست علةً غائيَّةً لها"(٢)، كما تقول الكونفوشيوسية وغيرها من الديانات الوضعية، التي ترى في العبادة نفعاً مادياً دنيوياً فقط.

٤- المساواة في أداء العبادات:

تختلف الطقوس والعبادات لدى الكونفوشيوسية حسب من يقوم بها، ولا يتساوى الجميع في طقس معين.. بل ربما وجدنا لكل طبقة من الطبقات طقوساً تختلف عن الأخرى؛ فالإمبراطور له طقوس معينة، ويتوجه ـ وحده ـ بعبادته إلى إله السماء.. والنبلاء والوزراء لهم طقوس أخرى، وعامة الشعب لهم طقوس مخالفة.

ولكن في الإسلام الله سبحانه رب الناس جميعاً، ورب السماوات ورب الأرض رب العالمين.. إلهٌ واحد، أنزل ديناً واحداً، وفرض فرائضَ محدودةً، وجعل الناس جميعاً في القيام بها وأدائها سواء، ويحاسب كلاً على عمله: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) العبادة في الإسلام - د. يوسف القرضاوي، ص ١١٣ -١١٤ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص ١١٦. انظر: الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٢١١.

والمساواة من مبادئ الإسلام العظيمة، ولها مظاهرُ كثيرة في جوانب التشريع الإسلامي جميعها؛ فالصلاة مكلَّف بها الجميع.. يُنادَى لها فيفترض منهم جميعاً أن يؤدوها في صف واحد، في مكان واحد، في وقت واحد، بكلمات ودعوات واحدة ينادي الله عز وجل المؤمنين جميعاً: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الحج: ٧٧].

"فليس في المسجد لائحة تخصِّص الصف الأول للوزراء، والصف الثاني للنواب، والثالث للمديرين، أو موظفي الدرجة الأولى، أو كبار المُلاَّك. وإنما الجميع سواسية كأسنان المشط الواحد.. فمن بكَّر إلى الذهاب إلى المسجد احتل مكانته في مقدمة الصفوف أياً كانت منزلته وعمله في الناس"(١). إنه الإخاء والمساواة نادى بهما الإسلام نظرياً، وينفذهما عملياً في الصلاة.

تتلاصق الأبدان، وتتعارف الوجوه، وتتصافح الأيدي.. وتتناجى الألسن، وتتآلف القلوب، ويلتقون على وحدة الغاية والهدف والوسيلة.. يصلون خلف رجل واحد (هو الإمام)، ويناجون رباً واحداً هو (الله)، ويتلون كتاباً واحداً هو (القرآن)، ويتجهون إلى قبلة واحدة (هي الكعبة) البيت الحرام، ويؤدون أعمالاً واحدة.. يشعر الجميع أنهم أمام الله سواء، فلا يصح للأمير أن يخرج بهم عن دين الله؛ لأنهم تعلَّموا في الصلاة أن يصححوا للإمام خطأه، وأن يتَّبعوه طالما كانت صلاته صحيحة... وما هذا الأمير إلا واحد منهم، وهو مثلهم، تحمَّل أمانة القيادة والقيام على أمور الدولة وفق دين الله وشرعه، وهو أخوهم وهم إخوانُه، والكل يبتغي وجه الله ورضاه وجنته ورضوانه"(٢).

والزكاة: مساواة بين الفقراء والأغنياء، يكمِّل كلٌّ منهم الآخر، ويعطي الواجد المعدَم.

---

(١) العبادة في الإسلام – د. يوسف القرضاوي – ص ٢٣٠ بتصرف.

(٢) المرجع السابق – ص ٢٤٣ بتصرف.

والصيام: يطالَب جميعُ المؤمنين بهذا الصيام، وليس هناك صيام أو شكل معين لصيام الإمبراطور، وشكل آخر للوزراء والنبلاء، وثالث للدَّهماء وعامة الشعب، بل الجميع يصومون في أول الشهر، وفي كل يوم يبتدئ صيامُهم عند مطلع الفجر، ويستمر حتى غروب الشمس وذلك كلَّ يوم من أيام رمضان.

والمساواة في الحج: "نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتَمِّها، فالجميع قد اطَّرحوا الملابس والأزياء المزخرفة، ولبسوا جميعاً ذلك اللباس البسيط ـ الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى ـ يلبسه الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير، وإنهم ليطوفون بالبيت جميعاً، فلا تفرق بين من يملك القناطير المقنطرة، ومن لا يملك قوت يومه، ويقفون ألوفاً فلا تحِسُّ بفقر فقير، ولا غنى غني.

وكما كان الناس متساوين في العبادات والحقوق والواجبات، كذلك هم متساوون مساواةً كاملة أمام شرع الله، لا فرق بين سيد وعبد، ولا بين شريف وضعيف، وقد حذر الرسول ﷺ من تطبيق الحدود على قوم دون قوم، وعلى طبقة من الناس دون طبقة، وبيَّن أن هذا سبب هلاك الأمم الماضية، فقال ﷺ: "إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"(١).

فوضع بذلك حداً للمظالم التي كانت قائمةً في الأرض، والتي ظلت قائمةً في غير الإسلام، ويضع بذلك حداً للخرافة البغيضة التي تفرق بين الناس في الخِلقة، وتفرق بينهم بعد ذلك في الحقوق(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (ح / ٣٤٧٥ / فتح) ومسلم (ح / ١٣١٥ / حدود).

(٢) انظر: الكونفوشيوسية – سليم المسلمي –ص ٢١٢– ٢١٥.

٦- موقف الإسلام من نظرية المعرفة لدى الكونفوشيوسية

يرفض الإسلام نظرية المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية رفضاً حاسماً لا تردد فيه؛ لأنه جاء ناسخاً لجميع الأديان، وما تدعو إليه من عقائدَ ونظرياتٍ وطقوس ونظم، وخاتماً لسلسلة الهدي الإلهي بواسطة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، الذي بدأ بأبي البشر آدم عليه السلام، وانتهى مع النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ.

ولم يكن هذا الرفض جهلاً أو تعصباً، بل كان مبنياً على الحقائق الثابتة والمعارف اليقينية الصحيحة؛ لأن مما تقتضيه الرسالة المحمدية: أنها جاءت تصديقاً لجميع النبوَّات والرسالات الإلهية الصحيحة، وتفصيلاً لكل شيء لتكون هدى ورحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم هذا التصديق والتفصيل إلا إذا أقرَّ ما كان في تلك النبوات والرسالات من رشد وخير، وصحَّح ما طرأ عليها من نُقصان وعيب، وقوَّم ما أحدثه الناس فيها من انحراف واعوجاج، كما قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

نأتي الآن إلى نظرية المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية نفسها؛ لنبيِّن ـ بشيء من التفصيل ـ موقف الإسلام منها، مستدلِّين بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من الأصول الكلية والقواعد الجامعة، التي تمكِّننا من معرفة موقف الإسلام من هذه الأفكار والنظريات.

١ـ فالنقطة الأولى التي يمكن أن نبدأ بها في بيان موقف الإسلام من نظرية المعرفة الكبرى هي: نظرية تجلية الأخلاق المشرقة التي تمثل القاعدة النظرية الكلية، والسُّنة الأولى لهيكل نظرية المعرفة الكبرى. وقد تبين لنا مما سبق أن "الأخلاق

المشرقة" عند الكونفوشيوسية هي نور حصَّله الإنسان من "تيان"، وهو لطيف عارف، شامل لجميع الحقائق الميتافيزيقية، وهو يستطيع أن يرشد الإنسان في شؤونه كافة إلى طريق الهداية، وذاته مشرقة دائماً أبداً، لا تُطفَأ في حال من الأحوال، وإنما تغطِّيها ظلمات من الأهواء والشهوات الإنسانية، فلا يظهر نورها في الخارج.

وعلى هذا الأساس بُنيت نظرية الفطرة الإنسانية الخيِّرة؛ لأن الأخلاق المشرقة فطرة خيِّرة فُطِر الناس عليها، والمطلوب من الإنسان أن يجاهد في سبيل إماتة الأهواء والشهوات ليعود هذا النور مشرقاً في الخارج أيضاً كما حصَّله من الإله السماوي منذ البداية، وهذا هو المراد من تجلية الأخلاق المشرقة.

فالإسلام يقر بأن الإنسان مفطور على الإسلام، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وكما جاء في الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه"(١).

كما ذهبت الكونفوشيوسية إلى القول بخيرية الفطرة الإنسانية، ولكن لا بد أن نشير هنا إلى نقطة مهمة جداً؛ وهي أن أوجُه خيرية الفطرة الإنسانية مختلفة بين الإسلام والكونفوشيوسية؛ فالفطرة الإنسانية الخيِّرة في الكونفوشيوسية هي الميول القلبية الأربعة المفطور عليها الإنسان، والتي تنشأ منها جِماع الأخلاق الفاضلة؛ وهي الرحمة، والصلاح، والأدب، والحكمة. وأما الإسلام، فيرى أن الفطرة هي: الإيمان بالله وإقرار التوحيد له عز وجل، كما قال تعالى: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾** [الأعراف: ١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه في الحديث القدسي: "يقول الله: إني

---

(١) سبق تخريجه.

خلقت عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً"(١).

فالإسلام، على الرغم من تصديقه بخيرية الفطرة الإنسانية، فإنه لا يوافق على ما ذهبت إليه الكونفوشيوسية من القول: إن الفطرة الإنسانية الخيِّرة تكفي لوحدها في هداية الإنسان إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، بل يرى أن الإيمان بالله الواحد القهار، الذي يجازي على الخير ويعاقب على الشر، هو منبع الخير والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، ومن دون هذا الإيمان الصادق يصبح الحديث عن تجلية الأخلاق المشرقة، وتجديد الشعب، والاستقرار في كمال الخير كلِّها كلاماً فارغاً، لا يكاد يكون تحته فائدة تنال.

ومن هنا يرى الإسلام أن نظرية الأخلاق المشرقة نظرية ناقصة ومنحرفة، وفي الإسلام ما يصحِّح نقص الكونفوشيوسية، ويقوِّم انحرافها؛ وهو: معرفة الله تعالى، ومعرفة رسوله ﷺ، والإيمان بالله رباً، والإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً. وهذا الإيمان هو منبع الأخلاق المشرقة فقط.

٢- النقطة الثانية التي لابد أن نذكرها في صدد بيان موقف الإسلام من نظرية المعرفة الكبرى هي: أن الإسلام يهتم بالأخلاق الفاضلة ويحث عليها، والكونفوشيوسية جعلت تجلية الأخلاق المشرقة أُولى سُنن المعرفة الكبرى، وهذا يدل على مدى اهتمامها الشديد بالأخلاق الفاضلة، فلا عجب أنْ قيل: إن الكونفوشيوسية فلسفة أخلاقية، وليست ديناً من الأديان كما اعترف بذلك معظم أتباعها.

ومنزلة الإخلاق من الدين الإسلامي حدَّدها رسوله الكريم ﷺ بقوله: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(٢).

---

(١) رواه الإمام مسلم، الجزء الرابع، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ص ٢١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٢٧٣/ الأدب المفرد).

وقد وصف الله تعالى رسوله ﷺ بالخلق العظيم حين أثنى عليه في كتابه العزيز، حيث قال مخاطباً له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

كما وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها خلق رسول الله ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن"(١).

وقد ورد كثير من الأحاديث النبوية التي بيَّن فيها رسول الله ﷺ مكانة الأخلاق الحميدة في الدين الإسلامي؛ ومنها: ما رُوي عن أسامة بن شريك، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس...... قالوا: فمَن أحبُّ عبادِ الله إلى الله تعالى؟ قال: "أحسنهم خلقاً"(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من شيء يُوضَعُ في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة"(٣).

وعن عبدالله بن عمرو أنه سمع النبي ﷺ يقول: "ألا أخبركم بأحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة"؟ فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثاً، قال القوم: نعم يا رسول الله! قال: "أحسنكم خلقاً"(٤).

بعد كل هذا، لابد أن نشير إلى فرق أساسي كبير بين الإسلام والكونفوشيوسية حول التحلِّي بالأخلاق الفاضلة، أو تجلية الأخلاق المشرقة بالتعبير

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، المجلد الخامس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٤.

(٢) رواه الإمام الطبراني في المعجم الكبير، الجزء الأول، من حديث أسامة بن شريك الثعلبي، باب ما جاء في التداوي وترك الغيبة وحسن الخلق، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، الدار العربية للطباعة، بغداد، الطبعة الأولى، ص ١٤٧.

(٣) رواه الإمام الترمذي، جامع الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ٤٦٢

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، المجلد الثاني، ص ١٨٥.

الكونفوشيوسي؛ هو أن المؤمن الصادق في الإسلام يسعى للأخلاق الفاضلة، ونيته طلب رضا الله بالسير على منهج رسوله ﷺ، منطلقاً من العقيدة الإسلامية التي تدعو إلى ذلك، ورجاء ما ينتظره من الجزاء في الآخرة، أما العارف الكونفوشيوسي، فيسعى وراء الأخلاق الفاضلة ليجلّي فطرته الخيِّرة، ويقيم إنسانيته أمام الناس، ليكون "نبياً في الباطن وملكاً في الظاهر"، فالأخلاق في الكونفوشيوسية منفصلة عن الإيمان بالله وطلب الجزاء في الآخرة، وهي عندها أخلاق دنيوية خالية من القيم الأخروية.

هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى، يرى الإسلام أن الوحي الإلهي أساس كل ما في هذا الدين من عقيدة وشريعة، وعبادات وأخلاق. فمكارم الأخلاق في الإسلام كلها مبنية على الوحي المنزَّل من الله تعالى على خاتم أنبيائه محمد ﷺ وهي مفصَّلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد طبقها النبي عليه الصلاة والسلام في حياته تطبيقاً كاملاً. أما الأخلاق المشرقة في الكونفوشيوسية، فلا تستند إلى وحي سماوي، بل هي مبنية على الفطرة الإنسانية الخَيِّرة كما تزعُم الكونفوشيوسية.

فالإسلام ـ على الرغم من تصديق مذهب الكونفوشيوسية في الاهتمام والعناية بالأخلاق ـ لا يقبل الأخلاق الكونفوشيوسية التي لا تستند إلى الوحي الإلهي، ولا يضبطها معيار إلهي ملزم.

وقد تجلت مكارم الأخلاق كلها في سيرة النبي محمد ﷺ، ولم يكن له مثيل في التاريخ البشري كله، ويعرف هذا كل من درس سيرته، ولو لم يكن من المسلمين، فعلى جميع البشر أن يؤمنوا بما جاء به من ربه، ويجعلوه أسوةً لهم، فهو خاتم الأنبياء ومتمم مكارم الأخلاق.

موقف الإسلام من السُّنتين الثانية والثالثة من سُنن المعرفة الكبرى لدى الكونفوشيوسية

وإذا أتينا إلى السُّنتين الثانية والثالثة من سنن المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية؛ وهما: (تجديد الشعب، والاستقرار في كمال الخير) لبيان موقف الإسلام منهما، نجد أن الإسلام يرفضهما أيضاً طبقاً لرفضه للقاعدة النظرية الكلية لنظرية المعرفة الكبرى الكونفوشيوسية، وهي سُنة تجلية الأخلاق المشرقة للأسباب المذكورة سابقاً؛ فإنه لا يخفَى على كل ذي عقل سليم أن بطلان الأصل أو نقصانه يؤدي إلى بطلان الفروع ونقصانها بالضرورة، وإذا كانت السُّنة الأولى من سُنن المعرفة الكبرى الثلاث في الكونفوشيوسية باطلةً، وناقصةً في نظر الإسلام، وهي الأصل الذي بُني عليه سائرُ تلك الفروع، فإن تلك الفروع التي تفرعت عن ذلك الأصل الكلي أيضاً باطلة ومردودة.

ولقد سبق فيما مضى أن المراد من تجديد الشعب لدى الكونفوشيوسية: الهجرة من رذائل الأخلاق القديمة إلى فضائل الأخلاق الجديدة، وتقديم أسوة حسنة أمام الشعب للاقتداء، هذا في حد ذاته جميل جداً، ولكن للأسف الشديد، لا نجد في نظرية المعرفة الكبرى ذكراً شافياً للطريقة التي تتم بها هذه السنة العظيمة! فكيف يهاجر الإنسان من الرذائل إلى الفضائل؟ وما هي الوسائل الضرورية التي يستطيع الإنسان من خلالها التحلي بالأخلاق الفاضلة؟ وكيف يكون أسوة حسنة للشعب؟ لن نجد الجواب المقنع لمثل هذه الأسئلة في نظرية المعرفة الكبرى لدى الكونفوشيوسية.

ولهذا السبب ذهب الكثير من الباحثين إلى أن الكونفوشيوسية ليست بدين كامل؛ لأنها لا تقدم العبادات الملزمة للفرد ليتوصل بواسطتها إلى الأخلاق الفاضلة، فالأخلاق الفاضلة تتكون في الإنسان بالعبادة وشدة المجاهدة، ومن دون هذا يبقى الحديث عنها كلاماً مسطوراً في الأوراق فقط، ولا يمكن أن تؤتي ثمارها، ومن هنا نرى أن الإسلام مرة أخرى يقدم حلاً للكونفوشيوسية، وخصوصاً

تجديد الشعب، وهو أركان الإسلام الخمسة التي جاءت في جواب الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام حينما سأله عن الإسلام: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً".

أما السُّنة الثالثة من سُنن المعرفة الكبرى لدى الكونفوشيوسية؛ وهي الاستقرار في كمال الخير، والمراد منها: الوصول إلى الغاية من السُّنة الأولى والسُّنة الثانية، فهي حالٌ روحية يعود فيها الإنسان إلى الفطرة الخيِّرة، حتى لا يبقى فيه مثقال ذرة من الأهواء النفسية، والإسلام وإن كان لا ينكر إمكانية الوصول إلى مثل هذه الحال الروحية، التي يعود فيها الإنسان إلى فطرته الخيِّرة، فإنه يرى أن الفطرة الإنسانية الخيِّرة كما تراها الكونفوشيوسية ليست حقيقةَ الحقائق، والميول القلبية إلى الخير التي تتكلم عنها الكونفوشيوسية ليست إلا استعدادات إنسانية لقبول نور الهداية الإلهية في الحقيقة. وعلى هذا فهي ليست إلا أموراً مخلوقةً لله تعالى، فالله تعالى هو خالق الكل، ورب الجميع، والمنتهي إليه كل شيء، وهو الفاعل الحقيقي والمدبر، هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء(١).

ولهذا لا يكون الكمال الإنساني إلا في طاعة الله وعبادة الله، والسير على منهج رسول الله، ويرفض الإسلام ـ من هذا المنطلق ـ سُنَّة الاستقرار في كمال الخير، ويرى أن تلك الحال الروحية التي تزعُمها الكونفوشيوسية حالة ناقصة، لا تبلغ إلى درجة الكمال، بل يؤكد أن الكمال الإنساني لا يكون إلا في درجة الإحسان التي حددها رسول الله ﷺ في حديثه: "أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب– ص ٢٢٧ – ٢٣٤.

موقف الإسلام من الخطوات الثمان في نظرية المعرفة الكبرى لدى الكونفوشيوسية

ثم إذا أتينا إلى الخطوات الثمان لتطبيق نظرية المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية، وجدنا أن القضية الأولى التي تفرض نفسها علينا للمعالجة في صدد بيان موقف الدين الإسلامي منها هي قضية "البحث عن الأشياء، والارتقاء إلى المعرفة" الواردة في نص رسالة كونفوشيوس، أو نظرية "البحث عن حقائق الأشياء والارتقاء إلى المعرفة" عند الحكيم (جو شي)، وهما الخطوة الأولى والثانية من خطوات تطبيق تلك النظرية؛ لأننا لا نستطيع أن نتكلم كثيراً عن "البحث عن الأشياء والارتقاء إلى المعرفة" الوارد في نص رسالة كونفوشيوس، المنسوبة إليه قبل هذا الرجل؛ لأن تلك النظرية لم تكتمل إلا عند ظهوره، كما سبق أن ذكرنا فيما مضى من البحث، فالنص الأصلي لكونفوشيوس قصير جداً، والنص التفسيري للحكيم (تسينغ تس) لا يمكن أن يُعدَّ تفسيراً في الحقيقة، كما رأينا.

وأهم ما جدد به الحكيم (جو شي) الطريقة الكونفوشيوسية في هذا الصدد هو إدخال مفهوم الحقيقة، أو الحقائق، في شرح النص الأصلي، فجعل القضية "البحث عن حقائق الأشياء والارتقاء إلى المعرفة" بدلاً من "البحث عن الأشياء والارتقاء إلى المعرفة" في النص الأصلي، وإذا أردنا الاختصار يمكن لنا أن نقول إن المراد من نظرية "البحث عن حقائق الأشياء والارتقاء إلى المعرفة" عند هذا الحكيم هو مباشرة الأشياء، واستقصاء حقائقها للارتقاء إلى المعرفة المباشرة الشاملة المحيطة في النهاية.

فما هو موقف الإسلام من هذه النظرية التي قدَّمها الحكيم (جو شي) في مرحلة الكونفوشيوسية المحدَثة، ونال بها ما نال من الشهرة الكبيرة والمكانة المرموقة في الكونفوشيوسية؟

إن الإسلام بوصفه ديناً سماوياً مبني على حقيقة الوحي المنزَّل من الله تعالى، يرفض هذه النظرية الوضعية الإنسانية رفضاً تاماً، لأن هذه النظرية الكونفوشيوسية لا تستند إلى وحي منزل من السماء ولا تملك ضابطاً معيارياً صحيحاً يكفل صحة

البحث عن حقائق الأشياء واستقامة المعرفة.

والإسلام ـ على الرغم من توجيهه العميق، وحثه الشديد على ضرورة البحث عن حقائق الأمور، والحصول على المعرفة العليا ـ لا يقر أبداً أن الإنسان يستطيع وحده أن يهتدي إلى الحق والرشد من العلم والمعرفة دون تسليم إرادته لله تعالى، والاستسلام التام لقبول نور الوحي الإلهي، ولا يعتقد أن الإنسان يملك ضابطاً معيارياً يكفل صحة البحث عن الأشياء واستقامة المعرفة خارج دائرة الوحي الإلهي.

ويرى الإسلام أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لِـمَا في الكون كله، ورب السماوات والأرض وما بينهما من العالمين، وليس للإنسان إلا أن يقبل هذه الحقيقة ويؤمن بها، ويسلم إرادته ومشيئته لربه وملكه في الأمور كلها؛ قال تعالى: ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فيجب على الإنسان أن يقبل الوحي الإلهي والرباني في شؤون دينه وعقيدته ومنهج تفكيره، وذلك هو السند الوحيد والضابط الفريد المتكفِّل برشده وهدايته تكفُّلاً إلهيا، يضمن صحة البحث عن حقائق الأشياء واستقامة المعرفة، هذه حقيقة لا يجوز لأحد ذي عقل سليم إنكارُها؛ لأنها حقيقة تاريخية يشهد لها التاريخ البشري، والتجربة الإنسانية شرقاً وغرباً.

فالإنسان مازال يبحث عن الحقائق في كل عصر وفي كل بقعة، راجياً الوصول إلى معرفة الحقائق، ولكنه كلَّما تعمق في البحث عن حقائق الأشياء باستقلاله، دون الاهتداء بنور الوحي خرج بفلسفة مختلفة لِـمَا وجده الآخرون من إخوانه الباحثين من حقائق مزعومة؛ فقد خرج بعض الصينيين بفلسفة كونفوشيوسية، والبعض الآخر منهم خرج بفلسفة طاوية معادية لِـمَا وجده الكونفوشيوسيون، وقد خرج بعض الهنود بفلسفة هندوسية، والبعض الآخر منهم بفلسفة بوذية مخالفة لهم. كما خرج اليونان بفلسفة إغريقية بما فيها من مذاهبَ متضاربة، وهناك فلسفات أخرى قديمة وحديثة لا تُحصى. وأصحاب كل هذه الفلسفات يدَّعون

معرفة حقائق الأشياء دون الآخرين، وتحت كل فلسفة مدارسُ كثيرة، والكل أيضاً يدَّعون معرفة الحقائق دون مخالفيهم. وليس هذا فحسب، بل نجد الفلاسفة والحكماء يختلفون في أهم قضية من القضايا الفلسفية والعقدية، ألا وهي قضية العقيدة في الإله؛ فمن قائل بإله واحد، ومن قائل بإلهين اثنين هما النور والظُّلمة، ومن قائل بتعدُّد الآلهة، ومن منكر لوجود الإله أصلاً، والكل يدَّعون معرفة حقيقة الأمر دون غيرهم.

وهذا أقوى دليل على أن الإنسان لن يستطيع أن يصل إلى معرفة الحقائق بعقله أو قلبه، ولو أنفق سائر عمره في البحث والدراسة، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالأمور الغيبية.

انطلاقاً من هذه الحقيقة، التي لا يجوز إنكارها في المنطق السليم؛ أي: إن الإنسان عاجز عن معرفة الحقيقة بمحاولات بحثه وحده، يرى الإسلام أن الإنسان يجب عليه أن يعترف بهذه الحقيقة، ويقبل الهداية الإلهية المنزلة من السماء بواسطة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويرى الإسلام أن هذه هي المقدمة الأولى والشرط الضروري لبداية السفر الطويل للحصول على معرفة الحقائق؛ لأن الحقائق كلها كامنة في داخل الوحي المنزل من عند الله تعالى، وليس على الإنسان إلا أن يستسلم لهذه الحقيقة قبل بداية رحلته في البحث عن الحقائق والارتقاء إلى المعرفة.

ويتضح من هنا أن نظرية البحث عن حقائق الأشياء، والارتقاء إلى المعرفة في الكونفوشيوسية نظرية ناقصة غير مبنية على الحقيقة الثابتة من الوحي المصون، وما ذهبت إليه الكونفوشيوسية من أن سنة التوسط ضابط معياري يضبط صحة المعرفة واستقامتها لا يمكن الاعتماد عليه؛ لأنها أيضاً وضع إنساني لا يستند إلى سلطان سماوي. ومما يدل على صحة قولنا هذا: أن الكونفوشيوسية ـ على الرغم من زعمها الأكيد في التمسك بسنة التوسط ـ لم توفِّق بين الاهتمام بالحياة الدنيا والاهتمام بالحياة الآخرة كما أشرنا إليه من قبل. وأخفقت أيضاً في حفظ التوازن

بين العبادات الدينية وبين تجلية الأخلاق المشرقة، فإنها تبالغ في الاهتمام بالحياة الدنيا دون الالتفات إلى الآخرة، كما تبالغ في الحث على الأخلاق، وأغفلت أثر العبادات الدينية في تزكية النفس، والتحلي بالفضائل الخلقية.

ويرى الإسلام ـ من هنا ـ أن الإيمان بالله تعالى وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، والاستسلام التام لهداية الوحي المنزل من السماء نقطة البداية لأية رحلة ناجحة إلى البحث عن حقائق الأشياء، والارتقاء إلى المعرفة الصحيحة، ومن دون هذه المقدمة الضرورية لا يحصل الإنسان على شيء يليق باسم المعرفة.

فالإسلام، بعد رفضه لهذه النظرية الناقصة، التي لا حُجَّةَ لها من الوحي السماوي، يوجِّه دعوته الخالدة إلى الكونفوشيوسيين أن يفتحوا أعينهم لينظروا إلى شمس النبوة المحمدية؛ لأنها وحي منزَّل من الله تعالى، والحقائق والمعارف التي يطلبونها كلُّها كامنة في داخل هذا الوحي الذي ختم الله تعالى به هدايته للبشرية، وإذا استجابوا لذلك، فسيجدون الحقائق والمعارف التي يبحثون عنها، ويهتدون بها إلى الحق.

٢- القضية الثانية التي تفرض نفسها علينا للمعالجة في صدد بياننا لموقف الإسلام من الخطوات الثماني لتطبيق نظرية المعرفة الكبرى في الكونفوشيوسية؛ هي ما يُسمَّى عندهم بـ "طريقة النبي في الباطن"، وهي ـ كما مر ذكرها ـ الخطوات الخمس الأولى من تلك الخطوات الثمان، وهي: البحث عن حقائق الأشياء، والارتقاء إلى المعرفة، وإخلاص النية، وتقويم القلب، وتزكية النفس، كما يدَّعون.

فالكونفوشيوسية ترى أن الإنسان لا يمكن أن يكون "نبياً في الباطن" إلا إذا أتمَّ هذه الأمور الخمسة، وأكمل هذه الخطوات في رحلته إلى المعرفة الكبرى. فمن بحث عن حقائق الأشياء، وارتقى إلى المعرفة، وأخلص نيته، وقوَّم قلبه، وزكَّى نفسه وفق ما جاء في كتاب المعرفة الكبرى، يدخل حينئذ في زمرة "الأنبياء في الباطن". فما هو موقف الإسلام من هذه النظرة الكونفوشيوسية؟

إن الإسلام لا يقبل هذه النظرية الكونفوشيوسية عن مفهوم "النبي في الباطن"؛ لأن النبي في المفهوم الإسلامي رجلٌ أُوحيَ إليه من عند الله تعالى؛ سواء أكان من المكلَّفين برسالة وشريعة، أم لم يكن. قال الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾ [النساء: ١٦٣].

وأما الذي بيَّنه كتاب "المعرفة الكبرى" من مفهوم كونفوشيوسي عن "النبي في الباطن"، وما لابد أن يستوفي فيه من أمور، أو صفات، أو خطوات ضرورية، فليست صفةً جوهرية للنبوة والنبي في نظر الإسلام. نعم، إن هذه الأمور، أو الصفات مطلوبة ولازمة في النبوة والنبي، ولكن الإسلام لا يرى أن مَن استوفى هذه الأمور، أو الصفات يكفي أن يكون نبياً، فالوحي الإلهي شرط جوهري ملزم في النبوة والنبي في الإسلام.

٣- والقضية الثالثة التي لابد لنا من التطرق لها في بيان موقف الإسلام من الخطوات الثماني لتطبيق نظرية المعرفة الكبرى لدى الكونفوشيوسية هي ما يسمى عندهم بـ"طريقة الملك في الظاهر"، وهي رعاية الأسرة، وتحسين سياسة المملكة، ونشر السلام تحت السماء. وهي الخطوات الثلاث الباقية الأخيرة بعد اجتياز تلك الخطوات الخمس الأولى، التي تُعدُّ من "طريقة النبي في الباطن" في سبيل الحصول على المعرفة الكبرى.

فالكونفوشيوسية ترى أن الإنسان لا يصلح أن يقوم بـ"طريقة الملك في الظاهر" إلا إذا أتمَّ الخطوات الخمس الأولى من "البحث عن حقائق الأشياء، والارتقاء إلى المعرفة، وإخلاص النية، وتقويم القلب، وتزكية النفس"، ويصبح بها "نبياً في الباطن". وإذا فعل ذلك، جاز له أن يتولَّى أمور الناس؛ لأنه قد أصبح كاملاً في نفسه، فيجوز له أن يكمل الآخرين، أو ـ بعبارة كونفوشيوسية ـ يجوز له أن يشرع في تجديد الشعب بعد تجلية الأخلاق المشرقة في نفسه.

ويبدأ تجديد الشعب، أو العمل بطريقة الملك في الظاهر في الكونفوشيوسية، أولاً من الأسرة التي يعيش فيها، ثم يمتد إلى خارج المجتمع، حتى المملكة والعالم بأسره. ومن هنا ترى الكونفوشيوسية أن الإنسان إذا صار "نبياً في الباطن"، واستطاع أن يرعى أسرته خيرَ رعاية، سيتلقَّى الأمانة السماوية، المشهورة عندهم بـ "تيان مينغ" لتولِّي حكم المملكة، ويصبح "ملكاً في الظاهر".

ومن هنا ذهبت الكونفوشيوسية إلى أن الدين لا ينفصل عن الدولة، وأن الحاكم المثالي الأكمل على المملكة السعيدة لا بد أن يكون "نبياً في الباطن وملكاً في الظاهر" معاً. وعلى هذا الأساس النظري رفضت الكونفوشيوسية وجود "الملوك الأنبياء" بعد أسرة "تشو" الملكية، وحتى كونفوشيوس نفسه لم يكن "ملكاً نبياً"؛ لأنه لم يتلق الأمانة السماوية لتولي حكم المملكة، وكان نبياً فقط، واعتبرت سائر الملوك بعد عصر الملوك الأنبياء "ملوكاً بالاسم" فقط، بل طُغاة في نظر بعض العلماء. فما موقف الإسلام من هذه الطريقة؟

إن الإسلام يشارك الكونفوشيوسية في عدم فصل الدين عن الدولة، ويرى الإسلامُ نفسه ديناً ودولة معاً كما يرى نفسه شريعةً وطريقة، وعبادة وأخلاقاً، وسياسة واقتصاداً، ونظاماً للحياة الدنيوية، وطريقاً إلى الحياة الآخرة في الوقت نفسه.

والإسلام دين الشمول والكمال، يشمل كل جانب من الجوانب الإنسانية المختلفة، وليس هناك مسألة تتعلق بالإنسان إلا ولها في هذا الدين جواب، ولا مشكلة إلا ولها حل. ومن هنا كان للإسلام عناية شديدة بالدولة، كما كان له عناية شديدة بمختلف مظاهر الحياة الإنسانية الأخرى، لقد اعتنى العلماء والفقهاء بأمر الدولة، وحددوا أصولها وغاياتِها ووظائفها، وبيَّنوا الشروط اللازمة في الإمام أو الخليفة وفق ما جاء في القرآن والسنة، ورأوا أن إقامة الدولة الإسلامية واجب بإجماع الأمة، ومهمة الدولة في نظر الإسلام حراسة شؤون الدين والدنيا، وتحقيق السعادة للبشر في الحياة الدنيا والآخرة.

وعلى الرغم من مشاركة الإسلام للكونفوشيوسية في عدم فصل الدين عن الدولة، فإنه يرفض مفهوم الدولة الكونفوشيوسية، ويراها دولةً دنيوية؛ لأنها قائمة على تحقيق السعادة الدنيوية لشعبها دون الالتفات إلى تحقيق سعادة الحياة الأبدية في الآخرة، وهذا واضح لمن يقرأ الفصول الثلاثة الأخيرة من كتاب المعرفة الكبرى، ليعلم بأن اهتمام الكونفوشيوسية بالأخلاق الفاضلة، أو بتجلية الأخلاق المشرقة ليس إلا وسيلة للوصول إلى تلقِّي الأمانة السماوية للحكم على المملكة، وهذا يخالف تماماً روح الدين الإسلامي، الذي يفضِّل الآخرة على الدنيا، ويرى أن النجاة الأخروية هي الهدف الأسمى لكل مؤمن، قال تعالى مخاطباً نبيَّه ﷺ: ﴿ **وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** ﴾ [الضحى: ٤ – ٥].

وقال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** ﴾ [غافر: ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: "يا عبدالله، كن في الدنيا كأنك غريب أو كأنك عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور"(١).

فالإسلام لا يقر بنظرية "طريقة الملك في الظاهر" الكونفوشيوسية، كما يرفض نظرية "طريقة النبي في الباطن" رفضاً قاطعاً؛ لأنها لا تتمشى مع روحه المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [البقرة: ٢٠١].

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى نرى أن هناك حقيقةً عظيمة نحب أن نشير إليها فيما يتعلق بنظرية "طريقة الملك في الظاهر" في الكونفوشيوسية، وندعو علماءهم بها إلى الإسلام، وهي ظهور نبينا محمد ﷺ على العالم بوصفه نبياً.

ونبينا محمد بن عبدالله ﷺ قد حقق في سيرته المباركة ما لم يستطع

---

(١) رواه الإمام ابن ماجه في سننه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، باب مثل الدنيا، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ص ١٣٧٨.

كونفوشيوس أن يحقق جزءاً يسيراً منه، كما أن كونفوشيوس ـ كما علمنا من التاريخ الصيني ـ لم يتلق الأمانة السماوية من "تيان" للحكم على المملكة الصينية يوماً من الأيام، باتفاق علماء الكونفوشيوسية، كما لم يظهر أحد من أتباعه من بعده استطاع أن يحقِّق نظريته في الواقع، وصار "نبياً في الباطن وملكاً في الظاهر" على طول تاريخ الصين.

ونرى من هنا أن هذه الحقيقة التاريخية كافية في البرهنة على نبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته العالمية أمام الكونفوشيوسية، وكأن كونفشيوس لم يطرح هذه النظرية في المعرفة الكبرى إلا ليحقِّقها سيدنا محمد ﷺ بعد أكثر من عشرة قرون من الزمن ! وليس للكونفوشيوسية إلا أن تعترف بهذه الحقيقة، والله أعلم بالحقائق وهو يهدي السبيل(١).

٧- الإصلاح الأخلاقي بين الإسلام والكونفوشيوسية

١- مطابقة الأسماء مع مسمياتها :

يرى كنفوشيوس وجوب مطابقة الأسماء مع مسمياتها، أو عدم التلاعب بالألفاظ؛ حتى لا يقع الخلط واللبس، وأن الرجل الكامل لا يستهين بكلامه، ولا يهمل في تعبيره.. وحقاً، فإن التلاعب بالألفاظ يوهن الأخلاق، ويفسد السلوك، ويخرِّب الضمائر، ويوهن العلاقات، ويضيع الحقوق.

والإسلام قد بيَّن خطورة الكلمة وأثرها؛ فالكلمة إما أن تكون سبباً في سعادة صاحبها في الدنيا والآخرة، وإما أن تجلب له الشقاء في الدارين؛ قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب– ص ٢٣٥-٢٤٢ بتصرف.

وفي قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل "كُفَّ عليك هذا" . فلما استوضح منه قال له ﷺ : "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوهم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائدُ ألسنتهم"(١). فظاهر هذا الحديث يدل على أن أكثر ما يَدخلُ الناسُ به النارَ النطق بألسنتهم؛ فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك، وهي أعظم الذنوب عند الله عز وجل. ويدخل فيها القول على الله بغير علم، وهو قرين الشرك، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراكَ بالله عز وجل، ويدخل فيها السحرُ والقذف، وغير ذلك من الكبائر والصغائر؛ كالكذب، والغيبة، والنميمة. وسائر المعاصي الفعلية لا تخلو غالباً من قول يقترن بها يكون مُعيناً عليها.

قال ﷺ : "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن يبلُغَ ما بلغت، يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه"(٢).

وروى الإمام مالك أن عمر دخل على أبي بكر رضي الله عنهما وهو يجبذ لسانه، فقال عمر: مه، غفر الله لك! فقال أبو بكر: هذا الذي أوردني الموارد(٣).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان(٤).

وفي عصرنا هذا وجدنا التلاعب في الألفاظ، وتمييع القضايا؛ فمثلاً وجدنا: تسمية الخمر بغير اسمها، التحايل على الربا باسم التجارة وفوائد البنوك، أو ضرورات العصر، والانحلال الأخلاقي تحت مسمى الحرية الشخصية.

والحرية الحقيقية في الإسلام: هي التي تعني انعتاق الإنسان من عبودية أخيه الإنسان، وانعتاق الشعوب من عبودية الشعوب الأخرى، وانعتاق الإنسان من عبودية المال والشهوة والجنس والمنصب والكرسي وما إلى ذلك.

(١) الترمذي ٥/ ١١، وابن ماجه ٢/ ١٣١٤.

(٢) البخاري ٥/ ٢٣٧٧.

(٣) البزار ١ / ١٦١، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥ / ٣٢٠.

(٤) الطبراني في الكبير ٩/ ١٤٩، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥ / ٣٢٠.

– احترم الإسلام ذات الإنسان وقدرها وكرَّمها، وحرم كلَّ ما يؤذيها في العاجل والآجل.

– احترم الإسلام حرية المأوى في البيت والوطن دون مصادرة أو سجن، أو نفي، إلا أن يرتكب جُرماً، أو يقترف إثماً عظيماً.

– احترم الإسلام حرية الاعتقاد وحرية العبادة(١).

لكن أن يستعمل الإنسان الحرية الشخصية في إفساد ذاته، أو التعدِّي على حقوق الآخرين، أو أخذ أموالهم بغير حق، أو انتهاك الحدود، والتعدي على الحرمات تحت مسمى الحرية الشخصية، فلا يجوز هذا.

وإذا ذهبنا نستقصي الألفاظ التي يُتلاعب بها، والأسماء التي تُطلق على غير مسمياتها، لطال بنا الحديث، لكن تكفينا هذه الإشارات السريعة التي أشرنا إليها.

مصدر الأسماء:

لم ينسب (هسون تزو) الأسماء والمصطلحات إلى مصدر إلهي، وإنما هي – في نظره – من وضع البشر، ليسهُل التعامل معها، والتخاطب فيما بينهم دون تدخل للإله في هذه الأسماء، وربما كان كونفوشيوس نفسه وباقي أتباعه على هذا الاعتقاد.

لكن علماء المسلمين يرون أن الأسماء فطرية في الإنسان، وأن الله هو الذي أودعها في هذا الإنسان، وعلَّمه إياها في شخص أبيه آدم، كما قال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٣١].

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: علمه أسماء جميع الأشياء كلّها؛ جليلها وحقيرها. وإذا كانت الأسماء والصفات والحكم على الأشياء، وأدوات النطق والكلام وآلات الفهم والبيان من الله سبحانه وتعالى، فإنه سيسأل كلَّ إنسان عمَّا فعله بهذه الآلات، وما تكلم به، فالله عز وجل يقول: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

---

(١) حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية – د. عبدالله ناصح علوان – ص ٥٠

٢- الفطرة البشرية بين الخير والشر:

اختلف الكونفوشيوسيون حول الفطرة البشرية:

فمن قائل: إن أصلها الخير، والشرُّ طارئ عليها، ومن قائل: إن أصلها الشر، والخيرُ طارئ عليها بالاكتساب والثقافة الاجتماعية، ومن قائل: إنها مزيجٌ من الخير والشر، وذلك في الكونفوشيوسية الجديدة.

والقرآن الكريم له كلمة الفصل والحسم في هذا الأمر؛ لأن القرآن كلمة الله، وهذا الإنسان خَلْقُ الله وصنعة الله، والخالق الصانع هو الذي يعلم ما في داخل صنعته، وما يحركها ويدفعها، وما يصلحها وما يضرها: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

جاء الإسلام ليضع الكلمة الفصل في هذه المسألة التي حيَّرت علماء الشرق والغرب منذ القِدَم.

الفطرة البشرية هي قبضة الطين، ونفخة الروح العُلوية في ذلك الطين، وامتزاجها به وتوحُّدها فيه.. والإسلام يربط بين الروح والجسد، ويوحِّد بينهما في كل ما يصدر عنها من مشاعر وأفكار وأعمال.

هذا لأن الإنسان هو إنسان بامتزاج الطين مع الروح، القبضة الأرضية مع النفخة العلوية التي أخرجت هذا المخلوق العجيب، الذي سما على كثير من المخلوقات، وفضَّله الله على كثير من خلقه تفضيلاً، وأعمال الجسد التي يتعاطاها حين تُوَجَّه وجهتها الصحيحة، وتصدر باسم الله، وعلى منهاج الله تكون أعمالاً روحية، وعباداتٍ نورانية.

الخير والشر فُطِرا في الإنسان وهو مستعد للاثنين معاً، فمن غلَّب في نفسه جانب الخير كان خيِّراً حسب طبيعته واستعداده، زاده الله هدى وآتاه تقواه، ومن غلَّب جانبَ الشر، كان شرِّيراً حسب فطرته واستعداده، وأضلَّه الله، وأتبَعَه الشيطانَ، فكان من الغاوين؛ أي: إن النفس البشرية خليط من الخير والشر،

كلاهما مركوز في أصل الفطرة البشرية وليسا طارئين عليها.

يقول الأستاذ محمد قطب: الإنسان في نظر الإسلام كائن؛ لا هو بالملك ولا بالحيوان، وإن كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن يصبح أسوأ من الحيوان، وفي بعض حالات الارتفاع أن يسمُوَ بروحه إلى مستوى الملائكة من الطُّهر.

ولكنه في حالته الطبيعية شيء بين هذا وذاك، مشتمل على استعداده للخير، كما هو مشتمل على استعداده للشر، وليس أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه(١).

ومهمة الإسلام وغايته من هذا الإنسان هي إيجاد التوازن في نفس الفرد، فيؤدي إلى إيجاد التوازن في المجتمع، بل في الإنسانية كلها بعد ذلك في حدود الإمكان. والقرآن الكريم يذكُر هذه النفس.. يذكرها في جميع حالاتها.. يذكرها مؤمنةً وكافرةً.. خيِّرةً أو شرِّيرة.. مقبلة أو معرضة، ويبين استعدادها لقبول جميع الأعراض، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٢ - ٣].

﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ [العاديات: ٦ - ٨].

ومن هذه الآيات وغيرها يتبين لنا خطأ من يفسِّر النفس البشرية على أنها خير محض، أو يفسرها على أنها شرٌّ محض، وما ذاك إلا لأنه قطع صلته بالوحي المعصوم، الذي نزل من عند الله خالق هذه النفس ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

فليس الإنسان جسداً خالصاً، وليس هو روحاً خالصة، فينشأ الخير من الإنسان

---

(١) انظر: الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص٢٢٥.

إذا ما غلبت عليه الروح، وينشأ الشر إذا ما غلب عليه الجسد. ولا شك أن النفس قد تعلو بصاحبها، فتدفعه إلى الخير، وتقوده إلى البر، أو تهوي به فتجذبه إلى الشر، وتدلُّه على الفجور. فإما اتِّباع للهوى، فيكون شرِّيراً، ومصيره إلى النار، وإما فعلٌ للخير وسعي للبرِّ، فيكون مآله إلى الجنة والسعادة في الدارين: ﴿**فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

والإنسان هو الذي يختار بنفسه: إما طريق الخير، ويسلك أسبابه، فيُيَسَّر له الخير ويهديه الله إليه، وإما إن يختار طريق الشر، ويسلك الأسباب الموصلة إليه، فيَكِلُه الله إلى نفسه، ويظل في هذا الشر: ﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل: ٤ - ١٠].

ويقول ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصرانه، أو يمَجِّسانه". فالنفس إذا تُركت بفطرتها أقرَّت بالألوهية لله، وعبدت الله لا تشرك به شيئاً، واستقامت على الخير وسعت إليه، ولكن يفسدها أثر شياطين الإنس والجن وإفسادهم لها؛ بالاستعداد الفطري أيضاً، الذي وضعه الله فيها لحكمة بالغة، ورحمة سابغة(١).

٣- الوسطية في الأفعال والأخلاق:

منهج الإسلام وسط في الأخلاق التي وضعها للإنسان بين من أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية، فعدُّوها خيراً محضاً، ووضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين من أساؤوا الظن بالفطرة البشرية، فعدوها شراً محضاً، فوضعوا له وأرادوا له من السلوك ما لا يليق به.

---

(١) قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي - د. مصطفى حلمي - ص ٢١٢ -٢١٣.
عن الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٢٢٩.

والإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه مزيج من الروح والجسد، من الطين والنور، من الخير والشر. والإسلام في أخلاقه وضع للناس القِيَم العليا والأخلاق الفاضلة، وحبَّب لهم الصعود إليها، لكنه لم يقسرهم قسراً، ولم يجبرهم جبراً، بل راعى ما يجول في أنفسهم، وما يعمل في غرائزهم، ودعاهم إلى السمُوِّ والارتفاع، فلم يجذبهم إلى المُثُل العليا جذباً عنيفاً، ولم يتركهم يخلُدون إلى الطين والانحطاط دون منبِّه لهم وموقظ لمشاعرهم.

فالإسلام في أخلاقه وأعماله دين وسط، يوازن بين الدنيا والآخرة، بين الدين والدنيا، بين الفرد والمجتمع، وبين أمة الإسلام وغيرها من الأمم الأخرى، فلا يهتم بجانب دون جانب، أو يدعو إلى الأخلاق في مكان دون آخر، بل يوازن بين الجميع، ويعطي لكل ذي حقٍّ حقَّه، وجعل الإسلام للأخلاق المحمودة حداً وسطاً، مَنْ مالَ فيها إلى أحد جانبيه، فقد أساء وظلم، وخيرُ الأمور الوسط.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "للأخلاق حدٌّ، متى جاوزته صارت عدواناً، ومتى قصَّرت عنه كان نقصاً ومهانةً.

فللغضب حد، وهو الشجاعة المحمودة والأَنَفَة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله، فإذا جاوز حده تعدى صاحبُه وجار، وإن نقص عنه جبُن ولم يأنَفْ من الرذائل. وللحرص حد، وهو الكفاية في أمور الدنيا، وحصول البلاغ منها. فمتى نقص من ذلك، كان مَهانَةً وإضاعةً، ومتى زاد عليه كان شَرَهاً ورغبةً فيما لا تُحمد الرغبة فيه.

وللحسد حدٌّ، وهو المنافسة في طلب الكمال، والأَنَفَة أن يتقدم عليه نظيره. فمتى تعدى ذلك صار بغْياً وظلماً، يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك، كان دناءةً وضعفَ همةٍ وصِغَرَ نفس. قال النبي ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلَكَتِه في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها الناس"(١).

---

(١) رواه البخاري (١ / ٣٩) ومسلم (١ / ٥٥٨).

فهذا حسد منافسة، يطلب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود، لا حسدَ مهانةٍ، يتمنى به زوالَ النعمة عن المحسود.

وللشهوة حدٌّ، وهو راحة القلب والعقل من كَدّ الطاعة، واكتساب الفضائل، والاستعانة بقضائها على ذلك. فمتى زادت على ذلك صارت نُهمةً وشَبَقاً، والتَحَقَ صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه، ولم يكن فراغاً في طلب الكمال والفضل كانت ضعفاً، وعجزاً ومهانةً.

وللراحة حدٌّ، وهو إجمام النفس والقُوى المدرَكة والفعَّالة للاستعداد للطاعة، واكتساب الفضائل، وتوفرها على ذلك، بحيث لا يُضعفها الكدُّ والتعب ويضعف أثرها. فمتى زاد على ذلك كان توانياً وكسلاً، وإضاعةً، وفات به أكثرُ مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مُضراً بالقوى، موهناً لها، وربما انقطع به؛ كالمنبتٌ، لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

والجود له حد بين طرفين، فمتى جاوز حدَّه صار إسرافاً وتبذيراً، ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً.

وللشجاعة حد متى جاوزته صارت تهوُّراً، ومتى نقصت عنه صارت جبناً وخوراً.

وللتواضع حد: إذا جاوزه كان ذُلاً ومهانةً، ومتى قصَّر عنه انحرف إلى الكِبْر والفخر.

والغيرة لها حد: إذا جاوزته صارت تُهمةً وظنّاً سيئاً بالبريء، وإذا قصَّرت عنه كانت تغافُلاً ومباديءَ دِياثةٍ.

وللعز حدٌّ إذا جاوزه كان كِبْراً وخُلُقاً مذموماً، وإن قصَّر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

وضابط هذا كلِّه العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به"(١).

---

(١) الفوائد – الإمام ابن القيم الجوزية – ص ١٢٤ – ١٢٦ بتصرف.

وفي مجال العبادات: الوسط والاعتدال أيضاً مطلوب، فلا ينبغي للمسلم أن يرهق نفسه، أو يؤذي جسده؛ يدل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رَهْطٍ إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنَّهم تقالُّوها. قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا، فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقُد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي، فليس مني"(١).

وتعذيب الجسد وتحميله ما لا يطيق ليس من مناهج الإسلام ووسائله لبلوغ الكمال المنشود؛ إذ ليس من لوازم هذا الكمال ومقتضياته فعلُ ذلك، ولا من مقاصد الإسلام تعذيبُ الجسد... ومن ظن ذلك، فهو واهم. مثاليةُ الإسلام، يمكن بلوغُها بنهج معتدل وسير مريح"(٢).

٤- عدم الانغماس في الشهوات:

دعا كونفوشيوس أتباعَه إلى التقليل من الدنيا وخشونة العيش حتى يتفرغوا للعلم والتحصيل، ويرضَوْا بالقليل، ويتدربوا على شَظَف العيش الذي سيلاقونه في رحلاتهم العلمية، وقد وقع أتباعه من بعده في التزلُّف للسلطان، أو انتظار عطايا السلطان والأمير، ليسدُّوا خَلَّتهم، ويُشبعوا حاجاتهم، وإن كان "منشيوس"، ومَنْ سار على دربه من علماء الكونفوشيوسية قد علق هذا العطاء بوجوب أن يكون رسمياً، وأن يُرسل للعلماء عن طريق موظف كبير، يكون عادةً رئيس الوزراء مثلاً، كذلك من قبل فرح كونفوشيوس فرحاً عظيماً عندما أُسند إليه

(١) أخرجه البخاري (٥ / ١٩٤٩) ومسلم (٢ / ١٠٢٠).

(٢) أصول الدعوة - عبد الكريم زيدان - ص ٧٢.

منصب مهم، وهو تولّي منصب القضاء، أو وزارة الجريمة، مما يدل على تعلُّقه بالدنيا، وسعيه وراء الشهرة والجاه... نعم هو كان يريد التغيير من خلال هذا المركز، لكن ظهر عليه التعلُّق والرغبة في الظهور.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ أمتَه من حب الدنيا والتعلُّق بها، ودعاهم إلى التقلُّل منها، وجعلها مطيةً للآخرة، يزرع المرء خيراً ليحصده غداً جناتِ عدنٍ، كما دعاهم أيضاً أن يرضوْا بما قسم الله لهم فيها، وأن يقنعوا بما آتاهم منها؛ لأنها ليست دارَ مقر، بل هي دارُ ممر، فعليهم أن يسَخِّروها في مرضاة الله، وفيما يسعدهم في دار البقاء. فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك"(١). ومعناه: ألاَّ تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدِّث نفسك بطول البقاء فيها.

فالعاقل هو الذي لا ينغمس في الدنيا، ولا يركن إليها، ولا يطمئن بها، إن الانكباب على الدنيا وعمارتها، والاهتمام بها حق مشروعٌ، على أن تكون وسيلةً إلى ما وراءها، أما الانكباب عليها والغفلة عما سواها، فضلال بعيد.. قال تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾** [الشورى: ٢٠].

ولا يصح أن تكون الدعوةُ إلى عدم الانكباب على الدنيا والإغراق في الشهوات دعوةً إلى تحريم الحلال، أو تعطيل الحياة، كلا فما يريد الله هذا من عباده؛ فقد قال تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** [الأعراف: ٣١].

---

(١) البخاري (٥ / ٢٣٥٨).

فلا يصح من العاقل أن يزهد في الدنيا كليةً، أو يحرِّم على نفسه طيبات الرزق، معتقداً أن ذلك قُربة لله تعالى، فربما يكون تناوله لنعيم الدنيا معيناً له على طاعة الله، مقوِّياً بدنَه على العبادة، فإن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

٥- قبول الأخلاق للتغيير والتهذيب:

يرى كونفوشيوس ومَنْ معه أن الأخلاق الإنسانية قابلة للتهذيب والتغيير لِمَا هو أفضل وأحسن وأكمل، عن طريق التهذيب والترويض والمجاهدة والتعليم، وذلك خلافاً لما كان يعتقده "لاو تس" وغيره من المتشائمين، الذين يقولون بأن أخلاق الناس لن تتغير للأحسن، فالأوْلى عندهم أن يُترَك الناسُ وشأنهم.

وبالتقويم والتهذيب يستقيم الخلق، وتتأدب النفس، وتزكو الطِّباع، ويتعدل السلوك، ولا غَرْوَ؛ فقد امتدح الله مَنْ عمل على تزكية نفسه وتطهيرها؛ فقال عز وجل: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩ – ١٠].

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وضع في الإنسان استعداداً للكمال، وهيَّأه لقبول الأخلاق العظيمة الحسنة.

ولهذا كان مِنْ أهم ما بُعث به الرسول ﷺ: تقويمُ أخلاق الإنسان، الذي خلقه الله، وجعل فيه استعداداً للكمال الخُلُقي، ورسم الطريق لهذا الأخلاق، وتحديد معالمها، وتوضيح حدودها؛ كي تسير في الطريق السليم. قال تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٥١].

فالوصول إلى الأخلاق الحسنة، والابتعاد عن الرذائل منها أمر ممكن؛ فقد أمر به الشرع الحنيف، والإسلام لا يأمر إلا بأمر مستطاع غيرِ مستحيلٍ، ومما يؤكِّده المنصفون في كل عصر ومصر أن "الأمم لا تنهض من كبوة، ولا تقوى من ضعف، ولا ترقى من هبوط إلا بعد تربية أصيلة حقَّةٍ، وإن شئت، فقل: بعد تغير نفسي

عميق الجذور، يحوِّل الهمود فيها إلى حركة، والغفوة إلى صحوة، والركود إلى يَقَظَة، والفتورَ إلى عزيمة، والعُقم إلى إنتاج، والموت إلى حياة. تغيُّرٌ في عالم النفس أشبه ما يكون "بثورة" أو "انقلاب" في عالم المادة، تغير يحوِّل الوجهة والأخلاق والميول والعادات، تغيُّر نفسي لابد أن يصاحب كلَّ حركة أو نهضة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [الرعد: ١١](١).

"إن المسلم لا يكتفي بأن يعرف الحق.. ولا يكتفي بالوقوف إلى جانب الحق وإثبات الولاء له.. كما يفعل بعض الانطوائيين وغُلاة الصوفية ـ (وكذلك ما كان يريده "لاو تسي" ومريدوه)، ولكنه مطالب دائماً بإقناع الناس به، وضمِّهم إليه، ووسيلتُه في ذلك: الحكمة، والصدر الرحب، والفكر المستنير، والتسامح مع الآخرين دون قهر ولا إجبار.

وإن دعوى أن الأخلاق غيرُ قابلة للتغيير، ولا جدوى من محاولة تهذيبها؛ لأن الخَيِّر خَيِّرٌ بطبعه، والشِّرِّير شرِّير بطبعه، كما يولد الحَمَل وديعاً، والنمر مفترساً، ولا يمكن تغيير هذه الطبائع، هذه الدعوى دعوى باطلة، ينقضها الشرع والعقل والواقع والتجربة... فالنفس الإنسانية، وما فيها من قابليات واستعدادات وسجايا وجبِلاَّت، حينما نتعهدها بالأخلاق، ونمدُّها بالعلوم، ونرفدها بالعمل الصالح، فإنها تنشأ على الخير، وتدرج على الكمال. أما إذا أهملها وتركها للأيام حتى علاها صدأ الجهل، وغشيَها عدوى خلطاء السوء، وتراكمت عليها أنقاض العادات الذميمة.. فإنها ـ ولا شك ـ تنشأ على الشر والفساد والإباحية(٢).

---

(١) الإيمان والحياة – د. يوسف القرضاوي – ص ٣٠٦ بتصرف.

(٢) أخلاقية الداعية – عبدالله ناصح علوان – ص ١٠–١٣ بتصرف

انظر: الكونفوشيوسية– سليم المسلمي – ص ٢٣٢– ٢٤٢.

٨- الإصلاح الاجتماعي بين الإسلام والكونفوشيوسية

١ – العلاقة بين الفرد والمجتمع :

الفرد الصالح هو الأساس لكل مجتمع سليم، والفرد والمجتمع لا ينعزل أحدهما عن الآخر، ولا تنفصم العلاقة بينهما إلا في حالات القسر والشذوذ، والانحراف عن الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

والفرد الصادق الصالح حقاً هو الذي يحترم نفسه مع مجتمعه، ويقدِّر تبعاته ومسؤولياته تجاه هذا المجتمع؛ فيقوم بالحقوق، ويؤدي الواجبات، وينهض لإنقاذ المجتمع من براثن الفساد، وغيوم الضلال، ومضلاَّت الفتن.

ولقد جعل الإسلام التكافل بين الفرد والمجتمع متكاملاً في كل الأمور:

أ – لقد بدأ الإسلام، فجعل التكافل علاقة تربط بين المرء ونفسه، فجعل الفرد مسؤولاً عن نفسه أمام الله، يمتعها بالطيبات، ويصدها عن الخبائث، ويمنحها حقها من العمل والراحة، فلا يدعها تترهل من البطالة، أو تنهك من الإجهاد، وهو تكافل فردي في ظاهره، ولكنه في حقيقته تكافل اجتماعي على المعنى الواسع الذي يعنيه الإسلام؛ ذلك أن تربية الفرد على هذا النحو إنما هي إعداد له في ميدان الحياة الاجتماعية، ولهذا التهذيب نتائجه في السلوك الاجتماعي والإنساني.

ب – بعد ذلك ينقل الإسلام التكافل بين الفرد والأسرة، فيقيم الأسرة على أسس وطيدة من التكافل الذي يتعادل فيه الغُنْم والغُرْم، وتتناسق فيه الحقوق والواجبات. والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، والتكافل في الأسرة ليس مجردَ تكافل اقتصادي، إنما هو تكافل إنساني كامل، يشمل واجب الحماية للأمومة، وواجب العناية بالأطفال، وإعدادهم للحياة جسمياً وعقلياً وروحياً، وواجب الرعاية للآباء والأمهات عند الكبر والهرم، إلى جانب التكاليف المادية التي تقوم عليها الأسرة، والتي حرَص الإسلام فيها على تحقيق العدل بين الرجل والمرأة في أعباء الحياة.

ج- فإذا انتقلنا من الأسرة إلى محيط الجماعة، وجدنا التكافل الاجتماعي يشمل كل العلاقات الاجتماعية، ولا يقف عند حدود المال والاقتصاد، فكل فرد مكلَّف أن يحسن عمله الخاص؛ لأن ثمرة عمله عائدة على الجماعة، ويرعى حُرُمات الجماعة، ويجاهد في سبيل صيانتها ما استطاع.

وجملة القول: إن الفرد عضو في المجتمع، والمجتمع مجموعة أفراد، لا يمكن أن يُنظر إلى أحدهما بمعزل عن الآخر؛ لأن مصلحة كل منهما مرتبطة بمصلحة الآخر.

٢- الاختلاط بالمجتمع ومحاولة إصلاحه:

يجب على الفرد الصالح أن ينخرط في المجتمع، ليصلح الفاسد، ويرد الشارد، ويقوِّم المعوَجَّ، ويدعو إلى عمارة الأرض بما أراد الله، حتى يحقق بإسلامه ودعوته رحمة الله التي أرسل بها نبيه محمداً ﷺ. أما أن يقعد المسلم مع القاعدين، يستهلكه الحزن على واقع الأمة، ويُضنيه الألم لِمَا ألَمَّ بالمسلمين من مصائبَ ونكباتٍ، وما يصدر منهم من معاصٍ وسيئات، ومع هذا يمنعه الخوف من تحمُّل التضحيات عن العمل ... فينعزل هو والمتخاذلون في مساجدهم وبيوتهم، يبكون الإسلامَ، ويتركون الأجيال وجماهير الشباب الساذج لمن يربيها من دعاة الإلحاد، ولمن يجرها إلى الفساد والحياة الشهوانية.

إنه لا يجوز لأهل الخير أن يلوذوا بالفرار إذا طفح الشر، والمرء الصالح الذي يلوذ بالفرار اليوم إنما يمهِّد لشرٍّ قد يجتاحه غداً، أو يجتاح حتماً أولاده بعد غد، إنها روح الإسلام التي تدفع المسلم إلى الانطلاق.. إلى الدعوة.. إلى الإصلاح.. إلى الهداية والإرشاد.. وتأبى عليه أن يتقوقع على نفسه... ويترك مسرح الحياة لغيره..

فمن ذا الذي يبلِّغ دين الله إذا اعتزل كل عالم وكل صالح؟ من الذي يدحض الشُّبهات ويرد الافتراءات عن الشريعة الإسلامية؟ من الذي يجاهد بالقرآن الفاسقين والمفسدين؟ من الذي يصدح بالسنة ليرد الحيارى والتائهين؟ من الذي ينظر في ملكوت السماوات والأرض، ويأخذ بأسباب العلم والتقدم ليرد للإنسانية

حضارتها الإسلامية الإنسانية المستَمَّدة من نور رب العالمين؟

فدعوة الإسلام دعوة حية، متصلة بالحياة بكل ما تعنيه كلمة الحياة. وهؤلاء النفر الذين فهموا الإسلام فهماً ضيقاً دفعهم إلى تعطيل طاقة الفرد وحيويته وإنتاجه؛ بحجة العزوف عن الدنيا، والمبالغة في الزهد، والإقبال على الله (وبدعوى أنه لا أمل في الإصلاح) فمنهم من اعتزل المجتمع.. ومنهم من تخلَّى عن الوظيفة.

هذا المنهج من هؤلاء النفر، فضلاً عن كونه يصطدم مباشرة بطبيعة الإسلام الحركية، فإنه أيضاً يسهِّل على أعداء الإسلام احتلالَ مراكز القوى في بلاد المسلمين والحيلولة دون عودة هذه البلاد إلى قيادة الإسلام ومنهجه في الحياة[١].

٣- النبل الحقيقي:

ليس النبيل في نظر الإسلام هو من انحدر من أصل عريق في المجد، أو انتسب إلى عائلة كبيرة أرستقراطية، إنما النبيل أو الكريم أو الشريف والفاضل هو الذي تحسُن أخلاقه مع الناس جميعاً، وتكون أفعاله كريمة طيبة، ويتسلح بالعلم، ويتحلى بالأدب، ويتزيَّن بالحِلم، ويتَّصف بالسخاء، ويتَّسم بالمروءة، ويتصف بالشجاعة.. إلخ.

هذا هو النبيل، ولو كان عبداً حبشياً، وذلك هو الكريم، ولو كان من آباء مغموري النسب والجاه، ولا قيمة لحسب ولا نسب إذا كان صاحبه يحيد عن طريق الفضيلة، وينحرف عن الإسلام، ويتَّبع سبل الضلال والفساد، وقد قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣].

والنبيل أيضاً هو من يقدِّم الخير للناس، ويُسدي معروفه إلى مجتمعه دون انتظار شكر أو مدحٍ من الناس، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا**﴾ [الإنسان: ٩ - ١٠].

---

(١) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية - فتحي يكن - ص ٧٨ بتصرف.

والنبيل الشريف حقاً هو الذي يسعى لإعادة مجد أمته، وإيقاظها من سُباتها، وردها عن غيها، وانتشالها من ضلالها، وإنقاذها من ربقة الهلاك والبوار.

كذلك كان النبيل في نظر كونفوشيوس مع الفارق، حيث إن النبيل المسلم يتخلق بهذه الأخلاق اقتداءً برسول الإسلام ﷺ وابتغاء وجه ربه ومرضاته، بينما هو في نظر كونفوشيوس يبتغي وجه الناس، ولا يعرف نبياً مبعوثاً، ولا رسولاً معصوماً.

٤- مراعاة حقوق الكبار:

ومن الأمور التي وضعها الإسلام لصلاح المجتمع وإصلاحه: مراعاة حقوق الكبار، وإن مجتمعاً لا يُحترم فيه الكبار، ولا يُقدَّرون حقَّ قدرهم، ولا يُعرف لهم فضل شيبتهم في الإسلام، ولا يُنزلون منزلتهم، لهو مجتمع متهالك متداعٍ، ولا نظام فيه، ولا خير فيه.

فقد بيَّن رسول الله ﷺ وجوب احترامهم وتقديمهم، وأن من لم يوقرهم يكون إيمانه ناقصاً، فقد روى الترمذي وأبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا"(١).

ومن هذه الأسس يتدرَّج أبناء المجتمع على احترام الكبير، وإجلال العلماء، وإكرام ذي الشيبة المسلم، ويفهم الناشئ منذ نعومة أظفاره حقَّ من يكبُره سناً، وأدب من يفوقه علماً وفضلاً ومنزلة، وهذا لَعَمري غاية الأدب، ومنتهى التوقير والاحترام. فإذا تحققت هذه التربية، وبرزت هذه المعاني، وصلت الأمة الإسلامية إلى الذروة في الخلق الاجتماعي النبيل، والأدب الإسلامي الرفيع.

---

(١) أخرجه أبو داود (ح / ٤٩٤٣) بلفظه، والترمذي (ح / ١٩٢٠)، وأحمد (ح / ٨٥، ٢٠٧) بسند صحيح.

٥- مراعاة حقوق الجار:

فقد روى مسلم عن رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقه"(١). وذُكر لرسول الله ﷺ امرأةٌ تصلي الكثير، وتصوم الكثير، ولكنها تؤذي جيرانها، فقال: "هي في النار"(٢).

ولا يصح في الإسلام أن يأكل المسلم ملْءَ معدته، وجاره يبيت على الطَّوى، لا يجد ما يسدُّ جوعه، وإذا كانت حرمة العرض تشمل كل مسلم؛ فإن الإسلام يؤكد حرمة عرض الجار.

فإذا أُشيعت هذه الآداب، وذُكِّر بها الكبار، ولُقِّنها الصغار، وشب عليها الشباب، وتعمَّقت في نفوس الرجال والنساء، فإننا لا نجد جاراً محتاجاً، أو يشعر بالغربة والوحشة في وطنه.

وهذا من أقرب الطرق إلى صلاح المجتمع وتماسكه.

٦- مراعاة حقوق الوالدين:

يهدف الإسلام إلى إيجاد أسرة قوية البنيان، متماسكة الأركان، شامخة الأوصال، باسقة الفروع، يشيع فيها جو المودة والرحمة، والسكن والأُلفة، والاحترام المتبادل، ويحافظ على حاضر الأمة ومستقبلها من الشقاق والخلاف والنزاع والفرقة. والزواج الشرعي في حدٍّ ذاته مصلحة اجتماعية، لِمَا فيه من المحافظة على بقاء النوع الإنساني، واستمرار وجوده على ظهر الأرض إلى إن يرث الله الأرض ومن عليها. قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٢].

إن الأسرة هي اللبنة الأساسية في المجتمعات الإسلامية، نظَّمتها الشريعة الإسلامية، ووزعت فيها الاختصاصات، وحددت الواجبات، وبينت الحقوق. والهدف من ذلك كله: العمل على استقرار المجتمع.

---

(١) أخرجه البخاري (٥ / ٢٢٤٠)، ومسلم (١ / ٦٨).

(٢) رواه أحمد (٢ / ٢٤)، والحاكم في المستدرك (٤ / ١٨٣).

ولقد أوجب الإسلام على الأولاد البرَّ بآبائهم وأمهاتهم، فالأم جعل الله الجنة تحت قدميها، وجعل حقها على الأبناء ثلاثة أضعاف حق أبيهم عليهم. وجعل رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما، فمن أرضى والديه فقد أرضى الله تعالى، ومن أسخطهما فقد أسخط الله، ومن برَّهما وأحسن إليهما فقد شكر ربه، ومن أساء إليهما فقد كفر بنعمة ربه. والوالدان هما الباب الموصل إلى الجنة. فمن برَّهما وصل، ومن عقَّهما مُنع، قال عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

الإسلام أوجب البر، والبرُّ اسم جامع لكل خير، وحذر من العقوق، والعقوق كلمة جامعة لكل شرٍّ، بل حذر من مجرد توجيه كلمة تأفُّف، ولو بسيطة، إلى الوالدين ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أيضاً يعلِّم الإسلام الأبناء مع آبائهم ألاَّ يمشوا أمامهم، وألاَّ ينادوهم بأسمائهم، وألاَّ يجلسوا قبلهم، وألا يتضجَّروا من نصائحهم، وألا يحرموهم من طعام ينظرون إليه، وألا يرقَوْا مكاناً عالياً فوقهم، وألا يخالفوا أمرهم، وألا يتسببوا في أن يشتُمَهم أحد أو يلعنهم؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "من الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه"(١).

لكن هذا البر المأمور به، وهذا العقوق المنهيُّ عنه، ليس معناه في الإسلام أن يطيع الرجل والديه في معصية الله، أو يسكت على خطئهما، أو يتغاضى عن كبائرهما، أو لا يشهد عليهما إذا سرق أحدهما، كما استنكر كونفوشيوس على من فعل هذا، وعدَّه من العقوق.

فالإسلام يعلِّمنا أن طاعة الوالدين تالية لطاعة الله تبارك وتعالى وطاعة رسوله ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥ / ٢٢٢٨)، ومسلم (١ / ٩٢).

فإذا أمرا بما يخالف أوامر الله ورسوله، فلا طاعة لهما، وإنما الإحسان إليهما، وإسداء المعروف دون طاعة في معصية الله؛ قال تعالى: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ [النساء: ١٣٥].

٧- العدل في الحكم والبعد عن المحاباة:

ومن الأمور التي نادى بها الإسلام لإصلاح المجتمع وترابط أفراده: هو العدل في الحكم على الأشياء، والبعد عن المحسوبية والمحاباة؛ فقد دعا الإسلام إلى وجوب السعي والجد في الأخذ بالأسباب المشروعة في سبيل الوصول إلى الأهداف المبتغاة والآمال المرجوة، وأن يصل الإنسان إلى مكانته ومنزلته بعمله وجدّه، فلا محاباة، ولا محسوبية، ولا رشوة. وقد كان هذا الأمر واضحاً في الإسلام منذ أيامه الأولى؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: "يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة النبي ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً"(١).

"فالعدل هو: الميزان الذي تُقَرَّر به الحقوق والواجبات دونما تحيُّز لأية فئة أو طبقة، بل إن الإسلام إنما جاء ليطارد الروح الطبقية، ويقارب بين الناس. وسبيلُه في ذلك أن يؤسِّس عاطفة الأخوة والتراحم على الإيمان بالله...(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ١٧٨٧)، ومسلم (١ / ١٩٢).

(٢) الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٢٤٦ - ٢٦٥ بتصرف.

فإذا كانت مثل هذه الأمور السالفة موجودةً في الكونفوشيوسية، فإن المتخلق بها ـ كما أشرت سابقاً ـ إنما يبتغي بتخلُّقه الناس، وأن يُذكر بينهم. وبالتالي فلا يلقى جزاءَ تخلُّقه هذا إلا من الناس، وفي حياته الدنيوية فقط، بينما المسلم حينما يتخلق بهذه الأخلاق ابتغاء مرضاة ربه أولاً، وفي الأساس. فإنْ قدَّرها الناس، فذلك فضلٌ من الله عليه، وينال عليها جزاءه من الله في الدنيا والآخرة، لكن إنْ فعلها ابتغاءَ ذكر الناس له، فهي غير مقبولة ومردودة عليه من الله، وليأخذ جزاءها منهم، لكن ليس له جزاء عند الله.

وهذا فرق وبون شاسع بين المتديِّن لرب العالمين، الذي لا رب ولا معبود حقيقي سواه وبين المتديِّن للأرباب من دون الله.

٩- الإصلاح السياسي في الإسلام

الخلافة الإسلامية وتعيين الخليفة:

من الأمور البديهية والمسلَّمات الأولية ـ والتي لا يماري فيها عاقل، ولا منصف ـ أن الإسلام دين ودولة.. دين يوجِّه ويرشد، ويربي ويضبط الأمور، ويضع الموازين، ودولة تحكم بهذا الدين، وتقود العباد إلى الخير والرشاد في الآجل والعاجل والمعاد.

وأن الإنسان: "خليفة الله سبحانه وتعالى، الحامل لأمانة عمران الحياة الدنيا كابتلاء وامتحان، ومعيار للحياة الآخرة التي هي خير وأبقى. فسياسته لعمران الدنيا ليست هي المقاصدَ والغايات، وإنما هي السُّبل والوسائل للدار الآخرة، والإنسان بحكم خلافته..، ليس سيدَ هذا الكون. وإنما هو عبد لسيد هذا الكون، وإن كان سيداً فيه، فهو عبد الله وحده، وسيد لكل شيء بعده، ومن ثَمَّ كانت حرية هذا "العبد ـ السيد" محكومة بشريعة خالقه، التي هي بنود عقد وعهد الاستخلاف، الأمر الذي جعل المضمون الإسلامي للسياسة في العمران الإسلامي لا يقف عند المعايير المادية في حدودها الدنيوية معزولة عن معايير الصلاح الأخروي، وإنما ربط هذا

المضمون الإسلامي لمصطلح السياسة بين المعايير الدنيوية والأخروية بعروة وثقى(١).

ورأينا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة كيف تكونت نواة الدولة الإسلامية متمثلة في الشعب والأرض والقيادة. وأن الرسول ﷺ تولى مسؤوليات رئيس الدولة بالمفهوم الحديث، فقد نظَّم شؤون الحرب والسلم... وأشرف على إدارة شؤون هذا المجتمع الإسلامي الناشئ في المدينة، بما يحقق له مصالحه على أفضل الوجوه.

وبعد وفاة الرسول عليه السلام كان لابد لهذه الدولة الإسلامية، التي أقامها من قائد يتولى أمورها، ويدبر مصالحها في ضوء مفاهيم الإسلام ومبادئه. وهكذا أجمع المسلمون على ضرورة اختيار من يخلُف الرسول ﷺ في هذه المهمة الجليلة، وهي مهمة قيادة المجتمع الإسلامي، فكان اختيار أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم أجمعين(٢).

فالسياسة الإسلامية جزء لا يتجزَّأ من الإسلام، وقاعدة من قواعد المجتمع الإسلامي لا تنفصم عنه، ولا ينفكُّ عنها، وإنما: "يفترض الإسلام الحنيف الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به للناس، فهو لا يقرُّ الفوضى، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام"(٣).

١ - معنى الخلافة والإمامة:

الخليفة: اسم يُقال لمن استخلفه غيرُه، ولمن خلف غيرَه في أمر من الأمور.

والإمام: هو كل من ائتم به قوم؛ سواء كانوا على هدى أو ضلالة.

والخلافة في الإسلام: رئاسة الدولة الإسلامية. فالخليفة أو الإمام الأعظم هو رئيس الدولة الإسلامية الأعلى.

---

(١) الإسلام والسياسة. الرد على شبهات العلمانيين - د. محمد عمارة - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سلسلة البحوث الإسلامية السنة الرابعة والعشرون - الكتاب الأول ١٩٩٢م ص ١٢ بتصرف. نقلاً عن الكونفوشيوسية - سليم المسلمي - ص ٢٧٢.

(٢) محاضرات في النظام السياسي والمالي في الإسلام - د. عبدالرحمن سالم ص ١١ -١٢ بتصرف.

(٣) حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة - د. عبدالحميد الغزالي - ص ٢٠٦.

٢- طريق اختيار الخليفة أو تعيينه:

الصحيح ـ الذي عليه الأصل في الإسلام ـ هو اختيار الخليفة عن طريق الشورى. ولابد فيه من الإيجاب والقبول، إيجاب من الأمة مُمَثَّلَةً في أهل الحل والعقد، وقبول من الخليفة المنتخبَ، ثم بيعة عامة من باقي الأمة.

ولابد أن يكون الخليفة العام على المسلمين أو الإمام الأعظم لهم واحداً، وهذه هي الخلافة الصحيحة الكاملة.

"ولكن الظروف قد تُلجئ المسلمين ـ وقد تمزَّقت وحدتهم ـ أن ينقسموا أمماً، لكل أمة حكومتها، فيجوز تعدُّد الخليفة للضرورة، ولكن الخلافة هنا تكون خلافةً غيرَ كاملة. على أن الخلافة الكاملة يمكن تحقُّقها إذا اجتمعت كلمة المسلمين، لا على أن تكون لهم حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلاً، بل يكفي أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة(١)، وأن تتفاهم فيما بينها.

وإذا اختير خليفة للمسلمين، ونُصِّب إمام لهم، فإن هذا الخليفة "بحكم نظام الإسلام من الخِيرة بينهم إيماناً بالله ومعرفة بمبادئ الإسلام، وأكثرهم تجنُّباً للظلم، وإحقاقاً للحق، وإقراراً للعدل"(٢).

٣- متى يُعزل الخليفة أو الحاكم:

الحاكم في الإسلام من الخِيرة بين إخوانه إيماناً بالله، ومعرفة بمبادئ الإسلام. فإذا تحقَّقت فيه هذه الصفات، وعمل بمقتضى شرع الله، فإنه يستمر في منصبه، لا يُخلع منه، ولا يُعزل، ولا ينازع، بل يجب له السمع والطاعة في المنشط والمكره، طالما لم يُرَ منه كفرٌ بواح عندنا من الله فيه برهان، أو يخالف معلوماً من الدين بالضرورة.

ففي الإسلام قد يستمر الخليفة يتولى مهمات منصبه طالما كان بهذه الصفات، وطالما لم يرغب هو في اعتزال المنصب.

---

(١) الإسلام والسياسة ـ د. محمد عمارة ـ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) سلسلة على طريق الأصالة الإسلامية ٣٧ (التجربة الفرنسية في بلاد المسلمين) د. أنور الجندي، دار الأنصار، القاهرة، مصر، ص ١٦ ـ ١٩ بتصرف.

وإنَّ في بقاء الخليفة في منصبه نزعاً للشقاق، ورأباً للصدع، ودرءاً للفتنة. ولقد رأينا الخلفاء الراشدين رحمهم الله يحددون ضوابطَ بقائهم في الخلافة وحدود السمع والطاعة؛ فهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق ـ بعد مبايعته بالخلافة ـ يقول: "أما بعد، فإني قد وُلِّيت هذا الأمر وأنا له كاره، والله لوددت أن بعضكم كفانيه. ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم مثلَ عمل رسول الله ﷺ لم أقم به، كان رسول الله ﷺ عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به، ألا وإنما أنا بشر، ولست بخير منكم، فراعوني، فإذا رأيتموني استقمتُ فاتبعوني، وإذا رأيتموني زِغْت فقوِّموني".

فالأصل أن الواجب على المسلمين السمع والطاعة للحاكم طالما كان يسير فيهم بما أراد الله، فقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** [النساء: ٥٩].

٤- ضرورة الخلافة لتطبيق الشريعة وحماية المسلمين:

إن الكثير من الواجبات الشرعية يتوقف على إقامة خليفة أو إمام.. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب شرعاً.. وفيه أيضاً جلب منافعَ للأمة، وهو واجب أيضاً؛ ذلك أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود وشعائر الشرع وغيرها، إنما هي مصالح عائدة على الخلق.

وهذه المصالح لا تتم إلا بإمام يرجعون إليه فيما يختلفون فيه. وهم ـ مع اختلاف الأهواء وتشتُّت الآراء ـ قلَّما ينقاد بعضُهم لبعض، فيفضي ذلك إلى التنازع والنوائب، وربما أدى إلى إهلاكهم جميعاً.

والتجربة تشهد بذلك، وتشهد بأن عدم إقامة خليفة يؤدي إلى تعطيل الدين، والخروج عن الإسلام، وتفرق المسلمين[١].

---

(١) أهدافنا ـ أخطر قضايا المسلمين، د. عبدالحميد الكناني، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ص ٣٥.

ومن هنا وُجد الخلفاء واحداً تلو الآخر، بدءاً من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وانتهاءً بسلاطين وخلفاء آل عثمان، الذين أُسقطت الخلافة من دولتهم وإلى الآن.

وكان الكثير من هؤلاء الخلفاء يشعرون بمسؤوليتهم أمام الله، ويعملون ما استطاعوا لخدمة المسلمين، كما كان هناك البعض منهم الذي قصر في مسؤولياته، وأخطأ في التطبيق، ولكن مهما كانت أخطاء بعض الخلفاء العثمانيين، فقد شكلوا قوة، وصنعوا للإسلام هيبة في الشرق والغرب، حيث كان ملوك أوربا يتملّقونهم، ويخطبون ودهم.. وهذا ما دفع أعداء الإسلام إلى الخوف من نظام الخلافة، وبالتالي دفعهم إلى وضع الخطط للقضاء عليها"[١].

وفعلاً، وصلوا إلى ما يريدون ـ عن طريق صنائعهم وعملائهم ـ من إلغاء الخلافة الإسلامية، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وهزيمة ألمانيا وتركيا، وسيطرت الجيوش الإنجليزية واليونانية والإيطالية والفرنسية على جميع أراضي الدولة العثمانية[٢].

٥- علاج الجريمة بين الإسلام والكونفوشيوسية:

ينظر كونفوشيوس إلى علاج الجريمة بالأخلاق والتهذيب فقط، ولا يعول على القانون؛ لأن القانون لا يصنع أمة مهذبة، ولا يوجِد الأفراد الصالحين، بل ينبغي أن يكون الإصلاح داخلياً فقط.

لكن الإسلام ينظر إلى الأمر من الجهتين: من الناحية الأخلاقية والناحية التشريعية، فيهذب الأخلاق أولاً، ويربي الضمير على المراقبة لله عز وجل والابتعاد عمَّا يغضبه، وفي الوقت نفسه يسن القوانين، ويضع التشريعات التي تزجر كل من تسوِّل له نفسه الخروج عن مبادئ الجماعة وقيمها، وآدابها وأخلاقها، بل يخرج على مبادئ الدين الصحيح الذي ارتضاه الله للأمة.

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام – د. سعد الدين صالح، دار التقوى، بلبيس، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥، ص ١٦٨ بتصرف.

(٢) الكونفوشيوسية – سليم المسلمي – ص ٢٧١ ص ٢٧٨.

١- مفهوم العقوبة :

العقوبة هي : الجزاء الشرعي الذي يستحقه الجاني على اقتراف الجريمة، وهو نوع من الأذى والضرر، يلحقه مقابل ما ارتكب، تحقيقاً للعدالة بين الناس، وردعاً لهم عن معاودة الوقوع في الجريمة.

والعقوبات في الشريعة الإسلامية نوعان :

النوع الاول : عقوبات مقدَّرة : ورد تحديدها في كتاب الله عز وجل، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع. ويدخل فيها : عقوبات الحدود، وعقوبات القصاص.

النوع الثاني : عقوبات غير مقدَّرة، وهي : ما لم يرِد نص شرعي بتحديد قدرها، ولا كيفيتها، وإنما فُوِّض تقديرها لولي الأمر، بشرط الالتزام بمبادئ وقواعد شرعية عامة. وقد أطلق الفقهاء على هذا النوع من العقوبات اسم "التعزير".

٢- ضرورة العقوبات في زجر الناس وضبط سلوكهم:

الإسلام لا يعتمد على القانون وحده في ضبط السلوك، إنما يكل ذلك إلى الأخلاق والضمير؛ لأن القانون يكفُل الحد الأدنى من التنظيم. وإذا كان القانون غيرَ إلهي، والضميرُ غير حيٍّ ولا يقظٍ في نفس الإنسان، فإنه سرعان ما يتفلَّت من عقوبات القانون وملاحقاته؛ ولذلك فإن "الوازع الذي يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين في حد ذاته، فإنه لا يقدم لنا تشريعاً فحسب، وإنما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يراقب كل أعمالنا من خير أو شر.. فنيَّاتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجَّل بواسطة أجهزة هذا الشرع ... ولو أننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا، فلن نتمكن ـ بالتأكيد ـ من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوي.

ولو أننا حاولنا تفادي عقاب الدنيا، فسوف نذوق عذاباً مضاعفاً يوم القيامة، يفوق عقاب الأرض ملايين المرات قسوة وعنفاً(١).

---

(١) الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان – ص ١٤٣ بتصرف.

فالإسلام يفترض في الناس الخير، والنية الطيبة، والسلوك الحسن، والأعمال الصالحة المستقيمة، ويعمل على تهيئة البيئة الصالحة التي يعيش فيها الفرد وإيجادها، ويعمل على توفير حاجياته وضرورياته، وإشباع رغباته في حدودها المعقولة الموائمة للفطرة، والمتمشية مع مصالح الآخرين وفق شرع رب العالمين.

١٠- أساليب الإصلاح بين الإسلام والكونفوشيوسية

سلك كونفوشيوس بعض الوسائل والسبل في سبيل نشر فكرته، وإيمان الناس بها، وتغيير أخلاقهم، وتهذيب طباعهم. وكان من أبرز هذه الوسائل التي اعتمد عليها كونفوشيوس في دعوته الإصلاحية هي: القدوة، والتدرج، والتلطف والترفق، وضرورة العلم والتعلم، ووجود المربي.

وهذه الوسائل يركز الإسلام عليها أيما تركيز، ويؤكد أهميتَها في الدعوة إلى الإسلام. وسنتناول هذه الوسائل من وجهة النظر الإسلامية بشيء من التفصيل:

١ - القدوة:

لا يكفي الكلام وحده ليكون حافزاً على العمل، ودافعاً للاتِّباع، بل لابد من التطبيق العملي والسلوك الواقعي لما يقال، وهذا أبلغ دليل على صدق المقول، وأيسر طريق للاهتداء.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "علماء السوء جلسوا على أبواب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويصدونهم عنها بأفعالهم، فكلَّما قالت أقوالهم للناس: هلُمُّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أولَ المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قُطَّاع الطرق"(١).

وقال تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

---

(١) الفوائد- الإمام ابن قيم الجوزية - ص ٥٥.

فالقدوة العملية أقوى تأثيراً في نشر المبادئ والأفكار؛ لأنها تجسيد وتطبيق عملي لها، ويسهل مشاهدتها والتأثُّر بها وتقليدها، بخلاف الأقوال أو المحاضرات والكتابات؛ "فقد لا يستوعبها بعض السامعين أو القارئين، أو قد لا يدركون مقاصدها، وقد تُنسى كلُّها أو بعضُها. أو قد تظل نظريةً ويجهل الكثير تطبيقها عملياً، أو قد يخطئ بعض الناس عند التطبيق. ولقد كان رسول الله ﷺ قدوة بشرية عملية وسط المسلمين الأوائل، فكان له الأثر الكبير في تعرُّف المسلمين على الإسلام نظرياً وعملياً، واقتدوا به في كل صغيرة وكبيرة"(١).

قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولهذا نرى صحابة رسول الله ﷺ كانوا يقتدون به، ويتَّبعون سنته، ويهتدون بهديه طاعةً لله، وتقرُّباً إليه، ولو لم تظهر لهم الحكمة في الأمر. ولهذا قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهو يقبّل الحجر الأسود: "أعلم أنك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"(٢).

تعريف القدوة:

القدوة في اللغة: الأسوة، يقال: فلان قدوة يُقتدى به.

والقدوة: المثال الذي يتشبّه به غيره، فيعمل مثل ما يعمل(٣).

وقد تكون القدوة حسنةً أو سيئةً، كما جاء في الحديث الشريف: "من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وِزرها ووِزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"(٤).

(١) القدوة على طريق الدعوة – الأستاذ مصطفى مشهور– ص ٣١.

(٢) البخاري (٢ / ٥٧٩) ومسلم (٢ / ٩٢٥).

(٣) لسان العرب، مادة "قدوة" (١٥ / ١٧١)، والمعجم الوسيط (٢ / ٧٢٧).

(٤) رواه الإمام مسلم (٢ / زكاة / ٧٠٤، ٧٠٥ / ٦٩)، (٤ / العلم / ٢٠٥٩ / ١٥).

والقدوة الحسنة في الإسلام تنقسم قسمين:

أ - قدوة حسنة مطلقة: أي معصومة من الخطأ والزلل: كما هي في الأنبياء والرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ب - وقدوة حسنة مقيَّدة: أي مقيَّدة بما شرعه الله عز وجل؛ لأنها غير معصومة، كما هي في الصالحين والأتقياء من عباد الله من غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فغير الرسل والأنبياء قد يُقتدى بهم في أمور دون أخرى، وذلك لاحتمال صدور بعض تصرفاتهم عن ضعف بشري، أو خطأ اجتهادي، لذا كان الاقتداء بهم مقيَّداً بموافقة الشرع.

أهمية القدوة الحسنة العملية:

تبرز أهمية القدوة الحسنة في عدة نقاط مهمة، نذكر منها:

١- إن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة.

٢- إن القدوة الحسنة المتحلِّية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة.

٣- إن أيسر ما يؤثِّر في الناس هو الفعل دون القول؛ لأن الناس قد يتفاوتون في فهم الأقوال، ولا يتفاوتون في فهم الأعمال.

٤- ولَمَّا كان رسول الله ﷺ أسوةً حسنة، ومثلاً أعلى، لم يأمر أصحابَه وأتباعه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به، ولم ينْهَهُم عن شيء إلا وكان أسرعَهم في الانتهاء عنه؛ لذا أعظمه أتباعه وأكبروه، وعظموا أمره ونهيه.

خطب النبي ﷺ الناس في حجة الوداع، فقال: "إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضَعاً في بني سعد فقتلته هُذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا... ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله"(١).

فنراه ﷺ يبتدئ بحكم عام، فيُسقط الربا كلَّه، ثم يخصُّ ربا العباس بالإسقاط؛ ليبيِّن للناس أنه يبتدئ بتنفيذ الأحكام على أقرب الناس إليه، فيكون في ذلك أسوةً حسنة، وقبله يبين أن دماء الجاهلية ساقطة موضوعة، لا يُؤخَذ بثأرها، ولا يُطالَب بحقها، وأول دم يُسقطه دمُ من يُعَدُّ هو من أوليائه؛ ليكون أول الآخذين بحكم الدين.

ونصر الله رسوله ﷺ فترجم هو وأصحابه القول إلى العمل، والنظرية الإسلامية إلى نموذج حي يتحرك ويسري بين الناس، فيهديهم إلى الإسلام بالقدوة الحسنة.

وهذا التجسيد الواقعي، وهذه القدوة العملية تذكير فِعْليٌّ للناس جميعاً بأن الوصول إلى المُثل العليا، والأخلاق السامية أمرٌ ممكن الوقوع، وسهل التنفيذ لو سلك الإنسان طريقها؛ لأن أمامه من يقتدي به في واقع البشر:

فالتربية على المثال الأعلى، وبعث النزوع، والتطلع إليه، والإغراء به في نفوس البشر لابد له من نماذج ورموز في كل عصر، لابد له من أفراد ممتازين يجسِّدونه، ويثيرون الاقتداء به عند الآخرين لمحاكاته والارتقاء إليه، إلى جانب استصحاب الأنبياء والصحابة لتتواصل الحلقات التربوية التاريخية وتدلل على الصلاحية لكل زمان ومكان"(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (في الحج ١٢١٨)، وأبو داود (٣٣٣٤)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥٥)، وأحمد (٢ / ١١).

(٢) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة – د. عمر عبيد حسنة – ص ٧١ – ٧٢ بتصرف.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "كنا نعلِّم أولادنا مغازي رسول الله ﷺ كما نعملهم السورة من القرآن الكريم". وهذا ما أوصى به الله عز وجل عندما قصَّ علينا قصص الأنبياء السابقين والصالحين من عباد الله، فقال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١].

وقد كان كونفوشيوس كثيراً ما يضرب الأمثال بمن عدَّهم مخلصين وأبطالاً وصالحين من قدماء سلف أمته.

٢- أسلوب التدرج:

كان كونفوشيوس يتدرج مع تلاميذه شيئاً فشيئاً حتى يتشربوا مباداه ويتفهموها، ويذعنوا لها. كذلك رأينا في منهج الإسلام هذا الأسلوب القويم؛ أسلوب التدرج، واتخاذ الخطوات التي يوصل السابق فيها للاحق، ويمهِّد الأول للثاني.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقال: إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادْعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعْلِمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"(١).

نتعلم من هذا الحديث الشريف أن أسلوب التدرج هو من أنجح الأساليب. إن التدرج سنة الله في كونه. ألا ترى أنه سبحانه: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾ [الأعراف: ٥٤] فلا يأتي النهار فجأة بعد الليل، ولا يأتي الليل مباشرة بعد النهار، وإنما يدخل هذا في هذا رويداً رويداً، حتى لا يبْغَتَ الناس، ولو حدث ربما خُطفت

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ح ١٤٩٦ / فتح)، ومسلم (١٠ / إيمان / ٥٠ / ح ١٩)، وأبو داود (٢/ ح ١٥٨٤)، والترمذي (٣ / ح ٦٢٥)، وابن ماجه (١ / ح ١٧٨٣).

أبصار الخلق، واضطربت الأمور، ولكن مِنْ عدل الله وسنته أن كلاً منهما يخلُف الآخر في تدرج وخطوات وئيدة.

٣- أسلوب الترفُّق والتلطف:

ومع أهمية القدوة، وأثرها في التهذيب والتربية، ومع ضرورة التدرج والتأني بخطوات في الدعوة إلى الإصلاح والتغيير، لابد من أسلوب الرفق واللين، أو الترفق والتلطُّف؛ ذلك أن النفوس التي جُبلت على طبائعَ منفردة، وعاداتٍ مستهجنة، لو قابلناها بالمِثْل، أي بالغلظة والقسوة، لانتهت إلى دمار وبوار، لكننا لو قابلناها بالرفق واللين، والمعالجة الحكيمة، لاستقامت. ذلك هو صنع الرفق والتلطُّف واللين، إنه الرفق، زينة كل شيء، ولا ينبغي أن يخلُوَ منه شيء.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "إن الدين يُسْرٌ، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه"(٣).

إنه الرفق واللين الذي واجه به رسولُ الله ﷺ جَهَالَة قومه، فراضهم وهذَّبهم، واستوعبهم، واستمالهم إلى دعوته.

فكان ﷺ رفيقاً في دعوته، رفيقاً في إصلاحه، رفيقاً في تعليمه، حتى استقامت له القلوب بالحب والإخلاص، وانقادت له النفوس بالأُلفة والتضحية،

---

(١) رواه مسلم (ح ٨٩٦٤ / البر والصلة والآداب) عن عائشة، ورواه أبو داود (ح٤١٧٤)، ورواه أحمد (ح ١٣٠٤٢) عن أنس.

(٢) رواه البخاري (ح ٣٨ / الإيمان)، والنسائي (ح ٤٩٤٨) عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم (ح / ٧٧ / البر)، وأبو داود (ح ٤٨٠٧) عن عبدالله بن مغفَّل.

وصدق فيه قولُ الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

"وللرفق والتيسير أثرُه القوي في تأليف القلوب، وجمْعِ النفوس، وتطويع الطباع، وانفتاح العقول، وتحويل البشر من جلامدة صُمٍّ، وجَعدة مارقين، وحَقدة غلاظ جَهلة إلى سادة حُكماءَ أتقياء، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، توَّاقة إلى الحق والخير نفوسهم"(١).

٤- ضرورة وجود المعلم المربي:

وما من شك في أن وجود المعلم المربي الحقيقي لُحمَةُ العملية التربوية وسداها، ولُبُّها ومبناها، وحقيقتها. ولقد بُعث الرسول الكريم ﷺ معلماً، وذكر القرآن الكريم هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول ﷺ: التربية والتعليم، تعليم الكتاب والحكمة، وتربية الأنفس عليها. وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقاً بهذا الجانب؛ إذ إنه هو الجانب الذي ينبع عنه كل خير، ولا يستقيم أي جانب من جوانب الحياة: سياسياً، أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو عسكرياً، أو أخلاقياً إلا به، ولا يؤتى الإنسان ولا تُؤتى الإنسانية إلا من التفريط في العلم الصحيح والانحراف عنه: إما إلى الجهل، أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع.

ومما لا شك فيه أن الإسلام قد عُنيَ بالعلم أبلغَ عناية، واهتم به أيَّما اهتمام، دعوة إليه، وترغيباً فيه، وتنويهاً بشأنه، وإعلاءً لقدره، واعترافاً بفضل العلم والعلماء والتعليم والتربية.

ولابد لصاحب العلم من الالتزام بالقِيَم الخُلقية التي يفرضها العلم على أهله،

---

(١) مقومات الدعوة والداعية – د. بدير محمد بدير – ص ١٣٧.

والتي جعلتهم أهلاً لأن يكونوا خلفاءَ الأنبياء وورَثَتهم. وقد جعل الإسلام للمعلم والمتعلم آداباً وأخلاقاً ووظائفَ يجب على كلٍّ منهما الالتزامُ بها.

فمن صفات المعلِّم: الشفقة على المتعلمين، وألاَّ يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا جزاءً ولا شكوراً، وألا يدَعَ من نصح المتعلم شيئاً، وأن يخاطب المتعلم على قدر فهمه، وأن يكون قدوةً عملية لتلاميذه، وأن يستشعرَ مسؤوليته في توصيل هذا العلم وتعليمه وتبلغيه، وأن يكون متواضعاً، وأن يكون عزيزَ النفس في مواجهة المستكبرين(١).

وإذا كان لابد للفرد من أن يتعلَّم، وأن يتلقَّى العلم على يد الأساتذة والمربين والفقهاء والمعلمين، فلابد له من أن يتحلَّى ببعض الصفات، ويقوم ببعض الواجبات، حتى يتهيَّأ له تحصيل العلم والاستفادة منه، نذكر منها:

الواجب الأول: تنقية الظاهر والباطن، والإقلاع عن الذنوب.

الواجب الثاني: تصحيح النية.

الواجب الثالث: إكرام المعلم والتواضع له.

الواجب الرابع: أن يلتزم آداب الدخول والجلوس بين يدي أستاذه.

الواجب الخامس: الاستمرار في طلب العلم.

الواجب السادس: الصبر على متاعب الطلب(٢).

١١- الإسلام خاتم الأديان ورسوله خاتم الرسل

جعل الله نبيَّ الإسلام محمداً ﷺ هو نبيُّ آخر الزمان، الذي لا نبيَّ بعده على الإطلاق، ورسالته جاءت خاتمةً للرسالات السماوية كلها، وقد وصفه الله تعالى في كتابه العزيز قائلاً: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) إحياء علوم الدين- الإمام أبو حامد الغزالي - ١/ ٥٤-٥٦.

(٢) انظر: الكونفوشيوسية سليم المسلمي، ص ٢٩٨ - ٣٢٥.

وقد أوجب الله تعالى على جميع الأنبياء الإيمانَ بهذا النبي الأمي العربي ﷺ كما أوجب عليهم نصرَه أيضاً إن هم أدركوه. وليس هذا فحسب، بل أخذ منهم الميثاقَ على ذلك؛ فقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨١].

وأنزل معه القرآن الكريم بالحق مصدقاً ومهيمناً على جميع الكتب السماوية السابقة؛ قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد جاء هذا القرآن تبياناً لكل شيء؛ قال تعالى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن صفة هذا القرآن أنه يهدي للتي هي أقوم؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٩].

فالرسالة المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ إنما جاءت رسالةً عالمية، غيرَ منحصرة في بقعة من بقاع الأرض، ولا محدودة لقوم دون قوم، تأخذ بأيدي العالمينَ ـ أبيضِهم وأسودِهم، عربيِّهم وعجميِّهم ـ إلى الصراط المستقيم، الذي يضمن السعادة الدنيوية والأخروية معاً، وإلى النجاة الأبدية، وإلى الرحمة الإلهية. قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء محمداً ﷺ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى في وصف هذا الدين الحنيف: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩].

انطلاقاً من هذا الموقف الحاسم، فإن الإسلام خاتم الأديان بأسرها، وإنه يملك جميع ما يحتاج إليه البشر من حلول إلهية مناسبة لسائر مشكلاتهم المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، الأخلاقية والسلوكية، العلمية والمعرفية، الفكرية والفلسفية، الفردية والاجتماعية، الاقتصادية والسياسية. ويرى الإسلام أنه دين الكمال والشمول والاعتدال؛ فلم يترك أي جانب من الجوانب الإنسانية إلا وقد اعتنى به، وهيَّأ للإنسان هدياً إلهياً ملائماً يتناسق مع كيانه الكلي، ولا نجد هذه السمة العظيمة في أي دين من الأديان الأخرى؛ سواء أكان ديناً سماوياً ـ مثل النصرانية واليهودية ـ أو ديناً وضعياً، مثل البوذية والكونفوشيوسية وغيرهما.

وعلى سبيل المثال؛ فقد فصَلت النصرانية الدين عن الدولة، وجعلت لله سلطة الكنيسة، وجعلت لقيصر سلطة الدنيا، ففرقت بين الحياة المادية والحياة الروحية. حينما رأت اليهودية أنها دين قومي يخص بني إسرائيل، ورضيت لنفسها التعصب العنصري البغيض، ودعت البوذية إلى نظرة تشاؤمية للحياة الإنسانية، وإلى الهروب من ميدان الحياة إلى الغابات والكهوف والمعابد؛ ليعيش رجال دينها حياةً تأمليةً منعزلة عن دنيا الناس، بينما دعت الكونفوشيوسية إلى الحصول على المعرفة، "تجلية الأخلاق المشرقة" عن طريق الفطرة الإنسانية، وإلى "طريقة النبي في الباطن والملك في الظاهر" كما سبق أن ذكرت، وأغمضت عينيها عن الحياة الأخروية، تستهزئ منها شقيقتها الوطنية وخصمها الفلسفي (الطاوية) أيما استهزاء آلاف السنين(٤).

أما الإسلام فهو بريء من كل ما تعاني منه هذه الأديان من مشكلات ونقائص وانحرافات، فبقي كاملاً، شاملاً، معتدلاً، كما أنزله الله عز وجل؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق البشر، وهو أعلم بحقيقة فطرتهم، وما يصلح حالهم، ويسعدهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية – د. زهرة الدين طيب– ص ٢٢٥– ٢٢٧ بتصرف.

الفصل الثاني
موقف الكونفوشيوسية من الإسلام والمسلمين

١- دخول الإسلام بلاد الصين

لقد مضى على دخول الإسلام إلى الصين حوالي أكثر من (١٤٠٠) سنة. ويجمع المؤرخون على أن أول بعثة إسلامية جاءت إلى الصين كانت في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ أي في عام ٦٥١م، في عصر الإمبراطور "يون هون" الملك الثالث للأسرة الملكية "تانغ" (٦١٨ -٩٠٧م)، وكان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه أرسل بعثته الرسمية إلى عاصمة الصين " تشانغ آن" لزيارة الإمبراطور، وتبليغه رسالة الإسلام، وتطورها في العالم العربي، ومسيرة توحيدها القبائل العربية لكي يفتح مجال الدعوة الإسلامية في الصين. وكان لهذه البعثة أثر كبير على أهل الصين، وساهمت في تطور العلاقات بين الصين والعالم الإسلامي.

ثم توالت تسع وثلاثون بعثة رسمية منذ بداية البعثة الأولى (٦٥١م) حتى عام (٧٩٨م)، وسجل المؤرخون في كتاب "تاريخ أسرة " تانغ " القديمة" أن الفترة من عام ٦٥١ حتى أواخر الأسرة الملكية "شون" الجنوبية (خلال ستمائة عام تقريباً) تعد فترة تطور وازدهار في تاريخ الصين القديم[١].

٢- طرق وصول الإسلام إلى الصين:

١- طريق الفتح: وهو ما يخص تركستان الشرقية التي تقع في غرب الصين. ومع أنها وما حولها من مقاطعات تقع ضمن العالم الإسلامي، إلا أنها اليوم تخضع للصين.

فتح قتيبة بن مسلم الباهلي تركستان الشرقية، ودخل مدينة كاشغر عام ٩٦ للهجرة، وتبعت هذه المنطقة الدولة الإسلامية حتى ضعُف أمر المسلمين، وذهبت

---

(١) الموسوعة الإسلامية الصينية.

ريحهم. وهذا ما شجع الصين لغزو تركسان الشرقية، وتمكَّنت من دخولها بين عام ١١٤٩ - ١١٩٩م، أي في العهد المانشوري، وأطلق عليها اسم "شينجيانغ"؛ أي: الأرض الجديدة، ولكن الحركات لم تهدأ فيها أبداً، وكلها تناهض الاستعمار الصيني، وتدعو إلى الاستقلال.

وكانت تركستان الشرقية تتألف من منطقتين رئيستين؛ هما: زو نغارية في الشمال وتعيش فيها قبائل "دونغارية"، وقاعدتها مدينة "غولدجا" ومنطقة كاشغر في الجنوب، ويطلق على قبائل (الكاشغارية)، وعاصمتها (كاشغار). وتعرف المنطقة باسم (هوي خي): أي أرض المسلمين. وبين المنطقتين جبال (تيان شان)؛ أي: جبل السماء. وكانت منطقة تركستان الشرقية مقسمةً على عدد من الأقسام، يحكم كلَّ قسم أمير محلي، ومن هذه الأقسام: أورومجي، وكاشغر، وحامي، وتارقند. ويأخذ حاكم كل قسم لقب (بيك)، أو (شاهان). أما أمير (أورومجي)، فيلقب بـ(وهي هوي وانغ) أي السلطان المسلم، وهو أقوى أمراء تركستان الشرقية.

٢- طريق الدعوة والانتقال في المناطق الداخلية، وخاصة الجهات المجاورة لتركستان الشرقية. وربما كان العهد المنغولي أكثرَ العهود انتشاراً للإسلام في المناطق الداخلية من الصين. ومن تركستان الشرقية بدأ المسلمون يدخلون الصين تُجّاراً ودُعاةً، حتى تكوَّنت جاليات كبيرة في بعض المدن مثل مدينة (يانغ تشو).

ويعود وجود الجالية الإسلامية في هذه المدينة إلى القرن الثاني الهجري، وقد هلك عدة آلاف من المسلمين فيها عام ١٤٢ هجرية عندما حدثت فيها ثورة، ونهب قائدها المدينة وقتل آلاف البشر، وكانت هذه الثورة بإمرة (تيان زين كونغ).

وكذلك عاصمة الصين القديمة (تشانغ آن) المعروفة الآن باسم (شي آن) عاصمة مقاطعة (شان سي) في شمال الصين، وقد أقام في هذه المدينة عدد من أفراد الجيش الإسلامي، الذي بلغ عدده أربعة آلاف جندي، جاؤوا للقضاء على الثورة التي قامت عام ١٣٩ من الهجرة (٧٥٦ م) في عهد أسرة "تانغ"، ومن أبناء

هؤلاء: المسلمون الذين يعيشون هناك في شمال غربي الصين، وقد أُنشئ مسجد في هذه المدينة منذ عام ٦٥ هجرية (٦٨٤م)، وقد دعم المسلمون الحكم في الصين؛ لأنه لم يكن يقف في وجه الدعوة الإسلامية.

٣- طريق الدعوة والتجارة البحرية في المناطق الساحلية: يقسم الصينيون التاريخ الإسلامي في الصين سبعَ مراحل حسب الأسر الملكية الحاكمة؛ وهي:

أ- عهد تانغ - التاريخ القديم.

ب- عهد سونغ ٣٠٨ -٦٧٥هـ= (٩٦٠ - ١٢٧٩ م).

ج- عهد يوآن (العهد المنغولي) ٦٧٥ -٧٦٩هـ= (١٢٠٦ - ١٣٦٨م).

د- عهد منيغ ٧٧٠-١٠٥٢ هـ= (١٣٦٨ -١٦٤٢م).

هـ- عهد تشينغ (العهد المانشوري) ١٠٥٤ - ١٣٢٩ هـ= (١٦١٦ - ١٩١١م).

و - عهد الجمهورية الوطنية ١٣٢٩ - ١٣٦٩ هـ= (١٩١٢- ١٩٤٩م).

ز - عهد الجمهورية الشيوعية ١٣٦٩ ــــهـ= (١٩٤٩ ـــم).

وصل الإسلام إلى الصين عن طريق البحر، وقد اتجه المسلمون إليها تُجَّاراً ودُعاةً، بل كان التجار هم الدعاة، وما كانت التجارة لديهم إلا وسيلةً للسفر والاتصال بالناس كي يدعوهم إلى عبادة الله، وكانت مدينة (كانتون) أول مكان استقروا فيه، ومنها توغلوا إلى الداخل، فوصلوا إلى مدن (تشوان تشو)، و(يانغ تشو)، و(هانغ تشو) على ضفاف نهر (يانغ تسي).

٣- مكانة المسلمين عند بعض الأسر الملكية الصينية

تقلبت الأحوال بالمسلمين في الصين بين استقرار في الحياة وفترة نفوذ وقوة، وبين فترة ضعف وهوان ومعاناة، وكان أحسن أحوالهم في الصين عند بداية دخول الإسلام إلى الصين؛ أي في عام (٦٥١ - ٩٠٧ م)، وأوائل أيام الأسرة الملكية "سونغ" (٩٦٠ - ١٢٧٩م)، ثم من أواسط الأسرة الملكية "يوآن" إلى أوائل الأسرة الملكية "مين".

كان المسلمون يتمتعون بالحرية الكاملة في الإقامة والعمل والتجارة والدعوة في الصين، وبالاستقرار في الحياة في أيام الإمبراطور (قو جون) من أسرة "تانغ" ، حيث أكرم المسلمين إكراماً بالغاً، وجعل إقامتهم بجوار قصره في وسط العاصمة ـ مدينة تشانغ آن ـ (تشي آن) الآن، وحتى الآن يسكن فيها أحفادهم المسلمون، وسُميت هذه المنطقة باسم "المنطقة المسلمة" ، وكانوا يديرون اقتصاد الأسرة الملكية "تانغ" ، ويبنون المساجد داخل العاصمة وخارجها، مما ساهم في تطور الدعوة الإسلامية آنذاك .

ثم انتشر المسلمون أيام الأسرة الملكية "سونغ" (٩٦٠ –١٢٧٩م) خلال مئات السنين في أنحاء الصين، حيث أقاموا المساجد، بجانب دعوة الناس إلى الإسلام، وظهرت الدعوة الإسلامية في شتى أنحاء الصين، وأصبحت في نمو وازدياد، وكثر عدد المسلمين بسرعة، وسُميت هذه الفترة بـ "عصر التطور والازدهار الإسلامي في الصين" .

وفي عهد الأسرة الملكية "يوآن" (١٢٠٦ –١٣٦٨م) اعتدى المنغوليون على دول آسيا الوسطى الإسلامية، وأسروا المسلمين من هذه الدول والعراق والشام، وجاؤوا بهم إلى الصين في عصر الإمبراطور الظالم (جين جي سين خان ١٢٠٦ – ١٢٢٨م) و(قبلاي خان ١٢٦٠–١٢٦٤م)، واستعبدوا المسلمين، وسخَّروهم للأعمال الشاقة، وعانى الأسرى المسلمون في عصر هذين الإمبراطورين الظالميْن معاناةً شديدة، وعاشوا تحت الجور والظلم، ومع ذلك فإنهم لم يتركوا الدعوة الإسلامية، ولم ينسوا تبليغ رسالة الإسلام .

ولما مات هذان الظالمان تحسَّنت أوضاع المسلمين تحسناً كبيراً، حتى عُين المسلمون من قبل الأسرة الملكية "قومية ثانية" بعد القومية المنغولية بدرجة مفضَّلة على غيرهم من القوميات الأخرى، وحصلوا على الحرية مرة أخرى، حتى أسلم بعض أحفاد "جين جي سين خان" بعد موته، وقام المسلمون بدور كبير في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية المختلفة . ويقول التاريخ الصيني مشجعاً

الناس على دراسة الثقافات المتنوعة: إن المنغوليين سيطروا على المسلمين بالسيف، ولكن المسلمين قهروهم بثقافتهم السامية العادلة السماوية(١).

وزاد نفوذ المسلمين أيام المغول؛ إذ جاء بعضهم من تركستان وبلاد ما وراء النهر جنوداً في الجيش، وترقَّوْا في المناصب. ولعل أشهر هؤلاء القادمين كان سيد الأجل شمس الدين عمر، الذي جاء عام ٦٥٧ من الهجرة ضابطاً في الجيش، ثم أصبح حاكماً عسكرياً على مدينة (تاي يوآن)، ثم حاكماً لمدينة (بنيانغ)، ثم قُلِّد منصب القاضي في مدينة (يان جين) بكين الآن، ثم حاكماً عليها، ثم أصبح مديراً سياسياً في بلاط (قبلاي خان)، ثم عين عام ٦٧١ من الهجرة حاكماً على ولاية (سينشوان)، ثم حاكماً لولاية (يونان) عام ٦٧٣ من الهجرة. وقد أنشأ المدراس والمعاهد الدينية في هذه الولاية، وترك بعد وفاته خمسة أولاد، كان لهم كلهم دور في الإدارة، وكانوا من كبار الموظفين في الدولة، وهذا نموذج لأثر المسلمين في عهد المغول، إذ كان المسلمون حكامَ ثماني ولايات من أصل اثنتي عشرة ولاية تتألف منها دولة الصين.

واستمرت هذه الأوضاع إلى أوائل الأسرة الملكية "مين" (١٣٦٨- ١٦٤٤م) حتى وصل بعض المسلمين إلى المناصب الوزارية؛ مثل: (تشانغ يي شوانغ) و(هو دا هاي). وكانوا قد تأثروا بالحياة الصينية، واندمجوا فيها، مع الاحتفاظ بالسِّمة الإسلامية الكاملة، وكان لهم أكبر الأثر في إدارة شؤون الدولة أيضاً.

ومن أسوأ الفترات التي مرت بالمسلمين في الصين: أيام حكم الأسرة الملكية "تشين" المانشورية (١٦١٦ -١٩١١م)، هذه الأسرة تختص بها قومية "مانغ" -إحدى الأقليات القومية- وكانت هذه القومية تسكن في شمال شرق الصين، وأسست دولتها الذاتية في بلدتها، ثم بعد ذلك سيطرت على الصين كلها، ومن

(١) تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية - الشيخ عبدالله قاسم.سوجي يوان الصيني ص ١٨-٢٤ بتصرف.

أجل السيطرة الكاملة وإضعاف قوة غيرها عملت هذه القومية الفاسدة الظالمة على دق الإسفين، وإثارة الفتن بين المسلمين وبين قومية "هان" ـ قومية كبرى في الصين ـ حتى قتل بعضهم بعضاً، ودمر الكفارُ بيوتَ المسلمين والمساجد، وقتلوا الأبرياء منهم. فاضطر المسلمون إلى القيام بعدة انتفاضات في جنوب غرب الصين بقيادة الشيخ "دو ون شو" (١٨٥٦ - ١٨٧٤م)، وفي شمال غرب الصين (١٨٦٢-١٨٧٧م) من مقاطعة قانسوا وشانغ سي ونينشانغ شين جان (تركستان الشرقية) وتشيانهاي، وعاشوا عيشةً قاسية تحت الظلم والطغيان في أحلك فترات تاريخهم، ولجأ المسلمون إلى داخل الجبال والمناطق الفقيرة، حتى إن بعضهم لجؤوا إلى قازاكستان، وقتل الكثير من علماء المسلمين في هذه الفترة، واستمرت هذه المصائب طوال حكم هذه الأسرة الغاشمة، ولم ينس أحدٌ من أبناء المسلمين في الصين هذه الفترة العصيبة، وإن تاريخ الصين العام يصف هذه الفترة بعصر الانتفاضات للمسلمين، ومقاومة طغيان أسرة "تشين" قائلاً: إن المسلمين في عصر الأسر الملكية "تشين" المانشورية يقودون تاريخ الصين إلى التطور والتقدم خلال مكافحتهم الأعداء، والدفاع عن دينهم وأنفسهم، وقدَّموا لغيرهم من القوميات الأخرى أسوةً حسنة للدفاع عن النفس"(١).

الحقد على المسلمين ومحاربتهم خلال حكم الأسرة الملكية (تشين)

كان وضع المسلمين بشكل عام أفضل من الصينيين البوذيين أو الكونفوشيوسين من النواحي المادية والفكرية والثقافية؛ مما أثار عليهم الحقد. كما أثارت عادات المسلمين وشعائرهم حسداً وكرهاً لهم من قبل الحكام الصينيين، حيث يرون فيهم مجتمعاً خاصاً، لا يدين لهم بالولاء، ولا يأخذ بأسلوبهم في التقدير والاحترام، هذا إضافة إلى الحقد الذي أشعل ناره الموظفون الصينيون لمصالحهم الخاصة، ومنها تسلُّم المناصب مكان المسلمين؛ إذ كان المسلمون يتسلمون الوظائف العليا

(١) المرجع السابق ص ٢٦.

لإمكاناتهم ومؤهلاتهم، فيحسدهم الصينيون الذين هم دونهم من حيث التأهيل والإمكانات، ولكنهم لا يعترفون بذلك، ويسعون لتسلم المناصب، فيحيكون المؤامرات، ويدسُّون الدسائس، وحدثت اشتباكات مسلحة لم تكن في صالح المسلمين.

وأخطر ما في الأمر أن اثنين من قواد المسلمين وقفا بجانب (ينغان وانغ) و(ميراين)؛ إذ أعلنا العصيان في ولاية (قانسوا) عام ١٠٥٨ من الهجرة (١٦٤٨م) فأخفقت الحركة، وقُتل خمسة آلاف مسلم، وهذا ما جعل الحكم المنشوري يشك في نيات المسلمين تجاهه، فزاد حقد الحكام على المسلمين، وانتظروا الفرصة المناسبة للنيل منهم، ولهذا كره المسلمون الحكام، وأساؤوا الظن بهم، وتمنوا الخلاص منهم، وقاموا بالحركات ضدهم. ومن هذه الحركات:

١- انتفاضة لانتشو عام ١٩١٦م: كان الناس في (سينينغ) على رأي في قراءة القرآن الكريم، وهي القراءة بصوت خفي، وقد سافر أحد علمائهم، وهو محمد أمين (ما مين شين) إلى مدن آسيا الوسطى حتى وصل اليمن وأخذ العلم فيها، ورأى الناس هناك يقرؤون القرآن بصوت مرتفع، ثم عاد إلى الصين بعد إقامته الطويلة في اليمن، ودعا الناس إلى ما تعلَّمه في اليمن؛ مما أدى إلى الخلاف والقتال بين المسلمين، واستغلت الدولة هذا الخلاف، وأرسلت جيشها عام ١٩١٦م فحاصر المسلمين في بلدة (لانتشو)، وقتل منهم الكثير.

٢- انتفاضة جينجبوا: وهي تتمة للانتفاضة الأولى؛ إذ حاصر الجيش الصيني المسلمين في هذه المدينة، ورفض المسلمون تسليم أنفسهم للجيش، فقتل منهم الكثير.

وصدرت أوامر ملكية بمنع المسلمين من المجادلة في الأمور المذهبية الدينية. وكانت هاتان الحركتان في محافظة (نين شا) التي عاصمتها (لانتشوا).

٣- انتفاضة شانسي: حدثت الخلافات بين المسلمين وغيرهم في ولاية شانسي عام ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢م) فجاء القائدان الصينيان (تو لو نغ أو) و(شن باو) وأخرجا المسلمين من مدينة (شي آن) عاصمة الولاية (عاصمة أسرة تانغ

السابقة)، ففر عدد من المسلمين، وهلك قسم كبير منهم، واستنجد المسلمون في (شانسي) بإخوانهم في ولاية قانسوا.

٤- انتفاضة قانسوا: أنجد (ما هوا لونغ) وهو خليفة الإمام محمد أمين في "قانسوا" إخوانه في "شانسي" عندما طلبوا منه النجدة، كما جاءت المساعدات من مدن وولايات أخرى، وانتصر المسلمون على قوات الحكومة، فجاء القائد (تسو تسونغ تانغ) ـ وهو القائد الأعلى ـ لإقرار الأمن، واتخذ مدينة (شين آن) مقراً لقيادته، واشتبك مع المسلمين بقتال استمر حتى عام ١٢٨٨ هجرية تقريباً، وانتهت المعارك بهزيمة المسلمين، وفرار بعضهم إلى تركستان الشرقية، حيث اشتركوا في الانتفاضات هناك.

٥- انتفاضات يونان: جاء المسلمون إلى يونان أيام الحكم المغولي عندما عين الإمبراطور "قبلاي خان السيد الأجل" حاكماً على يونان، فانتقل إليها عدد من رجال الجيش المؤلَّف من المسلمين؛ وأنشأ المدارس والمعاهد الدينية، حيث كثر المسلمون في هذه الولاية، وعندما جاء الحكم المانشوري وزادت المفاسد، وعمَّت الفوضى قامت الحركات في يونان، وكانت أُولى هذه الحركات عام ١٢٣٣ هجرية، وقد قتل عدد كبير من المسلمين على يد قوات الحكومة، وتبع ذلك حركة عام ١٢٤١هجرية، واستمرت سنتين، وحركة عام ١٢٤٩هجرية، واستمرت ست سنوات، وقتل ٢١٠٧٤ من المسلمين في مدينة (يون تشانغ)، ثم قامت انتفاضة في مدينة (يونانفو) عام ١٢٧٢ هجرية، واستمرت حتى عام ١٢٩٠ هجرية؛ أي: بقيت ثماني عشرة سنة. وسببها خلاف وقع بين العمال من المسلمين وغير المسلمين، ويعود ذلك إلى تفوق العمال المسلمين، الذي أدى إلى حقد زملائهم عليهم، وكان بين قتلى المسلمين زعيمٌ يدعى (ما هو تشانغ)، وله شقيق يدعى (ماهي سيان) من ضباط المدرسة العسكرية. فتزعَّم حركة المسلمين، وجاء رئيس الأركان الصيني لحلِّ النزاع بين الطرفين، غير أنه أوقع مجزرة رهيبة بالمسلمين؛ إذ

كان يحقد عليهم، مع أن والي المقاطعة كان بجانب المسلمين، ويرى أنهم أصحابُ الحق، وقد ذهب ضحيةَ هذه المجزرة ثلاثمائة عائلة مسلمة في بلدة (نينغ تشو)، وكان ذلك في ١٦ رمضان من عام ١٢٧٢ هجرية.

ومن جانب آخر، قام المسلمون في منطقة العاصمة، ونصبوا (ماتسه هسينغ) إماماً لهم، واتخذوا مدينة (كوان آي) مركزاً للعمليات العسكرية التابعة لهم، وبدؤوا في قتال الصينيين أيضاً، وقد انتصروا في عدة معارك.

ومن ناحية ثالثة، قام زعيم آخر، وهو (دو وون شو) المشهور في التاريخ الإسلامي الصيني، وتلقَّب بالسلطان سليمان، ودعا إلى استقلال منطقة يونان، وجعل (داليفو) عاصمةً له، وكانت نداءاتُه باللغة العربية، وألَّف كتاب تاريخياً باسم (كتاب ترجمة شخصية لقائد الانتفاضة دو وون شو) سجل فيه جميع مراحل انتفاضات المسلمين في مقاطعة يونان وعدد ضحايا المسلمين.

وهكذا كان (ما هي سيان)، الضابط في المدرسة العسكرية، يسيطر على المناطق الواقعة إلى الشرق من العاصمة (يونانفو)، و(ما تسه هسينغ) يحاصر العاصمة، و(دو وون شو) يفرض نفوذه على الجهات الواقعة إلى الغرب من العاصمة، وساعد المسلمين على ذلك انشغالُ حكومة الصين بحرب الأفيون مع إنكلترا، وبمواجهة انتفاضة يعقوب بيك في تركستان الشرقية، الأمر الذي جعل حلّ مشكلة يونان إلى الأمراء المحليين.

عرض قائد الجيش الإمبراطوري طلب المفاوضات مع المسلمين لإحلال السلام، فوافق بعضهم، ثم قدَّم عروضاً لزعماء المسلمين؛ منها: منح (ما هي سيان) رتبة زعيم الجيش الإمبراطوري، فوافق على ذلك، وأصبح اسمه (ما جو لونغ)، وغدا أمر ولاية يونان بيده، فعيَّن صينياً في منصب رئيس خزانة الولاية، وبعد مدة تسلم هذا الصيني منصب الوالي على المقاطعة، فقام بأكبر المجازر ضد المسلمين.

وعرض القائد للجيش الإمبراطوري على (ما تسه هسينغ) منصباً عالياً، ولكنه

رفض وقبل راتباً شهرياً قدره مائتا مثقال من الفضة، أما (دو وون شو)، فقد رفض المبدأ أساساً، ودخل المسلمون بإمرة (ما جو لونغ) في العاصمة (يونانفو)، وقسم بإمرة (دو وون شو) في (داليفو)، وبذلك نجحت الحكومة في تفريق المسلمين والسيطرة عليهم.

ثم بدأ الصراع بين الطرفين، ورجحت كفة (دو وون شو)، الذي استطاع أن يفرض الحصار على العاصمة (يونانفو) قاعدة خصمه، وذلك عام ١٢٨٦ هجرية، ثم دارت عليه الأيام وهزم، واضطر في النهاية أن يسلِّم نفسه للوالي في ١٥ ذي القعدة من عام ١٢٨٩ هجرية (١٥ كانون الثاني من عام ١٨٧٣م).

وهكذا يتبين لنا مما سبق حال المسلمين في الصين، وكيف توالت عليهم الأيام من فترات سيطرة ونفوذ، إلى فترات ضعف وتفرق، وانشغالهم تارة في القتال بينهم، وتارة مع عدوهم(١).

حملة قتيبة بن مسلم(٢) وانتشار الإسلام في الصين

كانت معركة القادسية (٦٣٦م) قد هددت حياة الإمبراطورية الساسانية العتيدة من أعماقها، ثم كان انتصار المسلمين في نهاوند (٦٤٢م) قد قوَّض دولة كسرى إلى غير رجعة، وفرَّ يزدجرد، آخر الملوك الساسانين، إلى بلاد الصين، وكان ذلك من جهة أخرى نذيراً للإمبراطور الصيني (تانغ جونغ) في عصر أسرة (تانغ) العظيمة برياح الزحف العربي المنطلق من شبه الجزيرة العربية باتجاه منطقة الشرق الأقصى.

ولقد تمثل هذا الزحف الإسلامي في حملة قتيبة بن مسلم الباهلي إلى آسيا الوسطى، وكان قتيبة من رجال الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، فقاد قتيبة قوةً من العرب إلى خراسان، ثم اندفع إلى ما وراء النهر ضد الأتراك، وتقدم نحو

---

(١) تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية – الشيخ عبدالله قاسم. سوجي يوان الصيني – ص ٢٩ –٣٣ بتصرف.

(٢) سبقت الإشارة إلى فتح قتيبة لتركستان الشرقية في ص ٤٥٩ ونذكرها هنا بشيء من التفصيل لأهميتها في التاريخ الإسلامي في الصين.

بيكند، وفتح كلاً من مدينة صُغد، ورامتين، وبخارى، وواردن، وكش، وسمرقند، وفتح قتيبة هذه المدن وهو متجهٌ صوب مدينة كاشغر، أقرب مدن الصين إلى تلك المناطق، وأسس قتيبة في مدينة بخارى مسجداً معروفاً باسم مسجد قتيبة في عام (٩٥هـ / ٧١٤م)، ولا يزال حتى يومنا هذا.

وعمَد قتيبة إلى إجازة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية لَـمَّا رأى صعوبة فهم معانيه بلغته الأصلية، وصار سكان بخارى يفهمون معاني القرآن باللغة الجديدة فهماً كاملاً، ولقد أفادت هذه الطريقة إفادة عظيمة في نشر الإسلام في بلاد التتار العليا، وانتشر الإسلام منها في الأيام اللاحقة إلى تركستان الصينية، ومنها إلى شمال غرب الصين [١].

على أن قتيبة لَـمَّا فرغ من تنظيم سمرقند وبخارى، زحف بجيوشه نحو خوقند، ثم توجه نحو الشرق عبر مضيق تيرك، حتى دخل مدينة كاشغر فاتحاً في سنة ٩٥ هجرية، ولما كان منهج المسلمين في غزواتهم أن يعرضوا على أهل البلاد: إمَّا الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، فقد فعل ذلك قتيبة بن مسلم مع إمبراطور الصين يوانج شونج (٧١٣ –٧٥٥م).

وفي هذا يقول ابن الأثير ما ملخصه: في سنة ٩٦هـ (٧١٥م) غزا قتيبة بن مسلم كاشغر، وحمل مع الناس عيالهم ليضعهم بسمرقند، فلما عبر النهر، استعمل رجلاً على المعبر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه، ومضى إلى فرغانة، وأرسل إلى شعب عصام من يُسهِّل الطريق إلى كاشغر، وهي أدنى مدن الصين، وبعث جيشاً تحت قائد كبير إلى كاشغر، وختم أعناق أهلها، وأوغل حتى قرب الصين، فكتب إليه ملك الصين يقول: "ابعث إلي رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم".

وعمد قتيبة إلى انتخاب عشرة من خيرة رجاله أمر لهم بعُدَّة حسنة، وألبسة من الخَزِّ والوشي، ومن الخيول، وقال لهم: "إذا دخلتم عليه، فأعلموه أني قد حلفت لا

(١) العلاقات بين العرب والصين – بدر الدين حسن الصيني – ص ٢٦– ٢٧ بتصرف.

أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبيَ خراجهم، فساروا إليه وعليهم هبيرة بن مشمرج، وحضروا عند الإمبراطور ثلاث مرات، ولبسوا في كل مرة ملابسَ تختلف عن المرة الأخرى، ففي الأولى لبسوا ثياباً بيضاءَ تحتها الغلائل، وتطيَّبوا، ولبسوا النعال والأردية، وفي المرة الثانية لبسوا الوشي والعمائم والخز والمطارف، وفي الثالثة شدُّو سلاحهم، ولبسوا البيض والمغافر، وأخذوا السيوف والرماح والقسِيَّ، وركبوا خيولهم.

وتعجب إمبراطور الصين من هذا، وسأل هُبيرة عن سر التنوع في لباسهم، فقال: "زِيُّنا الأول هو لباسُنا في أهلنا، وفي اليوم الثاني لباسنا أمام أمرائنا، وفي اليوم الثالث كان زيَّنا أمامَ عدونا"، فقال الإمبراطور "ما أحسن ما دبرتم دهركم، فقولوا لقائدكم ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه، وإلا لبعثت إليكم من يهلككم". فردوا عليه بالقول: "كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادكم وآخرها في منابت الزيتون، وأما تخويفكم إيانا بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرتْ فأكرَمُها القتل، ولسنا نكرهه ولا نخافه، وقد حلف قائدنا ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية". رد الإمبراطور: "أن نبعث إليه تراب أرضنا فيطؤه، وبعض أبنائنا فيختمهم، وجزية يرضاها". وبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم، فأحسن الجزاء. ولقد رضي قتيبة بهدية الإمبراطور، حيث كان قد بلغه خبر وفاة الوليد بن عبدالملك وبيعة أمراء دمشق لسليمان، الذي تولى الخلافة الأموية لفترة وجيزة.

وعلى أية حال كان مقتل قتيبة بن مسلم إيذاناً بضعف الإسلام فيما وراء النهر، وإثارة الخلاف والشقاق بين صفوف المسلمين، وتوقفت فتوحات المسلمين إلى الشرق الأقصى بسبب مقتل هذا القائد الهُمام، فتخلصت الصين من حملة المسلمين عسكرياً، ولأنها لم تستطع مقاومة الدين الإسلامي الذي كان ينتشر بسرعة إلى أواسط آسيا، فدخل الصين ليستقر في مناطقها الغربية والشمالية.

ولقد أورد الشيخ بيرم التونسي المتوفى عام ١٨٨٩ في مؤلفه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار" : "إن أصل المسلمين في الصين، وهم ينيفون على الستين مليوناً من السكان، ومن العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدي معلوماً إذا أنجده، فأرسل إليه أربعة آلاف من صناديد المسلمين، وقهر بهم رعاياه، وجازاهم على ذلك بجواز الإقامة في مملكته.......... إلخ"(١).

من مآثر المسلمين في الصين

ومن المآثر التي يذكرها الصينيون للمسلمين ـ حتى في الأيام العصيبة التي حلَّت بهم ـ: أنه كثيراً ما كانت المجاعات تجتاح بلاد الصين، فيضطر الآباء إلى بيع أبنائهم في الأسواق، فيسارع المسلمون إلى شرائهم، وتربيتهم على الإسلام، ويعاملون معاملةً كريمة، وقد حدث هذا مراراً منذ القرن الثامن عشر، وفي عام ١٩٠٠م عندما لقي المسيحيون الاضطهاد على أيدي حركة (الملاكمين) في الصين عَمد بعض المسيحيين إلى بيع أبنائهم، فلم يجدوا لشرائهم غير المسلمين لدوافعَ إنسانية محضة(٢).

٤- موقف الكونفوشيوسية من الإسلام

لم يكن للمسلمين مفرٌّ من التأثُّر بالظروف المحيطة بهم. ومن ذلك: أن المسلمين من قومية "هوي" غالباً ما يحذون حذو بني وطنهم من غير المسلمين في التعبير عن حزنهم على وفاة أمواتهم، وهم يرتدون ثياب الحداد (ذات اللون الأبيض)(٣) ويضحُّون بالمواشي في تكريم مشيِّعي الجنائز، ويقيمون الحفلات بقدر المستطاع في

(١) العلاقات بين العرب والصين – ص ٤٠ بتصرف.

(٢) الصين والعرب عبر التاريخ – محمد محمود زيتون – ص ٥٢.

انظر: الشرق الأقصى – الصين واليابان – د. فوزي درويش ص ٢٢-٢٧ وص ٥٧.

(٣) وقد لحظت ذلك في الصلاة على جنازة في الجامع الكبير في مدينة (شي آن)، حيث كان أهل الميت يلبسون ملابس بيضاءَ، وقد سألت بعض المسلمين عن ذلك، فقالوا: إنها من العادات الكونفوشيوسية القديمة التي تأثر بها المسلمون.

ذكرى أعزائهم الراحلين.

ولذلك، فقد كان الشيخ شه يون شان (١٦٦٢ -١٧٢٢م) ومَنْ معه من العلماء وطلاب العلم قد تبنَّوْا شعار "اتِّباع الكتاب والسنة وإزالة العادات المرعية" .

وعلى الرغم من أن الظواهر السالفة تخالف أحكام الإسلام، فهل تأثر المسلمون بعقائد الكونفوشيوسية؟

رأى بعض الدارسين للحضارة الإسلامية أن الإسلام قد التقى هو والكونفوشيوسية في تيار واحد بعد وقت قصير من دخوله إلى الصين، وقال بعضهم الآخر: إنه قد "تكنفش" في البلاد، محتجِّين بما يأتي:

١- عدد من المساجد الصينية مميزة بالصبغات الكونفوشيوسية؛ بدليل من أن النصب الصخري الذي نُصب خصيصاً لمسجد "دينغنشو" بمقاطعة "خبي"، والعائد في تاريخه إلى سنة ١٣٤٨، يقتبس من الاصطلاحات الكونفوشيوسية في وصف المسلمين المحليين قائلاً: "إنهم يعبدون السماء، ويطلبون منها تمديد عمر النبي". وأن النصب الصخري القائم في مسجد "تشينغنشيو" بمدينة "شيان" منقوش عليه كتابات "وانغ قونغ"، التي ورد فيها: "ولد النبي في الغرب (يعني جزيرة العرب) بعد كونفوشيوس، ويتباعد موطنه عن موطنه، ويختلف عهده عن عهده، ولكن تعاليم النبي الغربي تتفق مع تعاليم النبي الصيني". (وفي الحقيقة أن قيمة الإسلام لا تتوقف على اتفاق تعاليمه مع تعاليم كونفوشيوس أم لا).

٢- في الصين أعداد كبيرة من المساجد المميَّزة بالفن المعماري الكلاسيكي، ليس فقط أنها مزخرفة بنقوش من التنانين والعنقوات، بل لوحظت فيها ألواح مكتوب عليها الأمثال الكونفوشيوسية؛ مثل: "ارضخوا للقضاء والقدر، وأطيعوا أولي الأمر، واتبعوا تعاليم النبي"، و"إياك والنظر إلى القبائح، والاستماع إلى الأباطيل، والتكلم باللغو، وممارسة الفضائح".

٣- ظهر عدد من المؤلفين والمترجمين الإسلاميين في أواخر عهد أسرة مينغ

(١٣٦٨ -١٦٤٤م)، وعهد أسرة تشينغ (١٦٤٤- ١٩١١م) تتميز مؤلفاتهم وترجماتهم بالصبغات الكونوشيوسية كثيراً أو قليلاً، ما عدا أعمال "تشانغ شي تشونغ" و"وو تسون تشي".

وعندما كان "شيو يوان تشنغ" أحد الكونفوشيوسيين يعلق على كتاب "عقائد الإسلام" بقلم الشيخ "ليو تشي"، قال: "إن هذا الكتاب ليؤدي إلى توضيح كونفوشيتنا، وإن كان يقصد نشر الإسلام". وقد استنتج هؤلاء الدارسون من هذه الظواهر الثلاث أن الإسلام في الصين قد التقى هو والكونفوشيوسية في تيار واحد، وأنه قد "تكنفش" على حد زعمهم.

يقول الشيخ محمود يوسف(١): لقد كانت هذه الظواهر الثلاث موجودة في التاريخ. ومع ذلك، فإن استنتاج أولئك الدارسين على هذا النحو يبدو بعيداً عن الصحة فيما يرى؛ لأن وجود تلك الظواهر كان لا يخلو من مسوِّغات أبداً.

فأولاً: منذ إدلاء الفيلسوف الصيني الكبير دونغ تشونغ شو(١٧٩ - ١٠٤ق.م) بشعار "لابد من إلغاء كل أنواع التعاليم، واحترام الكونفوشيوسية وحدها"، أصبحت الكونفوشيوسية عقيدةَ المجتمع الصيني أكثر من ألفي سنة، وطوال هذه الفترة الطويلة ما مِنْ دين أو عقيدة واردة من الخارج لتثبيت أقدامها في الصين إلا وتعرَّضت للإبعاد من قبل الكونفوشيوسيين.

أما الإسلام الذي دخل إلى الصين متأخراً، فلم يكن للمسلمين مفر من نشره في البلاد، متبعين استراتيجية التصالح مع الكونفوشيوسية، وذلك بالبحث عن النقاط المشتركة بين الطرفين وترك الخلافات بينهما جانباً.

ثانياً: يدعو الإسلام إلى كبح القويِّ لصالح الضعيف، وإيتاء المساكين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والبغي، والإحسان بالوالدين، واحترام الكبار،

(١) الشيخ محمود يوسف (لي هوا ين) - من أبرز الشخصيات الإسلامية في الصين في الوقت الحاضر. له عدد من الكتب باللغة العربية، ترجمةً وتأليفاً. قابلته إبان زيارتي للصين، وأجريت معه لقاءً مطولاً. وسيأتي المزيد عنه في الفصل الثالث من هذا الباب.

والاعتناء بالصغار، ومعاملة الناس بلطف، والبيع والشراء بالعدل.. إلخ.

كل ذلك متشابه مع المبادئ الأخلاقية الكونفوشيوسية. وبالإضافة إلى ذلك يدعو الإسلام إلى السعي وراء السعادة في دار الفناء ودار البقاء. ومعنى ذلك أنه من الضروري الاهتمام بالآخرة والحياة الدنيا في آن واحد. ومع أن التعاليم الإسلامية تختلف عن التعاليم الكونفوشيوسية، إلا أنها تقترب منها في نظر الكونفوشيوسيين قياساً على الأديان التي تدعو إلى اعتبار كل شيء في الدنيا تافهاً، وتتهرب من الواقع.

وإذا نظرنا إلى هاتين الناحيتين، تبين لنا أن هناك نقطةً مشتركة بين الإسلام والكونفوشيوسية. وعلى كل حالٍ، فهما متعارضان تعارُضاً غير قابل للصلح أبداً من الناحية الأخرى؛ فمثلاً: تشدد الكونفوشيوسية على الاهتمام بالتشريفات، وهي تدعو إلى السجود للأباطرة وكبار المسؤولين والأعيان، والآباء والأمهات في بعض المناسبات.

بيد أن ذلك في نظر الإسلام كفر؛ فلا غرو أن الإسلام كان عُرضةً لهجوم بعض الكونفوشيوسيين من جرَّاء ذلك. ومن الأمثلة: أنه كان هناك كونفوشيوسي شديد الحقد على الإسلام، تمادى في عدائه إلى درجة أنه استنكر الإسلام قائلاً بأنه "دين لا يدعو إلى احترام السماء والأرض وعبادة آلهتهما.. دين إيجاد النبي الجديد، وإنشاء التقويم الغريب، وحث أتباعه على تضليل الجماهير وإفادة الطالحين والإساءة إلى الصالحين".

ومقابل هذا النوع من التحديات اضطر المسلمون المحليون، الذين كانوا في ظروف غير صالحة لهم، إلى اختيار ما لا يخالف أصول دينهم من التعاليم الكونفوشيوسية في تزيين مساجدهم، وإيضاح الشريعة الإسلامية، بدافع من رغبتهم في إبقاء الإسلام وسطهم جيلاً بعد جيل.

ومن هذه الزاوية، فإن إضفاء الصبغات الكونفوشيوسية على المساجد والمؤلفات والتراجم باللغة الصينية، كان ناجماً عن سبب سياسي ليس غير، فلا يمكن اعتبار ذلك دليلاً على "كنفشة" الإسلام في الصين.

أما أولئك العلماء العاملون في مجال التأليف والترجمة، فقد كانوا يهدفون من وراء الاستفادة من بعض التعاليم الكونفوشيوسية إلى إظهار الإسلام في الظروف التاريخية آنذاك على خيرِ وجه. وخيرُ دليل على ذلك: أن أحد الكونفوشيوسيين أبدى، بعد قراءته كتاب الشيخ وانغ داي يو بعنوان "جامع أحكام الدين الحنيف"، ملحوظاته له قائلاً: "إن الإسلام قد تدارك نواقص كونفوشيتنا في تطهير النفس من الشوائب والعيوب، وإنه ليتفوق على سائر الأديان بدعوته إلى عدم الفرق بين "ما هو لي" و"ما هو لك"، وإلى إظهار المحبة للقريب والبعيد على حد سواء، وإلى تضامن ملايين الناس بقلب واحد، والانسجام التام بين الشرقيين والغربيين".

زد على ذلك أنه كان هناك عدد من الكونفوشيوسيين أسلموا بسبب قراءتهم للمؤلَّفات والتراجم الإسلامية باللغة الصينية، وكان منهم مثقف من قومية "هان" اسمه "ليو تشه سان"، تربى على الكونفوشيوسية في شبابه، ولكنه اهتدى إلى الإسلام في أوائل القرن العشرين، متأثراً بالكتب الإسلامية. والطريف هو أن إيمانه القوي قد حداه إلى دراسة علوم الدين باللغة العربية بهمة عالية، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح إماماً محترماً لدى المسلمين في "خنان" و"شانغهاي".

بعد هذا... هل تأثرت عبادات المسلمين الصينيين ومعاملاتهم بالكونفوشيوسية أم لا؟

يقول الشيخ محمود: يحق القول: إن عباداتهم ومعاملاتهم لم تتأثر بالكونفوشيوسية على وجه العموم.

ولا أبالغ إذا قلت: إن مسلمي الصين المخلصين ليسوا أضعفَ من إخوانهم من المسلمين خارج البلاد من حيث صحة فهمهم لأصول الدين، وشدة تمسكهم بالشرائع الإسلامية، ومدى اهتمامهم بالحلال والحرام في المأكولات والمشروبات.

ونظراً إلى أن الإسلام يقف في وجه عبادة الأصنام والتماثيل، فقد نتجت عن ذلك الخلافات والصراعات بين المسلمين والحكام المفضِّلين للكونفوشيوسية، مراراً

وتكراراً، وذلك في الفترة التي سبقت ظهور النظام الجمهوري في الصين.

ومما يستحق الذكر: أن دعوة السلطة التابعة لحزب الكومينتانغ بعد ثورة ١٩١١م إلى الركوع أمام صورة الدكتور (صن يات صن) قد أثارت معارضة شديدة من قِبَل بعض المسلمين الصينيين.

ومن أجل تفادي شبهات العبادة الخاطئة يمتنع بعض المسلمين عن تعليق صور الكائنات الحية على جدرانهم، إلى جانب قيام بعضهم الآخر بتغطية هذه الصور في شهر رمضان، وفي حين قراءة الآيات القرآنية.

وتشير هذه الأمور وغيرها إلى أن المسلمين الصينيين لم يتأثروا بالكونفوشيوسية في عباداتهم.

وصفوة القول: إن الهدف من إضفاء الصبغات الكونفوشيوسية على المساجد والكتب الإسلامية في المجتمع الصيني القديم يستهدف حمل الطبقات الحاكمة على مسامحة أهل الإسلام، وليس من أجل الدعاية للكونفوشيوسية وسط المسلمين.

وجدير بالذكر أن كل ما تطرَّقنا إليه في هذا البحث يُشار به إلى كيف كانت الكونفوشيوسية في نظر المسلمين من قومية "هوي" فقط. أما أبناء القوميات المسلمة الأخرى؛ مثل أبناء الويغور والقازاق والأوزبيك والطازك وتاتار والقرغيز وسالار ودونغشيانغ وباوأن.. الذين يمثِّلون حوالي ٥٠ بالمائة من المسلمين الصينيين، فلا يمُتُّون إلى الكونفوشيوسية بصلة أبداً، بسبب ابتعادهم عن قلب الحضارة الدينية أكثر، ولذلك فإن القول بأن الإسلام في الصين قد "تكنفش" ليس له أساس من الصحة.

ويدل هذا على أن الشريعة الإسلامية تتحدى بنظامها المحكَم كلَّ الشرائع، وليست شريعة فانية، وإنما هي شريعة خالدة صالحة لكل مكان وزمان لتكون مصداقاً لما أراد الله لعباده بقوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾(١).

---

(١) المساجد في الصين – محمود يوسف – لي هوا ين، ص ١٨٨ – ص ١٩٥ بتصرف.

٥- قول أحد ملوك الصين في الصحابة رضوان الله عليهم

جاء في كتاب "حياة الصحابة" للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي جـ٣ ص ٦٩٧، وهي آخر فقرة في الكتاب ما نصه: "ذكر ابن جرير أيضاً في تاريخه (٣ / ٢٤٩) أن يزدجر كتب إلى ملك الصين يستمدُّه، فقال للرسول: قد عرفت أن حقاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصِفْ لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم، فقلت سلني عما أحببت... فقال: يوفون العهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرَوْنا مجراهم، أو الجزية والـمَنَعة، أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوَعُ قوم لمرشدهم. قال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته، فقال: أيحرمون ما حُلِّل لهم، أو يُحِلُّون ما حُرِّم عليهم؟ قلت: لا. قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العِراب ووصفتُها. فقال نعمت الحصون هذه، ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دوابّ طوال الأعناق. وكتب إلى يزدجر: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمَرْو وآخره بالصين الجهالةُ بما يحقُّ علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولُك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدُّوها، لو خلى لهم سربهم أزالوني، ما داموا على ما وصف، فسالِمْهُم وراض منهم بالمساكنة، ولا تَهِجْم ما لم يَهِيجوك".

خبران عجيبان عن تمكن الإسلام في الصين

خبران عجيبان نقلهما المؤرخون عن تمكُّن الإسلام في الصين منذ قرون. الأول: ذكر (توماس أرنولد) أن السيد (الأجل) المسلم الذي اسمه (عمر شمس الدين) كان حاكماً في الصين في القرن الثالث عشر الميلادي، حكم بالعدل، واستقامت

البلاد في عهده، وتوارث أبناؤه وأحفاده الملك، ونشروا الإسلام هناك. وقد حصل أحدهم على ثبت رسمي من إمبراطور الصين عام ١٣٣٥م هذا نصه: (الإسلام هو دين الله الحق الخالص)، وشُيِّدت المساجد في ذلك العهد، واستقر المسلمون، ونشروا علوم الإسلام.

الثاني: ابن بطوطة يجول ويصول في الصين، ويسجل ما فعل وما رأى، فيقول: إنه أقام في دهلي، وعين قاضياً، وما فتئ أن بعث له سلطان الهند خيلاً مسرجةً وجواري وغلماناً وثياباً ونفقة، وقال له: إني اخترتك رسولاً إلى ملك الصين... فيقول ابن بطوطة: "وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية، وخمسمائة ثوب منها مائة من التي تُصنع بمدينة الزيتون، ومائة من صناعة مدينة الخنساء، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصَّعة بالجوهر، وخمسة من التراكش مزركشة وخمسة سيوف، وطلب إليه أن يأذن له في بناء بيت للأصنام (بوذا) في موضع يعرف (بسمهل) يحجٌّ إليه أهل الصين، وقد تغلب عليه المسلمون في الهند، وخربوا المعبد كلَّه، ولَمَّا وصلت الهدية إلى سلطان الهند كتب إليه بأن هذا الطلب لا يجوز في ملة الإسلام، ولا يُتاح بناء معبد أو كنسية في ديار الإسلام، والسلام على من اتبع الهدى.

فكانت هذه الهدايا مقابل تلك، وقد حملها ابن بطوطة ووصل عن طريق البحر إلى (تسي ثون) وكان معه أحد الأمراء ليسلمها للإمبراطور.

وقد وجد المسلمين يقيمون شعائرهم، وهم كثيرون، ولهم قيمة وعزيزون، وكانوا امتداداً لقبائل ما وراء النهر[1].

وهذان الخبران يدلان على قِدَم الإسلام في الصين وانتشاره، واحتفاظ المسلمين هناك بدينهم إلى يومنا هذا.

---

(١) الصين ويأجوج ومأجوج- عبدالعزيز المسند ص ٥٤ -٥٥ بتصرف.

بيان الإمبراطور يوانغ تشين ١٧٣١م

لقد أثارت نُذُر الظلم والتضييق على المسلمين واضطهادهم ـ التي هبت ريحها مع قدوم أسرة مانشو ـ شعوراً عاماً بالاضطراب والتوتر في صفوف المسلمين. وقد حاول الإمبراطور "يوانغ تشين" في سنة ١٧٣١م أن يهدِّئ من روعهم، فأصدر بياناً مهماً يحدد فيه سياسة حكومته تجاه المسلمين. وهذا نص البيان الذي نشره توماس أرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام":

"في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، ويوجد منذ قرون كثيرة مضت، عدد كبير من المسلمين، يؤلفون جانباً من الشعب، أعتبرهم كأبنائي، وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتي تماماً، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام، وقد تسلمت من بعض الموظفين ظُلامات سريةً ضد المسلمين، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين، ويلبسون لباساً يختلف عما يلبسه سائر الأهالي.

وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية، وقد طلب مني أن أتخذ ضدهم تدابيرَ صارمةً، فلما بحثت هذه الظُّلامات والاتهامات، لم أجد لها أساساً من الصحة. والواقع أن الدين الذي اتَّبعه المسلمون إنما هو دين أجدادهم، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين، ولكن ما أكثر اللغات في الصين.

أما فيما يتعلق بدُورِ عبادتهم ولباسهم وطريقتهم في الكتابة ـ وكلها مختلفة عما عند غيرهم من أهل الصين ـ فهذه مسائلُ لا أهمية لها مطلقاً، وما هي إلا عادة من عادات المسلمين، أنهم يتحلَّوْن بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة.

من أجل ذلك كانت رغبتي أن تطلق لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم، الذي يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة، وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية.

إن هذا الدين يحترم النُّظُم الأساسية للحكومة، فماذا نستطيع أن نطلب منه أكثر من هذا؟ فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتَّصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون، فسأبسط لهم رعايتي بقدر ما أبسطها إلى أبنائي الآخرين، لقد ظهر منهم مدنيون وعسكريون ارتقواْ إلى أعلى المناصب. وهذا أقوى دليل على أنهم تطبَّعوا بطباعنا، وتعوَّدوا عاداتنا، وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم وبين شرائع كتبنا المقدسة، إنهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أي إنسان آخر، ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية.

وقصارى القول: إنهم أعضاء خُلَّص في الأسرة الصينية العظيمة، وإنهم يجدُّون دائماً في أداء واجباتهم الدينية والمدينة والسياسية، وعندما ينظر القضاة قضيةً مدنية، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين، فليس هناك إلا قانون واحد لرعيتي، فمن عمل صالحاً كوفئ عليه، ومن عمل سيئاً حق عليه العقاب"(١).

٦- أقوال بعض عظماء الصين في محاسن الإسلام

أنقل هنا من أقوال بعض عظماء الصين غير المسلمين عن محاسن الإسلام؛ لكي نعرف إلى أية درجة وصل فهمهم للإسلام، وكيف وجدوه:

نصب سنة ٧٤٢م، في الجامع الأعظم الذي بني بأمر الملك في "سيغانفو" عاصمة الصين القديمة، نُصُبٌ تذكاري حجري، حُفر عليه مذكرة لمراقب البلاط الملكي "وانغ هوانغ" جاء فيها: "إن حكيم العرب محمد ﷺ ولد بعد حكيم الصين" "كونفوشيوس"، ونشأ في جزيرة العرب، فكانت الفترة بينهما طويلة، والمسافة بين القُطرين بعيدة. فما اتفقت سنتاهما مع اختلاف لغتيهما إلا لأن قلبيهما متَّحد، فاتحدت سنتاهما، وقد مضى الحكيم ولكن آثاره ما زالت باقيةً، علمنا منها أنه ولد عبقرياً، يعلم أسرار السماوات والأرض، وأخبار الدنيا والآخرة،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام – توماس أرنولد – ص ٣٣٧.

انظر: الإسلام في الصين – فهمي هويدي ص ٩٢– ٩٣

وعلَّم أتباعه أن يطَهِّروا أبدانهم بالوضوء والغسل، ويربُّوا أرواحهم بكسر الشهوات، ويروِّضوا نفوسهم بالصيام، ويجتهدوا في الخير، ويبتعدوا عن المنكر، ويعاملون الناس بصدق النية والوفاء، ويتعاونوا على عقد الزواج وتشييع الجنائز. وبالجملة ما من أصل من أصول المجتمع الإنساني، إلا وقد أثبته، وما من قاعدة من قواعد الصحة والأخلاق، إلا وقد شيَّدها".

وأمر الملك الأول من ملوك أسرة "مينغ" الملقَّب بلقب "تايتسو" سنة ١٣٢٨م ببناء جامع في "نانكينغ"، ونظَم هو قصيدة مكونة من مائة كلمة في مدح محمد ﷺ، معناها الحرفي كالآتي:

"ولد في جزيرة العرب النبي الأعظم، الذي كُتب اسمه في اللوح المحفوظ، وتلقى من الملك العلي كتاباً منقسماً إلى ثلاثين جزءاً، وبُعث رحمة للعالمين، فكان ملكاً مربياً للخلق كافة، وسيداً كريماً للرسل والأنبياء أجمعين، وكاشفاً للفيض الأقدس، حامياً للرعية، يصلي كل يوم خمس مرات، داعياً للعالم بالأمن والسلام، ويخاف من الملك الحق، ويشفق على الفقراء والمساكين، ويُعين على الشدائد، ويعلم أسرار الدنيا والآخرة، ويشفع للأرواح، وينقذها من النار؛ فقد غمر العالمين بفضله، وبهر المتقدمين والمتأخرين بسُنَّته، وجمع الأديان فهذبها، حتى صار ديناً طاهراً حقاً، وأن محمداً لأفضل الأنبياء".

وانتقد ذات يوم الملك "أو تسونغ" الملك العاشر من ملوك أسرة "مينغ" أديانَ الصين قائلاً لخَدَمه وحَشَمه: إن الكونفوشيوسية تكفي معالجة المصالح في عالم الشهادة، وتقصر عن كشف الأسرار في عالم الغيب. وأما البوذية والطاوية، فكأنهما تكشفان حُجُب الغيب، ولكن لا تفيدان الرجوع إلى الفطرة؛ فإن كل واحد من هذه الأديان منحرف إلى جانب واحد، بخلاف الإسلام، فإنه دين يُعرَف به الخالق، ويبنى على القواعد المعقولة، فلا جرم أنْ يبقَى ما دامت السماوات والأرض"(١).

(١) نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين. محمد مكين، ص ٢٠- ٢٣.

ويقول "ليانغ شو مين" أحد كبار علماء الكونفوشيوسية المعاصرة: "يعايش المسلمون الصينيون الكونفشيوسيين في مناطق شمال غرب الصين جنباً إلى جنب، لا يشرب المسلمون المؤمنون بالله الأفيون، ولهم كثير من العادات الجميلة في المعيشة، وأما الصينيون فسمحوا لأنفسهم بالانحطاط الأخلاقي عفواً، وذلك مع زعمهم تعظيم نبيهم كونفوشيوس"(١).

وها هي الحقيقة؛ فقد وصل فهم الصينيين غير المسلمين للإسلام إلى هذه الدرجة، واعترفوا بفضله على الأديان صراحةً، ولم تكن هناك دعاية إسلامية قط، وما زال الإسلام في الصين دراً مكنوناً، لو كُشف للناس جميعُه لسطع نوره على قلوب الذين لم يتدينوا بدين سماوي، ولدخلوا في دين الله أفواجاً.

٧- وصية أبي الجمهورية الصينية بشأن المسلمين

وصّى الدكتور "صن يات صن" أتباعه بالتعاون مع أبناء وطنه المسلمين وإخوانهم في الخارج، في كتابه المشهور بالمبادئ القومية الثلاثة، المقدس عند أتباعه أعضاء الحزب الحاكم، وترجمتها كالآتي: "الغرض الأول من المبادئ القومية الثلاثة: فكُّ رقاب شعوب الصين من الاستبدادات والاستعمار، وتحقيق المساواة في الحقوق المدنية بينها. وما أصاب المسلمين في الصين فيما مضى من الظلم والاضطهاد كان أشدَّ مما أصاب مواطنيهم، والحمية عندهم أقوى منهم عند مواطنيهم أيضاً، فيجب علينا أن نشتغل بتنبيه المسلمين ليشتركوا في الحركة الوطنية، وقد اشتهر المسلمون في العالم بالشجاعة والتضحية، فإذا تنبه المسلمون في الصين كانوا حصناً حصيناً للحركة الوطنية، والأمة الصينية لن تنسى في صفحات تاريخ المساواة والحرية ما يقدم إليها إخوانها المسلمون من الإعانة

---

(١) (ها قوانغ لو)، رئيس التحرير، الحوار بين النصرانية والكونفشيوسية والبوذية والطاوية، دار النشر للوثائق في العلوم الاجتماعية، بكين، سنة ١٩٩٨م، ص ٢٣٢.
انظر: كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية- د. زهرة الدين طيب إدريس – ص ٢١٥.

والمساعدة، وأول عمل من أعمال الحركة الوطنية مقاومة الاستعمار، ولكن هذا العمل لن يتم على أيدي الأمة الصينية وحدها، فلا بُدَّ لإتمامه من اتحاد الأمم المستضعفة في آسيا.

ويذكر "صن يات صن" الأمم المستضعفة في عصره قائلاً: "الأمم المستضعفة هي الإيرانية والتركية والهندية والأفغانية والعربية. وهذه الأمم كلها إسلامية، تكون منها الممالك الإسلامية التي تحرز قوة هائلة في المطالبة بالحرية والاستقلال، وقد أصابتها ضغطة شديدة، فلابد لنا من القيام في صف واحد لمقاومة السياسة الاستعمارية وتخريبها. وبالجملة، لن تنجح الحركة الوطنية الصينية بدون اشتراك الشعب الإسلامي، ولم يتم عملنا في مقاومة السياسة الاستعمارية بدون الاتحاد مع الأمم الإسلامية"(١).

٨- لماذا فتح الصينيون الأبواب

يقول الدكتور فهمي هويدي: "لماذا فتح الصينيون الأبواب لنا على هذا النحو؟ شغلني السؤال فصرت أطرحه على الذين لقيتهم في بكين، من الأجانب والصينيين، فقالوا: إن المد الإسلامي المتعاظم الآن في أنحاء كثيرة كان لابد أن يقابَل من جانب أي دولة لها مصالحُ مع المسلمين بقدر متكافئ من الاهتمام، وهم في الصين ترجموا العديد من الكتب الإسلامية. وعلى سبيل المثال، فإن كتب أحمد أمين، فجر وضحى وظهر الإسلام، وكتب الدكتور حسن إبراهيم، الإسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وغيرها، قيْدُ الترجمة من العربية إلى الصينية.

ثم إن هناك دراساتٍ تجرى أيضاً حول الشيعة والتصوف والحركات الإسلامية المعاصرة، وفي خطٍّ موازٍ، فقد وُجِّهت الدعوة إلى أكبر عدد من المسؤولين عن الشؤون الإسلامية في مختلف الدول العربية لزيارة الصين على فترات متعاقبة.

وعندما يكون مسرح هذا المد الإسلامي هو مناطق البترول والطاقة، فإن

---

(١) نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين – محمد مكين – ص ٥١ – ٥٣.

الاهتمام بالظاهرة لابد أن يكون أعظمَ، والإلحاح على إقامة جسور قوية مع هذه المناطق لابد أن يكون أشدَّ. وفضلاً عن عامل البترول، فإنَّ أكثر مناطق البترول هذه ـ دول الخليج خاصة ـ هي بمثابة أسواق هامة للمنتجات الصينية.

وقد كان الغزو السوفيتي لأفغانستان في ٢٧ ديسمبر ٧٩ بمثابة نقطة تحول في السياسة الصينية تجاه الإسلام والمسلمين؛ ففي أعقابه مباشرة نشطت السياسة الصينية في اتجاه مجاملة المسلمين لأجل أن يظهر أمام الجميع أن السوفيت هم المعتدون على الإسلام والمسلمين، بينما يقف الصينيون في المربع المعاون والداعم للإسلام والمسلمين.

وهذه الرسالة كانت موجهةً إلى العالم الخارجي من ناحية، وإلى المسلمين الصينيين من ناحية أخرى، وهم الذين تمتد مناطق تجمعاتهم الأساسية (سينكيانغ) على الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتي[١].

وقد تجسَّد هذا الاهتمام بالمسلمين، في داخل الصين، في الدعوة لعقد المؤتمر الرابع للجمعية الإسلامية الصينية بعد ثلاثة أشهر فقط من الغزو السوفيتي لأفغانستان، وهو المؤتمر الذي انعقد في بكين العاصمة، في إبريل ١٩٨٠م، بعد غيبة ١٧ عاماً (المؤتمر الأول عقد لتأسيس الجمعية سنة ٥٣، والثاني والثالث عُقدا سنتي ١٩٥٦ و١٩٦٣) ثم عقد مؤتمر آخر لمسلمي مقاطعة سينكيانغ ـ معقل المسلمين ـ في أوائل يوليو سنة ١٩٨٠.

وفي ذلك المؤتمر الرابع للجمعية الإسلامية الصينية ألقى نائب رئيس الجمعية خطاباً استهله بقوله: "إن الجمعية حققت منذ تأسيسها عام ١٩٥٣م كثيراً من النتائج الحميدة، تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني، ورعاية وتأييد الحكومة الشعبية". ثم أعلن أنه "بعد سحق عصابة الأربعة، فقد فُتحت الآن بعض المساجد من جديد، وأما البعض الآخر فشُرع في إصلاحه وترميمه، وسوف يفتح أبوابه

(١) الإسلام في الصين – فهمي هويدي – ص ٢٤.

أيضاً في المستقبل القريب حسب الظروف الواقعية للمناطق. إلى جانب ذلك أضاف نائب الرئيس: أصبحت الحياة الدينية للمسلمين الصينيين تسير على نحو طبيعي بصورة تدريجية، مثل تلاوة القرآن الكريم، وأداء الصلاة والصوم، كما لقيت من جديد التقاليد الإسلامية المتعلقة بالموت وعادات الأطعمة الاحترامَ اللائق بها"!(١).

ثم قال نائب رئيس الجمعية أيضاً: إنه تقرر إعادة طبع المصحف الشريف، بعد توقف هذه العملية طوال ١٥ عاماً، واستئناف إصدار مجلة "المسلمون في الصين" التي احتجبت طوال نفس الفترة، وقال: إن هناك اتجاهاً لفتح معهد العلوم الإسلامية، الذي تعطل منذ عشرين عاماً، ولإصدار كتاب خاص عن تاريخ الإسلام في الصين.

ثم كانت هذه اللفتة المثيرة للانتباه في هذا الصدد، عندما عُيِّن أحدُ المسلمين نائباً لرئيس الوزراء ـ لأول مرة ـ وذلك ضمن التعديلات التي طرأت على خريطة المناصب السياسية في القيادة الصينية، خلال النصف الثاني من عام ١٩٨٠م.

وقد اختير لهذا المنصب واحدٌ من مؤسسي الجمعية الإسلامية الصينية، هو إبراهيم يانغ جنفرين، الذي كان يشغل منذ عام ١٩٧٨م منصب رئيس لجنة شؤون القوميات، وشغل قبل ذلك منصب المسؤول الأول عن مقاطعة "نينغشيا" الإسلامية، التي تتمتع بالحكم الذاتي.

وهذا الاهتمام الصيني بالإسلام والمسلمين ـ الذي تزايدت درجة حرارته بعد غزو السوفيت لأفغانستان ـ لا يزال يجد صداه فيما ينشره ويذيعه الإعلام الصيني موجهاً إلى العالم الخارجي.

قالوا أيضاً: إنه بالإضافة إلى عاملي المصلحة ومهاجمة السوفيت، فإن هناك ـ من جهة ثالثة ـ مناخاً من الانفراج النسبي يسود الصين منذ عام ١٩٧٨؛ أي منذ

---

(١) مجموعة وثائق المؤتمر الإسلامي الصيني الرابع – ص ١٦ – إصدار الجمعية الإسلامية الصينية في بكين.

سحق عصابة الأربعة، وتولِّي القيادة الجديدة زمام السلطة، وهذا المناخ استفادت منه أطراف كثيرة، منها أصحاب الأديان بوجه عام، وهم الذين أصابهم الكثير من العنف والاضطهاد طوال سنوات الثورة الثقافية العشر.

لهذه الأسباب جميعها ـ قيل لي ـ إن هناك اتجاهاً لمجاملة مسلمي الصين، وللأسباب ذاتها فُتحت تلك الأبواب، ووصلْتَ إلى هنا.. في بكين"(١).

٩- عدد المسلمين في الصين

الصين: دولة واسعة جداً، حيث تزيد مساحتها على (٩,٥ ميلون كم٢)، ويزيد عدد سكانها على (مليار ومائة وعشرين مليون نسمة)؛ فهي أول دول العالم سكاناً، ورابعها مساحة ـ بعد الاتحاد الروسي، وكندا، والولايات الأمريكية ـ ويسكن فيها أكثر من (مائة وعشرين مليون مسلم)، ينتشرون في كل أرجاء الصين، ولكن تختلف نسبتهم بين منطقة وأخرى.

وهناك مقاطعتان يشكل المسلمون فيهما أغلبية مطلقة، وكانت في يوم من الأيام تابعةً لدار الإسلام من وقت مبكر، وهما:

١- إقليم تركستان الشرقية (سينكيانج)؛ أي: المقاطعة الجديدة، و(تركستان) تعني: أرض الترك. وقد تم الاستيلاء التدريجي على الجزء الغربي منها من قبل القياصرة الروس عام (١٨٦٥م)، ثم تبِعَت الاتحاد السوفيتي بعد قيامه على الفكر الشيوعي سنة (١٩٢٢م)، ثم حصلت على استقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي سنة (١٩٩٠م)، وهي تنقسم الآن خمسَ جمهوريات، كلها أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، وهي (أوزبكستان، وطاجاكستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وتركمانستان).

وأما الجزء الشرقي، فقد تم الاستيلاء عليه من أيام حكم أسرة (مانشو الصينية) عام (١٨٧٦م)، ولا زالت تابعةً للحكم الصيني الشيوعي إلى الآن، وتتمتع رسمياً

---

(١) الإسلام في الصين – فهمي هويدي – ص ٢٥.

بالحكم الذاتي ـ وفي الواقع والحقيقة هي أشد الولايات خضوعاً للحكم المركزي الصيني ـ وهي تعد أكبر مقاطعات الصين، وتشغل ما يقارب من سدس مساحتها الكلية؛ إذ تقارب مساحتها (١٫٧ مليون كم)؛ أي أكبر من مساحة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا مجتمعةً، وكانت عاصمتها (كاشغر) التي فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (٩٦هـ)، ويقارب عدد المسلمين فيها الآن (١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ مسلم)، ويمثلون (٧٠٪) من عدد سكان المقاطعة. وكان المسلمون قبل احتلال الصين يمثلون (٩٥٪) من عدد السكان.

٢- إقليم (كانسو)، وهو يجاور تركستان، ودخلها الإسلام عن طريق الدعوة من تركستان الشرقية، وتبلغ مساحتها ما يقارب (نصف مليون كم٢)، بما فيها إقليم (نينغ هسيا) التي اقتطعت من (كانسو)، وجعلت ولاية مستقلة مساحتها (٦٦٫٥٠٠ كم٢)، وبها ما يقارب من (٢٫٥ مليون مسلم). ويبلغ عدد المسلمين في (كانسو) الآن (٢٠٫٧٠٠٫٠٠٠) نسمة، ويمثلون (٨٠٪) من سكان الإقليم. ويسميهم الصينيون بـ (هواي هواي)، وهم يحبون اسم (كياو من؛ أي: أهل الدين).

وهناك مقاطعات أخرى يتجاوز عدد المسلمين فيها (٣٠٪)، ومقاطعات يزيد عدد المسلمين فيها عن (١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مسلم)، ولكنهم يمثلون نسبة صغيرة لكثرة السكان فيها، والجدول الآتي يبين أهم الأقاليم والمقاطعات التي تحوي تكتلاً للمسلمين، من حيث عدد السكان، أو من حيث النسبة[١]:

---

(١) المسائل العقدية المتعلقة بالأقليات الإسلامية - د. عبدالمنعم عبدالغفور حيدر- ص ٦٥-٦٦.

الرقم	اسم المقاطعة	عدد المسلمين	النسبة	ملاحظات
١	تركستان الشرقية سينكيانج	١٤,٠٠٠,٠٠٠	٪٧٠	كانوا يمثلون ٪٩٥
٢	كانسو ومعها مقاطعات نينغ	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٨٠	ومعها مقاطعة بينغ هسيا
٣	ستشوان	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٪٨	وتجاور (كانسو)
٤	شنسي	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٪٣٦	
٥	يونان	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٪٣٠	
٦	شانسي	٥,٠٠٠,٠٠٠	٪١٥	
٧	هيونان	٧,٠٠٠,٠٠٠	٪١١	
٨	هونان	٥,٥٠٠,٠٠٠	٪٧	
٩	هيوبه	٧,٠٠٠,٠٠٠	٪١٣	
١٠	شانتونغ	٦,٠٠٠,٠٠٠	٪٦	
١١	هوبه	٤,٠٠٠,٠٠٠	٪٥	
١٢	شنغهاي	٢,٥٠٠,٠٠٠	٪١٤	
١٣	فوكيين	٣,٠٠٠,٠٠٠	٪١٠	
١٤	بكين	١,٥٠٠,٠٠٠	٪١٠	

الفصل الثالث

موقف المسلمين الصينيين من الديانة الكونفوشيوسية

١- تأثير الإسلام على أهل الصين

دخل الإسلام إلى الصين منذ أقدم العهود الإسلامية بواسطة التجارة والدعوة السلمية - كما سبق أن ذكرت - فكان المسلمون يعيشون في هذه البقعة من الأرض منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، وكانت لهم أيامهم المتألقة. ولِـمَا كان لهم من حضارة، فلقد أثَّروا تأثيراً عظيماً على عجلة التقدم والرقي في الصين، كما بذلوا جهوداً مضنية في خدمة المجتمع الصيني على وجه العموم. ولن نستطيع أن نفصل القول حول هذا التأثير على مر العصور، لِـمَا فيه من إطالة ليس هذا محلُّها؛ لذا نكتفي بمجرد عرض أهم ملامحه في النقاط الآتية:

١ - صاغ الإسلام قوميةً جديدة إسلامية متكونة من عدة عناصر عرقية؛ مثل العرب، والصينيين، والفرس، والمغول، وشعوب آسيا الوسطى، وغيرها في أرض الصين تُعرف هذه القومية اليوم بقومية "هوي هوي"، وهي إحدى القوميات المعترَف بها في الدستور الصيني. وهذه القومية تتكلم الآن باللغة الصينية، ويشترك جميع أفرادها في الانتماء إلى الإسلام، وينتشرون في جميع أنحاء الصين، وكان الدين الإسلامي هو الدافعَ الرئيس الذي صهر هؤلاء المسلمين، المختلفين في اللغة والجنسية والبلاد والثقافة والعادات، في بوتقة إسلامية واحدة. وقد شهد التاريخ الصيني شعوباً كثيرة دخلت إلى الصين، وحكمت بعضُها بلاد الصين، ولكنها سرعان ما انصهرت في بيئة الحضارة الصينية، ولم يبق لها وجود مشهود وصوت مسموع، وأقرب مثال على هذا "المانشوريون" الذين حكموا الصين لمدة قرنين وأكثر، لا نسمع صوتهم اليوم، قد انصهروا تماماً، وكذلك اليهود والنصارى النسطوريون، أما هذه القومية الإسلامية الجديدة، فبقيت بفضل الله، ثم بالتزامها بالإسلام وثقافته وستبقى فيها في المستقبل بإذن الله عز وجل، وإن كانوا في حاجة

ماسة إلى مزيد من الثقافة الإسلامية الصحيحة.

٢- ظهور الثقافة الإسلامية الصينية: أدخل المسلمون الثقافة الإسلامية إلى وسط الثقافة الصينية، التي كانت تتنافس في ميدانها الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية فقط، ولقد حاول العلماء المسلمون في أواخر حكم "مينغ" والعهد المانشوري أن يشرحوا الإسلام في قالب الثقافة الصينية، باستخدام المصطلحات الدينية الفلسفية الكونفوشيوسية والطاوية، ليشرحوا بها الأفكار الإسلامية. ونتيجة هذه المحاولات من جانب العلماء المسلمين في الصين ظهرت ظاهرة ثقافية علمية جديدة على ساحة الثقافة الصينية، تسمى "الثقافة الإسلامية الصينية"، وهذه الثقافة تسمى الإسلامية الصينية؛ لأن روحها وأصلها إسلامي، كما أن مصطلحاتها وتعبيراتها مستمدةٌ من الثقافة الصينية.

٣- أثَّر المسلمون على الحضارة الصينية تأثيراً عظيماً في مجالات شتى؛ وذلك في العهد المنغولي خاصة في مجال السياسة والحرب، فقد فتح القائد المسلم "السيد الأجل شمس الدين" جنوب غرب الصين. وهذه المنطقة تُسمى اليوم بمقاطعة "يونان"، وعينته الحكومة المنغولية والياً على هذه المنطقة، ففتح المدارس الإسلامية والكونفوشيوسية، وأقام مشاريع الري لتطوير الزراعة، وكانت سياسته سياسةً عادلةً، تهدف إلى خدمة الشعب. فصار شخصية سياسية معروفة في تاريخ الصين، وفي مجال البناء والعمارة كان اختيار شمس الدين هو المهندس العام في تخطيط بناء العاصمة، والفضل في جمال بناء قصور بكين وحوائطها ورونقتها كله يرجع إلى هذا المهندس الكبير. وفي مجال الطب أنشأ الأطباء المسلمون طباً جديداً تحت اسم "طب هوي هوي"، وهو طب ممزوج بين الطب الإسلامي والطب الصيني التقليدي، وكان لهذا الطب مكانةٌ جليلة ويد طُولى في علاج الأمراض، حتى أسست الحكومة هيئة خاصة تشرف على أمور هذا الطب الإسلامي في العاصمة، وما زال هذا الطب باقياً إلى اليوم. وفي مجال علم الفلك اخترع الفلكي

المسلم جمال الدين الذي كان رئيساً يشرف على دار الأرصاد الفلكية الإسلامية سبع آلات للأرصاد والفلك. وفي مجال صناعة الأسلحة كان هناك صُنَّاع ماهرون، مثل علاء الدين، وإسماعيل.

٤- كما بلغ تأثير الإسلام على أهل الصين قمتَه في عهد حكم أسرة "مينغ" الإمبراطورية، حتى أعلن الإمبراطور الأول المؤسس لحكومة أسرة "مينغ" جويران جاشنغ" (حكم ما بين سنة ١٣٦٨م وسنة ١٣٩٨م) إحلال التقويم الإسلامي محل التقويم القمري الصيني القديم في العام السابع عشر من حكمه، الموافق لسنة ٧٨٦هـ. ولم يتغير هذا القرار السياسي إلا بعد سقوط هذه الحكومة بعد قرنين ونصف، كذلك أمر هذا الإمبراطور ببناء مسجد في مدينة "نانكين" عاصمة الدولة في ذلك العصر، وأصدر قرارات سياسيةً في صالح المسلمين؛ مثل تحريم شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وحث على التزاوج بين المسلمين والصينيين، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يقولون: إنه كان مسلماً لم يُظهر إسلامه تحت الضغوط السياسية(١). وقد كتب هذا الإمبراطور أبياتاً من الشعر في مدح النبي ﷺ - كما ذكرت سابقاً(٢) - وكثيراً ما نجد شِعره منقوشاً أو منحوتاً أو مكتوباً على حوائط المساجد في الصين، وهو يذكرنا بتأثير الإسلام على الصين على خير وجه.

والإمبراطور الحادي عشر من هذه الأسرة "مينغ ووتشونغ" (حكم من ١٥٠٦م إلى ١٥٢١م) كان مُولَعاً بدراسة الأديان، فدرس الإسلام، وامتدح الإسلام أمام وزرائه كما سبق معنا.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن حكومة "مينغ" كانت تهتم بإقامة العلاقات الودية بينها وبين البلدان الإسلامية، فأرسل الإمبراطور الثاني عشر من هذه الأسرة "يو لي"

(١) "ما مين طاو" رسالة تحقيق عقيدة أسرة "مينغ" الإمبراطورية، دار الطباعة، صندوق الثقافة والتربية الصينية بتايوان، ١٩٨٤م. عن: جهود العلماء المسلمين في الصين في مجال علم مقارنة الأديان - د. زهرة الدين طيب - ص٢١.

(٢) انظر: ص ٤٨١.

(حكم من ١٤٠٣م إلى ١٤٢٤م) وفداً تحت قيادة الرحال البحري المسلم "جينغ هاي" (١٣٧١م - ١٤٣٥م) إلى البلدان الإسلامية في سنة ١٤٠٥م.

وقد سافر هذا الرحالة سبع مرات خلال ثمانية وعشرين عاماً، ويذكر التاريخ أن وفده في إحدى رحلاته كان يتكون من سبعة وعشرين ألفاً من رحالة الجنود والموظفين والعمال والأطباء والتجار والمترجمين. ولقد اشتهرت قصص هذا الرحال البحري المسلم، فصار شخصيةً رمزية للشجاعة والمخاطرة في أعين الصينيين، يعرفه العام والخاص.

٢- موقف المسلمين من الكونفوشيوسية

في الصين كانوا يرون أن الديانة الكونفوشيوسية ديانة أصلية لدولة الصين تدعو إلى المعرفة بالإله "تيان"، والخدمة له، والاتحاد به، وتزكية النفس، وإعادة الشريعة القديمة، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة، والتخلّي عن الرذيلة، وليست هي فلسفةَ أخلاقٍ فقط كما هو الرأي الشائع في العصر الحديث. وقد سبق تفصيل هذه المسألة.

وعلى الرغم من دخول الإسلام إلى الصين منذ ألف سنة حتى نشأة الجهود العلمية الأولى من جانب العلماء المسلمين، بقي الإسلام في هذه الفترة الطويلة ديناً أجنبياً لم تُعرف تعاليمُه، ولم تُترجَم كتبه إلى اللغة الصينية، لم يكن في وسعه أن يناقش هذه الأديان الثلاثة علمياً وثقافياً، وفي الوقت نفسه دخل المسلمون في مرحلة من "التصيين" تدريجياً، مع زيادة اشتراكهم في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في الصين، فالمسلمون يواجهون خطورة فقدان دينهم وشخصيتهم الإسلامية في هذه البيئة. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فَهِمَ بعض العلماء المفكرين أن الدعوة الإسلامية لا يمكن انتشارها في أرض الصين من دون شرح رسالة الإسلام وتعاليمه أمام المثقفين الصينيين باللغة الصينية، وكذلك يجب أن تشرح الثقافة الإسلامية في قالب جديد، باستعارة المفاهيم والمصطلحات الدينية والفلسفية الصينية، حتى تسهل عليهم فهم حقيقة رسالة الإسلام والثقافة الإسلامية.

فكان من هذا المنطلق أن نشأت هذه الجهود؛ فحاول العلماء أن يشرحوا الإسلام شرحاً جديداً في قالب الثقافة الصينية. وسوف نرى تأثير البيئة الدينية على هذه الجهود من موقفهم من هذه الأديان.

كان موقفهم من الكونفوشيوسية موقفاً مسالماً؛ لأنه دين الشعب والحكومة، بالإضافة إلى أن روحه أقرب إلى الدين الإسلامي من الطاوية والبوذية، وكان موقفهم من الطاوية والبوذية موقفاً مخالفاً يكثُر فيه الهجوم والجدل؛ لأن الطاوية دين مبتدَع خارج على الكونفوشيوسية، والبوذية دين دخيل من خارج الدولة، وهي كثيراً ما تصادم أفكار الشعب الصيني الأصلية.

هذه من ناحية البيئة الدينية. وأما من ناحية البيئة الفكرية، فقد كانت هناك نهضة فكرية جديدة في الكونفوشيوسية في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين تحت مسمى "مدرسة معرفة النفس والذات". ولقد نجحت هذه المدرسة إلى حد كبير، حتى أصبحت هي المدرسةَ السائدةَ في الكونفوشيوسية، وبلغت هذه النهضة أوجها بعد ذلك، فأخذ العلماء المسلمون أفكار هذه المدرسة بالدراسة والنقد، ولهذا السبب نجد أن هؤلاء العلماء يُكثرون من مناقشة أقوال "جوشي" (١١٣٠م - ١٢٠٠م) وشروحاته على الأصول الكونفوشيوسية عند ذكر النصوص وتحليلها، وكان "جوشي" أكبر علماء "مدرسة معرفة النفس والذات". والجدير بالذكر أن أحد العلماء المسلمين، وهو صالح "اليوجشي" قد ألَّف كتاباً بعنوان "معرفة النفس والذات الإسلامية" ليواجه هذه المدرسة مواجهة علمية.

وأما البيئة السياسية، فلقد كان عصر نشأة هذه الجهود عصرَ الفتنة والضعف بالنسبة إلى المسلمين، فعندما استولى الجيش المانشوري على حكم الصين بالحديد والنار أعلنت الحكومة المانشورية القرارات السياسية العنصرية والتفريقية ضد الإسلام والمسلمين، فلم يجد المسلمون مفراً من الثورات المتتالية العنيفة ضد الحكومة، فرأى أولُو الألباب من العلماء المفكرين أن هذا الواقع المؤلم ليس في

صالح المسلمين، وهي أقلية ضعيفة تعيش في تلك الدولة، فلابد من محاولة التصالح وتغيير الواقع، ولابد من تقديم حقائق الدين الإسلامي للحكام حتى يعرفوا رسالة الدين الإسلامي، فإذا عرفوا ذلك، فيُرجى منهم تغييرُ الموقف العدائي تجاه المسلمين. وهذا هو الذي فعله السيد يوسف "ماجو" صاحب كتاب "الهداية الإسلامية" الذي أُلِّف أصلاً لإهدائه إلى الإمبراطور الصيني المانشوري، وهذه البيئة السياسية أيضاً من الأسباب التي جعلت العلماء المسلمين يتَّخذون موقفاً مسالماً تجاه الكونفوشيوسية؛ لأنها ديانة رسمية لا تسمح الأوضاع السياسية لأي أحد أن ينقُدَها، وإلا فسيتعرض المؤلف للقتل أو التعذيب من قبل الحكومة(١).

هل هناك كتب أو رسائل لعلماء الصين من المسلمين في الرد على الكونفوشيوسية؟

قد يتساءل البعض، فيقول: هل هناك كتب أو رسائل لعلماء المسلمين في الصين في الرد على الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية؟

فالجواب: لا، والسبب في ذلك: أن هذه الأديان ليست دياناتٍ تبشيريةً، أو بالتعبير الأدق أنها لا تحرص على دعوة الناس إليها مثل ما تحرص النصرانية كل الحرص، وتستخدم في ذلك كل الوسائل المتاحة لها. فما وجدنا أي عالم من علماء هذه الأديان الثلاثة في الصين قد كتب كتاباً أو رسالة بقصد الرد على الإسلام، أو دعوة المسلمين إلى انتحال هذه الأديان، مثل ما فعل المبشِّرون النصارى منذ دخول الإسلام إلى أرض الصين، فلم تكن هناك حاجة عملية وثقافية إلى تأليف كتب الرد عليها. ويتضح من هذا أن جهود العلماء المسلمين في الرد على النصرانية كانت وليدةَ الحاجة العلمية، والبيئة الضرورية، ومقاومة للتحدي الديني من جانب المبشرين النصارى، ولم تكن من باب الاعتداء أو الطعن، أو حب المجادلة السيئة، وهم بريؤون من ذلك(٢).

---

(١) جهود العلماء المسلمين في الصين في مجال علم مقارنة الأديان – د. زهرة الدين طيب – ص١٩ – ٢٧.

(٢) المرجع السابق – ص ١٥٣.

٣- تأثير المسلمين في الصين على قومياتهم

اصطبغ أبناء الأقليات القومية المسلمة العشر، الذين يعيشون في شمال غربي الصين، بالصبغة الإسلامية من حيث السياسة والاقتصاد والثقافة والأحوال النفسية، وكذلك من حيث عاداتهم وتقاليدهم؛ فقد أصبح بعض العادات والتقاليد الإسلامية ـ مع مر الأيام ـ عادات وتقاليد لقومياتهم، فأصبح محرماً عليهم مثلاً الميتة والدم ولحم الخنزير ولحوم الحيوانات الشرسة، وأصبحوا يفضِّلون إقامة حفلات الزفاف في أيام الجمعة، ويوارون موتاهم الترابَ في لحود بغير توابيت بعد تغسيلهم وتكفينهم والصلاة عليهم، ويتَّخذون عيدَ الفطر وعيد الأضحى ومولد النبي ﷺ أعياداً رئيسة لقومياتهم(١).

٤- أبرز من ألَّفوا عن الإسلام باللغة الصينية

قام بعض المثقفين من المسلمين الصينيين بتأليف بعض الكتب عن الإسلام باللغة الصينية، ومن ضمن أولئك المؤلفين: "وانغ داي يو" (١٥٨٤ -١٦٥٧)، الذي ألف عدداً من الكتب؛ منها كتاب "الأجوبة الصحيحة عن الحق"، وكتاب "توضيح الدين الحنيف".

كما ألف الكاتب "تشانغ تسونغ" (١٥٨٤-١٦٧٠) عدة كتب؛ منها "الفصول الأربعة"، و"علم العقائد"، و"الأحكام العامة للرجوع إلى الحق".

وكذلك المؤلف "ماتشو" (١٦٤٠ - ١٧١١) صاحب كتاب "دليل الإسلام" وهو يتحدث عن الموت والحياة، وما بعد الموت من أهوال، كما يتحدث عن كيفية تهذيب النفس البشرية.

وكذلك الكاتب "ما فوتشو" (١٧٩٤- ١٨٧٤) ألف عدداً من الكتب؛ منها "هدف الحياة"، و"أصول التقويم الهجري"، و"الأقوال المأثورة لتوعية الناس"، و"خلاصة الفصول الأربعة".

أما في الحقب اللاحقة، فقد برز عدد من المؤلفين والمترجمين؛ منهم الشيخ "محمد مكين"؛ الذي عاش في العصر الحديث، وما زالت ترجمته لمعاني القرآن

---

(١) القوميات المسلمة في الصين- تشونينغ - ص ٢.

الكريم هي الأكثر انتشاراً في الوقت الحاضر، وكذلك "الشيخ عبدالرحمن ناشونغ"، وقد جاوز ٩٥ عاماً، وكذلك الشيخ "محمد صالح"، الذي قام بترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اليوغورية، وهو يجيد الشعر باللغة العربية الفصحى، وقد ألقى قصائدَ كثيرةً في مناسبات متعددة، وكذلك الشيخ "نعمان" الذي قام بترجمة كتاب "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان" إلى اللغة الصينية، في مواصلة نشاطه في مجال الترجمة والتأليف، والشيخ "محمود يوسف"، الذي ألف كتاب "المساجد في الصين"، و"الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين" باللغة العربية، كما قام بترجمة كتاب "الإسلام في الصين"، الذي كتبه السيد "فنغ جين يوان" إلى اللغة العربية[١]. (وقد قابلته في سفارة خادم الحرمين الشريفين في بكين إبان زيارتي لها).

ولقد تنبه بعض علماء المسلمين في الصين إلى أهمية كتاب المعرفة الكبرى بين الكتب المقدسة في الكونفوشيوسية، وخطورة نظرية المعرفة الكبرى منذ وقت مبكر، وحاولوا أن يناقشوها حسب الموقف الإسلامي.

ولذلك، فلا غرابة أن أول كتاب أُلِّف عن الإسلام باللغة الصينية من جانب العلماء المسلمين في هذه الأرض، هو: كتاب المعرفة الكبرى الإسلامية، وكان مؤلف هذا الكتاب الإسلامي شيخ الإسلام في الصين "داود وانغ داي يو"[٢]. وكان من جملة العلماء المسلمين الذين لهم جهود طيبة مشكورة في نشر الثقافة الإسلامية في الصين من خلال قالب الثقافة الصينية[٣].

---

(١) حضارة الصين د. محمد عبدالرحمن البشر ص ٨٣-٨٤

(٢) داود (وانغ داي يو): ولد في سنة ١٥٨٤م تقريباً، وتوفي في سنة ١٦٧٠م، أول من قام بتأليف الكتب عن الإسلام باللغة الصينية من جانب علماء الإسلام في أرض الصين، واشتهر بأنه "العارف المسلم المتبحر بالأديان الأربعة"، ومن أهم مؤلفاته كتاب المعرفة الكبرى الإسلامية، وكتاب شرح الحق لدين الحق، وكتاب إجابة الحق لمن أراد الحق (ملخصاً من الموسوعة الإسلامية الصينية) لجماعة من الباحثين تحت رئاسة (وان باو بين)، دار الطباعة للمعجم بمقاطعة سي تشوان، سنة ١٩٩٤م، ص ٥٨٠.

(٣) كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفوشيوسية - زهرة الدين طيب إدريس ص ٣٣.

٥- تأثر المسلمين بالمظاهر الكونفوشيوسية

لقد كان المسلمون يتصرفون ـ ككل الأقليات ـ بوعي وحذر شديدين؛ فقد كانوا حريصين على ألا يظهروا بأي مظهر متميزٌ عن الصينيين، حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم، ولكي لا يتركوا انطباعاً لدى الصينيين بأنهم "أجانب". وأثناء جولة في عدد من المدن والقرى الصينية لحظت أن بعض المساجد بغير مآذن، ووجدت مساجدَ مصممةً على الطراز الصيني، بحيث لا يمكن أن يميز الناظر إليها من الخارج بينها وبين أي معبد أو منشأة عامة في الصين.

من ذلك على سبيل المثال: مسجد تشينغ تشن داسي (بيت الله العلي) في شيآن، الذي يرجَّح أن يكون قد بُنِيَ في عصر أسرة مينغ (١٣٦٨ -١٦٤٤م) منتصف القرن الثامن الميلادي.

وقيل: إن سر عدم بناء مآذن فوق مساجد المسلمين يرجع إلى أنهم لجؤوا إلى هذا الأسلوب مراعاةً لشعور الصينيين، وتجنُّباً لاستفزازهم، وهم الكارهون بالطبيعة للأجانب.

وفي ثيابهم ومظهرهم كان المسلمون لا يتميزون في شيء عن الصينيين، بل كانوا يذوبون بينهم، حتى لا يكاد يعرفهم أحد لأول وهلة، فأغطية رؤوسهم، وثيابهم الفضفاضة الواسعة، وضفائر الشعر، هذه كلها كانت جزءاً لا يتجزأ من مظاهر المسلمين. في المسجد فقط كان الشيوخ يضعون العمامة، والمصلون العاديون يرتدون "الطاقية" البيضاء في الأغلب، والسوداء استثناءً.

وكان في كل مسجد لوح مكتوب عليه بالصينية عبارة تقول "دانغ جين هوانغ دي وان شوي وأن وأن شوي"، وترجمتها: عاش الإمبراطور الحالي عشرة آلاف سنة... عشرة آلاف سنة! أمام هذه اللوحة كان المسلمون ينحنون احتراماً، جرياً على العادة الصينية المتَّبعة، وكانت لهم حِيَل عديدة في التخلص من ذلك، إرضاءً لضمائرهم وتفادياً من الاتهام بالوثنية.

حتى في بلاد التتار الصينية، التي كان مُنِح فيها للمسلمين امتياز خاص يخوِّلهم أن يعيشوا غير مندمجين في غيرهم، وأن يكونوا طائفةً منفصلة ـ كما يذكر توماس أرنولد ـ كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزي المخصَّص لمناصبهم، ويرسلون شواربهم، وجدائلَ شعرهم، ويقومون في أيام العطلة بما كان مفروضاً على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة لصورة الإمبراطور، وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجدات(١).

وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين في الولايات الأخرى، يؤدون في أيام الأعياد الشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كونفوشيوس(٢)، والواقع أن المسلمين احتاطوا كل الحيطة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة، وقد نجحوا ـ من أجل هذا ـ في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية، كاليهودية والمسيحية.

ويضيف أرنولد(٣): إن المسلمين كانوا يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متَّفقة مع تعاليم كونفوشيوس، مع فارق واحد، هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم في الزواج، والجنائز، وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام، وتحريم الخنزير والخمر والدخان ولعب الميسر، وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تمجِّد كتب كونفوشيوس وغيرها من الكتب الصينية، وتشير ما استطاعت إلى ما هنالك من الاتِّساق بين ما في هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الإسلام(٤).

---

(١) مجرد انحناءات يفعلونها ظاهرياً، وليس في قلوبهم شيء من التعظيم والتبجيل.

(٢) مداراة وتقية، ولكن قلوبهم مطمئنة بالإيمان بالله تعالى.

(٣) يجب أن أنبه هنا أنه لابد أن يأخذ القارئ المسلم كلام المستشرق أرنولد بالحيطة والحذر، فلا يسلِّم به على إطلاقه، حيث جرت عادة المستشرقين حينما يتكلمون عن الإسلام إما أن يهاجموا مباشرة، أو يشككوا، أو يضعوا السم في العسل. وقد يكون كلام أرنولد من النوع الثالث.

(٤) نقلاً عن الإسلام في الصين، فهمي هويدي ص ٩٧ـ ٩٩.

ومن مظاهر تأثر المسلمين في الصين بالكونفوشيوسية مسألة الحِداد: على عادة الكونفوشيوسيين أن يلبَس البياض لموت الأقرباء حداداً عليهم، ويقلدهم بعض المسلمين الذين يسكنون مع الكونفوشيوسيين. وقد لاحظت هذا عندما حضرنا صلاة الميت بالجامع الكبير في (متنيان)، فيحرم بعض العلماء هذا التقليد؛ لأنه تشبُّه بالكافرين، وإسراف في الأموال التي يجب أن يُتَصَدَّق بها على الميت، ويقول الآخرون: إنه حلال؛ لأن العادة القومية لا مانع من مراعتها إذا لم تتعلق بالعقيدة(١).

بعض المفاهيم لدى المسلمين في الصين

لانعدام الصلات بالعالم الإسلامي، أخذت مفاهيم الإسلام في الصين تتشكل بصورة خاصة، وتختلط بالمعتقدات والتقاليد الصينية الوثنية القديمة، وأصبح الإسلام بالنسبة إلى المسلم العادي مجموعةً من الأسرار، لا يعرفها إلا رجل الدين، مما فتح الباب لنشأة ظاهرة جديدة أقرب إلى "الكهنوت"، وأفكار ومعتقدات غريبة عن الإسلام، وأدى إلى انتشارها نقص الثقافة الإسلامية، وعدم الإلمام الكافي باللغة العربية، ولم يكن المصحف متوفراً بشكل كافٍ بين أيدي المسلمين.

وفي القرن العشرين، في عام ١٩٣١، سافرتْ إلى مصر أول بعثة من مسلمي الصين للدراسة في الأزهر، وكانت تضم خمسةً من الشباب، أوفدتهم "جمعية التقدم الإسلامية" على نفقتها، وكان بينهم عبدالرحمن ناجونغ، وكتب عبدالرحمن ناجونغ مقالاً باللغة العربية عن أحوال المسلمين الصينيين، قال فيه: "إن العلماء في الصين كانوا يبالغون في ثواب النوافل، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات، فكان أكثرهم لا يصلُّون الفرائض، ولا يصومون رمضان، ولا يُخرجون الزكاة، ولا يؤدون فريضة الحج، ويهتمون بإقامة المآتم، ليقرأ فيها العلماء المسلمون بعض قصار السور من جزء عم، أو جزءاً من أجزاء القرآن، ويصلُّون على النبي

---

(١) نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين – محمد مكين – ص ٧٦

بالترجيع والتغريد، ثم يجلسون إلى مائدة فاخرة، ويتلقون الصدقات، وإذا جاء مولد النبي ﷺ ومولد السيدة فاطمة، أقاموا حفلة بصدقات المسلمين، وعملوا الولائم في أروقة المساجد، يحضرها المسلمون والمسلمات ليسمعوا القرآن والوعظ، وعندما يحين وقت الصلاة يصلّي بعضهم، وبعضهم يأكلون ويشربون، فلما أحسَّ بعض علماء المسلمين بخطورة هذه العادات، نصحوا المسلمين بأداء الفرائض بدلاً من النوافل، وأخذوا يحرِّمون الطعام والصدقة لمن يتلو القرآن، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون، ووقعت الفتنة بينهم غير مرة، وإن كانت الخصومة الآن أقلَّ مما كانت بحمد الله" .

هذا الوصف لحال المسلمين في الصين في ذلك الوقت يكشف عن غياب الفهم الصحيح للإسلام، والاكتفاء بالظاهر، حتى إن الزائر يلتقي بمسلمين لا يعرفون من الإسلام غير "السلام عليكم" . ونتيجة انتشار المعابد البوذية تأثر المسلمون بها، فانتشرت ظاهرة الأولياء وأضرحتهم(١) .

٦- بعض الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين التي درست الكونفوشيوسية أو تأثرت بها

١- شمس الدين، المؤلف المسلم الكبير

يعد شمس الدين من أشهر الساسة والعلماء في أواخر أسرة "يوان" (١٢٧٩ – ١٣٦٨م) . ألف كثيراً من الكتب، يرجع أصله إلى بلاد العرب، حيث هاجر جده إلى الصين في القرن الثالث عشر، ثم أصبح موظفاً لأسرة إمبراطورية صينية في ذلك العهد، أما أبوه فقد غرق في دراسة الكتب الكونفوشية طول حياته، مستخفّاً بمصلحته الشخصية، ومهتماً بولائه وشهامته، وغير مكترث بالمنصب الحكومي.

وقد ولع شمس الدين بالدراسة منذ نعومة أظفاره، وكان قويَّ الذاكرة، حتى إنه استطاع استذكار حوالي ١٠٠٠ كلمة من الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية

---

(١) رحلة الصين – رجب البنا – ص ٢٠٩–٢١٠.

وهو بعد في التاسعة من عمره، وعندما قارب العشرين تتلمذ على مشاهير العلماء، وأصبح واسع الاطلاع، مما استرعى اهتمام أهل موطنه.

لقد تأثر شمس الدين بأسلوب أبيه، المتمثل في عدم الاكتراث بالوظيفة الحكومية، والميل إلى الحياة الهادئة، التي يستطيع فيها الانهماك في قراءة الكتب، وقد نزع إلى البحث في الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية منذ بداية حياته.

٢- الشيخ هو دنغ تشو (١٥٢٢ -١٥٩٧م)

من مواليد "شنشي"، ولقبه "مينغ بو". كان أول من دعا إلى التعليم المسجدي الإسلامي في الصين، وقد لقَّبه المتأخرون "أستاذ الأساتذة" تقديراً لجهوده وإسهاماته في نشر الإسلام في الصين.

وقد تعلم الكونفوشية منذ طفولته، وبعد أن أصبح شاباً عدل عنها إلى دراسة الشريعة الإسلامية على يد الشيخ الموقر "قاو" أحد أبناء "ويبين" أيضاً، وقطع شوطاً كبيراً في هذا المضمار، فأصبح متعمقاً إلى حد ما في فهم معاني القرآن الكريم وعلم التوحيد، وأخذ على عاتقه نشر الدين الحنيف، وكان من عادته أن يطعم جميع الوافدين لتحصيل العلم، ويعلمهم بكل حماسة، وعلى هذا النحو اضطلع الشيخ "هو" بمهمة نشر الدين في الصين.

٣- وانغ داي يوي: أول مؤلف يعرِّف بالإسلام باللغة الصينية

لقبه "وانغ يا"، وكنيته "تشن هوي لا ورن" (شيخ أهل هوي الحقيقية). وهو من مواليد نانجينغ من قومية "هوي"، ولا يُعرف بالضبط تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته، ولكن بعض المؤرخين استدل على أنه وُلد في عهد الإمبراطور "وان لي" (١٥٧٣ -١٦٢٠م) من أسرة "مينغ"، وتوفي في السنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة (١٦٥٧ - ١٦٥٨م) من حكم الإمبراطور "شون تشي" في عهد أسرة "تشينغ".

كان "وانغ داي يوي" من المثقفين، وعالماً مرموقاً في تاريخ الصين، وأقدم مؤلِّف ومترجم في التعريف بالإسلام باللغة الصينية.

وقد تلقى علوم الدين بصورة رئيسة قبل بلوغه سن العشرين. ومن ثَمَّ أخذ يتعلم اللغة الصينية، ولكنه لم يستطيع أن يتعلم أكثر من قراءة الكتب الابتدائية، وكتابة الرسائل العادية قبل بلوغه سن الثلاثين، وبعد ذلك شهد تقدماً ملحوظاً في الدراسة، مما مكَّنه من دراسة "الكتب الفلسفية الكونفوشية، والكتب التاريخية، وكتب المذاهب المتنوعة" دراسةً منظمةً.

ونتيجة جَدِّه واجتهاده، إلى جانب ذكائه الفطري، أصبح عالماً بالأديان الأربعة (الإسلام والمسيحية والبوذية والطاوية). وكان دائماً ما يتجادل مع علماء مختلف الأديان والطوائف فيما يختص بمسألة نشوء الكون، مستنداً إلى أمهات الكتب الإسلامية، ومستفيداً من وجهة النظر الإسلامية، وكان يدوِّن محتويات النقاش بينه وبين غيره في دفاتره، وبعد سنوات من ذلك ازدادت تدويناته بالتدريج، فأخرجها "وانغ داي يوي" في كتاب تحت عنوان "توضيح الدين الحنيف".

ونظراً إلى كونه عالماً متعمقاً في الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية، فقد استطاع تسليط الأضواء على الإسلام باللغة الصينية، وكان ذلك حدثاً منقطع النظير في حينه.

يضم كتاب "توضيح الدين الحنيف" ٤٠ فصلاً، ويقع في مجلدين. وقد نقل "وانغ داي يوي" كثيراً من المعلومات من مختلف المصادر الموثقة لنقد التعاليم الكونفوشية والبوذية والطاوية التي تخالف الإسلام، متوصلاً بذلك إلى توضيح وجهة النظر الإسلامية.

٤- العالم والمترجم المسلم وو تسون تشي

عاش وو تسون تشي (حوالي ١٥٩٨ - ١٦٩٨م) في مدينة نانجينغ، ولقبه "تسي شيان"، وهو عالم ومترجم صيني مسلم، انحدر "وو تسون تشي" من عائلة إسلامية، وقد تعلم الكونفوشية منذ طفولته، وقيل: إنه حصل على درجة "شيوتساي" العلمية، ولم يسع وراء الجاه والمال، بل عزم على ممارسة الدراسات الإسلامية.

وقد ظل يشتغل بالأعمال العلمية والثقافية الإسلامية طيلة حياته. ومن المرجَّح أنه خلَّف وراءه مؤلفاتٍ وتراجمَ أخرى، ولكن سوء ظروف الطباعة آنذاك ربما حال دون صدورها، ومع ذلك ظل هذا العالم المحترم يحتل مكانةً سامية في ميدان العلوم الإسلامية الصينية.

٥- ما تشو (١٦٤٠ - ١٧١١م)

اسمه الإسلامي يوسف، ولقبه "ون بينغ"، وكنيته "تشونغ شيو"، وهو من مواليد "جينتشي" (باوشان اليوم) بمقاطعة يونان. قيل: إنه حفيد للسيد شمس الدين ـ أمير شيانيانغ في عهد أسرة يوان (١٢٧١ - ١٣٦٨م) من الجيل الخامس عشر. مات أبوه وهو في السابعة من عمره، وبرغم ما عاناه ما تشو من فقر وبؤس، فقد أتيحت له فرصة تعلم الكتب الكونفوشية. وعندما كان في السادسة عشرة من عمره اجتاز الامتحان للحصول على رتبة "شيوتساي" (رتبة علمية في عهد الحكم الإقطاعي الصيني)، وبعد سنتين من ذلك حصل على وظيفة بسيطة في بلاط الإمبراطور "يونغ لي". وفي سنة ١٦٦٥م ترك وظيفته هذه ليشتغل بالتعليم. وبفضل تعرُّف "ما تشو" على عدد غير قليل من علماء الإسلام، مال إلى دراسة العلوم والحضارة الإسلامية أكثر فأكثر. وعلى الرغم من أن "ما تشو" لم يخلِّف وراءه مؤلفاتٍ في حقل العلوم الإسلامية عدا كتاب "دليل الإسلام"، إلا أن تأثيره الهائل جعله يدخل في مصافٍّ مشاهير علماء الإسلام الصينيين.

٦- ليو تشي

لقبه "جيه ليان"، وكنيته "يي تشاي". وهو من مواليد "ناجينغ"، ولكن لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته، وقد استدل بعض المؤرخين على أنه ولد سنة ١٦٦٤م، وتوفي سنة ١٧٣٠م. انحدر "ليو تشي" من عائلة عالم إسلامي شهير. كان والده "ليو سان جيه" ضالعاً في الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية، كما كان صديقاً حميماً لـ "ما تشو" العالم الإسلامي الصيني، ومؤلف كتاب

"دليل الإسلام"، والذي تحدثنا عنه آنفاً.

بدأ ليو تشي في تلقي التعليم الإسلامي الابتدائي منذ طفولته، ثم أمضى ٨ سنوات في دراسة الكتب الكونفوشية، بدءاً من الخامسة عشرة من عمره، ثم عدل عنها إلى دراسة الكتب الإسلامية مدة ٦ سنوات على يد الشيخ "لي يونغ شو"، والشيخ "يوان رو تشي"، اللذين كانا من علماء الإسلام المرموقين آنذاك، كما سبق له أن درس الكتب البوذية والطاوية والكتب الغربية أيضاً.

ويقال بأن عدد تراجم "ليو تشي" يبلغ مئات المجلدات. وصفوة القول: إن "ليو تشي" قد تفوق على علماء الإسلام الأولين في الصين من حيث كثرة تراجمه وسعة محتوياتها، ولكن ما بقي من تراجمه هذه حتى الآن لا يُمثل إلا عشرها فقط.

٧- دو ون شيو، قائد انتفاضة أبناء قومية هوي

أما لقبه، فكان "يوان هوان"، وكنيته "باي تشون". وهو من مواليد قرية "شانغتسون" (١٨٢٧ -١٨٧٢م) بمحافظة "باوشان" التابعة لولاية "يونغشانغ" من مقاطعة يونان، وهو مسلم من قومية هوي، من عائلة فقيرة. وقد أصبح قائداً لانتفاضة أبناء قومية هوي في يونان في الفترة ما بين سنة ١٨٥١م وسنة ١٨٧٢م.

تبنته خالته، وكانت ميسورةَ الحال، فألحقته بكُتَّاب خاص لتلقِّي التعاليم الكونفوشيوسية، وكان ذكياً وجاداً في الدراسة، فاجتاز امتحان "شيوتساي" وهو في السادسة عشرة من عمره، وكان "دو ون شيو" موضعَ التقدير العالي لدى أهل بلده؛ لبراعته في الإنشاء وعلم الخط من جهة، وبسبب موقفه الواضح بين العدل والظلم وبين الحق والباطل، ونصرة المظلومين على الظالمين من جهة أخرى.

لم يكن "ما ليان يوان" يكتفي بتعليم طلابه الكتب الإسلامية المؤلَّفة باللغتين العربية والفارسية، بل كان يعلمهم أيضاً المواد الدراسية المكتوبة باللغة الصينية، وبهذا كان مضربَ المثل في الاهتمام بالحضارتين الإسلامية والصينية في آن واحد.

أما في الماضي، فكان المتعلمون المسلمون من قومية "هوي": إما من دارسي

الكونفوشيوسية الذين لا يعرفون شيئاً عن الإسلام، وإما من دارسي الكتب الإسلامية باللغتين العربية والفارسية، الذين لا يعرفون من قراءة اللغة الصينية أو كتابتها إلا القليل، أو أنهم يجهلونها تماماً، وكان هذا الوضع في أمسِّ الحاجة إلى التغيير.

وعليه، فإن تعليم "ما ليان يوان" على هذا النحو كان في حد ذاته تجديداً للتعليم الإسلامي الصيني، كما كان محاولةً موفَّقة لتدريب الطلبة في مقاطعة يونان على الحضارتين الإسلامية والصينية. وقد عادت جهوده في هذا المضمار بنتائجَ إيجابية.

٨- ما تشي تشي

لقبه "قونغ هوي"، واسمه الديني "يحيى". وهو من مواليد محافظة "لينتان" سنة ١٨٥٧م. درس أبجدية المعارف الإسلامية في طفولته، وعدل عن ذلك إلى دراسة التعاليم الكونفوشية وهو في الحادية عشرة من عمره، وقد حصل على الدرجة العلمية "شيوتساي" بعد أن اجتاز الامتحان الرسمي في مدينة "قونغتشانغ" سنة ١٨٨٠م.

ولكن لم يكن له رغبة في الحصول على وظيفة حكومية، فتفرغ لدراسة مختلف أنواع المؤلَّفات الإسلامية المجازَة على أيدى الشيخ "ليو جيه ليان" (أي ليو تشي)، وعلماء الإسلام الآخرين. وفي سنة ١٨٩١م، وعندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره، أسَّس مدرسة خاصة في موطنه "شيفنغشان"، حيث علم الكونفوشية بصورة رئيسة، وفي الوقت ذاته قام بنشر التعاليم الإسلامية استناداً إلى مؤلفات علماء الإسلام الصينيين المكتوبة باللغة الصينية.

وكانت دعوة "ما تشي تشي" إلى الإسلام المخالفة للعادة مثارَ نقد؛ لأن ما كان يستند إليه في توضيح أحكام الإسلام ليس الكتب الإسلامية الحقيقية باللغة العربية، ولا يستطيع أن يبين حقائق الإسلام بصفته مثقفاً كونفوشياً.

وقد حاول "ما تشي تشي"، المتعمِّق في الحضارة الصينية، إحلالَ الكتب

الإسلامية باللغة الصينية محلَّ مثيلاتها بالعربية في الدعوة إلى الإسلام.

٩- العالم الإسلامي بانغ شي تشيان

بانغ شي تشيان (١٩٠٢ -١٩٥٨م) ولد لعائلة مسلمة فقيرة في قرية "سانغيره" بمحافظة "منغشيان" من مقاطعة "خنان". أخذ "بانغ شي تشيان" منذ اليوم الرابع في الشهر الرابع في السنة الرابعة من عمره يتلقَّى تربيةً إسلامية أولية في أحدى المدارس الإسلامية بقريته، وبعد ذلك قرأ الكتب الكونفوشية.

ولما بلغ رشده عدل عن دراسة الكونفوشية إلى دراسة العلوم الإسلامية على أيدي مشاهير العلماء، وفي الرابعة والعشرين من عمره سنة ١٩٢٦م، شارك في تأسيس دار الدراسات الإسلامية في مدينة "تشنغتشو" بمقاطعة "خنان". وبالإضافة إلى اتخاذ هذه الدار دراسة العلوم الإسلامية هدفاً مهماً لها، افتتحت دوراتٍ دراسيةً للكهول والنساء، ومدرسة ابتدائية إسلامية، مما أتاح للمسلمين والمسلمات وأولادهم فرصة الدراسة، ويعدُّ ذلك مشروعاً عظيم الشأن في ظل الظروف التاريخية آنذاك.

وفي سنة ١٩٣٨م أبحر "بانغ شي تشيان" إلى مصر للالتحاق بجامعة الأزهر، على رأس بعثة من الطلاب الصينيين تتكون من ١٦ طالباً، وقد عانى ما عانى من مشقَّات السفر الطويل، وعلى الرغم من أنه قد ناهز الأربعين من عمره؛ إلا أنه تفانى في تحصيل العلم بعزيمة مثيرة للإعجاب، مما وسَّع أفقه العلمي، بحيث أصبح عالماً إسلامياً فذاً في الصين.

١٠- العالم الإسلامي محمد مكين

محمد مكين (١٩٠٦ - ١٩٧٨م) اسمه الآخر "ما يوي شو"، ولقبه "تسي شي"، وهو من قرية "شاديان" بمحافظة "منغتسي" من مقاطعة "يونان".

التحق محمد مكين بمدرسة "جيجيه" الابتدائية، وأخذ يتلقى تربية إسلامية في موطنه، كما أقبل على دراسة اللغة العربية والمعارف الإسلامية.

وتتلمذ على يد عدد من العلماء في الصين، ثم سافر في أول بعثة للطلبة الصينيين إلى مصر، وبعد أن حط رحاله في مصر دخل إلى جامعة الأزهر، وبعد ذلك انتقل إلى دار العلوم، حيث أمضى ثماني سنوات، تفانى خلالها في دراسة القرآن الكريم وعلم التوحيد واللغة العربية وتاريخ الإسلام، وقطع بذلك شوطاً كبيراً في تحصيل العلم. وفي سنة ١٩٤٦م استُقدم محمد مكين إلى جامعة بكين، حيث عمل أستاذاً للغة العربية طيلة ٣٢ سنة، كما تفرغ لدراسة العلوم والحضارة الإسلامية طوال حياته، فقد ألف "موجز أحوال الإسلام في الصين"، و"سيف محمد عليه السلام"، وغيرهما من المؤلفات. كما ألف ـ بالتعاون مع زملائه ـ موادَّ دراسيةً لتعليم اللغة العربية.

وخلال وجوده في مصر صمَّم على ترجمة أمهات الكتب الإسلامية إلى اللغة الصينية، وترجمة الكتب الصينية الشهيرة إلى اللغة العربية، فحقق أخيراً ما صمم عليه؛ فخلال خمسين سنة من عمله في الترجمة أنجز عدداً كبيراً من الكتب القيِّمة.

ومن تراجمه من اللغة العربية إلى الصينية: "معاني القرآن الكريم"، و"رسالة التوحيد"، و"الرسالة الحميدة في حقيقة الديانة الإسلامية"، و"الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، و"العقائد"، و"منهاج التقويم الهجري" ..... إلخ.

ومن تراجمه من اللغة الصينية إلى اللغة العربية: "الحوار" (من كتب الكونفوشيوسية)، و"الأساطير الصينية القديمة"، و"أمثال الصين القديمة" .... إلخ.

ومن تراجمه من اللغة الإنجليزية: "تاريخ علم الكلام الإسلامي"، و"تاريخ التعليم الإسلامي"، و"تاريخ العرب العام"، و"موجز تاريخ العرب". وبالإضافة إلى ذلك أشرف على تأليف "معجم العربية الصينية".

لقد أمضى محمد مكين عشر سنوات في ترجمة معاني القرآن الكريم، وجاءت ترجمته لمعاني القرآن الكريم، التي نشرت سنة ١٩٨١م، نتاجاً لجهوده الدؤوبة، وأثناء عمله أستاذاً في جامعة بكين كان له جهد كبير في تطوير التعليم، كما أنه كان مضرب المثل في الاستقامة والجد في المعاملة والعمل، وإن خصاله الحميدة،

وكفاءته العلمية، وإسهاماته الهائلة في خدمة الإسلام، وفي التبادل الثقافي بين الصين وبلاد العرب ستظل خالدةً مدى التاريخ.

١١- المؤرخ الكبير باي شو يي

اسمه باي شو يي (١٩٠٩ - ٢٠٠٠م)، واسمه الإسلامي كمال الدين. وهو من مواليد مدينة "كايفنغ" في مقاطعة "خنان"، وقد تعلم شيئاً من اللغة العربية والآيات القرآنية من عمة أبيه منذ طفولته، بحيث تلقى التربية الإسلامية. وحين أصبح يافعاً بدأ بدراسة الكتب الكونفوشية.

امتدت حياته العلمية أكثر من نصف قرن، وقد ركز خلالها على ممارسة الدراسات العلمية بهمة عالية، إضافة إلى تعليمه تاريخ الصين العام، وتاريخ علم التاريخ الصيني، وتاريخ المواصلات بين الصين والبلدان الأخرى.

ولتأثره بعائلته ظل يحب قوميته المسلمة، ويهتم بتاريخها وتطورها منذ طفولته. وهذا ما دفعه إلى خوض غمار الدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام وتاريخ قومية "هوي"، وقد كان "باي شو يي" أولَ من قام بتأليف الكتب الخاصة بتاريخ الإسلام في الصين، وتاريخ قومية "هوي" على أساس ممنهج.

ونشر عدداً كبيراً من الأبحاث الخاصة بتاريخ قومية "هوي" والإسلام في الصين، وفي الفترة ما بين سنة ١٩٦١ و ١٩٦٥م قام - بتوصية من وزارة التربية والتعليم - بتأليف المواد التعليمية الخاصة بتاريخ علم التاريخ الصيني، كما نشر سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع، مما ترك تأثيراً كبيراً وسط المؤرخين، وكانت جهوده هذه في حد ذاتها مفتاحاً لباب تاريخ علم التاريخ في الصين.

وعلاوة على ذلك، قام بمراجعة "٢٤ سجلاً تاريخياً" وتدقيقها، مسهماً بذلك في تنقية تراث علم التاريخ الصيني. وانتخب نائباً لرئيس الجمعية الإسلامية الصينية أكثر من مرة، ودُعي إلى حضور الملتقيات العلمية مراراً بصفته مؤرخاً مسلماً[١].

---

(١) الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين - محمود يوسف ١٩- ١٦٩.

٧- الحرية الدينية والمسلمون:

الحرية الدينية ـ أو بالأصح سياسة التسامح الديني ـ التي تعدُّ أحد أوجه سياسة الانفتاح الصيني الحديث، هي حرية نسبية، مثل الحريات الفردية الأخرى؛ فالفرد حر في أن يمارس شعائر دينه التي تقتصر على الناحية الفردية المعتادة، مادامت هذه الممارسة لا تتعارض مع سياسة الدولة؛ مثل الصلاة في المساجد والجوامع التي أُعيد افتتاحها للمسلمين منذ بضعة أعوام بعد سنوات طويلة من الإغلاق والتهجير، وتمكن المسلمون من ترميم وإصلاح بعض المساجد التي عبثت بها أيادي التخريب والتدمير خلال الثورة الثقافية.

كما أعادت بعثات الحج سيرتَها الأولى منذ عام ١٩٩٧م، وعادت العلاقات والزيارات الإسلامية بين مسلمي الصين ممثَّلةً في الجمعية الإسلامية الصينية، ومختلف الهيئات الإسلامية على النطاق الرسمي، وعادت المصاحف والكتب الإسلامية إلى التداول بعد أن كانت معدومةً نتيجة مصادرتها من أيادي المسلمين وإتلافها بالحرق أثناء الثورة الثقافية(١).

٨- حاضر الإسلام في الصين:

نعم إن الكيان الإسلامي لا يزال حياً لم يمت، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تراه في المساجد أحياناً، وفي الجنازات والمدافن أحياناً، وفي حفلات طهور الأطفال والزفاف والأعياد كثيراً، لكن الجراح والعاهات ومسيرة الأحزان غيرت منه الكثير، هدَّت قواه، وبدَّلت ملامحه، ولم يبق فيه سوى القلب، وباتت حالته فريدة من نوعها، كأي جسد تلفت أعضاؤه، وتعطلت وظائفه، وماتت خلاياه، ولكن شاءت حكمة الله أن يظلَّ نبض القلب فيه مسموعاً، تتردد دقاته، متحديةً كل حسابات العقل والعلم.

---

(١) داخل أسوار الصين – ج ١ – محمد بن ناصر العبودي ص ٢١ –٢٧.

لماذا ظل الإسلام محصوراً:

إن السؤال الذي يطرح نفسه ـ بعد هذه الرحلة ـ هو: لماذا ظل الإسلام محصوراً في إطار تلك القوميات العشر، لم يتجاوزها، ولم يتقدم أبعدَ من حدودها؟

لقد راودت بعض المسلمين قبل قرون فكرةُ أن تصبح الصين دولةً مسلمة، وربما كان "الشاه رخ بهارد" واحداً من هؤلاء الذين خطر لهم هذا الحلم في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، عندما كتب إلى أحد أباطرة أسرة "مينغ" يدعوه إلى تطبيق الشريعة؛ "لنيل سلطان الآخرة بدلاً من سلطان الدنيا".

وهذا الخاطر شغل البعثات التبشيرية كلها التي ذهبت إلى الصين، خصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو أيضاً ظل شاغلَ كُتَّابِ الغرب ومؤرخيه الذين عُنوا بالصين ومستقبلها.

وكان الكاتب والرحَّالة الروسي فاسيليف ـ الذي زار الصين في ١٨٦٧م موفداً من قِبَل حكومة القيصر لتقصي أحوال الصين ـ قد كتب يقول: إن الإسلام مهيَّأٌ لأَنْ يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأنْ يقلب ـ تبعاً لذلك ـ الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأساً على عقب، وكان مما قاله: إنه "إذا انتشر الإسلام في الصين، كما انتشر مذهب بوذا ينقلب العالم".

ولكن المستشرق توماس أرنولد يعقب ـ في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" ـ على هذا الكلام بقوله: وقد مر ما يقرب من نصف قرن على هذه "النبوءة المزعجة"، ولم يحدث ما يحقق التكهنات التي تضمَّنتها، بل على العكس من ذلك، يبدو أن الإسلام كان خلال القرن الأخير ـ التاسع عشر ـ آخذاً في التأخر بدلاً من التقدم.

وتوماس أرنولد الذي عُرف أنه كان عالماً راسخاً، مدقِّقاً، يتخلى عن حياده العلمي عندما يتعلق الأمر باحتمال ـ مجرد احتمال ـ أن تصبح الصين بلداً مسلماً، وهو عندما يصل إلى هذه النقطة نشم في حديثه رائحةَ التعصب، الذي لا يرى في فكرة انتشار الإسلام في بلد عند آخر أطراف المعمورة سوى أنها "نبوءة مزعجة"!.

المهم أن ذلك لم يحدث، وهو أمر يثير الدهشة والغرابة والتساؤل: لماذا تعثرت خطى الإسلام في الصين، وهو الذي غُرست بذوره هناك منذ ١٣ قرناً؟

يطول الشرح في الرد !

ما سبب ما آل أليه حال المسلمين في الصين

بعض ما ذكر من ملامح يرسم جانباً من الصورة التي آل إليها أمر المسلمين في الصين، ولن نستغرب ذلك على الإطلاق؛ إذا تذكرنا أن قنوات المعرفة السليمة بالإسلام مغلقة تقريباً منذ سنوات طويلة، فمنذ عام ١٩٣٧م، وحتى سنة ١٩٨٠م لم يُتح لأحد من المسلمين أن يدرس علوم الدين في أي معهد أو جامعة خارج الصين.

نعم، هناك صينيون أُوفدوا للدراسة في الجامعات العربية، ولكنهم جميعاً ذهبوا لدراسة اللغة العربية فقط، وهم يُختارون بدقة؛ لأنهم سيعملون عادة في الترجمة في مواقع مهمة وحساسة بالدولة والحزب حين عودتهم، الأمر الذي بسببه يستبعد المسلمون من مثل هذه البعثات.

الفرصة المتواضعة الوحيدة التي أُتيحت للشبان المسلمين لدراسة علوم الدين كانت خلال السنوات الأربع، التي فتحت خلالها أبواب المعهد الإسلامي ببكين، حتى تخرج منه مائة شخص فقط، وُزِّعوا على مختلف الوظائف والمهن، وبعضهم يعمل في فروع الجمعية الإسلامية.

وإذا تذكرنا أن أكثر كتب المسلمين أُحرقت خلال سنوات الثورة الثقافية، مما أدى إلى نقص فادح في مصادر المعرفة الأخرى، حتى وإنْ كانت محفوظة وبالية، فإننا نستطيع أن نستقبل الواقع الراهن بصدمة مبررة؛ إذ هل نتوقع أي قدْرٍ من الفهم الصحيح للإسلام، حتى في حده الأدنى، بينما أجيال الشيوخ القدامى انقرضت، أو في سبيل الانقراض، والأجيال التالية سُدَّت أمامها أبواب المعرفة والدراسة؟ وحتى المصاحف وكتب الفقه ذاتها اندثر معظمها، ذلك فضلاً عن أن المناخ العام السائد مناهض بطبيعته لأي فكرة أو ثقافة دينية.

ألا نظلم مسلمي الصين إذا طالبناهم بأن يكونوا أفضلَ مما هم عليه الآن؟ أليست الصدمة مبررة، كما قلت؟!

بعض ما ورد في ثنايا الكتب العربية القديمة من كلام بعض المسلمين القدامى عن أوصاف أهل الصين

(حيث كشفت عن نظر ثاقب ومعرفة مبكرة بأحد أوجه الشخصية الصينية) .

"في واحدة من ليالي "الإمتاع والمؤانسة" التي شهدها بلاط الوزير ابن سعدان، قبل حوالي ألف عام، سأل الوزيرُ جليسَه أبا حيان التوحيدي عن المفاضلة بين العرب والعجم، فقص أبو حيان عليه قصة حوار جرى بين جماعة وبين ابن المقفع، الذي لم يُخْفِ حرجه من هذه المفاضلة، وهو الذي ينتسب بأصله الفارسي إلى أعاجم المسلمين، ويسجل أبو حيان في كتابه الشهير أنهم بعد أن تحاوروا في تلك المفاضلة، مضوا يسألونه عن أحوال العجم، باعتباره أعرف من غيره بهم، وعندما سألوه عن أهل الصين، كان جواب ابن المقفع أنهم: "أصحاب أثاث وصنعة، لا فكر لها ولا روية"(١).

وفي تلك الفترة، القرن الخامس الهجري، كتب القاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي مؤلَّفه "طبقات الأمم"، وعَدَّ فيه الصين والترك من الأمم التي لم تُعْنَ بالعلوم، وقال عن الصين: إنها "أكثر الأمم عدداً، وأفخمها مملكة، وأوسعها داراً، ومساكنهم محيطة بأقصى المشارق المعمور، ما بين معدل النهار إلى أقصى الأقاليم السبعة في الشمال". ثم قال: إن "حظهم من المعرفة التي بزُّوا فيها سائر الأمم إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع"(٢).

وفي "مروج الذهب" كتب المسعودي يقول تحت عنوان "حذاقة أهل الصين":

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، جـ١، ص ٧١، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين.

(٢) القاضي أبو القاسم، صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، ص١٠ – ط السعادة.

إن أهل تلك البلاد من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصنعة وكل عمل، لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم[١].

وقد استخدام المسعودي نص الكلمات التي دوَّنها أبو زيد السيرافي في القرن الثالث الهجري في رسالته التي حملت عنوان (من أخبار الصين والهند).

وقد بلغ ذلك الحذق حداً أدهش ابن بطوطة عندما زار الصين، وعاد يروي: أن أهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدهم إتقاناً فيها، وذلك مشهور من حالهم، وقد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه. وأما التصوير، فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم، ولا من سواهم؛ فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك: أني ما دخلت قط مدينة في مدنهم ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشةً في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق[٢].

هذه الملحوظات، التي وردت في ثنايا الكتب العربية القديمة، لا تكشف فقط عن نظر ثاقب، ولكنها تكشف أيضاً عن معرفة مبكرة وجيدة بأحد أوجه الشخصية الصينية، وهي معرفة لم تتوفر في ذلك الزمن البعيد للباحثين والمفكرين الغربيين، الذين لم يجدوا إشاراتٍ ذاتَ قيمة عن بلاد الصين وأهلها فيما كتبه اليونان والرومان.

حتى إن هناك من يقول بأن أول معرفة حقَّة بالصين نُقلت إلى أوروبا من خلال ترجمة الكتابات العربية[٣]. وليس ذلك مستبعداً، خصوصاً أن العرب والفرس كانوا هم واسطة الانتقال والتبادل بين الصين ودول حوض البحر الأبيض وأوروبا، منذ عصر طريق الحرير، فضلاً عن أنه من الثابت أن صناعة الورق نُقلت من الصين إلى أوروبا عن طريق العرب.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ١٦٥.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٣٠.

(٣) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ص٦٠١.

ولم تذهب الدراسات التي قام بها الأوروبيون في العصر الحديث حول الصين وشعبها بعيداً عن جوهر ما ذهب إليه ابن المقفع وصاعد الأندلسي والمسعودي وابن بطوطة.

لماذا تعثرت خطى الإسلام في الصين رغم أنه وصل إلى تلك البلاد قبل ١٣٠٠عام؟

هناك حواجزُ طبيعية حالت دون انتشار الأديان السماوية كافة ـ والإسلام بينها ـ تتمثل في الموقف النفسي الصيني، الرافض لفكرة الغيب وعالم ما وراء الطبيعة، بما في ذلك وجود الله سبحانه وتعالى، والرافض أيضاً لأي فكر قادم من الخارج، وهو الموقف الذي ترجمه شعارهم الدائم "لا دين غريب في الصين".

ثم إن هناك حواجز مصنوعة، تتمثل في سياسة الحكومة المتعاقبة تجاه المسلمين، قبل التحرير وبعده، هي السياسة التي أدت إلى حصار المسلمين وقمعهم، كما أدت إلى عزلهم وتجهيلهم بدينهم.

لهذه الأسباب تعثَّرت خطى الإسلام في الصين، ولم يتقدم كثيراً على أرضها طوال الثلاثة عشر قرناً الماضية.

على أن ما ينبغي أن نلحظه في هذا الصدد: أن الإسلام الذي عاش في الصين ـ حتى في ذلك النطاق المحدود ـ وُضع أيضاً في القالب الصيني العتيد، وأصابه ما أصاب البوذية القادمة من الهند، والماركسية التي نبتت في أوروبا الغربية، وأثمرت في الاتحاد السوفيتي، وأعني بذلك "تصيين" الفكرة وتشكيلها على نحو يناسب البيئة المحلية، وذلك لا يُعَدُّ فقط تعبيراً عن "عبقرية التجانس"، و"قوة الامتصاص النادرة" التي تتمتع بها الصين، ولكنه يعد أيضاً تطبيقاً عملياً لشعار: "لا دين غريب في الصين".

لقد مر بنا كيف أنه تم "تصيين" الأسماء الإسلامية، ثم كيف تحول ـ أحياناً ـ الإسلام عند مسلمي الصين إلى مجموعة من الطقوس والرموز، التي تجسدت عند كثيرين منهم ـ قومية "هوي" بوجه أخص ـ في مجموعة من الأبنية والهياكل

المحسوسة، مسجد ومطعم ومدفن، ولا أثر له يذكر خارج هذه الدوائر الثلاث، إلا في إطار التقاليد؛ مثل الزواج والختان.

وتلك خطوات أخرى على طريق التصيين، فالمسجد هو "المعبد" عند الصينيين منذ الأزل، وإن اختلف فيه "الهيكل" وبعض التفاصيل، وعندما بني على الطراز الصيني، فلم يعد هناك فارق يذكر يميزه عن أي مبنى أو منشأة صينية أخرى، والمطعم مسرح لممارسة "طقوس" الإسلام في تناول الطعام بالامتناع عن لحم الخنزير، ثم لا يمكن أن يحتل المدفن والرحلة إلى الآخرة هذا الاهتمام الزائد عن الحد عند مسلمي الصين، دون أن يكون للطقوس والتقاليد القديمة السائدة أثر في ذلك.

وإذا كانت عبادة السلف وعظماء الرجال من أركان عقائد الصينيين القدامى، فإننا نجد في هذا السلوك تفسيراً لاهتمام المسلمين الملحوظ هناك؛ سواء بالأضرحة، أو بإحياء ذكرى الميت في اليوم الثالث للوفاة، وبعد أسبوع، ثم بعد أسبوعين، وفي ذكرى الأربعين، وفي كل عام، ثم إحياء الذكرى على نطاق أوسع في العام العاشر، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

إن تعظيم الأموات على هذا النحو المبالَغ فيه عند بعض المسلمين هو في حقيقة الأمر شاهدٌ لا يخطئ على عمق تأثير عقائد الصين القديمة على الصورة التي تشكل بها الإسلام في الصين.

ولا تخلو الكتابات التي تتناول عقائد الصين من ذكر ظاهرة انتشار القبور الكبيرة التي بُنيت لعظماء الرجال في الأزمنة القديمة، حتى أعاقت شق الطرق وفلاحة الأرض؛ الأمر الذي مهَّد الطريق لقبول فكرة إقامة الأضرحة "للعظماء" من رجال الدين المسلمين، واستمرار هذه الظاهرة إلى الآن، وإن تقلَّص حجمها.

إن اختصار الإسلام في هذه الطقوس والهياكل هو "التصيين" بعينه، وهي الصيغة التي بات بها الإسلام جزءاً من المجتمع الدنيوي، ذي القيم الإيجابية العملية، الذي يستخدم "الكف والصنعة" في كل شيء.

ولعل كل هذا راجعٌ إلى محاولة المسلمين مداراةَ غيرهم من الكونفوشيوسيين وأصحاب الديانات الأخرى، حتى يتفادَوْا خطر المواجهة والعنف من جانب هؤلاء. كما أشرت إلى ذلك من قبل. وربما كان هذا التشكيل هو الصيغة التي أمكن بواسطتها نفي صفة "الغُربة" عن العقيدة الواردة، وإسقاط شعور العداء والرفض من حولها، الأمر الذي كان بمثابة شرط ضمني لمنح الإسلام سِمةَ الدخول والإقامة في ذلك المجتمع المنغلق والفريد!

الوجود الإسلامي في الصين

إن مسألة الوجود الإسلامي في الصين هي القضية العاجلة والملحَّة. كيف يمكن أن يُحالَ دون انقطاع أسباب استمراره، وكيف يمكن أن يُصحَّحَ فهم المسلمين لدينهم؟ وكيف يمكن أن يتوفر لهم وضع صحي مستقر، يحميهم من تقلُّبات "خط الحزب"، وهو أمر وارد باستمرار؟ هذه الأسئلة وأشباهها، هي ما ينبغي أن ننشغل به. وهو أشد على الصين دون غيرها من الدول الشيوعية، لأن الظروف المسلمين هناك أسوأ كثيراً من ظروفهم في تلك الدول.

مد الجسور

إن مد الجسور بين العالم العربي والإسلامي وبين مسلمي الصين هو الخطوة الأولى والواجبة في السعي لبلوغ هذا الهدف، وفوق هذه الجسور يمكن أن تعبُر البعثات الدراسية والكتب والحجاج والوفود التي تشارك في مختلف المناشاط الإسلامية من ندوات ومؤتمرات.

وثمة عنصر هنا يجب ألا نغفله؛ وهو أن القُوى الغربية الكبرى مازالت حريصةً على توسيع الفجوة، أو الجفوة، بين العالم العربي والصين، ليس حمايةً للإسلام بكل تأكيد، ولكن حماية لمصالحها، وحرصاً على احتكار الجسور مع العالم الإسلامي والعربي.

ومع ذلك، فإن القدر الأكبر من الجهد مطلوب على الجانب الصيني الذي

ينفتح الآن على العالم العربي بصورة أوسع، لأسباب سياسية أو اقتصادية، الأمر الذي يهيئ أرضيةً من التفاهم وحُسن الظن، تسمح بالاتفاق على مِنَح دراسية لأبناء مسلمي الصين، أو توفير كتب المعرفة الأولية بالدين للمساجد، وفروع الجمعية الإسلامية الصينية في مختلف المقاطعات، أو إيفاد مبعوثين لإرشاد المسلمين وتصحيح مداركهم، وقُرَّاء يتلون على مسامعهم كتاب الله، وهم الذين انفجر ممثلوهم باكين عندما سمعوا بعض آيات القرآن الكريم لأول مرة بعد الثورة الثقافية في افتتاح مؤتمرهم الذي عقد في إبريل من عام ١٩٨٠م.

إن المعرفة الصحيحة بالإسلام هي المطلوب، وهذا أمر شديد التواضع في درجات ممارسة الحرية الدينية، وهو جهد تستطيع أن تُسهم فيه الوفود العربية التي تروح وتجيء من بكين على مدار كل عام، كما يستطيع صندوق التضامن المتفرِّع عن المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي أن يفعل الكثير في هذا الصدد. إن هناك الكثير مما يمكن أن يفعل لإنقاذ الإسلام من الاندثار في الصين، لكن المشكلة الحقيقية أنه لم يعد هناك من تشغله مثل هذه القضايا بشكل جاد، إذا استثنينا بعض المبادرات.

إن الجهد متوفر، لكن القصور في الهمة، ومحنة مسلمي الصين، لم تعد خافيةً معالمها على أحد، لكن السؤال هو من يمد يد العون لهم، وينتشلهم من ذلك المصير المحزن الذي يتهددهم؟

إن غيرة أفراد معدودين قد تزيدهم ثواباً عند الله، لكنها لن تغيِّر شيئاً من واقع مسلمي الصين، بينما تحرُّك ثقلٍ سياسي واقتصادي لعدد محدود من الدول العربية ذات المصالح المتنامية مع بكين يستطيع أن يثمر الكثير، خصوصاً وأن المطلب متواضع للغاية كما ذكرت: أن يتاح لمسلمي الصين أن يعرفوا الله بعد إذ آمنوا به!.

وهذا الذي يجري في الصين ينبغي أن ينبهنا إلى المأزق الحقيقي الذي يعيش فيه ملايين المسلمين في أطراف العالم الإسلامي، الذين يعانون من نقص فادح في

المعرفة بالدين؛ إما لبعدهم عن العالم العربي، الذي لا يختلف على أهمية دوره في التوجيه الإسلامي، وإن تقاعس عن مسؤولياته، وإما لظروف سياسية معينة يعيشون في ظلها، وإما لإهمال المؤسسات الثقافية الإسلامية في بلادنا، وعدم اكتراثها بمسؤولياتها تجاه هذه المجموع المسلمة.

إن الإسلام يتقلص في هذه المناطق النائية الآسيوية والأفريقية، ويشكل في قوالبَ وأشكالٍ جديدة تختلط فيها البدع بالمعتقدات والتقاليد المحلية، حتى ليتبدَّى في صورة يقال لها الإسلام، وهي ليست من الإسلام في شيء.

وهو أمر مدهش وغريب حقاً، أن يتوجه القدر المتاح في زماننا من النشاط الإسلامي إلى أوروبا والولايات المتحدة، حيث معاقل المسيحية واليهودية، ولا يُلتفت بأي قدر لملايين المسلمين القابضين على الجمر حيناً، والجهل أحياناً، في أطراف القارتين الآسيوية والأفريقية.

إن الذين أزعجتهم نبوءة "أسلمة" الصين، لابد أنهم سعدوا عندما بلغهم نبأ "تصيين" الإسلام، وأكثر ما أخشاه أن تتكرر في بقية البلاد الآسيوية والأفريقية قصة الإسلام في الصين، وما انتهى إليه حاله فيها.

نعم، إنَّ كتاب الله يحفظه الله، وللإسلام رب يحميه، وتلك حماية مطلقة وباقية ما بقي الزمن، ولكن هذه الحماية المطلقة للإسلام تتحول فيما يتعلق بالمسلمين إلى حماية معلقة على شرط: أن يبادروا هم إلى التحرك بجدية في الاتجاه الصحيح، يتغيرون فيتغير التاريخ.

"إن الله يدافع عن الذين آمنوا"، والله سبحانه "لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"(١).

---

(١) الإسلام في الصين. فهمي هويدي ص ١٨٦ – ١٨٧ – ٢٢١ – ٢٢٣ – ٢٣٩ – ٢٥٠

الخاتمة

بعد دراستي لهذا الموضوع أحاول الآن أن أستخلص أهم النتائج التي توصلت إليها والتوصيات التي رأيتها:

أ - النتائج

١- إن الكونفوشيوسية هي بالفعل عند أهل الصين دين، قِدَمُها كقِدَم الصين نفسها، وليست مجردَ نظام للفلسفة الأخلاقية كما شاع بين بعض الدوائر الفكرية الحديثة، وليست شِبْهَ دين كما يراه بعض العلماء الغربيين في مجال علم مقارنة الأديان، بل هي - في اعتقاد أهل الصين - دين مستقل كامل قائم بنفسه، له خصائصه التي تُميِّزه عن غيره من الأديان. وهي تملك أهم العناصر الدينية؛ مثل: العقيدة في الإله السماوي "تيان"، والإيمان بالوحدة بينه وبين الإنسان، وتقديس النصوص الدينية المعينة مثل "سي شو"؛ أي: الكتب الأربعة، و"وو جينغ"؛ أي: الأسفار الخمسة. ولديها طقوس وشعائر دينية؛ مثل تقديم الملك الصيني القرابين لـ "تيان" سنوياً نيابة عن الشعب الصيني بوصفها شعيرة تعبدية، كما أنها تعظِّم الأنبياء الملوك الأقدمين، كما يقوم الكونفوشيوسيون بزيارة قبر كونفوشيوس وغيره، ممن جاء بعده من تلاميذ وعلماء وأتباع بارزين، ويبنون المعابد عندها، ويقدِّمون القرابين... وهذا ما يفعله أتباع الكونفوشيوسية المعاصرة.

٢- غالت الكونفوشيوسية في تقديس أرواح الآباء والأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم السابقة.

٣- موقف كونفوشيوس من الغيبيات موقف سلبي، فقد تنحى كونفوشيوس عن الحديث في هذا الجانب حتى وضعه البعض في كفة "اللاأدرين".

٤- سادت تعاليم كونفوشيوس ونظرياته الصينَ أكثرَ من ألفي سنة، واعتنقها حتى غزاة الصين، وأثَّر فكر كونفوشيوس في كل مظهر من مظاهر الحضارة الصينية.

٥- في القرنين السابع عشر والثامن عشر اتجه مفكرو أوروبا وعلماؤها إلى الصين؛ وذلك عن طريق المنصِّرين، وترجموا الكتب الصينية، وبسطوا فكر كونفوشيوس الأخلاقي، وأعلنوا أن تعاليمَه شبيهةٌ بالتعاليم النصرانية، وحاول المنصِّرون الربط بين الكونفوشيوسية والنصرانية، وكانت وسيلتهم في ذلك قولهم: إن النصرانية تؤكد دعوة كونفوشيوس، واعتنق الأباطرة دعوةَ كونفوشيوس؛ لأنها تدعو الشعب للطاعة، حتى يسوِّغوا وجودَهم في الصين، لدرجة أنهم قالوا: إن التعاليم الكونفوشيوسية قد صدرت عن وحي وتنزيل، وإن الصين قد تلقَّتْها عن أبناء نوح عليه السلام.

٦- إن الكونفوشيوسية جدَّدت نفسها مرة بعد الأخرى على مر تاريخ الصين الطويل، كما أنها تجدِّد نفسها اليوم أيضاً باسم "الكونفوشيوسية المحدَثة المعاصرة".

٧- إن الإسلام رسالة عالمية جاءت خاتمةً للرسالات السماوية كلِّها، وهداية ربانية تجسِّد الرحمة الإلهية، ودين ينظم حياة الإنسان في جميع جوانبها. ومن هنا لا يقبل الكونفوشيوسية؛ لأنها ديانة وضْعية، ولأنه جاء ناسخاً لجميع الأديان وما تدعو إليه من عقائدَ ونظريات، وشرائعَ ونُظم، ويرى الإسلام أن نبيَّه محمداً ﷺ النبيّ الخاتم، ولا نبي بعده.

٨- إن هناك غفلة شديدة قديماً وحديثاً في العالم الإسلامي والعربي عن الحضارة الصينية وأديانها وفلسفاتها، التي تُعَدُّ من أعرق وأضخم الحضارات القديمة التي أنجزها البشر على وجه الأرض، وهناك عشرات الترجمات للكتب الكونفوشيوسية والطاوية باللغة الإنجليزية، وأما الترجمات العربية فنادرة جداً، وأكثرها مفقود تماماً في المكتبة العربية والإسلامية. وليس من المعقول أن نسمح لهذا الواقع أن يستمر؛ لأن الشعب الصيني يكوِّن خُمس سكان العالم، ولهم ثقافة عريقة وتاريخ طويل، خاصة وأن الصين الآن تتقدم في كل المجالات، وسيكون لها مكانة عظيمة وتأثير كبير على العالم في مستقبل غير بعيد، كما لا يخفى على

المفكرين والمخطِّطين، لذلك فإني أدعو علماء الإسلام، خصوصاً المهتمين بمجال مقارنة الأديان، إلى الاهتمام بدراسة الثقافة الصينية وأديانها وفلسفاتها.

٩- إن الأمة الإسلامية ـ وقد انتهت إليها رسالات الرسل جميعاً ـ هي المسؤولة عن القيام بالقسط، واحترام قواعد الحق والعدل بين الأمم، ولا يتأتَّى لها القيام بهذا الدور وهي مفككة الأوصال، ممزقة الأشلاء، متشعِّبة الأهواء !! فلابد من تضامنها واعتصامها بحبل الله المتين، وتمسُّكها بصراطه المستقيم، وتعاليها على شهواتها وانتصارها على لذائذها، وإيثارها النفع العام لصالح البشرية؛ لأنها ـ في هذه الآونة ـ هي الملجأ الوحيد والملاذ الآمن للبشرية، التي فقدت توازنها وتماسكها ببعدها عن الخير والحق والعدل.

ب- التوصيات

بعد دراسة هذا الموضوع دراسةً متأنية، يوصي المؤلف:

أولاً: إنشاء مركز للدراسات الصينية يتبع لإحدى الجامعات السعودية، ويهتم بكل ما يتعلق بالصين من تاريخ وحضارة وفلسفات وسياسة واقتصاد وثقافة ولغات وأخلاق.

ثانياً: يلفت أنظار الباحثين في أقسام العقيدة في الجامعات بالاهتمام بالفلسفات والأديان الصينية (كما اهتم الغرب بدراستها)، وذلك لإثراء المكتبة العربية بالمراجع الأصلية في هذا المجال.

ثالثاً: توثيق عُرى التعاون بين الدول العربية والإسلامية والصين؛ لِمَا في ذلك من تلاقي الحضارات، وتلاقح الأفكار، وتبادل الثقافات بين الشعوب الشرقية؛ من خلال تبادل الزيارات والمِنَح الدراسية، وعقد المؤتمرات والندوات، والترجمة بين اللغتين الصينية والعربية.

رابعاً: ضرورة دعم إخواننا المسلمين في الصين ومؤازرتهم بشتى الطرق والوسائل؛ وذلك لِمَا عانوه من تغريب عن دينهم، ولِمَا يعانون الآن من جهل

بالإسلام؛ وذلك بفتح المجال لدراسة أبنائهم في الجامعات، وإرسال البعثات، وإقامة المؤتمرات، وعقد الندوات، واستضافة أعداد كبيرة منهم في موسمي الحج والعمرة، وعمل برامج دعوية، وتزويدهم بالوسائل الدعوية المختلفة (وذلك لحاجتهم الماسة لها)، وتفعيل دور الاتفاقيات الثقافية والتجارية مع الصين لدعم المسلمين، ونشر الإسلام في الصين التي هي بأمس الحاجة إليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المراجع

١- الأخلاق في الكونفوشيوسية - سليمة إبراهيم الصينية - رسالة ماجستير ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢- الأخلاق والسياسة - إمام عبد الفتاح إمام - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ٢٠٠١م.

٣- الأدب الصيني - أوديل كالتنمارك -ت/هنري زغيب منشورات عويدات - بيروت- باريس سلسلة (زدني علماً) ١٩٨٨م.

٤- الأديان الحية نشوؤها وتطورها- أديب صعب- دار النهار للنشر- بيروت - ١٩٩٣م.

٥- أديان العالم - حبيب سعيد - دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية - القاهرة - بدون تاريخ.

٦- أديان العالم الكبرى - حبيب سعد- دار الشرق والغرب-بولاق - مصر - بدون تاريخ.

٧- الأديان في تاريخ شعوب العالم- سيرغي أ. توكاريف- ت: د. أحمد فاضل - الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق- سورية - ط١ - ١٩٩٨م.

٨- الأديان في كفة الميزان- محمد فؤاد الهاشمي- محمد حلمي المنياوي- دار الكتاب العربي بمصر.

٩- أساطين الفكر السياسي والمدارس السياسية- د. حسن شحاتة سعفان - دار النهضة العربية- ١٩٦٦م.

١٠- أسرار الآلهة والأديان - أ.س.ميغوليفسكي - ت. د. حسان مخائيل إسحق - دار علاء الدين - دمشق- سوريا - ط ١- ٢٠٠٥م.

١١- الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيجوفيتش- سلسلة نافذة على الغرب - رقم [٢] - مجلة النور الكويتية - ومؤسسة بافاريا.

١٢- الإسلام في الصين- فهمي هويدي - ضمن سلسلة عالم المعرفة- الكويت، ١٤٠١هـ.
١٣- الإسلام في الصين - إبراهيم فنغ جين يوان. ترجمة: محمود يوسف لي هوا ين - دار النشر باللغات الأجنبية - بكين الصين- ط١- ١٩٩١م - ط دار الهلال- ٢٠٠٣م.
١٤- الإسلام والأديان في اليابان - د. سمير عبد الحميد إبراهيم- مكتبة الملك عبدالعزيز العامة - الرياض - الأعمال المحكمة - ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
١٥- الإسلام والمعتقدات الدينية القديمة - أحمد إسماعيل يحيى- مكتبة الدار العربية للكتاب- ط١ - ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
١٦- آسيا والسيطرة الغربية - ك - م - بانيكار - ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - مراجعة أحمد خاكي - دار المعارف القاهرة- د - ت.
١٧- أصالة الثقافة - مجموعة مقالات لكتاب عالميين - ترجمة حافظ الجمالي مراجعة د. يوسف مراد - الإدارة العامة للثقافة القاهرة - بدون تاريخ.
١٨- أصلح الأديان للإنسانية - عقيدة وشريعة - أحمد عبد الغفور عطار - ط١- مكة المكرمة - ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
١٩- الأصول الثقافية للنهضة اليابانية الحديثة - د. رؤوف عباس حامد - المجلة التاريخية المصرية- المجلد الثالث والعشرون - ١٩٧٦م.
٢٠- أعلام الفلاسفة [كيف نفهمهم] - د. هنري توماس - ت: متري أمين - مراجعة وتقديم: د. زكي نجيب محمود- دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٤م.
٢١- أفكار في القمة - خالد محمد خالد- دار المقطم - ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٢٢- الإله في فكر البشر ووحي السماء -[دراسات في الأديان السماوية والمذاهب الوضعية] د. عبد الغفار عزيز- القاهرة- ط١ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٣- انتشار الإسلام في آسيا- د. محمد نصر مهنا - المكتب الجامعي الحديث- الإسكندرية-٢٠٠١م.

٢٤- الإنسان في ظل الأديان - د. عمارة نجيب - مكتبة المعارف - الرياض- ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.

٢٥- آي تشينغ أو كتاب التغير - رانيا مشلب - مؤسسة الانتشار العربي - بيروت- لبنان - ط١- ٢٠٠١م.

٢٦- البيان في مقارنة الأديان - د. أسعد السحمراني - دار النفائس - بيروت ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢٧- تاريخ الأديان - د. محمد الزحيلي - د. يوسف العش- جامعة دمشق- ط٧ - ١٤١٨هـ- ١٩٩٨ م.

٢٨- تاريخ الأيديولوجيات - الجزء الأول - العوالم الإلهية حتى القرن الثامن الميلادي [الكونفوشية] - فرانسوا شاتليه - ت: د. أنطون حمصي - والكونفوشية: جان لاجروي- منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية - دمشق-١٩٩٧م.

٢٩- تاريخ الحضارات العام - [القرون الوسطى] - إدوار برّوى - وآخرون- نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر- وفريد م. داغر - دار عويدات - بيروت - باريس - ط٢- ١٩٨٦م.

٣٠- تاريخ الصين - [الجزء الأول] - مجلة بناء الصين- ضمن سلسلة كتب سور الصين العظيم- بكين ١٩٨٦م.

٣١- تاريخ الفكر الاجتماعي - حسن شحاتة سعفان - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٢م.

٣٢- تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر- بدر الدين و- ل - حيّ - دار الإنشاء - لبنان - ١٩٧٤م.

٣٣- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية - ميرسيا إلياد -ت: عبد الهادي عباس- دار دمشق للطباعة والنشر- دمشق - الجزء الثاني-ط١- ١٩٨٧م.

٣٤- تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية - الشيخ عبد الله سوجي يوآن الصّين- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة - ندوة: ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل.

٣٥- تاريخ وقواعد الحضارات - فرناند بروديل- ترجمة وتعليق د. حسين شريف - الهيئة المصرية ١٩٩٩م.

٣٦- التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي - آلبان- ج- ويد جري - ت: عبدالعزيز توفيق جاويد- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط٢- ١٩٩٦م.

٣٧- التجربة الصينية - د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز - أم القرى- القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٣٨- التراث والتاريخ- شوقي جلال - سينا للنشر- ط١- ١٩٩٥م.

٣٩- ترجمة لكتاب الحوار إلى اللغة العربية- ت: محمد مكين - مجلة الفتح - مصر- ١٩٣٣م.

٤٠- التفكير الديني في العالم قبل الإسلام، مطالعة في مكتبة علماء الملايو - عرض وترجمة وتعليق - د. رؤوف شلبي - دار الثقافة الدوحة - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤١- تيارات الفلسفة الشرقية - محمد سليمان حسن- دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٩م.

٤٢- الثقافة السياسية الصينية - عزة جلال هاشم- مجلة السياسة الدولية العدد:١٣٢- إبريل ١٩٩٨م.

٤٣- الثقافة العربية وثقافات العالم - حوار الأنداد [الثقافة العربية والثقافة الصينية- دراسة ومقارنة .أ.د.لي تشين تشونغ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - إدارة برامج الثقافة والاتصال - تونس - ١٩٩٩م.

٤٤- الثورة الثقافية في تاريخ الصين - عبد الرحيم أحمد حسين- مجلة عالم الفكر - الكويت - أبريل - يونيو- ١٩٨٨م.

٤٥- الجانب الفلسفي عند الأمتين الفارسية والصينية - د. علي محمد معبد - دار الكتاب الجامعي - القاهرة - مصر - الطبعة الأولى - ١٩٨٤م.

٤٦- جهود العلماء المسلمين في الصين في مجال مقارنة الأديان - زهرة الدين طيب إدريس- رسالة ماجستير - الجامعة الإسلامية العالمية - باكستان - ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م.

٤٧- حضارات الأعماق والظواهر- د. فهمي جدعان - مؤتمر المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر- المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية- عمان - الأردن - الدورة العاشرة - ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٤٨- الحضارات القديمة - إشراف - ف- دياكوف س- كوفاليف- ت: نسيم واكيم اليازجي- دار علاء الدين- دمشق - جزءان- ط١- ٢٠٠٠م.

٤٩- حضارة الصين- السفير د. محمد عبد الرحمن البشر- دار الهلال الأزرق- هونغ كونغ -١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٥٠- حقيقة التجربة الدينية في الصين - توختي آخون أركين- مجلة الرابطة- العددان: ٣٧١ -٣٧٢ السنة ٣٣ - رمضان وشوال ١٤١٦هـ- فبراير - مارس ١٩٩٦م.

٥١- الحكماء الثلاثة - د. أحمد الشنتناوي- دار المعارف للطباعة والنشر - مصر.

٥٢- حكمة الأديان الحية - جوزيف كاير ت: المحامي حسين الكيلاني - مراجعة محمود الملاح- دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦٤م.

٥٣- حكمة الصين- هـ- فان براج ت: موفق المشنوق - الأهالي للنشر- ط١- ١٩٩٨م.

٥٤- حكمة الصين - د. فؤاد محمد شبل- دار المعارف بمصر- ج ١- ١٩٦٧م.

٥٥- حكمة الطريق إلى الفضيلة [نص صيني مقدس] - لو تسو - ت: علاء الديب - دار سعاد الصباح - ط ١- ١٩٩٢م.

٥٦- داخل أسوار الصين - محمد بن ناصر العبودي - مطابع الفرزدق - الرياض - ط١- ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٥٧- دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي - د. حسن شحاتة سعفان- معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية- ١٩٧١م.

٥٨- الديانات الوضعية الحية في الشرقين الأدنى والأقصى - د. محمد العريبي - ضمن موسوعة: الأديان السماوية والوضعية - دار الفكر اللبناني - بيروت ط١- ١٩٩٥م.

٥٩- الديانات والعقائد في مختلف العصور- أحمد عبد الغفور عطار- ج ١ - ط١ - مكة المكرمة - ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٦٠- دين الإنسان - فراس السواح - دار علاء الدين - دمشق- ط٤-٢٠٠٢م.

٦١- الدين المقارن - بحث في سائر الديانات العالمية - محمود أبو الفيض - نهضة مصر الفجالة، القاهرة، مصر ١٩٩٢.

٦٢- الدين في الهند والصين وإيران - أبكار السقاف - العصور الجديدة - القاهرة - ٢٠٠٠م.

٦٣- الدين والفلسفة والعلم- السيد محمود أبو الفيض المنوفي- دار الكتب الحديثة - القاهرة.

٦٤- ذو القرنين وسد الصين - محمد راغب الطباخ - تحقيق: مشهور حسن آل سلمان- دار غراس - الكويت - ط ١ - ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٦٥- رحلة إلى الصين - رجب البنا- دار المعارف.
٦٦- الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين - إعداد: محمود يوسف لي هوا ين وآخرين - ترجمة: محمود يوسف لي هوا ين وآخرين - دار النشر باللغات الأجنبية- الصين- ط١ ١٩٩٣م - ط٢ - دار الهلال ٢٠٠٣م.
٦٧- الشرق الأقصى: الصين واليابان - د. فوزي درويش - الطبعة الثالثة- ١٩٩٧م.
٦٨- الشرق الفنان - د. زكي نجيب محمود- الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦م.
٦٩- الشنتوية الكونفوشية - د. أسعد السحمراني - دار النفائس - ط١ - ١٤٢٠هـ.
٧٠- صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي - صامويل هنتنجتون - ت: طلعت أشايب - تقديم د. صلاح قنصوة - سطور - ط٢ - ١٩٩٨ م.
٧١- صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع - د. أحمد شلبي- مكتبة النهضة المصرية - ١٩٩٦م.
٧٢- الصين - معجزة نهاية القرن العشرين - إبراهيم نافع - مؤسسة الأهرام - ط١ - ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م.
٧٣- الصين التجربة والتحدي - شوقي جلال - ضمن سلسلة اقرأ - عدد رقم: ٦٦٩.
٧٤- الصين بعيون مصرية - إعداد: د. محمد نعمان جلال- بقلم نخبة من كبار الكتاب، ضمن سلسلة اقرأ - عدد رقم: ٦٧٨.
٧٥- الصين بلاد الطبيعة والجمال - ت: محمد أبو جراد- دار النشر باللغات الأجنبية - بكين الصين- ط ١- ١٩٨٨ م.
٧٦- الصين والصينيون - لين يي تان - دار طباعة غابة الدراسة شانغهاي - ط٤ - ١٩٩٥م.

٧٧- الصين والمسألة الصينية - لويس شيخو اليسوعي- مجلة المشرق - السنة الثالثة - العدد ١٣- ١ تموز- ١٩٠٠م.
٧٨- الصينيون المعاصرون التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضي- وو بن- ت: عبدالعزيز حمدي - م/ لي تشين - إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت - ضمن سلسلة عالم المعرفة ٢١٠و٢١١ - جزئين ١٤١٧هـ.
٧٩- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة - فوزي محمد حميد- دار حطين - دمشق - سوريا-١٩٩٣م.
٨٠- العبادات في الأديان السماوية - عبد الرزاق رحيم صلال الموحي- الأوائل - دمشق - سوريا- ط ١- ٢٠٠١ م.
٨١- العبادات في الديانات القديمة - عبدالرزاق الموحي- الأوائل - دمشق - سوريا - ط١- ٢٠٠٤م.
٨٢- عظماء قادة الأديان - د. عبد الجليل شلبي - مؤسسة الخليج العربي - القاهرة - مصر - الطبعة الأولى.
٨٣- العقائد والأديان- موسوعة المعرفة - عبد القادر صالح- دار المعرفة - بيروت - لبنان - ط١- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
٨٤- عقيدة الألوهية في الديانة الداوية دراسة مقارنة بالهندوسية - أيوب نور الحق دين شي رين - رسالة ماجستير - الجامعة الإسلامية - باكستان ١٤١٧هـ.
٨٥- العلاقات المصرية الصينية - [ماضيها وحاضرها وآفاق مستقبلها] د. كرم حلمي فرحات - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - ط١: ٢٠٠٢م.
٨٦- علاقة الدين بين العرب والصين - بدر الدين الصيني - مجلة الرسالة - العدد: ٢٣٧ - السنة السادسة - ذو القعدة ١٣٥٦هـ- يناير ١٩٣٨م.

٨٧- العودة إلى الصين - محمد بن ناصر العبودي- مطابع النرجس - الرياض - ط١ - ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٨٨- فجر العلم الحديث - الإسلام- الصين - الغرب - توبي أ - هاف - ت: د.محمد عصفور- سلسلة عالم المعرفة- ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٨٩- فجر العلم الحديث الإسلام - الصين - الغرب توبي أ - هاف - ت: د.أحمد محمود صبحي- سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت- ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٩٠- الفكر الأخلاقي دراسة مقارنة - محمد عبدالله الشرقاوي - دار الجبل - بيروت - ط١ - عام ١٩٩٠م.

٩١- الفكر الأخلاقي عند كونفوشيوس وأثره في الفكر الحديث - عبد الرحيم شعبان صالح - رسالة ماجستير- جامعة الزقازيق- معهد الدراسات الآسيوية - قسم الأديان المقارنة- مصر- ٢٠٠٠- ٢٠٠١م.

٩٢- الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي - د. جمال المرزوقي- دار الآفاق العربية - القاهرة - ط ١ - ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٩٣- الفكر الشرقي القديم - جون كولر- ت: كامل يوسف حسين مراجعة: إمام عبدالفتاح - ضمن سلسلة عالم المعرفة، رقم: ١٩٩.

٩٤- الفكر الشرقي - د. يونغ شوون كيم - ترجمة د. طلعت مراد بدر، د.حميد علي مفتاح - جامعة عمر المختار - البيضاء- ليبيا - ط ١- ١٩٩٧م.

٩٥- الفكر الصيني من كنفوشيوس إلى ماو تسي تونغ - هـ- ج- كريل - ت: عبدالحليم سليم - م: علي أدهم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧١م - ط أخرى - ١٩٩٨م.

٩٦- فلاسفة الشرق - و. ف. توملين - ترجمة: عبدالحميد سليم - مراجعة: علي أدهم - دار المعارف المصرية.

٩٧- فلاسفة إنسانيون - كارل يا سبرس - ترجمة: عادل العوا - عويدات - بيروت - ١٩٨٠م.

٩٨- فلاسفة أيقظوا العالم - د. مصطفى النشار- دار قباء للنشر - ط٣- ١٩٩٨م.

٩٩- فلسفة الأخلاق والسياسة (المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس) - د. هالة أبو الفتوح- دار قباء- مصر٢٠٠٠م.

١٠٠- الفلسفة الشرقية - د. محمد غلاب - القاهرة ١٩٣٨م.

١٠١- الفلسفة الشرقية - رتشارد أوبنز وبورن فان لون - ت: إمام عبد الفتاح إمام - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ٢٠٠٣م.

١٠٢- فلسفة القرن العشرين- جويرت، ود. ونز - ترجمة عثمان نوية - مراجعة زكي نجيب محمود - سلسلة الألف كتاب - مؤسسة سجل العرب - رقم (٤٦٤).

١٠٣- الفلسفة في الشرق - بول ماسون - أورسيل - ترجمة: محمد يوسف موسى - دار المعارف - مصر- ١٣٦٤هـ- ١٩٤٥ م.

١٠٤- الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة - د. عمر عبد الحي- المؤسسة الجامعية للدراسات - لبنان - ١٤١٩ هـ.

١٠٥- قاموس المذاهب والأديان - د. حسين علي حمد- دار الجيل - بيروت- ط١- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٠٦- قصة الحضارة - ول ديورانت- ت: محمد بدران - ط- جامعة الدول العربية - الجزء الرابع، الشرق الأقصى، الصين.

١٠٧- قصة الديانات - سليمان مظهر- مكتبة الوطن العربي - القاهرة - مصر - الطبعة الأولى - ١٩٨٤م.

١٠٨- القصص الصيني القديم - الكاتب: وي تانغ- ضمن سلسلة كتب سور الصين العظيم - مجلة بناء الصين - بكين - ١٩٨٤م.

١٠٩- القوميات المسلمة في الصين - تشونينغ - ت: وجيه هوا وي تشينغ - دار النشر- باللغات الأجنبية - بكين - الصين- ط١- ١٩٨٨م.

١١٠- القيم بين الذاتية والموضوعية - د. صلاح رسلان - دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١١١- كتاب التاو- تي- تشينغ - إنجيل الحكمة التاوية في الصين - لاو- تسو - صياغة عربية للنص - تقديم وشرح وتعليق: فراس السواح- دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٨م.

١١٢- كتاب التحولات - سارة دييننغ - ت: رزان حاج علي نينوى - للدراسات والنشر - دمشق - سوريا - ط١- ٢٠٠٤م.

١١٣- كتاب الحوار - كونفوشيوس - ترجمة: محمد مكين - المطبعة السلفية - القاهرة- ط١ - ١٣٥٤هـ.

١١٤- كتاب المعرفة الكبرى في الديانة الكونفشيوسية - زهرة الدين طيب إدريس - رسالة دكتوراه بالجامعة الإسلامية العالمية - باكستان - ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١١٥- كتب غيَّرت الفكر الإنساني - أحمد محمد الشنواني - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ج١ - ط٢- ١٩٩٩م.

١١٦- الكتب والمكتبات في العصور الوسطى - الشرق المسلم - الشرق الأقصى- د. شعبان عبدالعزيز خليفة- الدار المصرية اللبنانية - ١٤٢١هـ.

١١٧- كل شيء عن الصين - تشونغ تشينغ شي- دار النشر باللغات الأجنبية- بكين - ط ١- ١٩٨٨م.

١١٨- الكونفوشيوسية المحدثة المعاصرة، تحرير (فونغ زو شينغ)، مطبعة (سان ليان)، بكين، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٩م.

١١٩- كونفوشيوس: حكيم الصين - د. أحمد فخري- مجلة المجلة- مصر- العدد ٧ - ذو الحجة ١٣٧٦هـ- يوليو ١٩٥٧م.

١٢٠- كونفوشيوس النبي الصيني - د. حسن شحاتة سعفان - مكتبة نهضة مصر- ١٩٥٦م.

١٢١- كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني - د. صلاح بسيوني-دار قباء- مصر - ١٩٩٨م.

١٢٢- كونفوشيوس - عثمان الصالح- مجلة المنهل - جدة العدد: ١١- ١٢ ذو القعدة - ذو الحجة ١٣٩٥هـ- نوفمبر- ديسمبر ١٩٧٥م.

١٢٣- الكونفوشيوسية - سليم السيد أحمد المسلمي- رسالة ماجستير - جامعة الأزهر - كلية الدعوة -١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٢٤- الكونفوشيوسيون المحدثون في الحاضر - فون جيسين، دار طباعة مكتبة اتحاد ثلاثة - بكين ط ١.

١٢٥- لغز ما وتسي تونغ أم لغز الصين - أحمد بهاء الدين - مجلة العربي - الكويت - العدد ٢١٦- ذو القعدة ١٣٩٦هـ- نوفمبر ١٩٧٦م.

١٢٦- لقاءات في الصين مع بعض العلماء والأساتذة وبعض الشخصيات الإسلامية وبعض أتباع الكونفوشيوسية - المؤلف أثناء زيارته للصين من ٢/ ٢ إلى ٣/٣/ ١٤٢٥هـ.

١٢٧- الله - عباس العقاد- دار المعارف - القاهرة - مصر - بدون تاريخ.

١٢٨- محاضرات في تاريخ الفلسفة القديمة - د. محمد جلال شرف- جامعة بيروت العربية - كلية الآداب - مكتبة كريدية أخوان - بيروت -١٩٨٠م.

١٢٩- محاضرات في تاريخ الفلسفة - هيغل - ت: د. خليل أحمد خليل مجد- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - ط٢ - ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٣٠- محاورات كونفوشيوس - الملف الثقافي- مجلة الفيصل- العدد: ٢٩٤ ذوالحجة ١٤٢١هـ- مارس ٢٠٠١م.

١٣١- محاورات كونفوشيوس - ترجمة: محسن فرجاني- المجلس الأعلى للثقافة - مصر-٢٠٠٠م.

١٣٢- المدخل في تاريخ الأديان - د. سعيد مراد- عين للدراسات والبحوث-ط١ - ٢٠٠٠م.

١٣٣- المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي - آلبان. ج. ويد جيري - ترجمة: ذوقان قرقوط - دار القلم - بيروت - ط١- ١٩٧٢م - ط٢- ١٩٧٩م.

١٣٤- المرجع في تاريخ الأخلاق - د. محمد عبدالرحمن مرحبا - جروس برس - طرابلس- لبنان- ط ١ - ١٩٨٨م.

١٣٥- المساجد في الصين - محمود يوسف لي هوا ين- دار النشر باللغات الأجنبية - بكين - الصين- ط ١- ١٩٨٩ م - ط دار الهلال- ٢٠٠٣م.

١٣٦- المستظرف الصيني- من تراث الصين - هادي العلوي - دار المدى - سوريا - لبنان - ٢٠٠٠م.

١٣٧- المسلمون الصينيون- أسئلة وأجوبة - إعداد: شيو يوان- دار النشر باللغات الأجنبية - الصين- ط ١-١٩٩١م.

١٣٨- المسلمون الصينيون من هم وأين هم - مجلة بناء الصين- ضمن سلسلة كتب سور الصين العظيم- بكين - ط١ - ١٩٨٣م.

١٣٩- المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية - د. مصطفى النشار- دار قباء - القاهرة - ط١- ١٩٩٧م.

١٤٠- معتقدات آسيوية - [العراق- فارس- الهند- الصين- اليابان] د. كامل سعفان - دار الندى - ط١ - ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

١٤١- المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفري بارندر- ت: د. إمام عبد الفتاح إمام - مراجعة: عبدالغفار مكاوي - مكتبة مدبولي - ط٢ - ١٩٩٦م -

رقم: ١٧٣ – في سلسلة عالم المعرفة.
١٤٢– معجم المصطلحات الدينية – د. خليل أحمد خليل– دار الفكر اللبناني – ط١– ١٩٩٥م.
١٤٣– المعجم الموسوعي – [للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي] تعريب وتصنيف وتقديم أ.د: سهيل زكّار– دار الكتاب العربي– دمشق– ط ١– ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
١٤٤– معجم ديانات وأساطير العالم– د. إمام عبد الفتاح إمام – مكتبة مدبولي – القاهرة–١٩٩٥م.
١٤٥– مقارنات الأديان – [الديانات القديمة] – محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي القاهرة –١٩٩١م.
١٤٦– مقدمة في الفلسفة والسياسة – د. صلاح رسلان– مكتبة المعارف الحديثة – الإسكندرية – ٢٠٠١ م.
١٤٧– الملل والنحل – الشهرستاني– تحقيق سيد الكيلاني– دار صعب – بيروت – عام ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.
١٤٨– من أروع ما قال حكماء العالم – إميل ناصيف – دار الجيل– بيروت.
١٤٩– من حكمة الصين – د. محمد عبدالهادي أبو ريدة – مجلة العربي الكويت– العدد ٢٥٨– جمادى الثاني– ١٤٠٠هـ– مايو ١٩٨٠م.
١٥٠– من قراءاتي في الأدب العالمي – (كنفوشيوس) – محمد بن أحمد العقيلي – مجلة المنهل – العدد ٥١٣ – المجلد ٥٥ – رمضان ١٤١٤هـ– فبراير – مارس ١٩٩٤م.
١٥١– المنجد في اللغة والإعلام – دار المشرق – بيروت – لبنان – الطبعة السادسة والعشرون.

١٥٢- منطلقات فكرية - د. أبو القاسم سعد الله- الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس.
١٥٣- موجز تاريخ الأديان - فيلسيان شالي - ترجمه عن الفرنسية: حافظ الجمالي - دار طلاس - دمشق- ط١- ١٩٩١م.
١٥٤- موجز تاريخ الصين - جيان بوه تسان - شاو شيون تشنغ- هو هوا- دار النشر باللغات الأجنبية- الصين- ط١- ١٩٨٥م.
١٥٥- موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين - جوزيف نيدهام - ت: محمد غريب جودة - الهيئة المصرية - ١٩٩٥م.
١٥٦- موجز تطور الحضارات الإنسانية - د. محمد صادق صبور- دار الأمين- مصر - ط١- ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨م.
١٥٧- موسوعة الأديان الميسرة - عدد من المؤلفين- دار النفائس- بيروت- لبنان - ط٢- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
١٥٨- موسوعة الأديان في العالم - إعداد دار كريبس- إنترناشيونال - المشرف العام جميل مدبك - ٢٠٠٠-٢٠٠١ م.
١٥٩- موسوعة الأديان - د. مهدي البصري- دار أسامة - الأردن - عمان- ط١-٢٠٠١م.
١٦٠- الموسوعة الفلسفية - د. إسماعيل الشرفا- دار أسامة -الأردن-عمان- ط١- ٢٠٠٣م.
١٦١- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
١٦٢- موكب الفلاسفة - محمود عزت موسى- دار مكتبة الأندلس البركة - بنغازي- ليبيا-ط ١- ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.
١٦٣- نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها - محمد مكين - المكتبة السلفية ومطبعتها- ١٣٥٣هـ.

١٦٤- نظرية كونفوشيوس الدينية - الأستاذ: أبو بكر هو غانجين الصيني - مجلة الرسالة - مصر- العدد: ٦٣٩ - والعدد: ٦٣٨ - شوال ١٣٦٤هـ- أكتوبر ١٩٤٥م - وسبتمبر١٩٤٥م.

١٦٥- نقد نظرية برهان غليون في الدين والدولة - د. سمير أمين- ضمن سلسلة كتاب [قضايا فكرية] يصدر عن قضايا فكرية للنشر والتوزيع- القاهرة - الكتاب الثالث والرابع عشر - أكتوبر ١٩٩٣م.

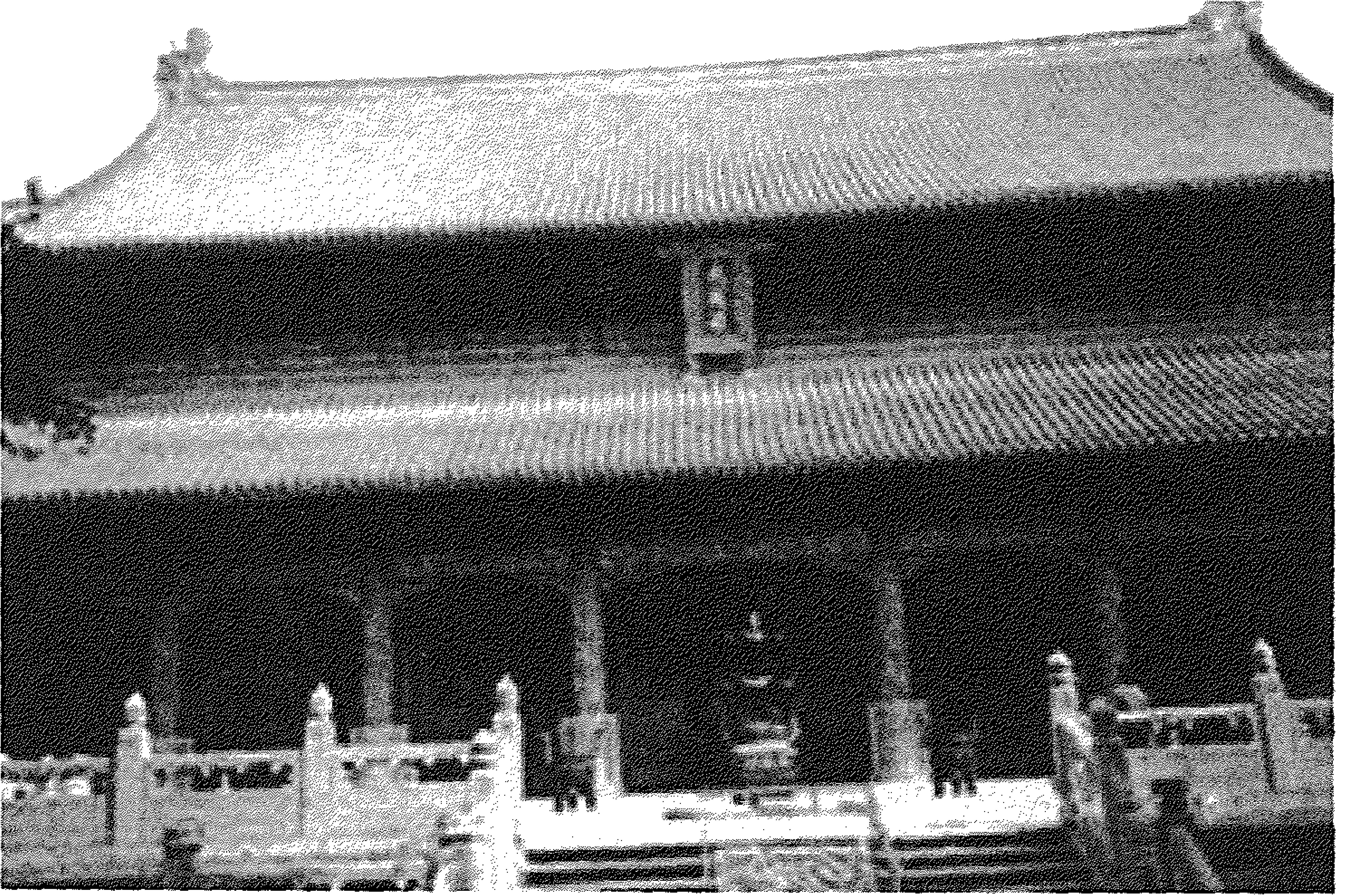
١٦٦- هداة الإنسانية في الشرق - د. سهير القلماوي وآخرون - دار المعارف - القاهرة - مصر - بدون تاريخ.

١٦٧- ولا عجب إلا الصين - محسن محمد- مؤسسة أخبار اليوم القاهرة- بدون.

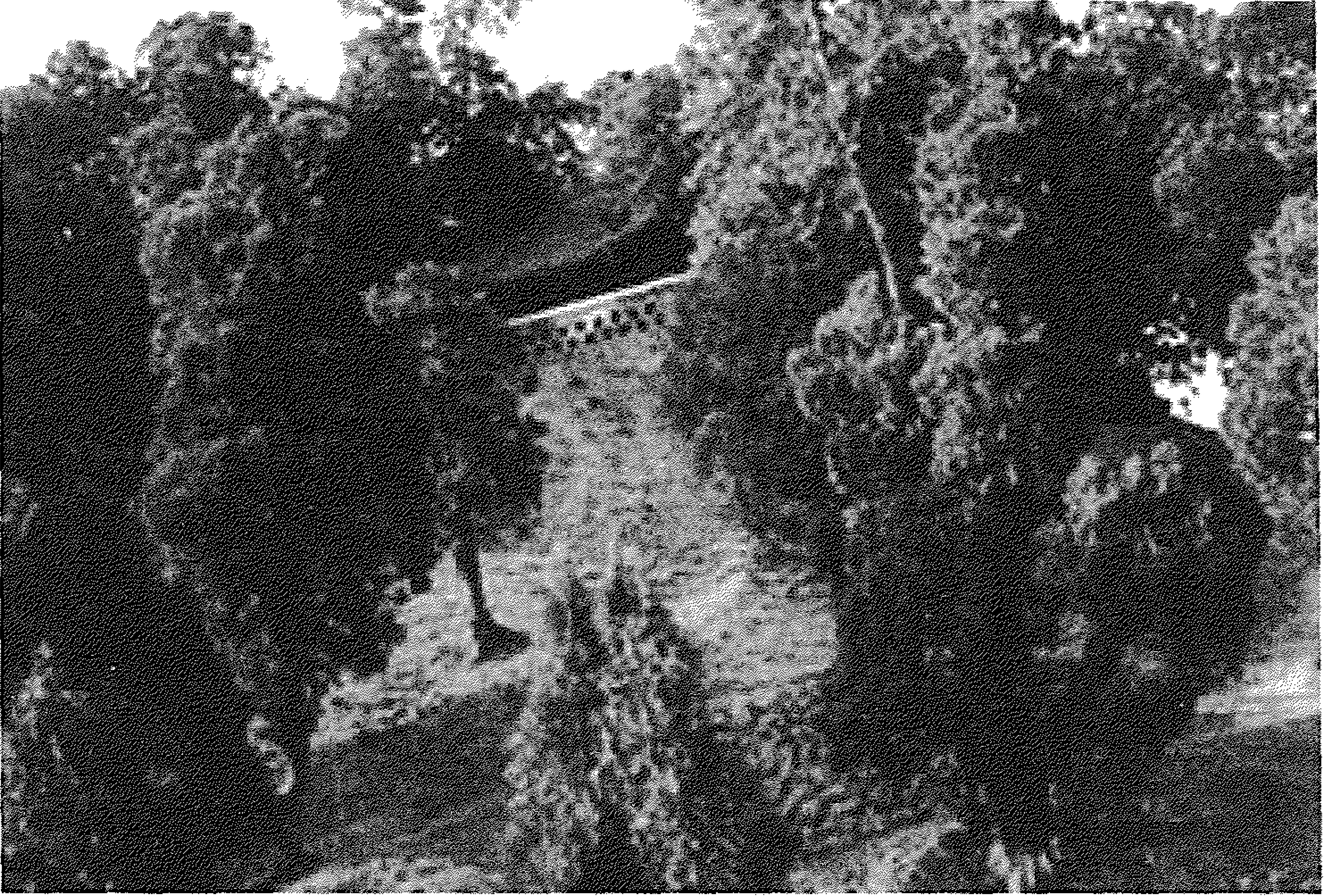
ملاحق الكتاب

بعض ما التقطته عدسة المؤلف

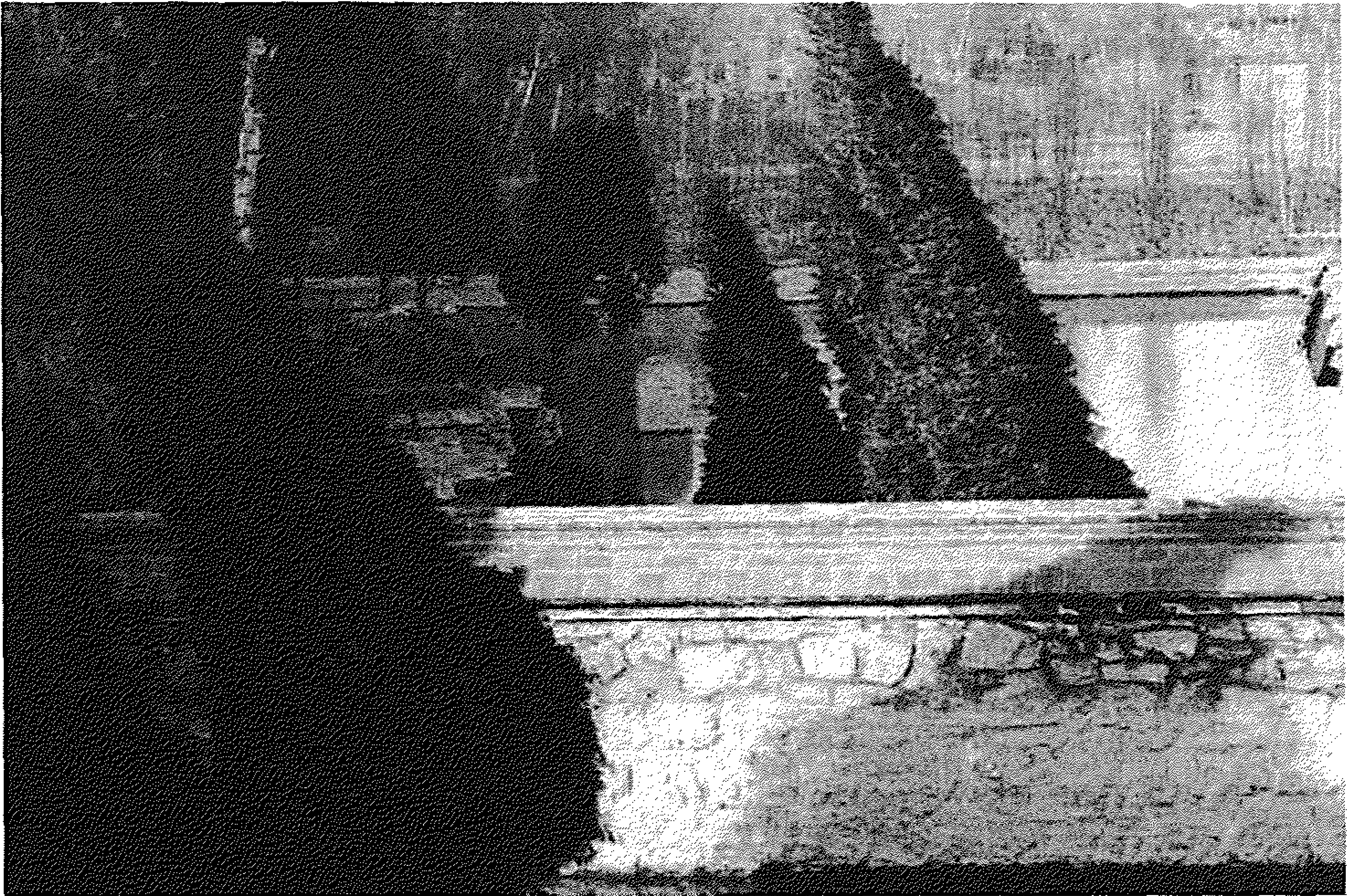
أثناء رحلته العلمية إلى الصين في الفترة من ٢/٢/ إلى ٢/٣/١٤٢٥هـ



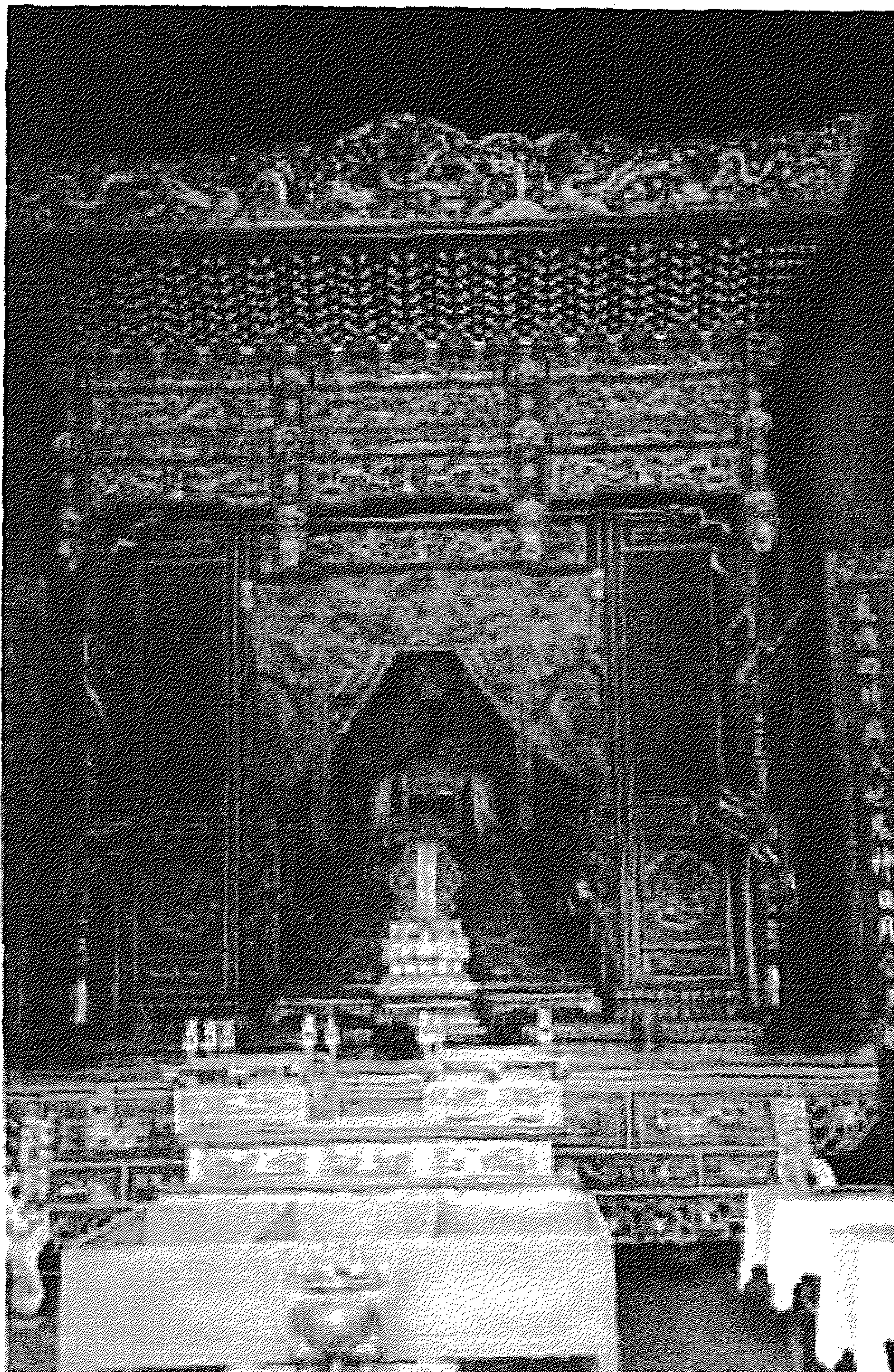
أكبر معبد كونفوشيوسي في العالم وكتب في الأعلى (الفوز العظيم) يقع في مدينة (تشي فو)



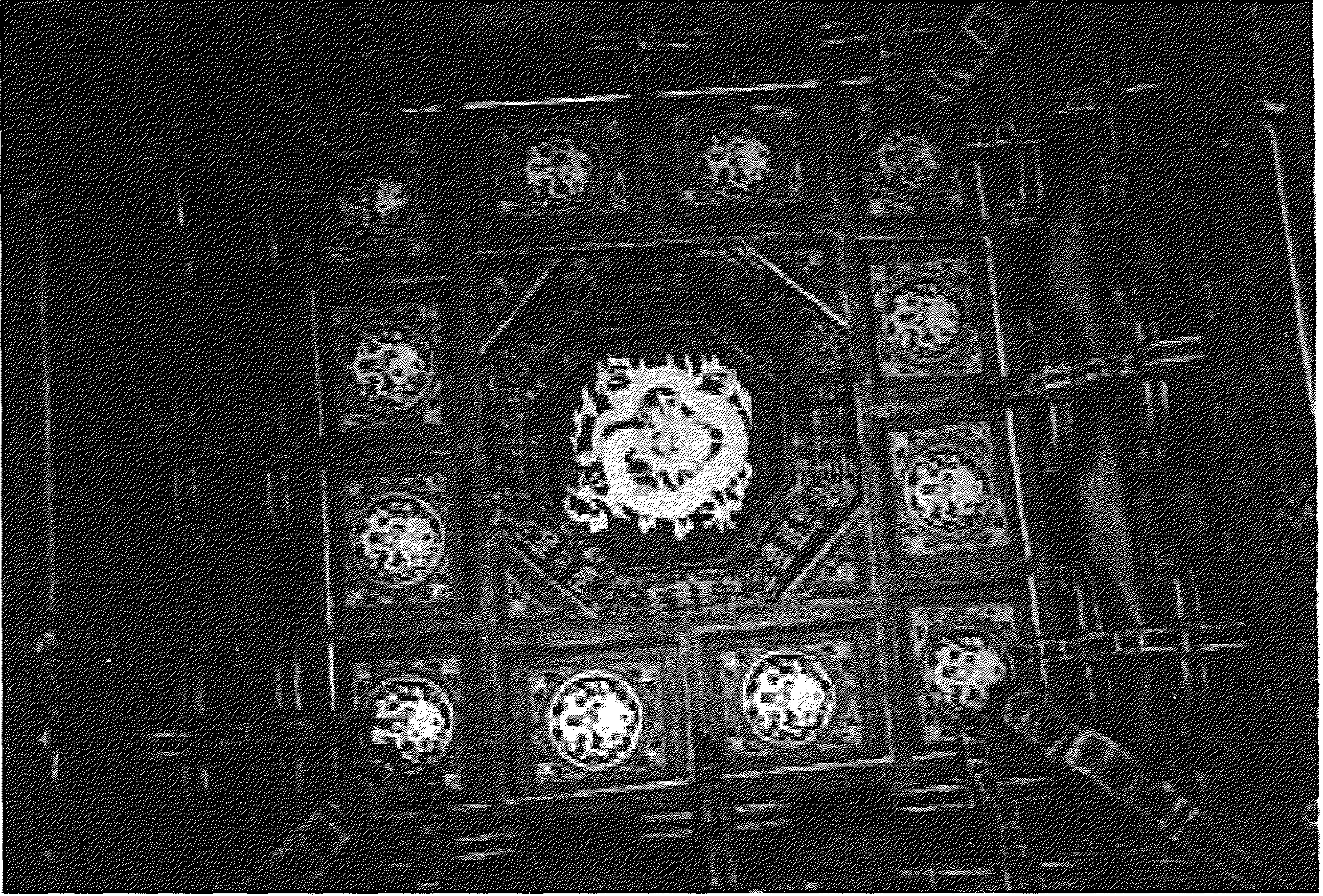
المنزل الذي كان تسكنه أم كونفوشيوس أيام ولادته في أعلى التل



الكهف الذي ولد فيه كونفوشيوس وقد وضعوا بجواره لوحة رخامية تدل عليه



تمثال كونفوشيوس داخل معبده في (تشي فو)



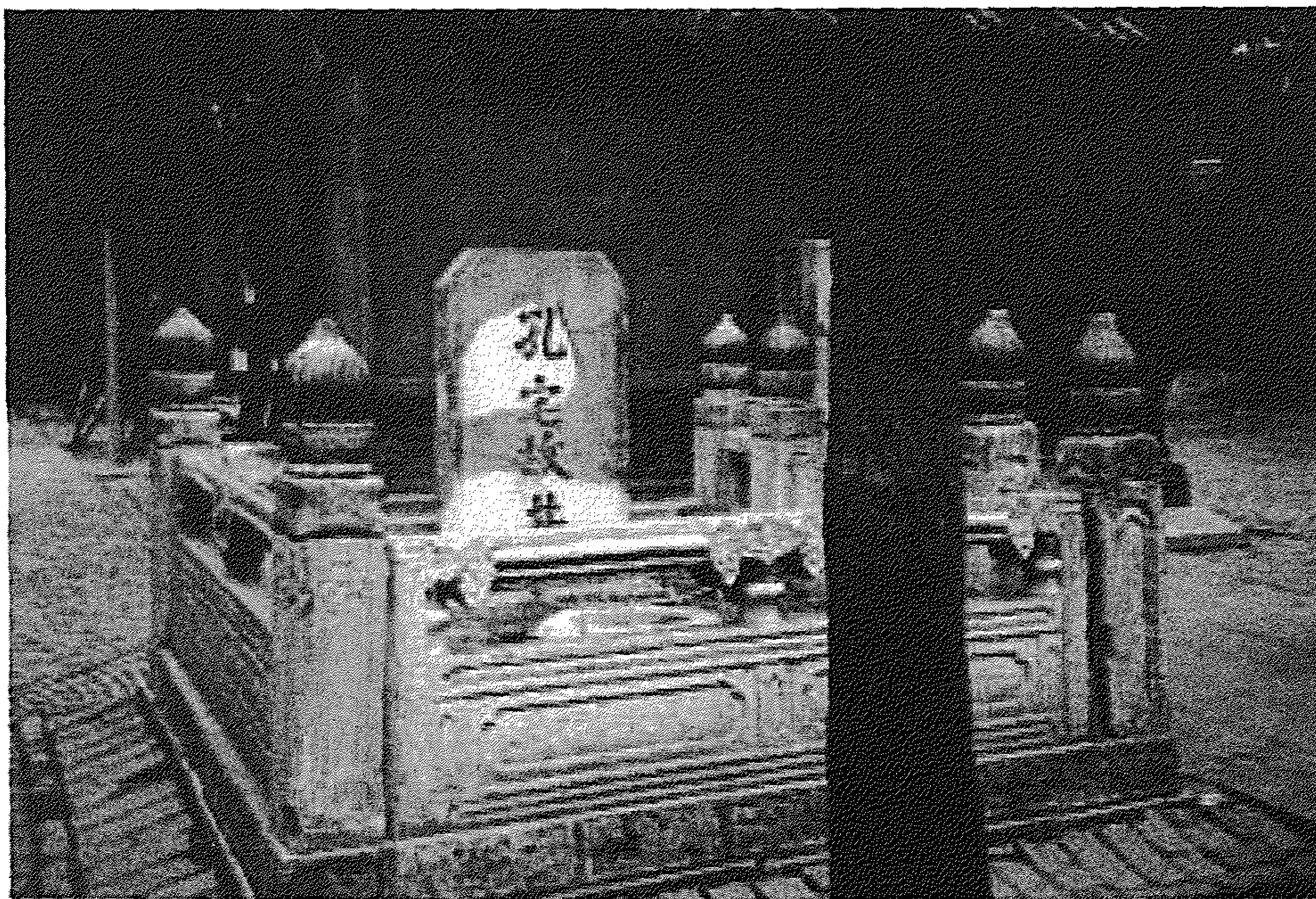
سقف المعبد مزين بالألوان ومنحوت عليه صور حيوان اللو



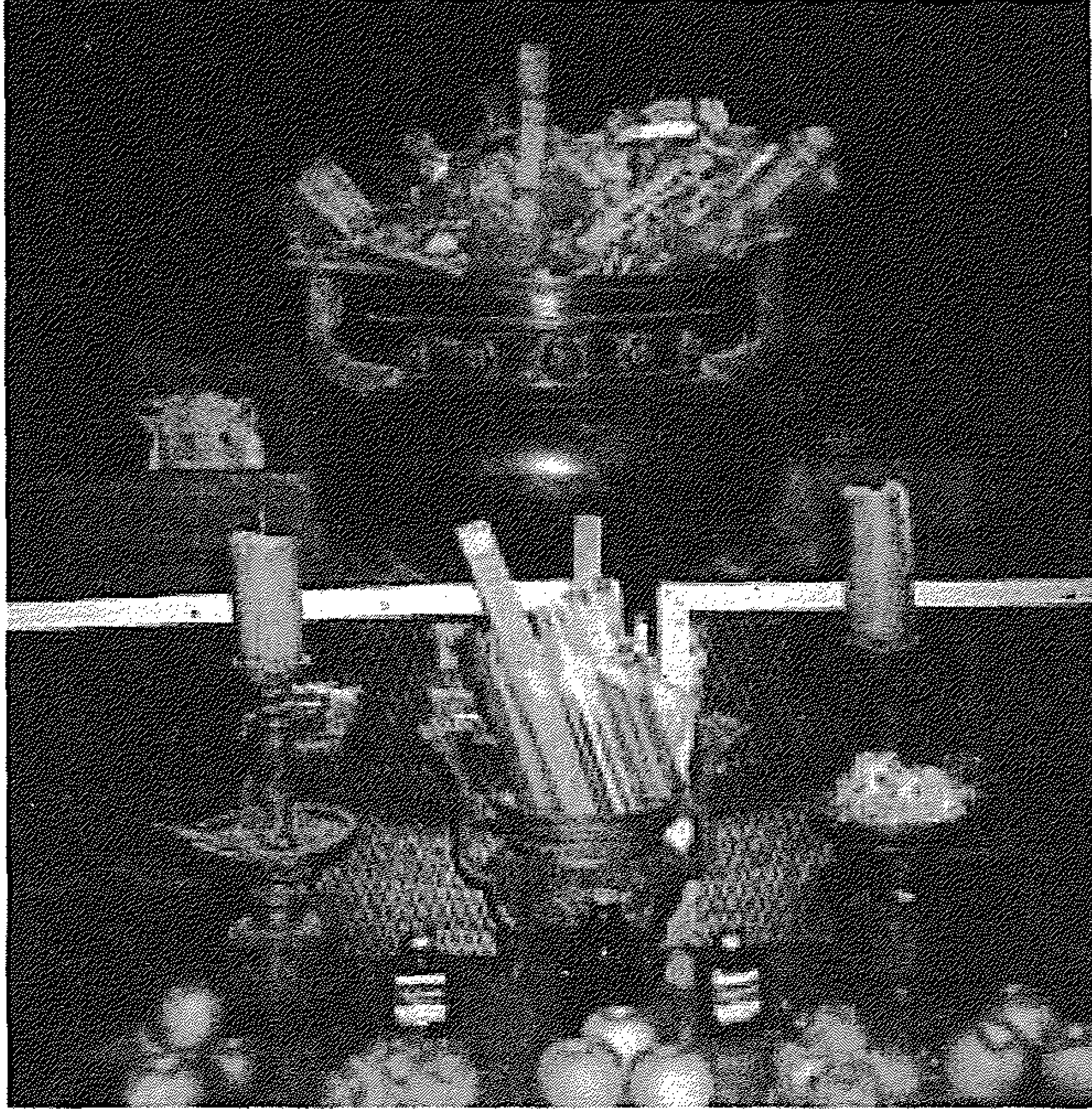
مذبح المعبد والذي تذبح فيه الخراف وغيرها في عيد ميلاد كونفوشيوس كل عام



مكان إحراق الهدايا التي تقدم لروح كونفوشيوس في عيد ميلاده كل عام



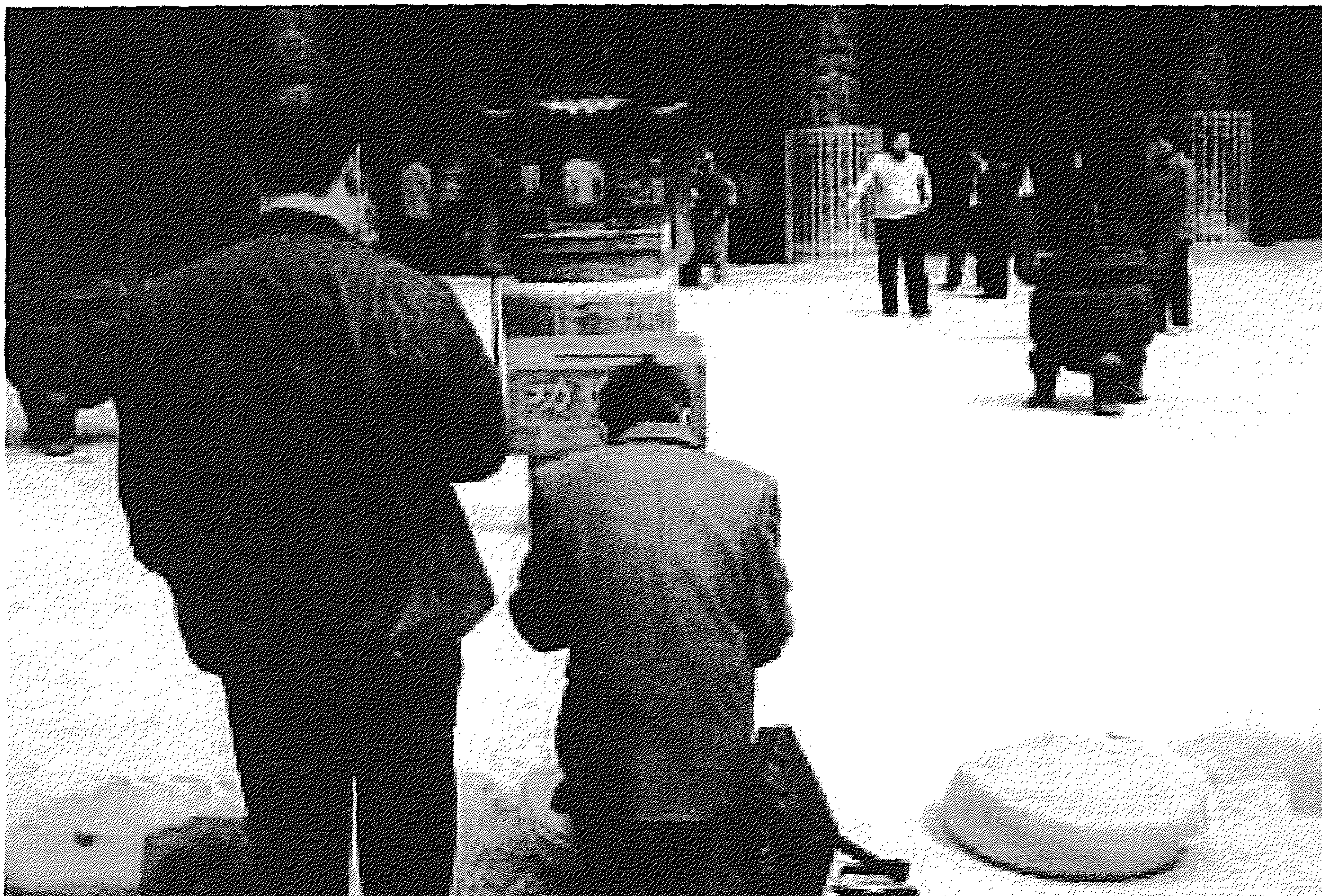
البئر التي كان يجلب منها الماء لمدرسة ومنزل كونفوشيوس



الفواكه والبخور المقدمة تقرباً في معبد كونفوشيوس في بكين



قبر كونفوشيوس وبجواره لوحة من الرخام كتب عليها عبارات التبجيل



يتعبد بعد أن وضع البخور (معبد كونفوشيوس - تشي فو)



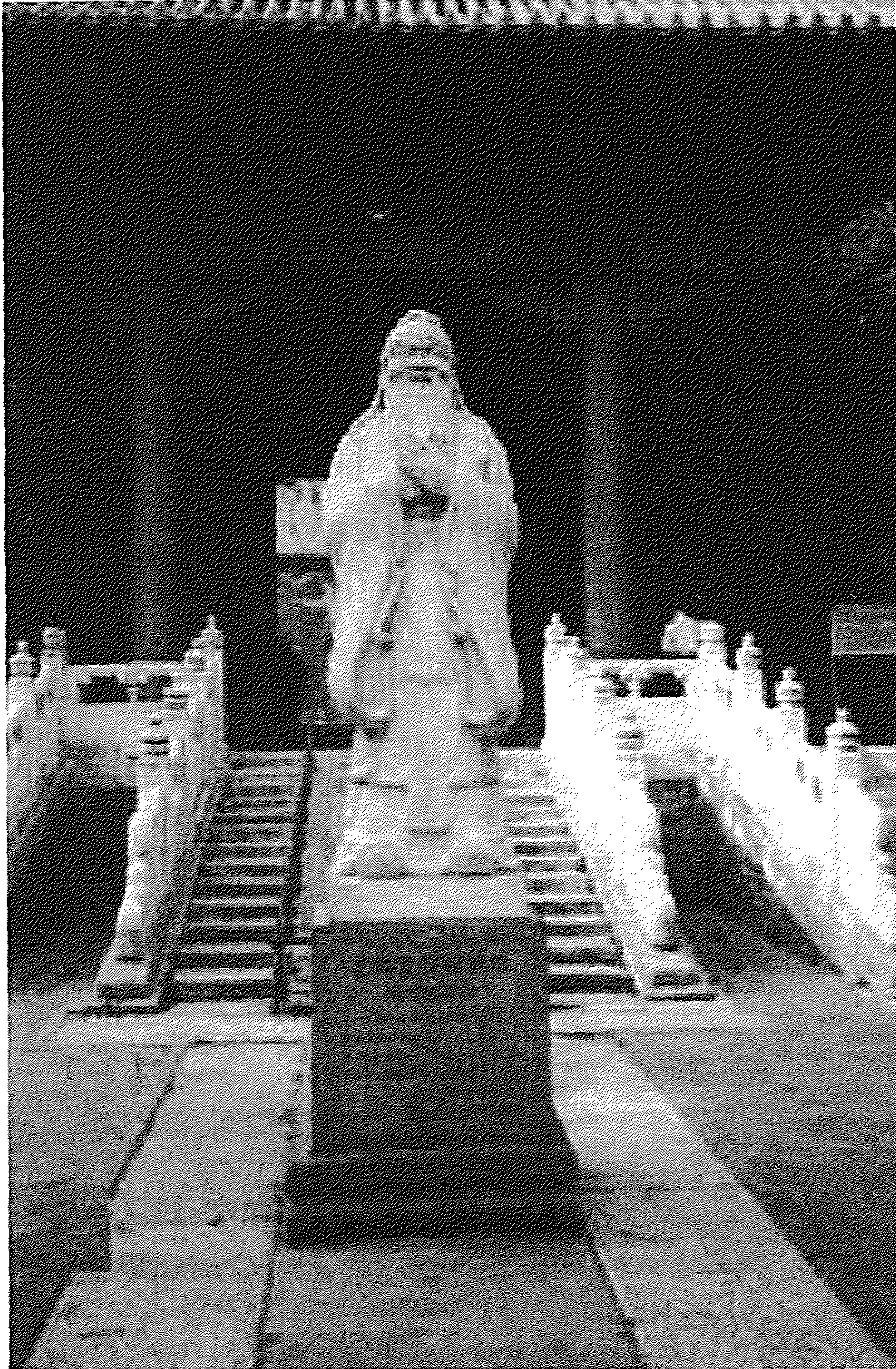
يجثو على ركبتيه للتعبد بعد أن وضع البخور في المكان المخصص (معبد كونفوشيوس - تشي فو)



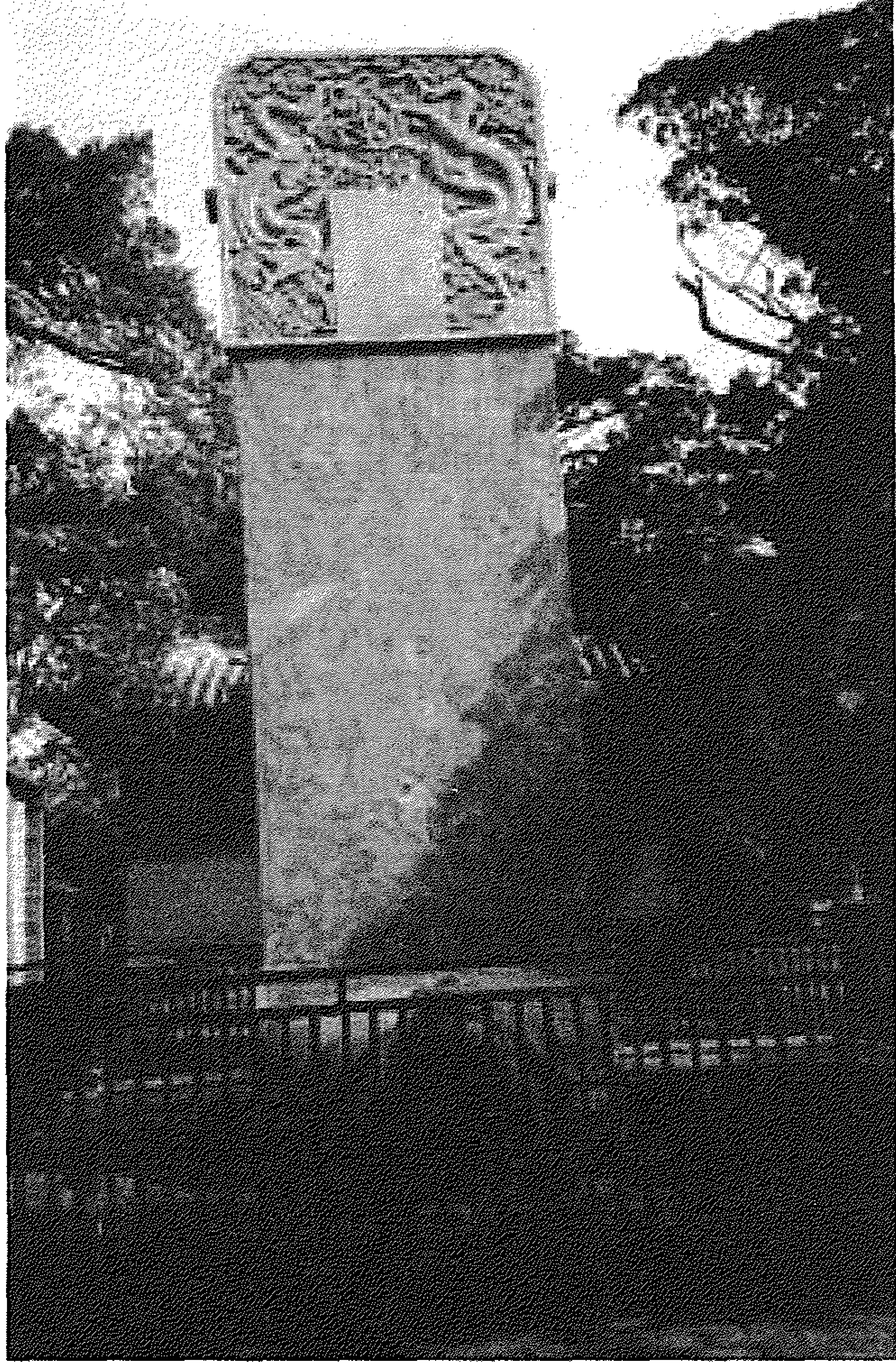
عجوز يجثو على ركبتيه وانحنى برأسه أمام قبر كونفوشيوس، وقد ذكر أنه الحفيد الثالث والسبعون له



وضع البخور في محرقة المعبد وهو من طقوس العبادة (معبد كونفوشيوس - تشي فو)



تمثال كونفوشيوس في مدخل معبده في بكين



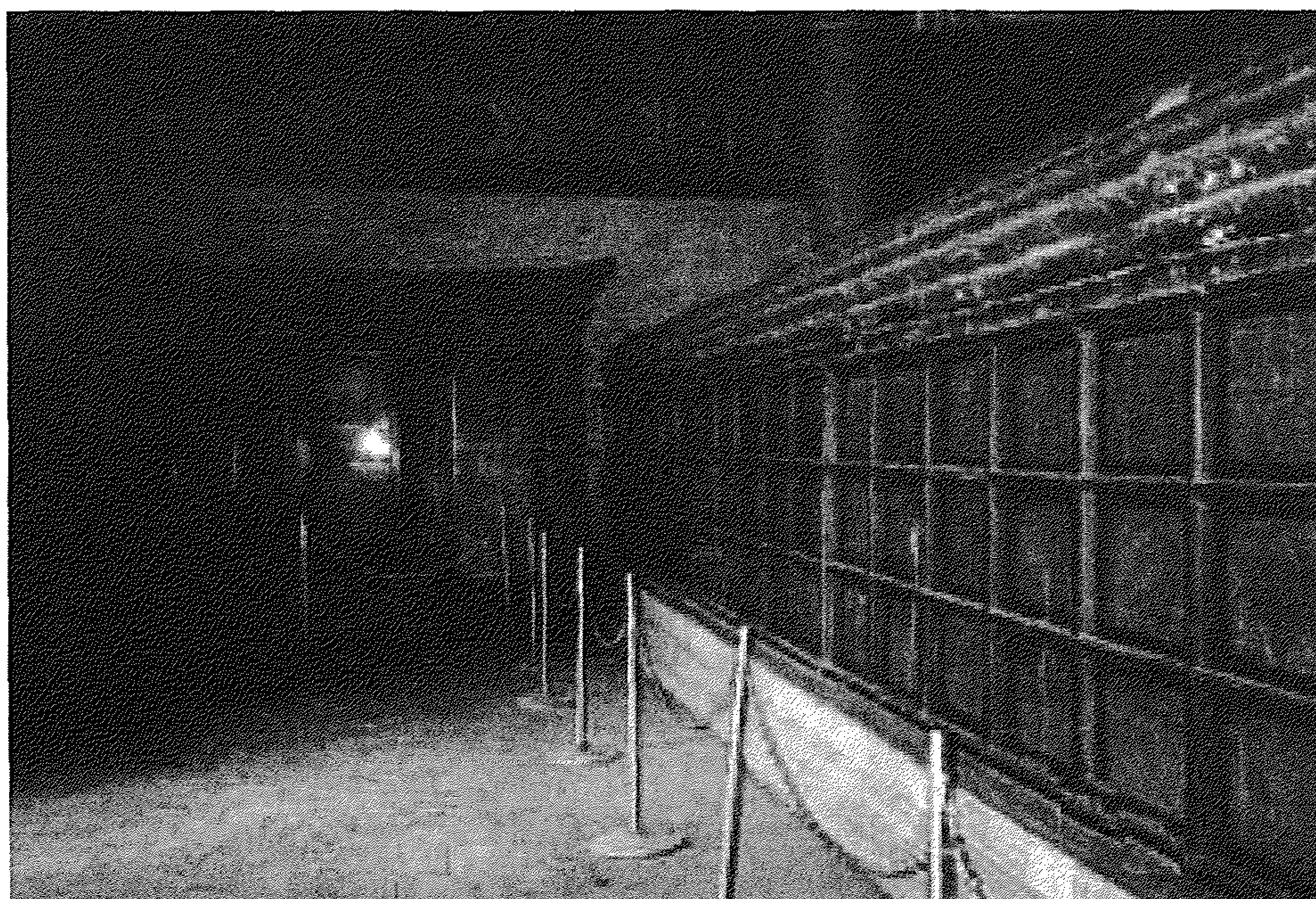
أحد أعمدة الرخام المزخرفة والمنحوت عليها حيوان (البيشي)
وهي إهداء للمعبد من أحد الأباطرة في الصين



معبد كونفوشيوس في (تشي فو)



تمثال كونفوشيوس في جامعة المعلمين بمدينة تشي فو مسقط رأس كونفوشيوس



ألواح من الرخام كتب عليها بعض حكم وتعاليم كونفوشيوس محفوظة في قاعة فناء المعبد في (تشي فو)



جزء من الجدار الذي أخفى فيه الكونفوشيوسيون بعض كتبهم في عهد الإمبراطور (تشن)



مركز كونفوشيوس الحضاري (متحف) تشي فو



الحفيد الثالث والسبعون لكونفوشيوس مع المؤلف (مقبرة كونفوشيوس في تشي فو)



المؤلف مع مدير مركز الدراسات الكونفوشيوسية في جامعة المعلمين في تشي فو



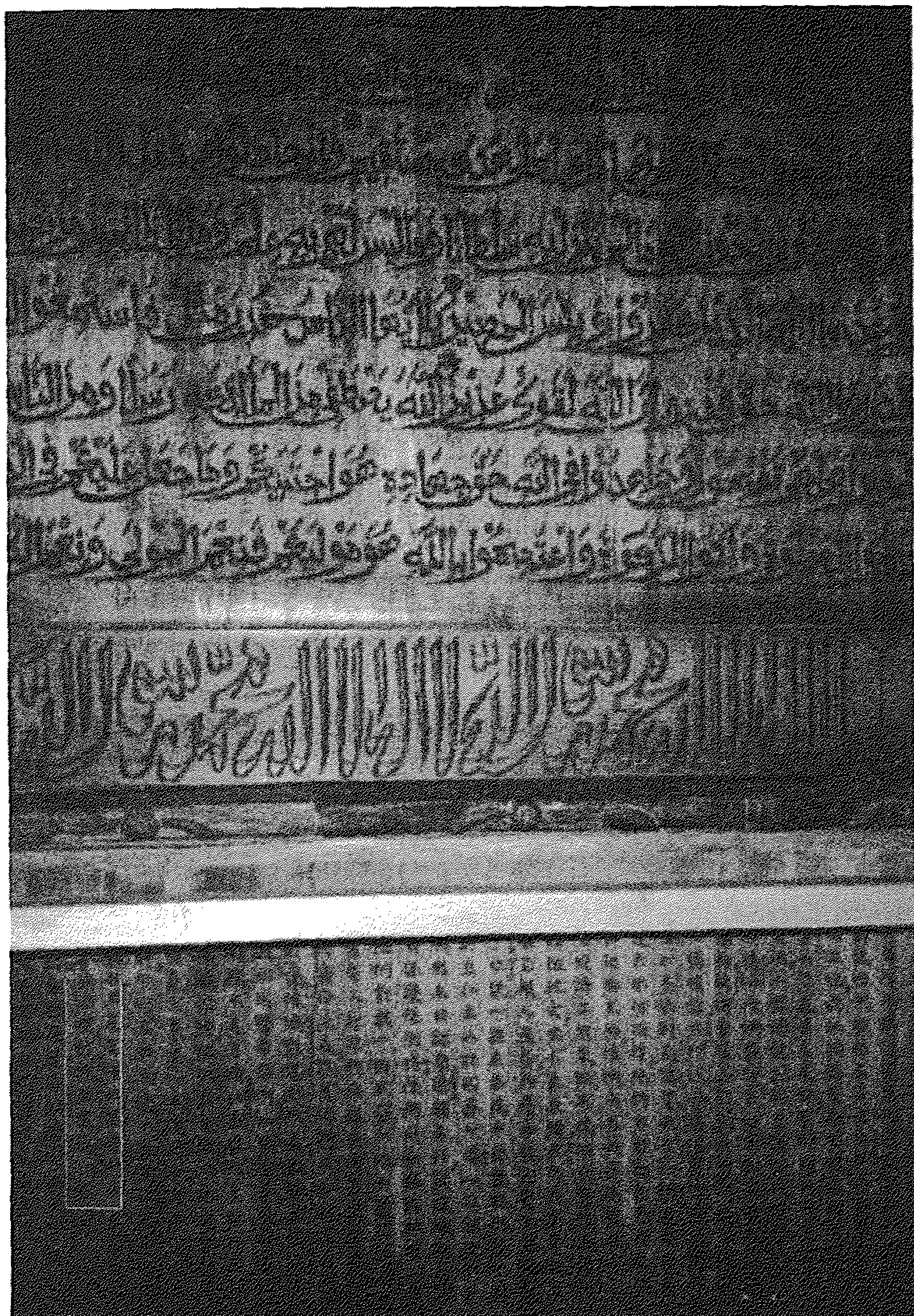
الجامع القديم الكبير في (شي آن) من داخل الفناء التابع له



البوابات القديمة في فناء الجامع الكبير في (شي آن)



آيات من القرآن الكريم على جدران الجامع الكبير في مدينة (شي آن)



آيات من القرآن الكريم تمت كتابتها بالحفر على الخشب على جدران الجامع الكبير
في مدينة (شي آن) ويلاحظ في الأسفل الترجمة باللغة الصينية



مراسم تشييع جنازة أحد المسلمين في الجامع الكبير في شي آن



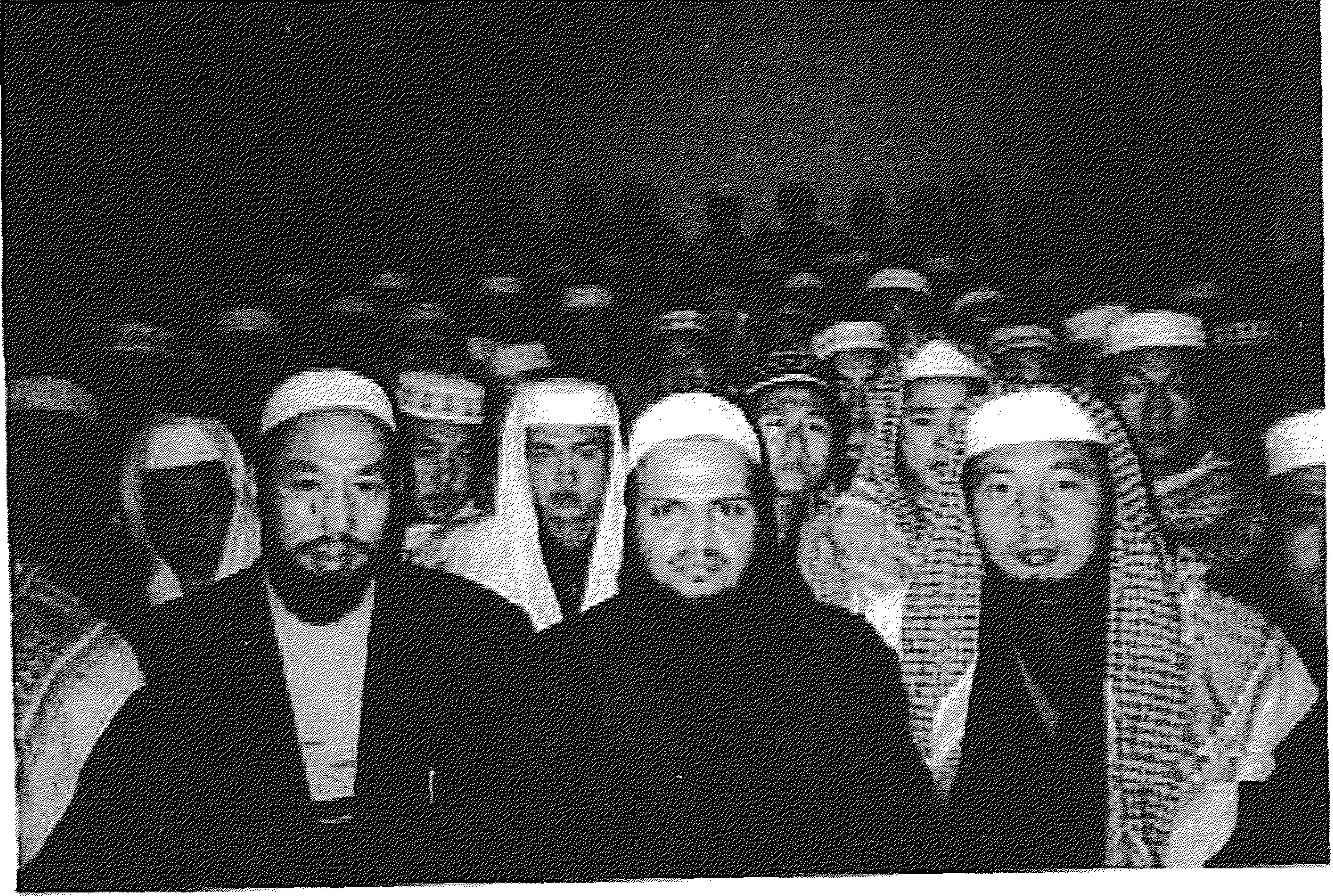
قراءة القرآن على روح الميت وقد لحظت وجود عدد من البدع في تشييع الجنازة



المؤلف في لقاء مع الشيخ بهاء الدين. وهو من أعلام المسلمين في الصين في الوقت الحاضر



المؤلف مع شيخ وأساتذة معهد الدراسات الإسلامية في لينشيا



المؤلف يتوسط بعض معلمي وطلاب المعهد الإسلامي بجوار الجامع الكبير في لينشيا



المؤلف في لقاء مع الشيخ محمود يوسف أحد علماء المسلمين البارزين في الصين

هذا الكتاب

هذا الكتاب.. يبين حقيقة الديانة الكونفوشيوسية بكل ملامحها ومعتقداتها وأفكارها ومظاهر العودة إليها في الصين، ويبين موقفها من الإسلام والمسلمين وما ينبغي لهم أن يقوموا به تجاه ذلك، خصوصاً مع ظهور الصين على المستوى العالمي هذه الأيام.

وكانت أهم النتائج:

- أن الكونفوشيوسية إحدى الديانات الصينية القديمة، وليست فلسفة أخلاقية كما أشيع عنها مؤخراً، وهي تجدد نفسها اليوم باسم (الكونفوشيوسية المحدثة المعاصرة).

- أن هناك قصوراً واضحاً في العالم الإسلامي والعربي في دراسة الحضارة الصينية وأديانها وفلسفاتها والتي تعد من أعرق وأضخم الحضارات القديمة.

- أن الإسلام هو الدين الحق ورسالته عالمية وهو رحمة إلهية وفي للحياة في جميع جوانبها وهو الدين الذي ختم الله به الأديان و الله من أحد سواه.

ردمك ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٣٢-٢٤-٤